

رواية

مدن الملح - الأخدود

«... هكذا كانت موران عبر مئات السنين. صحيح أنها كبرت واتسعت في بعض الفترات، ثم تراجعَت وصغرت في فترات أخرى، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة.»

«... أما الذين حكموا موران وما حولها فكانوا يخافون هذه المدينة أكثر مما يحبونها، وكانوا دائماً يتوقعون أن تنشق الأرض فجأة وتأتي على كل شيء، وهذا التوقع الذي ملأ الحكام منذ أن وُجدت موران، وإن لم يدركوا له سبباً واعياً، ملأهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً: أن يعيشوا ليومهم، أن لا ينتظروا الغد، لأن الغد، أغلب الأحيان، لا يأتي. هذه الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى مهل جعلت موران دائمة التوقع، تنتظر ولا تمل من الانتظار، وكانت عيون الناس لا تفارق قصر السلطان، أياً كان هذا السلطان.»

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

هدية الى اسرة مفتدى ليلاس مع التحية
www.liilas.com/vb3

مدن الطيح - الأندلس

رواية
عبد الرحمن منيف



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن منيف
رواية
مدن الملح
الأخـدود

المؤسسة
العربية
للدراسات
والفنون

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلوس - ساحة التحرير - ط ١ / ٨٠٧٩٠٠
بيروت - ص.ب. ٥٤٦٠ / بيروت

الطبعة الثانية ١٩٨٦

بدأت موران في تلك الايام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل ، وكأنها لا تنتظر شيئاً ، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً او بقية من ترقب ، وترى في هذا السكون حذراً مخادعاً ، اذ لا بد ان ينتهي فجأة وكأنه لم يكن ، ولذلك ، ودون اتفاق او تدبير ، شارك الجميع في هذا الصمت ، وجعلوا لحركتهم البطيئة الموزونة طابعاً من الحفاء المشوب بالتآمر ، وبالغوا في ذلك اشد المبالغة ، لان خطأ ايأ كان سببه او مصدره لا بد ان يعكر الكثير، وقد يخلق صعوبات ليس من السهل معالجتها .

ف وفاة السلطان خريبط التي بدأت بنظر الكثيرين مفاجئة ومذهلة ، او كأنها كارثة من كوارث الزمن لا يمكن ردها او احتمالها ، كانت في الحقيقة منتظرة ، بل ومتوقعة بين يوم وآخر ، بعد ان انتشرت اخبار مرض السلطان ، ثم العمى الذي اصابه ، وتلك الاشاعات التي بدأت تتسرب عن خرفه . لقد استبطناً بعض الناس الوفاة ، واستغرب غيرهم انها لم تقع في وقت سابق ، أما بعد ان وصل الدكتور صبحي المحملي الى موران ، وما رافق وصوله من ضجة وهمس وتساؤل ، وتلك الحركة النشيطة بين قصر الروض وصيدلية البكري ، فقد تأكد الكثيرون ان الوفاة اصبحت وشيكة تماماً ، خاصة بعد أن نقل اليهم ما قاله حمود الكايد الذي يعمل في الصيدلية ، فقد ذكر لأثنين من أقاربه ، جاءا للتو من الرحبية طلباً لعلاج ينقذ ابن الشيخ محيسن الذي « ملأت الديدان جوفه وطلعت من اذانه » واكد ان بذور اليقطين التي التهمها الصبي تكفي لاطعام حصان ابن ستين ، لكنها لم تفده . ذكر حمود للرجلين ، وهو

صمم الغلاف : ضياء العزاوي

لم يكن حمود بحاجة لان يسأل، ولم تكن عادة معلمه ان يجيبه بهذه الطريقة ، اذ لو صبر وانتظر دقيقة اخرى لجاءه الجواب ، لان ابا بكرى لا يستطيع ان يحتفظ بالسر اكثر مما يحتمل الاحتفاظ بالشهيق او الزفير في صدره ، خاصة وان جميع من في السوق توقفوا واطالوا النظر الى الصيدلية ، وراقبوا باهتمام دخول الدكتور صبحي ومعه مرافقو الامير خزعل وحرسه الخاص ، وما تولد نتيجة ذلك من خوف واهتمام . أما حين خرج صوت ابو بكرى بطيئاً حزيناً :

- الله يشفيه ويطول عمره . . .

فان هذا الجواب جعل حمود واثقاً متأكداً من استنتاجه . قال للرجلين اللذين دخلا من جديد من اجل اخذ العلاج :

- الحقوا وليدكم ، يا جماعة الخير، قبل ما ياكله الدود .

واضاف بعد قليل بهمس وهو ينحني قليلاً لكي لا يسمعه غيرهما :

- ما اظنهم يلحقون العود!

اضطرب الرجلان قليلاً وتلفتا ، أما وهو يخرج معها ، فقد قال بوضوح

شديد :

- الدواء اللي اخذوه ماله فائدة غير كركرة المصارين . . .

تطلع الى السماء وهو يضيف كأنه يكلم نفسه :

- والعود اذا عاش اليوم يودع عقبه . . وتشوفون !

تأخر الرجلان في موران ، ومع كل ساعة تمر تزايد الاخبار حول الانهيار الكامل في صحة السلطان ، ومع تزايد الاخبار تختلف الروايات ويكثر الرواة ، حتى ان ما ذكره الرجلان ، نقلاً عن حمود الكايد ، لم يعد يعني شيئاً في وقت لاحق ، لان الكثيرين افترشوا الارض ، غير بعيد عن قصر الروض ، وراقبوا كل داخل وكل خارج ، واهتموا باصغر الحركات واكثرها خفاء ، بل وتحدثوا في بعض الامور بصوت عالٍ . أما صيدلية البكري التي ظلت موضع اهتمام ومراقبة ، لان ادوية جديدة جيء بها من المستودع ، ولان صادق وحمود تعاونوا

شبه واجم ، ولا يسمع ما يقولانه ان « العود يقضي الليلة . . . وابتعد تقدير باكر » . وقد تأكد له ذلك من مجيء الدكتور صبحي مرتين الى الصيدلية، وما رافق مجيئه من اهتمام وحركة ، اضافة الى عدد المرافقين والحرس ، وقد لجأ هؤلاء الى اخراج جميع الذين كانوا في الصيدلية لكي « يصفى بال الدختور وما يغلط » . وصادق البكري ، صاحب الصيدلية ، الذي لا يسمح عادة لاحد ان يتجاوز مسافة معينة ، او الاقتراب من الواجهات الزجاجية ، والذي لم يسمح لحمود نفسه بالدخول الى غرفة تركيب الادوية ، الا بعد ان مرت فترة طويلة على استخدامه ، وبعد ان راقبه بعين ذئب، وتأكد من كل شيء ، افسح صادق البكري المجال لا شعورياً ، وامتدت يده تدعو الداخلين ان يتقدموا الى ما وراء الواجهة الزجاجية . ثم قضى مع الطبيب وقتاً غير قصير في غرفة تركيب الادوية . وطوال الوقت الذي استغرقه وجود الطبيب في الصيدلية بدا الاستاذ صادق خائفاً مسلوباً ، مما ادى الى وقوع عدة اخطاء ، آخرها سقوط زجاجة زرقاء كبيرة ومخطمها ، وقد سبب له هذا خجلاً وكدرأ فتصيب منه العرق وهو يعتذر . أما بعد ان خرج الدكتور صبحي فقد رافقه الاستاذ صادق ، متقدماً المرافقين والحرس ، وظل واقفاً عند باب الصيدلية ، حتى بعد ان غابت السيارات وانعطفت نحو اليمين .

حمود الكايد وهو يساعد في اعادة ترتيب الادوية حاول ان يحزر الحالات والامراض التي تستعمل تلك الادوية في علاجها ، لكنه لم يتوصل الى تحديد يطمئن اليه ، وان كان قد قدر خطورة المرض وخطورة وضع المريض . أما حين بدأ معلمه باعداد فاتورة تختلف عن اية فاتورة سابقة ، اذ كتب في وسطها بخط واضح معتنى به : « القصر » ، فلم يبق شك ان الدواء يعني السلطان بالذات ، فلما مال حمود عليه وسأله بهمس :

- عمي . . من هو المريض ؟

فوجيء الاستاذ صادق بالسؤال ، وقد اخبره من تأمله وانشغاله ؛ مد شفته السفلى ، وقال دون ان ينظر اليه :

- اهتم بشغلك ؛ يا ابني ، وما عليك من غيره !

بهمة كبيرة من اجل تنظيف غرفة تركيب الادوية ، وتم نقل اشياء من هذه الغرفة الى مكان امين وبعيد عن الانظار ! وقد كانت هذه الاجراءات ضرورية للغاية ، لان ما توقعه صادق البكري قد حصل ، اذ عاد الدكتور صبحي الى الصيدلية من جديد ، وبعد ان راجع بعناية كبيرة صنوف الادوية ، وتطلع الى الكتاب الذي استخرجه الاستاذ صادق من درج الطاولة الخلفية التي يجلس وراءها في ساعات الراحة او اثناء استقبال احد الاطباء . بعد ان قام الاثنان بهذه المراجعة ، ولم يجد الطبيب الدواء الذي يريده اضطر الى تركيبه ، وفي مرة ثانية واخيرة جاء الطبيب في الليل المتأخر ، بصحبة صادق ، وعلى ضوء مصباح يدوي واعواد الثقاب تم تناول زجاجة كبيرة زرقاء ، نقلت بسرعة الى القصر . لكن كل شيء كان متأخراً وغير مجد .

ففي صباح اليوم الثالث صدر عن قصر الروض البلاغ التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » صدق الله العظيم .
واعلنت وفاة السلطان خربيط .

بهذه الطريقة جاءت نهاية السلطان خربيط ، وهكذا اعلن عنها . ومع ذلك فان الحزن امتزج بالانتظار ، وسرعة الدفن ترافقت مع سرعة الاستعداد لتنصيب الامير خزعل ومبايعته ، لان الخوف كان كبيراً ان يختلف الاخوة بعد وفاة السلطان ، خاصة وان احاديث كثيرة بدأت تنتشر في الأيام الأخيرة حول الوصية ، وما يحتمل ان يكون قد طرأ عليها من تعديل ، وهذا ما جعل موران تعيش حالة من الخوف والترقب .

أما الدكتور صبحي الذي زار موران عدة مرات من قبل ، ولم يلفت نظر الكثيرين ، وكانت تلك الزيارات جميعها بدعوة من الامير خزعل ، فقد ظهر في هذه الزيارة شخصاً مختلفاً ، بل وخطيراً ، لان العيون كلها كانت تراقبه وتتابعه ، ولان حياة السلطان كانت بين يديه . حتى محمد عيد الذي ظل في حران خلال هذه الفترة ، والذي لم يتبادل مع الدكتور ، بعد عودته ، الا كلمات قليلة ، ما لبث ان فاض في الحديث عن الساعات الأخيرة للسلطان ، فقص كيف انه تحسن وعادت اليه صحته نتيجة الادوية وطريقة المعالجة التي اتبعها الدكتور صبحي ، لكن الاطباء الذين تناوبوا على معالجته من قبل ، والاشياء التي ارتكبوها لم تترك له الفرصة ! ومع ذلك فقد قضى السلطان براحة ودون آلام ، وفي الصحوة الأخيرة ، والتي سبقت الوفاة بساعة كاملة ، طلب من الدكتور اعادة قراءة الوصية ، وقد ورد التأكيد فيها ثلاث مرات أن يكون بعده الامير خزعل سلطاناً ، بعد ان قام الدكتور بقراءة الوصية ، وقد طغت اثناء قراءتها حالة من الحزن الشديد ، وانهمرت دموع الكثيرين دون

الظلال الحادة القائمة، او تشبه لحية رجل هارب ، خاصة وان الشعر في وجهه قد طال على شكل بقع صغيرة غير منتظمة .

كان لوصول الدكتور على رأس وفد كبير من حران وقع غير عادي ، والذين قالوا اول الامر انه حمل معه كميات كبيرة من الفلوس وسافر بها الى حران ، خوف ان تسرق هنا او تضيع ، رفضوا ان يصدقوا عودته ، بل انكروا ان يكون هو نفسه ذلك المجهول الذي يتعثر في ثيابه كالمطهر . أما حين قربه الامير خزعل ، مع اثنين من اهل حران ، وهمس في اذنه بضع كلمات ، هز الدكتور رأسه عدة مرات دلالة الفهم والموافقة ، والتفت اكثر من مرة ، كأنه يبحث عن شيء او احد، فبدت صفحة وجهه واضحة ، فقد تأكد الذين شكوا في الامر ان الذي يرونه غير بعيد عنهم هو الطبيب نفسه . أما ما تلا ذلك ، وخلال الأيام اللاحقة ، حين بقي الدكتور في موران ، وظل مرتدياً الملابس العربية ، والتي اخذت في هذا الطور نسفاً اكثر انتظاماً ، وبدت اكثر ملاءمة له ، ثم ذلك التشذيب وتلك العناية اللذين ادخلها على لحيته ، فاصبحت قصيرة مقصوصة فاحمة السواد ، في وجه شديد البياض والحمره ، فبدا انيقاً اناقة مفرطة . . عندما اخذت الاحوال هذا المنحى تشاءم الكثيرون وقدروا ان اموراً خطيرة ستجري ، وان عهداً جديداً قد بدأ .

قال فرحان المدلول الذي يصب القهوة للامير ، وقد تلفت عدة مرات قبل ان يتكلم ، وكان الحديث يجري عن الدكتور صبحي :

- اصبروا يا جماعة الخبير ، طولوا بالكم . . قصر الروض شاف قبله كثيرين ، لكن ما بقي منهم احد !

واضاف بعد قليل ، وكأنه يتذكر :

- وحدر رجلينا عظام كثيرين منهم !

أما لماذا نظر الرجال الى الدكتور هذه النظرة ، ولماذا ظنوا به الظنون فان عدداً منهم يتذكر زيارة الامير خزعل الى حران ، وكيف ان هذا « العفريت » دخل الى قلب الامير خلال ساعات ، وليس خلال أيام ، كما لم يحسن الى واحد منهم ، رغم انهم في خدمته منذ سنوات . ويتذكر اخرون السيارة

رغبة منهم او دون ارادة ، ختمها السلطان بخاتمه ، ووقع الدكتور صبحي الوصية بصفته شاهداً ومحراً .

هكذا روى محمد عيد قصة مرض السلطان وموته ، لكن ما لبث ان اخذ يعدل فيها ويضيف اليها مرة بعد اخرى ، فانتشرت في حران روايات كثيرة عن كيفية موت السلطان ، وما يحتمل ان يكون قد حصل خلال الساعات الأخيرة . وموران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت ، لم ترتج ولم تفهم لماذا غادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث . كان يفترض ان يبقى ، ان يقف الى جانب الامير خزعل ، بحكم الصلات والمودة التي تربطها ، وان يتصرف بطريقة مختلفة عن الاغراب ، وتلك الوفود التي كانت تصل موران فتقضي يوماً او بعض يوم ، لتقدم العزاء ، ثم تعود من حيث اتت .

حين غادر الدكتور صبحي موران بشكل مفاجيء قال عدد من رجال الامير خزعل : « الرجل عمته الفلوس ، وهذه الفلوس راح تذبحه في يوم من الأيام » ولم تفهم هذه الاشارة ما اذا كانت تعني الاموال التي يحتمل ان يكون قد حصل عليها نتيجة قيامه بمعالجة السلطان خريبط ، او حرصه على العودة المبكرة الى حران ليتابع اعماله هناك . أما زيد الهريدي الذي ظل واقفاً الى جانب منيارة الدكتور ، وتحدث معه لفترة غير قصيرة ، فلم يسمع تماماً ما قاله الرجال ، وحين سألته مساعدوه وبطريقة لا تخلو من التعريض ، عن سفر الدكتور ، فقد ابتسم وهز رأسه أسفاً ، لان احداً لا يعرف ولا يقدر ! أما حين عاد الدكتور في صبيحة اليوم السابع ، ومعه وفد كبير من حران ، فقد بدا انساناً مختلفاً لكل من رآه : فالملابس الافرنجية التي كانت تميزه ، من قبل ، عن الكثيرين حوله ، وكان يحرص على اختيارها بالوان زاهية ، ويحرص اكثر على نظافتها واناقتها ، تخلل عنها لاول مرة في هذه الزيارة ، بل وبدا مثل دمية في الملابس العربية التي غرق فيها ، وكانت فضفاضة واسعة ، ولا يحسن كيف يألفها او يتعود عليها ، خاصة اثناء السير ، وكاد يعثر ويقع اكثر من مرة . أما اللحية التي تركها تنمو وتكبر خلال الأيام الماضية ، فلم تصيح ، بعد ، لحية مطمئنة مستوية مثل اللحي الكثيرة التي للآخرين حوله ، وليست مجرد ذقن طالت ولم تجد الوقت لان تُلحق . كانت تحت الغترة الحمراء والبيضاء تشبه

بها واخرى غيرها ، ولم يوضح ذلك ، لكنه ابتسم ! تبدو هذه المهمات الآن مختلطة غير واضحة . قال الامير وهو ينظر الى الشاب ، ولثلا يخطىء في تحديد ما يجب ان يعمله :

- استرح هالحين ، يا وليدي ، وبعدين شوف الخويا واعمل اللي الله يقدرك عليه !

لم يفهم مطيع معنى محدداً لهذه الكلمات، أما الآخرون فقد فهموا ، بل وتأكدوا ان هذا الغريب جاء لكي يزايمهم، ليخلق لهم المشاكل ، فلذلك ظلت النظرة اليه مليئة بالتوجس والخوف ، واحس كل واحد انه يرى او يواجه خصماً او يمكن ان يكون كذلك في يوم من الأيام ، مما دفع الجميع لان يراقبوا ، ويدققوا ، ولان يعرفوا في الصمت حين يجيء او حين يسأل ، بحجة انهم « لا يفهمون ما يقول » ! ومطيع الذي لم يكن في عجلة من امره، تحمل الصمت والحرب الخفية دون ان تصدر عنه كلمة احتجاج واحدة ، بل وبالغ في الامر ، فكان يبدو هادئاً ، مرتاحاً ، وشاكراً لكل تصرف ولكل نظرة ، حتى الاصوات التي كانت تصدر عن بعض الحرس والخدم - وبايعاز من رؤسائهم بكل تأكيد - حين يمر بابهامه والسبابة على شاربييه ، وكانت تولد الضحك والسخرية ، ما كان يسمعا ، او لا يعتبرها موجهة اليه !

ظلت الامور هكذا وقتاً غير قصير ، أما حين طلب مطيع شخاشيرو من سمو الامير ان يسمح له القيام بجولة في انحاء السلطنة، لكي يتعرف على طبيعتها ومناخها ، وليكون اقدر على مواجهة الصحافة والزوار ، كما اشار في تبرير هذه الجولة ، فقد رأى فيها سموه حكمة كبيرة ، وهمة لا تعرف التعب ، فوافق على الفور . والحقيقة ان مطيع كان يريد ان يصل الى حران ، ان يلتقي بخاله الدكتور صبحي ، لكي يبحث لنفسه عن عمل عنده ، او ليدبر امره بعد ان جاء به من « الفَيِّ والمَيِّ إلى هذه الصحراء الملعونة » خاصة وأن طموحه يتجاوز كثيراً « هذه الجلسات الميتة التي تروى فيها القصة الواحدة مائة مرة ، باصوات عالية وحركات بلهاء ، دون ان تعني شيئاً أبداً . . . »

الزيارة الثالثة التي قام بها الدكتور صبحي الى موران يتذكرها الكثيرون

الخضراء التي كان يفترض ان ترسل الى امير المنطقة الوسطى ، وقد قيل ذلك همساً ، بعد وصول السيارات الثلاث والعشرين ، لكن فجأة غيّرت تلك السيارة وجهتها وارسلت الى الدكتور صبحي ، في الوقت الذي اعتقد الكثيرون انهم اولى بها منه ، او ظنوا انها ستكون من نصيبهم . ورغم ان تلك الهدية لم يعد الامير خزعل يتذكرها ، بل وبدت صغيرة ازاء الهدايا التي قدمت للدكتور في وقت لاحق ، فان تلك السيارة بالذات خلقت حسداً في قلوب الكثيرين ، وزاد هذا الحسد وتأكد بعد الزيارة الثانية التي قام بها الدكتور الى موران .

فلم يكد شهر ينقضي على الزيارة الثانية حتى وصل الى موران شاب لا يمكن تقديره عمره بدقة: مربع القامة او اميل قليلاً الى القصر، له شاربان سوداوان كثيفان ، في وجه ابيض مشرب بحمرة ، وكان ذلك الشاب كلفاً بشاربييه ، لان الابهام والسبابة في يده اليمنى اخذاً شكلاً لا يغيره ، فهما مفتوحان فتحة صغيرة ، وكأنها تدل على مقياس ثابت ، او كأنها طريق الى باطن اليد ، وكان لا يكف عن تمرير الاصبعين لينظم الشاربين .

هذا الشاب الذي وصل الى موران دون ان يتوقعه احد ، والذي اثار اسمه مقداراً من الاستغراب والسخرية ، حين قدم نفسه في قصر الروض ، وجرت اتصالات عديدة بين الحرس والمشرفين على القصر ، وقيل ان اسمه قدم الى السلطان ايضاً ، ولما انكر الجميع معرفته ، ولم يعرف بوضوح من طلبه او لاي امر جاء ، ارسل الى دار الامارة ، ومن دار الامارة ، وبعد اتصالات عديدة مرتابة ، ارسل مطيع شخاشيرو الى قصر الامير خزعل .

بعد انتظار وحيرة ، ولما ذكر للامير ان الشاب وصل بناء لطلب الدكتور صبحي المحملجي ، وقد طلب منه ان يصل الى موران بسرعة ، وان قرابة تجمع الاثنين ، بدا الامير راضياً مرتاحاً ، لكن مع ذلك ظلت المهمة التي يمكن ان يقوم بها مطيع غير واضحة او غير محددة ، اذ رغم ما اكده الدكتور من ضرورة ان يكون للامير سكرتير شخصي ، وان هذا السكرتير يمكن ان يقوم نيابة عن سموه باعمال كثيرة، فان هذه المهمات ، التي بدت مغرية وهامة حين عرضها الدكتور ، واكد ان لديه رجلاً خلق من اجلها ، اذ يستطيع القيام

في قصر الروض ، فخلالها تشرف وحظي بمقابلة السلطان وتغدى على مائدته وتبادل معه اطراف الحديث ؛ وفي هذه الزيارة تحدد بشكل كامل ونهائي وضع مطبخ شخاشيرو، الذي كان برفقة الدكتور ، وقد بدا خلال الزيارة ، ثم في الفترة اللاحقة ، وحتى وقت متأخر ، في منتهى الرضا والثقة بالنفس ، وقام بدوره على احسن وجه ، كما كان السلطان خزعول يقول ويؤكد ، حين يجري الحديث عن كفاءة الاستاذ مطبخ والدور الخطير الذي يقوم به والخدمات الكبرى التي قدمها للسلطنة وللسلطان بالذات .

الوقائع التي رافقت المرحلة الاولى من اقامة مطبخ في موران غابت وتراجعت في ذاكرة الكثيرين ، حتى القرابة التي تجمعها بالحكيم لا تعني شيئاً مهماً ، ما دام الحكيم بعيداً في حران ، أما بعد ان جاء ليستقر ويبقى فقد بدأت تستيقظ المخاوف والشكوك .

الآن ومطبخ مرتبك امام الضيوف الثلاثة الذين استدعاهم الى قصر الغدير ، لا يعرف كيف يبدأ الحديث ، قال لكي يفسر حزنه على وفاة السلطان :

- كان ابا لنا جميعاً . كان يعطف على الصغير والكبير
توقف قليلاً ثم اضاف بلوعة :

- اذكره قبل وفاته باسبوع واحد : كان رحمه الله يستمع الى القرآن والدموع تتساقط من عينيه ، كانت تتساقط على خديه وعلى لحيته ، ولم يمد يده الكريمة ليمسحها !

وتنفس بعمق وحسرة ثم تابع :
- خسارته كبيرة ، اكبر من ان تعوض ، لكن علينا ان نصبر ونتنظر اليوم الذي نلحق به الى جنات الخلد !

رد شمران بسخرية غير ظاهرة :

- على خيرة الله . . . اللي يريد السطان يصير !

وخيم الصمت من جديد . كان الطرفان يدركان ان هذا الكلام تمهيد لما سيأتي بعده ، او أنه تمرين قبل ان يقال الشيء الجددي او الشيء المطلوب . قال فهيد العليان ليغير الجو او ليعطيه اتجاهاً جديداً :

- اذا ما وقع المطر مرة او مرتين من هالحين الى رمضان اظن ان الناس كلها راح تشرق او تموت . .

قال ابو نمر بسخرية مبطنة :

- وكل الله يا رجال . . بجية طويل العمر الخير كله يبي !

قال مطيع ، وقد احس ان الامور بدأت تفلت منه :

- كل شيء بارادة الله ، يا جماعة الخير ، واظن ان الأيام القادمة ستكون ايام خير .

ولم ينتظر جواباً او تعليقاً ، اضاف بلهجة جديدة :

- يا جماعة الخير صاحب الجلالة السلطان كلني ان اقبالكم وله طلب عندكم . . .

نظروا اليه ونظروا في وجه بعضهم بعضاً ، وظلوا صامتين منتظرين :

- جلالته يريد ان يكون الدكتور صبحي قريباً منه ، وان تكون المستشفى الجديدة غير بعيدة . . . والارض غرب قصر الغدير للشيخ شمران ، هذه الارض نريدها ، واي مبلغ تريده يا ابو نمر ندفعه !

توقف لحظة ، غير جلسته ، التفت قليلاً ثم اضاف :

- والارض بين الحاووز والسوق ، او ذيك بين السور وعطفة الدليعي نريد نعلم بها مستشفى ، اكبر مستشفى في موران ، تداوي كل الامراض ويدخلها كل الناس . . . فما قول الرجال ؟

بعد مفاوضات لم تطل ، تخللها الضغط والاعراء ، وتدخل في احدي

الزوار الثلاثة يصدقون ولا يصدقون الكلام الذي يسمعون ، ومع ذلك كانوا متأكدين ان الكلام الذي يحتفظ به غير ما يقوله الآن ، وان ما يقلقه غير وفاة السلطان ، لكنهم ظلوا صامتين .

بعد ان طال الصمت المشيع بالتذكر تابع بارتباك :

- ما زالت رغبة الدكتور صبحي البقاء في حران . كلنا حاولنا معه ان ينتقل ، ان يبيء الى هنا ، لكنه يقول : تعودت على حران ، ارتبطت بالناس هناك ، ومستشفى الشفاء هي الوحيدة في حران ، فكيف اترك المرضى ولن اتركهم ؟

وهز رأسه باسى واضح :

- ولولا رغبة السلطان والحاحه لا يمكن لقوة في الارض ان تقنعه على تغيير رأيه !

بدا الحديث للرجال الثلاثة غريباً ، فاذا كانوا قد سمعوا بالدكتور صبحي او رأوه ، واذا كانوا قد سمعوا بالجهود التي بذلها لمعالجة السلطان او لقتله ، فانهم الآن لا يفهمون لماذا استدعاهم السكرتير الشخصي للسلطان خزعل ولماذا يجذبهم عن الدكتور صبحي ، قال شمران العتيبي . . .

- اذا كان يبغي حران فخله بحران .

رد مطيع باستنكار وتساؤل :

- ورغبة صاحب الجلالة السلطان ؟

- هنا الاجزخانات واجدة والدخاترة كثر . . . حران ما بها شيء ، خلّه بحران .

ورغبة صاحب الجلالة يا ابو نمر ؟

- واهل حران . . ما هم جماعتنا ورعية السلطان ؟

- ولكن السلطان يريد هنا .

مراحلها قائد الشرطة وجيء بولدين من اولاد شميران وأفهما ان الامر لا
يحتمل الرفض او العناد ، لان هذه رغبة السلطان ذاته ، وهكذا انتهى الامر
بان اشترى الدكتور صبحي الارض غرب قصر الغدير وتلك الواقعة بين
الحاووز والسوق ، وقد تحددت قيمة هذه الاراضي من قبل لجنة من ثلاثة
اشخاص ، سمي احد اعضائها الدكتور صبحي وسمى قائد الشرطة
الآخر، أما الثالث فقد سماه فهيد العليان بالنسبة لارضه ، أما شميران العتيبي
فظل على عناده ، مما دفع احد اصدقائه لأن يكون في اللجنة و« الا الارض
راحت بدون ثمن ويلزم ابو نمر ان يدفع من كيسه ثمن الكوشان وتحديد
الارض » . وبانتهاء هذه العملية اضطر الدكتور صبحي الى العودة الى
حوران « لان الحكومة قررت شراء مستشفى الشفاء ، ولا بد ان ازور المرضى
وأطمئن على صحتهم واوصي الاطباء والذين سيحلون مكاني بهم ، وعلي ان
اقوم بواجب وداع الامير هناك والاصدقاء الكثيرين الذين اعتر بصدقتهم » .

لم تطل اقامة الدكتور صبحي في حوران ، عاد ومعه محمد عيد واثان من
اقربائه ، كانا قد وصلا الى حوران قبل بضعة شهور . كما لم يتردد في احضار
عائلته الى موران خلال الشهور الاولى . أما الارض التي اشتراها غرب قصر
الغدير فقد احاطها بالاسلاك ، تمهيداً لاقامة منزل عليها ، وجنح به الخيال ،
خلال لحظة اشراق ، فاطلق على المنزل الذي سيبنيه اسم « قصر الخير »
واصدقائه الذين استغربوا التسمية ، واعتبروها شططاً او امراً مبكراً للغاية ،
ما لبثوا ان وجدوا الامر طريفاً ، فحرفوا الاسم قليلاً فاصبح « قصر الحور » ،
دون ان يدركوا ما سوف يكون عليه في المستقبل . أما شميران العتيبي ، حين
بلغته التسمية التي اطلقها الحكيم على الارض التي كانت له ، فقد ابتسم بغیظ
وسماها اسماً من عنده: قصر الاير ، وهذا الاسم الأخير، الذي لا يكتب ولا يتردد
امام الغرباء والنساء ، كان الأكثر انتشاراً وتداولاً ، حتى قيل إنه بلغ السلطان ،
فاكتفى بأن نظر في وجوه الذين حوله وابتسم ! أما الدكتور الذي لم تكن تخفى
عليه خافية ، كما يقولون ، فإنه لم يتزعج ولم يغضب . قال ذات يوم لمحمد عيد ،
الذي حاول أن يقنعه ، بأساليب ملتوية وبدائية ، الاستغناء عن الاسم ، بحجة
أن البيوت في موران وحوران ومدن أخرى كثيرة ، لا تطلق عليها أية أسماء . . قال
له وهو يركز على أسنانه :

- اسمع يا ابني وتعلم : الحكيم جاء الى هذا المكان ليغير كل شيء :
العقول والناس . . وحتى الاسماء ، ومن يعيش ير !

هذا التصميم الذي كان يميز مواقف الحكيم ، ويجعله شديد الثقة

- المشكلة الوحيدة ، يا عيدو ، اننا يجب ان نتعود على ملابس هؤلاء
البحر !

توقف محمد عيد ، نظر الى الحكيم ، الذي تخفف من اكثر ملابسه ، وقال
له وهو يتسّم :

- الحقيقة يا حكيم ان لا احد يفرقك عنهم . .

واتسعت ابتسامته حتى اصبحت اقرب الى الضحك وهو يضيف :
- الا اذا حكيت !

تذكر الحكيم هذا ، وتذكر اشياء اخرى كثيرة وهو يذرع الشرفة : يوم
وصل الى حران ، ثم يوم اصبح رجلاً مهياً فيها ، وكيف بدأ يثبت اقدامه
«ويعد جذوره» كما يجب ان يقول ، ثم كيف ساهم في انشاء المدينة واقام
المستشفى ، وتذكر المبلغ الذي تبرع به لبناء المسجد الكبير ، ثم كيف اصبح
عضواً في غرفة التجارة . أما الابنية الكبيرة التي قامت في السوق خلال
السنوات الأخيرة ، فلم يكن مجرد شريك فيها ، كان احد ثلاثة شركاء كبار ،
وقد كان له رأي حاسم في التعديلات الكثيرة التي جرت على المخططات ، ثم
التعديلات التي جرت اثناء التنفيذ .

ليس هذا فقط ، كان في حران الشخص الذي يتطلع اليه الكثيرون
باعجاب ، ويفسّخون بكل شيء يعمله . كانت افكاره وكلماته تنتقل من
مكان الى آخر ، حتى النكات التي رواها للامير ، او لبعض اصدقائه ،
اصبحت تروى . صحيح انها كانت تتغير قليلاً ، وكان ينزعج ، بعض
الاحيان ، حين تنقل اليه بشكلها الجديد المحرف ، او لان الآخرين لا يروونها
بنفس الحيوية التي يرونها بها ، لكنه ، مع ذلك ، كان يسر في اعماقه . هكذا
كان في حران ، وهذه نظرة الناس اليه ، وقد تأكدت اهميته حين قرر ان يغادر
حران ، اذ ما كاد يبلغ الامير انه سيكون مضطراً للمغادرة الى موران ، حتى
ضرب الامير على جبينه وصرخ :

- ولمن تركتنا يا ابو غزوان ؟

ولما اوضح له - ويتذكر انه كان ينظر الى الارض وهو يتحدث ، لثلا يجزن

بنفسه ، غير مبالي باقوال الناس ، اهتز قليلاً وهو يصل الى موران لكي يستقر
فيها ، فهذه المدينة التي لا تشبه اياً من المدن الاخرى ، والتي تغرق في صحراء
بعيدة منسية ، وتلك المياه التي تشويها الملوحة وغير قليل من المزار ، ما كان
يتصور انها ستكون البلدة التي يستطيع ان يعيش فيها ، فاصابه الاضطراب ،
وعاوده الارق وما يشبه المرض ، كما حصل له تماماً خلال اقامته الاولى في
حران . وبدأ يتذكر من جديد ما قاله لمطيع قبل اكثر من عام ، حين جاءه الى
حران مندمراً شاكياً . وتذكر ايضاً الكلمات الكبيرة مع الضحكة ، وهو يحاول
ان يقنع محمد بمرافقته الى موران . قال لمحمد عيد :

- اسمع يا محمد . . أنت مثل ابني غزوان او اغل ، والوقت اللي قضيته
واياك اكثر من الوقت اللي قضيته مع اولادي . . .

وضحك ضحكة صغيرة مشوبة بالذكري واكمل :

- وانا ادري منك يا محمد ، والمثل يقول اكبر منك بيوم اعلم منك بسنة ،
فاريدك ان تكون معي في موران ، وما راح تكون الا راضي ومرووق اربع
وعشرين قيراط !

واسترسل الحكيم وهو يتحدث عن موران ، اية مدينة كبيرة ومنظمة هي ،
واناسها اي بشر هم . انها لا تشبه حران التي اصبحت مأوى لقطاع الطرق
واللصوص والمهربين ، ولكل من لا يجد عملاً ، وليست مثل رأس بده او
العوالي او مدن اخرى كثيرة . ويتذكر الحكيم انه قال في نهاية حديثه :

- وبعدهما تصل الى هناك وتستقر راح محمد نفسك على السعادة والنعيم
وتقول : يا ضبعة حياتنا في حران !

لم يكن محمد عيد بحاجة الى هذه الاسباب كلها ، ولم يكن متردداً بالقدر
الذي افترضه الحكيم ، ولكي لا يبدو متسرعاً او تابعاً سأل عن عدد سكان
موران وعن مناخها ، وتساءل ما اذا كان الحكيم سيفتح مستشفى هناك مثل
مستشفى الشفاء او اكبر منها ؛ والحكيم الذي اجاب اجابات سريعة غامضة ،
كان يحاول الا يشغل نفسه بهموم وافكار لم يحن اوانها بعد . قال لمحمد عيد
الذي كان مشغولاً بلف قطعة سلاح اهديت للحكيم من قبل امير حران :

الامير اكثر - قال الامير بلوعة ظاهرة ودون مجاملة من اي نوع :

- والله يا أبو غزوان حران وانت غايب عنها بسفر ظلمة وما تتراد، فكيف وانت راحل؟

وبعد قليل وقد اصبحت لهجنه مستسلمة :

- لكن اذا كانت هذه اوامر جلالته فاوامر جلالته على العين والراس .

وزفر الامير بحرقة وتابع :

- وظني اني ما أتأخر وراك .. يا ابو غزوان !

هنا ، في موران ، يمكن ان يجد المال ، ويمكن ان يعيش ، لكن الناس هنا نوع آخر ، انهم اقرب ما يكونون الى حيوانات الصحراء : مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة ، جلودهم سميقة ، واعماقهم بعيدة لا تدرك . حتى ضحكاتهم تبدو قصيرة خائفة ، أما اذا خلوا لانفسهم فانهم لا يوفرون احداً أو شيئاً . انهم يقضون حتى جلودهم . لماذا جاء اليهم ؟ الكي يقدم لهم لحمه يأكلونه في الليل والنهار ؟ حتى يملاً ليالهم الطويلة الفارغة ؟

هكذا فكر وهو يستعرض حياته الماضية ، وحين شعر بالندم وبالحنين الى ايام خلقت قال لنفسه بنوع من التحدي : « الرجال هم الذين يخلقون الاماكن ، وهم الذين يتركون بصماتهم عليها ، اذا اشتعلت عقولهم وقلوبهم بهم عظيم ؛ أما اذا اصبحوا يبهجون عن الماء والظل والحياة السهلة فانهم سيمضون مثل الحشرات دون ان يخلفوا اثراً » .

ويتذكر الحكيم ، وهو يذرع الشرفة الواسعة ، في الدار التي اتخذها سكناً له قريباً من قصر الروض ، وكانت عادته ان يرفع يديه حتى الكتفين حين يتنفس ، حسب الطريقة التي تعلمها عندما كان طالباً ، وهذه هي الطريقة الصحية ، وقد علم الاولاد عليها... يتذكر الحكيم انه قال بصوت عالٍ وهو يتسم من بين اسنانه :

- انا وموران .. وهذا الزمان !

وضحك بفرح لان كلامه كان شعراً خالصاً !

موران في تلك السنين التي اعقبت منتصف القرن ، لا تزال بعيدة منسية : لم تبلغ المدينة وان تجاوزت القرية ، فهي اقرب الى البلدات الكثيرة المنتشرة على طرق التجارة او في الواحات الكبيرة . الناس يعيشون حياة متواضعة ، اقرب الى الخشونة . يتوارثون اباً عن جد نظرة بسيطة الى الحياة - والموت ، ولانهم لا يؤملون الكثير من الحياة ، ولا يخافون الموت ، فانهم خلال السنين التي يقضونها على الارض يكدحون لانتزاع اللقمة ، ومع ان اللقمة صعبة او بعيدة اغلب الاحيان ، فقد كانوا ، مع ذلك ، يجدون وقتاً طويلاً يصرفونه لتأمل ما حولهم ، ويلهون انفسهم بحفظ الشعر وآيات القرآن وقصص الاقدمين . وفي ليالي الصيف الطويلة يجدون ارواحهم ترحل الى ما وراء الحياة والموت ، وعيونهم تجوب السماء تحدد مواقع النجوم ومسارها ، او تقرأ في الرياح علائم الغبار والمصائب والجراد .

ولان موران في ذلك الموقع النائي المعزول ، فلا احد يصلها الا اذا كان يقصدها ، لذلك الف الناس بعضهم بعضاً ، وعرفوا القرابات والعلاقات ، وصارت جزءاً من حياتهم . فاذا جاء الغريب لا يمكنه ان يخترق القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا ، واذا استطاع فبعد وقت طويل وبكثير من المعاناة القاسية المجهد . واهل موران الذين رأوا عدداً من الغرباء ، جاءوا او مروا ، كانوا ، اغلب الاحيان ، لا يبعدون قلقاً او خوفاً ، ففي داخل تلك الشرنقة التي تحمي وتدفيء ، وفي ظل تلك العلاقات الصلبة الراسخة ، يعرفون كيف يحمون انفسهم ، وكيف يجب أن تكون ردود أفعالهم تجاه كل ما

الانتظار ، وكانت عيون الناس لا تفارق قصر السلطان ، ايا كان هذا السلطان .

وإذا كان لكل مدينة مزاجها وطريقتها في التعبير ، وتمتلىء في بعض اللحظات بالاشواق او المخاوف ، فان موت السلطان خريط جعل موران في حالة اقرب ما تكون الى الانتظار والتوقع ، والناس فيها ينتظرون او يتوقعون شيئاً ، لكنهم لو سئلوا اي شيء ينتظرون او يتوقعون فانهم لا يملكون جواباً .

قال شمران العتيبي ، حين بلغته وفاة السلطان ، وكان حوله ثلاثة من ابنائه وبعض الأقرباء والاصدقاء :

- الله ياما شاف قصر الروض قبله ؛ لكن كلهم راحوا . وإذا الله أعطانا عمر بعد نشوف ، وإذا قضينا ومضينا اللي يجي بعدنا يشوف ويسولف .

وبعض الناس الذين سمعوا منذ وقت طويل ما قاله منجم مغربي التقى بالامير خزعل في احدي سفراته ، حين كان ولياً للعهد ، وقيل انه نبهه لشيء واحد : ان لا يسكن في قصر ابيه ، لان هذا القصر سيكون قصراً مشؤوماً على من يأتي بعد السلطان الحالي ؛ ولما خاف الامير وسأله عن معنى ذلك ، قال له المنجم : « قلت لك ما يكفي وما يجب أن يقال . . فاحذر ! » .

هذه القصة التي رواها واحد من خدم الامير بتكتم شديد قبل سنين تذكرها بعض الناس ، لكنهم لم يتوقفوا عندها ، ولم يكونوا متحمسين لروايتها او اعاتبها ، الشخص الوحيد الذي لم ينس يوماً واحداً هو الامير ذاته ، ولذلك حين بقي في قصره ، وحين بدأت موران تنجس الى قصر الغدير ، بعد ان كانت لا تعرف الا قصر الروض ، فان بعض الناس تذكر القصة من جديد ، ودخل الخوف قلوب الكثيرين ، لكنهم تغلبوا على الخوف بالانتظار .

هكذا كانت موران منذ ان وجدت في هذا المكان من الارض ؛ أما حين وصلها الحكيم اول مرة فقد وجدها مجموعة من البيوت الطينية المتلاصقة ، وما عدا قصر الروض ، اي قصر السلطان خريط ودار الامارة ، لا يمكن تمييز البيوت بعضها من بعض . حتى قصر الغدير ، قصر ولي العهد ، رغم اتساعه ، قياساً للبيوت التي حوله ، لم يكن أكثر من بيت من بيوت موران ، لبساطته

يحصل حولهم ، لانهم على ثقة ان هؤلاء الغرباء لا يمتلكون الصبر ، ولا يعرفون الدروب الخفية الى دواخل البشر والصحراء ، ولذلك فان اقامتهم لن تطول . أما الذين جاءوا بهدف الاستقرار ، فما يلبث القلق ان يخامرهم ، ثم يبدأ الخوف يفتك بهم ، حتى اذا جاءت تلك الأيام اللافحة المثقلة بالغبار والحسرة ، تصل ارواحهم إلى حلقهم عندها إما أن يستسلموا أو أن يرحلوا . فالذين لا يمتلكون غير هذا المكان ، ويمتلئون اصراراً على البقاء ، يتحولون شيئاً فشيئاً الى نمط من الناس لا يختلف عن اهل موران ، بالنظرة ، بالسلك ، بملامح الوجوه ، وبتلك الرغبة التي تولد القوة على التحمل والاستمرار . أما الذين اكل الحنين قلوبهم وعقولهم ، ولسعت ملوحة المياه ومرارتها سنتهم ، وشعروا انهم محاصرون ، وقد اقترب منهم الموت ولا بد ان يدركهم ، فعندئذ ، وفي ليلة من ليالي الصيف ، ومع قافلة او رعية جمال ، يرحلون ، دون ان يقولوا ، ودون ان يفطن لهم احد ، ويرحيلهم تنقطع اخبارهم ، ويغيبون تماماً ، حتى انه لم يصادف ان عاد غريب الى موران ، بعد ان يكون قد تركها .

هكذا كانت موران عبر مئات السنين . صحيح انها كبرت واتسعت في بعض الفترات ، ثم تراجعت وصغرقت في فترات اخرى ، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن ، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة .

انها مدينة عجيبة . حتى القصص التي ترويها الجدات للصغار تمتلىء بالجن والعفاريت ، وتمتلىء بالاصوات الخفية والبروق ، فيحار الصغار والكبار من هذه المدينة ، ويتلفتون حولهم ، ويغلفون خوفهم وانتظارهم بالصمت

أما الذين حكموا موران وما حوفا فكانوا يخافون هذه المدينة اكثر مما يحبونها ، وكانوا دائماً يتوقعون ان تنشق الارض فجأة وتأتي على كل شيء ، وهذا التوقع الذي ملا الحكام منذ ان وجدت موران ، وان لم يدركوا له سبباً واعياً ، ملاهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً : ان يعيشوا ليومهم ، ان لا ينتظروا الغد ، لان الغد ، اغلب الاحيان ، لا يأتي . هذه الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى مهل جعلت موران دائمة التوقع ، تنتظر ولا تعمل من

كانت تقبض النفس وتولد في القلب حزناً مبهماً ، لانها لا تزال تغرق في عتمة القرون ، ولانها متوارية لا تذكر .

حتى بعد ان بدأ النفط يتدفق ، واخذت تصل البواخر الى حران كل يوم ، لتحمل آلاف الاطنان كل ساعة ، لم تحس موران بذلك الا احساساً غامضاً ، اذ ظلت دائماً تنتظر مطراً لا يأتي ، وقوافل كثيراً ما ضلت طريقها ، كما استمرت تبعث بابنائها مع كل قافلة ومع كل رعية ابل ، علمهم يرجعون في فترة لاحقة مع شيء من قمح وقماش ، او لعلهم يرسلون القمح والقماش او بعض الدراهم من حيث هم مقيمون . وموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع ، الا حين يستبد العطش او يزيد عن حد معين ، وحين ينهكها الجوع فلا تقوى على احتماله اكثر من ذلك ، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت فتقتل نفسها وتقتل غيرها الى ان تجد توازناً بينها وبين ما حولها .

اما حين وضع الحكيم يده على الارض غرب الغدير ، وتلك القرية من الحاووز ، فقد قال شمران كلمة استقرت في قلوب الكثيرين وعقولهم :

- موران ما كانت ابد جنة عدن . . وما اظنها تصير ، وهذون اللقامين ، والي فاتحين حلوقهم ما يشبعهم الا التراب ، وبيننا وبينهم خف وصافر وصنعة كافر . . ونشوف .

ومثلما كان الحكيم مشغولاً في حران ، وليس لديه الوقت الكافي لسمع ما يقوله الناس او ليرد عليه ، فقد كان عنده الشيء الكثير ليفعله هنا . صحيح أن موران ليست حران ، والبشر هنا غير البشر هناك ، لكن اصراره على أن يبقى ، ان يتكيف ، جعله لا يقترب من القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا ، وانما يتجه الى المسارب التي عرفها واختبرها من قبل . ولذلك ركز كل جهده على الصخرة القوية، كما كان يقول لنفسه . على السلطان بالذات . . .

كل وقته من اجل السلطان ، وكل خبرته وذكائه في خدمة صاحب الجلالة المفدى ، فقد كان واثقاً ان كسب قلب السلطان كسب كل شيء . وكان اقوى الجميع .

وانخفاضه . كانت في جانب منه المضافة الواسعة ، وامامها فسحة كبيرة ، زرع طرف منها ببعض النباتات والخضرة ، وبعد هذه الفسحة ، وفي جانب تحت اشجار النخيل ، باب يؤدي الى القصر الداخلي . والقصر الداخلي قُسم بدوره الى اجنحة عديدة ، كانت تفصل بينها اسوار عالية ، وقد نظم بهذا الشكل لاعتبارات متعلقة بزوجات الامير ، ثم لاسباب الحماية ، بحيث تتوافر امكانية الدفاع عنه اذا هوجم .

احياء موران متعرجة متداخلة . الشوارع ضيقة وتنعج بالتربة والاطفال والذباب . الاسواق التي تبدأ من اطراف الاحياء ، ثم تنجس وتمتد نحو الشرق والشمال ، تصل الى قرب قصر الروض من ناحية ، والى مسافة غير بعيدة عن سوق الحلال من ناحية ثانية ، والبيوت تتخلل الدكاكين وتحتل جزءاً كبيراً من السوق .

ولان سكان موران من البدو ، حتى الذين استقروا وتحضروا ، فأنتهم لم يتخلوا عن بداوتهم : كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها، وكانت الخيام الى جانب الغرف الطينية ، والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة، التي حفرت فيها المواقد، وجُهزت . وغير بعيد ، في الجانب الآخر من الساحات ، المطابخ . أما تلك الاطراف المائلة في جوانب البيوت فقد اعدت لذبح الخراف، ولذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت الى اللون البني المقشور .

تشاءم الحكيم الى اقصى حد وهو يرى هذه البلدة ، ويدت له حران اجمل منها واكثر تنظيماً . وظل رأيه كذلك حتى لما جاء ليسكن ويستقر . واذ كان يعزي نفسه او يحاول اقناع الآخرين ، فقد ظل يؤكد على شيئين اثنين : انها العاصمة ، ولا بد ان تتغير وتتفوق على المدن الاخرى بسرعة ، ثم انها مدينة كبيرة ، اكبر من حران ، وعدد سكانها يعادل ثلاث او اربع مرات المدن الاخرى .

وما عدا حي السفان الذي كان في اقصى غرب المدينة ، والذي يختلف عن الاحياء الاخرى ، اذ كانت بيوته جديدة واكثر نظافة وعناية ، فان موران

قال لجلالته في الأيام الاولى ، وفي لحظة تخيرها جيداً :

- اسمح لي يا جلالة السلطان ان اقول ما يجب ان يقال : انت سلطان السلاطين ، وانت هبة الله للعالمين . بمجيتك الخير جاء بعد العذاب والانتظار وبعد ذل السؤال .

موران كانت نسياً منسياً ، كانت مكاناً قصياً ، لا يأتيها الا ضال هارب ولا يبقى فيها الا قوي محارب . أما بعد ان جث وجاء الخير ، وبعد ان امسكت بالرمل فتحول الى ذهب ، فلا بد ان تفعل الكثير ، أن تجعل الارض غير الارض والبشر غير البشر ، ونحن ، يا جلالة السلطان ، خدم بين يديك تأمر فنطيع ، ترغب فنستجيب .

اعجب السلطان بهذه الديباجة ، وهزه الانفعال ، وضحك كما يصهل حصان فبانت اسنانه الكبيرة ، ونظر بتحديد من وراء نظارتيه ليكتشف ما اذا كان الحكيم يعني الكلمات التي قالها ام يسخر منه ، فلما رآه جاداً متفعلاً ، بل اقرب الى الحزن ، رد عليه :

- وكل الله يا حكيم وانشاء الله ما يصير الا الخير .

- يا سيدي ومولاي : انت تعرف اكثر من اي انسان : النقط في هذه الارض منذ آلاف السنين ، في مكانه لم يتحرك ، الى ان جاء المغفور له والدكم ، وبعد ان خبر القريب والبعيد ، وبعد ان سأل وتأكد واستقصى ، قال لهم : ابدأوا على مشيئة الله !

توقف ، تنفس بصعوبة ، واطاف :

- كان يمكن ان يبقى النقط في باطن الأرض ، يا صاحب الجلالة ، مئات السنين ، آلاف السنين ، لكن العناية الالهية ، الرضا ، وذلك التوفيق من الله سبحانه وتعالى قال كن فكان . والآن ، اكثر من اي وقت ، وهنا ، اكثر من اي مكان ، يا صاحب الجلالة ، يمكن ان تحولوا موران الى جنة على الارض ، ويمكن ان تحكموا القريب والبعيد .

كان لوصول عائلة الدكتور صبحي الى موران ضجة كبيرة واهتمام اكبر ، فمحمد عيد الذي حدد اكثر من موعد لاحتمال وصول العائلة ، ثم عاد واكد ان اشغالات طائرة اخرت وصولها ، افاض كثيراً في الحديث عن كل فرد من افرادها : ذكر الاسماء والاعمار وحدد صفات كل فرد وشكله ، واكد ان اثنين من الاولاد الثلاثة ، بالذكاء والشبه ، اقرب الى الحكيم . أما الابن الاوسط والبنيت الصغيرة فقد جاءا لآخوالهم ، واثار ، عرضاً ، الى ان عائلة الحايك كانت ولا تزال مضرب المثل بجمال رجالها ونسائها ، وقد فهم ان زوجة الدكتور هي سليلة هذه العائلة .

انتشرت الاخبار والاحاديث بسرعة وتداولها الناس في حي السفان والمنزه والاحياء المجاورة ، ورافق ذلك انشغال محمد عيد وحركته الزائدة ، من اجل ترتيب البيت واعداده على احسن وجه ، ولقد استعان باننتين من خدم القصر ، وكلف رضوان ، سائق الطبيب ، ان يأتي بزوجه ايضاً . ولم يتردد هو والسائق في ان يشاركا ، لكن الحركة المنفصلة ، الاقرب الى الاضطراب وعدم المعرفة ، والتي رافقتها الضحكات المكتومة التي كانت تصدر عن النسوة ، وهن يراقبن محمد عيد ، اخرت العمل كثيراً وجعلت الجميع يتحركون كالعميان . صحيح ان الاخطاء التي وقعت كانت هيئة ويمكن تجاوزها ، لكن محمد عيد كان حانقاً متشدداً . وقد اضطر في وقت من الاوقات ، وقبل ان ينتهي العمل ، الى صرف النسوة ، وان يتولى كل شيء بنفسه ، لان ذلك « ابرد للراس » كما قال لرضوان .

اليه . ومحمد عيد الذي ادرك بغريزته هذه النقطة اراد ان يمتحنها . سأل
بخبث :

- اية ساعة تفضلون ان نغادر يا حكيم ؟

- ووصولهم سيكون بين العصر والمغرب ، والاحسن ان تكون هناك حوالي
العصر .

- وانث يا حكيم ؟

وضحك ضحكة صغيرة قبل ان يجيب :

- انا بانتظاركم .. هنا .

- راح ياخذ الاولاد على خاطرهم يا حكيم !

- بسيطة ، نرضيهم ، لا تخف .

واذا كانت عادة محمد عيد أن يكون اساسياً في تحضير الأكل، وان لا
يكتفي بمجرد الاشراف، بعد ان استخدم الحكيم طباًخاً هندياً، ونقله معه
من حران ، فانه هذا اليوم لم يفكر بالأكل ولم يقترب منه ، اذ بعد ان اشترك
مع رضوان في تنظيف السيارة ، طلب منه ، وبصيغة الأمر ، ان يخرج بسرعة
لتجربتها ، وقد فعل هذا اول مرة عند الضحى ، وبمجرد ان خرج الحكيم
متوجهاً الى القصر ، والمرة الاخرى ، قبل الظهر بقليل ، ووصل في المرة الثانية
الى وادي الرها ، كي يكون متأكداً من قوة السيارة وليعرف كم يحتمل الطريق
على وجه محقق ، وقد راودته فكرة ان يبقى هناك وان ينتظر، لكن نظرة
رضوان التي كانت تحمل اكثر من الاستغراب ، جعلته يعدل عن الفكرة . ومع
ذلك اكتفى من الغداء بلقمة قليلة ، وانتهى في الوقت الذي كان رضوان لا
يزال يفكر بصحن اخر ، وكانت عيناه تطوفان وتنظران الى الاواني العديدة،
والتي بدت اكثر من اي يوم سابق . أما حين سمع صوت محمد عيد يستحبه
للاسراع فقد اهتز رأسه اسفاً وحقدًا !

اقترح محمد عيد استخدام السيارة البيضاء المكشوفة كان اقتراحاً مصيباً ،
وقيامه بتجربتها خلق من الاهتمام اضعاف ما حصل خلال الأيام السابقة ،

في اليوم الأخير قبل وصول العائلة ، وحين القى الدكتور صبحي نظرة
على الشرفة ، وقد نثر فيها محمد عيد عدداً من تنكات الزرع ، ابدى دهشته
واعجابه ، وحين سأل من اين اتي بالزرع اجاب وهو يتسم ابتسامة ظافرة :

- برسم الاعارة والتأجير .. يا حكيم ..

ولما ظل وجه الحكيم متسائلاً تابع محمد عيد بلهجة جديدة :

- قلنا لرشدي اللحام : كم يوم ونرجعها لك ، وقد كبرت شبراً ، فقط
لنستقبل ام غزوان ، لان البيت الخالي من عرق اخضر لا تزوره الملائكة .

الاشارة اللاسلكية التي وصلت الى دار الامارة ، حددت نهائياً موعد
وصول العائلة . كانت الاشارة كما يلي : « باب الرجا يخاطبكم . المرجو تبليغ
الدكتور صبحي المحملجي بطرفكم ان العائلة الكريمة غادرتنا متوجهة الى موران
الجميع بصحة جيدة . الوصول الى طرفكم غداً ، الاثنين ، بين العصر
والمغرب بمشيئة الله . اتخذوا ما يلزم وابلغونا الجواب ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته . قف » .

بعد تمتع خجول وتردد لم يظل وافق الحكيم على ان يستخدم محمد عيد
السيارة البيضاء المكشوفة في استقبال العائلة ، وهذه السيارة كان الحكيم قد
اشتراها في السنة الأخيرة من اقامته في حران ، او بكلمات ادق : استوفاهها
مقابل دين كان له على السلامي ، لقاء علاجه واقامته في المستشفى . ورغم
ان الحكيم استخدم هذه السيارة مرات في حران ، الا انه بدا متردداً هنا . أما
وهو يوافق الآن فقد كانت حجة محمد عيد قوية دامغة : « اولاً السيارة كبيرة ،
ويمكن ان ينتقل اليها الاولاد ؛ ثانياً ، رضوان يخربط بين يده اليمنى ويده
اليسار ، وانا المفروض ان ادلم على الطريق » . وبعد قليل اضاف بأسى :
« واؤها وآخرها ، يا حكيم ، يجب ان نستعمل هذه السيارة اليوم او بكرة قبل
ما ياكلها الصدا في الكراج » .

كان واضحاً من اشارات عديدة وغير مباشرة ان الحكيم لن يكون في
الاستقبال عند وادي الرها، الحدود الشرقية لموران ، فقد اعتبر ان اقدامه على
مثل هذه الخطوة سيفسر بالحفة ولا يتناسب مع موقعه الجديد ونظرة الناس

يقطعها من شرقها الى غربها ، ولم يستطع ان يخفي انفعاله ، اثناء الاجابة عن اسئلة غزوان ، اذ كان الشاب ، يسأل عن نوع السيارة ، ومتى اشترها ابوه ، وكم حصان قوتها . كان محمد يجيب بسرعة ودون اهتمام ، لان الافكار التي راودته بان يجتاز شوارع موران الرئيسية ببطء ، لكي يراه الناس ، خاصة وانه سأل رضوان بما يشبه البراءة وهم متوجهون الى وادي الرها ما اذا كان الشارع القبلي اطول ام شارع الروض ، وما اذا كان الناس في القبلي بعد العصر وعند الغروب اكثر او اقل ، ورضوان الذي اجاب بتسبط ودون ان ينتبه لما اراده محمد عيد ، كان يعرف طرقاً لا يغيرها ، ولا يدري ان كانت هذه الطرق اطول من غيرها ام اقصر . حتى الحكيم حين يطلب منه ان يلتفت يمينا او يساراً ، في اطار اكتشاف المدينة والتعرف عليها ، وكان رضوان يستجيب له استجابات مباشرة فورية ، لكن لا يلبث ان ينساها ويعود الى الشوارع التي يعرفها وتعود عليها .

رغم ان محمد عيد امتلأ بالاحباط وخيبة الأمل ، فقد ظل يراوده اميل وحيد : ان يكون الاستقبال امام البيت ، ومن سكان الحي الذين انتظروا وتوقعوا لانقاً وكبيراً .

ما عدا ثلاثة من الصبية ، وذلك الاعمى الذي لا يفارق بداية شارع السفان ، لم يكن هناك احد . حتى ابو عبد الله اجهد نفسه ، لكي يبدو نشيطاً ، وقد تحرك هنا وهناك ، وسلم على الاولاد اكثر من مرة ، كان يتحرك مثل الشيخ . أما الحكيم الذي ظل في الشرفة اول الأمر ، وكانت ابتسامته كبيرة ، ولا يكف عن ترديد كلمات محدودة وبصوت عالٍ ، فلم يستطع الانتظار او البقاء في مكانه ، كما حرص نفسه ، لكي يختبر عواطفه ، فقد تدرج بسرعة عندما سمع صوت غزوان ينادي : بابا . بابا . وغزوان ذاته ما لبث ان شعر بالهبوط حين رأى ابيه بذلك الشكل الغريب ، فاللحية التي تظهر وتغيب في تعاقب النور والظلمة ، نتيجة الحركة واللهفة ، وتلك الملابس الفضفاضة الغريبة ، جعلته يتردد . يضاف الى ذلك الاصوات التي تتزاحم وتختلط . ثم ذلك الانشغال المبالغ به لإنزال الحفائب والاعراض ، ومعرفة دروب البيت وكيفية الدخول والخروج ، كل هذه الامور ولدت اضطراباً زائداً

فأطفال حي السفان والمنزه واطفال احياء اخرى ، ثم الرجال الذين شاهدوا السيارة وابدوا اعجابهم وتساءلوا ، واخيراً النسوة اللواتي لم يستطعن البقاء بمعزل عما يجري ، فخرجت الكثيرات ، وفي اوقات عديدة ، بحجة البحث عن الاولاد او اعاتدهم ، خلق هؤلاء وغيرهم اهتماماً لم يخف على الحكيم حين عاد من القصر ، واذا أبدى استغرابه اول الأمر ، لان عدداً من الرجال توقفوا حين مر ، والاطفال ركضوا وراء السيارة ، فانه لأول مرة منذ ان وصل الى موران يشاهد بعض النسوة عند ابواب البيوت . قال لنفسه دون ان يخفي سروره « الملعون لازم يعمل من كل شغلة جرصمة ، ولازم يفضحنا بين الناس » أما حين سأل ابا عبد الله عن الساعة التي خرج فيها محمد عيد فقد اجابه :

- بعد المؤذن ما خلص من قوله الله اكبر إلا حرك ومشى .

بعد المغرب وقبل العشاء ، ومع نسيمات طرية منعشة ، وصلت العائلة الى وادي الرها . كان الاستقبال سريعاً مضطرباً ، وفضلت ام غزوان ان يبقى الاولاد معها في نفس السيارة ، لكن غزوان في اللحظة الأخيرة قرر ان ينتقل الى السيارة البيضاء المكشوفة . ولما لم تعترض امه فقد حاول اخواه ان يفعلوا مثله ، لكن الصرخة الحادة الأمرة جعلت كل شيء ينتهي بسرعة ، مما ولد في قلب محمد عيد وضعباً نفسياً افضل ، اذ ربما استطاع الوصول الى موران قبل العشاء . قبل ان تخلو الشوارع ويغيب الناس . وإذا كان قد لام السائق لتأخره ، واحس ان الفترة الواقعة بين الغروب ووصول سيارتهم هي اطول فترة تمر عليه منذ سنين طويلة ، فقد أمل وتوقع ان يكون الاستقبال في حي المنزه لانقاً ومؤثراً بحيث يعوّض ويتدارك ما لم يستطعه هنا !

السيارتان وهما تنهبان الارض في موران لكي تصلا الى اقصى مكان في جهة الغرب ، الى حي السفان ، كانتا تمران في ظلام لا تشقه الا انوار خابية متباعدة ، وفي سكون لا يقطعه غير نباح الكلاب . أما بعض المارة الذين لقت السيارتان اصواءهما عليهم فقد كانوا من الافواج الأخيرة العائدة ، او اولئك الذين يقصدون اقرباءهم واصدقائهم للسهر .

بدت موران ، في عيني محمد عيد ، كابية ، غافية ، مملوءة بالبلادة ، وهو

وحركة عمياء . أما حين أصبح الحكيم وسط الجمع واختلطت دموعه بالقبل والضحكات والحركة الزائفة ، فقد بدا مثل طفل كبير ، وبدأ أيضاً غير قادر على التصرف . كان محمد عيد على بعد خطوتين أو ثلاث يراقب ، يتابع ، وقد هزته دموع الحكيم وطريقته في السؤال والحركة . أما رضوان وابو عبد الله فقد ظلا بعيدين وكانا ينظران ولا ينظران . قال محمد عيد لنفسه وقد امتلأ قلبه بحزن شفيف « الانسان دون اهله وفي غير بلده مثل السمكة خارج الماء » .

ويتذكر الجوار في شارع السفان ان اصوات الضحك وبعض النداءات ظلت تسمع الى وقت متأخر من الليل ، ويتذكر ابو عبد الله ورضوان ، اعتماداً على احاديث محمد عيد المتكررة ، ان اولاد الحكيم اربعة ، أما حين حسبوا الاولاد فقد كانوا خمسة ، فتطلع الواحد في الآخر وتساءلا ، اما في صباح اليوم التالي ، فنظروا الى محمد عيد وابتسما !

بدت موران في عيني وداد ، وهي تنظر اليها من الشباك في الصباح الباكر ، مدينة منقّرة ، فاليوت متلاصقة ، واطنة ، متباعدة وكأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء ، واشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة ، عارية ، أو اقرب الى العري ، حتى أنسام الفجر ، رغم طراوتها ، كانت جافة ومثقلة برائحة الغبار . نظرت الى هذه اللوحة وزفرت من اعماقها . أما وهي تشرب القهوة مع زوجها على الشرفة ، وقبل ان يستيقظ الاولاد ، فقد كانت تشعر بالراحة والرضا والقلق والخوف معاً . كانت مشاعرها مختلطة ، مضطربة ، واقرب الى التشوش ، وبين رشفة واخرى كانت تنظر اليه ، تريد ان تراه في ضوء النهار .

في الليلة الفائتة ، وهي تنام الى جانبه ، كانت لحيته - وقد قصها وعطرها - أكثر من مرة في ذلك اليوم - تضايقها وتنفرها ، حتى انها لم تصدق خلال النظرات الاولى ، وهي تراه بهذا الشكل بعد غياب طويل . وفي الليل ، قالت له بدلع كادت تنساه لفرط ما ابتعدت ايامه : « صبحي . . شو سويت بحالك ؟ انا زعلانة منك » ولما شدها اليه في محاولة لان يترك جسده يجيب ، ابتعدت قليلاً ، تابعت بنفس الهمس : « هاللحبة ما حلوة ، كبرتك وغيرت وجهك » ، كادت تقول جعلته بشعاً ، لكن اختارت تلك الكلمة لثلا تحرجه ، وحين اهتز جسده كله في ضحكة ، ارادها قوية ولها رنين ، رداً على كلامها تابعت : « حتى الاولاد ما عرفوك ، وسلمى سألتني : ماما ، هذا الحجسي مين هو » الآن ، في اضواء الصباح الاولى ، بعد ليلة لم ينأما خلالها

- كل ما اتمناه ، يا ابو غزوان ، ان اكون الى جانبك ، ان اساعدك ، لكن انا خائفة على الاولاد .

رد وهو يقهقه :

- اتركي الاولاد عليّ يا وداد . . . انا مسؤول .

ونفض . تقدم نحو حافة الشرفة . ظلت في مكانها ، لكنها تابعت ، قال لها دون ان يلتفت :

- تعالي يا وداد .

ولما وقفت الى جانبه اشار بيده :

- هذا البناء العالي ، مقابلنا ، قصر الروض ، قصر المرحوم السلطان السابق . الى يمينه نخلات ، بعد النخلات بحوالي اربعمائة متر ، خمسمائة متر ، بيتنا .

ابتسم ، وبعد قليل تابع كأنه يحدث نفسه :

- ولو الواحد صعد الى السطح الثاني يمكن يميز موقعه بشكل احسن .

ولم يتركها تتكلم :

- وانشاء الله ، بعدكم يوم نمر ونشوف الارض وكل شيء .

قالت بنوع من التسليم :

- الله يقسم الي في الخير .

ما كان لوداد ان تسلّم بهذه السهولة ، او ان تقول مثل هذه الكلمة ، لو انها لم تسمع حركة خلفها . التفتت ، كانت سلمى اللاتفة ، ذات الصفائر الذهبية ، التي تعرف كيف تدخل الى القلب ، هي التي اتت . لم تتذكر سؤالها لامها في الليلة الفائتة عن الرجل ذي اللحية ، هجمت عليه ، تعلقت برقبته ، زحفت على صدره ، ومدت يدها الصغيرة الى لحيته ثم سحبته بسرعة وبقوة رد الفعل . سلمى التي وصلت الى موران في ذلك اليوم ، اوائل الصيف ، والتي سألت مئات المرات : « متى نصل » وكانت تريد الوصول

الا نوم الكراكي ، تشعر ان لكل شيء طعماً جديداً ، خاصة بالنسبة اليها . فبعد هذه الرحلة الطويلة ، وهذه الليلة الاطول منها ، تحاول اكتشاف الرجل الذي عاشت معه سنيناً عديدة . انها تعرفه ولا تعرفه ، تراه غريباً ومألوفاً في آن واحد . لم تغيره اللحية فقط ، فصلعته اتسعت ايضاً وبدا لون البشرة متفاوتاً ، لكن ظلت لعينيها تلك النظرة التي هي مزيج من الثقة بالنفس والقلق ، الشهوة والخوف . وإذا تجنّب ، اغلب الوقت ، ان تلتقي عيناه بعينيها ، وتساغل ، وسأها ما اذا كان الاولاد قد ناموا براحة ، وهل لا يزالون نياماً ، فقد لاحظ من النظرة الاولى انها مثلما كانت قبل سنتين : لم تكبر ، لم يتعبها السفر ، وتلك اللحظات البراقة المجنونة التي تعرف كيف توصله اليها اكتشافها من جديد ، حتى وهي بين المزح والجد تشد اللحية ، تداعبها ، كان راضياً وكان يريد ان تفعل هكذا .

قال رداً على سؤال لم تسأله ، ولكنه قرأه في عينيها اللتين حدّقتا الى دائرة واسعة ، وكأنها تكتشف المدينة مرة اخرى :

- انشاء الله ما تنتهي السنة يا وداد الا ويكون بيتنا كامل .

- انشاء الله .

- وذاك البيت شكل آخر . . . ما هو بيت . . . قصر .

قالت وهي تضحك من الفرح والخوف معاً :

- الظاهر ان العيشة طابت لك في هذي البلاد . . . وكأنك ما رايد ترجع !

رد بعصبية مكتومة :

- هذي البلاد احسن من غيرها يا بنت الحلال . . .

واضاف بعد قليل بلهجة مختلفة :

- وبكرة اذا تعرفت تتعودي .

قالت في محاولة هجوم خفية :

غزوان قادماً واقترب كثيراً :

- الوطن ليس الارض او البشر ، الوطن ، من خلال التجربة ، هو المال ، والانسان محل ما يُرزق يلزق ، لان الواحد عندما يكون غنياً يكون قوياً ، وكل مكان هو فيه وطنه وبكرة الحياة تعلمكم !

انتظر غزوان الى ان انتهى ابوه من كلامه ، ظل واقفاً بأدب ظاهر يستمع ، ينظر الى الوجوه ، ينظر الى ابيه بحب يمازجه الاعجاب ، فلما انتهى قال بصوت اراده واضحاً :

- صباح الخير بابا .

والحكيم اذ كان حائراً منذ وقت طويل ، لانه يحب اولاده حباً متساوياً ، فان غزوان ، « هذا الملعون يسحره » ولذلك يحبه اكثر من الآخرين . كان يفسر الأمر في البداية انه الولد البكر ، وفي وقت لاحق بدا اقرب الى رأي اخته خيرية التي كانت تؤكد ان « غزوان مثل ابيه بكل شيء » . فولة ومقسومة ، بس واحد كبير وواحد صغير « أما خلال زيارة الحكيم الأخيرة فقد بدا له غزوان رجلاً قبل الاوان : كان يحب جلسات الكبار واحاديثهم ، وكان يتصرف مثل اب : يوجه الى اخوته الاوامر ، يخاف منه اخوته ، ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظرة الاخوة الى بعضهم ؛ حتى الجوار ، كما قيل للدكتور ، ينظرون اليه « مثل رجل صغير » ! وكان لا يتردد في ان يفعل كما يفعل الكبار . الآن والحكيم ينظر اليه في ضوء النهار فوجيء ان شاربيه طراً وصوته اخشوشن فاصبح كالرجال ، حتى نظرتة تبدوا اكثر جرأة وتحديداً مما كانت عليه من قبل . قال الحكيم لنفسه « الولد سر ابيه » وشعر انه يجب غزوان وينظر اليه بشكل خاص . قال بصوت استعراضي :

- تعال . . . تعال يا ابني .

ومن نظرة اخلي كمال الكرسي الذي كان يجلس عليه الى جانب ابيه ، ولما جلس غزوان ظل صامتاً ومطرقاً . قال ابوه بمودة ظاهرة :

- ها يا غزوان احك لي كيف كانت السفارة . . وكيف تركتم الناس هناك ؟

اسرع من البرق ، وبعد ان نامت وصحت في هذا الطريق الصحراوي الطويل مرات كثيرة ، والتي نظرت بلهفة اول الامر ثم زهقت وبدأت تكلم لعبتها، سلمى ذاتها سألت اباها: بابا . . متى نرجع الى بيتنا ، ولما داعبها وقال لها : هذا بيتنا ، وطلب اليها ان تتحمل وتنتظر ، تحملت وانتظرت ، وكان في ذلك قدر غامض ملعون هو الذي اعطى لحياتها ذلك المعنى الذي لم تدركه ، وذلك النغم الحافل الصاحب ، حتى بصمته !

بعدها جاء الجميع . جاءت اول الامر نادية : بين الصبا والشباب : نحيفة ، ليست طويلة وليست قصيرة ، عيناها عسلتان كبيرتان وتضحكان دائماً ، تعرف كيف تتصرف ، كيف تجامل . قالت له وداد في الليلة الفائتة ، بعد ان ذهب الاولاد للنوم ، ان نادية ، بنت اختها ، كانت تساعدها ، وانها ، « بعد ان تركت المدرسة ، الوحيدة التي تلاثم غزوان . . ويجب ان نربيه على ايدينا » . والحكيم الذي سمع ولم يعلق بدا له الامر مبكراً ، وان غزوان اصغر من ان يفكر في الزواج . الآن وهي تأتي ، وهي تضحك مثل عصفورة صغيرة ، وهي تحمل فناجين القهوة الفارغة وتسال ما اذا كان « عمو » يريد فنجاناً آخر ، او يريد كأساً من الماء ، وحين يرد عليها شاكراً ومعتذراً ، تضحك بخجل ، وتساله من جديد ان كان يتذكرها لانها تتذكره جيداً ، وجواب الحكيم المتقن الواثق ، انه يتذكرها تماماً ، وانها لم تغير خلال هاتين السنتين ، يمرض الاثنان على مراجعة سريعة ، وهذا التحريض ينصب كله على الجسد ، فقبل سنتين لم تكن واثقة هكذا ، ولم تنظر الى الرجال هكذا ، ولم تحس في اعماقها حركة خفية جامحة مثلما تحسها الآن ، اما هو فلم يرها قبل سنتين بثديين تكورا وكبرا هكذا ، ولم ير أردافاً اكتنزت وبرزت بهذا القدر . حتى النضحكة التي كانت صغيرة خجولة قبل سنتين فإنها الآن شيء آخر!

وجاء كمال وحامد معاً . كانا كبيرين وصغيرين في نفس الوقت . كانت لها اسرارها الخاصة ، وطريقتهما في الكلام ، وكانت لها النغمة ذاتها في الرفض والقبول . وعندما سألهما ان كانت موران جميلة ويريدان ان يعيشا فيها ، فقد اختلطت الاجابتان معاً ، لكن فهم ان اياً منها لا يريد ان يبقى . قال في محاولة لان يلقي درساً يتذكره الاولاد لفترة طويلة ، خاصة وقد رأى

ردت الام بخشونة مبالغ فيها ، وكانت تريد ان يسمع زوجها :
- يلزملكم قطع لسان ، لان الواحد منكم بعده ما فقس من البيضة
ويحكى كلام اكبر منه !
وتغيرت نبرة صوتها :
- واذا كنتم هناك فلتوا ، وكان ابوكم بعيد ، من اليوم ، اي خطأ ، اي
كلمة راح الواحد يتكرس راسه .
قال الحكيم ليصلح الموقف :
- طوي بالك يا ام غزوان ، الشباب صاروا كبار وصاروا يقدروا
مسؤولياتهم ويعرفوا اللي بيحوز واللي ما يحوز .. وبعدين لكل حادث
حديث!

- كل شيء كان ممتاز يا بابا ، والناس هناك ، كلهم .. كلهم قالوا لي :
امانة سلم على بابا .
واهتزت اعطاف الحكيم وهو يضحك بلذة .
- وشو كمان يا غزوان ؟
- الحكى كثير يا بابا .. بس لا اعرف كيف ابدأ !
وشعر الحكيم بثقة اكبر وهو ينظر الى ابنه ، نقل عينيه في وجوه الآخرين ،
وبعد قليل سأل :
- ودراستكم .. كيف كانت الدراسة ؟
قالت وداد بحسرة :
- انا خايفة عليهم من ناحية الدراسة . هناك كانت دراستهم ممتازة .
بخزي العين ..
قال الحكيم بثقة :
- يا ام غزوان .. انا ما بعثت وراكم الا بعد ان درست كل صغيرة وكل
كبيرة ، وتأكدت بنفسى ..
ودون ان يفسح المجال اضاف بلهجة فخمة :
- المدرسة الخاصة في موران موجودة ، ومستواها ومناهجها مثل
بيروت ، احسن من بيروت ، وما راح يتغير شيء على الاولاد .
سأل كمال بمكر .
- والاولاد والبنات مع بعض ؟
نظر اليه غزوان نظرة تأنيب . قالت الام بتورية :
- موران ما هي بيروت ، ولا تفتح نفسك كثير .
قال حامد مازحاً وكانت كلماته تتعثر :
- كمال قال لي ما راح يتجوز من هون !

من الصحة والحجل ، حتى قال بصوت استعراضي عالٍ لا يتحملة المكان ولا العدد القليل من الرجال الموجودين :

- السلام عليكم .

واحنى رأسه أكثر من مرة للسلطان تعبيراً عن الاحترام الشديد ، ثم نظر ناحية اليمين واحنى رأسه ، وكذلك فعل ناحية اليسار ، لكن الانحناءتين كانتا اقل واسرع مما فعل وهو يحمي السلطان . ما كاد يفرغ من هذه الحركات التمثيلية حتى تقدم نحو السلطان وقبل يده .

أخذ السلطان بحركات الفتى ، قال له بكثير من الود :

- تعال . . تعالی یا ولیدی ، تقرب مني .

ومثل الفتاة الحنجلة نظر غزوان نحو ابيه يستشيريه ما اذا المكان الذي اشار اليه السلطان اكبر منه ام لا ، فلما جاءت كلمات الحكيم الواثقة :

- اجلس حيث امر صاحب الجلالة .

جلس غزوان ، نظره الى الارض ويداه متشابكتان عند صدره . اما حين سألته السلطان عن احواله ودراسته فقد بدا خجولاً وهو يجيب بنفس الكلمات والتعابير التي لفته اياها ابوه خلال الايام الماضية ، ولما سألته من جديد ما اذا كان يريد ان يصبح طبيباً مثل ابيه ام يفضل عملاً آخر ، رفع رأسه لأول مرة ، نظر الى ابيه ، ثم نظر الى السلطان ، وقال بصوت واثق مع ابتسامة :

- العمل الذي تريدونه سأقوم به يا صاحب الجلالة !

ضحك السلطان ضحكة مجلجلة وهز رأسه دلالة الاعجاب وقال مخاطباً الحكيم :

- نعم الخلف لنعم السلف .

وظل الحكيم مطرقاً فلم ينظر في وجوه الذين حوله ، وبدا اكثر من ذلك محرجاً ، وكأنه فوجيء . وبعد ان مر بعض الوقت رفع عينيه الى غزوان ،

ما كاد الاسبوع الاول يمر على وصول العائلة ، حتى استأذن الحكيم ، بكثير من التواضع والحجل ، ان يوافق صاحب الجلالة على ان تقوم حرمة بزيارة خاصة للماجدة زوجة السلطان ، لتقدم احترامها ولتكون في الخدمة . واذا اجاب السلطان ، بكلمات سريعة مرتبكة ، ان الامر لا يحتاج الى هذه الموافقة ، ولان نساء القصر ، بمن فيهن حرمة ، لم يتعودن على مثل هذه المراسيم ، فقد خطا الحكيم خطوة اضافية اذ طلب من جلالته ان يتفضل بتخصيص دقيقة واحدة فقط من وقته لكي يقوم غزوان بتقبيل يديه . وغزوان الذي اصّر منذ اليوم الثاني على ان يرافق اياه « لمرة واحدة . . . » ويزور القصر ويعرف اين يجلس ابوه وكيف يعمل ، رافقه مرة ثانية ، والآن وصاحب الجلالة السلطان يهز رأسه ويقول ان « ابنك مثل اولادنا يا دكتور واهلاً وسهلاً ولازم نتعرف عليه » يغمز الحكيم مليحان حاجب السلطان ، لكي ينادي على غزوان ويقول موضعاً ومعتدراً :

- خير البر عاجله يا صاحب الجلالة ، وغزوان جاء معي اليوم ليقوم بهذا الواجب .

ومثل القصص التي تروى عن الاولاد الاذكياء الذين تتاح لهم الفرصة لمقابلة الملوك والرؤساء ، كيف يتكلمون وكيف يتصرفون ، فقد حفظ غزوان الدرس كله ، فما كاد يدخل بثيابه العربية البيضاء الانيقة ، ووجهه الاحمر ،

أما سلمى التي بدت كاللعبه ، بصفائرها الذهبية وملابسها الانيقة ، فقد لفتت نظر الجميع من الوهله الاولى بحركاتها واسئلتها . كانت اول الامر كالقطعة الخائفة ، تربض الى جانب امها ، لكن بمرور الوقت بدأت تنقل نظراتها في وجوه النسوة وتتطلع الى كل ما حولها ، وقد ردت على الابتسامات بخجل في البداية ثم ما لبثت ان تجرات ، أما حين قامت احدى النساء وغابت فترة قصيرة ثم جاءت بسلسلة ذهبية وطلبت من سلمى ان تقترب ، فلما تمتعت دفعتها امها وشجعته فتقدمت بنهيب اقرب الى الخوف . وحين وضعت تلك المرأة السلسلة في رقبتها وقبلتها احست الصغيرة بالفرح والطمأنينة ولم تمنع في ان تجلس لبعض الوقت إلى جانبها وان تنظر اليها بين فترة واخرى .

وداد وهي تحدث زوجها عن الزيارة لم تستطع ان تنقل اليه صورة واضحة ، اذ اضافة الى عدم وجود موضوع يشكّل محوراً للحديث ، فقد كانت تعطي للنساء صفات او وضعيات مبهمه للغاية ، كأن تقول المرأة الكبيرة . وتلك الاصغر منها ، وهذه التي كانت تجلس ناحية اليمين ، والثالثة عن يسارها . هذه الطريقة في نقل ما جرى خلقت لدى الحكيم تشويشاً اضافياً . كان يريد ان يتحدث عن زوجة السلطان بالذات : عن جمالها وعمرها ، ما تحب وما تكره ، واي نوع من النساء هي ، لكنها لم تكن متأكدة . وتلك الاوصاف العامة المتداخلة جعلت الصورة تهتز وتضطرب ، أما الاسئلة التي تناولته بالذات فقد مرت عليها زوجته بشكل عارض ، ولم تذكر الا اقل الاشياء . وحين أطلعت على السلسلة الذهبية التي أعطيت للصغيرة ، والتي خلعتها من رقبتهما وهما في السيارة « خوف ان تضيع . . وستكون لك عندما تكبرين » هكذا قالت لها ، ووضعتها فور عودتها في تلك العلبة التي تضع فيها حليها واشياءها الثمينة ، حين اطلعت الحكيم على الهدية بدا مسروراً للغاية . قلب السلسلة عدة مرات وارتمت على وجهه علامات التفكير . قال في لحظة اشراق :

- انا واثق تماماً ان المرأة التي قدمت الهدية هي بالتأكيد زوجة السلطان !

وحين ابدت زوجته دهشتها واستغرابها ، قال وكأنه لم يلاحظ :

- العادة في هذه البلاد ان « الكبير » هو الذي يقدم الهدية ، ولا يمكن

وقال له بحزم ، لكن دون غضب: الزيارة انتهت ويجب ان تنهض وتخرج . والصبي الذي تحرك اكثر من مرة ، دون ان يعرف كيف يستأذن ، ووقف ثم جلس ، تطلع مجدداً الى ابيه وكأنه يلومه أنه لم يوضح له كيف يجب ان يتصرف ، قال الحكيم :

- والآن . يا صاحب الجلالة ، هل تأذنون لخادمكم بالانصراف ؟

والسلطان الذي لم يتعود ، بعد ، على هذه الطريقة في الخطاب ، بدا له ان الحكيم يبالح ، رد بارتباك :

- انشاء الله نشوف المحروس مرات ومرات !

بعد بضعة ايام قامت زوجة الحكيم بزيارة لجناح النساء في القصر . وقد اصطحبت معها سلمى . ورغم الجهد الكبير الذي بذلته لاستعادة بعض الكلمات التي حرص الحكيم على ان يرددها امامها ، وطلب اليها ان تحفظها وتستمعها ، فقد احست انها غير قادرة على ان تلوي لسانها كما يفعل هو ، ولذلك ، وخلال اللحظات الاولى ، لم تتردد في ان تكون كما هي ، لانها اذا اصبحت موضع سخرية ، منذ البداية ، فلن تستطيع شيئاً في وقت لاحق ، ولانها قالت لنفسها « الافضل ان يضحكن من لهجتي من ان يضحكن علي » . واذا فوجئت بنساء القصر ، ولم تستطع ان تحدد بالضبط ايها زوجة السلطان ، فان بعض ما قيل فانها ، او لم تستطع ان تفهمه على وجه مؤكد . ومع ذلك استطاعت ان تميز الاميرات من الخاديات ، ليس فقط من الملابس ، وانما من طريقة التعامل والنظر ايضاً . واستطاعت ان تفهم الكثير مما سألها عنه . كانت الاسئلة مركزة حول الحكيم بالدرجة الاولى . سألها ما اذا تزوجته قبل ان يصبح حكيماً ام بعد ذلك ، وهل هو قادر على معالجة كل الامراض . وسألها ايضاً ، مع ابتسامات غير بريئة ، ما اذا كان يعالج النساء وكيف « يكشف » عليهن ، وهل يكون عادة معهن بمفرده ام يكون احد معه . وزوجة الحكيم التي اجابت عن هذه الاسئلة دون تحرج ولم تخف شيئاً ، لم تدر ان كانت ابتساماتهن والنظرات التي تبادلنها نتيجة المعلومات التي ذكرتها ام بسبب لهجتها . ومع ذلك شعرت بالسرور والرضا وهي تتحدث ، واحست انها يمكن ان تكون قريبة من هاته النسوة ، وان تصبح محبوبة !

لاحد اقل منه او اصغر ان يتجاوزه ويفعل ذلك

- ولكنها لم تكن تجلس في الوسط!

- انهم يجوبون ان يكونوا قريين من الضيف .

- وامرأة ثانية ، اكبر منها ، ويسمونها امي زهوة ، كانت تنظر الى الجميع وتراقب الجميع ، وكانت اية واحدة لا تتكلم قبل ان تنظر اليها وتستأذنها .

ومن جديد بدأ الحكيم يستوضح ويدقق ، لكنه ركز اسئلته حول المرأة الكبيرة بالذات . ماذا قالت وكيف تصرفت ، واصراً وهو يسألها من جديد ان يعرف كيف نظرت اليها !

في صباح اليوم التالي ، وسلمى تدور حوله ، تداعبه ، تنشده له بعض الاشعار والاغاني التي حفظتها ، قال لنفسه وهو ينظر اليها « انتِ وغزوان ولدتم في نفس البرج : برج الدلو ، وبرج ابوكم ما هو بعيد عنكم » .

وغرق الحكيم في افكار واحلام كثيرة ، لكنها كانت مضطربة متداخلة ، وحين جاء ابو عبد الله بقهوته المرة قال له الحكيم وكان يتسم :

- اذا الشيء اللي بيالي صار ، يا ابو عبد الله ، راح اعطيك اكرامية اكبر من معاشك !

ومثل الحكيم دوراً كاملاً وهو يشرب القهوة ، وبدا واثقاً متأكداً وهو يهز الفنجان الثالث والأخير ، دون ان ينظر الى ابي عبد الله الا نظرة صغيرة خاطفة ، تماماً كما يفعل السلطان حين ينظر الى فرحان .

قال الحكيم لنفسه وهو يصعد السيارة « برج الجدي او الدلو يحول الرمل الى ذهب وانشا الله املي ما يجيب ! » .

وداد الحايك ، او « ام الاولاد » ، كما يجب الحكيم ان يسميها ، ليست سليمة عائلة عريقة كما يطلق عليها محمد عيد ، فهي البنت الأخيرة لوجدي الحايك ، ذلك الرجل الذي تعب من كثرة التنقل بين المهن والاماكن ، الى ان استقر في طرابلس . وفي طرابلس ، حيث بدأ الدكتور صبحي ممارسة المهنة ، وعن طريق امه ، الشديدة التدبير ، والتي تعتبر ان الزواج ستر ، وان من يريد اختيار فتاة للزواج يجب ان ينظر ، قبل الجمال والمال ، الى امها ، كيف تعامل ابها ، وهل تخاف الله وتميز بين الحلال والحرام .

عن طريق امه تزوج الحكيم بنت وجدي الحايك ، وكان الاب ، في تلك الفترة ، قد استقر على مهنة جديدة : قسام شرعي ، وهذه المهنة التي استهوتها تماماً ، جعلته لا يتحدث الا عن الموت والموتق : كيف خطف الموت البشر وابقى الشروة ، لكي يختلف عليها الاحياء ، ولولاه لامات الناس بعضهم بعضاً ، وان الموتق ذهبوا الى الباري باكفانهم ، ولا يمكن تمييز الواحد من الآخر او التفريق بينهم .

كانت وداد تسمع هذه القصص في الليل والنهار ، وتولدت لديها نتيجة ذلك كراهية لهذا البيت الذي لا تدور فيه الا قصص الموت والموتق . أما حين جاءت ام الحكيم تخبره ثم تخطب ، فقد مثلت معها وداد دوراً كاملاً ، واجتازت بنهايته الاختبار ، فما كادت تقترب منها ام الحكيم لتتأكد من راحتها حتى اعطتها نفسها ، وقبل ان تطلب منها القهوة اقترحت على امها ان تصنعها

اعتبرت وداد ان فكرة من هذا النوع لا تزال مبكرة ، ولا تقتضي خلافاً بشأنها مع زوجها ، ولم تظن ان الحكيم قرر السفر والمغادرة .

في السنة التالية ، وحين تقرر ان يرافق بعثة الحج ايضاً ، وقبل اسابيع من موعد السفر ، ولكي لا يترك لنفسه او لغيره الاعتراض او المناقشة ، قام بتصفية العيادة وتحويل الزبائن . وفي الأيام الأخيرة ، حين كانت وداد تعد له ملابسه والاشياء التي يحتاجها ، قال لها ان اقامته ، هذه المرة ، ستكون طويلة ، وقد يعث وراءها لكي تلتحق به ، ولذلك ترك لها مبلغاً كبيراً ، اكبر من اية مرة سابقة « أما البيت فاتركه وخيريه تتولى بعدك كل شيء » . ووداد التي تعودت على الموافقة ، وتعودت اكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون ان يقول لماذا ، لم تعترض هذه المرة ايضاً ، خاصة وان احتمال ان يراجع الحكيم افكاره وقراراته احتمال لا يزال قائماً . أما بعد ان استقر في حران ، وجاء عدة مرات في زيارات قصيرة ، وحدثها عن هذه المدينة التي تعج بالحياة والمال والمستقبل ، وقال لها ان عيادته السابقة في حلب لا تتعدى ان تكون غرفة حراسة في المستشفى الكبير الذي بناه في حران ، وأنه بدأ الآن بتحقيق الافكار والاحلام التي ملأت رأسه ، فكانت تحاول ان تصدقه ، وان كان يكفيها ان تبقى حيث هي ، وان يأتي الحكيم بين فترة وأخرى ، وان يرسل من المال ما يكفي للانفاق على البيت والاولاد .

فضى الحكيم سنوات في حران ، بعيداً عن زوجته واولاده ، لا يأتيهم الا مرة في السنة ، وبعض الاحيان مرتين ، لكن لا يبقى الا اسابيع قليلة ، يكون خلالها مشغولاً بتأمين الادوية والمعدات والممرضين ، وبعض الاحيان الاطباء ، وبحث مع الكثيرين في مشاريع وافكار لا تمت الى مهنته باية صلة ، ثم بعد ذلك وبسرعة يسرم عقوداً وينجز مشاريع لا يعرف احد طبيعتها وحجمها ، او كيف ستدار ومن سيدبرها . فاذا سأله وداد نجيب بكلمات قليلة تزيد عقوده ومشاريعه غموضاً . أما املاك العائلة التي كانت السبب في رحيله اول الامر ، فلم يعد يتطرق اليها . أما حين سأله ذات مرة ، فقد نظر اليها باستغراب كأنه يحاول ان يتذكر ، فلما دارت عيناه وعرف عما تسأله ابتسم ابتسامة كبيرة واجاب :

بنفسها . أما حين نظرت ام صبحي ، في لحظة غياب وداد وامها ، تحت الفراش فقد تأكدت ان « نظافة الجماعة مثل البلور او مثل نظافة الجامع » . بعد ان اطمانت العجوز لكل شيء جرى الحديث عن الخطبة . . ثم الزواج .

والحكيم الذي رأى الفتاة ، وقد اعجب بالصفيرة الطويلة والبشرة البيضاء ، وكانت وداد تختلف عن الاخريات بطريقتها في التصرف ، لم يتردد كثيراً في الموافقة على رأي امه ، وان كانت مهنة الاب قد سببت له نوعاً من المضايقة . لكن وجدي الحايك الذي ظل بعيداً في المرحلة الاولى ، حين كانت تجري المفاوضات وتدبر الامور ، ما لبث ان ظهر ، لكن ظهوره الناعم المثقن ، وطريقته في الكلام والتصرف ، تركنا نوعاً من الراحة في نفس الحكيم ، حتى أنه لم يحس انه امام رجل مهنته تقسيم الموارث . ووجدي الحايك الذي ذكر عرضاً المهنة ، اشار بطريقة لا تخلو من الذكاء والمكر ، ان هذه المهنة لا تختلف عن غيرها ، وانه يمارسها لأنها اقل ازعاجاً من مهن أخرى ، وأنها تماماً مثل مهنة النجار أو مهنة الخلاق ، وكاد يقول ومهنة الطبيب ايضاً ، لكن الابتسامة الصغيرة والعبارة العامة التي استعملها اوضحت ما يريد دون كلمات .

ولكي لا يواجه الطبيب احراجاً ، وربما اساءة لفهم مهنته بالذات ، فقد غيّر مكان سكنه ، وتكتم على امر الزواج فترة من الزمن ، بل واخذ يفكر بترك طرابلس الى مكان تتوافر فيه فرص اكبر ، وهذا ما حمله الى حلب . وفي حلب كون لنفسه اسماً ومنزلة ، وبعدها انتقل الى دمشق فبيروت ، الى ان صار طبيباً لبعثة الحج ، وبعدها طبيباً في حران .

وداد التي كانت امام شبح الموت الذي تخافه وتهرب منه باستمرار ، لان « رائحة الموت عالقة بثياب ابي ، وجو الآخرة لا يفارق ابي » لم تتردد في ان توافق الحكيم على الانتقال من مكان الى آخر . أما حين رافق بعثة الحج اول مرة ، وعاد وذكر أنه لم يتوصل الى نتيجة بالنسبة « لاملاك العائلة » لأن الوقت كان قصيراً « وهؤلاء الحجاج المسنون لا يرتاحون ولا يتركون احداً يرتاح » ويجب ان يعود مرة اخرى لمناجاة بحث الاملاك « ولان هذه البلاد لها مستقبل ، ويمكن للانسان ان يصبح غنياً بين يوم وليلة ، اذا كان فحياً وشاطراً » .

الاولى من زواجهما ، واذا احست بعد تلك السنين ان الحكيم جرفته افكار وهموم لم تستطع ان تفهمها تماماً ، فقد فسرت الامر بالتعب والانشغال ، وكانت متأكدة انه سينتفض مرة اخرى ، كما ينتفض الديك في شمس يوم ربيعي بعد رذاذ خفيف ، لكي يعوض الأيام التي فاتتها ، لكن والحكيم يفرق اكثر فاكثراً ، ثم يسافر ويغيب فترات طويلة ، فان هذا الجسد الذي حاولت بكل طريقة ان تخضعه ، ان تروضه ، مرة بالرضا واخرى بالغضب ، كان يتمرد عليها ، يصرخ ويطالب ، خاصة في اواخر الليل وعند الفجر ، ويظل مستقيظاً متحفزاً كأنه ينتظر بعد لحظات دقائق يعرفها لكي ينتفض وينقض ولكي يعطي ايضاً !

- المسألة فيها أمل كبير . . كل ما تحتاجه الملاحقة والوقت !

ولم يصف شيئاً آخر ، ولم تسأل هي مرة اخرى .

خلال هذه السنوات لم يتغير الحكيم وحده ، تغيرت وداد ايضاً . فالنظرة المسألة الى كل ما حولها ، وتلك الطاعة التي كانت تميز سلوكها ، وتصرفاتها ، والفلسفة التي حاول الحكيم ان يزرعها في وجدانها خلال السنوات الاولى من زواجهما ، تغيرت كلها . لم يجر التغير سريعاً او دفعة واحدة ، كما لم يجر نتيجة تدبير واع او لسبب محدد .

كانت تريد ان تهرب من الموت ، ووافقت ان تكون بذلك الشكل مع الحكيم ، لانه كان يملاً البيت وكل ما حولها ، ولانها لم تجد شيئاً آخر ولم تكن تعرف احداً غيره . الآن والحكيم يتعد ويتعد ، وحين يأتي في تلك السفرات القصيرة ويفرق في مشاريع جديدة ، وجدت وداد ان الحياة التي تحياها صورة اخرى من صور الموت الذي هربت منه .

كانت الأيام والاسابيع التي يقضيها الى جانبها تشعرها بالرضا ، لكن تحس انها بحاجة الى اكثر من ذلك ، فالمال الذي يشير اليه اشارات سريعة وغير مباشرة لا يمكن ان يكون مالياً حقيقياً ، اذا لم تتلمسه بيديها ، اذا لم يتحول الى شيء يمكن ان تستمتع به في كل لحظة ، والاهمية الاضافية التي صارت لزوجها ، هناك ، في حران ، تلك المدينة المجهولة والتي لا تعني لها شيئاً محدداً ، لا تمثل اهمية بالنسبة لها ما دامت بعيدة منسية لا يتذكرها الا كما يتذكر الادوية والأمراض والموت . أما الاولاد الذين كانوا يكبرون كل يوم ، وكان يريد هم على شاكلته او نسخاً اخرى منه ، فلم يعودوا يرونه الا فترات قصيرة ، فحين يكون موجوداً لا يكونون ، وحين يعودون من مدارسهم يكون قد غرق في مشاريع ومناقشات غامضة مع اناس لا تعرف كيف استخرجهم كالمساحر ، فجاءوا لزيارته مرة او مرتين ثم لم تعد تراهم بعد ذلك .

وجسدها كان هماً بالنسبة اليها . فالحكيم الذي اشتعل وكاد يحترق قبل ان يتزوجها ، وقد احست ذلك من نظراته ، ومن تلك الرجفة التي كانت تميز شفته السفلى ، كان هذا الجسد طوفاناً على كل شيء خلال السنوات

وانها تحس بالراحة او ما يقارب الشفاء بمجرد ان تلامس يدها جسدها ، واذا كانت قد كذبت عليه اكثر من مرة ، وزعمت انها تناولت الدواء ، فلم تكن تشعر انها بحاجة الى الدواء قدر حاجتها اليه .

في المرة الرابعة ، وقبل ان يفحصها ، قالت له انها لا تعرف كيف يأتيها الالم وكيف يغادرها ، واكدت ان ما تشكو منه لا علاقة له بالمرض ، قالت ذلك ونظرت اليه بطريقة معينة ، ولم يكن عماد بحاجة الى كلمات اضافية لكي يفهم . أما حين طلب اليها ان تنزع ملابسها لكي يقوم بفحصها ، فقد اصبحت خلال ثوان ، وقبل ان تصل طاولة الفحص ، مثل عصفور يرتجف . كانت خائفة ومنتشبة ، تملكها حالة اقرب ما تكون الى الحمى . كانت تحس ان في داخلها قوة اكبر منها ، قوة جامحة ، هائجة ، واشبه ما تكون بالريح ، وخلال ثوان قليلة ، دون ان تدرك ودون ان تخطط ، وجدت نفسها تتعلق برقبته ، تحتضنه . واذا لم يستغرب ، وسيطر على عواطفه ، بان اعطى لوضعه مظهراً اقرب ما يكون الى الاستجابة الحذرة ، فقد داعبها ونظر الى اعماق عينها وكأنه يقرأ فيها موافقة أخيرة ، فلما تأكدتفق معها على الليلة ذاتها .

بعد الليلة الاولى ، وبعد كل ليلة تلتها ، كانت وداد تحس ان في داخلها انساناً آخر هو الذي يفعل كل شيء . واذا كانت قد بكت على صدره في المرة الاولى كما تبكي الطفلة الصغيرة ، ولم تستطع ان تنظر الى عينيه ، ولم تستمر في الاستجابة الى مداعباته ، فقد اصبحت بعد تلك الليلة امرأة من نوع مختلف : اصبحت حائرة . كانت تقرر بحزم يصل حدود الغضب ان لا تكرر هذه الخطيئة . وكانت تعاقب نفسها . لكن ما تكاد فترة تمضي ويلتهب جسدها من جديد ، وتتلاعب فيه تلك القوى الخفية ، تقوده وتسيره ، حتى تنسى كل الكلمات التي قالتها ، والوعود التي قطعتها ، وتندفع نحوه بقوة اكبر .

استمرت الامور هكذا شهوراً طويلة ، وقد خصصت كل ذكائها وجنونها لكي تصل اليه دون ان يحس ودون ان يدري احد ، وكانت دائماً تجد الوسيلة الى ذلك . ورغم ان للأخريين ، خاصة النساء اللواتي يعرفنها ، عيوناً خفية ترى دون ان تنتظر ، وتعرف من رائحة الاشياء والظلال ، فان وداد التي تحس في عيون النساء حولها تساؤلات اقرب الى الاتهام ، وتحس ان هذه العيون

الرجل الأول الذي عرفته بعده جاء به الحكيم نفسه . لم يكن ذلك الفتى الذي يسكن مقابل بيتهم في طرابلس ، والذي كان يروق لها ان تراقبه ساعات وساعات من وراء ستارة نصف مسدلة ، وهو يدرس ، وهو ينزع ثيابه ، وهو يقوم بتمارين رياضية . كانت تشتتبه ، كانت زفرتها حارقة حين ترى صدره العاري . وترتبت حين تراه في الشارع . ذهب ذلك الشاب دون ان تقول له كلمة واحدة ، رغم أن طيفه لم يفارقها ، فقد كانت متأكدة انها ستلتقي به في يوم من الأيام وستقول له كم كانت تحبه وكيف كانت تراقبه وتشتتبه!

الرجل الذي جاء به زوجها ، قبل سفره الى حران بثلاثة ايام ، كان طبيباً مثله ، او بالاحرى كان الطبيب الذي سيحل مكانه في العيادة . جاء الى البيت لكي يتكلم مع الحكيم « كلمتين على رواق » ولكي يتفاهما بصورة نهائية ، ووداد التي قدمت القهوة وجلست قليلاً ، فقد نظرت نظرة عابرة الى الطبيب الشاب ، احست انه اكثر خجلاً من الرجال الذين في مثل عمره ، او يمارسون مهنة مثل مهنته ، ووجدت شبيهاً اقرب الى التطابق بينه وبين ممثل مصري احبته ذات يوم ، كادت تقول له ذلك ، لكن الخجل او ربما التهيب الذي احست به تجاه رجل تراه لأول مرة ، منعها .

أما بعد ذلك ، وحين ذهبت الى العيادة ، نتيجة آلام كانت تحسها في جسدها كله ، وقد تم هذا بعد سفر الحكيم ببضعة شهور ، وبعد ان قام الدكتور عماد القباني بفحصها فحصاً دقيقاً ، اكد لها ان ما تشكو منه عارض طارئ ، واعطاها دواءً مهدئاً ، وجدت ان هذه الآلام تعاودها مرة بعد أخرى ،

وغاب الدكتور عماد القباني من حياتها، رغم انها ظلا يعيشان في نفس المدينة لعدة سنوات لاحقة .

بعد ان استوعبت وداد الدرر ، واعتبرت ان ما وقع زلة كانت اقوى منها ، وحصلت رغم ارادتها ، توجّهت بكل قوى جسدها وعقلها نحو الاولاد . والحكيم الذي كان يعتبر ان الاولاد امتداده على هذه الارض ، وسوف يحملون ، جيلاً بعد جيل اسم العائلة وملاحها وتقاليدها ، لم يدرك ان اللحظة الخاطفة التي كوّنت كل واحد من هؤلاء الاولاد ، لا تعني شيئاً ازاء التراكم غير النهائي الذي حصل منذ تلك اللحظة ، والذي لا يزال يحصل ، ويبقى كذلك حتى اللحظات الأخيرة . ولذلك فان ما يعتبره امتداداً غير قابل للمراجعة ، او حسب تعبيره ، سجله الذي لا يمحي ولا يزول ، مجرد رغبة او مجرد وهم لا يصدقه غيره ، وانه سيتلاشى حالما يغيب او يتعد ، وهذا ما حصل فعلاً . أما ما تفترضه خيرية من الشبه ، خاصة بين غزوان وأبيه ، وما يترأى كذلك للحكيم في لحظات نشوته فانه لا يتعدى الطيف .

وجسدها ؟ هذا الذي يعوي ، يغضب ويتحدى ، ولا يكف عن المطالبة ، كيف تحاوره ؟ سوف تروضه ، ولن تتردد في ان تذله اذا اقتضى الأمر . وهذا ما حصل خلال الفترة الواقعة بين زواج عماد القباني ومجيء راتب الفتال .

اذ بمقدار ما كان يبدو راتب الفتال بنظر الحكيم شاباً ضائعاً افسده الميراث المبكر ، خاصة بعد ان قضى بضع سنوات بين الاسكندرية ومرسيليا ، بحجة الدراسة في فترة والتجارة في فترة لاحقة ، فقد عاد من هذه الرحلات ، بعد ان انفق قسماً كبيراً من المال الذي ورثه ، ولم يحصل على اية شهادة ، لكن حصل في المقابل على تجربة في الحياة واتقن اكثر من لغة اجنبية .

أما القرابة التي تجمع بين راتب والحكيم فكانت موضع شك ، او بالاحرى غير مؤكدة ، لان الحكيم لم يكن سعيداً بها . وكان يحاول ان ينفخها ، او في احسن الاحوال لا يعترف بها بوضوح .

ظلت الامور هكذا فترة من الزمن ، وراتب الذي لم يكن مهتماً باثبات

تجلدها ، فقد حرصت اكثر من قبل على ان تتوارى ، ان تهرب . فاذا توارت او هربت لفترة اطول من ان يحتملها عماد ، كان دائماً يجد الطريقة التي يصل اليها : اجرة العيادة ، الضرائب المترتبة على البناء ، فواتير الماء والكهرباء القديمة . اضافة الى ضرورة المرور على البيت لتفقد الاولاد والتأكد من وضعهم الصحي ، كما اوصاه الحكيم قبل سفره ، كانت هذه اسباباً كافية ، فان لم تكن وجد غيرها ، وفي كل مرة تحاول الهرب يلتقطها ، ويعيد اليها جسدها او احساسها بهذا الجسد ، ورغم محاولات المقاومة كانت دائماً تقع ، وبعد كل مرة تعاودها الاحزان ومشاعر الضالة ومعاداة الجسد ، لكنها مستمرة ، قوية الاستجابة ، لا تعرف حداً او نهاية .

واذا كان قد عذبا منذ البداية انها لم تخطط لهذا الذي حصل ، فان ما يعذبا اكثر هو شعورها ان الدكتور عماد ضحية ، وانها هي التي اقتحمت عزله وارغمته ، وهذا الشعور الذي اخذت تنساه ، او تغيبه في زوايا الذاكرة ، خاصة وهي ترى لهفة ضحيتها وتوسلاته ، وذلك التضاؤل الذي يصل حدود التلاشي امام جبروتها الذي يزيد ويفيض مرة بعد أخرى ، شهراً بعد آخر ، فقد جاء الوقت لكي تضع بنفسها حداً لكل شيء ، اذ ما كاد يشعرها انه قرر الزواج ، وان الوضع الجديد يفرض عليهما انقطاعاً لفترة من الزمن ، وطريقة جديدة في اللقاء والعلاقة ، حتى قررت قراراً لم تتراجع عنه ابداً . استمعت اليه بعيون مفتوحة ، وكأنها تتابع باهتمام كل كلمة يقوها ، ولما انتهى ، ولم تعرف متى انتهى ، حتى ابتسمت ابتسامة ظافرة وقالت كلمة ظل يتذكرها سنوات طويلة :

- انا التي اردت في الماضي . . وانت الذي تريد الآن ، ودائماً الكلمة الأخيرة للرجال . .

ولم تودعه ، ولم تقل له كلمة بعد ذلك ، حتى لما جاء بعد عدة شهور حاملاً حقيته الطيبة ليقوم بفحص الاولاد ، طلبت من خيرية ، اخت الحكيم ، ان تستقبله وان تقدّم اليه القهوة . ولما جاء مرة اخرى . . اثناء زيارة من زيارات الحكيم ، لم تقابله . ادّعت وتظاهرت بالمرض ، وقالت لزوجها ان الصداع يحصد رأسها ولا تستطيع مجرد الوقوف . .

جسدها . كادت في لحظة من اللحظات ان تقول ذلك للحكيم ، لكن لم تجد في نفسها الجرأة ، ولم تجد ضرورة ايضاً . وحين غاب راتب وقامت تلك القطيعة غير المعلنة ، غابت معه نظراته ، وتلك الشهوة اللافتة .

الآن وهو يعود ، ووداد تسمع ما يقوله الرجلان ، وهي تحمل الاطباق والكؤوس ، وهي تعد المائدة ، وهي تتحرك هنا وهناك ، تحس ان ثيابها تنطير من فوق جسدها . كانت الثياب تتساقط ، قطعة بعد اخرى ، يهدوء مرة وبعنق مرة اخرى ، لتصبح عارية ، عارية تماماً ، فما تكاد تضعم الاطباق على الطاولة وتتحرر يداها حتى تضعهما على خصرها ثم تنزلها قليلاً قليلاً لكي تثبت الثياب ، تشدها الى جسدها ، وحين تلتقي نظراته بنظراتها يتدفق الدم الى رأسها كأنه الشلال ، يعاود الصعود الى منابعه الاولى ، فتترتلك ، لا تعرف كيف تتحرك ، او الى اين تذهب او ماذا تفعل ، فالعيون التي تزحم طريقها وتحاصرهما تجعلها عصبية جامحة . وعندما يتكلم معها راتب ، وهم جلوس حول المائدة ، تجد ان طريقته تختلف عن طريقة الحكيم . يعرف كيف ينتقي الكلمات ، كيف يقولها ، ويعرف كيف يتسم ، ويعرف اكثر من اي شيء آخر كيف ينظر اليها . ان نظراته ، عبر طاولة الطعام ، بروق لا تتوقف الا لكي تبدأ من جديد ، ومع لهيها الكاوي يضيء جسدها كله ، يصبح شديد الدفء ، شديد الندواة وابيض كالحليب . وفي الليل المتأخر ، بعد ان يتفق الرجلان على جميع التفاصيل وتأوي الى النوم ، تحس ان جسد الحكيم ، وهو يستلقي الى جانبها ، رخو مترهل ، واشبه ما يكون بجسد الحامل . أما حين تنقلب على الجمر الذي في داخلها ، فانها لا تحتمله ولا تقوى عليه فاذا لفح جسدها نفس الحكيم ، اللاهث المتقطع ، فلا تعرف هل يبدأ الآن او انه قد انتهى !

قبل ان ينتهي الاسبوع الثالث سافر الحكيم . وان يتردد راتب على بيت الحكيم لكي يستفسر عن وصول بعض الاوراق ، ولكي يبحث بعض التفاصيل فذلك لا يثير شبهة او تساؤلاً . انه واحد من العائلة ، واثناء وجود الحكيم رأهما الكثيرون معاً ، وسمع الكثيرون ايضاً ان شركة جديدة قد قامت ، وهذه الشركة ليست لها وحدها ، انها للعائلة ، للمعارف ، ولكل

هذه القرابة أو نفيها ، وظل يبذل إقامته وعلاقاته مع تبدل الأعمال التي يشرع فيها ثم يصيبه الملل فيتركها ، الى ان جاءه الحكيم ذات يوم ، وكان قد استقر في حران ، ليعرض عليه صفقة العمر كما سماها . كان الحكيم بحاجة الى مكتب للاستيراد والتصدير ، وبحاجة الى رجل يتقن اللغات وسافر في العالم وتعرف على البشر ، وقبل كل شيء « واحد من عظام الرقبة » كما قال ، واكد اكثر من مرة ، في محاولة لان يثبت بطريقة غير مباشرة القرابة القوية التي تربطه براتب .

ما كان مثل هذا الاقتراح ليخطر ببال الحكيم لو لم يذكره به مطيع . وراتب الذي رأى في هذا الاقتراح آفاقاً واسعة وهامة ، وكان في مرحلة يحاول ان يجد مشترياً لعقار عرضه للبيع ، ولا يجد هذا المشتري ، وبدأ يواجه صعوبات مالية . . في هذه الفترة جاء الحكيم وجاء الاقتراح ، واتفق الاثنان دون صعوبة ، الشرط الوحيد الذي اصر عليه راتب « ان لا أقيم في موران او حران ، وأن أبقى «عصفوراً طياراً» والحكيم كان يريد هذه الصيغة بالذات .

بهذه الطريقة تم الاتفاق على تأسيس الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل في بيروت ، وانشيء لها ثلاثة فروع : واحد في حران ، والفرعان الأخران في نيويورك ومرسيليا . وفي اطار استكمال بحث التفاصيل والاجراءات تمت عدة زيارات بين الاثنين ، ولان القرابة كانت الاساس في قيام الشركة ، فقد كانت وداد موجودة دائماً . ومنذ الزيارة الاولى استعادت بحدة ذكريات المرات القليلة السابقة التي التقت براتب . مرة في حفلة زواج زينة بنت اخت الحكيم ، ومرة ثانية أثناء استقبال الحاج وهيب شخاشيرو لما عاد من الحج . ومرة ثالثة عند خيرية اخت الحكيم . في كل المرات كانت وداد تحس ان اول ما تفعله عينها هذا الشاب ، العابت الواثق ، ان تعريها من ثيابها . كانت نظراته ، بعد ان تستقر في عنقها بطريقة معينة ، تزحف فتجتاز جسدها من الرقبة حتى بطني الساقين . وفي لحظات قليلة تحس ان هذا الزحف الهادئ البطيء يتحول فجأة الى اكتساح يحرق كل شيء . كانت تخاف من هذه النظرات وتحبها . كانت تهرب منها ولكن تحس انها تحاصرهما تماماً ، فلا تلبث ان تستسلم اليها بلذة وكان عدداً غير محدود من الايدي يداعب كل خلية في

الأخر ، بالكلمات ، بالنظرات ، وباليدي ايضاً ، وكثيراً ما يفرقان في الضحك ، يضحكان على نفسيهما لانها تحولاً هكذا الى طفلين كبيرين شقيين لا يعرفان كيف يتصرفان او ماذا يريدان .

وفي الليلة الأخيرة بكت وداد مثل طفلة ، بكت لانها فرحت وعاشت بهذا المقدار ، وبكت ندماً ، وبكت شوقاً ، وبكت لان ديب الموت بدأ يتسلل اليها مرة اخرى . وحين حاولت ان تفسر ، بررت بكاءها امام الصغار والكبار انها تغادر المدينة وتغادرهم ، ولا تعرف متى تعود ومتى تلتقاهم مرة اخرى .

أما راتب الذي رأى الفرح واستمتع به ، والذي رأى الدموع ورأى الحزن ، فلم يجد سبباً كافياً لتفسير هذه الدموع كلها ، وهذا الحزن كله ، لكنه تظاهر بالحزن ايضاً ، ليجعل لنهاية مرحلة من حياته جلالاً يتذكره فترة طويلة .

من يريد ان يعمل . وراتب الذي تحرك ودار ، وسافر سفرات قصيرة لاستكمال بعض الأمور، وبحث مع الكثيرين عن احتمالات للتعاون، كان يتصرف بتلقائية ، دون خوف او عقد ، حتى اثناء زيارته لبيت الحكيم وتكون بعض القريبات او مع الاولاد ، ويجد ان الوقت اصبح مناسباً ، لا يتردد في ان يخوض في شؤون الشركة ، وفيما يجب ان يعمل . وخلال هذه الزيارات التي تتكرر في اوقات مختلفة من الليل والنهار ، تتشابك الخيوط ، تضيق الحلقة ، حتى اذا جاء في احدى الليالي ، وبعد ان انهى الاولاد واجباتهم وذهبوا ليناوما ، نظر اليها نظرة احترقتها تماماً ، قالت لها كل شيء .

هذه المرة لم تذب وداد ، لم تبحث عن خطيئة ، فجأة وجدت نفسها بين فكي الذئب . حاولت بعقلها ان تقول لا ، ان ترفض ، لكن جسدها كان اقوى منها . كان جسدها متجبراً طاغياً . والحكيم الذي عجز عن فهم هذا الجسد او عن ترويضه ، افلت منه . وعلى نفس الفراش ، وعلى نفس الوسائد، وان تغيرت مواضعها ، اكتشفت وداد ، لا بل وتأكدت ان الموت الذي حاربه طويلاً كان يطوقها من كل ناحية ، ولا بد ان يفترسها ان هي اذعنت واستسلمت له . الآن راتب ينفض هذا الجسد ، يغير دورته الدموية ، يبعث فيه الحياة من جديد ؛ قالت له في الليلة ذاتها ، وقد بدت متعبة اكثر من اية مرة سابقة :

ـ الآن ولدت من جديد !

واستمرت هذه الولادة وكبرت ما دامت الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر . أما بعد ان انتقل الحكيم الى موران ، وبعد ان اضافت الشركة للمواد التي تتعامل بها مواد البناء والخشب ، فقد اصبحت اكثر الليالي الواقعة بين آذار وبداية الصيف حرائق مجنونة يفتك لهبها بكل خلية مية او يمكن ان تموت في جسد وداد . ولما اقتربت ايام الرحيل الى موران كانت تجد ان راتب ليس مفيداً لانجاز بعض المهام فقط ، بل الرجل الوحيد الذي يمكن ان يساعدها في الاعمال التي تحتاج الى قوة الرجال وعضلاتهم ! ولذلك اصبح وجوده في البيت ، في اغلب الاوقات ، امرأ مالوفاً لا بل ضروري ، وعندما يتعذر على الاثنين ان يكونا في الفراش ، كان الواحد منها يداعب

هم اول من نقل الاخبار ، لكن من هم اكبر منهم سناً ، ثم الرجال بعد ذلك ، تحدثوا في الامر ، وقدر الجميع ان الفتاة هي البنت البكر للحكيم .

أما بعد ذلك ، وحين بدأ الكثيرون يراقبون العائلة ، ويتقصون حركاتها واختبارها ، وعرفوا ان الفتاة ليست بنتاً للحكيم ، وانما هي قريبة له ، فقد اختلطت الافكار بالرغبات بالاحلام ، لكنهم ظلوا في شك ، وظلوا في شوق ، ولم يتوقفوا عن التساؤل والانتظار . وبعض الذين عرفوا محمد عيد وسألوه من اين اتى الحكيم وماذا سيعمل ، وتجراً غيرهم وسأل عن العائلة ، عدد افرادها واسمائهم ، فان احداً لم يجروا ان يسأل عن هذه الفتاة بالذات ، وان ظل هذا السؤال يتردد في الصدور وعلى الشفاه ، لكنه لم يطرح ، وكأن طرحه اثم لا يقوى احد على اقترافه . حتى عبد الله ورضوان ، اللذان تبادلوا الابتسام والتساؤل الصامت ، حين عدا اولاد الحكيم ، ليلة وصولهم ، وتبين لهما انهم يزيدون واحداً عما ذكره محمد عيد ، لم يجروا اي منها ، وحتى وقت متأخر ، ان يسأل ، خاصة وان الفتاة ملأت البيت بحركتها النشيطة وبحيويتها .

لما بلغ شمران العنبيي خبر وصول عائلة الحكيم ، وان في عداد العائلة فتاة لا يعرف ان كانت بنته او مجرد قريبته ، قال بسخرية :

«لا تختلفوا يا جماعة الخير ، بنته او مرته ، قولوا بنت مطوط وما اظنكم الا صايين .»

حتى ابناء الحكيم ، خاصة الصغار ، الذين كان يفترض ان يصبحوا جزءاً من حي السفان ، وان يندمجوا بجو الاطفال وان يلعبوا معهم ، لم يفعلوا . كانوا اذا تحطوا الباب قليلاً ، يقفون خائفين او اقرب الى الجفلة وهم يتابعون الاولاد يلعبون ، اما اذا طلب منهم المشاركة فكانوا ينظرون في وجوه بعضهم ويبتسمون . ثم يتراجعون . واطفال حي السفان الذين بالغوا ، اول الامر ، في الاهتمام ، وتوقفوا وحاولوا ، ما لبثوا ان نسوا او تناسوا « الشوام » ، لكن ظلت نادية ، التي تطل بين فترة واخرى ، وتطلب من الصغار الدخول ، لا تنسى . اذ ما تكاد تطل برأسها ، ما يكاد يراها احد ،

منذ وصلت عائلة الحكيم الى موران وحي السفان والاحياء المجاورة لا تجد حديثاً امتع من الحديث عن « الشوام » ، فهناك الكثير الذي يمكن ان يروى ، عن الصغار والكبار ، عن الرجال والنساء . كيف يتكلمون ، كيف يلبسون ، وماذا فعلوا هذا اليوم او في ايام سابقة . ومحمد عيد الذي ساهم ، بطريقته ، في خلق هذا الاهتمام ، نتيجة القصص التي رواها ، ونتيجة الحركة الدائبة والانتقال المستمر من مكان الى آخر ، هو ذاته كان موضوعاً لاحاديث كثيرة يرويها الناس .

والحكيم الذي لبي دعوتين او ثلاثاً وجُهِت اليه من قبل الجوار ، اعتذر عن تلبية اية دعوة بعد ذلك ، بحجة انشغاله في القصر ، ثم بسبب وضعه الصحي ، كما اشاع محمد عيد . أما حين وصلت العائلة ، وابدت رغبات بدعوته ، فكان الجواب الذي يرد به ابو عبد الله او رضوان واحداً لا يتغير : «السيدة مريضة . والاولاد يأكلون في المدرسة» . أما عندما شوهدت زوجة الحكيم ، في الاسبوع الاول لوصولها الى موران ، برفقته ومعها الاولاد ، وقد ذهبوا جميعاً للتفرج على الارض التي سيقوم عليها بناء الدار ، وكانت المرأة مكشوفة الوجه ، تتكلم وتضحك ، وقد رآها بعض الصبية ، وتحدثت عرضاً الى اثنين منهم ، فقد اثار من الاهتمام والاستغراب الكثير ، لكن ما اثار الاستغراب اكثر تلك الفتاة الشديدة الفتنة بشعرها الذي كان يتطاير حين تركض ، او حين تلاعب الصغار . هذه الفتاة لفتت النظر بسرعة ، ولم يبق احد الا وتحدث عنها . صحيح ان الصغار الذين كانوا يجومون حول الاسلاك

غرباء، فازداد استغرابهم، فنظر بعضهم الى بعض وابتسموا !
اكثر من ذلك تعدد الحكيم ان لا يترك اي مجال ، او اية فرصة لعلاقة من
اي نوع ، اذ كان يصل الى البيت في اوقات مختلفة ، ولا يتوقف عند الباب ،
ولا ينظر حواليه ، وتعهد اكثر من ذلك الا يتلفت لكي لا تلتقي نظراته باحد
من المارة او باحد من الجوار . وقد حرص ايضاً ان يصلي الجمعة في جامع بعيد
عن حي السفان . واهل الحي الذين فسروا سلوك الحكيم وتصرفاته بالكبر
والعجرفة، رد عليهم محمد عيد بالوقت المناسب، ودون ان يسأله احد . كان
يشير الى الغرفة الجنوبية في بيت الحكيم :

- الى الفجر ، الى اذان الصبح ، لا ينام .
ويضيف بعد قليل وهو يبتسم :

- وضوء تلك الغرفة لا ينطفئ لحظة واحدة . .

ويترك للذين يستمعون ان يتأملوا، ان يستوعبوا ما قاله فيتابع :

- رجل لا يعرف الراحة ، فاذا اراد ان يستريح يغرق في الكتب
والمجلدات ، كل مجلد الف صفحة ، الفين صفحة ، ولولا ان ام غزوان تقول
له ارحم نفسك لواصل الليل بالنهار .

وبعد ان ينظر الذين يحدثهم الى بيت الحكيم ، او الى الجهة التي يفترض
انه فيها ، يقول كأنه يحدث نفسه :

- مخ . . مخ يفلق الصخر !

أما عن العلاقة بين الحكيم والسلطان فان محمد عيد لا يذكر اية
تفاصيل ، بناء للتوصيات المشددة التي كررها الحكيم يوماً بعد آخر في الفترة
الاولى ، ولذلك يكتفي باشارات ، غالباً ما تبدو واضحة بدلالتها ومعناها ،
بل دائماً اشد وضوحاً من الكلمات :

- لولا رغبة صاحب الجلالة ، ولولا الصداقة والمودة بينها التي تبلغ حد
الاخوة او اكثر ، لما رأيت الحكيم في موران .

فاذا حاول احد ان يستفسر عن هذه العلاقة كيف بدأت ومتى، يضحك

حتى يجيم الصمت . كان الصغار يصمتون قبل الكبار ، وكانوا ينقلون اخبارها
بسرعة : متى خرجت ، كم توقفت ، ماذا فعلت . واذا لم تكن تشعر ان
خروجها او مناداتها على الصغار يشير تساؤلاً من اي نوع ، وكانت تصرف
بعفوية ظاهرة، فقد قال لها الحكيم ذات يوم :

- اتركي الأولاد، إذا خرجوا إلى الشارع، يا نادية، لا تخرجي وراءهم .

وحين ابدت استغرابها ولم تفهم مايعنيه ، اضاف :

- ابو عبد الله موصى ان يدبر امرهم .

وضحك الحكيم ضحكة صغيرة وتغيرت لهجته :

- وموران ، يا بنتي ، ما هي مثل بلادنا ، واخلاق الناس هنا وعاداتهم

غير اخلاقنا وعاداتنا !

نظرت اليه ، سمعت وهزت رأسها ، لكن لم تعرف بمذا اخطأت ولماذا
يعاتبها الحكيم ، أما حين شرحت لها خالتها ان للناس في موران السنة طويلة ،
وانهم لا يوفرون أحداً، وان محمد عيد سمع همساً لم يرتح اليه ، وهو الذي نبه
الحكيم ، فقد ابتسمت وفهمت !

العلاقات التي قامت بين الحكيم وآخرين في موران محدودة ومدروسة ،
فقد حرص ، منذ البداية ، ان تبقى علاقاته العائلية ضيقة الى اقصى حد ،
« ابرد للرأس » هكذا قال ، ولذلك ظلت محصورة بعدد من العائلات
الاجنبية ، من ضمنها عائلة خبير الماني للمياه ، وكانت هذه العائلات تتبادل
الزيارات ، وان تكن زيارات متباعدة ، وكان اولاد الحكيم يذهبون الى بيوت
هؤلاء المعارف للقاء اولادهم او يستقبلونهم في بيوتهم .

واهل موران الذين تعودوا حياة من نوع آخر ، وبشراً من نوع مختلف ،
ابدوا استغرابهم وتساءلوا كيف يمكن ان يعيش هؤلاء الناس هكذا ، والى متى
يتحملون ان يبقوا بعيدين ومعزولين . واذا كانوا قد سمعوا ان زوجة الحكيم
مريضة ، فلا تستطيع الاستجابة الى دعوة او القيام بزيارة ، فقد رأوها مرة بعد
اخرى تخرج في السيارة وتذهب الى القصر . ثم رأوها تقيم ولائم لأناس

صعوبته ، ستكون له نتائج كبيرة ، وان التعب الذي يعاني منه الآن مؤقت ولا بد ان يخف او ينتهي خلال فترة قريبة ، قال كأنه يحدث نفسه :

- الله يسمع منك يا حكيم ، لكن محسوبك رأيه غير رأي .

- غير رأي ؟

- قصدي

وبدا انه غير قادر على ان يقول كل شيء ، ربما نتيجة الخجل او الحيرة .

سأله الحكيم بمكر :

- غيرتكَ موران يا ابو الشباب . . ها ؟

- لا . . . ولكن . شايف حالي لا للخجل ولا للخردل . . . وطول نهاري

اخصي عجول !

ادرك الحكيم سبب الشكوى . صمت قليلاً ، ثم قال وهو يتسّم :

- اسمع يا محمد . . . صحيح ان الوضع اختلف علينا : في حران الواحد منا ما كان عنده الوقت حتى يحك رأسه : عمليات ، معالجات ، ابر . . وغيره وغيره ، لكن زمن حران راح وانتهى ، وفي موران حالياً اكثر من خمسين طبيب ، ولذلك لازم نكون بمستوى الوضع الجديد!

انتهت المناقشة دون ان يتوصلا الى نتيجة ، لكن بدا انها تفاهما ، او على الاقل اتفقا على تأجيل المناقشة !

والحكيم الذي يحس ، منذ زمن طويل ، انه بحاجة الى محمد عيد ، وهذه الحاجة محددة وواضحة ، خلال الفترات السابقة كلها ، ولم يكن احدهما يفكر او يتصور انه قادر على أن يترك الآخر ، فقد اختلف الوضع الآن ، ومن الصعب اعادته الى ما كان عليه ، ومن الصعب ايضاً أن يتخلى محمد عيد عن كونه « مساعد الدكتور المحملجي » وكان يفخر بهذه الصفة ويصر عليها ، أما ما تعنيه الآن فلا يستطيع احد ان يحددها او ان يعطيها معنى واضحاً .

قال له الحكيم ، بعد شهور من المناقشة التي جرت بينها ، أنه يجد مناسباً له ان يعمل مع فهمي الحجار في توزيع الادوية ، ليشغل نفسه . بدا

محمد عيد ضحكة لا يمكن ان تفسر أبداً، ويعلق :

- كيف بدأت ؟ متى بدأت ؟ لو تكلمت لما كان للكلام نهاية !

أما متى يفتح الحكيم عيادة او مستشفى ، وهل سيستقبل ، في وقت قريب ، الناس ويعالجهم ، فان الاجابة التي يرد بها محمد عيد ، بعد انتظار وبشيء من الخوف ، تجعل الكثيرين في حيرة :

- اذا بقي للحكيم وقت !

والحكيم الذي يفرق اكثر فأكثر في جو من المشاغل الجديدة والهموم ، وتطول فترات وجوده في القصر ، او يسافر مع السلطان في جولات ورحلات ، اخذت لقاءه بمحمد عيد تتباعد وتختلف عن السابق ، واخذت اهتماماته تشتت وتتغير بين فترة واخرى . ومحمد عيد الذي كان يعرف ما الذي يجب ان يعمله وكيف ، يجد نفسه الآن « مثل ام العروس لا فاضي ولا مشغول » .

اما الافكار التي تحدث عنها الحكيم ، خلال الفترة الاولى من اقامتها في موران ، وقبل ذلك في حران ، فما لبث ان نسيها ، او شغلته امور اخرى عنها .

سأل الحكيم ذات مرة ، وكان قصر الحير على وشك الانتهاء ، وقد انشغل به محمد عيد كثيراً ، ما اذا كان سيفتتح عيادة او مستشفى في موران ، ولما صمت الحكيم فترة طويلة ، وكأنه لم يسمع السؤال ، او ليس لديه جواب عنه ، قال محمد عيد بتعريض :

- والله يا حكيم كانت احوالنا في حران ، احسن بألف مرة !

ولما نظر اليه الحكيم واستفسر بعينه تابع :

- ما ترك لك الهم لقمة هنية او نومة رضية !

وبعد قليل :

- ولا احد يعرف النتيجة .

وحين اندفع الحكيم يتكلم ، ووضح له ان العمل في موران رغم

الاستغراب على وجه محمد عيد ، وكأنه تلقى اهانة ، سأل الحكيم ، وبدت لهجته رخوة اقرب الى السخرية :

- وانت ، يا حكيم ، صرفت النظر عن الطب ؟

- الطب مثل ما كنا نمارسه أنتهى يا ابني . الآن ، كل شهر ، كل شهرين ، اكشف على صاحب الجلالة ، واذا كان بحاجة الى شيء فالى حبة اسبرين او حبة مقوى . . هذا كل شيء !

كان يمكن لكلام من هذا النوع ان يجعل محمد عيد على اتخاذ اصعب القرارات ، وقد لا يتردد في ان يخلف كل شيء وراءه ويمشي ، لكن الذي منعه ، الذي جعله ينسى ، ويتصرف وكأن لا مشكلة هناك ابداً ، شيء لم يستطيع ان يبوح به لاحد .

لم يكن الامير خزعل الابن الاكبر او الاول للسلطان خريبط ، فقد جاء قبله ولدان ماتا في الشهور الاولى ، وجاء ثالث ، منصور ، وعاش حتى بلغ السابعة عشرة من العمر ، لكن في معركة الرحبية الكبيرة قتل ، وقد خلف مقتله حزناً في قلب السلطان لم ينسه ابداً ، اذ ظل يحرص على ان يكنى بابي منصور ، بل وكان يستمتع بهذا الاسم . ونتيجة حزن السلطان ، او ربما لاسباب اخرى ، سرت عدوى الحزن الى آخرين كثيرين ، ولم يقتصر على اخوان واخوات منصور من امه ، اذ ظلوا يتذكرونه لسنين طويلة لاحقة ، ثم تحول هذا الحزن الى كراهية ، خاصة وأن كل يوم يمر يقرب السلطان خطوة جديدة نحو القبر ، ويقرب الامير خزعل خطوة نحو العرش .

صحيح ان الامير خزعل لم يفكر ولم يمد نفسه في البداية لان يحمل مكان ابيه ، او مكان اخيه منصور ، وربما كان في اعماقه يحس ان اخوة آخرين اكثر كفاءة منه او اكثر استعداداً ، لكن فجأة وجد نفسه ولياً للعهد ، ويمرور الايام نسي انه اصغر من منصور ، او انه لا يريد ان يكون سلطاناً ، خاصة وان احواله يحملون في قلوبهم ضغائن لا تخفى على السلطان خريبط ، لانه حرمهم من ملك كانوا يطمحون ويحاولون الوصول اليه ؛ تناسى هؤلاء الاخوال الضغائن فجأة فهجروا عزلتهم وابتعادهم وجاءوا الى موران مرة اخرى .

في موران ، ويهدوء وبصمت ، التفوا حول ولي العهد ، وظلوا ينتظرون

الامارة في حران ، كان يتفقد البناء كل يوم ، ويدق على الجدران ويطلب زيادة الاسمنت ، وكان نائبه يملأ البراميل !

وضحك بسخرية وهو يستعيد تلك الصورة ، وبعد قليل اضاف :

- الكبار للكبيرات ، يا صاحب الجلالة ، او كما قال فيلسوف الماني شغل الدنيا وملأ الاسماع : العظيمات للعظام اما الاشياء الصغيرة فلحاثالات البشر .

قال له بنوع من الحزن :

- صحتك يا مبارك ، يا اخوي ، اغل علينا من عيوننا ، وهالحين المهم ان تروح وترجع بالسلامة .

وحين هز فترأسه ، وهو يحاول الابتسام ، اضاف السلطان :
- وحننا اعطينا التعليمات للجماعة في كل مكان راح تكون به ، ولا تبخل على نفسك يا خوي .

وهكذا سافر فتر وغاب غيبة طويلة .

وبغياب الاخوة الثلاثة شعر السلطان بالراحة . لقد خلا له الجو اخيراً ، فبدأ واثقاً قوياً ، بل واقرب الى السعادة . فلما تدفقت الاموال ، واخذت تزيد يوماً بعد آخر ، اصبح شعوره بالثقة والقوة يزداد ، فنشر الاموال بسخاء بين ايدي الكثيرين ، وزيدت المخصصات التي تمنح لكل فرد من العائلة ، حتى للاطفال منذ لحظة ميلادهم . أما نساء قصر الروض اللواتي تحدثن في البداية بصوت مسموع ، واشركن الخدم والمريبات في حديث وفاة السلطان ، والشكوك التي ثارت حول ذلك ، فما لبثن ان نسين الأمر ، او لم يعدن الى تذكره ، فاذا تذكرنه اصبح حديثهن عنه همساً اقرب الى الخفاء .

والسلطان الذي تحسب في البداية ، واضطر الى قضاء الساعات الطويلة كل يوم يستقبل ويتحدث ، او يسمع للذين يتحدثون ، واضطر اكثر من ذلك لزيارة المناطق كلها ، حتى البعيدة ، وان يتفقد المشاريع التي تنفذ وان يسأل المهندسين وامراء المناطق عن المراحل التي وصلتها هذه المشاريع ، وما اذا كانوا بحاجة الى اعمادات اضافية او الى مساعدات من اي نوع ، فقد اصبح الآن اقل ميلاً للسفر او لان يشغل نفسه بهذه الامور ، خاصة وقد تكونت في القصر مجموعة من الادارات تهتم وتتابع اغنت السلطان عن القيام بهذه الامور شخصياً .

قال الحكيم للسلطان ، ذات يوم ، وهما في الشرفة يطلان على الابنية الجديدة لقصر الغدير :

- اذكرك ، يا صاحب الجلالة ، ان الامير خالد المشاري ، اثناء بناء دار

بين اثنين يجري همساً او قصيراً ، وكثيراً ما ينقطع فجأة ، اذ قد تأتي ، وقد يسمع واحد من الذين ينقلون اليها ، وعندئذ لا يسلم احد من عقابها .

وكما لا يعرف شيء عن ماضيها ، فان صلة القرابة التي تربطها بالسلطان غير واضحة واقرب الى التقدير . يقول بعضهم انها عممة السلطان خزعل . وذكر غيرهم انها مجرد قريبة او مربية . ومع ذلك فان منزلتها في القصر ، وعند السلطان خربط بالذات ، تفوق منزلة اية امرأة ، بل تفوق اي انسان . وقيل ايضاً ان تأثيرها عليه لا يوازيه اي تأثير . وقد فُسر الامر في وقت من الاوقات انها كانت تملك ثروة كبيرة جداً ، وقيل كنوزاً ذهبية ، وقد اعطتها كلها للسلطان حين كان فقيراً محتاجاً ، وحين كان يبحث عن يسلفه لطعام جنده ، الذين كادوا ينقلون عليه ويتركونه . وقد حفظ لها السلطان هذا الجميل بعد ان تغيرت الظروف .

ناشد الدبلان الذي كان يصب القهوة للسلطان خربط ، ثم اعفي من هذه المهمة ، بعد ان تقدم بالعمر ، واصبحت يده ترتجفان ، لكنه ظل في القصر ينتقل من مكان الى آخر ، يجيب الذين يسألونه عن الشيخة باصبعه وعينه ، طالباً منهم السكوت ، فاذا الحوا عليه ، وكان مطمئناً لهم واثقاً ، يلتفت اكثر من مرة بحذر ثم يهمس ، وكأنه يكلم نفسه :

- والله . . . والله لو كان عندها الحيمة ، بطول الاصبع ، ما كان غيرها صار السلطان!

ويشير باصبعه الى القدر الذي يعنيه ، ثم يلتفت مرة اخرى ، ويتابع :

- وهي بدون ذلك راكبة وغيلة ! .

فاذا حاولوا ان يعرفوا اكثر يرد بخوف :

- اتركونا من هذه السالفة يا جماعة الخير ، لان من طاول اطول منه تعب ، والشيخة تسمع من سفر سنة ، وابن الحرام سرور ما يشبع الا بمخالبه .

لهذه الاسباب ، او لغيرها ، امتلا قصر الروض بحضورها وجبروتها ،

« امي زهوة » او الشيخة ، شخصية خطيرة في موران ، وهي كذلك بنظر الناس جميعاً ، ربما لانها اقوى من في قصر الروض . يتحدث عنها الصبية ويجاريهم الصغار ، نقلاً عن امهاتهم او عن هم اكبر سناً ، او كما يصورها لهم خيالهم .

امرأة لكن ليست مثل اي من النساء : تتحرك مثل شبح ، تأتي وتذهب دون ان يحس بها احد ، كثيرة الصمت ، لكن اذا تكلمت لاذعة وبعض الاحيان سليطة . لونها بلون الارض الرطبة ، او مثل عتمة اول المساء . عينها كعيني بقرة : كبيرتان ، جاحظتان وتضيئان في الليل كالقناديل . انفها حاد معقوف كمنقار صقر . الوجنتان بارزتان مكورتان وكأنها تلال صغيرة في وجه شديد التيقظ والصرامة . لا تعتبر قصيرة ، رغم انحناؤها بتقدم العمر ، ورغم تقصير عصاها مرتين متواليتين . يداها طويلتان مثل يدي قرد ، وقدمها عريضتان كخفي بعير .

لا يحكى عن ماضيها الا القليل ، ولذلك لا يعرف على وجه مؤكد ما اذا كانت متزوجة او انها ظلت عزباء طوال حياتها ، لان احداً لم يتكلم عن هذا الامر ، ولم يسمع ان لها بنتاً او ولداً ، ومع ذلك فهي ام الجميع . هكذا يناديها الصغار والكبار . اما الخدم والغرباء والرجال المسنون فانهم يسمونها الشيخة .

ومثلها الحقيقة تمتزج بالخيال ، والمبالغة تغطي على الدقة في معرفة حياتها الماضية ، فان الخوف يلعب دوراً في الحديث عنها الآن . فاي حديث يجري

مرة ليتأكدوا انها ابتعدت ثم يعاودون ما كانوا فيه .

الذين يحبون الشبخة يروون الكثير عن الروح الرحيمة التي عملاً قلبها :
كيف توزع الصدقات على الفقراء ، وكيف تدفع الآخرين لان يفعلوا ذلك
ايضاً ، أما غيباتها القصيرة عن قصر الروض فلكي تقوم بزيارات الاحسان .
كانت لا تترك بيتاً فقيراً الا وتزوره ، وكانت تحمل معها في هذه الزيارات المال
او كميات من القماش والطحين ، وتفعل ذلك مرتين او اكثر في السنة . أما
الايام الذين رعتهم ، النساء اللواتي زوجتهن ، والمساجين الذين اطلقت
سراحهم ، فان عددهم كبير . تروى هذه الاحاديث بتأكيد جازم ، لكن دون
ان يستطيع احد الزعم انه رآها تدخل بيتاً او تدق باباً ، وكانوا يعللون الامر
« ان الشبخة ، تكره الصدقة التي تعلن عن نفسها او تلك التي تتظاهر
وتدعي » . ولذلك فان مثل تلك الزيارات تتم في اوقات لا يقدرها احد ، تتم
في الليل المتأخر او في ساعات الصباح الاولى ، ولا تعرف الا بعد وقوعها بوقت
طويل !

أما الذين يروون فيها امرأة من نوع آخر ، فانهم متأكدون انها شريعة
قاتلة ، وانها تمارس السحر ، مثلما تشرب الماء ، ولا تتردد في ان تفعل اي شيء
لشفاء حقدتها على كل من حولها . ولا ثبات ذلك يروون قصصاً كثيرة عما
فعلته : قتلت كثيرين ، منهم سلمان ، عم السلطان خريبط ، بان دست
السم في طعامه ، لانه كان منافساً خطراً يخشى منه . واوزت لعبيدها سرور ان
يقتل ابنه جسّام لانه امتنع ، وقيل تأخر ، عن مبايعة خريبط وتأييده .
وهي نفسها مارست ، ولا تزال ، الواناً من السحر ، اذ تستعمل انواعاً من
البخور والماء المسحور ، إضافة إلى كميات من الأدوية والعقاقير تصنعها بنفسها
بطريقة خفية . وقد لجأت الى هذا السحر مرات كثيرة لتزويج خريبط امرأة بعد
أخرى . ويؤكد الكثيرون انه في فترة من الزمن كان يتزوج امرأة كل ليلة ،
« ليكون له ذرية نوح واسباط يعقوب » ، كما كانت تقول . ويؤكد هؤلاء
وغيرهم ان عدداً من نساء القصر ، خاصة زوجات السلطان ، متن في ظروف
غامضة للغاية ، وكان ذلك بسببها ، اذ كانت ، في ايام معينة ، تدور عليهن
وراءها عبدة سواده تحمل قدراً فيه ماء مسحور ، وتحمل هي كمية من الملح

وكانت خلالها تملأ غرف القصر ورداته . واذا كانت عادة البدو الا يذكروا
النساء الا ذكراً سريعاً عابراً ، فان الشبخة كسرت هذه العادة واحتلت في
ذاكرة الرجال واحاديثهم حيزاً كبيراً : كيف حاربت مع خريبط وابلت في
الحرب اكثر مما يبلي الرجال ؛ وكيف تنكرت بملابس فارس في موقعة الرحيمة
الكبيرة ، ولم يكشف امرها الا بعد انتهاء تلك الموقعة . أما الاحاديث التي
تناول ذكائها والنصائح التي قدمتها في اوقات صعبة ، فقد تجاوزت الاساطير
وكانت اقرب الى الخيال .

هكذا كان حضورها بين الرجال ، أما بين النساء فانها تولد الرهبة ، بل تولد
خوفاً لا يستطيع اخفائه او التستر عليه . كن يسكتن اذا جاءت ، ويتذرعن
باية حجة لمغادرة المكان ، وكُنّ يستجبن لاي طلب تطلبه ، وينظرون بتحسب
مشوب بالخوف الى كل ما تقوله او تفعله . فان خرجت او غفت ينتفسن
الصعداء ، وكان احمالاً ثقيلة رفعت عن اكتافهن ، لكن هذه الراحة لا تدوم
طويلاً ، لان امي زهوة لا تنام مثلما ينام الناس او في الاوقات التي ينامون
فيها ، اذ كانت تكتفي بتلك الغفوات الصغيرة التي تسترقها خلال النهار ،
خاصة بعد الظهر ، او اول المساء . أما ان تأوي الى الفراش وتنام نوماً طويلاً
متصلاً ، كما يفعل الآخرون ، فلم يذكر احد انها فعلت ذلك . ويبالغ الخدم
فيقولون ان فراشها يظل على حاله اياماً عديدة لانها لم تنم فيه ولم تمسه .

ويمكن ان تروى اشياء كثيرة عنها ايضاً ، فاكلها غير اكل الآخرين ،
وثوبها هو ذات الثوب لا تغيّره ولا تحلعه . وحركتها ، وهي تدب على عصاها
الملبن ، ثقيلة وخفيفة في آن واحد ، أما الكلمات التي تقولها فانها اوامر قصيرة
قلما تتغير .

لها جناح في القسم الشرقي من القصر ، لكن قلما تقيم فيه ، لان كل
مكان في القصر هو لها . ولا تتردد ، بعض الاحيان ، في المرور قريباً من ديوان
الرجال ، الامر الذي لا تفعله اية امرأة غيرها ، وحين تمر تلقي نظرة فاحصة
مكتشفة ، اكثر من ذلك قد تقول كلمة او اثنتين ، على شكل تحية او سؤال ،
والرجال الذين لا يطيلون النظر اليها ، خشية او احتراماً ، يواصلون
احاديثهم ، لكن يشوبها في تلك اللحظات شيء من حذر ، فيلتفتون اكثر من

بعد اسابيع من ذلك الهياج مرض السلطان بشكل مفاجيء ، فايقن الجميع انه لا بد راحل . وفُسرّت الخلوات التي جرت بين الاثنين ، بان الشيخة ، وقد ادركت قرب نهاية السلطان ، تريد سلطاناً غير خزعل ، وانها بذلت جهداً الى ان اخذت وعداً . أما عندما اخذ المرض وتيرة سريعة متصاعدة ، بما في ذلك حالة الهذيان التي سيطرت على السلطان ، ثم العمى الذي اصابه ، فقد حال ذلك دون الوصول الى ما كانت تريد . حتى الخلوات القليلة التي تمت ، او التي أصرت ان تتم بينها وبين السلطان ، اثناء المرض الشديد ، وقد طلبت من الجميع الخروج بصيغة اقرب الى الأمر ، واستغلت ايضاً نوم الآخرين او انشغالهم ، فرقدت الى جانب فراشه وحدها . في هذه الخلوات لم تستطع ان تصل الى النتيجة التي كانت تريدها . وهذا ما يفسر الاشاعات التي راجت خلال الأيام الاولى لموت السلطان ، من ان موته لم يكن طبيعياً ، وربما قتل ولم يمّت !

لا احد في قصر الروض يجرؤ على ان يقول ذلك بصوت عالٍ ، أما في قصر الغدير ، والذي كان بعيداً بعض الشيء ، ولم تصله الشيخة الا مرات قليلة خلال السنوات الماضية كلها ، فقد وجد من قال ان الخرف اصاب العجوز ، وانها تمتر ، ولذلك سكت كل من في القصر على الاشاعات وكأنها لم تكن ، وساد تقدير انها لا بد ان تنتهي كما بدأت ، أما اذا وجد من يرد عليها ، او حتى لينفيها ، فسوف يجرد ذلك الى نتائج من الصعب التحكم بها ، او معرفة نتائجها . لم يكتف قصر الغدير بذلك ، اذ ما كادت مراسم الخزن تنتهي ويرحل آخر المعزين ، حتى قام السلطان خزعل بزيارة الشيخة في جناحها ، وقبّل يدها ورأسها على مرأى من الكثيرين . ولم تمض ايام على هذه الزيارة ، والخلوة التي اعقبتها ، حتى رحلت الشيخة وعدد من نساء قصر الروض الى قصر الغدير .

الذين عرفوا الشيخة فيما مضى من الزمان ويرونها الآن يجدون شبهاً في الملامح ، لكن ما عدا ذلك ، فان المرأة تغيرت ، تغيرت كثيراً ، اي انها لم تعد تلك التي كانت في يوم من الأيام . صحيح ان الخوف لم يزايل قلوب النسوة ، والرجال لم يتخلوا عن حذرهم ، وربما خشيتهم ، من النظرات المستائلة

فاذا نظرت الى واحدة منهن ثلاث مرات ونظرت الى القدر ورشت قليلاً من الملح ، فلا بد ان يحصل لهذه المرأة مكروه ، وقد تموت .

من ينظر اليها الآن يلمح في وجهها صلابة اقرب الى العدا ، خاصة وهي تدقق بنظرات مرتابة مكتشفة ؛ وقد تولدت ، نتيجة ذلك ، قناعة عند الكثيرين انها تعرف ما يدور في الرؤوس ، وانها تحزر ما فعله ، او ما يريد ان يفعله ، اي إنسان . وفي وقت متأخر ، وبعد ان تقدم بها العمر ، وثقل سمعها ، اصبحت تسمع بعينيها ، ولم يكتشف ذلك الا صدفة .

في الشهور الأخيرة من حياة السلطان خريبط ، وقبل ان يمرض مرض الموت ، اصبحت الشيخة اكثر من اية فترة سابقة ، امرأة لا تطاق ، ويبدو انها احست بغريزتها قرب الاجل ، احست بذلك بشكل واضح ، وان لم يقل لها احد ذلك او لم تقله لاحد ، لكن تلك الحركة المرتابة ، وذلك الهيجان الذي يبلغ حد الطيش ولدا حالة من التوتر في قصر الروض لم يشهد لها مثيلاً حتى في الأيام الاولى لقيام سلطنة موران ، فامتلاً الجميع باحساس غامض ، لكنه قوي ، ان شيئاً ما لا بد ان يحصل . لأنها في حالات اقل من هذه بكثير ، ولم تتعد التنبيه او التدقيق وكأنها تبحث عن شيء ، او تحاول استحضار الأرواح ، وقعت تلك الزعازع التي هزت القصر من اركانه وكادت تقضي على جميع من فيه . الآن وهي لا تكتفي بالحركة الهائجة ، ولا بتلك الشنائم توزعها على كل من يعترض طريقها او يصادفها ، ثم ذلك التدقيق المنتهم القاسي ، ليس في الوجوه فقط ، وانما في زوايا القصر ايضاً ، فقد سيطر على الجميع نوع من الترقب اقرب الى الخوف . حتى السلطان خريبط الذي لاحظ الامر ، امتلاً باحساس غامض ان نهايته قد قربت . أما ما تلا ذلك من خلوات بينها ، وكانت تتكرر وتطول ، وقيل انها حاولت ان تغير وان تفرض أشياء لم تحظر بيال احد ، فقد فسرها الكثيرون انها مجرد محاولة من السلطان لانتزاع ذلك العفريت الذي دخل فيها ، وسبب لها هذه الحالة من الهياج والتوتر والغضب ، وان تلك الخلوات الطويلة لم تكن اكثر من محاولة لاسترضائها والاستماع الى هذا الهذر الذي يصدر عنها ، وكل ما عدا ذلك توقع لا يستند الى اي اساس .

المتهمة ، ومن الكلمات القاسية التي لا تتردد في ان تطلقها ، لكن مع ذلك فان الهيجان الذي اشتد بها في الشهور الأخيرة ارهقها واستنزفها ، فلم تعد قادرة حتى على ان تمسح الذباب عن وجهها ، وقيل ان الحزن الذي غشيها اثناء مرض السلطان ثم موته غيرهما ، كما يحصل دائماً للذين تستبد بهم شؤون الدنيا فينسبون الموت ، ولذلك يسرفون في الشهوة او في جمع المال ، او يسرفون في ابداء الآخرين ، ثم فجأة يكتشفون ان هذا الذي غرقوا فيه هو ولا يعني شيئاً ازاء الحقيقة الاخرى : الموت ، ان هذا الموت اكثر حقيقة واشد قرباً من « الحقائق » الهشة التي كانت تملؤهم وتأسرهم ، وهكذا يرتدون ارتداداً قوياً سريعاً ، ويتغيرون بين يوم وآخر ازاء هذا الاكتشاف .

وقال غير هؤلاء ان « العجيزة » مثلما قتلت سلمان وابنه جسام وآخرين في فترة سابقة ، خوفاً على السلطان خربيط ، فانها الآن تهيم بنفسها ، وتهيم ادوات السحر والسم ، وتهيم سرور ايضاً ، لكي تبدأ من جديد ، وهذا ما جعلها توافق ، دون تردد ودون تأخير ، على الانتقال الى قصر الغدير . فاذا جاءت الأيام الدافئة ، وكما تخرج الحيات بعد سبات الشتاء الطويل ، فلا بد ان تبدأ ، ويختم هؤلاء كلامهم بان يقولوا « وستمتلئ موران ، مرة اخرى ، بالاخبار والمصائب » .

وفي محاولة لاسترضائها ، او على الاقل لكسب سكوتها ، وينفس الطريقة التي اتبعها السلطان في مواجهة منافسيه ، ومن يطلب ودهم ، أغدق عليها ، فالجنح الجنوبي من قصر الغدير ، وكان كبيراً واسعاً ، خصص لها ، كما كلفت ثلاث من الخادמות ان يكن بين يديها وان يلازمها . واحيطت بجو من الحفاوة والاهتمام ، لكن بدا لكل من رأى ان الامر لا يتعدى الالهة ، تماماً كما يلهي الطفل بلعبة !

ورث السلطان خزعل عن ابيه صفتين : طول القامة وحب النساء . . . وورث السلطنة ايضاً . فقامته الطويلة الضخمة كانت تثير الاستغراب اكثر مما توحى بالمهابة ، خاصة اذا عبرت عنها تلك الضحكة المجلجلة ، وذلك الصوت الكثيف المبطن ، والذي يبدو لاول وهلة وكأنه صادر من اعماق الصدر ، على شكل طبقات سميكة متتابعة ، او على شكل موجات تدفع بعضها بعضاً . فاذا هدأ وامتدت يده لتمسك اللحية تبرز اصابع عقداً طويلة ومدببة ، وكأنها سواعد طفل . أما الاسنان ، وسط الوجه ، فأكثر ما تبدو شبيهاً بدرج او بحائط متشق ، لكثرة ما نهشت من اللحم ولفرط ما مر عليها المسواك .

ورث السلطان هذا الطول وهذه الضخامة من ابيه واخواله معاً ، لان اخوته غير الاشقاء ، يختلفون عنه ، ويختلفون فيما بينهم ، تبعاً لما ورثوه عن اخوالهم . كان الامير خزعل اطول اخوته حتى الاشقاء ، واكثرهم ضخامة . وخلال فترة الصبا والشباب ، ولكي لا يصبح جسده عبساً عليه ، استهوته الرياضة الحشنة القاسية ، لكن بدل ان تصقله وتجعله اكثر تناسقاً حولته الى قوة عاتية . كان يأكل مثل جمل . كان ، بمفرده ، يأكل خروفاً ابن عام ، ويشرب ثلاث طاسات من اللبن . أما اذا وضع قربة الماء على فمه فلا يرددها الا رخوة ينحس فيها الماء ، ويندفع من جهة الى اخرى . رهانات الأكل والشراب التي برع فيها خلال رحلاته الصحراوية ، كانت تغضب ابيه حين تصله اكثر مما تسعده . أما رهانات القوة ، اذ كان يستطيع ان يبسط الحصان ، وان يوقع البعير ، فكانت تسر السلطان ، لكن دون ان يظهر هذا السرور .

الشيخة بالذات ، وبذلك يتخلصن من هذا الكابوس ، او يستطعن ان ينظرن اليها نظراً مستقيماً محدداً متساوياً ، لكن الامور سارت عكس ذلك تماماً .

فالشيخة التي كانت تحب تركي حباً خاصاً ، وتؤثره على الآخرين ، لم تُفهم معارضتها ، او بالأحرى فهمت بشكل خاطيء : كيف موّهت واستطاعت اخفاء عواطفها ، او تمويهها بهذا القدر . وإذا كان موقفها من تركي ، ومن ابنته هذلة ، بهذا الشكل ، فكيف يمكن ان يكون موقفها ، او كيف تكون عواطفها ، تجاه الآخرين ؟

والسلطان الذي كان يعتبر الزواج مناسبة ، تماماً كالموت ، لدفن قضايا كثيرة والبدء من جديد ، وانه يمكن ان يبني جسوراً وقيم علاقات ، وجد في هذه المعارضة اموراً خافية عليه ، وربما لأول مرة يشك بالشيخة ، ويعتبرها اكثر دهاء وخبثاً مما قدر ، او ان اللعبة التي لعبتها معه بدأت تلعبها مع الآخرين .

بعد ايام من هذا الرفض وهذه المعارضة ، وبعد ان زال الغضب ، سألتها :

- كل شيء بوقته ، يازهوة ، زين . . .

فلما تطلعت اليه مستفسرة تابع :

- تركي يوم الرحبية كان غير موجود ، ويوم الجمرة كان الاول والثاني . وانت نسيت الرحبية وما عدت تذكرين الا الجمرة . صحيح ؟

فلما هزت رأسها ، دلالة الايجاب ، اضاف :

- وبين الرحبية والجمرة ثلاث سنين او تزيد . . . صحيح ؟

وهزت رأسها مرة اخرى .

وقلت ان الجمرة ما كانت لو ان الرحبية ما صارت . صحيح ؟

وهزت رأسها .

- وانت قلت ان جماعة الجمرة اولهم خبير تواليهم : اذا هذا اليوم فاتكم لا تدوروا غير يوم . . روحوا ديرة ثانية ، وشوفوا قوم غير قوم . صحيح ؟

ظل هكذا خلال فترة الصبا والشباب الاول . أما بعد ان اكتشف متعة المرأة فلم يستبدلها بآية متعة اخرى ، ولم يراهن على غيرها . والسلطان خربيط الذي اراد من المرأة اولاداً واسباطاً ذرية له ، واراد انتساباً وعلاقات مع القبائل ، تقوي مركزه وتقويه غوائل الزمان ، جاء ابنه خلافاً له ، اذ لم يفكر بهذه الامور ، او لم يفكر بها على هذا النحو . كان يريد المرأة ذاتها ، ويريد المتعة نفسها ، وكان جسده والقوة في هذا الجسد ما يحركه ويدفعه لان يبحث وان يجرب .

لما جرى معه اول حديث عن الزواج ، وكان عمره تسعة عشر عاماً ، كان خائفاً او كارهاً لهذه التجربة ، وغمي لو يؤجلها بضع سنين اخرى ، لكن كلمات ابيه السلطان كانت من الوضوح والجزم بحيث لم تترك له مجالاً . قال له :

- نريد . . من اصلابنا . . اولاداً يحكمون ويرسمون الى قيام الساعة ،

ويجب ان يكون لك ولد !

ويتذكر خزعل ان اياه اضاف وهو يضحك :

- وانا . . يا وليدي ، تزوجت وبنيت وجاني اولاد وكنت اصغر منك !

أما حين اقترح عليه ان يتزوج ابنة عمه هذلة ، وكانت في مثل عمره ، والتزم الصمت ، لم يجب بالنفي او القبول ، فقد اعتبر ذلك موافقة ، وكادت الامور تسير في هذا الاتجاه ، لكن امي زهوة ، الشيخة ، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج ، قالت بوضوح شديد : « لن يكون » . والسلطان خربيط الذي اعتكر مزاجه لمعارضتها ، وكان يبذل جهداً موصولاً وواضحاً من اجل التقرب من اخيه تركي ، ويعتبر ان هذا الزواج مناسبة لتصفية القلوب ، كما يقولون ، فقد عبر عن استيائه لرفض الشيخة ولمعارضتها . أما خزعل فاعتبر ان من شأن الخلاف ان يطول وان يتطور ، وهذا يجعله في حل لفترة من الزمن على الأقل . ونساء القصر اللواتي سمعن بالخبر ، ثم سمعن ، بعد ذلك ، بمعارضة امي زهوة ، فقد توقعن اشياء كثيرة ، اقلها خلافاً بينها وبين السلطان ، ولا بد ان يؤدي هذا الخلاف الى تراجع احد الطرفين ، وربما

حماسة كبيرة ، لكنه ضحك ، وربما قدر بطريقة معينة ان عدلة اكثر ملاءمة من غيرها !

أما بعد الليلة الاولى ، ثم كل الليالي التي تلتها ، فلم يتوقف الامير خزعل عن البحث والتنقيب . كان يبحث لمعرفة سر الحياة والكون ، والمتمثل في هذا الشوق العارم ، وفي هذا التجدد الدائم ، والذي لا يعرف التوقف او الانتهاء ، للمرأة .

كان الأكل بالنسبة له في وقت من الاوقات متعة لا تعدلها متعة اخرى ، لكن ما يكاد يشبع حتى ينفر من منظر الطعام ، فيطلب ان يرفع على عجل . وفي وقت لاحق اصبحت الرياضة تأسره وتسرقه فينسى كل ما عداها ، لكن ما يكاد يتعب حتى يشتهي النوم ويغرق فيه ، فاذا نام لم يوقظه الطوب ، كما يقول مرافقوه ، خاصة زيد الهريدي . واستبدت به في اوقات اخرى هوايات مختلفة : تربية الخيل ، القنص ، حب القصيد ، لكن اياً من هذه الهوايات لم يستمر طويلاً .

واذا كانت الشيخة قد تظاهرت ، مثل جميع نساء القصر ، بالفرح لزواج الامير خزعل ، فقد كانت شديدة الخوف ان تنتهي ليلة العرس على غير ما تريد . ويتذكر الذين كانوا حولها انها ظلت تدور ، مثل قط مربوط ، لا لتأكد من شيء يراد العجائز في مثل هذه الليالي ، خاصة اتجاه فتاة كعدلة ، تنفجر قوة وشيقاً ، وانما لتطمئن انها لا تزال حية ، وانها احتملت . وفي وقت متأخر من الليل ، حين جاءت امها فرحة ضاحكة ، فلم يبق احد الا وسمع الشيخة تقول : « اذا مرت هذه الليلة ما بعدها ليلة » .

ان ذلك جزء من تاريخ لا يتذكره الا القليلون ، لان بعد عدلة كرت مجموعة كبيرة من النساء . فالامير الذي كان خجلاً ، وربما خائفاً ، من علاقته بالمرأة ، هذا العالم الذي يستهويه ويخافه ، منذ ان كان طفلاً ، وجد نفسه يغرق فيه ، ولا يستطيع ان يتعد عنه ليلة واحدة . لاحظ ذلك ، اول الامر القريبون منه ، لكنه لم يغب ايضاً عن الشيخة . واذا كان الخوف قد لازمها في الزواج الثاني ثم في الزواج الذي يليه ، وتدخلت بشكل مباشر في اختيار من

ردت بغضب :

- يا ابو منصور . . ذاك يوم وهذا يوم .

رد وهو يزجر :

- وشنهو اللي صار واللي جرى ؟

- يا ابو منصور . .

وضحكت بسخرية ثم اضافت :

- اتريد الصدق او تريد غيره ؟

- يا زهوة . . يا شيخخة . . .

ردت بغضب :

- يا مبارك انت اللي خلّفته ما يتخلّف . .

نظر اليها وصمت ، تابعت :

- خزعل ، يا طويل العمر ، ما تحمله مرية ، ما تحمله نية . وهذلة اذا

عاشت اليوم تموت ثاني يوم ، يذبحها ، ولازم تعرف !

انتفض السلطان ، وكأنه كان نائماً فاستيقظ . نظر اليها بتساؤل اقرب الى الاستغرب .

تابعت :

- يا مبارك ، البنية مثل القصة ما تحمل هذا الجمل ، وتركي اخوي ،

وبناته بناتي ، وهذلة ربيتها على يدي ، واذا كنت تريد موتها اوافق !

فهم السلطان ، فهم اخيراً ، فضحك ، وهو يهز راسه دلالة الاستغراب ان امرأ مثل هذا يفوته ، ولذلك وافق ان تكون امرأة اخرى ، غير هذلة ، الزوجة الاولى لخزعل .

وبعد أيام قلائل وُجدت الزوجة المناسبة : عدلة ، ابنة خاله . قوية ، متينة ، رغم قصرها ، واشبه ما تكون بالقربة ، فبدا اكثر رضا وموافقة . لم يبد

ما تقدرين : مية مرة ، ميتين مرة : وقلت لها حطّي زيت هناك ، وبعد الغسيل حطّيه ، وان جاك اعطيه روحك واهربي ، اعطيه واسحبي ، واذا طبّ فوقك فكّي وصّكي ، وعسى ان الله يساعدك .

وتنغير لهجتها وتتابع :

- وبقيت في الحجرة القريبة ، ما بيننا الا الحائط . كانت المسكينة خائفة . وقلت يقتلها ، او الخوف يقتلها ، واكثر من مرة قلت لروحي : يا عدلة لا تخافي ، وكلي الله . . . وادخلي ، ولما مرّ الوقت ، وخفت ، ولما سمعت الصوت ، وكان صوتها مثل صوت البس اذا طاحت به رجل . قلت : طلعت روحها ، قتلها ، لكن رب العالمين ساعدها وخلصها ، ولما دخلت كانت ترجف وغارقة بدمها وبدموعها ، وكانت تبكي وتضحك . سألتها : ما بك خلاف يا بليّة ؟ ردت وقالت ما ادري يا عمي .

بعد ذلك ، وقد تغيرت خيارات الامير ، قالت الشيخة باستغراب « انا حواء ، طلّعت آدم من الجنة ، وحريم اليوم راح يجرن امة الثقلين الى الجحيم . وما عاد ينحزر عليهن . »

لما اصبح الامير خزعل سلطاناً كانت المرأة السادسة عشرة قد مرت من تحته ، وكان لا يزال يبحث عن هذا السر الالهي في العلاقة بين الرجل والمرأة . كان يقضي الساعات الطويلة ، ليس فقط في التفكير ، وانما ايضاً في النظر لاكتشاف جسد المرأة . ان هذا الجسد يثيره لدرجة الغرابة ، والاثارة لم يكن لها شكل واحد ، ان كل شيء في المرأة يثيره . فرمانة الكتف ليست فقط مكان التقاء الساعد بالجسد ، وليست هذا التكور الذي يستقطب منذ اللحظة الاولى النظر ، انها اكثر من ذلك . فاذا ارتفع الساعد ، اذا ارتفع الساعدان ، فان عالماً من اللذة ينفجر دفعة واحدة ، ولا يمكن مقاومته . كان يريد ان يتابع رحلة الجسد في كل جزء منه ، ان يتوقف ، ان يلمس باصابعه ، بيده كلها ، ان يشم رائحته ، وكان يلذ له ايضاً ان ينهش ، لكن ما يكاد يبدأ رحلة الاكتشاف حتى يتكهرب ، تصيبه رعشة تخضه تماماً ، تخرجه من تأملاته ، يضطرب ، فتختلط اعضاؤه ببعضها ، تصبح اصابعه وشفته غير اصابعه وغير

تصلح زوجة للامير ، فقد اكتشفت بعد ذلك ان القضية مختلفة ، لكنها ، مع ذلك ، اوصت اللواتي بحثن له عن زوجات جديدات ان « تكون المرأة مثل القرية : لينة لكن قوية ، بكبر الناقة وبخفة القطة ، والا اذا برك فوقها ما قامت » .

وتتابعت النسوة واحدة بعد الاخرى ضمن هذه المواصفات ، مع اختلاف يسير ، لان الزمن اضاف مواصفات جديدة . فما افترضته الشيخة قوة البدن ، شيئاً من السمنة ، مع عظم الردفين ، ليكون الحوض واسعاً فيتحمل اولاً ثم يحمل بعد ذلك ما لبث ان اخذ بالتغير .

تغير اول مرة حين تخير الامير بنفسه فتاة سوداء صغيرة . كانت مثل القطة او مثل نجوم الليل حين تضحك ، اذ يضيء كل شيء فيها ، وكأن اسنانها تشع نوراً ابيض وهاجاً يغسلها من اخصص قدميها حتى قمة رأسها ، وربما هذه الضحكة بالذات هي التي لفتت نظر الامير واغرته بها ، فنسي حجمها الصغير وعمرها الذي لم يكن يزيد على الاربعة عشرة سنة . وحين طلب من زوجته الاولى ، عدلة ، ان تجهزها ، لانه سيبني بها « الليلة وابعده تقدير الليلة اللي بعدها ، وكانت قد انتقلت الى عدلة مسألة تزويجه مرة بعد اخرى ، فقد ابدت استغرابها ، فعضت على شفرتها تحذيراً ، اما لصغر الفتاة او لوضاعة نسبها ، لكن الضحكة التي هدرت من فم الامير لم تترك لها مجالاً .

كانت ليلة من ليالي قصر الغدير مشهورة ، فقد قدرت عدلة بالذات ان الفتاة لا بد مائة ، فهي اصغر واطرف من ان تحتمل . واذا كان من حق نساء اخريات ان يخمن او ان يفترضن احتمالات معينة ، فان عدلة كانت على يقين راسخ ، وبدا لها ان اية كلمات او نصائح تسديها للفتاة لن تجدي . وقد بذلت من جديد محاولات عديدة لتحمله على تغيير رأيه ، او ان يؤجل الأمر بضعة شهور على الاقل ، لكنه لم يسمع .

في وقت متأخر ، وعدلة تحاول ان تنفي معرفتها باسباب موت الفتاة ، قالت :

- قلت لها : اغسلي زين هناك . . وافركي ، وافتحي رجلك وصمّهم قدر

في فترة معينة ، وقد لاحظ السلطان خريبط غيبات طويلة لابنه ، وجاء من ينقل اليه انه سلم امره لعدلة تزوجه وتطلب منه ان يطلق هذه المرأة او تلك ، قال كلمة نقلها عنه بعض اولاده . قال :

- آذب ولدك ولو زعلت امه .

ويعد قليل اضاف وهو يتهد :

- اذا اخطينا واخذنا من العجاريم ما نسلّمهم روسنا، وابد ما نتركهم يحكمون ويرسمون .

وفي تلك الفترة بالذات بدأ فتر يكثر البقاء في ديوان ابيه ، بل ولا يكاد يتركه . وبدأ يتردد ، همساً ، ويتكتم شديد ، ان السلطان يعتمد كثيراً على فتر وانه يحبه اكثر من اخوته الآخرين ، وقد يجعله سلطاناً بعده . وفتر الذي يتظاهر انه لم يسمع ولم يلاحظ ، يبالغ في الصمت والزهد والانتظار ، أما حين جاء من يقترح عليه ان يتزوج امرأة جديدة ، فقد رد ببساطة ، لكن بخبث ايضاً :

- هذه الأيام واحدة ما ينقدر عليها !

ولا يدري ابدأ ماذا فعلت الشيخة في تلك الأيام او ما الذي قالته للسلطان ، لكن بدأت تتردد ، همساً ، اشياء كثيرة ، وظلت موران تنسرب وتنتظر ، وقال كثيرون : لن تنتظر طويلاً !

شفتيه ، وتصيح راحتا يديه راحلة في هذه السهول والهضاب لكن لا يعرف كيف او الى اين .

كان يريد ان يتوقف عند الساعدين ، ان يمك تلك البطات الصغيرة ، من الجانب السفلي ، ان يتأملها ليري كيف تدغدغانه بهذا المقدار . . عندما تلتفتان حوله ، لكن ما يكاد يمد اصبعه بخوف اول الامر ، ثم يمد راحته ويطبطن على تلك البطات الصغيرة حتى يحس ان دمه التهاب ، فيضع رأسه كله تحت الساعد ، ينظر اليه من اسفل ، يتأمله ، يجد ان هناك شيئاً جديداً لم يره ولم يكتشفه من قبل .

فاذا انتقل من رمانة الكتف الى الصدر فانه يرتجف ، يفقد سيطرته على نفسه ، يحس انه عاد ، مرة اخرى ، طفلاً صغيراً ويريد ان يرتقي على هذا الصدر ، ان يلتحم به ، وان يظل هناك الى الابد ، انه يجب الصدر الى درجة لا يقوى على تركه . يجب الارتفاع والصلابة والمنح المستمر ، يجب ذلك الشيء الذي لا يعرفه . لطالما حلم ان يعود طفلاً صغيراً ، وان يظل مرغماً على الصدر ، وان يغفو فوقه . أما عندما ينهش الحلمة باسنانة الكبيرة ، وتموء الاثنى تحته خائفة ان يقضمها ، فكثيراً ما قال لنفسه او قال لها : « الحوير ما تضره رحمة امه » . وينزلق ، ينزلق بسرعة ، ليستقر هناك . وهناك كان يذوب ، يتجدد ، يخور ، يلهث ، يقفز كارتب ، يستقر كحجر ، كان لا يصدق ان شيئاً مثل هذا يمكن ان يقع ، وانه هكذا مثل النبع لا يتوقف ولا ينتهي .

ظلت عدلة الاحب اليه من النساء ، ومهما ابتعد عنها كان يعود اليها ، وحتى عندما تولت امر تزويجه امرأة بعد اخرى ، كانت تفعل ذلك بلذة ، لانه كانت تعرف انه سيعود اليها . لقد حصل هذا في كل المرات . قد يغيب فترة اطول مما تتوقع ، لكنه دائماً يعود ، بشوق واندفاع يعود ، مع ذلك الطيش الذي يشبه طيش الأيام الاولى . كان يسميها ، دون ان يدري احد ، الشيخة ، وحين تعص على شفتها ، خوفاً وتحذيراً . ينظر اليها ، يرد وهو يقيهقه :

- والله ما غيرك شيخه !

ملاحح الحكيم جادة ، وناس رأسه عدة مرات ، كما لو انه يفكر او يتذكر ، قال وكأنه يوجه الكلام الى رجل آخر :

- عبيد .. بحسنا ويكفي يا حكيم ، والحسان مرة كل شهر .. كل شهرين .

- هذا ما يجب ان يتغير ، يا صاحب الجلالة ، لان جلالتكم تستقبلون الرؤساء والأمراء كل يوم ، ولان حلاق السلطان ليس رجلاً عادياً ، كما ان الادوات التي يستعملها يجب ان تكون تحت اشراف طبي مباشر ... لئلا ...

والنفت الحكيم اكثر من مرة ليتأكد انه لا احد يسمعه :

- وما دمت ، يا صاحب الجلالة ، اخترتني طبيباً وثقت بما اوصي به ، ارى ان يكون لكم حلاق خاص بكم .

اعتبر الحكيم صمت السلطان موافقة ، وما كاد يغادر القصر ، وقد شغلته هذه القضية بالذات ، حتى قال لمحمد عيد بلهجة ابوية :

- اسمع يا محمد ... عندي قضية لا يمكن ان اكلف بها احداً غيرك : اريدك ، من هذه اللحظة ، ان تجد لي حلاقاً ، احسن حلاق في موران كلها ، لانه سيكون لصاحب الجلالة .

ومحمد عيد الذي فوجيء بالطلب ، فاستدارت عيناه ويدا مدهوشاً ، وكان يتوقع ان يسمع من الحكيم اي شيء الا هذا ، ما لبث ان شد قبضته وضرب الهواء ، وهو لا يفعل هذا عادة الا اذا تطابقت الفكرة مع الحل تطابقاً كاملاً ، ولان هذه العادة ارتبطت بحدث معين حصل اثناء الفترة الاولى من اقامته في حران ، اذ ما تكاد يحاول مرة اعادة تركيب باب غرفة سكن الحكيم ، بعد ان دهن اطاره ، وكان الحكيم يساعده ولا يفلح ، حتى قال كلمة اصبحت بينها رمزاً : قال يشرح له : « تماماً فوق بعض يا حكيم ، انى وذكر » وقد اعجب الحكيم بهذا التعبير واصبح يردده!

الآن وهو يخبط الهواء بقبضته ويردد دون حرج . وبما يشبه الظفر :

بعد ان استقر الحكيم في موران ، وسُمي مستشاراً للسلطان الجديد ، واصبح لا يفارق مجلسه ، وبعد ان توثقت العلاقات بينه وبين زيد الهريدي اكثر من قبل ، بدأ يحس بهم ملاً عقله وقلبه ، اذ كان يشعر ان عليه اعادة تشييد سلطنة موران من جديد !

وكالهام مفاجيء ، خطر له ان من جملة الاشياء التي يحتاجها السلطان حلاقاً خاصاً ، ربما احس ذلك من الحركة العصبية التي كان يعاودها السلطان بين فترة واخرى ، حين يتلمس رأسه او يثبت عقله ؛ وربما من خلال ما لاحظته مرة من ان احد الشاربين اطول قليلاً من الآخر ... واعرض . ودون تحضير او تفكير سابق ، وفي لحظة « الاشراق » . هكذا يطلق الحكيم على الحالة النفسية المواتية ، اقترح اهمية وضرورة وجود حلاق خاص للسلطان . وازاف بلهجة اقرب الى الانفعال :

- نعم ، يا صاحب الجلالة ... ان ذلك ضروري الى اقصى حد ، لان مظهر صاحب الجلالة السلطان لا يعنيه وحده ، انه يعني كل الناس ، باعتباره رمزاً وقدوة ، ولذلك يجب ان يكون هذا الحلاق موثوقاً ، اميناً ، كتوماً ، ويجب ان يكون ايضاً معلماً في الخلافة !

والسلطان الذي داخله الشك فتلمس رأسه وعدل عقله اكثر من مرة ، تطلع الى الحكيم بطرف عينه ليتأكد من الكلمات التي سمعها ، وحين بدت له

في نهاية الاسبوع الثالث وصل بدري المدلل ، ابو مصباح ، الاخ الشقيق
لمحمد عيد ، الى موران .

لا يظن من يراه لأول مرة أنه حلاق. قد يظنه مديراً لمدرسة ، او ضابطاً
متقاعداً . ومن يدقق في وجهه ويرى سالفه الطويلين وشاربيه الرفيعين
المقصوصين بعناية يظنه ممثلاً مسرحياً . أما اذا تحدث فيمكن ان يكون اي شيء
الا حلاقاً . والحكيم الذي رآه في اليوم التالي لوصوله ، تفاءل منذ اللحظة
الاولى ، فان يكون اسمه ابا مصباح ، كما قدمه محمد عيد منذ البداية ، وحتى
قبل وصوله ، نقطة ايجابية لمصلحته . فالشبه بين الاسمين ، او التقارب ،
اشعر الحكيم بنوع من الاعتزاز . أما حين بدأ يتكلم فقد كبر كثيراً في عيني
الحكيم ، حتى لظن خلال لحظات ان في الامر سرأ لا يفهمه . ولما بدأ يفيض
بثقة وزهو ، والحكيم ينقل نظراته بين الوجهين في محاولة لاكتشاف شبه من اي
نوع ولا يجده ، فقد فهم السر في محبته الكبيرة لمحمد عيد ، ومن اين استمد
هذه القدرة على الحديث المتقن والكلمة الآسرة . قال له بنوع من المكر :

- استرح كم يوم يا ابو مصباح . . تعرف على موران وعلى الناس وبعدها
انشاء الله ما يصير الا الخير .

لم يحدثه عن العمل الكبير والخطير الذي هياه له ، ولم يشر من قريب او
من بعيد الى السلطان . ومحمد عيد الذي قضى الليلة الماضية ساهراً يشرح
لاخيه لماذا اراده ان يأتي بهذه السرعة ، واي مستقبل ينتظره ، وكيف سيصبح
غنياً بين عشية وضحاها ، كما اشار اشارة سريعة الى احتمال ان تنتقل العائلة
جميعها الى موران وتستقر فيها ، فوجيء واستغرب ان الحكيم اتخذ هذا الموقف
المتحفظ ، وكان يتعنى ، ليكبر في عيني اخيه ، لو ان الحكيم تصرف بشكل
آخر . قال لنفسه وقد وقف الحكيم اعلاناً عن انتهاء الزيارة : لو كان غير اخي
لاخذني جانباً وقال لي نفس الكلمات : « دبره . تكفل به ويس يقشّر جيبه
وتعال » ، وضحك وهو يقول لآخيه :

- وصلت متأخراً ، يا ابو مصباح . وبعذك ما شفت موران ، لازم
تشوفها وتشوف كل شيء فيها !

- جبتها . . والله جابها ، يا حكيم . . انى . . وذكر .

والحكيم الذي بدا مسروراً وضحك مثل طفل ، كان في عجلة لان
يعرف ، سأل بلهفة :

- انا اعرفه ؟ شفته ؟

- خلص يا حكيم . . مثل ما قلت لك : انى وذكر !

وبهدوء لم يتعوده اخذ محمد عيد يشرح للحكيم ان اخاه بدري حلاق لم
ينجب الشرقان الاذن والاوسط مثله . كان حلاقاً في الليف الاجنبي ،
واصبح حلاق الكومندان شفاليه . ثم ذهب الى الاسكندرية وقبرص ، الى
ان اصبحت الخلاقة بالنسبة له اكثر من مهنة : انها فن وهواية .

اصيب الحكيم بخيبة امل وهو يستمع اليه ، اذ ما كان يتصور ان البلاهة
تبلغ بمحمد عيد هذا الحد ، فيقترح ان يأتي بحلاق من طرابلس . الا ان لفه
محمد وتعبيرات وجهه ويديه ، ولان الحلاق الوحيد الذي تعرف عليه الحكيم
في موران ، يثرثر ويبحر اكثر مما يخلق ، أما ذلك اليميني في حران « فان وجهه
ينشّف البحر ، ولا يضحك للرغيف السخن » فقد بدا له ان الأمر يستحق
التفكير ويتطلب الحذر ، كما عنت له فجأة فكرة خطيرة : ماذا لو اخترنا حلاقاً
لا نعرفه وتصرف هذا الحلاق بطريقة جنونية ؟ قال لمحمد عيد وهو ينظر الى
عينيّه بتحديد :

- الواحد اللي تعرفه احسن من اللي تعرف عليه ، واخوك قريبنا ، فاذا
جاء وعرف كيف يدخل الى قلب السلطان فحظنا من السماء .

وبهدوء مبالغ فيه طلب من محمد عيد ان يجلس ويعطيه فكرة دقيقة عن
اخيه بدري ، عن عمره واي نوع من الرجال هو ، وهل يمكن اعتباره
الشخص الذي يناسب السلطان .

سمع الحكيم بعض ما قاله محمد عيد ، ولم يسمع بعضه الآخر ، لانه
سرح في افكار بعيدة ومتضاربة ، أما حين اكد له ان اخاه يمكن ان يكون في
موران خلال اسبوع واحد فقد قال الحكيم بانفعال ظاهر :

- ابعث وراءه فوراً . . واذا جاء اليوم احسن من بكرة .

ورغم ان بدري لم يرتح لهذا الكلام وكاد يعلن اعتذاره ويعود من حيث اتى ، الا ان لباقة الحكيم وانتقاله من موضوع الى آخر ، ثم ذلك السود الذي فاض فجأة جعل كل شيء ينتهي نهاية ايجابية .

وفي الليلة الثالثة استدعي بدري المدلل الى القصر لمقابلة الحكيم في مكتبه ، فلما دخل عليه وجد عنده شخصاً آخر ، ويبدو ان هذا الشخص كان مكلفاً بان يقول الكلمة الاخيرة ، ورغم انه لم يوجه اليه سؤالاً ولم يتكلم ، الا ان عينيه لم تفارقا بدري ؛ كانت عيناه تحصدانه ، وكانت اقرب الى العدا ، أما عندما نهض الحكيم ، ايذاناً بانتهاء الزيارة ، فقد قال الكلمة الفصل ، بعد ان نظر الى هذا الرجل :

- غداً صباحاً ، الساعة ١٢ عربي ، تجهز نفسك ، لان سيارة القصر ستمر عليك . ومن الغد مباشر .

حين يتذكر ابو مصباح الأيام الاربعة والثلاثين التي قضاها في موران متردداً حائراً ، بل اميل الى العودة من حيث اتى ، يشعر ان خطأ مثل هذا لو حصل لما امكن اصلاحه ، وان محمد عيد كان على صواب كامل ، اذ لولا الحاحه واصراراه لاخذت الامور شكلاً آخر . أما الكلمة التي يرددها محمد عيد في لحظات المداعبة وتذكر ما حصل ، ولا تغضب اخاه ، فقد كانت الكلمة ذاتها التي قالها اخوه لنفسه « جدي لعب بعقل تيس » . لان ما تلا ذلك اليوم ، وحتى سنوات كثيرة لاحقة ، كان نتيجة ذلك الموقف .

فالسلطان الذي بدا حذراً مرتاباً خلال الأيام الاولى وهو يسلم رأسه لشخص لم يره ولم يعرفه من قبل ، والذي حرص على وجود الطبيب ومطيع واثنين من رجاله الى جانبه ، وحاول ان يبدو مرتاحاً ، بل وتظاهر بالمرح - وقد استغل الحكيم لحظات الاشراف ، واقترح على السلطان تعديلات طفيفة في قص شعره ولحيته ، وقد تقبلها السلطان ، بعد ان قام ابو مصباح ، بكثير من التهذيب والكياسة ، بتأييدها - هذا الحذر ما لبث ان تراجع ، واصبح بدري المدلل واحداً من المقربين ، بل من الملازمين ، للسلطان .

وانتظر بدري المدلل اربعة وثلاثين يوماً ، وكاد يجزم حقيقته اكثر من مرة خلال هذه الفترة ويعود من حيث اتى ، الا ان « الرسائل » الايجابية المطمئنة التي كان يأتي بها محمد عيد بين يوم وآخر ، وكلها تؤكد « قرب الفرج » ، كانت تجعله متردداً ، وتحمله على تأجيل السفر مرة بعد اخرى . قال لمحمد عيد في احدي الليالي ، وبعد « رسالة » مشجعة جديدة :

- صحيح مثل ما قالوا : جدي لعب بعقل تيس ، وانت من شهر تلعب بعقلي ، وانا مصدق ، بس اسمع . . وضحك بصوت عالٍ واصاف :

- على الطلاق بالثلاثة انه اذا مرت الاربعة وما صار شي ، لا انت ولا معلمك ولا احد على وجه الارض يربطني بهذه الديرة الزفت .

وتغيرت نبرة صوته :

- يا اخي ، يا حبيبي ، النفسا بعد الاربعة تحبل ، والميت بعد الاربعة يصير عظام ، وانا حدي الاربعة !

- طول بالك يا ابو مصباح ، اليوم ، اليوم بالذات ، الحكيم قال لي ان كل شيء خلص وانتهى على خير .

- خلص ما خلص هذا هو ، خلي سلطانتكم يدور على حلاق غيري !

- لا ترفس النعمة يا ابو مصباح ، ومثل هذه الشغلة ما تحصل كل يوم .

- والله يا سيدي عيشة الفمي والمي اللي كنت عايشها ، احسن من كل مورانكم وحرانكم .

- اصبر بعد كم يوم .

- طيب ، بسيطة ، لكن للصبر حدود .

في ليلتين متتابتين التقى الحكيم ببدري المدلل ومحمد عيد ، ومن حديث الى آخر افهم الاثنين معاً ان السلطان ظل متردداً خلال الفترة الماضية ، رغم الجهود التي بذلها من اجل اقناعه ، واذ وافق الآن موافقة مبدئية فبناء على الحاحه ، وستكون الفترة الاولى تجريبية ، وعلى ضوء نتائجها سوف يتحدد كل شيء ، « أما الاشراف والعلاقة فانها مرتبطة بي وعلى كفالتني » .

هذه الذكرى مجرد بداية بعيدة ، لان ما تلاها كان اوضح منها واقوى .
فزيد الذي جاء الى حوران بعد مرور اقل من شهرين على هذه الزيارة ، وبدا
اكثر جرأة وهفة مما كان في موران ، اشار اشارات غير مباشرة ، لكنها مفهومة ،
ان المقويات التي يريدنا مرة اخرى ، وبكميات اكبر من السابق ، لا تخصه
فقط وانما تخص اناساً آخرين ، وضحك ضحكة ذات مغزى وفهم الحكيم
بشكل جيد .

بعد ذلك سارت الامور بشكل افضل واكثر ووضوحاً . ففي زيارة الحكيم
الثانية الى موران ، والتي امتدت اسبوعين كاملين ، وهذه المدة الطويلة كانت
نتيجة اصرار الامير نفسه ، والذي بدا محرجاً ، بل واقرب الى الخجل ، من
الأيام الاولى ، في هذه الزيارة ، تعتمد الحكيم في لحظة مناسبة ان يسأل زيدا
بتورية ناعمة وذكية عن صحته ، وحين رد عليه انها جيدة وضحك بلذة
وصخب تشجع الحكيم وقال مازحاً :

- هذه واحدة من الف !

ورغم ان الامير لم يظهر اهتمامه ، اذ تطلع الى اكثر من ناحية ، الا ان
اعصابه كلها انشدت وتوترت ، وكان يود في اعماقه لو ان الحكيم يسترسل
ويقول كل شيء ، وفي محاولة لان يستفزه ويدفعه الى الكلام توجه الى زيد :

- العمر له احكامه يا زيد وظني ان النبي آدم اذا كبر تفرغ عظامه .

رد زيد بمكر :

- بعدنا شباب ، يا طويل العمر ، والنبي آدم يتصلح مثل السيارة .

- لكن السيارة حديد يا ابن الحلال .

- والنبي آدم .. كل شيء فيه يصير مثل الحديد .. اقوى من الحديد ، يا
طويل العمر !

ولم يترك زيد الفرصة تفلت ، تطلع الى الحكيم وسأله :

- ما قولك يا ابو غزوان ؟

ويتذكر الحكيم انه لجأ الى اساليب متعددة ، واقى بامثلة كثيرة ومتنوعة

الى فترة قصيرة سابقة لم يكن السلطان يبدي اهتماماً بمظهره وشكله ، بل
كان اقرب الى الفوضى والبساطة ، وكان يؤثر اشياء اخرى على الملابس
والمظاهر ، لكن ما لبث ان تغير وأخذ بالحالة الجديدة .

يتذكر الحكيم ان دعوته الى موران اول مرة لم تكن « بريئة » ، فالحفاوة
التي استقبل بها ، والعناية التي وجهت اليه ، ثم محاولات الامير خزعبل كسر
التهدب بسرعة ، جعلته ، بداية الامر ، متردداً في تفسير هذا كله ، ورغم ان
الامير لم يتطرق ، آنذاك ، الى الاحتمال الذي قدره الحكيم ، فان زيد
المريدي تولى الامر نيابة عنه ، اذ لم تكف تمضي بضعة ايام على وجود الحكيم
في موران ، حتى تعتمد زيد ان يكون معه وحيداً في احدى الليالي ، ومن
حديث الى آخر ، وفي لحظة انفعال لم يعرف زيد كيف يسيطر عليها ، طلب
منه ان يؤمن له مجموعة من الادوية « المقوية » . ولما حاول الحكيم ، بمكر ، ان
يستفسر حول الالوجاع او الامراض التي تتطلب هذه « المقويات » ، قال زيد
وهو يدير وجهه الى الناحية الثانية ويشير بيده :

- الخوايا بحران علمونا بكل شيء ، وانت تعرف زين اللي يلزم يا

حكيم !

وتعمد الحكيم ان يكون رده ضحكة مجلجلة ، وبعد فترة قال كلمة

واحدة :

- بسيطة !

والعظماء ، واكد له ان قدرة الانسان هي التي تحدد في النهاية كل شيء ، وذكر عرضاً ان الملوك الاقدمين اذا كانوا قد اعتمدوا على الطب الشعبي والوصفات البسيطة ، مثل العسل ، واللوز ولحم الحمام ومرقه ، فان التقدم الذي احرزه الطب قدم خدمات ووصفات لا حدود لها ؛ ويجب ان يستفاد منها . بعد هذه الزيارة ، وبشكل منظم ، بدأت تصل الى قصر الغدير كميات تزداد وتتنوع من الادوية الجديدة ، وكانت ترفق بارشادات واضحة من قبل الدكتور المحملي ، مع تمنياته بقضاء اوقات ممتعة !

الآن ، والحكيم يصل الى موران ويقوم فيها ، يشعر ان واجباته ومسؤولياته تزداد وتكبر ، فهو ليس مسؤولاً عن صحة السلطان فقط ، يجب ان يبذل كل ما يستطيعه من اجل مساعدته وتسهيل مهمته ، ويجب ان يشعر الناس جميعاً القاصي منهم والداني ، الكبير والصغير ، ان السلطان الجديد ليس مثل اي سلطان قبله ، وليس مثل اي سلطان غيره .

هذه المهمة تشغل الحكيم الآن ، وتجعله في حركة دائمة وتفكير متصل فتزيد مخاوفه واضطرابه ، خاصة وانه لم يالف موران بعد ، وليس متأكداً من الناس حوله . أما بعد ان وصلت زوجته واولاده ، وبعد ان اصبح مطيع ليس مجرد قريب او مساعد يمكن الاعتماد عليه فقط ، وانما صديق ايضاً ، فقد اصبح في وضع نفسي افضل . قال لمطيع في احدى الليالي ، وهما في المنطقة الوسطى يرافقان السلطان في احدى جولاته :

- يا خالي - هكذا يخاطب الحكيم ابن اخته - اليوم غير الامس ، واذا كنت قد بقيت وحيداً في الفترة الماضية ، وكان السلطان اميراً فقط ، فالحال اختلف اليوم ...

وزفر مهموماً وحاول ان يجمع افكاره ويركزها :

- اسمع يا مطيع ، انت كبير وعقلك راجح ، ولا تحتاج الى من يعلمك ، لكن ، كما تقول الحكمة : عقلاّن اكبر من عقل ، ورجلان اقوى من رجل ، واليوم انا وانت وانشاء الله لا يفرقنا الا الموت .

استراح قليلاً ثم اضاف بنبوة جديدة :

لاثبات مدى التقدم الطبي ، خاصة في مجال تعزيز قدرة الانسان واطالة عمره ، وان الاطباء في المانيا والنمسا ، وفي اميركا ايضاً ، توصلوا الى اكتشاف ادوية يمكن ان تجعل الانسان في حالة شباب دائم ، واثار بسرعة الى انه قرّر زيارة المراكز الطبية الكبرى في اوروبا واميركا خلال فترة قادمة ، لكي يطّلع على المكتشفات الحديثة ويتأكد من نتائجها وفعاليتها .

والامير الذي كان يتابع باهتمام ويزر رأسه دلالة الاعجاب ، كان بحاجة الى حلول سريعة ، قال لزيد ، لكنه يريد ان يسمع الحكيم :

- خمس وسدس يا زيد وعش بالأمل الى حين ما يرجع الحكيم من اوروبا واميركا !

ولم ينتظر الحكيم ، التفت الى زيد وطلب اليه ان يأمر باحضار حقيبتيه السوداء الصغيرة والحقيبة الطبية . وخلال دقائق قليلة استخرج من الحقيبتين كمية وافرة من الادوية ، نظمها على شكل مجموعات ، وهدوء وصبر بدأ يشرح كيفية الاستعمال والمقادير والمواعيد ، كان يشرح للامير خزعل اكثر مما يتوجه بالحديث الى زيد ، والامير الذي بدا مسروراً منفعلاً قال لزيد بما يشبه الأمر :

- كل شيء اكتبه يا زيد احسن ما تتيه عليك !

في هذه الزيارة تحددت وترسخت صفة الحكيم ، لان الامير لم يكتف باسئلة اضافية عن الادوية ، ومقارنتها بغيرها ، اذ طلب من الحكيم ان يفحصه بدقة ، وان يعطيه توجيهات لكي يكون وضعه الصحي على احسن ما يرام . وقد قام الحكيم بكل ما طلب منه ، وابدى عناية كبيرة اثناء الفحص ويعده ، واكد ان صاحب السمو في حالة صحية جيدة للغاية ، « وان قلبه مثل قلب شاب في العشرين » وأشار اخيراً الى ان سموه اذا خفف وزنه قليلاً فسوف يجعله ذلك في وضع افضل من كل الوجوه . . . وضحك !

هذا الذي يتذكره الحكيم الآن جزء من ماضٍ يغيب ويتعد ، فالامير الذي بدا خجولاً او محرجاً ما لبث ان تغير ، وقد ساعده الحكيم كثيراً على ذلك ، وجاءه بأمثلة عديدة من التاريخ والسنة ، خاصة تاريخ الملوك

ويتحدثان في امور كثيرة ، يجد ان الكلمات التي يسمعا تعني اكثر مما فعل ، وتعني شيئاً آخر .

في هذه الجولة ، في لقاء الناس ، في كلام خاله الكبير والغامض ، يحس بثقة اكبر ويشعر انه ليس وحيداً . قال لخاله في لحظة انفعال :

- كان من الواجب ان تكون في موران من زمان يا خالي .

- كل شيء باوانه احسن . . يا خالي .

- ومع ذلك لا اتصور اننا تأخرنا .

- بالعكس . . هذا هو الوقت المناسب .

وضحك الحكيم بحزن واضاف :

- اذا عرفنا كيف نشغل . .

- مهمتنا صعبة ، صعبة جداً ، يا مطيع ، يا خالي ، وحسادنا الذين لا وجود لهم الآن ، قد يظهرون غداً ، وقد يظهر لنا اعداء ايضاً ، ولذلك يجب ان نستعد .

وابتسم وسرح مع الذكريات ، ثم عاد مرة اخرى :

- كانت عادتي ، منذ زمن طويل ، ان اقرأ التاريخ وأتعلم . اليوم لازم نطبق ما تعلمناه .

وتغيرت لهجته :

- انا لست مغروراً ، كما اني لست وحدي . انا وانت وكم واحد من جماعتنا ، اذا تفاهنا وصفت قلوبنا ، يمكن ان نغير وجه المنطقة !

تنحى وهز رأسه ثم اضاف :

- يمكن تذكر قصة المرأة الانكليزية اللي اسست مملكة من العدم ، وجاءت بملك مهزوم وتوجته على رأس كل الملوك المتنافسين والمتنظرين . كانت اجنبية ووحيدة .

تنفس بعمق وبعد قليل :

- نحن وضعنا اسهل بكثير : السلطان اعطانا مفاتيحه كلها ، الظاهر منها والباطن ، ويجب ان نستعمل هذه المفاتيح . أما اذا ضاعت منا ، اذا سرقها احد ، اذا لم نعرف كيف نستعملها فاللوم يقع علينا وحدنا !

كان مطيع يستمع الى خاله باهتمام ، ويفهم كل كلمة يقوها ، لكنه يجد ان الكلمات بمجموعها لا تعني شيئاً محدداً ، ولا تشكل نسقاً واحداً . ماذا يريد خاله ؟ وما هو المطلوب منه بالذات ؟ صحيح انه اكتسب رضا السلطان خلال الفترة الماضية ، واصبح شخصاً لا يستغنى عنه ، فقد سافر عدة سفرات لشراء حاجات كثيرة كان القصر بحاجة اليها ، كما حمل رسائل عديدة ، الا انه الآن لا يعرف ما يجب ان يفعل . كان عليه ان يتشاور مع خاله باستمرار ، ان يسأله ، ان يستمع اليه . الآن وخاله يصل الى موران ، ويلتقيان كل يوم ،

طلب من محمد عيد ان ينقل اليه ما يدور من اخبار واحداث ، وان يبقى على صلة بالناس فقد ضحك ورد عليه مازحاً :

.. الواحد منهم ، يا حكيم ، مثل الاخرس ، لا تأخذ منه لاحق ولا باطل ، واذا تكلم لا تفهم ماذا يقول . . وفي الأخير اذا فهمت يسألك عن : الحلال والمطر والسوق ، «أباعر ابن السعد وصلت» «وطرش ابن عثمان ضاعت وهلكت» وتعال احزر وفسر من ابن السعد ومن ابن عثمان ، وما هي الأباعر وما هو الطرش !

والحكيم الذي حاول ان يشرح لمحمد عيد ان ما يطلبه منه شيئاً آخر غير الجمال والغنم ، وان لهجة الناس ليست الى هذه الدرجة من الغموض والتعقيد ، الا ان محمداً بدا غير متحمس ، قال للحكيم لينهي المناقشة :
- واذا سمعت اي شيء يا حكيم لمن ساقوله اذا لم اقله لك ؟

ورغم محاولات الشرح والتوضيح الا ان الطرفين كانا متأكدين ان ما يفكر فيه الواحد يختلف عما يريد الآخر . ولهذا اخذ تفكير الحكيم نسقاً آخر ، وبدأ يبحث عن الرجل الذي يجب ان يتولى هذه المهمة .

قال الحكيم للسلطان في احدى الليالي :

... يا صاحب الجلالة ، يقول المثل : الباب الذي يأتيك منه الريح سده واسترح . ونحن الآن في عالم يموج حولنا بالاضطرابات والفوضى . صحيح ان الامن ، والله الحمد ، يعم انحاء السلطنة ، والناس في رضى وقناعة ، لكن هذه الرياح التي تهب من اركان الارض الاربعة - واصراً متعمداً ان يستعمل هذا التعبير - لا بد ان تصل الينا ، ولا بد ان يتلقفها مخدوع او طامع ، خاصة وان السلطنة ، بما انعم الله عليها ، اصبحت هدفاً للاطماع من قبل الفقراء المحيطين بها ولولا حكمة جلالتك ومحبة الناس لكم لكان الحال غير هذا الحال .

استراح قليلاً ، راقب بعناية تأثير ما قاله على السلطان ، فلما وجده بعيداً سارحاً اضاف بلهجة مختلفة :

- انا متأكد ، يا صاحب الجلالة ان وجود شخص موثوق ، على رأس

... ومن الامور التي شغلت الحكيم ايضاً ، ومنذ وقت مبكر ، ان يكون الى جانب السلطان شخص كفؤ وموثوق يتولى مهمات «الامن والسلامة» ، هكذا يطلق على الجهاز السري الذي يفكر فيه ؛ واذا فكر باشخاص عديدين ، وخطرت له اسماء اخرى ، فلم يكن بعد متأكداً من الشخص المناسب ، «لان اهل موران مثل الجوزة لا تعرف ما في داخلها حتى تفتحها» ولان مهمة هذا الشخص ليست فقط معرفة ما يقوله الناس وما يفكرون فيه ، بل تتجاوز ذلك الى معرفة كل شيء عن الامراء : ماذا قالوا ، اين كانوا ، ماذا فعلوا ، ومن هم اصداقؤهم ، وماذا يقول لهم هؤلاء الاصدقاء ، اي بكلمة اخرى : معرفة ومتابعة ادق الاشياء واكثرها سرية . والحكيم الذي عرف عدداً من هؤلاء الامراء ، ويتذكر كيف نظروا اليه في البداية ، او كيف تصرفوا معه ، يدرك مدى حساسية المهمة التي يفكر فيها ، لان الامراء ، دون ان يتحرس بهم احد ، نزقون وعدائيون ويبحثون عن الشر ، كما يقول الحكيم لنفسه ، ويمكن للواحد منهم ان يذبح الرجل دون ان يرف له جفن ، او كما يشرب الماء . فاذا عرفوا ان هناك عيوناً تراقبهم ، تحصي خطواتهم وتحركاتهم ، وتعرف اين ذهبوا او ماذا فعلوا ، فعندئذ ستكون لديهم كل المبررات لان يكونوا في منتهى القسوة والشراسة . ولذلك استبعد الحكيم الاسماء واحداً بعد آخر ، واستبعد بشكل خاص كل واحد من غير اهل البلاد .

في حران كان محمد عيد عيناً له واذاً . كان ينقل له كل ما يسمع وكل ما يقوله الناس . هنا في موران تبدو المسألة مختلفة تماماً ، واكثر تعقيداً ، أما حين

- لدينا في العلوم الطبية ، يا صاحب الجلالة ، نوعان : الطب الوقائي والطب العلاجي ، مهمة الطب الوقائي ان يمنع المرض قبل وقوعه ، او قبل انتشاره ، وهذا النوع من الطب له بداية وليس له نهاية ، يبدأ من الوراثة وينتهي الى كل عامل يؤثر على الصحة ، من حيث التغذية ومنع العدوى والتلقيح وغير ذلك . أما الطب العلاجي فان الطبيب يواجه حالة المرض القائمة ويبذل اقصى جهد من اجل شفاء المريض : بالادوية ، بالجراحة ، بالعزل ولا يخفى عليكم ، يا صاحب الجلالة ، ان الفرق كبير بين منع وقوع المرض وبين التصدي لمعالجته بعد وقوعه .

وتنفس ملء صدره ، بعد ان رفع يديه قليلاً ، ثم اضاف :

- وجهاز الشرطة والتحريرات عندنا ، يا طويل العمر ، جهاز كفو قدير ، وهذه شهادة الله ، لكن هذا الجهاز يشبه تماماً الطب العلاجي ، اي انه لا يتحرك الا بعد وقوع الجريمة ، ليعرف من هو المجرم وكيف وقعت الجريمة . المطلوب الآن هو ، اضافة الى الطب العلاجي ، وجود الطب الوقائي .

ضحك السلطان وبدا مسروراً جداً ، وخرجت كلماته من حنجرتة :

- مثل ما قلت ، يا ابو غزوان ، قبل ما تقع المصيبة توقها ، وتحزم للواوي بحزام اسد .

وظل هذا الهاجس ينام ويقوم مع الحكيم ، يستعرض الاسماء اسماً بعد آخر ، ولم يستبعد حتى بدري المدلل ، «لأن هذا الخبيث الذي بدأ برأس السلطان وصل لأكثر الرؤوس ، ومع الوشوشة وقص اللحى يمكن ان يصل لما في العقول والخصى» لكن عاد واستبعده ايضاً : «رأسماله كله انه حلاق ، لسانه شبر ، ومثل ما يسمع يحكي ، وبدل ما نفعنا يمكن يضرنا ويحرب بيتنا» .

وفكر بالامير اركان . صحيح انه يحتاج الى جهد ، لكن اذا تدوزن وضبط ستكون يده طائلة . ومع ذلك فهو صاحب مزاج ، فجأة قد يذهب إلى مزرعته . وهناك ما عنده الآ قال ابو هريرة وقال ابن عباس ، واذا اراد ان يستريح يلبس «بالفية ابن مالك والثعالبي» واطاف بعد قليل وهو يتذكر : «والمشكلة انه من

جهاز تابع لجلالتكم مباشرة ستكون له فائدة كبيرة . . على الأقل في المستقبل . فقبل ان يتأمر اثنان ، وقبل ان تطلق اول رصاصة تكونون قد عرفتم كل شيء .

وضحك الحكيم قليلاً ، عدل جلسته ليتابع ، الا ان السلطان سأله بارتياح :

- تاريك سامع شي . . . او تعرف شي يا حكيم ؟

- ابدأ ابدأ يا صاحب الجلالة . .

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته :

- ولا اظن ان احداً في السلطنة كلها يفكر الآن بشيء رديء ، لكن يجب ان تكون ، يا صاحب الجلالة ، على معرفة تامة بما يدور بين اي اثنين ، ويجب ان تسمع حتى ديبب النملة ، خاصة وان الافكار الهدامة والحركات المتطرفة حولنا تنتشر انتشار النار في الهشيم . صحيح ان الفقر وعدم الرضا وسوء الحكام ، هي الاسباب الاساسية في انتشار هذه الحركات ، لكن الى جانب هذه الاسباب هناك دول تتأمر ، وافكار ملحدة تريد الوصول الى بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا ، فلذلك يجب ان نحاط لها وان نمنع وصولها ، فاذا وصلت نعرف كيف نقاومها ونقضي عليها في المهد ، وهذه هي مهمة الجهاز الذي اقترحه عليكم .

راقت الفكرة للسلطان ، بدت له مفيدة وضرورية : قال وهو ينظر الى البعيد :

- والله اللي تقوله صحيح ، يا حكيم ، ولازم نسويه .

وبعد قليل :

- وبمن تشور علينا يا ابو غزوان ؟

- اعطني فرصة لافكر ، يا صاحب الجلالة ، واذا استنسبتم شخصاً فعلى مشيئة الله .

وفي محاولة لان يصل الى نتيجة نهائية :

ولا تعرف احداً ، استطاعت ان تقيم مملكة من لا شيء ، وانت يا صبحي ،
يا ابو غزوان ، تعجز عن اختيار رجل ليكون رئيساً لجهاز الأمن والسلامة
الخاصة ؟ « ودون تردد اقترح على السلطان :

- يا صاحب الجلالة توصلت الى اقتراح يرضيكم . توصلت الى الرجل
المناسب .

- من ؟

- حماد المطوع .

- حماد المطوع . . ؟ ابن ابراهيم او ابن صالح المطوع ؟

- ابن صالح المطوع يا صاحب الجلالة .

- انا اعرفه ؟ شفته ؟

- يوم الخميس الماضي كان بالديوان ، يا صاحب الجلالة ، وهو الي رد
الاعمى وقال له راجع دار الامارة . .

- اي نعم . . اي نعم . . تذكرته .

- ومن الي اشار عليك ؟

وضحك الحكيم قبل ان يجيب :

- والله ، يا صاحب الجلالة ، قلبي هو الي اشار علي .

فهقه السلطان وهز رأسه عدة مرات ، ثم قال :

- اذا كان شور القلب ، يا حكيم ، فالقلب ما يكذب وما يخطئ !

قال الحكيم وهو يتهد :

- يا صاحب الجلالة : العمل الذي سيقوم به صعب وسهل ، وهذا
العمل بالذات يحتاج ، بالدرجة الاولى ، الى الثقة ، الى الامانة ، وحماد كفو
وصغير السن ، وتعرف ، يا طويل العمر ، ان عائلة المطوع عائلة ميسورة ،
ولذلك يمكن ان يربى في ظل جلالتك ، ويكون اكثر الناس اخلاصاً .

ام والسلطان من ام ثانية ، ويمكن يكون عنده حسابات واحد مثلي لا يعرفها «
« أما الامير ميزر فكل جماعته من رجال السوق والتجار ، ولا تعدى
سوالفهم : كم صار ثمن الارض الفلانية ، ومن اشترى الارض الفلانية .
والرجل بطنه كبيرة وما هو فاضي لشغلة من هذا النوع » .

ولم ينس الحكيم ، وهو يستعرض الاسماء ، مطيع وجعفر والحجار ، لكنه
قال وهو يصرف النظر عن هذه الاسماء : « الله خلق لكل واحد منهم همماً
يشغله » .

وكاد بعد بضعة اسابيع ان يطوي الموضوع لانه اذا لم يذكر السلطان به فان
السلطان لن يتذكره ، خاصة وقد وجد صعوبة في اختيار الشخص المناسب .
ولا يعرف كيف خطرت له فكرة ان يكون هو نفسه المسؤول عن جهاز من هذا
النوع . تصور نفسه في غرفة نصف مظلمة ، ملحفة بديوان السلطان
مباشرة ، ولديه عشرات التلفونات ، وهذه التلفونات ترن بين لحظة واخرى ،
وتأتيه الاخبار من الجهات الاربع ، فيسمع ويوجه وينقل الى السلطان ما يراه
ضرورياً ومهماً ، ولديه عشرات المساعدين ، ولكل واحد من هؤلاء مهمة
محددة ، وكل شيء يتم في الليل ، في السر ، وفكر ان يعطي مساعديه اسماء
سرية ، او ان يعطيهم ارقاماً . وحاول ان يتذكر بعض الكتب التي قرأها منذ
وقت مبكر حول الاعمال العظيمة والخطيرة التي وقعت اثناء الحربين العالميتين
الاولى والثانية ، وكيف كانت الاجهزة السرية تلعب الدور الرئيسي في توجيه
الزعماء ، في قيادة الحرب ، لكنه لم يتذكر صوراً محددة او اسماء كبيرة ، قال
لنفسه بنوع من خيبة الأمل « يا ابو غزوان لو فكرت بهذا العمل قبل عشر او
خمس عشرة سنة وانصرفت اليه لكانت له نتائج . . . أما الآن « وفي محاولة لان
يكبح شعور عدم اللياقة او القدرة الذي احس به للحظة قال وهو يضحك
« وهذه الاجهزة اصبحت بخدمتك يا ابو غزوان . . كل المعلومات وكل
الجهود ستصب في حضنك ، ويجب ان تكون قديراً وقويماً وتعرف كيف
تصرف ! »

بعد الكثير من الانتظار والتفكير والسؤال توصل الحكيم الى قرار : « قبل
فترة طويلة قلت لمطيع ان امرأة ، نعم امرأة ، واجنبية ، لا تحسن العربية ،

قبل بضعة شهور من مغادرة الحكيم لحران وصلها شخصان : حسني كركر وسعيد الاسطة ، اخوان من ناحية الام . حسني طويل ، ابيض البشرة ، ضامر ، وسعيد مربع ، أميل إلى القصر ، أو هكذا يبدو نتيجة السمّة ، اضافة الى قليل من السمرة ، بالمقارنة مع اخيه . لا احد يقدر انها اخوان ، واذا قيل ذلك لا يصدق لاول وهلة ، أما اذا كان احدهما موجوداً ، او كلاهما ، وذكر الامر ، وهز اي منها رأسه دلالة الموافقة والتأكيد ، فان مظاهر الاستغراب والدهشة تظهر واضحة على وجوه الذين يسمعون ذلك اول مرة .

لا يقتصر الاختلاف على تباين الملامح او اختلاف الكنية ، فان مزاج الاثنين شديد التباين ايضاً . فحسني يبدو متساعماً اقرب الى الطيبة والتدين ، أما سعيد فرجل عملي ، كما يصف نفسه ، ولذلك من السهل التعامل معه رغم سخريته ، ورغم النزق الذي يميز تصرفاته في ساعات الغضب ، كما انه لا يتردد في ان يفعل اي شيء . وربما هذه الطبيعة بالذات هي التي ادت الى ان تلحق بالاثنين الخسارة تلو الخسارة . مما اضطرهما لان يتركا الشام في وقت مبكر ، وان يفتتحا محلاً تجارياً في عمان . اذ بعد زيارة خاطفة قام بها حسني لهذه المدينة ، ودراسة السوق فيها ، مستفيداً من علاقات كانت له بعض معارفه الذين سبقوه الى هناك ، تأكد ان الامكانية كبيرة لان يبدءاً عملاً ، خاصة وان عملهما في دمشق قد تعثر وواجه صعوبات لم يستطيعا تجاوزها ، وهكذا استقرا في عمان .

- وكم عمره . . ابن المطوع ؟
- حوالي الثلاثين . . يا صاحب الجلالة .
- ما هو صغير على هذا العمل ؟
- الصغير الذي يربى في ظلال جلالتهم احسن من الكبير الذي ربي في اماكن اخرى .
- ودارس ؟
- درس الى العاشر . . ثم استلم رزق اهله ، وهو الآن كل شيء لآل المطوع .

قال السلطان في محاولة لثلا يحسم الأمر :

- الله كريم ، خلنا نسأل ونفكر ، يا ابو غزوان ، وانشاء الله ما يصير الا الخير !

يومان حتى أصبحت مهمة محمد عيد ان يبحث بنفسه عن الرجلين وان يدبرهما، كما أكد عليه الحكيم أكثر من مرة، وبحزم يقرب حد الأمر، لأن «هذا المجنون، يعني سعيد، لا يعرف الناس ولا يمكن أن ينحزر عليه كيف سيتصرف !» ورغم ان القرابة في الاساس ، وان كانت بعيدة ، هي بين الحكيم وحسني ، الا ان الذين سمعوا كلام سعيد وتعليقاته ، ظنوا ، بل وكانوا متأكدين ، ان القرابة التي يتحدث عنها الرجل هي بينه وبين الحكيم شخصياً .

أما في دعوة الغداء التي اقامها لها الحكيم في اليوم الخامس لوصولها الى حران ، وفي محاولة لاصلاح الخطأ الذي تسبب به محمد عيد ، فقد وجه كل اهتمامه وعنايته الى سعيد ، وكان حريصاً على الا يخرج من عنده الا راضياً . وفي محاولة لثلا يتورط معه ايضاً ، ويوافقه على المشروعات التي يعرضها ، وكان يطلب تنفيذها على وجه الاستعجال ، ولكي لا يبدو رفضه سريعاً قاطعاً ، ويؤدي ذلك ، من جديد ، الى هيجان هذا المجنون ، فقد اثنى الحكيم على الافكار والاقتراحات التي عرضت ، لكن طلب ان تُدرس بعناية وان « نجد شركاء من اهل البلد » والى ان يتم ذلك كلف كلاً منها باعمال تتعلق بالمستشفى او بالعقارات التي يملكها في حران «وبعد ما نخضهم تعرف الزبدة من الشنينة» .

ابدى محمد عيد استغرابه ، بل امتعاضه ، لان الحكيم خاف من هذا «الصايغ» ، يعني سعيد الاسطه ، «ولو ترك لي تأديبه لما تجرأ هو او تجرأ غيره على ان يتناول على اكبر راس في حران» يعني الحكيم . والحكيم الذي ابتسم ، قال كأنه يحدث نفسه :

- داروا سفهاءكم ، هكذا جاء في القول الكريم .

تطلع بامعان الى محمد عيد ثم تابع :

- واوها وآخرها الجماعة قرايب .

ولان محمد عيد كان لا يزال تحت تأثير الانفعال ، وأعتبر انه المسؤول عن الخطأ ، رد بحدة :

هذا التاريخ الضارب في القدم والعتمة والاختلاف لا يمكن لاحد ان يتأكد منه او ان ينفيه ، لان الروايات حول ذلك كثيرة ومختلفة اشد الاختلاف ، حتى ان اياً من الاثني يروي الواقعة الواحدة بطريقة تختلف مرة عن اخرى ، وتختلف عما يرويه الآخر . أما السبب الذي دعا الاخوين لان يتركا عمان فانه الافلاس ، اذ بعد ان افتتحا محلاً تجارياً يختلف عن اي محل غيره ، بتنوع الحاجات التي يعرضها والخدمات التي يقدمها او يقوم بها ، وبعد ان حققا نجاحاً ملحوظاً خلال فترة قصيرة ، وقد لفت هذا النجاح نظر الكثيرين واثار تساؤلاتهم واستغرابهم ، تمادى سعيد فبدأ بمضاربات عقارية ترافقت مع عقود على كميات من السكر المهرب ، وقيل ايضاً الاتجار بالمخدرات ، وقد ادى هذا . . او ربما غيره ، الى الافلاس ، ويبدو ان حسني احتاط للامر قبل وقوعه ، اذ نقل الجزء الاكبر من الاراضي والعقارات التي كانت باسمها ، او باسم احدهما ، الى اسماء اقارب ، خاصة من النساء ، بحيث انه عندما حُجز على المحل التجاري ، في محاولة لاستيفاء الديون ، تنازل بعض الدائنين عن حقوقهم ، لانهم لم يجدوا شيئاً يختلفون عليه ، او ان الشيء الموجود لا يستحق الاختلاف !

الافلاس . . او ادعاء الافلاس هو الذي دفعها لان يغادرا عمان ، على الأقل لفترة تكفي لان ينسى الناس . ولما كانت لسعيد علاقات تجارية باشخاص في حران ، خاصة من خلال صفقات السكر المهرب ، فقد بدت له هذه المدينة المحطة الاساسية ، وربما الهدف ايضاً . وفي محاولة لان يقنع حسني بمرافقته وموافقته ، اكد له ان «قربنا ، الدكتور صبحي المحملجي ، شخص يده طائلة ، لانه مع الجماعة هناك طيزين بلباس واحد ، ولا بد ان يحملنا بعبونه» ولان حسني لم يكن يملك الرفض او القدرة على العناد فقد وافق .

حين جاء الى حران ، وثلاثة ايام متوالية ، في العيادة والمستشفى ، كان جواب محمد عيد واحداً او متقارباً : «الطبيب في غرفة العمليات والعمليّة طويلة» «الطبيب طلب الى قصر الامارة لحالة مستعجلة» ولذلك ، ونتيجة هذا الموقف وهذه الاجابات ، كان يفترض ان يتصرف سعيد . وسعيد اذا بدأ ، اذا غضب ، من الصعب ان يصمت او ان يتسامح . فما هو الا يوم او

- بعض الاقارب عقارب ، يا حكيم ، ولا تغلط !

- غلط ما حصل ، وخسارة ما راح نخسر ، واولها وآخرها الرجال

وافعالها .

بعد اربعة شهور وبضعة ايام كانت عودة الحكيم من موران لاصطحاب
وفد حران من اجل تقديم العزاء بالفقيد الراحل ، وقد تعمد ان يرافقه سعيد
الاسطه وحسني كركر ، كدليل على الحزن وعلى مدى تأثر العائلة بهذا
المصاب ، ولكي يتيح لها الفرصة لان يطلعا ويعرفا موران بشكل مباشر ،
وامكانية ان يستقرا فيها معه ، وخلال هذه الزيارة ابدى عناية خاصة بهما ،
وقدمهما الى الكثيرين كاقرباء اولاً ، وكتجار جملة كبار ، ليس في الاردن فقط
بل وفي سورية ومصر ولبنان ايضاً . وسعيد الذي بدا مسروراً وأخذ بجو
الحفاوة والاهتمام ، ما لبث ان بدأ يتصرف كتاجر كبير فعلاً ، اذ بعد ان طلب
باصرار والحاح ان يرافقه واحد من رجال القصر ويعرفه على تجار موران
الكبار ، اصبح يذهب بمفرده الى السوق ، ويقضي هناك ساعات كل يوم ،
وخلال ذلك يسأل ويدقق ، يساوم ويتعرف ، الى ان بات متأكداً من كل
شيء ، واصبح واثقاً انه اذا بدأ عملاً جديداً في موران فلن يخيب هذه المرة ،
ولن يكون مصيره مثلما كان الأمر في الشام وعمان . ولقد بلغ به الانفعال درجة
أنه فضل البقاء في موران ، على أن يعود حسني وحده مع الحكيم إلى حران لتصفية
الأعمال هناك ، وأنه سينتظرهما في موران . لكن نظرات الحكيم وابتساماته ،
ثم تلك الاشارات بعدم امكانية الاستغناء عن خدماته في حران « لانه يعرف
كل شيء وقادر على كل شيء » جعلته يوافق على مرافقتها ، على ان يعود في
اقرب فرصة !

الوقت الذي وصل فيه الحكيم الى موران ، ومعه تلك الحاشية الكبيرة ،
المؤلفة من محمد عيد وسعيد الاسطه وحسني كركر ، اضافة الى طباط وخادم
وحارسين ، يعتبر الوقت الذهبي لموران ، او هكذا يجب ان يصفه . يقول
ذلك بكثير من المرح ، ويضيف وقد تغيرت معالم وجهه تماماً :

- الله ، جلّت قدرته ، فتح ابواب السماء على هذا الشعب الطيب الفقير ،
فبعد انتظار طويل ، اطول من انتظار يعقوب لابنه يوسف ، وبعد ان كان
الناس يأكلون الجراد والتمر وخبز الشعير ، ويموتون من سوء التغذية
والطواعين ، قال لهم الكريم : كفاكم جوعاً وعذاباً ، يا عبادي الصابرين ،
فقد رأفت بكم ، وانا حين أرأف واجود افعل ذلك بلا حدود ، واذا كنت قد
بلوتكم فيما مضى من الزمان بالجوع والحكام الظالمين ، فاني اليوم ارفع عنكم
الكرب وعذاب الدنيا لاحاسبكم في الآخرة ، امنحكم اليوم سلطاناً ليس
كالسلطين ، وافتح له خزائن الارض اجمعين !

ويتيه الحكيم في اماكن بعيدة ، فاذا عاد تتغير نبرة صوته :

- لو جاء الانسان الى موران قبل سنين لما استطاع ان يعيش ، لما وجد فيها
ما يعوض التعب والشقاء : لا شغل ، لا مال ، لا بشر !

ويتسم بحزن ثم يتابع :

- ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكاناً او شيئاً ؛ سوف يكون الناس اكثر من
التراب ، وأشهره من الذباب !

العمل والخبرة . أما راتب الفتال ، « المورد » والضامن لدى الشركات الاجنبية في الخارج فله الثلث الأخير .

الثلث الأول لعبد العزيز وحده ، أما الثلثان الآخران فينقسمان الى ارباع : الحكيم له الربع ، لانه الكفيل لدى المصارف ، ولانه « أمن » العمل والسمعة ، ولراتب الربع لانه « المورد » والصلة مع الشركات ، أما الاخوان ، حسني وسعيد ، فلكل منهما الربع للعمل والخبرة .

وسعيد الذي وافق بسرور على هذه الشراكة وعلى هذه النسبة ، ولم يد اي تحفظ ، قال لحسني ، الذي قدم بعض الملاحظات ، وتساءل عن دور الحكيم وراتب ، قال له وهو يضربه على كتفه :

- اضحك بعبك ، لان الوحيدين الذين دفعوا المال هم عبد العزيز الغامدي والحصان ، ونحن كلنا شركاء مضارين ، اذا جاء الربح نتقاسمه ، واذا وقعت الخسارة ، تقع براس المسخوطين .

واذ وافق حسني على هذا التفسير ، لم يزايله الشعور بالغبن ، لان « الحكيم يربح على البارد المستريح ، لا دفع ولا راح يحمل الحديد والخشب ، وربحه يجي الى حضنه ، وراتب الفتال ، وهو قاعد على طيزه ، بالفني والمي ، فقط يكتب الى الشركات : وردوا حسابنا مائة طن من الاسمنت وعشرين متر من الخشب . . . والشركات تورد وهو يقبض ! » .

أما عندما سارت الامور بذاك الشكل ، فبدأ البيع والشراء اكثر مما قدر اي واحد من الشركاء ، فقد نسي الجميع القسمة ، بل وبدوا مسرورين مشغولين بالعمل والنتائج .

وفي دعوة العشاء التي اقامها الحكيم احتفالاً بقيام هذه الشراكة ، وانتهاء علاقته المباشرة ، مع تأكيدات لا تلبث تزايد على ضرورة ان يعتمد الانسان على نفسه ، قال بفخامة ، موجهاً الحديث الى كل واحد منهم :

- اليوم ما بقى لاحد حجة . واذا كان الناس ، في اماكن اخرى ، يجارون فيما يجب ان يعملوا ، لعدم وجود الاعمال ، فانهم هنا يجارون ايضاً ، لكنهم يجارون في اي عمل يعملون ، لكثرة الاعمال وتنوعها !

وينهي حديثه لنفسه او لبعض خلائه بان يقول : ويشدد على الكلمات :

- اليوم هو اليوم المناسب ، هذا هو العصر الذهبي لموران !

وفي اقل من ستة شهور قامت في موران ، وفي شارع العون بالذات ، شركتان : « الشركة العالمية للاستيراد والتصدير » وتتولى بشكل خاص استيراد المواد الغذائية ، ويملكها عبد العزيز الغامدي وسعيد الاسطة وشركاؤهما ، والثانية « شركة الحصان لمواد البناء » ويملكها محمد الحصان وحسني كركر وشركاؤهما الأولى في بداية الشارع ، مقابل الميدان ، وتمتد على مساحة ثلاث أو أربع دكاكين ، وقد خصص جزء من المكان لعرض المواد التي تتعامل بها الشركة ، إذ صُفّت أكياس السكر والطحين والعدس وصناديق الشاي ، إضافة إلى أعداد كبيرة من المعلبات ، وخصص جزء آخر للمكاتب ، أما الجزء الأمامي فكان عبارة عن ردهة كبيرة لاستقبال الموزعين وتجار الجملة وكبار التجار .

شريك سعيد الاسطة ، عبد العزيز الغامدي ، بدأ راعياً للغنم في صباه الأول ثم في بداية شبابه ، ولما اشتد عوده اصبح راعياً للجمال ، وظل كذلك بضع سنين ، سافر خلالها مرات عديدة الى شرقي الاردن وفلسطين ، ووصل مرة الى مصر ، ومرة الى حوران ، وخلال هذه الفترة اصبح راعياً ومالكاً ايضاً ، اذ له في الرعية رأسان ، ثم بعد عدة سنين اصبح شريكاً بالتصف في رعية يبلغ عدد رؤوسها اثنين وثلاثين .

وعندما قامت العلاقة بينه وبين سعيد الاسطة في الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ، كان عائداً لتوه من الكويت ، وكان يملك ثلاث سيارات حمل ، اضافة الى تجارة في الصوف والجلود ، والصدفة المحضة هي التي جمعت بسعيد اولاً ثم بالحكيم بعد ذلك ، ويبدو ان الرجل تعب من السفر واراد ان يستقر ، فلما اقترح عليه ان يكون شريكاً في شركة المواد الغذائية لم يتردد طويلاً ، باع سيارتين من السيارات الثلاث ، وحصلت الشركة على قرض من الدولة ، اضافة الى تسهيلات مصرفية ، وبدأ العمل : عبد العزيز الغامدي له الثلث برأسماله وعمله ، وسعيد الاسطة له الثلث بالقرض والتسهيلات ، اضافة الى

صرفنا كم قرش زيادة على تنظيم الشركة ، فالربح لنا في النهاية ، لان التجارة هي فن الاخذ والعطاء ، فاذا مرّ الواحد وشاف وجوه موران في الشركة تتبايع وتشتري ، ما يقدر يروح لمكان ثاني .

يستريح سعيد قليلاً ، ينظر الى عيني عبد العزيز الغامدي ويقول له بانفعال :

- يا شيخ عبد العزيز ، يا ابو الحميدي ، من اليوم وطالع التجارة في موران غير تجارة امس واللي قبله ، والشركة العالمية غير الخشخشة الهايفة اللي حولنا ، فاذا بدأنا بقوة اكلنا السوق وفرضنا اللي نريده ، أما اذا بدأنا عرجان ، نقدم رجل ونوخر الثانية .. ترى ما لنا خبزة في السوق .

فاذا رأى بعض التردد في عيني شريكه بغير لهجته :

- اسألني انا يا ابو الحميدي . انا لفيت الدنيا كلها على كعبي ، شفت وتعلمت . شفت الناس كيف تشتغل وكيف تتصرف . والمسألة اولها وآخرها : شطارة ومظهر وعلان . الشطارة تحلي الانسان يفتح عينه في اللبن ، يعرف متى يبيع ومتى يشتري ، وهي الهام من الله سبحانه وتعالى . والمظهر .. كل الناس تؤخذ بالمظهر ، يسيطر عليها ، وياما ناس غنيا بمظهرهم وشطارتهم . أما الاعلان ، يا ابو الحميدي ، خاصة في هذه الأيام ، فانه اقوى الاسلحة واهمها ، ولازم ذكر الشركة العالمية ما يقف ولا يهدأ ، ولازم تذكره الناس حتى في الحلم والمنام !

ويتفق الشريكان وتقوم الشركة كما يريد سعيدهم الاسطة : كبيرة ، في قلب المدينة . أما الردهة التي كان يفترض ان تبقى لعمليات البيع والشراء ، على ان يحتل ابو الحميدي مكاناً في صدر المكاتب الداخلية ، وان لا يشغل نفسه بالعمليات المباشرة ، فلم تلبث هذه الردهة ان تغيرت عما صممه وارده سعيد ، اذ نقل اليها ابو الحميدي طاولته ووضعها في الصدر ، مقابل الباب مباشرة ، لانه يريد ان يرى كل شيء وان يرى كل الناس ، ولان الغرفة الداخلية التي خصصت له في بداية الأمر ، « مثل القبر ، تحصر الصدر ، ولا بد ان يصير النبي آدم فيها بعد شهر او شهرين اخرس او مجنون » .

وبعد قليل خرج صوته خاشعاً :

- وكما في القول الكريم : لا اخاف على امتي من الفقر وانما اخاف عليها من قلة التدبير .

واستعاد نبرته الاولى :

- الحكيم ، بعد اليوم ، يا جماعة ، في التجارة ، يفتح الله ، يوك ، لا تسألوه ولا تشغلوه ، لان عنده الف هم ، وباله ما هو فاضي ، فتولوا شؤونكم بأنفسكم .

حاول حسني ، بأساليب شتى ، ان تبقى للحكيم صلة ، وان يستشار ويؤخذ رأيه بكل القضايا ، لكن ما لبث ان تراجع وهذا ازاء امتناع الحكيم ، بحجة عدم وجود الوقت لديه ، وازاء صحب اخيه الذي لا ينفك يزداد ويقوى ، مؤكداً « ان كل دقيقة من وقت الحكيم تعادل تجارة الارض كلها ، فالرجل مكلف من اكبر راس في البلد ، ان يكون مسؤولاً عن كل شيء ، وما اعقلنا اذا الواحد منا كل دقيقة وكل ساعة حامل حاله خري مري ورايح عند الحكيم ، ويا حكيم : العدس ؛ يا حكيم البصل والمعكرونة ؛ ويا حكيم السردين ، السعر اليوم كذا والبارح كذا . . . نبيع ام نشري ؟ » .

وضحك سعيد بصخب ثم اضاف :

- خليك يا ابو تيسير اعقل من هيك ، واترك الرجل بمشاغله وهمومه .

وهكذا تم الاتفاق على ان تترك اكثر الامور لحسني وسعيد يتدبرانها ، أما راتب فسوف يأتي بين فترة واخرى بزيارات طويلة ، واثناء وجوده ، واذا اقتضى الأمر يمكن للحكيم ان يحضر بعض المداولات ، ومن المفيد أخذ رأيه في القضايا الكبرى !

قال سعيد لشريكه في تفسير لافتة النيون الكبيرة التي وضعها باسم الشركة في اعلى البناء :

- الناس عليها الظاهر ، يا ابو الحميدي ، ولذلك فالمظهر شيء مهم ، خاصة بالنسبة للمواد الغذائية ، لان العين هي التي تأكل ، كما يقولون . فاذا

المال هو كل شيء في هذه الدنيا « وهو لا يملك الا شطارته وعقله ، ويجب ان يشق طريقه مهما كلفه ذلك من مشقة وصعوبات ، ما لبث ان اصبح شخصاً آخر : « المال يا جماعة الخير ، يروح ويحيي ، أما الشيء الثابت ، الشيء الباقي فهو هذا » ويدق على صدغه ، ليقول انه يعني العقل . ولذلك ما كاد يحقق تلك الارباح ، وما كاد يسمع المديح الذي يقال له حتى يستعيد الثقة ويبلغ حد الزهو « عادة الجماعة في التجارة ان الواحد منهم يتاجر بخروف او جمل . واكثر شيء يبيع شوال او اثنين من الطحين ، ولانهم بدون عمل ولا يشغلهم شيء ، فشطارتهم كلها في المساومة ، يظل الواحد منهم يفاضل حتى يطلع روح الثاني ، ولان الانسان اعصاب ، لا يحتمل ، فلا بد ان يسلم ، وهذه الطريقة يربح الواحد كم قرش ويخسر الثاني كم قرش هذه هي التجارة برايمهم . » ويهز رأسه دلالة الأسف والإنكار ، وبعد أن يستعيد ذكرياته يتابع : « أما ان يغامر الواحد منهم ، ان يقطع قلب الطرف المقابل له ، ان يربح كل شيء او ان يخسر كل شيء ، فهذا شيء لا يعرفونه ولا يقدرّون عليه ! » .

حتى ابو الحميدي الذي كان في البداية خائفاً مرتاباً ، وكان ينظر الى هذه الحركة الحافلة التي تجري حوله بكثير من الشك ، والذي نقل طاولته من الغرفة الداخلية الى صدر الردهة منذ الأيام الاولى ، ليرى بعينه ويسمع ويراقب ، دون رغبة في ان يتدخل ، تاركاً المفاوضات لسعيد ، حتى ابو الحميدي ما لبث ان أخذ بالحركة وسرّاً الى اقصى حد بالنتائج والارباح التي بدأت تتحقق ، فزال عنه الخوف ، وبدأت تراوده نفسه ان يتدخل ، ان يشارك ، وما لبث ان تخلى تدريجياً عن الصمت ، بل واخذ يتقمص شخصية سعيد ذاتها : « بضاعتنا غير بضاعة السوق يا جماعة الخير ، هذه البضاعة توصية ، جاءت من آخر الدنيا على اسمنا وحسابنا ، ولكل انسان عين ونظر وخله يمايز « ويتناول بقبضة يده كمشة من القهوة ، يشمها ، يقلبها ، ثم يتركها تتسرب من بين اصابعه الى الكيس الذي تناوّلها منه « دوروا السوق كله ما تلقون حبة واحدة من هذه القهوة ، ذهب ، احسن من الذهب ، والله يسلم اليد اللي زرعتها واليد اللي قطفتها ، والله يسر لمن باعها ولن يشتريها » وبعد ان تستقر هذه النعمة في عقول الذين يساومون يضيف بطريقة سعيد ذاتها « يا جماعة الخير هذه

ورغم الملاحظات التي قدمت في البداية ، حول ضخامة التكاليف وعدم ضرورتها ، « لان موران ليست بيروت او مرسلية » ، كما قال راتب ، فان النتائج التي حققتها الشركة في الشهور الاولى جعلت الجميع يقتنعون بصواب وجهة نظر سعيد ، وبالغوا في لوم انفسهم لعدم معرفتهم في الامور التجارية . وسعيد الذي لمس النتائج والتقدير لم تعد موران تسعه : « مثل ما قلت لكم : موران اليوم غير موران أمس ، والتجارة ما هي لعب اولاد ، فاذا كان الناس في الماضي تاجروا ، ربحوا وخسروا ، فاليوم غير شكل ، ما يقدر على التجارة ، على الربح دون الخسارة ، الا من رضع من صدر لوبة » . .

فرح الحكيم كثيراً ، كذلك راتب ، أما حسني الذي اكتفى بديكان ، رغم اتساعها وارتفاع سقفها ، وكانت اقرب الى المستودع او الخان ، فقد تشاءم من النتائج التي حققها اخوه . « اعرفه مثل ما اعرف راحة يدي : خباص ، وراسه ما يحمل ، اذا ربحت معه قضية يظل يعيد ويكرر الى ان ما يبقى منها شيء ، وبعدها لازم يبدأ من الصفر » . هذه الافكار والملاحظات التي تدور في رأس حسني يقولها بكثير من الهدوء واللباقة ، لكن سعيد يضم اذنيه ولا يلتفت ، اذ لا بد ان يفعل ما يفكر فيه ، وهو وحده الشيء المقنع والصحيح .

محمد عيد ينظر ، يسمع ، يتابع ، لكن لا يفهم كيف يفكر الناس او كيف ينظرون الى الامور ، « فالصايح » او « المنفخ » ، كما كان يطلق على سعيد الاسطة ، رجل مظاهر وصوت عالٍ ، لا يستطيع ان يعمل شيئاً ، وانه « آخذ الدنيا زعبرة » ومع ذلك لا يسمع في موران الا الحديث عن الاخوين ، او عن الاسطة والكريكير ، كما اصبح يطلق عليهما ، وانها حرقا السوق ولم يبق لاحد شيء ، وانها وحدهما اللذان يفهمان بالتجارة والسوق واسعار الاراضي ، ولا بد ان يصبحا اكبر الاغنياء في موران ، ولا بد وان يأكلا الاخضر واليابس . واذا كان محمد عيد قد لام نفسه انه لا يعرف البشر ، و « وان الناس مخابر وليس مظاهر » فقد قال لنفسه بنوع من التعزية : « المسألة اولها وآخرها : اخلاق ، والمال ليس كل شيء في هذه الدنيا » .

وسعيد نفسه الذي بدا غير واثق ، او غير متأكد . اول الامر ، « لان

- أما ان تأخذها عبطة ، تركض هون وهناك ، وتحط يدك في الف مشروع
ومشروع ، فيمكن تطلع منها كلها زلط ملط . . وتخرب بيتنا كلنا .

ويرد سعيد بثقة :

- انا اخوك يا ابو تيسير ، والآ لافلح البلد فلاحه ، وحتى النملة
لاحلبها ، قو قلبك ولا تحف . . يا رجل .

- كل شيء بوقته حلو ، يا سعيد .

- هذا هو الوقت يا ابو تيسير ، فاذا ما بدأنا واشتغلنا راحت علينا ، يجي
غيرنا ويلهفها منا .

البضاعة كلها صنف اول ، صنف ممتاز ، والجماعة ، وكلاؤنا في الخارج ،
بعثوها لنا مساطر ، ويمكن بعد كم شهر ما ينوجد منها شوال واحد .

ويراقب سعيد من بعيد التحول الذي بدأ يفعل فعله في سلوك عبد العزيز
الغامدي وكلامه ، وحتى شكله ، فيحس بفرح لا يقوى على كتمانته . يحس
انه كان بحاجة الى هذه التجربة بالذات ، ليظهر براعته وكفاءته . « موران غير
الشام وعمان . الناس هنا بسطاء وعندهم رغبة لان يتعلموا ، ويمكن
للانسان ، هنا ، ان يفلح البلد من اولها الى آخرها . هناك الناس بناديق ،
العن من ابليس ، ولا تعرف الواحد منهم يضحك معك او يضحك عليك » .
واذ يرى ابا الحميدي قد تغير هكذا ، تشتعل في نفسه الرغبات ، وتتوالد
الافكار والمشاريع في رأسه اسرع مما تتوقد النجوم في السماء « الشغل في البلد
اكثر من الهم على القلب ، بس الواحد يحتاج الى بشر ، بشر مثل الناس
والعالم ، تعرف كيف تشتغل ، وتعرف كيف تتحرك » .

أما حسني الذي كان في اقصى السوق ، من الناحية الثانية ، يجلس وراء
طاولة ، صنعها بنفسه من دفوف ومورينات ، بين اكياس الاسمنت واكداس
البلاط ، وغير بعيد عن القضبان الحديدية التي تكومت فوق بعضها حتى
قاربت السقف ، يسمع ما يفعله سعيد وما يتناقله الناس في السوق ،
فتختلط افكاره وعواطفه ، فلا يعرف أيفرح من اجله ويطمئن ام تعاوده
المخاوف القديمة ؟ واذا كانت البداية هكذا فهل ستجري الامور بعد ذلك على
نفس الوتيرة ؟ كان لا يستطيع ان يصل الى اجابة واضحة مؤكدة ، خاصة وهو
يتذكر ايامها في الشام وعمان ، وفجأة يرتفع صوته بالدعاء : « ربي يسر ولا
تعسر ، ربي يسر ولا تعسر ، ربي اتمم علينا بخير » أما حين يلتقيان ، وحين
يبدأ سعيد بالحديث عن المشاريع التي يفكر فيها ، وانه لن ينتظر طويلاً حتى
يشرع بتنفيذها ، فكان يخرج صوت حسني اقرب الى التأنيب :

- اركز شوية يا سعيد ، خل الارض تسخن تحتك . تعرف عل الناس
والبلد اولاً . .

وبعد قليل :

التقطها من افواه الناس في السوق . قال لتبرير هذه المشاريع :

- ما دمنا نبيع القهوة والشاي ، ونبيع الرز والسكر ، وجميع المواد التموينية ، فهذه الاشياء للاكل وليست للفرجة ، ولا بد ان يأكلها الناس ، ولذلك يجب ان نؤمن لهم الادوات .

ويضحك بفرح هذه البداية المنطقية ، والتي اقنعتة قبل ان تقنع الآخرين ، فيتابع :

- طبيعي مثل ما يحتاج الناس الى الأكل يحتاجون الى الادوات .

وحين يصرخ حسني :

- كبر عقلك يا سعيد ، النبي آدم يأكل ثلاث مرات في اليوم ، ويعمره كله لا يشتري الا طنجرة واحدة وسجادة واحدة .

وتتغير نبرة صوته ، تصبح حزينة :

- هذا اذا اشترى !

- وهناك بشر بعمرها ما عمرت بيت .

هكذا يرد ساخراً ، وبعد قليل :

- وعلى هذا القياس كان اكبر جنون ان يفتح الواحد محلاً لبيع مواد البناء .

- ولكن الناس تبني ، ونحن لا نلحق في تلبية الطلبات .

- والناس يأكلون ويشربون !

- لكن لا يشترون الطناجر .

- ما دامت الفلوس وصلت لا يديهم راح يشترون .

ولم يتفقا على شركة النيل . أما الاعتراضات على الشركة الشرقية للسجاد فكانت اكبر ، خاصة حين لمعت تلك الفكرة في رأس سعيد وهو يؤكد على اهمية تأسيس مثل هذه الشركة ، قال ليحسم المناقشة :

- يا جماعة .. كبروا عقولكم ، فكروا للمستقبل .

قبل ان تنقضي السنة الثانية كان سعيد قد اسس شركتين جديدتين ، ومع

شركاء جدد ، الاولى لاستيراد السجاد والاثاث ، والثانية للادوات المنزلية .

وراتب الذي ابدى شكه في رواج مثل هذه السلع « لان موران ليست بيروت

او مرسيليا » ولان الناس لم يتعودوا بعد على هذه الكماليات ، فقد وافق على

مشاركة رمزية فقط ، تاركاً ما تبقى لسعيد وحده او ان يتقاسمه مع شركائه

الجدد . أما حسني فلم يرفض المشاركة فقط ، اعتبر ان سعيد سيورط

الجميع ، وسوف يجر عليهم الخراب والافلاس حتى بالنسبة « للاعمال الي

طلعت روحنا الى ان وقفت على رجليها » . أما الحكيم فلم يتدخل . ولما سئل

بالحاح من قبل حسني ، وطلب اليه ان يبدي رأياً ، اكتفى بان قال :

- اهل مكة ادري بشعابها .. وانتم ادري بوضع السوق .

لم يلتفت سعيد للمعارضة والرفض ، فقد مضى قدماً في اختيار الاماكن

وتجهيزها ، ووافق بعد تردد ظاهر ، ان يكون عبد العزيز الغامدي شريكاً في

« شركة السجاد الشرقية » أما « شركة النيل للادوات المنزلية » فانها لا تحتمل

شركاء كثيرين ، كما اوضح ، ولان اثنين ، احدهما لبناني ، سيتوليان امرها ،

وانهما وحدهما يعرفان بهذه الامور .

أما كيف خطرت هذه الافكار لسعيد ، فانه نفسه لا يستطيع الاجابة

بشكل واضح ، بل وتحتلط البدايات مع المراحل اللاحقة ، فلا يعرف ان كان

قد فكر بمثل هذه المشاريع او عنت له فجأة . وهل اقترحها عليه احد او

المزاج السوداوي الاقرب الى الحدة والتوتر ، كان يقابله سعيد بملابسه الانيقة ، وذلك المظهر النظيف البراق ، يضاف الى ذلك ان شريك كل منهما له مزايا مناقضة تماماً للآخر، فعبداً العزيز الغامدي يعتبر أن الشراكة لا تكتمل ولا تكون حقيقية الا اذا شارك بكل شيء مشاركة مباشرة ، بل واخذ يبالح من اجل ان يتولى العمل بنفسه . أما الحصان فلم يحاول ان يمد يده ، وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في المقهى المجاور ، والمرات التي حاول فيها حسني ان يشركه في العمل ، ان يجعله يبقى في المحل ، كان يجيبه بصوت رخومع ابتسامة تظهر اسنانه الكبيرة :

- البركة فيك يا ابو تيسير ، انت تكفي وتوفي !

فاذا تطلع بلوم او عتاب ، يضيف :

-- والغلظ بهذي البلايا يكسر الظهر ، خاصة بحساب الاثمان والاعشار ، مشيراً الى الخطأ الذي وقع فيه اول عهدهما بالعمل ، وكاد يرتب ضرراً كبيراً لولا ان تدراكه حسني في اللحظة الأخيرة ، وطلب منه ان يترك له وحده مسألة المحاسبة ، لانه يعرف بالدوية ويجري اية عملية حسابية ، مهما كانت كبيرة ومعقدة ، بسرعة البرق .

كان من الممكن لهذه الامور والخلافات ان تحل وتنتهي ، او ان لا تأخذ هذه الاهمية لولا الطيش الاقرب الى السفه الذي ركب سعيد في هذه الفترة . فقد توصل الى معادلة اكيدة : الكرم هو وحده الذي يثبت ويحدد حجمه التجاري ، فاذا كان قد بدا متردداً في اظهار كرمه خلال الفترة الماضية ، متذرعاً بصغر البيت وعدم وجود من يساعد في اعداد الطعام ، فقد حلت هاتان الصعوبتان حين انتقل الى بيت الحصان ووجد طباًخاً .

تحمل حسني الدعوات الاولى بصعوبة وعلى مضض ، اعتبرها رداً لدعوات سابقة او لضرورات العمل ، أما عندما اخذت تتكرر وتتقارب ، ويرافقها السهر مع لعب الورق والصخب ، فقد اخذت تثيره وتخرجه عن طوره ، طلب من سعيد ان يختصر هذه الدعوات ، ان يجعلها في اوقات

واضاف بعد قليل بفرح يخاطب نفسه : « عقوهم مثل عقول العصافير ، لا يفكرون الا في اليوم ، ونحن اذا اخذنا فقط تعهد فرش قصر السلطان الجديد فهذا وحده يكفي ، يظمرنا بالفلوس الى آذاننا » ولم يصل معهم الى نتيجة .

كان تأسيس هاتين الشركتين بداية اضطراب وخلاف بين الاخوين ، اذ بالإضافة إلى رفض حسني المشاركة ، فسعيد ، لم يتوقف يوماً واحداً عن المغامرة والتغير . كان يشعر بلذة فائقة وهو يغامر ويتغير ، وينتقل من مكان الى آخر ، من شغل الى آخر ، وقد وجد في موران وفي المال بين يديه فرصاً جديدة لان يفعل ما عجز عن فعله في اماكن اخرى او في اوقات اخرى . فاليبت الصغير الذي استأجراه اول وصولها الى موران ، ليس فقط صغيراً ويجب ان ينتقلا الى بيت اوسع منه ، وانما يريد ان يستأجر قصراً في حي السفان ، وحسني حين يتطلع الى اخيه مستغرباً او غير مصدق ، ويظن ان الأمر لا يعدو ان يكون دعابة من الدعابات الكثيرة التي تستهويه ويتفنن في القيام بها ، يرد بسخرية :

- نحن بموران اليوم ، يا ابو تيسير . . وحالنا فوق الريح !

- واذا ما دامت هذه الحال ؟

- يا سيدي ، لا تخف ، تدوم .

- اذا جاريناك راح نصفي على البلاط !

- الاصعب من الفقر الخوف من الفقر يا ابو تيسير .

- يا سيدي كفانا تجارب !

واخيراً وجدا حلاً ، فاليبت الذي بناه محمد الحصان ، عرضه عليهما فاستأجراه ، وكان غير بعيد عن حي السفان . أما طريقة الحياة الباذخة التي اخذت تستهوي سعيد في هذه المرحلة فقد خلقت عاملاً جديداً للنزاع . فحسني بتلك الملابس الخلفة التي يرتديها طوال النهار ، وضرورة ان يحمل او يساعد في الدكان ، وما يترتب على ذلك من الغبار والتعب ، وبالتالي ذلك

متباعدة ، وان تكون ظهراً « لكي ننام ونستريح بعدما هدنا عمل النهار » .
وسعيد الذي يسمع ولا يسمع لا يغير عاداته ولا يستجيب لاي طلب غير ما
يملكه عليه عقله ورغبته .

اتسمت العلاقة بين الحكيم وسعيد ، منذ البداية ، بطابع الخشية ،
وكانت خشية متبادلة ، وان ظل الاثنان يتستران عليها ، بل وكانا يتظاهران
بعكسها تماماً ، خاصة امام الآخرين . ونتيجة هذا الموقف تولدت لدى الذين
يعرفون الاثنين قناعة ان العلاقة التي تربطهما وثيقة جداً ، وانها خاصة . حتى
مطيع الذي لا يخفي سرّاً على خاله ، والذي اشار عليه في قضايا ومشاريع
عديدة ، وبادر الحكيم الى الموافقة عليها ، لم يجرؤ ان يقول رأيه كاملاً بسعيد .
وفي المرات القليلة التي اشار اليه عرضاً ، وعلى شكل تساؤل او ارتياب ، وجد
ان للحكيم موقفاً مغايراً . ومحمد عيد الذي حاول التعريض به في البداية ما
لبث ان تركه ، او بالاحرى نسيه في خضم المشاغل والهجوم التي لا تتوقف في
موران .

كان الحكيم يرى في سعيد شعلة من الذكاء والنشاط والحركة ، « فاذا
فهمناه وساعدناه يستفيد ونستفيد » هكذا يقول ، وهو يهز رأسه . أما اذا خلا
لنفسه فانه يراه بشكل مختلف : « حربوق ، ابن حرام ، يسرق الكحل من
العين ، ولانه مكار يأخذ الواحد للعين ويرجعه عطشان ، ومع ذلك ان يكون
معك ، وانت مفتح عينك مثل الفئجان احسن من ان يأخذه غيرك » .

هكذا يراه الحكيم ، فاذا اضيف الى ذلك ما يقوله حسني عن اخيه ، انه
خباص ومغامر ، ويمكن ان يورط ، فان الحكيم شديد الحذر دائم اليقظة ،
ولانه يريد ان يستفيد من الجوانب التي تعنيه ، دون غيرها ، فقد كان دائم
التنبيه على راتب ان يراقب ، ان يحاسب ، وان لا يترك الصغيرة او الكبيرة ؛

مرة ، لكن انا الآن ما لي ريش ، بحاجة له ولا مثاله ، أما اذا ريشت ، اذا صار عندي كم قرش ، لا هو ولا غيره يمكن ان يستغلي او يضحك علي . . . والزمان بينا » .

فاذا اراد سعيد ان يسخر اكثر ، ان يقول رأيه بالحكيم ، وما يكاد يتذكر العبارات والكلمات التي يكررها لنفسه ، حتى تصبح ابتسامته اقرب الى القهقهة : « معلوف مثل الخنزير ، ملمع مثل البزاقة . صحته عال العال ، لا فتاق ولا فقر دم ، بالعكس الدم يتفزر من خدوده ، لكن عند الفلوس تذبجه ما تنزل منه قطرة دم . امزح معه بكل شيء الا بالفلوس . اذا دفع عنك فنجان قهوة يسخن ، اذا سلم عليك عد اصابعك . وكل من يقول غير هذا الكلام لا يعرفه او منافق . الفلوس دينه ومعبوده . والصلاة والصوم وكل العبادات فخاخ ومصايد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس » .

ويهز رأسه عدة مرات ويتابع :

« لكن . . . والله . . . والله لا عبده العجل ، لأحرق قلبه مثل ما حرق قلوب الناس » .

هكذا يرى كل منها الآخر ، وهكذا يتظاهران ، خاصة امام الناس ، أما وجهه بوجه اذا التقيا فيبدأ الحكيم :

- اهلاً . . . اهلاً ابو شكيب .

وبعد ان يسلم عليه بحرارة ومودة :

- خيرني : كيف صحتك ؟

ولا ينتظر الجواب :

- وجهك مورّد وخدودك متفحة ، وشايف همتك عال العال . . .

ويضحك ، وبعد قليل :

- لازم ندق على الخشب !

كل هذا قبل ان يجلس سعيد . فاذا حاول ان يختار مكاناً بعيداً ، مكاناً مقابلاً للحكيم فيرتفع الصوت :

وكان يستعين ايضاً ، وباشكال مختلفة ، ببعض العيون ، ليتقصى اخباره ولمراقبته .

رأي سعيد بالحكيم لا يختلف كثيراً ، فاذا كان يتحدث عنه امام الآخرين فانه يقول :

- الحكيم بالطب علم ، وما بحاجة الى شهادة احد . والحكيم بالدين صاحب دين وكثير الافضل . وفي السياسة مفتي وصاحب طريقة ويقدر ان يفك المعلوم من المشقة .

يصمت لحظة ثم يضيف :

- أما القضايا الاخرى فلا يُعلى عليه .

ولا يخفى ما في هذه الكلمات الكبيرة العامة من مبالغة ، او بالاحرى لا تعني شيئاً محمداً ، وربما تضمنت معنى السخرية ، لكن طريقة سعيد في الكلام ، تلك الطريقة الجادة المليئة بالتوقير لا تترك مجالاً للشك او للتأويل .

أما رأيه الحقيقي ، كما يلخصه لنفسه ، فانه بسيط وواضح « ليس هناك قوة على وجه الارض تقنعني ان الرجل بريء او نظيف . بالعكس ، نصاب ومحتال كبير ، له حاسة شم مثل الكلاب ، يعرف ، حتى بالنسبة للمريض ، وين حاط فلوسه ، وهو يعاينه ، وهو يكتب الوصفة ، يتطلع الى جيب المريض المسكين ، يدوخ الفلوس ، فاذا تناولها ، ودون ان ينظر اليها ، يعرف الخمسة من غيرها . . . وبعد كل فضايحه . وبعد ما اكل الاخضر واليابس جاء الى موران وبلش يلهط . وهذا ما هو كلام قيل عن قال ، انا شفت بعيني ! » .

وبعد ان يضحك سعيد ، ويخرج صوته ، من الغيظ ، على شكل صغير ، يضيف محدثاً نفسه : « وانا ، لهفته علي لسواد عيوني ؟ اخي حسني اقرب له مني ، لكن لا يطيقه ، يصرخ في وجهه . وانا : « يا ابو شكيب ، انت اخونا وانت حبيبنا ، وقبل ما تصل الى حران كنت اصلي بالليل والنهار ، وادعي لربي ان يبعث لي واحداً مثلك » . كذاب اشر ، لا صلاة يصلي ، ولا بحاجة الى واحد مثلي ، بحاجة للفلوس ، بده المال ، وتصورني قط من خشب اصيد وما آكل ، او مثل دجاجة تبيض الذهب ، قال لنفسه نضحك عليه بكلمتين يتزحلق . فشر . ازحلقه وازحلق اجداد اجداده ، شفت اذكي منه بالف

- والله صحيح يا حكيم ، نحن البارحة وصلنا موران ، لكن لو حسبنا نلاقني ان صار لنا عمر ، صار لنا مدة طويلة !
فاذا انجزنا هذه المقدمات ، او ما يشابهها ، بدأ في الحديث الذي اجتمعنا من اجله .

لقد تكرر هذا عشرات المرات ، بحيث تأكد كل منها من مشاعر الآخر وفهمه جيداً ، لكن لا زال كل منها بحاجة الى الآخر ، فالحكيم الذي فوجيء بكفاءة سعيد والتناجح التي حققها ، من حيث النشاط والارياح ، ودقة الحسابات ايضاً ، جعلته اكثر تفاؤلاً وليس اكثر ثقة ، أما مشاريع التوسع التي اقترحها ، من حيث اضافة مواد جديدة ، او فتح فروع في عدة مدن ، فبعد ان عرضت جيداً ، ودرست بعناية من قبل راتب والحكيم على انفراد ، وافقا عليها ، ثم شرعاً باتخاذ الخطوات ، خطوة بعد اخرى .

كانت اللقاءات تتم ، اغلب الاحيان ، في بيت الحكيم . وكان الحكيم يحرص على عدم وجود آخرين ، خاصة من رجال القصر ، وهذا الحرص مبعثه امران : الا يعرف القصر شيئاً عن نشاطاته ، والشائي الا تكون لاحد غيره علاقة بالقصر . وقد تأكد سعيد من هذا ، فقد صدف أن طلب منه أكثر من مرة ان يمر عليه في المكتب ، لامور عاجلة ، رفض الحكيم باصرار واضح ، وهذا ما لفت نظره في بداية الأمر ، أما بعد ذلك ، وحين طلب منه ان يعرفه على احد في القصر ، « لمعرفة حاجات القصر وامكانيات ان نعهدها » فقد رد الحكيم بسخرية وغموض :

- اسمح لنا بهذه يا ابو شكيب !

وحين حاول سعيد ان يستفسر ، ان يفهم ما وراء هذا الموقف ، رد الحكيم بشيء من التعالي :

- الجماعة ، في القصر ، يعرفون اننا نعمل في القضايا الكبرى ، أما اذا بدأنا معهم بالبرز والقضامة ، وكيلو سكر وكيلو رز راح ننزل من عيونهم ، ونصير لا للخل ولا للخردل .

- تعال ، يا رجل ، قَرَب ، لاني مشتاق لك وصار لي مدة ما شفتك !
ويستجيب سعيد بكثير من المودة والبساطة ، انه يلعب معه اللعبة ذاتها ، وينفس الكفاءة . وقبل ان يبدأ اي حديث جدي يعاود الحكيم :
- انشاء الله مرتاح ومرّوق ؟ وانشاء الله صحتك وصحة الاهل بخير ومرتاحين ؟

هكذا تبدأ الحوارات ، اغلب الاحيان ، وهكذا دائماً تجري . وسعيد الذي يحس بهذه المعاملة الخاصة ، وان تظاهر بالتواضع ، يعرف كيف يرد :
- اذا رضيتم عنا ، اذا نظركم علينا ، يا حكيم ، فنحن بالف نعمة من الله .

ويبتسم الحكيم وهو يتفرس في وجهه ، ليبتين ما اذا كان يعني هذا الكلام ، فيبدو وجه سعيد شديد البراءة ، وفي محاولة لان يغير مجرى الحديث قليلاً يضيف :

- ولولا مشاغلكم الكثيرة ، يا حكيم ، كان بين يوم والثاني ثقلنا دما ومرينا وشربنا القهوة جميع .

ويستعمل كلمة « جميع » المورانية ليدلل للحكيم انه بدأ يتقن اللهجة ، فيرد الحكيم بسرعة .

- استغفر الله ، استغفر الله ، في اي وقت اهلاً وسهلاً .

- انشاء الله بعد ان نرتب امورنا وتمشي اشغالنا يصير عندنا وقت ونلتقي اكثر .

- الله كريم يا ابو شكيب .

ويزفر الحكيم ويهز رأسه ثم يضيف :

- الواحد لا يعرف كيف وقته يطير .

- فعلاً !

- لكن ، مع ذلك ، لازم نلتقي اكثر ، لان العمر يخلص والشغل ما يخلص .

خلفية، من ابواب لا يعرفها ولا يستطيع ان يمنع احداً من دخولها ، وهذا دعاه لان يبحث عن آخرين ، وهذا ما دعاه لان يستعين بالغامدي وغيره .

أما حين بدأ الحكيم ، بتكتم وخفاء ، يشتري الأراضي ، وقد عرف سعيد من اصدقاء في السوق ، فقد قدر اهتمامات الحكيم في هذه الفترة ، رغم انه لم يشر الى الأمر من قريب او من بعيد . ولثلاثا يلفت نظر الحكيم ، او يشعره ، فقد تولى ، ذات ليلة ، الرد على اخيه ، عندما استشار هذا الأخير الحكيم ، ما اذا كان من المناسب ان يفكر الانسان بشراء قطعة ارض او اثنتين ، كما اشار عليه الحصان ، بهدف البيع والشراء او بهدف البناء ، خاصة وان علاقته بهذا الجواصحت وثيقة ، واصبح على دراية .

قال سعيد بسخرية :

- اترك السالفة يا رجال ، جماعة السوق تقول : حرام ان الواحد يحط فلوسه في الرمل !

قال ذلك بلهجة مورانية فخمة وهو يتطلع الى الحكيم ، الذي احمرت وجنتاه وارتجفتا ارتجافاً عصبياً ، وهذه العادة تلازمه - وقد لاحظها سعيد منذ لقائهما الأول - حين يواجه مأزقاً او حين يشكل عليه امر من الامور . فلما التقت نظراتهما خلال تلك اللحظة الخاطفة تابع ليخلق طمأنينة مصطنعة :

- ومع ذلك سؤا اهل السوق كثيرة ، وما يعرف صدقها من كذبا .

وكلما حاول الحكيم أن يتثبت من تقدير معين ، من قناعة معينة ، يتصرف سعيد بطريقة تزعزع هذا التقدير ، وتهدم هذه القناعة ، فيحار الحكيم اكثر في فهم او تقدير هذا الانسان . اذ بمقدار ما يبدو مهذباً ذكياً ، وبعض الاحيان بسيطاً ، فانه ، في احيان اخرى ، كالثعلب بحركاته وطريقة تفكيره . حتى الافكار عن العمل التي بلورها الحكيم نتيجة مناقشة الآخرين ، او نتيجة الاطلاع على تقارير ودراسات أعدت للقصر ، يجد ان لدى سعيد افكاراً مشابهة . صحيح انه يطرحها بشكل بدائي ، وبعض الاحيان يفتقر الى الوضوح والدقة لكنه « وضع يده على الجرح » ، كما يجب الحكيم ان يقول ، ويضيف لنفسه « ملعون ، خلاصة للحس الشعبي ، والذكاء » .

ولما اصر سعيد ان تعهدات القصر كبيرة ، من حيث الحجم والارباح ، وان السوق كله يتحدث عن هذا الموضوع ، فقد رد الحكيم من جديد وهو يطبب على كف سعيد ، ويريده ان يطوي الموضوع :

- مثل ما قلت لك يا ابو شكيب : اسمح لنا بهذه الشغلة .

ورغم ان سعيد طوى الموضوع ، مع الحكيم على الأقل ، الا انه لم يفهم حقيقة الموقف ، لكن حين جاء ذات يوم الى بيت الحكيم ، بناء على موعد سابق ، فقد التقى به محمد عيد على بعد خطوات من البيت وابلغه ان الحكيم اضطر للخروج ، مع ان ثلاث سيارات تابعة للقصر ، وفيها عدد من الحرس والمرافقين ، كانت تقف على الباب . وكانت جميع الدلائل تشير بوضوح الى ان الحكيم موجود ، وانه يستقبل عدداً من رجالات القصر في بيته !

حتى مطيع ، « الأجنب » ، كما يسميه سعيد ، لانه يتكلم من انفه ، والذي ابدى عواطف سخية ، حين التقوا في حران ، وظل وحسني معه اسبوعاً كاملاً اثناء احدى زيارته ، بدا في موران انساناً آخر ، اذ ما عدا لقاءات المجاملة ، والتي تمت في بيت الحكيم ، فقد غاب تماماً ، وكان من الواضح انه يتهرب ، لا يريد ان تكون له بهما علاقة . وعندما حاول سعيد مرة بكثير من المكر ، ان يبحث معه حاجات القصر وامكانية ان يساعدهم او يعرفهم على احد فقد تطلع اليه باستغراب ثم رد :

- الله يخليك يا سعيد ، قضاياكم ومشاكلكم لا تدخلني فيها .

قال ذلك بحزم . وحين ابدى سعيد استغرابه لهذا الموقف ولهذا الرد ، تابع :

- انا بالاساس ، لا علاقة لي باشغالكم ، ولا اعرف هذه الاشغال ، ولذلك اذا كنت عايز اي شيء من القصر اتصل بالحكيم !

تأكد سعيد ، بعد مواقف وملاحظات من هذا النوع ، ان الحكيم لا يريد منه ان يقترب من القصر ، الا تكون له علاقة ، اية علاقة . وتأكد اكثر ان الحكيم يريد ان يشاركهم في اعمالهم ، ويصر الا يقتربوا من اعماله ، الا يشاركوه . ولذلك امتلاً اصراراً ان يغزو الحكيم في قلعتة ، لكن من ابواب

وتزداد الامور تشابكاً ما ازدادت القضايا والمشاريع ، فسعيد الذي كان في بيت صغير، وكان متواضعاً في حياته ومصاريفه . ما لبث ان انتقل الى بيت اكبر ، كما واشترى سيارة فخمة ، اضافة الى سعة في العيش والتصرف ، بحيث ينفق ما حصل عليه من ارباح خلال فترة قصيرة . واذا بيدى الحكيم دهشته ويعاتبه ، فكان الرد جاهزاً :

- الفلوس ، يا حكيم . مثل الماء الجاري ، لا يمكن لاحد ان يمسكها ، لانها لا بد وان تفلت ، والاحسن ان تفلت برضاي من ان تفلت برضا غيري ، وان يستمتع بها الانسان احسن من ان يستمتع بها غيره .
ولما حاول الحكيم ان يشرح اهمية ان يحرص الانسان ، وان يصرف بمقدار ، وان يقتصد رد سعيد وهو يتحول من الابتسام الى الضحك :

- الله يخليك يا حكيم ، الانسان في هذه الحياة يعيش مرة واحدة ، والقرش الابيض اذا ما فاد وبسط في الحياة ، في الدنيا ، ما راح يقيد بعدها ، لان الانسان اذا مات راحت عليه .

ولما نظر اليه حسني بنوع من اللوم رد مازحاً :

- يا ابو تيسير . . كل واحد بعقله رضي بفلوسه ما رضي ، انا بفلوسي راضي ، وبعدين ، يا سيدي ، الفلوس وسخ الدنيا ، وما في احد مات واخذ معه اي شيء .

واكتشف الحكيم صفة جديدة في هذا الانسان : « المال لا يعني له شيئاً هاماً » ، ولذلك يجب الا يخاف منه او ان يتوجس . اكثر من ذلك يبدو له ان سعيد بحاجة الى الثقة والفهم اكثر مما هو بحاجة الى المال ، لان المال بالنسبة له لا يتعدى ان يكون مظهراً للقوة والوجاهة .

لو ان حماد ولد وعاش في مكان غير موران ، او في وقت غير هذا الوقت ، لاصبح قائداً عسكرياً او رساماً ، وربما صار رئيساً لعصابة من مائة شخص ، او ربما مات او قتل وهو في العشرين !

فالتجارة التي كانت لآل المطوع ، والتي لا تتوقف قوافلها عبر البادية طوال السنة ، حاملة الطحين والرز والاقمشة ، لم تكن تغريه او تشده . أما الأراضي التي كانت للعائلة فانها تنتشر في امكنة عديدة ، وتغطي مساحات لا يعرفها حتى اصحابها ، لكن هذه الاراضي لا قيمة لها ، ولا تتعدى ان تكون حظائر للابل والغنم ، او متروكة هكذا ، لانها لا تزرع ، وبعيدة ، بعض الشيء ، عن المدن . وقد تم شراؤها او وضع اليد عليها في وقت مبكر ، لتكون مراعي او حظائر . ولانها كذلك لم تغر احداً من آل المطوع لان يتم بها ، خاصة واحداً مثل حماد . أما ان يصبح مثل عمه شداد ، صاحب خيول ومضافة ، فلم تستهوه هذه الهواية طويلاً ، بعد ان جاءت السيارات وتنوعت ، واصبحت خيول العصر الجديد . ولهذا فان الخيول التي جلبها من مصر ، وتعب في تربيتها والعناية بها ، خلال فترة معينة ، ما لبثت ان انتقلت الى عمه شداد ، فقد باعها حماد لعمه دون ربح ودون اسف ايضاً . حتى المدرسة التي اغرت اصدقاء له واصدقاء ، وكان من السهل ان تفتح له مجالاً ، غادرها بعد معارك انتهت بالضرب والاذى ، وكانت مشهورة في موران .

أما لماذا يمكن ان يكون قائداً عسكرياً او رساماً ، فبسبب تلك النزعة الجائعة التي تميزه للسيطرة ، او لاعادة تشكيل العالم وتنظيمه . وهذه النزعة

الآخرين ، وهو بمقدار قلق اقربائه وحيرتهم كان قلقاً حائراً . فاذا تفاءلت امه ونقلت لايه انه اصبح راغباً في العمل والتجارة ، ولا بد ان يصيح مثله ، كان لا يتأخر حتى يكذبها . واذا تفاءل اعمامه ونظر اليه الواحد منهم نظرة جديدة ، لأنه يتحدث في امور تتجاوز التجارة وموران وعمل كل يوم ، لا يتأخر حتى يبلغهم انه لم يجمع مالا ولم يفكر بعمل ، ويتابع بعض الاحيان باستهتار :

- الدنيا ما هي بس عمل وتجارة .

في احدى زيارات راتب الى موران ، جرى الحديث عرضاً حول هموم الحكيم ، ولا يعرف سعيد كيف لمعت في رأسه . فبعد العزير الذي حدث سعيد عن آل المطوع ، عن تجارهم والاراضي التي لهم ، وعن القرابة ، من ناحية النساء ، بالسلطان ، وحدثه عن صديقه الشائه حماد ، فقد بدا له ان بالامكان ان يلعب اللعبة .

أما بعد ان تمت صفقة الارض في مدخل موران الجنوبي ، وتوثقت العلاقات بين حماد والحكيم ، بطريقة اقرب الى السحر ، فقد اخذت الامور مجرى آخر .

فالحكيم الذي عرف بتحريراته الخاصة ان آل المطوع يملكون قسماً كبيراً من اراضي موران ، وانهم لا يقدرون قيمة هذه الاراضي ، لانهم غارقون في التجارة ، وراكضون وراء الابل والغنم ، ادرك ، بما يملك من حواس ، ان الفرصة مؤاتية لشراء مساحات من هذه الاراضي ، خاصة في بعض المناطق البعيدة ، وفي منطقة الحصيبة بالذات التي لا تلفت نظر احد في الوقت الحاضر ، وهذه البداية لا تتعدى الاختبار ، ولا تتعدى بناء العلاقة مع عنصر من عناصر العائلة .

أما الامراء ميزر وراكان وملحم ، وقد علموا قبل الآخرين ، ان الاراضي شرق الرها ستكون خلال سنوات قليلة ، بالغة الأهمية ، مرتفعة السعر ، لان وزارة الخارجية ، اشترت قسماً من هذه الاراضي ، وستبني عليها مقرها ، وان اقتراحاً قدم للسلطان ببناء مراكز السفارات وبيوت السفراء في نفس المنطقة ،

بمقدار ما لفتت اليه النظر ، منذ وقت مبكر ، فقد اقلقت المسنين في العائلة ، وادت الى تباين الاجتهادات بينهم في كيفية التعامل معه . فابوه اعتبر ان التجارة « واللعب بالمال » لا بد ان يُغيّره ، لكن لا احتمال التجارة ولا اغراه المال . أما الأسفار التي قام بها مرافقاً القوافل ، فكان يعود منها ليؤكد الصفات الاساسية التي تنام في دمه اكثر مما ساعدته على ابراز الصفات الجديدة المكتسبة . وكان ينفق في اسابيع ما تعب في تحصيله خلال شهور .

عنه شداد كان له رأي آخر ، « اذا المال ما فاده ، والحليل ، هذه العرايس اللي تربط الملائكة ، وفيها بركة الدنيا والآخرة ، ما حننته ، ظل علينا شي واحد » ويضحك بقهقهة ثم يضيف : « بنت الحلال .. وهذه لا بد تتعبه وتربطه ، وياما قبله كثيرين داخوا بالنسوان وانسدحوا »

ولذلك تزوج حماد وهو في العشرين ، واكتفى بواحدة حتى بلغ الثلاثين ، لكنه لم يتغير الا كما تتغير الشجرة : كبر ، امتد ، جاءه اولاد ، لكنه ظل كما كان . وآل المطوع الذين يحرصون على اولادهم بمقدار حرصهم على اموالهم ، صبروا وتحملوا . أما مفلح ، كبير العائلة ، والذي ضعف سمعه ، فلم يفهم قصة حماد الا بعد فترة وبصعوبة ، اذ صاح في اذنه حفيده مطلق عدة مرات ، وهو الوحيد القادر على ابلاغه الرسائل ، فلما سمع قال وهو يتسهم :

- اتركوه .. يا جماعة الخير ، لأن الحبة تدور تدور وترجع للرحى .
ثم بدأ يهذي وحده :

- قبله ، آل المطوع ، كلهم مثله ، الى ان يتعبوا ، وبعد ما يجربون اللي يصير واللي ما يصير ترجع لهم عقولهم ؛ واذا الواحد لاواهم يتعب وتتعب يده ، وما يسلمون الا برضاهم . قبله جده ، وقبل جده ابو جده ، كلهم زمروا بهذي القصة الى ان انتفخت اوداجهم ، ركضوا الى ان تعبوا ، وبعدها بركوا وجاء بعدهم غيرهم .

وتطلع الى الوجوه حوله ، هن رأسه وتابع :

- وهذي الأيام كل العباد مثل حماد : بعران وهاجّه ، والله يستر !
وهكذا ترك . لم يلح عليه ابوه اكثر مما فعل ، ولم يطلب منه ما طلبه من



فقد قدروا ان شراء الاراضي هناك يجعل الانسان غنياً لولد الولد ، كما قال الامير ميزر للحكيم ، والحكيم الذي وافقه ، كان ينتظر ، ولذلك وافق بحماس كبير .

وحامد الذي « يمون » على عمه سلمان ، اقنعه ان هذه الارض لا تعادل شيئاً ، ويمكن ان تبقى هكذا مئات السنين . فاذا جاء من يشتريها ، فان المال يتحرك في التجارة ، في الحلال ، ولا بد ان يتضاعف خلال سنة ، واقصى حد خلال سنتين ، أما « الارض فإنها تبقى في مكانها ، لا تتحرك ولا تعطي مالا » خاصة وان المبلغ الذي اقترحه الحكيم كان مغرباً ويدفع فوراً .

وبهذه الطريقة تمت صفقة الارض ، وتم معها وصول حماد الى مكتب الدكتور صبحي المحملجي ، على ان يتولى وكالة مسؤولية جهاز الأمن والسلامة .

لم تكن الارض تعني حماد الا بقدر ما تقربه لما يحلم به ، رغم ان هذا الحلم كان غائماً مشوشاً الى اقصى حد ، فقد كان يبحث عن تجربة جديدة اقرب الى المغامرة ، ولا يعرف لماذا تصور او افترض انه اذا اقترب من القصر يمكن ان يحقق هذه المغامرة .

الآن ، وقد وصل حماد الى القصر ، الى غرفة لا تبعد كثيراً عن السلطان ، في نفس الجناح الذي يحتله الحكيم ومطيع ، بدا له انه يطل على العالم كله من نقطة عالية مشرفة ، وانه يرى ما لا يراه غيره . واذا كان الحكيم راوده بعض الخوف خلال المرحلة الاولى «ان لا يستطيع حماد تدبير المسألة» وصرف معه ، بالتعاون مع بعض الاميركيين المقيمين ، وبعض الذين جاءوا لمهمات محددة ، وقتاً طويلاً اولاً في اختيار العناصر. ثم في تحديد مهمات الجهاز وطريقة عمله وعلاقاته ، فان السرعة التي اثبت فيها حماد قدرته وكفاءته لفتت نظر الحكيم وجعلته مسروراً اشد السرور ، وقد عبر عن ذلك في احد لقاءاته مع السلطان ، حين جرى الحديث عن جهاز الامن والسلامة . قال لجلالته وهو يفرك يديه سروراً :

- آل المطوع يا صاحب الجلالة ما هم بس بالتجارة او بالتحليل ، حماد سبقهم كلهم ، واليوم ، يا طويل العمر ، عندك جهاز يعرف دبيب النملة في الظلمة .

والسلطان الذي بدا فرحاً منشراح الصدر علق ضاحكاً :

- وبنات آل المطوع مزيونات يا حكيم !

هز الحكيم رأسه وكأنه فوجيء بهذا الاكتشاف ، ثم قال :

- مثل ما تقول ، يا طويل العمر ، مع اني ، والشهادة لله ، ما شفت اية واحدة منهم ، لكن من يتمعن بحماد من يرى شكله وملامح وجهه لا بد وان

واشعرت الحكيم باهمية متزايدة ، حتى الفكرة التي راودته في مرحلة معينة ان يتولى بنفسه مسؤولية هذا الجهاز ثم عدل عنها لانها لا تلائم عمره وموقعه ، تبين له ان الصيغة الجديدة اكثر ملاءمة . يكفي ان يمرّ عليه حماد صباح كل يوم ، عند وصوله الى القصر ، ويقضي معه نصف ساعة ، ليطلعه على التقارير التي وردته ، وليلتقى توجيهاته ، وهو ، من خلال هذه الصيغة ، يستطيع ان يشرف ويوجه ، ويستطيع ايضاً ان يبقى مسيطراً على هذا الجهاز الذي بدأت تنضح اهميته يوماً بعد آخر .

أما الاجتماع الدوري بالسلطان صباح كل سبت ، والذي جرى في الاسابيع الاولى دون ان يتكلم حماد الا اقل الكلمات ، وتولى الحكيم نفسه نقل المعلومات ، ثم قام « بتقدير الموقف » كما سمّي الوضع العام في السلطنة ، كان حماد خلال هذه الاجتماعات شديد الجفلة بل اقرب الى الخوف ، تمنى في اعماقه لو يستمر الحكيم القيام بهذه المهمة ، وتمنى الا يسأل من قبل السلطان عن اي امر من الامور . أما في وقت لاحق فقد اصبح اقل تهيئاً ، واصبح يشارك في تقديم التقرير الاسبوعي ، لكن ظل « تقدير الموقف » من اختصاص الحكيم .

الحكيم باستمرار يأتي بافكار وعناصر لا تخطر ببال حماد ، اذ لا يكتفي بالحديث عن الامور التي جرت ، او عن المعلومات الواردة في التقارير ، لا بد ان يتحدث عن الوضع في المنطقة : الاخطار التي تحيط بالسلطنة ، العناصر الخطرة التي يمكن ان تتسرب من هنا وهناك . كان حماد يشعر بزهو ان الحكيم يمتلك هذه الرؤية ، وقادر على ان يتحدث في اصعب الامور واخطرها . وكان يشعر بفخر انه يعمل مع رجل بهذا المستوى . والحكيم الذي يلاحظ الاعجاب ، يفيض ، يأتي بامور اضافية ، بامثلة من التاريخ ، أما السلطان الذي يبقى ، اغلب الاحيان ، صامتاً ، يستمع ، بهز رأسه ، فقد لاحظ حماد الشرود على وجهه عدة مرات . اكثر من ذلك كان يراه ، يثبه في امكنة او امور بعيدة اثناء حديث الحكيم . وحين يوشك الاجتماع على الانتهاء ، يتغير السلطان ، يصبح اكثر مرحاً واكثر رغبة في احاديث مختلفة ، وخلال الدقائق الأخيرة ، والى ان يغادر ، وغالباً ما يبقى الحكيم في حضرة السلطان يصبح

يفترض ان نساء العائلة جميلات .

ولم ينتظر الحكيم طويلاً ، لا لكي يفهم معنى هذه الاشارة ، وانما ليتفق مع حماد على ضرورة ان تزف احدي بنات العائلة الى السلطان ، لتجديد علاقات القرابة القائمة ولتقويتها ايضاً . وهذا ما تم فعلاً بعد ثلاثة شهور من استلام حماد لمنصبه الجديد ، ولم يكن ذلك بمثابة تجديد العلاقات او تقويتها فقط ، وانما كان انطلاقة لآفاق جديدة وكبيرة .

فحماد الذي بدت له فكرة الاقتراب من القصر مغامرة فيها من الطرافة بقدر ما فيها من الامكانية لارتداد عالم جديد ، يتجاوز التجارة وهذه المساومات الكتيبة التي كان يجد اباه غارقاً فيها ، بدأ يكتشف انه يسير في الاتجاه الذي يجب ، صحيح انه لا يعرف الى اين او متى سيصل ، لكن القوة التي بدأ يحس بها ، والمعلومات التي تصب بين يديه كل يوم ، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة في موران ، وفي قصر السلطان بالذات ، وما يجري في السلطنة كلها ، هذا الاكتشاف جعله يوماً بعد آخر يتساءل ويفكر ويحلم ، وجعله يتحول شيئاً فشيئاً الى انسان مختلف .

صحيح ان الامور لم تجر بسرعة ، او وفق رؤية محددة ، لكن ذلك الاضطراب الاقرب الى التهيب الذي سيطر عليه في البداية ، بدأ يزول تدريجياً ، ثم اخذ مساراً جديداً . فبدل ان ينتقل بنفسه الى العالم والناس ليكتشف ويتعرف ، اصبح العالم والناس ينتقلان اليه ، من خلال التقارير ، او من الذين يزورونه لينقلوا اليه ما سمعوا وما رأوا . ومن خلال التلفزيونات التي لا تتوقف حوله عن الرنين . ليس هذا فقط ، فالصوت العالي الذي كان يميزه في الماضي ، ولكي يخفي خجله بالدرجة الاولى ، اصبح الآن همساً او اقرب الى الهمس . أما التدخل فيما يجري ، ودائماً كان له دور ، فاصبح لا يتطلب اكثر من كلمة او اشارة ، لكي تسير الامور كما يطلب او كما يشتهي ، وغالباً ما تكون هذه الكلمة عبر الهاتف ، او من خلال المرؤوسين .

في بداية العمل ، لم يكن حماد يقدم على تصرف او بخطوة اية خطوة الا اذا استشار الحكيم ، وهذه الصيغة في العمل ولدت الفة كبيرة بين الرجلين ،

وزفر بحرقة والم ثم اضاف :

- وعسى ما يكون حمادنا من الخاسرين .

كبير العائلة ، مفلح المطوع ، والذي ضعف سمعه اكثر من قبل ، بدأ حفيده مطلق يستعمل محققاً كبيراً لابلاغه الرسائل المهمة ، فهم الرسالة الجديدة خطأ ، او هكذا اراد ان يفهمها ، فقد هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم ، ثم علق :

- قلت لكم : حماد ابن صالح ، وصالح ابن راشد ، وراشد ابن جيهم ، وكل واحد منهم كانت براسه سالفه ، صالح لما مات ابوه كان ابن عشر ، وكان افقر من ذيب بفلاة ، لكن انتم اليوم تشوفون . راشد ناطح الكبار ، الى ان اتعبهم ، لاواهم وكاد يكسرهم ، لكن بين يوم وليلة عشق ، عشق العجمية ، والله اعلم انهم ارسلوها ، فترك الحرب ولحق العشق ، وبعدها صار الي صار . وسالفه الجد الأول ، جيهم كلكم تعرفونها .

قال هذا كله وهو مغمض العينين ، يحاول ان يتذكر ، فلما فتحها اضاف :

- ومن يوم ما فتحت عيني على الدنيا ووعيت كنت اقول : من آل المطوع لا بد ويحي يوم ، يحي ولد وينتقم لجيهم ، وهذا حماد ، الي قلتم عليه فلاني وتركاني ، صار سلطان ، وراح يسوي الي ما يصير !

تطلع اليه الذين يستمعون ونظر بعضهم في وجوه بعض ، وبدل ان يقهقهوا ، كما كانوا يفعلون دائماً ، حين يسألونه عن موضوع ، فيجيب عن موضوع آخر ، اخذوا ينظرون بخوف وتساؤل ، مع لوم ورجاء ان يقوم مطلق فوراً بابلاغه الرسالة بشكل دقيق ، فلما فعل مطلق ذلك ، وان كان بصوت اقوى وعبارات متباعدة وواضحة ، تطلع اليه باستغراب ، ثم قال كلمات لم تفهم ابداً :

- ادري . . ادري يا وليدي . . حماد في القصر !

اما الاقرباء الآخرون والاصدقاء والمعارف فقد فهم كل واحد منهم الامر

الجو مريحاً منعشاً ، ودائماً كان الحكيم يتولى خلق هذا الجو .

وبدأت تتغير ايضاً علاقات حماد بالكثيرين ، فبعد ان كانت احدى هواياته ان يتجول في موران بسيارته المكشوفة ، ولا يتردد في الوقوف عدة مرات في السوق ، يخرج ويسلم ويسأل ، وكانت له مجموعة من الاصدقاء على شاكلته ، بدأ في هذه الفترة شخصاً مختلفاً : استبدل سيارته باخرى اكبر واكثر رصانة ، سواء من حيث شكلها او لونها ، ولم يعد يشاهد في السوق الا بين فترة وأخرى ، وكانت هذه الفترات متباعدة ، حتى ظن الكثيرون أنه سافر أما الاصدقاء الذين استمروا على علاقة به فلم يعرفوا نوع العمل الذي اسند اليه في القصر ، كما لم يبيع هو بذلك . فاذا سئل يجيب بكثير من الايجاز والغموض ، انه يعمل في دائرة مستشار السلطان ، ولا يضيف شيئاً آخر . حتى عمه شداد الذي وصله في هذه الفترة حصان اسود ، قيل انه اجمل خيول موران ، وكان فخوراً به ، عندما سأله اي عمل يعمل في القصر ، رد عليه حماد بجيد مبالغ فيه :

- مع مستشار السلطان . . يا عم !

- يشور عليك ام تشور عليه يا ابن أخي ؟

هكذا تساءل شداد المطوع بمرح ، ثم تابع :

- واذا عندك او عنده شور بالحمداني الي جانا فقولوا ، واذا ما عندكم

تعالوا شوفوه حتى تشوروا على طويل العمر بخيلنا او خيله !

وقد فهم الذين سمعوا هذا الكلام ان شداد مستعد لبيع الحصان الى القصر ، الى السلطان بالذات ، اذا دفع ثمناً كبيراً ، لانه افضل من خيول القصر جميعاً .

أما ابوه الذي لم يعرف ايفرح ام يحزن لان ابنه انتقل من السوق الى القصر ، فقد قال امام عدد من اصدقائه المقربين :

- سالفه الحكومة يا جماعة الخير ما لها تالي ، واذا كان بالتجارة تسعة يربحون وواحد يخسر ، فعند الحكومة تسعة يخسرون وواحد يربح .

كما يشاء ، وتصور حماد بشكل مختلف عن الآخر، خاصة وان الامور بمجيء السلطان خزعل تغيرت تماما، أخذت مجرى مختلفاً عما كانت عليه من قبل . وهذا التغير او الاختلاف لم يقتصر على استبدال بعض الرجال ، او غياب بعض الامراء اولاد خريبط ، وانما امتد ليشمل كل شيء في السلطنة ، بدءاً من تسمية الاولاد وانتهاء بكيفية مناداة السلطان او الحديث معه!

ومع ذلك ، فان حماد الذي بدأ يفهم مهمته اكثر من السابق ، وبدأ يتكيف معها ، شعر ان موران التي كان يعرفها ، والحياة التي كان يعيشها ، وحتى البشر الذين كان يعرفهم او سمع بهم ، شيئاً آخر ، ويجب ان يتصرف ويعمل ضمن هذه المعرفة الجديدة .

خلال السنة الثانية ، وفي ذكرى عيد الجلوس ، بدت الصورة شديدة الوضوح : السلطان يستقبل الامراء والشيوخ وكبار التجار ، الذين جاءوا للتهنئة، وقد بدا في صحة جيدة للغاية، بعد ان نقص وزنه قليلاً، بل وتراءى لكثيرين انه اصغر سناً مما كان قبل سنة او سنتين ، وربما ساعد على هذا الانطباع انه استبدل النظارات القديمة ، العريضة الاطار ، باخرى جديدة ، اظهرت عينيه الواسعتين الضاحكتين . أما الملابس التي كان يرتديها فقد كانت زاهية . وهي وحدها التي تليق له، بعد ان تحفف من تلك الالوان الرمادية التي كانت تستهويه في السنوات الماضية . واللحية الصغيرة لم يطرأ عليها الا تعديل بسيط لا يكاد يلحظ ، فقد تركها الحلاق الخاص لجلالته تزحف قليلاً الى الاعلى ، بحيث تملأ بعض الفجوات التي كانت تظهر سابقاً في اسفل الحنك ، مقابل هذا قصرها قليلاً ، وقد فعل ذلك « لكي لا يبدو وجهه جلالته مستطيلاً اكثر مما ينبغي » ، كما اشار الحكيم ، بعد ان رأى كاريكاتيراً لجلالته في مجلة مصرية ، وكان اقرب ما يكون الى وجه حصان !

كان السلطان ، وهو يستقبل المهثين ، واقفاً ، مسروراً ، بل وبدا منفعلاً في بعض اللحظات ، وهو يعانق اخوته واحداً بعد آخر ، وهو يستقبل وفود المدن والمناطق . أما عندما وصل وفد حران ، وكان وفداً كبيراً ، وقد اصّر مدير المدرسة على ان يلقي قصيدة في حضرة صاحب الجلالة ، ولاقت القصيدة استحساناً ظاهراً ، فان المفاجأة الكبيرة التي حملها الوفد كانت عبارة عن حجة حصان حمداني مكتوبة بماء الذهب ، أما الحصان ذاته فقد عرض عصر اليوم

اضايق احداً» يجد نفسه مضطراً للموافقة نتيجة الحاح الحكيم !

وعزوا الحكيم التطور الذي حصل في حياة راتب وسلوكه الى الجهد الذي بذله شخصياً في ذلك ، فللناقشات التي جرت في بداية تأسيس الشركة ، ثم الزيارات التي قام بها الى موران ، والتي تتخللها القصص ، وكلها تهدف اعطاء النموذج والمثل ، او تلخيص الحكمة وتكثيفها . هذه الامور ، اضافة الى النتائج العملية ، ساهمت في التحول الكبير . فهذا الشاب الطائش قبل سنوات ، اصبح انساناً آخر . يقول الحكيم في تبرير ذلك : « اكثر الناس مروا في حياة الطيش ، والمسألة مسألة عمر » ويضيف بعد قليل وهو يبتسم : « عمر وتربية » .

وما كان يزيد في سرور الحكيم التغيير الذي كان يحدثه راتب في البيت خلال زيارته ، فالهدايا الكثيرة التي يحملها ، والقصص التي يرويها ، ومشاريع الاسفار التي يخطط لها في الفترة القادمة ، كلها تولد حيوية وصخباً . واكثر ما يظهر ذلك على وداد .

اما حين تبدأ وداد ، مثل طفلة صغيرة ، تقفز وتضحك ، وهي تضع معظم الملابس على صدرها ، في محاولة لتتأكد من مدى ملائمة مقاييسها او الوانها ، او تختبر رد الفعل عند الآخرين ، فلا بد ان يعيد راتب نفس القصة :

- احترت بالنسبة للقياس ، لكن وانا اشتري رأيت امرأة تشبه ام غزوان ، قلت لصاحب المحل : بقياس هذه الست !

وترد وداد بعتب :

- المرة الأخيرة ، لما نزلنا على الحمرا ، كنت معنا وشفتي لما اشترت .

- لكن ما تذكرت النمرة يا ام غزوان !

- وانشاء الله راح تنسى . . المرة القادمة ؟

ويضحكون جميعاً ، فاذا هدأت الضحكات يعلق الحكيم :

- هذه الاغراض تفتح مخزن احسن من كل مخازن موران . . .

نفسه امام السلطان أولاً ، ثم امام عدد كبير من الضيوف والذين سمعوا عنه من ابنا موران وجاءوا لرؤيته ، بعد ذلك .

لم يشك السلطان لحظة واحدة ان مفاجأة من هذا النوع كان الحكيم وراءها ، ولذلك ، وتعبيراً عن الثقة والمودة ، انعم عليه في الليلة ذاتها بلقب شيخ وسماه المستشار الاول لجلالته .

بدا الحكيم راضياً واثقاً ، وما زاد في تأكيد هذه الحالة ان الاراضي التي اشتراها لم تلفت النظر الا قليلاً ، ولتبرير شرائها قيل ان بعض الامراء سيقمون عليها ملاعب رياضية وساحات لسباق الخيل والابل ، وان بعضها سيقام عليه مساكن للقبائل التي تقصد موران ، اضافة الى المدارس والمستشفيات .

وما زاد في تأكيد هذه الحالة أيضاً ، ان زيارات راتب الى موران اخذت تتكرر وتتقارب ، وأشار ، عرضاً ، إلى أنه يفكر بالانتقال إلى موران خلال فترة سنة او سنتين ، للاستقرار فيها ، خاصة وان العمل يسير سيراً حثيثاً منتظماً ، كما خطط له ، رغم اللغط الذي ينقله محمد عيد عن سعيد ، وما يتحدث به الناس في السوق . وما زاد من ترجيح احتمال مثل هذا الاخبار السارة التي زفها راتب للحكيم حول تأسيس شركة جديدة للمقاولات ، مهمتها بناء الطرق وتوريد الابنية الجاهزة . وأشار الى ان مستقبل هذه الشركة هام للغاية ، ليس في السلطنة وحدها ، وانما في البلدان المجاورة أيضاً ، ولذلك يجب ان تنشأ لها فروع محلية بسرعة ، وقبل ان يصل المنافسون ، خاصة وان الجميع في بيروت واماكن عديدة ، لا يتحدثون الا عن الاشغال الكبيرة في موران ومدن السلطنة الاخرى ، وان الكثيرين يبحثون عن « مفاتيح » !

والحكيم الذي يصير على معرفة احتمالات المستقبل ، وكيف سيسير العمل ، هنا او في الخارج ، ولضرورة مناقشة كافة التفاصيل ، يصير على استضافة راتب في بيته ، لان موران تفتقر الى فندق لائق ، « وليكون عندنا الوقت الكافي للعمل » . ويحاول بكل الوسائل تزيين فكرة الإقامة الى جانبه . وراتب الذي يبدو متردداً ، بل اقرب الى التمتع ، « لثلا اغبر نظام البيت او

محمد عيد لا يعرف في اية حالة هو ، يفرح بعض الأيام الى درجة الطرب ، ويستبد به الحزن في ايام اخرى الى درجة البكاء . يحار في اي الامور اولى من غيرها بالمتابعة ، فلا يتابع ايأ منها ، كما لا يجد فراغاً او متسعاً لسمياً ما يتناقله الناس ، كما كان الحكيم يوصيه ويطلب منه . وفي فترة لاحقة اصيب شخصاً مختلفاً . صحيح ان التغيير لم يظهر فجأة او دفعة واحدة ، لكن العير الفاحصة المدققة ، ومن يعرف محمد عيد قبل سنتين او ثلاث سنوات ، وميراه الآن ، يكتشف هذا التغيير ويفاجأ به .

ووداد التي لم تطق موران ولم تتألف معها ، بل ووقعت في المرض عد مرات ايضاً ، وقد بذل الحكيم جهوداً كبيرة لمعالجتها ، وحرار في اسباب المرض او كيف يتغلب عليه ، وان كانت ، غالباً ، ما تستعيد صحتها باعتدال الجو ، خاصة بحلول الخريف او الشتاء ، او خلال زيارة بعض الاقرباء ، فقد توصل الحكيم الى قناعة مؤكدة « ان مرض الحنين الى الوطن لم يفارقها يوماً واحداً ، وان كانت تحاول ان تتجاهله او ان تنساه » .

وخلال هذه الفترة توثقت علاقات وداد بنساء القصر وشغلت نفسها عن المرض ، او التغلب عليه ، كما اكد لها الحكيم ، وهو يحاول ان يشرح لها امكانية الانسان على التكيف . أما حين اقترحت عليه ان تقوم بزيارة الى دمشق وبيروت ، وقد حصل هذا بعد ايام قليلة من عيد الجلوس ، واشارات الى ان زوجة السلطان اوصتها على عدد من القطع الذهبية ، وعلى بعض الحاجات الاخرى ، اضافة الى ضرورة تأمين ملابس للاولاد ، خاصة لغزوان وسلمى ، فقد وجد الحكيم ان زيارة من هذا النوع مفيدة من وجوه كثيرة . كما ان فترة الشهر ، وهي الفترة التي قد تقضيها في الزيارة ، كافية لتجهيز قصر الخير والانتقال اليه ، وكان الحكيم يريد ان يفاجئها بهذا الانتقال ، ولا بد ان تتغير كثيراً ، حالما تجد نفسها في وضع افضل . الخشية الوحيدة التي يحشها من هذه السفارة « التعب الذي قد يزعجها ويؤثر على صحتها » ، أما حين اكدت له انها لم تعب في السفارة الماضية ، وان تغيير الهواء سوف يعيد اليها شبابها وصحتها ، وضحكت بصوت عالٍ ، فلم يتردد في الموافقة .

وموران تغيرت ايضاً خلال هاتين السنتين . صحيح ان هذا التغيير

وتغير لهجته :

- ولا تنسي الجماعة ، يا ام غزوان !

ويشير باصبعه قاصداً القصر ، فترد وهي لا تعرف كيف تخفي فرحها :

- طبعاً . . . طبعاً ، شوبدي البس . . . وامتي ؟!

ويخيم الرضا على الجميع ؛ يصبح الحكيم اكثر نفاؤلاً ، ويعاود اتصالاته بالكثيرين ، بعد ان انقطع عنهم فترة طويلة ، لانه لم يكن بحالة نفسية تساعده على التبسط ، ويستغرب سلوكه ويتساءل لماذا كان قاسياً او بعيداً بهذا المقدار . واذ يجد ان ضرورات العمل فرضت عليه هذا الانقطاع ، ثم ان حساسية المركز الذي يشغله في القصر اضطرته الى ذلك ، فانه يلوم نفسه ، ويقرر ان يكون انساناً مختلفاً في الفترات اللاحقة .

واذا كان الآخرون يلاحظون التغيير الذي يطرأ على الحكيم فعالباً ما يعزونه الى المصاعب والمهموم التي يواجهها .

يقول محمد عيد دون ان يسأله احد :

- اليد الواحدة لا تصفق يا جماعة ، والمسكين حامل الدنيا على كتفه !

وتتغير نبرة صوته :

- لما كنا في حران ، كنت آخذ عنه كنف ، أما هنا . . .

كانت كلماته تعني استخفافاً وانتقاصاً من هؤلاء الذين يحيطون بالحكيم ، وكانت تعني تحريضاً ايضاً ، لكن الحكيم يتظاهر انه لا يسمع ، بل وكثيراً ما حاول تغيير الحديث . يسأله عن أخيه ، وبيتسم ، ليؤكد له انه لا ينسى احداً خاصة بعد ان اصبح بدري مهماً ، وانتقل الى القصر الذي يقيم فيه السلطان ذاته ، وما لبث ان اصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، للخدمات التي يستطيع ان يقدمها ، ولتعلق الصغار والكبار به ، ولقدرته غير المحدودة على رواية القصص والاحاديث والنكات ، فاصبح اولاد السلطان لا يتركونه ابداً ، وقد زيد راتبه مرتين خلال سنة ، عدا عن الاكراميات ، وبدأ يفكر باحضار زوجته واولاده الى موران .

بسيط ، او بالاحرى لم تتوضح معالمه تماماً ، لكنه كان بمثابة اشارة شديدة الدلالة لما ستكونه في المستقبل . فالشوارع العريضة التي شُقت وسط المدينة وعلى اطرافها ، ثم الاراضي التي احقت بقصر الغدير ، والكميات الهائلة من مواد البناء التي تراكمت في الجهة الجنوبية ، وتلك الاعداد الكبيرة من المهندسين والفنيين ، اضافة الى مجموعة كبيرة من الخرائط والمصورات ، والتي بدأت تنتقل من مكان الى آخر ، من مكتب لآخر ، كل هذه الامور تدل على التغير الذي حصل ، وذلك الذي تنتظره موران .

في بداية الصيف خيم على قصر الحير جو مشحون من التوتر والانتظار . اقرب الى الحزن ، فقد تقرر ان يغادر غزوان الى الولايات المتحدة لمتابع دراسته هناك ، على ان يقضي اسبوعاً او اثنين قبل السفر مع العائلة في المصيف . وهذا القرار الذي اتخذه الحكيم بنوع من الحزم الظاهر ، وحاول ان يضيف عليه البساطة المبالغ فيها ، كان يخفي وراءه مرارة لا حدود لها . فالحكيم يرى في غزوان شبابه وخليفته ، ويريد ان يبقى قريباً منه لكي يكثف كل تجاربه في هذه الحياة ويطلع عليه عليها ، وكان يريد ان يبقى قريباً من الاجواء الكبيرة والرجال العظام ، لان ذلك سيفتح له طريق المستقبل ، ويساعده على الوصول بسرعة اكبر .

في لحظة صعبة ، لكنها ضرورية ، وتشبه العملية التي تجري للمريض ، اتخذ الحكيم قراره بالموافقة على السفر ، رغم ما عاناه من صعوبة ومرارة ، واعلنه ، وغزوان الذي كان يحلم بالسفر الى اميركا ليل نهار ، شعر بالرهبة او ما يشبه الخوف حين اعلن ابوه هذه الموافقة : انه لأول مرة يترك العائلة والى مكان بعيد لدرجة ان اياً من افراد العائلة ، او الاقارب ، لم يصل اليه من قبل .

ايام عديدة من الاستعداد والتوتر ، ومع اقتراب يوم السفر يزيد الانفعال . أما عندما رتب الحكيم زيارة لابنه من اجل وداع السلطان ، وتمت هذه الزيارة ، فقد شعر بمرارة الفقد وصعوبته اكثر من اي وقت سابق . وعندما قرر جلالته ان تكون دراسة غزوان وتكاليف سفره واقامته هدية منه ،

ليعرف المبلغ في الظرف المغلق ، فما كادت موران تصبح وراءه حتى فصر المغلف ، وبمهارة وسرعة عرف انه الف دولار ، وكانت مع المبلغ رسالة ، قر فيها :

« فلذة كبدي . . . غزوان .

هذه اول رسالة اكتبها اليك ، سوف تذكر هذه الرسالة فترة طويلة ، وقا تحذث اولادك عنها . لا ادري لماذا اتصورك وقد اصبحت بعيداً ، بعيد جداً ، حتى قبل ان تسافر ، اشعر بمرارة فراقك ، واشعر اكثر من ذلك اننا تسرعنا ، انا وانت ، في اتخاذ هذا القرار ، لكن مثلما فعلت اشياء كثيرة في حياتي ولم اندم عليها ، احس ان هذا القرار سيكون من جملتها . انا اثق بك ثقتي بنفسي ، واعتمد عليك كما اعتمد على رجل كبير وواع ، فارجو الا تحيب ثقتي ، وان تكون عمادي واعتمادي الآن وفي المستقبل .

بودي لو اكتب اليك الكثير الكثير في هذه الرسالة ، لكن اشعر ان قلبي لا يسعني ولا يطاوعني الآن . سوف اكتب اليك في المستقبل بكل تأكيد ، وسوف تكون افكاري اكثر صفاء ووضوحاً ، ولا بد ان تكون رسائلنا من الكثرة والطول بحيث يحدث الواحد منا الآخر عن كل شيء يفكر فيه او يتمناه . أما الآن وانت تسافر فاريد ان اقول لك بضع كلمات :

اهتم ، يا ولدي ، بصحتك ، فالصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى ، وانا الذي افنيت حياتي في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم ، اعرف ، اكثر من اي انسان آخر ، معنى المرض . ولذلك لا تنهون أبداً في الاهتمام بصحتك . وقد يكون زائداً ان اذكرك بان الدفء والغذاء الجيد والنوم المبكر والرياضة المعتدلة ، كلها من العناصر الاساسية التي تجعل صحة الانسان جيدة ، فاحرص عليها بعقل واعتدال .

واهتم ، يا ولدي ، بالدراسة ، فالأيام التي نعيش فيها تعتمد على التحصيل العلمي ، لان هذا التحصيل سيمكنك من مواجهة اعباء المستقبل وتحصيل المال ، فالانسان دون العلم ودون المال لا يساوي شيئاً ، مهما كان اصله وعائلته .

فلم يتمالك الحكيم نفسه من اخفاء دمة سقطت من عينيه دون ارادة .

وما زاد في مشاعر الفقد والمرارة ان الحكيم لا يستطيع ان يرافق العائلة الى الصيف هذا العام . لان الاعباء تترابد ومهمات كثيرة تنتظره ، كما ان العجرمي الذي سافر للحج وطالت سفرته ، وكاد الحكيم ينساه ، رجع مجنوناً اكثر من السابق ، واصبح تحريضة وهجومه لا يتوقفان يوماً واحداً ، الأمر الذي جعل الحكيم متردداً ثم خائفاً . ولم ينتظر طويلاً لكي يصرف النظر عن فكرة السفر نهائياً ، قال لنفسه بنوع من التعزية : « من الحماقة ان يترك الانسان بناءً بناه بعرقه وسهر الليالي ، لكي يهدمه الآخرون . أما بعد ان أطمئن فيمكن ان اذهب الى اقصى مكان في الدنيا دون خوف ، وعند ذلك سيكون لدي وقت للاصطياف والاستجمام والكتابة ايضاً » .

في اليوم الأخير قبل السفر ، ود الحكيم لو يربط في البيت ، وان يكتب مجموعة من الوصايا لكي تكون هادياً ومرشداً لغزوان في غربته ، ان يقول له اشياء كثيرة ، كيف يجب ان يتصرف ويفكر ويعيش ، واي اصدقاء يجب ان يرتبط بهم ، لكنه لم يجد في نفسه القدرة او الميل في مثل هذه الساعة ، ولذلك تظاهر بالانشغال ، وكأنه يواصل عملاً يومياً ، وبالغ اكثر من ذلك ، اذ تأخر ظهراً اكثر مما تعود ، أما عند العصر ، لحظة انكسار الشمس وبداية الرحلة ، فقد انتحى الحكيم بابنه ، وبطريقة حزينة ، لكنها فخمة ، قال له ، وخرجت كلماته مضطربة :

- لا اريد ان اوصيك يا غزوان ، اصبحت رجلاً وتعرف كيف تتصرف ، واذا كان للعائلة امل فقد وضعتك فيك ، وصاحب الجلالة الذي تكفل بمصاريف دراستك ونفقاتك كلها لن ينسأك ، ومع ذلك فهذا المبلغ - ودفع اليه مظروفاً مغلقاً - قد محتاج اليه وقد يساعدك على نوابت الزمن !

وقبله ثلاث قبلات كما قبل أخوته ، ووقف عند الباب فترة اطول مما تعود ، ظل واقفاً الى ان غابت السيارة عن ناظره .

غزوان الذي ظل متماسكاً ، قوياً ، وتكلم كرجل ، وسلم على ابي عبد الله ومازحه ، وكذلك فعل مع محمد عيد ، لم يقو على ان ينتظر طويلاً

انيساً ودوداً اكثر من الفترات السابقة ، وكان يطفح بالنشاط والمرح .

وخلال نفس الفترة سافر ابو مصباح ، لكن سفرته لم تطل ، او كما قال : «مشوار الطريق ، لان صاحب الجلالة لم يأذن لي باكثر من ذلك» . عاد ومعه زوجته وبناته الثلاث وابنه مصباح ، وعاد ايضاً بمجموعة من الطيور : بيغاء ، وعدد من الحساسين والكناريات ، وبعدد كبير من الالعب ، ولم يعرف ما اذا كانت هذه الالعب لابنه مصباح ام هدايا حملها لانس آخرين . لكن الشيء المؤكد ان بدري الحلاق ، هكذا اصبح اسمه الجديد ، بدا في حالة من الاشراق والسرور الى درجة ان الكثيرين الذين لم يروه من قبل او لم يعرفوا المزايا التي يتمتع بها اكتشفوا فيه انساناً خارقاً .

ومحمد عيد الذي رفض السفر ، او مجرد الحديث في الموضوع ، بالرغم من الحاح اخيه واقترح زوجة الحكيم ، لانه لا يستطيع « ان يترك الحكيم وحده » ، والذي حاول ان يشغل نفسه بامور كثيرة ، كان قد فكر فيها من قبل واستعد لها ، فما لبث ان وقع مريضاً في الأيام التالية ، ورغم ان الحكيم بذل جهداً كبيراً في فحصه ، واحاله الى اثنين من الاطباء ، الذين يعتمد عليهم في موران ، واجرى له تحليلات كثيرة ومعقدة ، الا انه لم يشخص المرض ، ولم يستطع ان يصف له الا ادوية مهدئة ، وما كاد محمد عيد يرى هذه الادوية حتى قال للحكيم ، وهو يضحك من الالم والسخرية معاً :

- هذه ما هي كافية يا حكيم . . لازم لي ابرة كمان .

وشاركه الحكيم الضحك ، لكنه قال وهو ينظر الى البعيد :

- ما عليك يا رجل . . . جرب هذه الادوية وعلى مسؤوليتي !

واوصيك ، يا ولدي ، ان تختار اصديقك بعناية كبيرة ، وان تجرب الانسان مائة مرة قبل ان تمنحه ثقتك ، وحتى الثقة لا تمنحه اياها دفعة واحدة ، ولا حاجة لان اوصيك ان الاصدقاء ، في هذه الحياة ، قلة قليلة . يمكن ان يكون لك معارف كثيرون ، لكن الاصدقاء شيء صعب المنال ، فانتبه كثيراً لهذه النقطة واعتمد على تجارب الآخرين لئلا تدفع ثمن تجاربك .

واوصيك . يا ولدي ، ان تقتصد في مصاريف الحياة ، لان القرش الابيض ينقذ في اليوم الاسود . والحياة ، بصورة عامة ، قاهرة غدارة ، لا تطمئن الى اليوم وتنسى الغد ، ولا تضع مالك كله في سلة واحدة ، ولا تستدن ابدأ ، واذا اضطرت ان تدين فاعط القليل واكتب بينك وبين من يستدين منك ، ولا تنجل ولا تغضب ، وحاول ، يا ولدي العزيز ، ان تبتعد عن المحرمات من المأكول والمشرب ، وابتعد ، خصوصاً ، عن النساء ، واذكر ربك في الصباح والعشية ، واذكر والديك ، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً .

حبيبي وقرة عيني غزوان

اكتب اليك هذه الرسالة وقلبي يعصره الالم ، ويتفطر من الحزن واللوعة ، وكأني اكتب وصيتي الأخيرة ، لكن يجب ان تفهم قلب الوالد ، وان تتذكر كم تحملنا وتعذبنا انا والوالدة حتى اصبحت رجلاً هكذا ، فلا تنس ، والى ان نلتقي مرة اخرى ، وارجو ان يكتب الله لنا ذلك قريباً ، اكتب الينا كثيراً ، لان الكتابة ، كما يقولون نصف المشاهدة .

ولك من والدك المحب المشتاق كل الخير والبركة والتحيات .

والدك

وسافر غزوان ، وبدأ الحكيم ينتظر

وقبل اسابيع قليلة من سفر عائلة الحكيم ، لتبقى هناك الصيف كله ، سافر مطيع ايضاً ، لكن قبل ان ينقضي الصيف عاد ومعه عروسه ، وقد رافق عودته الكثير من الحفاوة والدعوات . وتفضل السلطان ، كتعبير عن المودة ، فاهدى اليه سيارة جديدة ، واهدى لزوجته عقداً من الماس قُدر تقديرات مختلفة ، لكن اتفق الجميع على انه هدية ثمينة . وبدا مطيع في هذه الفترة

- روجي اعطيها لهم ، لكن اخاف من هذا الطير ان يسوي مشكلة .

- وكل الله يا رجل .

- يا ابو عمران . . هذا الطير غير مؤذب !

- غير مؤذب .

- لسانه فلتان .

وضحك زيد ضحكة صاخبة . تابع ابو مصباح :

- وبكرة اذا صار ما صار تقولون ابو مصباح .

- ويش يقول ؟

- يقول الزائدة والناقصة .

- لا . . . بالله عليك ، ويش يقول .

- انا مالي علاقة ، اسأله واسمع جوابه !

- هاته وما عليك .

- بشرط . . .

- ما هو الشرط ؟

- ان صاحب الجلالة لا يعرف ولا يسمع . .

- وكل الله يا رجل . . . وتتصور ان النبي آدم يحط عقله بعقل طير ؟

- اذا اخذت الموضوع على كفالتك ومسؤوليتك انا موافق .

- خلص . . ما عليك !

وانتقلت الطيور الى القصر ، الى جناح السلطان . واذ لم تلفت نظر صاحب الجلالة او يتبه اليها خلال الايام الأولى ، فقد اصبحت تسلية لذيدة له في وقت لاحق . لكن لم يدر بهذه التسلية الا القليلون . اصبح صاحب الجلالة شديد الشغف بطيور الحب : يراقبها باهتمام ، يقضي ساعات وهو ينظر اليها كيف تتعاقب ، كيف تزق بعضها ، كيف تشابك بمناقيرها وتلوى .

البيغاء وعصافير الحب التي حملها معه بدري المدلل في سفرته الأخيرة ، وجاء بها الى موران ، لانه لم يجد لها حلاً او مكاناً آخر ، شغلت القصر ، شغلت الصغار والكبار ، وخلقت من الاهتمام والضجة الكثير . وقد فتن بها ابناء السلطان ، وبشكل خاص الاثنان الصغيران ، وطلبا الاحتفاظ بها . و ابو مصباح الذي وافق دون تردد ، رغم تعلق ابنه بهذه الطيور ، كان يتوقع لها نهاية سريعة ، « لان هذه الطيور تعودت على الفبي والمي ، ولا يمكن ان تتعود على جو آخر ، وجو موران اذا وافقها اليوم يقتلها ثاني يوم ، وان تموت عند غيرنا احسن من ان تموت عندنا » هكذا قال لزوجته في محاولة توضيح سرعة موافقته على اهداء الطيور . الحشبة الوحيدة التي جعلته متردداً في اهداء البيغاء تلك الكلمات غير اللائقة التي تعلمتها « الشيبة » كما كان يطلق عليها ، ولذلك اخر ارسالها لعدة ايام ، وبذل جهداً خارقاً في ان يعلمها كلمات جديدة بدل تلك التي تعرفها . لكن ما ان يزداد الحاحه في تلقينها « عاش السلطان . . عاش . . عاش » حتى يصفعه جوابها « يضرب هالكسم » فاذا حاول اكثر ترد عليه : « اخرس » . واخيراً لم يجد مفرأ اما ان يبقى « الشيبة » في البيت او ان يهديها هكذا ، ولان اولاد السلطان لم ينتظروا ولم يصبروا ، فقد قال لزيد الهريدي في محاولة لان يشرح موقفه :

- اولاد طويل العمر طلبوا البيغاء . . .

وبعد قليل :

الحامية والاسئلة والضحك والغضب ، فقد جعلت الحكيم اقرب الى الحدة والعصبية .

قال لمحمد عيد مازحاً :

- الله لا يعطيه العافية اخوك ، سوى لنا عصفورية عن جد ، والجماعة كان ناقصهم عصفور حتى يطيروا . الافندي جاء وجاب لهم الف ، وتعالى هديهم وتفاهم معهم .

واضاف بعد قليل بمرارة ساخرة :

- صارت شغلتنا : طار الحمام . . . هذا الحمام . . والله يستر .

ومع طيران العصافير وتغريدها التمتع في ذهن الحكيم فكرة ، لا بل افكار ، ولا يعرف لماذا سها عنها او نسيها ، ولا يعرف لماذا سبقه هذا الثرثار اليها .

كان يشجعها ويحرضها ، وقد اطلق عليها اسماء من عنده ، وكان لا يتردد في ان يظهر بهجته حين يراها تقفز وتغرد . أما البيغاء التي بدت له شديدة الطرافة ، وتجنب في البداية ان يوجه اليها أية كلمات ، خوف ان ترد عليه كما ترد على الآخرين ، فلم ينتظر طويلاً حتى مازحها . لكنه فعل ذلك حين كان وحيداً ، ومرة او مرتين امام عدد محدود جداً من الاقارب ، وكانت مع الضحكة المجلجلة التي تصدر عن حنجرته الكبيرة الخشنة ، تصدر كلمات اقرب الى الشتيمة :

- الله يخزيك يا بومة البين !

وابو مصباح الذي تجنب في البداية الاشارة الى هذه الطيور ، خاصة البيغاء ، ما لبث ان فاض في الحديث حين سأله السلطان ذات مرة ، وابدى استعداده ان يؤمن للقصر مجموعة كبيرة ورائعة من الطيور النادرة ، الغريبة والجميلة ، وكانت استجابة السلطان سريعة ومتحمسة . فما ان انقضت بضعة شهور حتى اقيم جناح خاص في القصر ، وامتألت الاقفاص الكبيرة بانواع متعددة من الطيور الصغيرة الملونة ، أما البيغاوات الافريقية الثلاث التي جيء بها فلم يُستطع ان يُفسر صمتها او عزوفها عن تكلم اية كلمة ، قيل اول الامر انها صغيرة السن ، ولن تمضي فترة الا وتتعلم ، وقيل بعد ذلك انها لن تتعلم ابداً اذا كثر المعلمون وتعددت الكلمات واساليب التعليم ، وقيل في وقت متأخر عندما مات واحد من الثلاث انها طيور مسنة ، ولا بد مائة بين يوم وآخر ، ولذلك لا فائدة ترجى من محاولة تعليمها . والسلطان الذي سمع ما قيل ، وقد فكر في لحظات تجليه لو يصرف بعض الوقت ويهتم باحد الطيور الثلاثة ويعلمه ، لكن لم يلبث ان نسي الموضوع ، وان لم ينس الاهتمام المنتشي بعصافير الحب بشكل خاص ، وان يقضي ساعات كل يوم يراقبها ، ولم يتردد في ابداء اعجابها بها امام الآخرين .

تشاءم الحكيم ، الى حد التطير ، من دخول هذه المخلوقات الى القصر ، والى انشغال الجميع بها . أما الاوصاف التي بدأت تطلق عليها ، وسحب هذه الاسماء والاوصاف على البشر او العكس ، وما يرافق ذلك من النقاشات

النضوج الذي اكتشفه فجأة وبين جو موران . قال بنوع من الحزن « في الطفولة وبداية الشباب تلعب بعض المراكز دور الاكتناز، عدا مركز واحد فقط ، والذي يلعب دور الاستقطاب ، لكن في مرحلة لاحقة يفاجأ الانسان ان المراكز جميعها كانت نشيطة ، وكانت تعدّ نفسها ، ولذلك تظهر بقوة، وهذا احد اسرار الحياة » .

العين التي اكتشفت سر الحياة وعبقورية الطبيعة قبل الحكيم بفترة طويلة ، لكن دون اعلان ، دون ضجة ، ودون نظريات ايضاً ، هي عين محمد عيد .

فمنذ اللحظة الاولى ، عند وادي الرها ، احس ان نادية تعنيه وحده ، وانها جاءت من اجله ، أما الكلام الذي سمعه عرضاً من وداد ان نادية يمكن ان تكون ذات يوم زوجة لغزوان ، فقد رفض ان يصدقه او ان يقبله ، فنادية « اكبر » من ان تكون زوجة « لشوال اللحم » كما كان يسميه سراً ، وغزوان اصغر من ان يكون زوجاً أو رجلاً ، هكذا كان محمد عيد يقول لنفسه في ليالي موران الطويلة، وهو يتقلب على فراشه في محاولة لان يتغلب على هواجسه ، ولان ينام .

الآن ، وغزوان قد رحل ، ونادية ، بعد رحلة الصيف ، تبدو اكثر نضجاً وفتنة وقد لوحتها تلك السمرة الشفافة الحافلة، يشعر محمد عيد ان المرض الذي انهكه خلال الصيف ، كان سببه غياب نادية . لم يقل ذلك لاحد ، ولم يعترف به لنفسه اعترافاً كاملاً او كلياً . كان يشعر ان موران التي تحملها ، تحمل حرها وبردها ، وتحمل البشر والحياة فيها، رغم الصعوبة ، مدينة لا نطاق : قاسية عاتية ، ولا يمكن ان يعاش فيها ..

بعد ان عادت نادية ، وفي هذه الظروف المواتية ، يشعر محمد انه اكثر حيوية وصحة من اية فترة سابقة ، وأنه قادر على عمل اي شيء ، دون خوف ودون تردد . حتى نظرتة الى الحكيم ، في هذه الفترة ، تتسم بمقدار اكبر من الثقة ورغبة التفاهم . واذ شعر انه اخطأ وكان قاسياً مع اخيه حين قال تلك الكلمات حول الزواج والمرأة ، لا يعرف هل يكلف اخاه بان يتحدث مع الحكيم ام يتولى الأمر بنفسه . ولا يعرف هل يتحدث مع نادية ، ان يشير اليها

قالت وداد لزوجها ، في محاولة لتفسير اصطحابها لنادية بعد سفر غزوان :

- البنت تعودت علينا . . .

وبعد قليل ، وهي تنظر الى البعيد :

- ويمكن يكون نصيبها في هذا البلد .

زفر الحكيم قبل ان يعلق :

- من اول يوم قلت لك يا وداد : العمر غير متناسب ، والزواج مبكر على غزوان .

- الله يسلمه راح ، ولا احد يعرف ماذا سيحصل معه .

واضافت بعد قليل :

- والبنات يكبروا قبل الاولاد !

والحكيم الذي نظر الى نادية في اليوم التالي نظرة جديدة اكتشف انها كبرت في غفلة عنه ، بدت في عينيه امرأة ناضجة ، شهية ؛ وتلك الطفولة التي قربتها منه اول وصولها الى موران ، لا تظهر آثارها الآن ، انتهت ، حلت مكانها نظرة متفحصة اقرب الى الجراءة ، أما الجسد اللدن الاميل الى الصغر الذي كان يميزها في السابق ، فقد اكتنز واشتد . قال الحكيم لنفسه واطياف كثيرة تعبر مخيلته : « هواء موران يُلْقح وينضج الاشياء قبل اوانها ، خاصة الفتيات »

وحاول ان يتذكر نادية من جديد ، وحاول ان يجد نوعاً من الصلة بين

وحين يرتبك تضحك ولا تنتظر جواباً !

ووداد احست في وقت مبكر بنظرات محمد عيد وطريقة تعامله مع ناديه ، لكنها كانت على ثقة ان ناديه مجرد طفلة ، طفلة صغيرة لا تدرك بعد عالم المرأة . واذا تصرفت بطريقة اوحت لمحمد عيد بشيء ما ، فان هذا الشيء لا يتعدى اعجاب الرجل بخفة دم طفل او طريقته في التصرف والكلام . أما غير ذلك فلا يمكن ان يكون . هكذا كانت ووداد تقول لنفسها . وزيادة في التأكيد يروق لها بين فترة واخرى ان تطلب من سلمى الوقوف الى جانب ناديه لكي ترى فرق الطول بينها ؛ وعندما تكتشف ان هذا الفرق يتقلص ويذوب قياساً لفترة سابقة ، وعندما تعيد حساب عمر سلمى تتأكد اكثر ان الامر لعب اولاد !

وناديه التي اتاحت لها موران فترات طويلة من الفراغ ، ثم ذلك اللفح الدافئ الذي لا يتوقف ولا يهدأ الا خلال شهور الشتاء ، والذي ينضج الأشياء والاجساد بهدوء وخفاء ، جعلها تحس مبكراً ان جسدها يستجيب لها ويطاوعها ، فالثديان اللذان كانت تحجل منها وتحاول اخفاهما في البداية ، وتبالغ بعض الاحيان في طريقة اختيارها للملابس ، خاصة القمصان ، وتصرّ على أن تلعب مثلما يفعل الذكور ، بدأت تتغير ، فالجسد اكتنز قليلاً وبدا أكثر تناسقاً ، واخذت ترقبه باهتمام كل يوم . والثديان كبرا وتكورا ، بل بدأ يشرعان رأسيهما بتحدٍ اقرب الى الاستفزاز ، وهي بمقدار ما كانت تحاول اخفاهما سابقاً فانها تحرص الآن على ان يكونا اول نقطة مضيئة في جسدها ، وان يكونا اول ما يُرى فيه . أما الملابس التي بدأت تختارها بعناية فلكي تُظهر مواضع القوة والتحدي في جسدها . فالتنورة التي تظل تعالجها ساعات وساعات ، عند الوركين او تحتها قليلاً ، كانت تريدها اقدر ما تكون على اظهار الانسكاب الفاتن لدوائر الجسد . أما الشعر الذي حرصت على ان يبقى طويلاً ومرسلاً ، فقد فتنت كيف تتركه ، جوحاً صاهلاً في كل وقت . كانت تعرف كيف تحرك رأسها ومتى ، وكانت ، بعض الاحيان ، تربطه بشرائط ملونة فتبدو مثل طفلة كبيرة . ووداد التي كانت تراقب بعين يقظة كيف تعبت ناديه بشعرها ، كيف تربطه يوماً وتحله يوماً ، كانت تقول لها بطريقة ناصحة :

بشكل ما ، قبل ان يحدث الحكيم ، أم يطرق الباب فوراً .

انه يحترق ، لكنه ذلك الاحتراق اللذيذ العذب ، والذي يجرّضه اكثر مما يعذبه ، فيجعله يواصل الليل بالنهار فقط ليفكر أكثر بناديه ، ليراها ، ليحسها قريبة منه ، ولذلك تذوب امامه الصعوبات وتسقط الحواجز . يكفي ان يراها كل يوم ، ان يسمعها عندما تضحك ، يحس ان دمائه تركض في جسده ، تحضه تماماً ، تجعله سعيداً الى اقصى حد ، ومن اجل ان تبقى ناديه ضاحكة لن يتردد في ان يفعل اي شيء . كان يقول لنفسه ، في لحظات ضعفه القصوى : « سوف احملها في عيني ، سوف اجعلها تضحك دائماً » وبتيه في افكار اقرب الى الحلم : « واذا لم ترد موران لن نبقي ، سوف نرحل . أما اذا احبت ان تنام حتى ساعة متأخرة ، كما تفعل في بعض الأيام الآن فيمكن ان امشي على رؤوس اصابعي ، كالكفطة ، ولن اجعلها تنزعج او تفزع . وحتى الحبل واتعابه ، ساحاول ان اجعله خفيفاً » . ويضحك بصوت عالٍ ثم يضيف : « طبيعي لن احمل عنها ، لكن ساجعل الطفل خفيفاً كالريشة : ساتولى اعداد الطعام . وغسل الملابس وعمل كل شيء ، فقد لتكون مرتاحة » .

هكذا كان يفكر وهكذا كان يحلم . وناديه التي ملأت بيت الحكيم بهذه الحيوية الفياضة المعدية ، ترى محمد عيد واحداً من الناس الذين لا تعرف كيف تتعامل معهم : نادته منذ البداية : عمو ، لكن بطريقة بارعة ، وفيها الكثير من المكر . قال لها وقال لاولاد الحكيم جميعاً : اذا اردتم ان نبقي اصدقاء ، كلمة عمو لا احبها ، اتركوها . وغزوان الذي رأى ، منذ البداية ، ان هذه الكلمة ثقيلة ولا يحسن تلفظها ، كان الاول والاكثر حرصاً على ان يناديه باسمه ، أما سلمى التي لا تعرف غير كلمة عمو ، والتي خرجت عن التقليد الذي اراده محمد عيد ولم يغضب ، ظلت تفعل ذلك وحتى وقت متأخر .

كان يحس ان لاسمه وقماً لذيذاً منعشاً على شفاه ناديه . كان ينظر الى عينيها بطريقة معينة ، واكثر من مرة سأله بكثير من البراءة الملعونة :

- لماذا تنظر اليّ بهذه الطريقة ؟

في اتم صحة واحسن حال ، أما بعد ، فلا يسعني يا والدي العزيز الا ان ابشرك بوصولي الى الولايات المتحدة الاميركية بصحة جيدة ، وقد كانت لمساعدة حسان الجوخدار ، صديق عموراتب ، الذي سافر معي على نفس الطائرة فائدة كبيرة ، ورغم انه كان يريد البقاء اياماً في هيوستن ، الا انه اجل ذلك الى حين العودة ، وبقي معي في سان فرانسيسكو ثلاثة ايام ، وبعد ان اطمأن على اوضاعي ودعني وسافر ، له مني كل شكر وتقدير .

والدي العزيز ، امي الخنونة .

الايام الاولى ، بعيداً عنكم ، كانت صعبة ، ولهذا السبب اجلت الكتابة اليكم اكثر من مرة ، لكي لا تأخذوا فكرة سيئة عن ابنكم غزوان . أما الآن ، وقد تعودت على المدينة والحياة ، وتعرفت على بعض العرب المقيمين ، اجد ان الحياة مريحة ، والدراسة ، رغم صعوبة اللغة واختلاف المنهج ، اصبحت اسهل بالنسبة لي ، وسابدل جهداً كبيراً لكي انجز الصف التمهيدي ، وعندها سوف اكون حراً في اختيار الفرع .

في سان فرانسيسكو لا يوجد غيري سوى طالب آخر من السلطنة ، وقد فهمت ان اياه مقيم منذ سنوات في مصر ، وانه لم يزر موران منذ اكثر من سبع سنوات ، وعن طريقه حصلت على العنوان الجديد للسفارة ، وقد بعثت فوراً رسالة للسيد السفير ، وضمنتها تحياتك الشخصية ، يا والدي العزيز ، ولم اشر الى الراتب الا بشكل عرضي للغاية ؛ فقد ذكرت لهم اني فتحت حساباً في بنك سيتي بنك ، وذكرت رقم الحساب ، وعلى فكرة ، يا والدي ، وضعت الالف دولار في حساب غير قابل للسحب الا بعد سنة ، وبهذه الطريقة ستدفع لي فائدة ، والجميع يفعلون ذلك هنا ، وامس بالضبط تلقيت من مساعد القنصل رسالة جوابية ابليغي ان السفارة تلقت التعليمات بابتعائي على حساب جلالة السلطان وستقوم بتحويل راتبي الشهري على حسابي في البنك .

الطقس جيد ، رغم الامطار ، والكلية في بداية الفصل الدراسي القادم ستؤمن لي سكناً في الحي الجامعي ، وهذا السكن سيكون ارخص واقرب بحيث استغني عن المواصلات .

- يناسبك اكثر ان تربطيه مثل سلمى .

وتهمز نادبة رأسها دلالة الموافقة ، لكن تستمر بنفس الاهتمام والحرص على ما تعتبره مناسباً لها اكثر .

هل كانت نادبة تعد نفسها لتكون زوجة لغزوان ؟ هل هي مقتنعة بذلك ، وهل كان الامر جدياً ؟

حتى ودا لم تكن متأكدة ، واذا ذكرت الامر في البداية ، حين انتقلت نادبة الى بيت الحكيم ، او حين سافرت مع العائلة الى موران ، فانها لم تعد الى ذكره . اكثر من ذلك بدأ غزوان يتصرف بطريقة فيها من العداة اكثر مما فيها من التحدي . ونادبة التي شغلتهما الفكرة في البداية ، لكن تصورتها ايضاً بطريقة غامضة ومؤجلة ، ما لبثت ان اعتبرت غزوان ليس الرجل الذي تفكر فيه ، او تتمناه زوجاً ، رغم مظاهر الرجولة التي كان يحرص عليها الى درجة التقديس ، ويحاول ان يتصرف ويعمل كل ما من شأنه ان يجعله بنظر الآخرين رجلاً . فالمرات التي حاول استعمال آلة الخلاقة الخاصة بابيه ادت الى مجموعة من الجروح في وجهه اكثر مما ساعدت على اثبات شاريه . أما البدلات الثلاثة التي اوصى له ابوه عليها عند حسان سنجر قبل سفره ، فقد اصر ان تكون لكل بذلة صدرية . وعندما ابتسم حسان سنجر وشاركه الحكيم الابتسام ، وأشار بسرعة الى ان الصدرية لا تناسب عمره ، « وانها دقة قديمة » لم يقتنع غزوان ، قال في محاولة للتبرير :

- والبلد اللي رايح لها ، يا بابا ، باردة جداً . . قرية من القطب .

وطلب الحكيم من الخياط ان يوافق على الصداري ، وفي محاولة لان يدعم رجولة غزوان المبكرة قال :

- معه حق غزوان . البلد هناك يحتاج الى اكثر من صدرية !

بعد شهر من اقامته في سان فرانسيسكو جاءت منه الرسالة التالية :

والدي العزيز

اقبل يدك الكريمة ، راجياً الله عز وجل ان يجعلك وجميع افراد العائلة

- هذا وعد ، لا تنس ، ولا تشغل نفسك بالف شغلة وشغلة في الصيف !
- لا خلص ، هذا وعد .

وصحك . والأولاد الذين نظر بعضهم في وجوه بعض ، ابتسموا وتساءلوا وسافروا ، كانوا اقرب الى الانفعال ، لكنهم ظلوا صامتين . أما نادبة التي احست ان غزوان اصبح بعيداً . بعيداً جداً ، وانه لن يأتي في الصيف القادم ، فقد شعرت بحرية ، لكن شعرت بخوف ايضاً . صحيح انها لم تكن تميل اليه ، وتعتبره خشناً ، وقد لا يجيها ، لكنها الآن ، لا تعرف حقيقة عواطفها !

الوحيد الذي فرح فرحاً لم تشبه المخاوف والظنون هو محمد عيد ، فبعد ان ابلغه الحكيم ان غزوان يهديه السلام ويسأل عن احواله وصحته ، حاول ان يعرف المزيد من اخباره ، لكن الحكيم اجمل الاجابة بكلمة واحدة : عال . . . والحمد لله . ولذلك توجه محمد عيد الى الصغار ، قال لنفسه وهو لا يخفي ابتسامته : « خذوا اسرارهم من صغارهم » وعرف من الصغار كل ما ذكره غزوان في رسالته ، و اضافوا الى ذلك صوراً وافكاراً زينها لهم خيالهم ، فبدأ اكثر اطمئناً وفرحاً ، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة عن السابق .

والدتي الحنونة

كم انا مشتاق لك والى اخوتي ، وقد تذكرت كثيراً الأكل اللذيذ الذي تحضرينه وانا آكل هنا لحماً نصف مشوي ، لكن ، مع ذلك اطمئني . اكتبني اليّ وقولي للجميع ان يكتبوا اليّ ، واعتبروا هذه الرسالة موجّهة الى كل واحد منكم .

في الختام تقبل يا والدي العزيز ، ويا والدتي الحنونة قبلاتي الحارة واشواقي . وسلموا لي على كمال وحامد وسلمى ونادية ، وعلى رضوان ومحمد عيد وابو عبد الله ، وكل الاهل والاصحاب بطرفكم وكتبوا اليّ وادعوا لي بالتوفيق .

ولدكم المحب المشتاق
غزوان

ملاحظة :

رغم شوقي اليكم قد لا استطيع المجيء خلال الصيف القادم ، فقد سمعت من بعض العرب المقيمين ان كثيراً من الطلاب يعملون خلال الصيف ، وهذا العمل بقصد التعرف واكتساب الخبرة اكثر مما هو لجمع المال . هذا ما افكر فيه ، وساكتب لكم . تحياتي .

بكت وداد والحكيم يقرأ الرسالة بتأنٍ وفخامة ، بكت بصمت ، وقد رأها الاولاد تبكي فخرجت وحاولت ان تضحك . فاختلط ضحكها بدموعها وبدت مضحكة ، خاصة عندما قال الحكيم بطريقة استعراضية :

- الله يصلحك يا ام غزوان . . الولد راح من اجل العلم ، ما راح على الحرب .

- يا حبيبي ، يا غزوان ، كيف تأكل ، كيف تغسل ملابسك ، كيف تنام ؟

- وعليه الصلاة والسلام قال : اطلبوا العلم ولو في الصين ، واميركا صارت قريبة ، واذا لم يأت في الصيف انا وانت نزوره .

أما حين استوضح الحكيم رضائي ما اذا كان يريد الإقامة في موران ام لا ، فقد اجابه بشيء من الغموض . قال انه جاء لدراسة امكانية تأسيس فرع لشركته ، ولمعرفة الناس والجو ، وسوف يقرر بعد ذلك ؛ وحين ابتسم الحكيم وهز رأسه دلالة الموافقة او التفكير ، اضاف رضائي في محاولة لان يتقدم خطوة الى الامام :

- يبقى جو موران ، رغم حرارته ، ارحم من حران !

وافقه الحكيم مجاملاً ، لكن مع ذلك ظل خائفاً ، اذ رغم ان الاثنين كانا اصدقاء حتى اللحظة الأخيرة في حران ، وظل كل منهما يهتم بامور لا تعني الآخر ، فان موران غير حران ، ولذلك بدا الاثنان متحفظين ، وكأن الواحد لا يريد ان يشاهد الآخر هنا ، أو لا يريد ان يتعاون معه .

بعد زيارات المجاملة غاب رضائي ، وبغيا به شعر الحكيم بالراحة ، قال لنفسه « مشكلة اقل .. احسن » . أما رضائي الذي يعرف متى يغيب وماذا يفعل ، فقد غاب فقط عن نظر الحكيم ، لكنه لم يغادر موران خلال الصيف كله . أما كيف وصل الى الامير ميزر ومن عرفه عليه وكيف قامت هذه الصلة الوثيقة بين الاثنين ، فقد ظلت سرّاً مغلقاً بالنسبة للحكيم ، اكثر من ذلك فوجيء بها تماماً .

ففي الأيام الاولى من الخريف وصلت الى قصر الروض سيارة روز رايس بلون اللوز البابس ، كبيرة ، جميلة ، مجهزة بتلفون سيّار وطاولة مكتب . وكان مقعدها الخلفي متحركاً بحيث يمكن تحويله الى سرير ، اضافة الى التبريد وبوصلة تحدد اتجاه الكعبة .

كانت السيارة شيئاً انيقاً فخماً الى اقصى حد . وزيد الهريدي الذي استلم السيارة نيابة عن السلطان ، ابدى دهشة بلغت حد العجب ، اثناء ما كان يحرك الازرار في مسند المقعد الخلفي . كان الزجاج الفاصل بين المقعدين يتحرك ، وكان المكتب يمتد مثل اللسان ، أما حين فتح جهاز التبريد الى اقصى واستراح في المقعد الخلفي فقد سمعه اثنان كانا يجلسان امامه يقول « لا المانيا ولا شتاء جبل سمعان » .

ما كان الحكيم ليتذكر رضائي ، او ليخطر بباله لو لم يره امامه ، اذ بعد ان ابتعدت ايام حران غاب الرجل وغابت صورته واخباره ، خاصة وان مخاوف الحكيم من منافسته او علاقاته كانت صغيرة وآنية . أما الآن وهو يراه من جديد ، وفي موران بالذات ، فقد تساءل ثم امتلأ بالهواجس .

أما بعد ان انفض الضيوف من حفلة العشاء التي اقامها الحكيم لرضائي ، فقد قال لنفسه « لو سافرت مع السلطان وجاء رضائي في غيابي لخرب الدنيا وأكل الاخضر واليابس » .

اثناء الزيارة الاولى ، ثم في حفلة العشاء ، تبادلوا احاديث طريفة وشائقة لها وللآخرين عن حران : كيف كانت وكيف هي الآن ، وعن الامير خالد وبيت الامارة . ورضائي الذي تحدث طويلاً عن مغامراته ، منذ ان وصل الى حران اول مرة ، وكيف ظل متردداً في المجيء اليها والاقامة فيها ، لأنها ليست مثل المدن الاخرى التي عرفها في اسفاره الكثيرة « حتى الهواء الذي يأتي عذباً منعشاً من ناحية الغرب والجنوب في معظم الاماكن التي عرفتها ، وحتى في البحر ، فانه في حران شيء آخر » أما عندما استعرض الاثنان محاولات التشجير التي قام بها الاميركان ، وغيرهم ، من اجل ان يكون في المدينة عرق اخضر ، وكيف ماتت الاشجار الواحدة بعد اخرى ، فالشجرة التي لم تمت من الجفاف ماتت بعد ذلك من الرائحة الخائقة ، او من تلك الغازات التي تسرب من المصافي ، فقد اتفقا ان حران مدينة صعبة ، وان لا احد يستطيع الإقامة فيها الا اذا كان مضطراً !

صحيح ان العمل لم يتوقف خلال الصيف كله من اجل اعداد المعرض ، لكن الشكوك والتفسيرات حول المحل كانت كثيرة . اذ بعد ان اصبح رضائي وابن الدخيل شركاء ، وانتشر خبر الشراكة والشركة في السوق ، لم يعرف احد اي نوع من التجارة سيمارسه الاثنان ، فابن الدخيل الذي كان يتاجر بالسكر والطحين ، واحياناً بالتمر ، لم يقدر احد ان يتحول الى تجارة السيارات ، أما رضائي ، فقد قيل عنه في البداية أنه صائغ ، وقيل انه تاجر حرير وسجاد ، وعندما بدأت تصل السيارات ملفوفة بقماش سميك وتدخل مباشرة الى المستودع ، فقد تأكد الكثيرون ان الرجل يتاجر بالأثاث والاخشاب .

التفاوت الكبير والاختلاف البين اللذان جعلنا الناس يجتهدون ويختلفون حول التجارة التي سيمارسها الشريكان الجديدان ، كانا نتيجة النصيحة ، بل نتيجة الطلب الحازم الذي صدر عن الامير ميزر ، قال لرضائي ، وابن الدخيل يسمع :

- جمعنا وحنا ادري بهم ، مثل السعادين ، ويش يسوي كبيرها كلها تسوي مثله ، ولذلك لا تقولوا شي ابدأ ، وبعد ما يفتح المعرض وتصل السيارات ويشوفونها بعيونهم ، كل واحد يقول يا ليتني سويت قبلهم ، مثلهم .

رد ابن الدخيل وهو يهز رأسه مؤيداً :

- الصواب ما تقوله يا طويل العمر ، وجمعنا قالوا من قبل : اذا نويت لا تعلم بطاريك .

أما عندما وصل ثلاثة من المهندسين الأنكليز ، وانكبوا في الأيام الأخيرة ، قبل افتتاح المعرض ، على العمل ، وبدأت السيارات تخرج الواحدة بعد الاخرى ، وبعد دورة سريعة في موران ، تعود لتأخذ امكانها في المعرض الكبير ، وراء الواجهات الزجاجية ، فقد ابدى الناس اعجابهم الشديد ، ونظر بعضهم الى بعض ونظروا الى تخميناتهم او الى ما سمعوه حول الشركة الجديدة وابتمسوا !

في يوم الافتتاح انتدب زيد الهريدي ممثلاً عن القصر ، وجاء هو والحكيم

مع السيارة رسالة صيغت بعناية تتضمن دعوة رقيقة ان يتفضل القصر بايفاد احد موظفيه لافتتاح « معرض الشرق للسيارات » ، حيث سيكون الافتتاح يوم الاثنين ، العاشر من جماد الآخرة ، الساعة التاسعة وارفتت بالرسالة ايضاً مجموعة من الكتالوجات الجميلة الملونة تضمنت صوراً للسيارات ، وصورتين لرضائي واحدة امام باب المعرض والثانية وراء مكتبه في الداخل .

ولم ينسَ رضائي ان يدعو عدداً من رجال القصر ، كان على رأسهم صديقه الحكيم . تمت الدعوة برسالة قصيرة هذا نصها :

« الصديق العزيز الدكتور صبحي المحملجي المحترم ، ادامه الله .

ارجو ان تقبلوا تحياتي الاخوية الصادقة ، المشفوعة باسمي التقدير ، وبعد .

فقد توكلنا على الله ، وبتشجيع الاخوة والاصدقاء ، ونتيجة معاضدتكم الاخوية ، قررنا الاقامة في موران ، وتقديراً منا لمشاغلكم الكثيرة والهامة ، لم نحاول ان نثقل عليكم خلال الفترة الماضية . أما وقد استقر رأينا على افتتاح معرض لتجارة السيارات ، فانه لمن دواعي الشرف والسرور ان تشرفونا يوم الافتتاح ، العاشر من جماد الآخرة ، الساعة التاسعة . وبحضوركم يتم سرورنا .

وتقبلوا ايها الصديق العزيز كل المودة والتقدير » .

اخوكم

محمد علي رضائي

حين استلم الحكيم الرسالة ، وسمع باللغظ الذي يدور في القصر حول السيارة الجديدة التي وصلت ، قال بغيظ لم يخفه :

- ابن الحرام ماسوني . . لا يعطي سره لاحد !

هل ما قام به رضائي سر الى الدرجة التي جعلت الحكيم يتصور ذلك ؟ هل تخفى وابتعد الى درجة ان احداً لم يره ولم يعرف ماذا يفعل ؟

ورضائي الذي رفض ان يبيع من السيارات سوى تسع ، « لان السيارات الباقية للمعرض فقط ، ويمكن لاي مشترٍ ان يحدد النوع او العدد الذي يريد ويسجل ويدفع نصف المبلغ ، وبعد شهرين الى ثلاثة شهور يتم التسليم » وهذه الطريقة التي لم يألفها أهل موران أثارت من الاستياء والاستغراب الكثير ، حتى بالنسبة لابن الدخيل نفسه . فقد جاء عدد من المشترين وابدوا استعدادهم ان يدفعوا مبالغ تفوق بكثير ما يطلبه رضائي ثمناً للسيارة ، على ان يتم التسليم فوراً . وازاء الرفض ، او عدم الرغبة بالمفاوضة حول اسعار اعلى ، تعرضت الشركة في ايامها الاولى لهزة كبيرة ، وكادت تنتهي « لأن المعرض لا يمكن ان يبقى فارغاً . . . والناس لا تشتري سمكاً في البحر » هكذا قال رضائي ؛ أما ابن الدخيل فكان يصرخ « يا ابن الحلال ، الناس كلها شافت السيارات ، واللي ما شافها في المعرض يشوفها تدب في السوق ، ويدفعون فوق ما نطلب مرة ومرتين ، وبعدها تقوهم : يا عباد الله هذه السيارات ما هي للبيع ؟ » ولم يحسم هذا الخلاف الا الامير ميزر ، فقد افتي بان تبقى في المعرض سيارة واحدة من كل نوع ، بغض النظر عن حجمها ومزاياها ، وان تباع الباقي . وهذا ما حصل بالفعل ، وهذا ما دعا رضائي لان يسافر على عجل ، للتعاقد على كميات كبيرة وانواع اخرى .

لم يستطع الحكيم ان يقدم ملاحظة حول السيارة ، والذي بلغ اعجاب السلطان بها حداً كبيراً ، سوى « ان لونها لا يناسب هذه البلاد ، اذ لو خرج جلالته للقنص ، او لو ذهب في رحلة صحراوية لا يمكن تمييز لونها عن لون الرمال » أما في قرارة نفسه فكان شديد الغيرة والغيط معاً ، فهذه السيارة القوية ، المتقنة الصنع ، والمجهزة بهذه الاضافات التي لا تخطر ببال ، لم ير مثلها من قبل ، قال في نفسه « اذا كانت المسألة مسألة تجارة فموران كبيرة ، أما اذا قُرب من القصر واعتبر السيارة سنارة فوالله لا سرگته الى آخر ما عمّر الله . . . اكثر من ذلك لام الحكيم نفسه انه لم يفكر بتجارة السيارات بما هو كافٍ ، كما لم يلفت نظره الى ذلك احد .

الآن ورضائي يسافر ويعرف بسفره ، قال لمحمد عيد بما يشبه اللوم :

- الف مرة وصيتك ، يا محمد ، خل عيونك مفتوحة ، والشئ الذي يصير

في سيارة واحدة ، مما خلق التباساً لدى الكثيرين ايها ممثل السلطان ، أما بعد ان قُصّ الشريط الحريري ايذاناً بافتتاح المعرض ، فقد بدا المشهد رائعاً ، ليس في شارع الروض ، او في السوق كله فقط وانما عمّ موران كلها . خاصة وان ابن الدخيل اقترح خروج السيارات كلها في جولة بموران ، وقد استجاب له رضائي بشيء من التردد ، لعدم وجود السواق ، لكن ابن الدخيل كان قد اعدّ للامر عدته ، مستعيناً بعدد من اولاده واقاربه . ويتذكر الكثيرون ذلك اليوم في موران عندما سارت خمس وعشرون سيارة انكليزية الصنع في الشوارع وقد فتحت ابواقها ، وامتألت باعداد كبيرة من الرجال والصبية .

قال شمران العتيبي ، وقد سمع هذه الضجة من بعيد ، ثم جاء من نجبره :

- تذكروا هذا اليوم زين يا اهل السوق ، لان له ما بعده ، تذكروه ولا تنسوه ، لان بعد هذا اليوم ما لكم خبز بخيلكم واباعركم !

وهذا ما وقع بالفعل ، وخلال فترة اقصر بكثير مما قدر شمران ، فبعد ان كانت الصقلاوية او الحمدانية عنواناً للثراء والوجاهة ، وتُشتري الواحدة بمبالغ كبيرة ، وكذلك الابل الطيبة ، فقد تحوّل الناس بين عشية وضحاها . اصبحت السيارة شعار المرحلة ، واصبحت اهمية الشخص وموقعه يتحددان بالسيارة التي يركبها او بعدد السيارات التي يملكها .

قبل هذا التاريخ كان القصر وحده ، وعدد محدود جداً من الاغنياء ، هم الذين يوصون على السيارات من بيروت ، وحين تصل هذه السيارات ، وقد قطعت الصحراء كلها ، لا تكون مغبرة فقط ، ومليئة بالأتربة والغبار ، بل وتكون قد تعبت واصبحت ، بمظهرها ، اقرب الى القدم . الآن ، والناس يرون السيارات ملفوفة بصناديق خشبية او مجللة بقماش سميك ، وتأتي محمولة ، لتفك عنها صناديقها او شواذرها ، وتخرج وكأنها الاسماك التي غادرت المياه لتوها ، بلمعانها ونظافتها ، وتلك الرائحة الخاصة التي تميزها ، سواء من الداخل او الخارج ، عند ذاك لا يبقى احد في موران الا وتراوده نفسه بشكل ما ان يحصل على سيارة وباسرع وقت .

رأساً بلغني به .

ولما تساءلت عينا محمد عيد ، ثم جاءت كلماته :

- خير . . انشاء الله ؟

رد الحكيم بنزق :

- موران كلها انظبلت بمعرض سيارات رضائي . . وانا يا غافل لك

الله ، وانت لا من تمك ولا من كملك ، لا كلمة ولا خبر !

رفع محمد عيد يديه في الهواء بيأس وقال ساخراً :

- يا ابو غزوان ، بموران كل يوم الف مشكلة ، وما احلاني موجع راسك

بالصغيرة وبالكبيرة .

وبعد قليل اضاف بلهجة جادة :

- وعندك يا حكيم من المشاكل ما يكفيك ويزيد !

قال الحكيم وقد شعر بالرضا :

- قبل كم يوم رضائي سافر . . واريد منك ان تجربني اول ما يرجع .

- تؤمر يا حكيم .

واذا كان الحكيم متشوقاً لان يراقب كل خطوة يخطوها رضائي ويعرف ما

فعله او ما ينوي فعله ، فقد كان يخاف من سفرائه وغيابه اكثر مما يخاف من

وجوده ، « لان هذا الابليس لا احد يجزر عليه » .

وجاءت اشغال طارئة صرفت الحكيم عن التفكير برضائي ، لكنه لم ينسه

تماماً ، اذ كان يخطر بباله بين يوم وآخر ، ويتذكره لسبب او لآخر ، وكان يستعد

لاختيار طريقة مناسبة لكي يجاربه او على الاقل لكي يطوقه .

يفكر محمد عيد ، في لحظات معينة ، خاصة وهو يتقلب على فراشه ، ان يعترف ويبوح ، او على الاقل ان يلّمح ، لكن ما يكاد يصل الى هذه الدرجة من القناعة والقرار ، وحين يلتقي بنادية في اليوم التالي ، وهي تحوم كالفراشة ، حتى يرتبك ، يتغير ، وكثيراً ما اخذ وجهه شكلاً حازماً اقرب الى التجهم ، فيتنازل عن قراره ، تضعيه منه الكلمات ، او لا يراها تليق بها ، وفي احيان اخرى لا يقوى على ان يقولها ، فيتجاوزها ، او يستبدلها بغيرها ، يستبدلها بكلمات عادية لا تعني شيئاً !

الأيام تتعاقب ، فالاسابيع وتليها الشهور ، ولا يعرف ماذا يفعل او كيف يتصرف ، أما الآن والصيف يقترب ، ومع اولى النسومات الدافئة ، الاقرب الى اللفح ، ومع التفتح المتفجر الذي يسيطر على الكائنات كلها ، ويجعلها تتحرك بخصوصية اقرب الى العنف ، فقد تحركت فيه دفعة واحدة : الاحلام والرغبات والمخاوف . . وقرر ان يحسم امره نهائياً .

لقد انتظر ثلاث سنين كاملة ، بايامها ولياليها ، يتقلب على نار لا تهدأ ، احتمال العذاب والسهر ، واحتمل الانتظار . الآن يريد ان يضع حداً ، ان يتصرف . لم يعد قادراً على الانتظار اكثر مما فعل . ولم تعد نادية مجرد حلم يمكن ان يبده بالخوف او التردد . انها الآن طوفان تطوقه وتغرقه ، ولا بد ان يلتحم بهذا الطوفان وان يغرق فيه .

ولانه لم يسافر طوال هذه السنين ، فهو الآن ، ولاول مرة ، يحس ان

يوماً بعد آخر ، وتأخر رسائل غزوان ، ثم ذلك الصراع الذي بدأ بملا البيت نتيجة توعك ووداد ، وهرب الطباخ الهندي ، والبحث عن طباخ جديد ، كلها اسباب كافية لتأجيل النطق بهذه الكلمة الرائعة !

حتى نادية التي بدت اكثر فتنة بدخول الصيف ، بدت اكثر رقة وحناناً ايضاً معه ، ولذلك ان لم يقل تلك الكلمة الرائعة اليوم ، فان اليوم التالي سيكون اكثر ملاءمة . ووداد مع التوعك اصبحت اكثر حدة وانعزالاً ، فان كانت مفيدة ، ويمكن ان تختصر الكثير من الوقت سابقاً ، فأنها الآن اقل الاشخاص ملاءمة لهذا الامر .

مرت ايام ، تبعتها اسابيع . الزمن يتمدد بلا نهاية ليصبح تماماً كالصحراء . شعور محمد عيد بالايام والاسابيع متفاوتات اشد التفاوت . انها طويلة لدرجة لا يتصور لها اية نهاية ، وقصيرة كأنها البرق حين تكون نادية قريبة . كل يوم ، بل كل ساعة ، وهو ينتظر نادية ، تعادل ايامه الماضية كلها ، ليس في حران وموران فقط ، بل وتلك الايام التي يتذكرها منذ ان انفتحت عيناه على هذه الحياة .

وموران التي كانت محتملة مقبولة خلال الفترة الماضية ، وامكن له ان يتقبل كل ما حصل فيها ، فانها الآن ، مع بداية الصيف ، وتغير النوء ، تحاصره وتخنقه ، فيشعر ان روحه زحفت من اصابع قدميه ، في رحلة مدمرة مجنونة ، الى ان وصلت الى رقبته ، ولا بد ان يخنق في لحظة ما ، اذا لم يبادر الجميع الى انقاذه ، اذا لم تبادر نادية بالذات .

الهواء الذي ثقل وكاد يقف ، يثقل على صدره . الحرارة الكاوية التي ملأت ذرات الغبار جعلت كل شيء خشناً معادياً ، أما الاستعداد الخفي والبطيء للسفر فقد اصبح بمثابة تحدٍ مباشر له . ويقسم ان لا يؤجل الأمر اكثر من ذلك : « غداً ، مهما كانت الظروف لا بد ان اقول للحكيم الكلمة واسمع جوابها » . فاذا جاء الغد وتأجلت هذه الكلمة ، كان يقول لنفسه باحتقار وهو يضع رأسه على الوسادة « بق الحصوة ، يا منظوم ، وخلصنا » وتجول الحصوة في روحه ، تعذبه ، تجلده ، لكنه ينسى كل شيء عندما يسمع صوتها ، عندما

الارض ذاتها تتحرك ، ولا بد ان يتحرك معها ، ان يسبقها . لقد اكلته حران ، جعلته اقرب الى الحجر . ولانها كانت مليئة بهذا القدر الهائل من الحركة ، وكان البشر فيها يتغيرون ويتكاثرون ويتحركون مثلما يتغير الهواء ويتحرك ، فقد كان يشعر ان قوته بان يبقى ثابتاً ، ان ينزرع كالنخلة في هذه الارض المتحركة الخطرة . وموران التي كانت هادئة غارقة في الصحراء والسكون ، خلال السنة الاولى ، ما لبثت عدوى حران ان اصابتها وادركتها ، فاخذت تركض وتجد في الركض ، لكنه هذا الركض الابله ، والذي يشبه ركض المعوقين او سباق السكارى .

يريد ان يتحرك الآن ، ان يسافر ، يريد ان يبقى سائراً حتى نهاية الدنيا . فاذا كان الحظ قد عاكسه في الماضي وانشد الى هذه الصحراء ، فلم يغادرها ولم يسافر ، فقد سافر في احلامه الى اقاصي الارض ورأى عدداً لا حصر له من المدن ، وقد حان الوقت لان يراها بعينه . لن يسافر سائحاً وحيداً ضائعاً ، وانما سيضع نادية وراءه على فرس ويطير ، او سيركب واياها سفينة ويجوب البحار كلها . سيدهشان للامكنة والمدن ، وقد لا يصدقان انها موجودان فيها ، وربما لن يعودا الى هذه الصحراء الملعونة مرة اخرى ، وسيلومها ، وربما ستلومه ، وهما في ظل شجرة ، في مكان بعيد ، لانهما لم يصلا الى هنا من قبل !

واية افكار واحلام اخرى ملأت ليلية في تلك الفترة الواقعة بين نهاية الربيع وبداية الصيف ؟ اية اغاني غناها لنفسه ، واية احلام حلم بها في ظهيرات موران وتحتمت شمسها ؟ واية بدايات واية نهايات بدأها واستعادها مرات ومرات ، لكي ينتقي ادق الكلمات واروعها واسرعها من اجل ان يبدأ مع الحكيم ؟

ان استعادة اي من هذه اللحظات يبدو مستحيلًا ، فتدفق الحياة وخصبها ، وذلك الحنان الذي بدأ يغزل خيوطه مع زيادة الحرارة ، ثم ذلك الركض المجنون لتغيير ترتيب البيت من اجل استقبال الصيف ، جعله يؤجل يوماً بعد آخر مكاشفة الحكيم . كان ينتظر اللحظة الاكبر والاكثر خصوبة ، وهذه اللحظة ما تكاد تنهيا حتى يقطعها شهاب او غيمة . فهموم الحكيم تزيد

يتلفت اكثر من مرة قبل ان يجيب :

- عال العال ، يا حكيم ، واحسن من هيك ما راح يصير !

- والاخبار ، ما هي الاخبار ؟

- الجماعة الآن بطلوا السؤال عن المطر والطرش ، صاروا غارقين في اسعار الاراضي والعقارات والذهب والسيارات !

- هذا شي معروف . . ومفهوم .

- والله بالي ما هو فاضي . . يا حكيم !

- خير ، شو اللي شاغل بالك ؟

- خليها على الله يا حكيم !

- لا . . صحيح ، شو اللي شاغلك ؟

ويهم ان يتكلم ، ان يبق الحصوة ، لكن يجد نفسه خائفاً ، متردداً ، وبعد ان يمتد بينها الصمت يسأل الحكيم من جديد :

- نصف الالف خمسائة يا ابو الشباب ، وكل الله . . وكل شي يهون .

قبل السفر بثلاثة ايام ، وقد تم الاتفاق ان تسافر وداد والاولاد الى لبنان ، « وان تقضي هناك اسبوعاً ، واقصى حد اسبوعين » وبعدها يلتحق بهم الحكيم ، لكي يذهباً معاً الى اميركا ، لزيارة غزوان .

في لحظة تخييرها محمد عيد جيداً ، وقد استعد لها واخذ دواء مهدئاً من ذلك الذي كان يصفه الحكيم في حالات التعب والارق والشعور بالكآبة ، وكانا في الحديقة وحدهما ، بعد ان اوى الاطفال الى النوم ، واستأذنت وداد ، واخذت معها نادية ، لكي تعدا الحقاتب ، « لاننا في يوم السفر عندنا الف شغلة » .

في تلك الليلة ، تحت دالية العنب ، والى جانب البحيرة الصغيرة التي يروق للحكيم ان يكون مجلسه هناك كل ليلة ، وبعد احاديث متعددة ، قصيرة ، وبصوت اراده محمد عيد ثابتاً وقوياً ، قال للحكيم :

يراهما تتخطر امامه . أما حين تبتسم ، حين تزقزق بالضحكة ، فان روحه تضيء وتشتعل ، فينسى . ينسى كل شيء . تكفيه هذه اللحظة بالذات . انها لا تتحدث ولا تضحك الا من اجله ، لكي يسمع . وحين تنتقل من مكان الى آخر ، فانها لا تفعل ذلك الا لكي يراها .

الاستعداد يتزايد من اجل السفر ، وروحه تلوب ، يستبد به الضيق وما يشبه الخوف ، واذا كان قد احتمل المرض خلال الصيف الماضي ، فلا بد ان يقتله المرض في هذا الصيف لو سافروا دون ان يفعل شيئاً . أما اذا قال له الحكيم ان نادية لا تزال صغيرة ، ويمكن ان يخطبها الآن ، على ان يتزوج حين تبلغ الثامنة عشرة ، فقد يوافق ، لكنه سيؤكد للحكيم ان نادية اصبحت كبيرة تماماً ، وان البنات في موران يتزوجن قبل هذا السن « ماذا تظن يا حكيم ؟ البشر هنا مثل الثمر . انت تذكر ان التين والعنب عندنا ينضجان في اواخر الصيف . في موران قبل ان ينتهي الصيف لا نجد تينة على امها ؛ وكذلك البنات ، في الخامسة عشرة ، في السادسة عشرة تكون الواحدة جاهزة ، وفي الثامنة عشرة يكون عندها ولدان او ثلاثة » . فاذا اصر الحكيم على رايه ، اذا عاند . . . « وانت يا حكيم . . عندما تزوجت ام غزوان كم كان عمرها ؟ لا يمكن ان ينكر ، لقد اطلعت بنفسني ، حين اعدوا جواز السفر ، على اعمارهم جميعاً ، وبحسبة بسيطة : كان عمر وداد عند الزواج ستة عشر عاماً » أما اذا قال : لا بد من سؤال امها وايها فالجواب جاهز : « انت ابوها ، وامها ام غزوان ، ولا احد غيركم ، واذا لا بد من سؤال احد فاسألوها هي » .

ويتيه في افكاره واحلامه : « يمكن ان تصمت ، وقد تهر رأسها دلالة الموافقة ، أما اذا نظرت وابتسمت فانها لا تقول نعم فقط ، تقول : خذني ، خذني بسرعة . . واهرب » .

وما يغزله في الليل يسده في النهار ، تماماً كما تفعل الساحرات ، حتى الكلمة الموجزة الواضحة التي قرر ان يقولها للحكيم في اية فرصة ، مهما كانت قصيرة ، كانت تضيع من ذاكرته ، حين ينظر اليه الحكيم ، في بعض الامسيات ويسأله :

- ها ، يا محمد ، شو اخبار الدنيا ؟

وعاد الصمت اثقل واقوى من قبل . تعلقت روح محمد عيد بالكلمة التي سينطقها الحكيم ، هذه الكلمة يمكن ان تحييه او تقتله . اذا قال له نعم سيشعر انه اقوى واسعد انسان على هذه الارض ، سيحب الحكيم اكثر من نفسه ، ولن يتردد في ان يقبل يده . أما اذا قال لا . . . ودارت الارض بمحمد عيد . لم يتصور ان تصدر مثل هذه الكلمة عن رجل عاش واياه عمراً باكملة . كان يقول له انه مثل غزوان ، ولا بد ان يعبر الآن عن كل الحب والعشرة التي تكونت خلال السنين . سمع صوتاً من داخل البيت ، كان صوت وداد تنادي على نادبة . اجفل للحظة . تطلع حواله اكثر من مرة . لكن عينيه لم تفارقا فم الحكيم . انه ينتظر حكم الحياة والموت ، ولانها متقاربان الى هذه الدرجة ، ومتطابقان ايضاً ، فانها وجهان لشيء واحد .

وجاء صوت الحكيم مرة أخرى، وكأنه صوت انسان آخر :

- نادبة مخطوبة . . يا محمد !

- مخطوبة ؟ لمن ؟

- لابن الحلال !

- لغزوان ؟

- لا . . . غزوان بعده صغير ، وما راح يتزوج قبل ما ينهي دراسته .

- من خطيبها . . اذن ؟

- مثل ما قلت لك . . ابن حلال !

- وليش انا لا اعرف ؟

- الحق عليك !

وضحك الحكيم بسخرية ثم اضاف :

- خطيبها قبل فترة واحد ، وانشاء الله تتزوج قبل نهاية الصيف !

وزفر الحكيم زفرة طويلة ، وتغيرت لهجته حتى بدا انساناً آخر :

- واحدة مثل نادبة لا تناسبك يا محمد . . .

- عندي قضية ، يا حكيم ، ولازم احكيها معك . . .

تطلع اليه الحكيم باهتمام اقرب الى الدهشة ، واجاب :

- تفضل . . يا محمد .

- قضية خاصة ، شخصية ، يا حكيم .

- تفضل يا ابني .

- وأريدك . . تساعدني . .

وتلثم صوته ، شعر بالخوف وبدأ يعرق ، ولم يستطع ان يتابع . والحكيم الذي قدر دقة الموقف ، وفي محاولة لان يساعده على الكلام ضحك بصوت اقرب الى الفهقة ، وسأله :

- الله يصلحك ، يا محمد ، اذا كان في قضية ، وشخصية ، كان لازم

تخبرني من زمان .

- القضية كلها بيدك ، يا حكيم .

- طيب ، نورني ، احك .

- نادبة ، يا حكيم .

- نادبة ؟ ما لها نادبة ؟

- بدني اطلب يدها منك ، يا حكيم .

واصيب الحكيم بالجفلة . لم يتوقع هذا الأمر ، ولا يمكن ان يستجيب له ؛ ربما فكر بذلك منذ وقت بعيد وحسمه ، او لم يتصور ان محمد عيد يجرؤ على ان يطلب مثل هذا الطلب ، وبعد فترة قاسية من الصمت ، جاء صوت الحكيم رخواً محايداً :

- وهل تكلمت في الموضوع مع غيري ؟

- ابدأ ، يا حكيم ، اقسام بشرفي .

- ونادبة . . حكيت معها ؟

- ولا كلمة يا حكيم .

- اي نعم ..
- كبر عقلك يا ابني .
- قررت وخلص .. يا حكيم .
- طيب .. أجل كل شيء الآن ، وعندما ارجع من القصر نشوف .
- لا تتعب نفسك يا حكيم ... والفلوس اللي عندك سلمها لابو مصباح .
- كبر عقلك ، ولا تغلط ، يا محمد .
- بسيطة ، بنشوف .
- لا بسيطة ولا شيء .. انتظري للظهر .
- ما اظن يا حكيم ، لان الوقت اتاخر ، اتاخر كثيراً .

وبعد قليل وبصيغة ابوية :

- واذا كنت رايد ، يا ابني ، ام غزوان بعد كم يوم راح تسافر ، ويمكن تلاقى لك بنت درويشة وتزوجها .
- شكراً يا حكيم ، انا ادبر نفسي .
- على كيفك يا ابني ، والله يقسم اللي فيه النصيب !
- ولم ينم محمد عيد تلك الليلة . بكى على وسادته مثل طفل ، وكان متأكداً أنه سيموت .

قبل ان تطلع شمس اليوم التالي كانت افكار كثيرة قد مرت برأس محمد عيد ، أفكار كثيرة وخطرة ، لكن لم يجرؤ أن ينفذ أيها منها . وعندما سمع أذان الفجر نهض . ظل جالساً في الزاوية يفكر ويحلم ويسافر ، ولم يقطن ان الشمس ارتفعت ذراعاً وان الحياة بدأت تدب من حوله . أما عندما ناداه الحكيم ، وطلب منه ان يذهب الى مستودع عزمي الحجار ، وأن يحضر بعض الادوية ، خاصة دواء الدوخة ، فلم يقو على ان ينظر الى وجه الحكيم . كان يشعر انه لو فعل فلا بد ان يرتكب جريمة او حماقة ، وحين قال له الحكيم بحياد وصلابة :

- ومرّ علي لاني عايزك بشغلة ثانية .

رد محمد عيد دون ان يرفع اليه عينيه :

- انا مشغول ، ودور على غيري ، يا حكيم !

- وراءك شيء ؟

- اي نعم .

- شو عندك ؟

- مسافر .. يا حكيم .

- مسافر ؟

يتذكر ابداً !

حتى المقبرة لم تبق في مكانها ، فبعد ان اعطى الامير الجديد ، عبد الله الشبلي ، اهل حران ومن لهم موق في هذا المكان ، فرصة خمسة عشر يوماً ليرفعوا عظام موتاهم من هذه القبور ، جاءت الآلات ودرست ما بقي ومن تبقى ، ورغم ان ابن نفاع صرخ وشتم وبعث في وجوه سواق الآلات ، لم يجد حلاً في النهاية سوى ان يركض مع عدد من الفقراء ليرفعوا عظام بعض الموق قبل ان تدوسها وتمزقها الآلات . أما ابن نفاع ذاته فقد مات بعد ايام قليلة من « افتتاح » المقبرة الجديدة على طريق عجرة وتسويرها بسور عال .

قال محمد عيد لنفسه وهو يتجول في الاسواق : « رائحتها لا تطاق ، تشبه رائحة الموق » . وبدأ يتذكر من جديد : « لا تشبه اية مدينة اخرى ، ولا تشبه نفسها ، والناس فيها اجتمعوا بالصدفة ، ولن يستمروا طويلاً ، تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالك » .

وحران بمقدار ضجة نهارها ، فانها في الليل ، في ظل اللهب الذي تبعته المصفاة ، مدينة الاشباح والصمت ، اذ ما عدا صافرات البواخر وهدير المحركات ، التي تصل من ميناء التحميل ، والذي لا يبعد اكثر من ميلين ، يظن الانسان انها جزء من الصحراء التي تليها ، حتى الانوار المنبعثة من اعمدة الشوارع تبدو كابية لا ترى ، تحت وهج الكتلة البرتقالية المسودة التي تشكل سقفاً هائلاً للمدينة ولما حولها .

واذا كان محمد عيد قد احتمل اصياف حران سنيماً عديدة، فانه الآن ، وهو يصلها ، يشعر بالاختناق ، ليس من الحرارة وحدها ، وليس من الرطوبة وحدها ، وانما من ذلك الجو الثقيل المتنن ، الذي هو مزيج من كل الاشياء معاً : البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والاسماك الميتة واطارات السيارات المحروقة ، اضافة الى رائحة البشر ، فيصبح الجو عندئذ كريهاً لا يطاق . كانت حران في وقت سابق اكثر رحمة ، وكان بإمكان الانسان ان يتعود عليها او ان يحتملها . الآن ، وفي ظل الحالة النفسية التي تسيطر عليه ، تصبح مدينة معادية ، قاهرة ، واشبه ما تكون بالقبر .

تذكره صالح الدباسي بصعوبة ، بعد ان زمّ عينيه فاصبحتا مغمضتين او مثل خيطين اسودين ثقيلين ، فسأله عن الحكيم وعن الاغوات الذين كانوا معه ، وهل ما زالوا يعملون في التجارة ام في شؤون اخرى . وبعد ان استمع الى الجواب ، سأله اذا كان الحكيم راغباً في بيع الاراضي غرب مستشفى الغرباء ، لانه مستعد لشراؤها ودفع اي مبلغ يطلبه ثمناً لها .

أما حين طلب من صالح الدباسي ان يؤمن له عملاً في المستشفى ، باعتباره مسؤولاً عن التموين ، واصبح واحداً من النافذين والاغنياء في حران ، كما ذكر له الكثيرون ، فقد رد ببطء :

- والي يشتغل عند الحضر ، عند الحكيم والاعوات ، ويش تفيده الشغليات الصغيرة الي عندنا ؟

وضحك بصخب كوسيلة اضافية للتعريض ، ولما ظل محمد عيد صامتاً ومنتظراً تابع صالح :

- راجعنا بعد اسبوعين او ثلاثة . . وعسى ان الله يقدرنا !

ترك مكتب صالح الدباسي وقد قرر ألا يراه مرة اخرى .

وفي الشوارع رأى اعداداً كبيرة من الفقراء والغرباء او الذين لا يعرف ماذا يمكن ان يعملوا ، ثم فوجيء بالشرطة تستوقف الناس ، وتدقق في اوراق الكثيرين ، لماذا جاءوا ومن اين جاءوا ، وكان على الكثيرين ان يزوروا مخفر الشرطة ، قرب دار الامارة ؛ ومن هناك كانت تجري عمليات التسفير كل يوم ، وكانت تجري عمليات السجن والضرب والسخرة ، ولا يعرف اية اشياء اخرى ، وسمع محمد عيد ان صالح الدباسي ذاته هو متعهد السجن ، اذ يؤرّد اليه المؤن ، وعلى سياراته او سيارات السيف كان يتم تسفير الذين لا كفلاء لهم او الذين لا يملكون اوراقاً او ضاعت منهم تلك الاوراق !

كل شيء يبدو جديداً وغريباً في نظره الآن . واستغرب اشد الاستغراب ان مثل هذه الامور جرت خلال فترة قصيرة من غيابه عن حران . واذا كان النفور قد دخل الى قلبه ، وشعر ان المدينة تطبق عليه ، فلم يكن يرى مفرأ من البقاء والاقامة . سيجد عملاً ، وسيتعرف عليه الكثيرون بمجرد ان يستقر ،

ضاري السهيل ، وظل اميراً سنة وبضعة شهور ، وخلفه عبد الله المشهور ، لكن هذا لم يستمر طويلاً .

اذ بعد الاضراب الذي قام في المصافي وميناء التحميل ، وبعد عمليات التخريب التي جرت عدة مرات في خط الانابيب والمحطات ، اعتبر ابن المشهور مقصراً او متهاوناً ، وجاء عبد الله الشيلي .

وحران التي تغيرت مرات كثيرة خلال السنوات القليلة التي مرت عليها ، يبدو ان الامير الجديد جاء لكي يخلق لها ملامح لا تتغير . فالضرائب التي فرضت على التجار والباعة ، وتبليط الارصفة ، اضافة الى نقل المقبرة ، ليست كل شيء ، فهناك اسباب اخرى كانت وراء هذه الاجراءات ووراء مجيئه بالذات . واذا كان الكثيرون قد تحسبوا وخافوا ، فان محمد عيد لم يشعر بمثل هذه المشاعر ، وكان من الممكن ان يزوره لو انه كان في ظروف نفسية مختلفة .

وسوف يعيد صلاته بالذين يعرفهم . واذا كان صالح الدباسي قد بدا ساخراً ، بل اقرب الى العدا ، فان الآخرين لن يكونوا مثله « يبقى في الدنيا خير كثير ، وصالح من يومه مكروه ولا احد يجبه . . وهو لا يحب احداً » .

وفكر محمد عيد ان يبدأ عملاً جديداً ، فكر اول الامر بأطباء حران ، انه ليس مجرد باحث عن عمل ، او شخص بلا مواهب ، لقد عمل في الطب فترة اطول من جميع هؤلاء الاطباء ، ولولا انه ولد فقيراً ، ولم يستطع ان يواصل دراسته ، لاصبح طبيباً قبل الكثيرين ، ومع ذلك فانه يفهم في الطب اكثر مما يفهم معظم الاطباء . يعرف الاعراض والحالات ، يعرف المراحل والعلاجات ، أما الابرة فلا احد على وجه الكرة الارضية يحسن اعطاءها مثله ؛ ومع ذلك فهو الآن ، بنظر الكثيرين ، مجرد طالب عمل . الآخرون هم الذين يقررون كفاءته ومدى الحاجة اليه . يجب ان يكون بارعاً في عرض امكانياته ، وعليه ان يدق الابواب ، وان يرجو ، ولذلك لا داعي للسرعة او الندم .

لو كان في ظروف نفسية اخرى ، لو ان وضعه الآن مثلها كان سابقاً لما تردد في زيارة دار الامارة ورؤية الامير ذاته . لا يزال يتذكر تلك الساعات الصعبة حين طلب اليه ان يفحص الامير خالد المشاري ، يتذكر هيجانه وهذيانه وجنونه ، ويتذكر تلك النظرات المعادية التي كادت تفتك به . خلّصه مساعد الامير ورضائي . الآن ، لو زار دار الامارة لعرف الكثيرين ولعرفه الكثيرون . ان ثلاث سنوات لا تلغي ذاكرة البشر ولا تغيرهم ، كما ان هذه المدة لا يمكن ان تجعلهم يتذكرون . لكنه لا يجد في نفسه الاستعداد او تلك القناعة . انه يختلف عن الآخرين ، ومع ذلك سيجد طريقه .

قالوا له ان الامير خالد المشاري ذهب وذهبت اخباره ، اذ بعد ان غادر حران لم يسمع احد عنه شيئاً ، وكذلك جوهر . وقد حل مكانه في الامارة نائبه ، الامير مشعل ، ولا يعرف محمد عيد لماذا لا يتذكر هذا الاسم لنائب الامير ، يتذكر انه ابو رشوان ، ويتذكر ان بعضهم كان يطلق عليه اسم البرميل . بقي الامير مشعل اميراً لحران فترة من الزمن ثم جاء بعده الامير

احسن من الذهب ، ورأيت ان يظل نايم على هذي الاراضي .
وعاد الى لهجته الاولى :

- لك احك يا محمد ، كيف حال الحكيم بموران ؟ زنقل ؟ ريش ؟ صار
فوق الريح ؟

ولم ينتظر لسمع الجواب ، قال كأنه يخاطب نفسه :
- سمعت انه ملين ، صار تحت طيزه ملايين!

وحاول محمد ان يجيب ، ان يشارك ، لكن الأغا لم يسمع ولم يترك له
فرصة ، ختم حديثه بحزن :

- . . . والله يصلحك جيت متأخر ، لاني ، انا نفسي ، افكر بعد كم
شهر ان انقل شغلي الى موران ، موران تظل العاصمة ، والشغل هناك احسن
من حران الف مرة ، خاصة في شراء الأراضي وبيعها !

وزار محمد عيد الكثيرين ايضاً . سألهم واستمع اليهم . واذا كان هؤلاء
قد سألوا عن الحكيم وعن الاراضي والابنية التي له في حران ، وما اذا كان
يريد بيعها ، فقد قدروا ان عودة محمد عيد مرتبطة بهذا الأمر بالذات . أما وهو
يداور ويحاول التهرب من الاجابة الواضحة الدقيقة ، وبعد ان يسأل عن فرص
العمل وماذا ينصح الاصدقاء والمعارف ، فان الكثيرين يبدو استغرابهم الذي
يصل الى حدود الدهشة في أن يترك الانسان موران ويأتي الى حران او غيرها
من المدن الاقل اهمية وشأناً !

كان كل واحد من الذين يسألهم يبذل جهده لكي يعده عن مجال عمله :
« جميع الاعمال افضل من هذا العمل . هذا العمل كله تعب وما منه ربح » ،
ويسمع ويفكر ويتنظر !

فكر ان يفتح مقهى ، وبدا له ان مشروعاً مثل هذا لا بد ان يدر ارباحاً
كبيرة ، فحران التي امتلأت بالدكاكين والمطاعم والبنوك لا تجد مكاناً يستريح
فيه الناس من الركض والتعب ، بعد عمليات المساومة والبيع والشراء . وحين
سأل عن ابي اسعد الحلواني ومقهى الاصدقاء ، تذكر الكثيرون المكان ولم

ثلاثة اسابيع من التجول والتأمل والسؤال ، لعله يستطيع ان يجد جذوره
من جديد في هذه الارض الصحراوية ويبدأ مرة اخرى .

زار مستشفى الغرباء ، مدعياً المرض ، لعله يجد اهدأ او امكانية للعودة
اليه من جديد ، لكن بعد دقائق من الانتظار ، في الردهة الخارجية ، احس انه
مريض فعلاً ، فانسحب دون ان يلتفت نظر احد .

أما الدكتور الأغا ، صديق الحكيم وشريكه ، فقد استغرب عودة محمد
عيد الى حران ، قال له بعد احاديث طويلة متشعبة :

- الناس في حران يداوون بطونهم وذكورهم ، وانت تعرف السبب ، أما
اسنان الذهب والبدلات التي شغلتم في البداية فقد اكتفوا وزهقوا .

قال هذا الكلام وهو يتسهم ويتذكر . . ثم اضاف :

- ومن يوم سفركم ، او بعده بشهرين ، ثلاثة ، طلقت العيادة وتفرغت
لتجارة الاراضي . والله سبحانه وتعالى يسر وفتحها علي . ربح ارض يوفو علي
شغل سنة بالعيادة ، دون وجع راس من ريحة البدو الممتنين .

وضحك بسخرية وتابع :

- لا . . هذه الشغلة بطلناها من زمان !

وتغيرت لهجته ، اصبحت جادة وحزينة :

- والحكيم . . بنظرة البعيد ، حطّ يده على كم ارض مثل الذهب ،

وكاد يستقر رأيه على ان يصبح تاجراً للخضرة والفواكه : « لا يكف الناس عن الاكل يوماً واحداً ، والخضرة الطازجة لا تنتظر ، يتخاطفها الناس ليبلّوا قلوبهم وليخلصوا من هذه العلب الكريمة » .

وبغية الوصول الى صيغة عملية سريعة زار عدة ابنية كانت في مرحلة الانجاز ، وتخبر محلاً مناسباً . « المحل واسع وعلى شارعين ، والى جانبه قبو كبير يمكن ان يكون مستودعاً » . ووافق بعد تفكير طويل ان يدفع مبلغاً ، وان بدا كبيراً ، كخلو « صحيح ان الخلو كبير ، لكنه رأسمال محمد ، وبعد كم سنة ، اذا اراد الواحد ان يترك المحل يستعيد الخلو وفوقه كم قرش » .

لم يتوقف عند هذا الحد ، شط به الخيال وفكر ان يتعاقد مع سيارتين او ثلاث سيارات براد كبيرة ، ويرتب لها برنامجاً دقيقاً من اجل ان تصل الخضرة نضرة ، وعلى دفعات تتناسب مع حاجة السوق . وقدر ان مشروعاً مثل هذا يتطلب ان يبرم عقداً سنوياً : « لثلا اكون تحت رحمة اصحاب السيارات او مزاج السواق ، لان الخضرة والفاكهة روحها ضيقة ، لا تتحمل ، ويمكن بين يوم والثاني اما ان يصبح الواحد صاحب ملايين او يصفى على البلاط » . وفكر ايضاً ان يذهب الى دمشق وصيدا وعمان ويبرم عقوداً للتوريد : « البضاعة صنف اول . الصندوق نظامية . الكميات تتحدد بشكل اجمالي ، على ان يجري تحديد الدفعات لكل سفرة بموجب منافستو يسلمه السائق الى المورد ويتسلم البضاعة بموجبه » . وقرر ان يطور العمل مرحلة بعد اخرى ، اذ سيكون في فترة لاحقة شريكاً في برادات النقل ، وسيكون مضطراً لاقامة برادات ارضية خاصة به في حران : « لان حران تأكل نفسها اذا لم تجد شيئاً تأكله ، والخضرة والفواكه مثل الجفن والعين اقل مزحة تقتلها او تحربها » .

ولكي لا يؤجل ولا يتردد مرّ على باعة الخضرة والفاكهة في حران ، تأمل الحاجات المعروضة بامعان ، سأل عن اسعار المفرد والجملة . سأل عن مصدر هذه الحاجات ومواعيد استلامها وكيف ، ولم يتردد احد الباعة في ان يتبسط معه ، قال له ان الخضرة التي تصل من استراليا ونيوزيلندا وكالفورنيا ارخص من تلك التي تصل من عجرة ، وان تلك التي تصل عن طريق البحر افضل من تلك التي تقطع الصحراء لتصل الى حران . أما عن الكميات التي تحتاجها

يتذكروا الرجل . وما ان واصل البحث والتفكير في مقهى جديد يقيمه في حران ، حتى اصطدم بالارقام الكبيرة التي يطلبها اصحاب الاراضي القريية من البحر ، او اصحاب الابنية الفسيحة القائمة وسط السوق ، ولم يتأخر كثيراً حتى صرف النظر عن المقهى . قال لنفسه : « حران اسطبل ، ويجب ان تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط ، وعندما يتركها البشر والدواب ، ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور » .

وفكر بمصبغة وهو يتمعن بعبادة الحكيم القديمة ، لكن الفكرة لم تستهوه كثيراً . وفكر بتجارة الاراضي والبناء ، او ان يفتح دكاناً صغيرة لممارسة مهنته الاولى والأصلية ، لكنه لم يلبث ان قال لنفسه وهو يبتسم : « في كل عبادة ، في كل مستشفى اكثر من حكيم ، واكثر من محمد عيد ، واذا فلت زبون من الاول لا يمكن ان يفلت من الثاني ! » .

في بحثه وتأمله وانتظاره التقى بالشرطة . تأملوه ومروا اول مرة ، لأنه بمنظره وهندامه يختلف عن هؤلاء الذين يطاردونهم ليقبضوا عليهم . وفي المرة الثانية نظروا اليه طويلاً وتكلموا فيما بينهم ومروا . وفي المرة الثالثة استوقفوه . بدا غير خائف ، وغير مستعد ايضاً للدخول معهم في مناقشات طويلة ، فطلب منه رئيس الدورية ، بأدب ، لكن بحزم ، ان يرافقهم الى مخفر الشرطة .

كانت وجوههم غريبة ، منفرة ، وكانوا يسألون باتهام : من اين جئت ولماذا جئت ؟ اين الاقامة والترخيص بالعمل ومن هو الكفيل ؟ واذا بدت هذه الاسئلة كريمة ، ولم يتوقع ان يتعرض لمثلها ، فقد كان مثل الآخرين : مجرد متهم ، وعليه ان يجيب عن كل سؤال ، وان يبرز كل الاوراق ، وان يقول كل ما يعرف . كان يريد ان يقول لهم انه يعرف حران اكثر منهم وقبلهم ، وانه بذل من اجل حران ما لم يبذله اي واحد منهم ، وانه حراني اكثر من اي واحد آخر ، لكنه لم يفعل ، بل لم يستغرب انهم لم يعرفوه ، لانه لا يعرف اي منهم ، وبدا ، اكثر من ذلك ، انهم غير مستعدين لسماع هذا التاريخ او للتأكد منه .

وهو خارج من مخفر الشرطة تذكر جوهر وتذكر مفضي . قال لنفسه وهو يهز رأسه حزناً واسفياً : « الله من هذه الدنيا : انها دائماً مع الواقف ، مع القوي » واصاف بعد قليل بصوت حاد : « تفو » .

حران ، قياساً للكميات التي تصلها فعلياً ، فقد اعطى ذلك البائع ارقاماً مضطربة للغاية ، ثم قال انه لا يعرف . وحين سأله محمد عيد عن رأيه لو ان مكاناً جديداً وكبيراً يقوم في حران لاستيراد الخضرة والفواكه وتوزيعها ، رد الرجل وهو يتطلع في عيني محمد عيد بتحديد :

- اخي . . . بهذا البلد كل شغلة تمشي . . وكل شغلة لا تمشي ، هذا

يعتمد . .

ولم يكمل جملته ، وبعد قليل اضاف ، وهو يتسم ، وكأنه يكلم نفسه :

- المهم ان تعطي السهم باريها !

كانت آخر جولة قام بها محمد عيد يوم الخميس ؛ ورغم بعض الخوف والتردد ، قرر ان يبدأ يوم السبت . سيدفع الخلو والاجرة ، وسوف يبدأ « لاني اذا دفعت رجلي بتصير بالفلقة . . ولازم اكون قدر الحمل ولازم انجح ! » .

يوم الجمعة ، منتصف الصيف .

استيقظ محمد عيد متأخراً هذا الصباح ، لانه تأخر في نومه ، ولان احلاماً اقرب الى الكوابيس ملأت ليلته الفائتة .

يتذكر وهو يتقلب على فراشه ، يحاول النوم شعر انه وحيد وحزين ، وشعر اكثر من ذلك انه مخدوع . واذ حاول ان يبعد صورة الحكيم عن مخيلته ، وقد صمم على ذلك بطريقة اقرب الى الحقد والاحتقار ، كانت هذه الصورة تطوقه من كل ناحية . تذكر اول مرة رأى فيها الحكيم ، وتذكر كلماته الأخيرة : « اذا اردت ، يا محمد ، ام غزوان ستلقى لك امرأة درويشة وتتزوج ! » . وتذكر رحيله معه من مكان الى آخر . ورغم انه في كل مرة يقبض على نفسه متلبساً بالتفكير بالحكيم ، كان يحاول ان يتوقف ، ان يمتنع عن ذلك ، ان يعده بالقوة ، وكان ، في محاولة للنسيان ، يعد من الواحد الى المائة ، لكن ما يكاد يبدأ حتى يجد نفسه وقد سها عن الارقام وعاد الى الحكيم او عاد اليه الحكيم .

ونادية ، « اه من هذه الغزالة الفاتنة التي ربيتها بيدي » انه يشعر نحوها بعواطف متناقضة اشد التناقض ، فهو يحبها ويكرهها ، يريد لها ولا يريد لها ، ومع ذلك فانها غير مسؤولة ، وربما لا تدري حتى هذه الساعة . خصمه الوحيد الحكيم . هو الذي يقرر كل شيء ، لنفسه ونيابة عن الآخرين . حتى ما ادعاه من ان أحداً خطبها قبل فترة طويلة مجرد اكذوبة . لو ان شيئاً اسط من هذا

مرة ، يهز رأسه مرة أخرى . يقف . ما زالت ساقه تؤلمه . يتجه الى الطاولة ، يتناول كأس الماء ، يشرب . الماء ساخن اقرب الى البول ، وفيه طعم المرارة . يمسح حلقه ووجهه . يتجه الى النافذة المفتوحة ، يطل منها ، تمتلئ رثاه برائحة حران العاقبة . يتذكر الحكيم : « ابن القبة . . لبس لحية ، صار مثل اي تيس ، لكن كذبه مصلعة مثل طيز السعدان ، واذا ضحك على اهل موران وخذعهم لا بد وان يصيدوه في يوم من الايام . . . وعندها : جاءك الموت يا تارك الصلاة ! » .

وضرب حافة النافذة وقال بحقد :

- اذا ما نسيته اكون اخر امه !

وبسرعة هجم على الضوء ، أطفأه بعصبية وارتمى على السرير في محاولة لان ينام . الغرفة تغرق في الظلام . لكن النوم لا يأتيه . يتقلب ، يتقلب ، وطيف الحكيم يذهب ويعود . يتسم بحزن ويحاول ان يتذكر نادية : « آه منها بنت الكلب ، مثل الزهرة ، رائحتها اطيب من الفل والياسمين ، خيارة صغيرة ، اطيب من الخيار . ريانة ، ناعمة ، وسماها مثل القهوة بحليب . لا . . احلى بالف مرة ، واذا ضحكت الدنيا كلها تضحك ، مثل العصافير تفرق ، لكن ابن الكلب ، الحاخام ، حرمي منها ، لا يجب الا نفسه » . ولا يدري باية اشياء فكر وهو يحاول النوم .

لا يدري متى نام . آخر شيء فكر فيه بحزم اقرب الى الاهانة « اكون ألعن منه اذا فكرت فيه . . اللي فات مات ونحن رجال اليوم » .

قضى عند بائع الفول وقتاً اطول مما تعود . وبدل كأس واحد من الشاي شرب اثنين ، واعطى الصغير الذي جلب له الشاي قطعة نقد كبيرة . تحول على شاطئ البحر . تمنع بالمياه طويلاً . تطلع باهتمام الى الوجوه التي مرت به . وفجأة عن له ان يلقي نظرة اخيرة على « المحل » ، قرب ساحة السلطان خزعل .

لما وصل الى هناك كان المؤذن يذكر . ترك الساحة ومشى نحو الدكان التي سيستأجرها . وجد هناك صاحب البناء ومعه ثلاثة من الرجال . حياهم

واقل شأناً لعرفه . كانت لديه وسائل لا تحصى لان يعرف كل شيء . انها كذبة جديدة تضاف الى عشرات الاكاذيب التي سبقتها . ليس هذا فقط ، انه يعرف متى يكذب الحكيم وكيف . كان شريكه في اكثر اكاذيبه . قال لنفسه وهو يتقلب للمرة المائة في محاولة لان ينام : « ابن الكلب عملها معي ، ونسي اننا دفناه سوا » .

أما عندما غرق في النوم فقد هجمت عليه الكوابيس ، لاحقته مرة بعد اخرى . كان يرى نفسه محاصراً باعداد هائلة من الافاعي ، وحين يحاول الهرب منها تتلقفه هاوية سحيقة ، فيمسك باطراف الحجارة ، لكنها تتساقط ، وتسقط ، ومن هاوية الى اخرى ، فيصرخ ، يحاول التثبيت باي شيء ، لكن لا شيء . وحين يسقط على الارض الصخرية ويتحطم ، يسمع قهقهات بعض العجائز ، ومن بين دموعه ودمائه ينظر اليهن ، لكن لا تتحرك اية واحدة منهن لمساعدته ، فيصرخ للمرة الأخيرة قبل ان يموت ، وفجأة ينهض .

حين نهض وجد ان العرق قد غسله تماماً ، وان العطش يفتك بحلقه وجوفه . كان يحس بالتعب والاعياء ، ولا يستطيع الوصول الى كأس الماء ، وفي محاولة لان يبقى نفسه في ملكوت النوم ، ابقى عينيه مغمضتين ، واتجه الى حيث وضع الماء قبل ان ينام . اصطدم بطرف السرير . آلمته قصبة رجله اليسرى . هدر صوته مثل حيوان جريح :

- والله لالعن ابو المحملجي الاولاني !

يجلس على الارض ، يفرك القصبة في محاولة لأن يمتص الالم ، تتفتح عيناه في الظلمة ، يرى اشباحاً ، يراها تتحرك ، يفرك رجله بيد وعينه باليد الاخرى ، لعله ينقذ روحه التي يحسها تتبدد . الأشباح تغدو وتروح ، تقترب منه ، تطوقه ، يصرخ بصوت عال وحاد :

- بسم الله الرحمن الرحيم .

ينهض فزعاً . يشعل الضوء . تغرق الغرفة في نور اصفر بهي . يتلفت في كل الانحاء ، يرى على الطاولة القريبة دورق الماء وكأساً نصف مليئة . يلتفت اكثر من مرة ليتأكد . غابت الأشباح وامتألت الغرفة بالسكون . يهز رأسه

• وإذا كان محمد عيد يعتبر ان الحكيم مثله ، وقد تأثر به كثيراً ، فان الفارق الوحيد ، او ربما الفروق القليلة التي ظلت تميزه عن الحكيم منذ فترة طويلة : الصلاة . كان يعتبر ان الدين هو المعاملة ، ولذلك لا يمكن ان يتظاهر ليقنع الآخرين فقط . اذا لم يقنع الله فلا فائدة . والحكيم الذي كان يحرص على المظاهر ، اكثر مما يحرص على اي شيء آخر ، جعله يحس بنوع من الرفض والمقاومة . ولهذا ، ومنذ ان كان في حران ، ثم بعد ذلك في موران ، كان يهرب من الاستجابة لطلبات الآخرين ، او ان يتظاهر مثلهم .

الآن ، وهو يتلقى دعوة القهوة . . . يوافق . وخلال الساعة التي سيقضيها تكون الصلاة قد انتهت ، وربما استطاع ايضاً ان يبحث مع صاحب البناء في أمور تتعلق بمستقبل العمل وما يتطلبه من مستلزمات اضافية .

خلال هذه الساعة ، وربما نتيجة رائحة البيت ، او لسبب آخر ، غامض ، كان محمد عيد يريد ان يخرج ، ان يهرب ، لا يعرف الى اين او لماذا . أما حين نظر الى ساعته ، وادرك صاحب البناء تعجله ، فقد قال في محاولة للتعبير عن المودة :

- وما عساك مسمي البقالية ؟

نظر اليه محمد عيد باستغراب ، وكأنه لم يتوقع هذا السؤال ، تابع الرجل :

- الخويا في السوق ما تركوا لك اي اسم !

رد محمد عيد ضاحكاً :

- لا تخف . . . راح أسمي البقالية : خذ غرضك وامش !

وضحكا معاً . . . وغادر محمد عيد .

حران في هذه الظهيرة ثقيلة مستبدة . الهواء ساكن لكنه خطر ، أما الصمت الذي زحم الابنية والشوارع فقد كان فاضحاً . لم تكن حران في يوم من الايام بهذا القدر من الارتياح وخداع النفس ، ولم تكن عارية وسوداء

وابتسم . بعد لحظات واصل صاحب البناء حديثه مع الرجال ، وتبين انهم يجرون حسابات بخصوص العمل ومواد البناء . تركهم وانزلق الى الدكان ، قاسها من جديد ، كان يفتح ساقيه بخطوات كبيرة على مسافة يعتبرها مساوية للمتر . وقف في اكثر من زاوية وتمعن . خرج من الباب الآخر ، والقى نظرة واسعة . تراجع قليلاً ووقف على الرصيف المقابل . في لحظة بدت له الدكان وقد امتلأت بالفاكهة والخضار . كانت الصناديق ترتاح بشكل مائل ، وتشع منها الفاكهة : تفاح غولدن ، ستاركن ، تفاح بلدي ، تفاح زبداني حلو . . ومز ، والى جانبه انواع من العنب : بزاز العنز ، حلواني ، زيني ، ابيض ، اسود ، أما التين فانه مثل عيون الاطفال ، لا احد يمسه ، لا احد يضع يده عليه . وتصور انواعاً كثيرة من الخضار . لن يستطيع ان يلبي جميع الطلبات وحده ، يجب ان يكون الى جانبه من يساعده . لا يكفي ان يكون عنده ولد صغير ؛ الصغير يمكن ان يناول ، ان يحمل ، أما الميزان ، أما الحساب فيجب ان يراقبه بنفسه ، ولذلك يجب ان يستعين برجل يعرف كيف يتصرف وكيف يساعد . . . « ويجب ان يكون أميناً ! » .

بدا راضياً ، لأول مرة يحس ان الحزن الذي ملأه منذ ان غادر موران يقل ويتراجع . وحين التفت وعبر الرصيف رأى صاحب البناء يقترب منه . سأله بحياد :

- عسى ان المحل عجيبك . . ونويت ؟

- انشاء الله . . وغداً نوقع العقد .

- على خيرة الله .

واضاف بعد قليل :

- اذا ما وراك شي تفضل تقهوى عندنا . . . والبيت قريب !

لم يتردد محمد عيد في القبول . كان يريد ان يخلص من الصلاة ، وبدا له ان الرجل يريد ذلك . قال في محاولة لتأكيد تهديبه :

- أستطيع أن أبقى ساعة ، لأنني مدعو على الغداء .

- بسيطة !

حياتي ابن آدم تقلع عينه . قال آخر : « مساكين لا ذنب لهم » . قال آخر : « لا حول ولا قوة الا بالله .. وكل ابن آدم مسير لا خير » . رد عليه رجل قصير : « إلا ابن آدم له عقل وعنده وجدان » . رد الرجل الأول : « لا حول ولا قوة الا بالله » . قال رجل آخر : « آخر ابن آدم خرقه ، ولا يفيد ذهاب الارض » . قال رجل آخر : « اسكتوا يا جماعة الخير ، خلنا نشوف تالي هالمصيبة » . صرخ طفل في وسط الحلقة : « يوبه .. يا يوبه : العلقمي » . و اشار الى احد رجال الامير . التفت العلقمي غاضباً وضرب عصاه في الهواء فآزت . قال رجل لم يتبين وجهه احد : « ابرياء براءة الذئب من دم يوسف » . صرخ احد رجال الامير : « الكلام ممنوع » . سأل محمد عيد ، بلسان مرتجف ، الرجل الذي بجانبه عن ذنب الرجلين وماذا سيفعل بهما . هز الرجل كتفيه ، انه لا يعرف ، ونظر الى محمد عيد باستغراب .

الشمس تنصب عمودية من السماء وكأنها اسلاك من نار . رجال الامير والشرطة يتحركون حركة عصبية عمياء . الرجلان يلتفتان الى الجموع بعيون مدهولة ، وبنظرات سريعة وكأنهما يبحثان عن احد . ينظران ، احدهما الى الآخر ، نظرة فيها معنى الصبر والتأسي ، لعل شيئاً ما يقع في اللحظة الاخيرة . الشفاه يابسة . والحلوق مليئة بالمرارة والغبار . حركة الجموع ثقيلة آلية ، والصمت يملأ الهواء .

تقدم رجل قصير ممتلي ، تخطى سن الشباب ، يبدو قوياً واثقاً ، بل معادياً ، اسمر او اقرب الى السواد . تقدم بخطوات ثقيلة ، لكنها صلبة . كان بثوبه الابيض ، وحزام الرصاص الذي يطوقه من الكتف حتى اسفل الخصر ، أشبه بالدجاجة السمينة . كان لا ينظر الى شيء او الى احد ، وما عدا هزات يده بالسيف ، فقد كان خائفاً .

أجلس الرجلان على الارض بشكل جديد . اجلسا كما لو انهما يركعان وبنويان السجود . اجلسا بصعوبة اول الأمر ، أما حين شدت ايديهم الى امام ثم ربطت بالأرجل ، فقد كانا في حالة تشبه من يستغفر ربه . قال الرجل المسن :

- الي قالوا لكم يكذبون . . . واولاد حرام .

هكذا . قال محمد عيد لنفسه وهو يحاول ان يسحب نفساً لكي لا يموت : « اللهم قوني واعطني الشجاعة على تحمل المكاره » .

في طريقه الى الساحة احب ان يمر بالقرب من دكانه . تذكر الاسم الذي اطلقه « خذ غرضك .. وامش » . حاول ان يتبسم ، لكنه وجد انه لا يستطيع . كانت في روحه بقايا حيرة ، وكان فمه شديد المرارة .

القي نظرة اخيرة ، لكن استمر حائراً . تطلع الى الارض والسماء فوجدتهما قاسيتين ، وبعضية اتجه مسرعاً الى ساحة السلطان خزعبل ، حيث يطل الجامع الكبير .

فجأة احس بالخطر ، فالجموع التي كانت تخرج من الجامع ، والاعداد الكبيرة من الاطفال والصبية ، وغير بعيد عنهم النساء ، اوحت له بالخطورة ثم بالخوف . ماذا يمكن ان يكون ؟ لماذا لم يعرف من قبل ولماذا لم يسمع ؟

بصعوبة شق طريقه وسط الجموع والصمت ، وبصعوبة ايضاً رأى . رأى اثنين من البدو ينزلان من سيارة جيب ، الاول كبير السن والآخر بين الصبا والشباب . الكبير بعباءة ممزقة ومغبرة . قاسي الملامح ، اقرب الى الخشب الجاف ، عاري الرأس ، حتى ليبدو مثل حيوان صحراوي ضعيف . كان يتلفت بعيون حائرة ، وبدا مدهولاً ، وقد ربطت يده الى خلفه . أما الشاب فكان في ثوب ربما كان ابيض في يوم من الأيام ، لكنه بلي ونصل وتمزق عند الكم والصدر فظهرت يد الشاب عارية ، وظهر صدره مسمراً ضامراً وكأنه قفص لظيور خطرة . انزل الرجلان بخشونة وقسوة ، وكان حولهما عدد من رجال الامير والشرطة .

تجمع الناس في حلقة تشبه السوار . رجال الامير في حالة من الهياج اقرب الى التوحش . الكلام الذي يسمع همهمة غامضة ولا يفهم . لا احد يعرف او يدري ماذا سيكون . الجو يزداد حرارة وخطراً . الرجلان اللذان كانت ايديهما مربوطة الى الخلف تحمل ويجبران على الجلوس . قال رجل من الجمع : « سرقوا .. ولا بد ان تقطع يد السارق » . رد آخر : « ليقولوا اي شيء سرقوا » . قال ثالث : « العين بالعين والسن بالسن » . قال آخر : « لم ار في

موجة ، ارتفع جذع الرجل ، بدا منتصباً قوياً ، وامتدت رقبته اكثر مما كانت ، وفي لحظة ، هي لحظة الجنون والخوف ذاتها ، ومع ارتفاع العنق ، وبطريقة ماهرة خالية من الاتقان هوت ضربة السيف . كانت الرقبة صلبة ، قوية ، فقيرة ، مليئة بالعروق . واذا كان السيف قد حزها فانه لم يقطعها . بدت شاححة ثقيلة قوية ، وبدا الجلاد حانقاً مستثاراً ، وبدون ان ينتظر هوى بالضربة الثانية على الرقبة . . فطار الرأس . تدحرج . ابتعد ثلاثة امتار عن الجسد ، وبتدحرجه انقلب . كانت العينان واللحية نحو السماء ، نحو الآخرين . كانت ترتجف ، تتحرك ، تتحرك ، وكان الجسد يتلوى ، يستطيل ، يتقلص ، يعلو ، يهبط ، يتحرك ، يتلوى مرة اخرى . أما الدماء التي نفرت كينبوع ، كنافورة ، فقد خضبت العباءة وثياب الجلاد ووصلت الى الشاب : صرخ الشاب وهو يحاول القيام ، ولم يعد يحسب اي حساب :

- خزعل والشبلي بمداسي يا اولاد الكلب .

كانت الكلمات تخرج مضطربة مسعورة ، واقرب الى اصوات حيوان ، وبدون ان ينتظر الجلاد ، اخرج من وسطه خرقة لم يرها احد من قبل ، وبطريقة بارعة ، مسح السيف ، مسح بسرعة ، والتفت الى هذه الجهة ، الى الجهة الاخرى ، وقد تطلع الى الوجوه هذه المرة ، وبدا شديد الخوف والاضطراب ، فلما لم يجد احداً يقترب منه ، نحز بنفس الطريقة اسفل الظهر ، فلما انتصب قوام الشاب ، وكان اشبه بانتصاب الراقص في لحظة العنقوان والنشوة ، او مثل فارس يهيم بالانطلاق ، وبدت الرقبة طويلة ضامرة ، وكأنها رقبة طائر ، هوى بسيفه ، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد . تدحرج الرأس بعيداً بعيداً حتى اصبح قريباً من الناس ، وقد لامس ارجل اثنين او ثلاثة . كانت العينان حمراوين قانيتين ، وكان اللسان ممدوداً طويلاً ، فتراجع الكثيرون وذعروا . أما الجسد الذي كان ينوي ان ينهض فقد نهض الى قامته رجل قصير ، أو الى قامته طفل . . ثم هوى مرة اخرى وبدأ يرتعش .

الصمت . . . الصمت . . . الصمت . . ثم الغضب .

دفع رجال الامير الناس . جمعوا بقايا الرجلين ، وخلال دقائق قليلة انتهى المشهد . لأول مرة ، في حياته ، شعر محمد عبيد بالغضب ، وشعر

لم يجبه احد . تابع :

- خلوني اشوف الامير يا جماعة .

لم يجبه احد ، تابع بغضب :

- ودمي وخطيتي بربتكم اليوم وكل يوم . . والى يوم القيامة .

قال الشاب بنزق :

- اذا كان اميركم فيه خير ، واذا كان سلطانكم فيه خير خله يعرف اللي سواها .

قال الرجل المسن :

- حنا مظلومين ، اولاد الحرام ظلمونا ، ودمنا براقاب القريب والبعيد .

قال الشاب :

- والله الألعن ابو الأميركان واللي حط اول حجر بحران .

قال الرجل المسن بغضب حزين :

- لا تخف يا حمد ، دمنا ما يضيع ، والدية راس الكبير ، دمنا براقاب اللي يشوفون واللي يسمعون . . وتشوف .

وبطريقة فيها من المكر اكثر مما فيها من البراعة غمز رئيس المفرزة الجلاد ، وطلب من رجال الامير ، بحركات يده اكثر من الكلمات ، ان يبتعدوا ، وان يبتهوا ، والجلاد ، الذي كان ينتظر الاشارة ، تحرك .

في ظل الصمت الذي رافق الاشارات ، وتلك الحركات المضطربة ، وفي لحظة انزلت السماء بلهيبها وغضبها على الارض فخيم سكون ثقيل لزوج ، حتى النفس الخافت المكتوم يمكن ان تلتقطه الاذن او تسمعه العين ، في لحظة الجنون والخوف هذه ، تقدم الجلاد . نظر بسرعة خارقة الى الجهتين ، لكنه لم ير احداً او شيئاً ، وفي تلك اللحظة ، لا قبلها ولا بعدها ، اصبح وراء الرجلين . هز سيفه كما يهز عصا . تقدم خطوة بقدمه اليسرى . اصبح فوق الرجل المسن . نحزه بسيفه في مؤخرة الظهر عند العجز . كانت النخزة قوية

الرؤية والرغبة والفكر مختلطة الى درجة ان اي شيء يشبه اي شيء آخر . قال محمد عيد بطريقة فجأة :

- حارة !

رد السائق بنفس الفجاجة :

- اي نعم حارة .

- انت من حران ؟

- لا .

- من اين ؟

- من ارض الله الواسعة !

- صحيح من اين ؟

- احزر .

- الشكل يقول انك من السلطنة .. أما اللهجة ..

- لو كنت من السلطنة لكان واحد غيري يسوق بك هالحين ..

وبعد قليل وبحزن :

- لو كنت من السلطنة لخرّبت الدنيا .

وبعد فترة صمت سأله السائق من جديد :

- كنت بحران اليوم الظهر ؟

- اي نعم .

- وشفنت اللي صار ؟

- اي نعم .

- ولا اي ابن كلب قال كلمة ، ولا اي ابن كلب رفع رجل عن رجل ،

والمساكين راحوا بكيسهم . الله يرحم المساكين .

بالخوف والخزي ايضاً .

قال رئيس المفزة وهو يرتجف ويسرع بركوب السيارة :

- وابن هذال يجي دوره .

ومن الكلمات القليلة عرف الناس ان الرجلين اللذين قبض عليهما في اليوم الفائت ، ابلغ عنهما احد الرعاة ، وقال انها كانا مسؤولين ، مع آخرين ، عن نسف خط الانابيب ؛ وخلال ساعات قليلة قرر ابن الشبلي ان الرجلين يجب ان يقتلا ، اعترفا او لم يعترفا ، لان ابن هذال نفسه سوف يخاف ، وان رجاله سيخافون ، ومن اجل الامة والرعية ، كما قال واكد ، وكما طلب منه السلطان خزعل ، لا فرق بين مذنب او من يريد ان يكون مذنباً !

عند العصر كانت سيارة هودسن خضراء تقطع الطريق بين حران وعجرة . استأجر محمد عيد السيارة بمفرده . ورغم ان ابن السيف استغرب هذا السفر ، فقد استغرب اكثر ان محمد عيد لا يوافق على الانتظار او التأجيل لليوم التالي ، ولذلك كان متأكداً ان وراءه صفقة كبيرة . قال له وهو يودعه :

- الحكيم اخونا . سلم عليه وقل له : الجماعة بحران يذكرونه بالخير .

هز محمد رأسه ولم يقل كلمة واحدة . كانت عيناه تجيبان او تحاولان الاجابة . أما قلبه فكان يمتلئ بمرارة لا حدود لها ، وكان يشعر انه مريض وعلى وشك الموت . حين تجاوزت السيارة المطالع ، وبدأ الطريق الصحراوي ، رأى المقبرة بسورها الرمادي المغبر ، ورأى رجالاً يستظلون بالسور . حاول ان يلتفت لينظر الى حران للمرة الأخيرة ، لكنه لم يستطع . نظر بسرعة ، وبطرف وجهه الى السائق ، رآه ساهماً اقرب الى الحزن . اراد ان يتكلم ، ان يسمع صوتاً غير الريح ، لكن لم يجد في نفسه القوة ، ولم يجد الرغبة . قال في نفسه :

« نهاية حران وراء هذا السور ، والعاقل من يفلت » .

في السهل المنبسط غير النهائي كانت السيارة تسابق الريح والرمال ، وكان الهواء الساخن يلفح الوجوه ليصل الى اصابع الاقدام ، ثم يندفع مرة اخرى لينثر ذرات الغبار التي تشكل حاجزاً بين الاشياء كلها ، وهذا الحاجز يجعل

وبعد ان زفر اضاف :

- لو كان بحران رجال ، لو هذا اللي صار صار بمكان ثاني لانقلبت الدنيا ، لكن الناس مثل الغنم ، يركضون ويصرخون وآخرتها يجي كم ابن حرام ويعفون الاول والتالي .

وعاد الصمت . الرمال والغبار واشعة الشمس . قال السائق ليقطع الصمت :

- تروح عجرة او ابعد منها ؟

- ابعد .

- وين . . انشاء الله ؟

- لا اعرف !

التفت اليه باستغراب ، تطلع اليه ثم هز رأسه وقلب شفتيه ، وعاد ليسأل من جديد :

- وليش ما تعرف ؟

- لان الارض كلها بعد اليوم خرا . . ومثل بعضها .

- تراك انت مثلي !

- كلنا مثل بعض يا ابن العم . . واذا كانت اليوم حران عقبة كلها راح

تصير مثل حران . . . الا . . .

وداس السائق اكثر على دواسة البنزين . . وخيم الصمت !

قبل ان تنقضي السنة الثالثة على وجود حماد في القصر حصلت تطورات كثيرة : من رئاسة جهاز الامن والسلامة وكالة الى رئيس فعلي ؛ ومن جناح في القصر الى بناء مستقل ؛ ومن الاقامة في موران الى التجول في العالم والاتصال بالمؤسسات المماثلة والصديقة .

فبعد زواج السلطان من عنود بنت راشد المطوع بستين وثلاثة شهور جاء منها غلام ، واثر ذلك مباشرة سُمي حماد رئيساً للجهاز ، وقد ابلغه الحكيم بالأمر قبل صدور الارادة السلطانية . قال له في لحظة تحيرها جيداً :

- بينك وبين السلطان ، يا حماد ، عشق ، يحبك مثل ابنه . .

وضحك ثم اضاف :

- ولا بد أن حظك من الساء . . أو أنك ساحره .

ولما ظل حماد صامتاً لا يعرف كيف يجب تابع الحكيم :

- يا سيدي الف مبروك . . . من اليوم انت رئيس جهاز الأمن والسلامة ، اصالة لا وكالة ، وهذه ارادة السلطان ، ولا بد ان تبيض الوجه وتكون احسن من الأول .

ولم ينقض شهر على هذه التسمية حتى احتل حماد مبنى دار الامارة ، بعد ان تم تجديده واعداه ، لان دار الامارة انتقلت الى مبناها الجديد . وقد تم هذا الاجراء نتيجة توسع الجهاز ، والتحاق عدد من « الخبراء » ، جاءوا

الاجتماع الدوري ، فقد قال الحكيم بلهجة مرحة :

- غرفة حماد هي المصفاة ، لان كل المعلومات تصب فيها ، وفيها يتم تقدير الموقف ، ولذلك يمكن ان نسميها من الآن فصاعداً « غرفة تقدير الموقف » او ...

والتمعت عيناه فجأة ، وتابع :

- لا . . الاحسن : غرفة العمليات . نعم احسن تسمية : غرفة العمليات ، كما يطلق على الغرف الهامة في الجيوش او في المستشفيات !
وضحك الثلاثة بمرح ووافقوا على هذه التسمية .

وقبل نهاية العام الثالث ايضاً اشترى الحكيم قسماً كبيراً من ارض الحصية . وكان حماد ، كما في المرة الاولى ، وسيطاً جيداً لاقتناع عمه شداد ، الذي بدا مستغرباً ان يشتري عاقل او يفكر بشراء مثل تلك الارض ، قال لحماد بلهجة بين المزاح والجد :

- يا ول ، يا حماد ، الحصية حفرة نفرة وظيفي ان ما احد يشتريها الا اذا بيها ذهب ، فاذا كان الذهب موجود خله لآل المطوع ، لعمك شداد ، احسن ما يجي واحد غريب ويأخذها ويأخذه .

- لو كان بيها ذهب ، يا عم ، ما سموها حصية !

- وهذا . . . مشاور السلطان ليش بيها ؟

- يريد يبني فيها مستشفى .

- حتى يداوي أباعر ابن دهيش او حصينيات المعافير ؟

وضحك بصخب لأنه لا يوجد من يفكر ببناء مستشفى في ذلك المكان النائي ، وعاد إلى لهجته الأولى بين الجد والمزاح :

- يا ول ، يا حماد . . بيع ابيع ، للمشاور او لغيره ، اذا كان هناك من يشتري ، بس علّمني العلوم الزينة ، العلوم الصحيحة ، خويك عاقل او مجنون ؟

ولم ينتظر جواب حماد ، ضحك وقال كأنه يحدث نفسه :

خصيصاً من الولايات المتحدة والمانيا ، وقيل انهم لن يبقوا الا فترات محدودة ، عدا خمسة تم التعاقد معهم لمدة ثلاث سنوات . ومما عجّل في اتخاذ هذا الاجراء ايضاً وصول معدات خاصة بجهاز الامن والسلامة ، وكانت هذه المعدات الكبيرة تتطلب امكنة فسيحة ، وقيل ان المهندسين اقترحوا ان تكون بعيدة عن القصر ، لثلا « تشوش » على الاجهزة الخاصة الموجودة فيه .

رغم هذا الاجراء بقيت غرفة حماد في القصر بناء لرغبة الحكيم ، وقد عبر عن هذه الرغبة مازحاً :

- اولاً ما لنا قلب ان نتركك ، تعودنا عليك ، واذا مر يوم ما شفتناك يحس الواحد منا ان شيئاً ينقصه ، واقدر ان شعورك نحونا نفس الشعور .

وضحك ثم تابع :

- وثانياً : هذه الغرفة لها بركة ، لانها كانت الاساس والخميرة ، وانا شخصياً اشعر لوجودها بنوع من الامان ، واخيراً ، يا سيدي ، اضمن واستر لك وللعمل ان تكون في القصر .

وحامد الذي اعتبر الفكرة صائبة ، ولا بد ان يكون الحكيم قد فكر بها من قبل وليست وليدة اللحظة ، فقد قرر ، بينه وبين نفسه ، ان لا يتخلى عن الصفة السرية التي احتمى بها خلال الفترة الماضية . اكثر من ذلك بدت هذه الصفة تغريه ، أما لو انتقل كلياً وبصورة علنية فلا بد ان يواجه مصاعب او احراجات من نوع او آخر .

قال للحكيم وقد عبرت هذه الافكار رأسه :

- اللي تقوله يا ابو غزوان هو الصحيح ، ولولا المكايين والبلايا اللي جات والا هذا المكان ما مثله مكان .

أما مطيع الذي توثقت علاقته بحامد الى اقصى حد ، واصبح لا يفترقان الا نادراً ، وكان يسمع الحوار الذي يجري بين الاثنين . فقد تدخل :

- الغرفة في القصر اكثر من ضرورية : للاتصال ، لحفظ الاوراق الهامة ، للاجتماعات الطارئة . . .

ولأنه لم يكن هناك أي خلاف حول استمرار علاقة حماد بالقصر ، بما في ذلك

سترافته في الرحلة ، بعد ان استشار الحكيم ، كما تم اختيار عنصر رابع للترجمة ، لكن لم « يوافق » على ارساله قبل ان ينضم للجهاز .

وقبل سفره ببضعة ايام وفي بأول وعوده لعبد العزيز الغامدي (وشريكه سعيد الاسطه ، دون ان يذكر اسمه) فتعهدات القصر التي حارت بين عثمان الاصقى ، الذي كان خادماً عند السلطان خريط ، وبين الاسطه عبد المجيد الذي كان كبير طباطخي القصر ، هذه التعهدات التي ارتبكت واثارت من الاستياء أكثر مما اثارته من الشبهات ، تحولت بين يوم وليلة الى عبد العزيز الغامدي ، « لانه وحده الذي قدم تعهداً وكفياً بان تكون المواد التي سيقوم بتقديمها الى القصر جيدة وحسب المواصفات » .

هذه الهدية التي انتظرها سعيد بكثير من القلق واللهفة ، ولانها تأخرت اكثر مما قدر ، فقد اعتبر « ان حماد مثله مثل الآخرين ، لما وضع رجله بالقصر نسي اصحابه » أما عندما جاءه عبد العزيز حاملاً العقد موقعاً فقد ضحك بتهقه عالية وقال :

- اول الغيت .

وبعد ان هدأ وقرأ العقد علّق :

- ظلمنا الرجل ، تصورته انه نسينا ، لكن اشهد بالله انه وفيّ .

رد عبد العزيز بفرح :

- الخير بالجائيات يا ابو شكيب .

- الله كريم يا ابو الحميدي !

شداد المطوع الذي علم بسفر حماد قبل ثلاثة ايام من هذا السفر ، قال كلمة ظل الكثيرون يتذكرونها ، حتى بعد فترة طويلة ، قال :

- من الاجنبي والغريب ما يجي خير ابدأ . وما دام ابن اخوي متحزم بذلك اللي ما يفرق بين الفرس والحصان ، ما ظني انه يفلح !

أما ابوه فقد حزن حزناً شديداً ، والكلمة الوحيدة التي ظل يرددتها دون تعب : « انا لله وانا اليه راجعون ، انا لله وانا اليه راجعون » .

- واذا كانت كل سوائفه مثل هذه السالفه ، واذا كان كل ما يشاور به السلطان مثل هذا الشور حنا بالف خير وحالنا باحسن حال ، والله يلعن ابو اللي ما يصدق !

وانتهى النقاش بان وافق شداد على بيع قسم من الارض ، لكن لم يبعها كلها « لاني اريد ابخر بهذا المجنون واللي يسويه اسويه ، اذا خسر اخسر معه ، واذا ربح يقولون ، ولو بعد الف سنة ، ان شداد ما اخذت عقله الخيل ، ويعرف متى يبيع ومتى يشري !»

وفي اطار هذه الفكرة ، وقبل ان تتم الموافقة النهائية على بيع الارض ، اشترط شداد « ان الارض تباع وفوقها حصان » وهكذا اشترى الحكيم . . حصاناً اهداه الى السلطان بمناسبة الذكرى الثالثة بعيد الجلوس على العرش .

وبعد ان اصبح حماد رئيساً للجهاز بشهور تقرر ان يسافر الى الولايات المتحدة ، لدورة تدريب مدتها ثلاثة شهور ، وان يصطحب معه ثلاثة عناصر للغاية ذاتها .

وفكرة السفر ، الى هذا المكان البعيد ، اقلقت حماد اكثر مما افرحته . يمكن أن يسافر إلى مصر ، ويمكن أن يسافر إلى سورية أو العراق ، أما أن يركب الطائرة ويعبر البحار ، ويواجه بشراً لم يره من قبل ولا يفهم لغتهم ، ثم ان يتحول ، مرة اخرى ، الى طالب ، وان يتلقى دروساً ، هو الذي لم يستطع ان يبقى ويواصل دراسته ، هذه الفكرة جعلته عصبياً وجعلت نومه قلقاً مليئاً بالاحلام المفزعة ، وكاد اكثر من مرة ان يطلب من الحكيم اعفاءه من هذا السفر . يمكن ان يختار العناصر التي ستسافر ، وقد يسافر في دورة لاحقة ، أما الآن ، وبحجة ضرورة وجوده على رأس الجهاز ، فانه يفضل ان يصرف النظر عن السفر ، لكن في الاجتماع الدوري التالي لابلاغه بالدورة ، فقد ذكر الحكيم للسلطان ان السفارة تلح على ضرورة الاسراع بايفاد رئيس جهاز الامن والسلامة « للاهمية » ، ولم يوضح الحكيم هذه الاهمية او ماذا تعني ، ولم يستطع حماد ان يعترض او ان يتذرع باية حجة .

ولمحاربة هواجسه ، وحتى الخوف الذي احس به ، بالغ في الاستعجال والاستعداد معاً ، لكي لا يترك لنفسه خياراً ، واختار العناصر الثلاثة التي

التي يبدأ بها اليوم ، قبل ان يتوجه اى واحد منهم الى مكتبه ، وتتخللها احاديث عامة ونكت ، اضافة الى الحديث عن احلام الليلة السابقة ، واسعار الاراضي والاصدقاء الذين غابوا منذ فترة ، ثم ما جدّ في موران خلال الأيام الأخيرة ، اذ لم يجيء لقهوة الصباح ، فلا بد ان يأتي في وقت لاحق . واذا كان الحكيم قد راهن نفسه مرات كثيرة « ان لا بد ان يأتي في الصباح ، وقبل صلاة الظهر» ، فقد حصل عدة مرات وجاء بعد هذا الوقت ، بعده بقليل .

هكذا كانت العلاقة ، ولانها اخذت هذا النمط الصلب الذي بدا للحكيم انه غير قابل للتغير ، الا ان الامور بدأت تقلقه في المرحلة الجديدة ، بعد الانتقال . اصبح حماد يقضي وقتاً في مقره الجديد ، ثم لم تعد له مواعيد ثابتة للقهوة او للزيارة . صحيح انه يأتي ، وبعض الامسيات يقضي وقتاً طويلاً في القصر ، لكن اصبح يجيئه او انتظار مجيئه هاجساً يقلق الحكيم .

ومع ذلك ، ومثل اى شيء في هذه الحياة ، بدأ الحكيم يعود نفسه ثم ما لبث ان تعود ، واصبح يستعيز في حالات كثيرة عن اللقاء المباشر بالهاتف . كانا يتحدثان طويلاً ، وبعض الاحيان عدة مرات في اليوم . والاحاديث الهاتفية التي اخذت نمطاً لا يتغير ، اذ تبدأ بكثير من الرصانة ، وتتناول صلب مواضيع العمل ، فانها لا تلبث ان تميل شيئاً فشيئاً الى احاديث اخرى ، تماماً كما كان يحصل أثناء اللقاءات حول فنجان القهوة . وهكذا وجد الحكيم نفسه يخوض ، عبر الهاتف ، في اسعار الاراضي ومواد البناء . ولا يتردد ، بعض الاحيان ، في سؤال حماد عن ابن فلان الذي تزوج ابنة فلان ، وهل يعني هذا اجتماع ثروتين او تحالف عصبتين وماذا سيرتب على ذلك ، مالياً . . . ويضيف وهو يضحك : وسياسياً !

وحماد الذي وجد في هذه الطريقة من الاتصال راحة ، واعتبرها تخفيفاً من اعباء كان يفترض ان يؤديها كل يوم ، لم يتأخر في ان يلجأ الى الهاتف ليعفي نفسه من هذا الواجب ، ومما ساعد على ذلك ان السلطان نفسه طلب مرات عديدة ، خلال الشهور الأخيرة ، إغناء الاجتماع الاسبوعي المخصص للجهاز ولتقدير الموقف ، ورغم ان الحكيم اصرّ على ان يعقد الاجتماع ، كما لو ان السلطان موجود ، وتبادل مع حماد ومطيع المعلومات ، ثم قام بتقدير

انتقال حماد من القصر ولّد فراغاً لدى الحكيم يشبه الفراغ الذي يتولد من زواج الابنة ومغادرتها لبيت ابيها . ورغم ان غرفة حماد بقيت ، واطلقت عليها اسماء عديدة ، وكانت هذه الاسماء او التسميات بين الجد والهزل ، ومجالاً للمزاح ، الا ان حماد بقي في القصر خلال الاسبوع الاولى اللاحقة لانتقال الجهاز ، ثم اخذ يمر ، بعد ذلك ، كل يوم ، لكي « يشرب القهوة مع الحكيم ومطيع» . ومع ذلك فان الشعور بالفراق ، او على الاقل البعد ، بدا كبيراً وفادحاً . فالحكيم تعود ان يستدعي مطيع او حماد مرات عديدة كل يوم ، لسبب او لآخر ، بحجة القهوة الجاهزة ، او للسؤال عن بيت من الشعر ، او للتأكد من واقعة تاريخية ، وبعض الاحيان للسؤال عن اسم مكان او شخص معين . وفي احيان اخرى لا يتردد في ان يمر على اى منها ، بحجة انه تعب ويريد ان يستريح ، او لاي سبب آخر . وفي تلك الجلسات التي تطول ويتشعب فيها الحديث ويتناول كل شيء ، كان الحكيم يعتبرها رياضة عقلية ، بالاضافة الى اهميتها ، لانه عرفته على موران اكثر مما تعرف عليها من خلال الكتب .

هذه العلاقة بدأت تأخذ منحى جديداً بانتقال حماد . صحيح ان الحكيم تصور ان غيابه مجرد اجازة او ما يشبه الاجازة ، لان الرجل لا يستطيع ان يغيب . هكذا قال لنفسه واطاف وهو يضحك : « حماد مثل الشرطي . . . اذا اخذ اجازة يجلس على باب المخفر» . ومما اكّد هذه القناعة ان حماد لم يغيب عن القصر . ويبدو انه لا يستطيع الغياب ، فاذا لم يأت لقهوة الصباح ، وهي

توقف ، هز رأسه عدة مرات ، عبّ الهواء بصوت مسموع ، ثم
اضاف :

- ومهمتنا نحن ان نبني دولة جديدة ، ان نخلق تقاليد وان نكون القدوة !
فاذا خلا مطيع بحماد فلا يتردد في ان يقول كلمة سريعة ظاهرها البراءة :
- يا اخي ، بعض الاحيان ، الحكيم يزيدها ، حنبلي اكثر من اللازم ،
ولا تعرف مزحه من جده .

وحامد الذي يسمع ، يراقب ، يتعرف ، ويحاول اخيراً ان يكتشف وان
يربط الاحداث بعضها ببعض لكي يستنتج وليكون له ، في النهاية ، موقفه .

أما بعد أن سافر الى الولايات المتحدة، وغاب تلك الغيبة الطويلة ، ثم بدأ
يرسل الرسائل له ولطميع ، وقد قرأها الحكيم جميعها ، فقد تأكد أن رأيه كان
مصيباً ، وأن زيارة من هذا النوع كانت ضرورية للغاية .

ارسل حماد للحكيم ثلاث رسائل ، ولطميع اربعاً ، وهذه الرسائل يختلف
بعضها عن بعض وتختلف حسب المرسل اليه .

بعث الى الحكيم اولى رسائله بعد سفره بعشرة أيام :

أتلاتناستي - ٢٤ نيسان الموافق ٧ صفر .

العم الكريم الدكتور صبحي المحملجي المحترم ، ادامه الله واعزه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد .

فترجو الله سبحانه وتعالى ان تكونوا في اتم صحة واهداً بال ، وان يمن
عليكم بموفور الصحة والسلامة . فاذا سألتم عنا فنحن والله الحمد في احسن
حال ولا ينقصنا الا رؤية وجوهكم الكريمة ، وعسى ان يحقق الله آمينتنا في وقت
قريب . الاخوان بطرفنا يبعثون اليكم بتحياتهم الكثيرة المشاقة ويسألون عن
كل واحد بطرفكم ، وهم ، والله الحمد ، جميعاً بتمام الصحة والعافية .

الجماعة ، هنا ، اولونا اهتمامهم الكبير منذ ساعة وصولنا ، وقد كلفوا
جماعة بمرافقتنا ، وامنوا كل ما يلزم لراحتنا ، من حيث الأكل والمنامة

الموقف ، فقد كان يعتبر « ان عادات مثل هذه تخلق التقاليد وان التقاليد هي
التي تقيم الدولة في النهاية ، وهي التي ترسخها » لا يكتفي بذلك ، كان
خلال هذا الاجتماع يبدو انساناً مختلفاً تماماً ، اذ اضافة الى الاوراق التي
يحملها ، كان يدون الملاحظات عندما يتكلم اي من الاثنين الآخرين ، ويأخذ
وجهه سمات جدية قاسية ، الأمر الذي لا يفعله في اية لقاءات اخرى .
وبعض الاحيان ، وخاصة في غياب السلطان ، لا يتردد في استدعاء بعض
الموظفين الكبار لسؤالهم عن بعض الامور او لآخذ رأيهم في القضايا
المطروحة . « كل حسب اختصاصه ، او حسب مسؤولياته » كما يحاول ان
يؤكد .

هذه الطريقة في العمل والتعامل لم تكن تثير اية ملاحظة في بداية الأمر ،
لكن عندما توثقت العلاقات كثيراً بين حماد ومطيع ، واصبحت القضايا التي لا
يخوضان فيها قليلة جداً ، وتراجع يوماً بعد يوم ، قال مطيع في نهاية
احد الاجتماعات الاسبوعية المخصصة لتقدير الموقف ، وبدا كلامه موارباً
اقرب الى المزاح :

- من ينظر اليك ، يا ابو غزوان ، يظن ان صاحب الجلالة موجود بيننا !

ولما التفت اليه الحكيم مستغرباً ، تابع مطيع ضاحكاً :

- الله يخليك يا حكيم . . القضية ما تتحمل كل هذا الجدا!

وضحك ثم اضاف :

- وانت نفسك بعد كم دقيقة تسأل عن زواج فلان وطلاق فلان !

ابتسم الحكيم ابتسامة مرحة وخرج صوته من صدره :

- يا ابني يا مطيع : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك
تموت غداً ، وانا منذ ايام الشباب ، ايام الدراسة ، ثم بعد ذلك ، كنت
اعطي لكل شيء حقه . وهذا الدرس تعلمته منذ وقت طويل ، تعلمته من
الالمان ، هم كانوا نموذجي . كانوا يشتغلون مثل الحمير ، ويأكلون مثل
الوحوش ، ويمرحون كالاطفال ، أما الشعوب الاخرى فانها تخلط الجد
بالهزل .

لكن كما يقولون ، الصديق عند الضيق ، فتصور ان اطباء والمرضات يرون علي مرآت كثيرة كل يوم ، وبمازحوني ويسألون وكأنهم يعرفوني منذ وقت طويل .

ما عدا ذلك احوالنا ، والله الحمد ، جيدة والاخوان جميعاً بخير ويهدونكم تحياتهم القلبية المشتاقة . ودم لاختيك المخلص المشتاق .

حماد المطوع

الرسالة الثانية للحكيم لا تختلف كثيراً عن الاولى ، عدا ان زيارات نظمت للمجموعة الى هيوستن وتكساس ثم إلى سان فرانسيسكو، وهذه الزيارات كانت هامة جداً ، هكذا يصفها حماد ، ويضيف « ان الجماعة في سان فرانسيسكو سألوا عنك باهتمام وباحترام كبير ، وقالوا انهم سمعوا بك ، ويتمنون ان تزورهم » .

أما الرسالة الثالثة والأخيرة للحكيم فكانت قبل مغادرة حماد للولايات المتحدة بخمسة عشر يوماً ، وقد كتبها من واشنطن . وتضمنت تحيات حارة للسلطان وللحكيم ، وجاء في احدى الفقرات منها : « اغلب الاجتماعات كانت مع اشخاص يتكلمون العربية ، ويعرفون تاريخ سلطنة موران ويكون احتراماً كبيراً لصاحب الجلالة السلطان . وقد سألوا عن التفاصيل المتعلقة بجلالته ، من حيث العمر وعدد الاولاد والاخوة وغير ذلك . وقد اجبتهم عن جميع اسئلتهم بمنتهى الصراحة ، فسروا واعجبهم كثيراً صراحتنا . وكذلك سألوا عن اصحاب السمو الامراء - ويعرفون اكثرهم بالاسم - واكدوا لنا ان دعوات ستوجه لهم من اجل زيارة الديار الاميركية . أما الاجهزة التي ارسلت إلى السلطنة فقد شاهدنا اجهزة شبيهة بها ، ولكن معقدة أكثر ، واجرى الاخوان الذين رافقوني دورة على هذه الاجهزة واستفادوا كثيراً وحال عودتي سأنقل لكم التفاصيل » .

الرسالة الثانية لمطيع من اتلاتناستي وبتاريخ ١٤ مايس

بعد التحيات والاشواق يكتب اليه ما يلي :

« لم اذكر لك عن الخوف الذي لازمني خلال اقامتي في المستشفى ، ليس

والمترجمين ، وعملوا لنا برامج لزيارة الديار الاميركية ، وانشاء الله بحال عودتنا نخبركم بالتفصيل .

فكرت ، ايها العم الكريم ، ان ابعث برسالة شكر لصاحب الجلالة السلطان ، وقد كتبت الرسالة فعلاً لكن خجلت من ارسالها ، ولذلك اعتمد عليكم في ان تقدموا شكري وعرفاني ، على ان اقوم بواجب الشكر فور عودتي لارض الوطن العزيز .

وفي الختام تقبلوا فائق اخلاصي وتقديري لشخصكم الكريم ولكل الاخوان معكم ، خاصة الاستاذ مطيع .

المخلص

خادمكم

حماد المطوع

أما رسالة مطيع فقد جاءت بعد رسالة الحكيم بثلاثة ايام ، وكانت كما يلي :

عزيزنا واخونا الاستاذ مطيع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد

فنرجو الله العلي القدير ان يجعلكم في اتم الصحة واحسن حال ، وان يجعل لقاءنا قريباً ، انه سميع مجيب .

اكتب اليك هذه الرسالة من المستشفى ، لاني دخلته بعد وصولي باربعة ايام ، والاطباء اكدوا لي ان المرض بسيط ، فقط احتاج الى الراحة وبعض الادوية ، ويبدو ان هواء هذه البلاد اثر علي ، اضافة الى مرض قالوا انه وراثي ، وقد اجرروا لي فحوصاً كاملة من قبيل زيادة الاعتناء والاهتمام . واذا سارت الامور بسلا م اخرج من المستشفى بعد يومين او ثلاثة ايام .

اكتب اليك بهذا الامر ، والذي لم اخبر به الحكيم او العائلة ، لكي اطمئنك ، اذ يجوز ان تسمع الخبر من غيري فتقلق ، أما اذا سألت عن عناية الجماعة بنا واهتمامهم باحوالنا فانك تتعجب من هذه العناية وهذا الاهتمام .

احداً ينام ، حتى في ساعات الصباح الاولى ترى الرجال والنساء في المقاهي ، في المطاعم ، في الشوارع ، في كل مكان . سألت المرافقين : متى ينام هؤلاء الناس ؟ فضحكوا ولم يجيبوا عن سؤالي .

اتصور ان كاليفورنيا من اغنى واجمل بقاع الارض ، وهذا ما اكده لنا بعض الطلبة العرب . (وبالمناسبة فقد التقيت بغزوان وقضينا معاً وقتاً ممتعاً . وبدأ لي انه جيد بدراسته ومعلوماته ، وقد اتفقنا ان نبقي على صلة في المستقبل ، وحال عودتي سأخبرك بالتفاصيل ، ولم انس ان ابلغه تحيات الجميع) .

كل شيء اخضر في هذه البلاد : الغابات ، الحقول ، الشوارع ، خضرة لا يصدقها الانسان الا اذا رآها .

وفي هذه المنطقة مجموعة من المصايف والبحيرات ، وقد سألت كبير المرافقين ما اذا بالامكان ان يأتي الانسان مع عائلته او مجموعة من الاصدقاء لقضاء فترة شهر او شهرين ، فأكد لي ان ذلك ممكن جداً ، فقط يجب ان اخبرهم قبل مجيئي بمدة كافية ، لكي يهيئوا لي ما يلزم . افكر ان ارجع الى هذه الديار اكثر من مرة ، وان امشي والتجول دون رقيب ودون حسيب ، وانت تعرف ماذا اقصد !

وحالما نلتقي سوف احدثك الكثير الكثير عن هذه المدينة ، عن ليلها ونهارها ويمكن ان ترتب لنا زيارات الى هنا في المستقبل .

أما الرسالة الأخيرة التي بعث بها حماد الى مطيع فكانت من واشنطن وبتاريخ ٩ تموز .

« لا بد ان تزور أميركا ، هذا رأيي ورأي الاخوان الذين يرافقوني ، خاصة بعد الاحتفالات التي شاهدها في الأيام الأخيرة ، وفي العاصمة الأميركية . لا يتصور الانسان ولا يتخيل العقل ان احتفالات مثل هذه يمكن ان يشاهدها في مكان آخر او في زمان آخر : الخيول والطبول وحملة المشاعل ، الرجال والنساء ، الاطفال الصغار والشيوخ الكبار ، في الشوارع ، في الساحات ، في كل مكان . جماعتنا ، يا اخ مطيع ، انهلوا ، بس فاتحين

من المرض او حتى الموت ، وانما الخوف من الموت في ديار غريبة ، وزيادة في الاحتياط طلبت ، وعلى شكل امر ، من الاخوان الذين رافقوني في الزيارة ، ان تنقل جثتي اذا مت الى ارض الوطن ، وعندما ضحكوا وقالوا ان القضية لم تصل الى هذا الحد ، اضطرت في احدى الليالي الى كتابة وصيتي ، وذكرت فيها هذا الامر بالذات !

الآن وقد تعافيت ، واصبح هذا المرض مجرد ذكرى ، وبدأت التجول مع الجماعة والمرافقين في مدينة اتلانتا ستي ، ثم في المناطق المجاورة ، ورأيت المدينة الكبيرة بانبثقتها الهائلة والطرق والحدائق والسيارات فقد شعرت بخوف من نوع آخر ، او شعرت اننا صغار مثل النمل مقابل العظمة الأميركية والقوة الأميركية .

كل شيء هنا منظم الى اقصى حد ، وكل شيء يمشي على الساعة : القطارات ، الطائرات ، النوم ، اليقظة ، العمل ، وحتى الراحة والنزهة . وقد صدف عدة مرات ان حُددت لنا مواعيد لاجتماعات وبعض الأحيان في امكنة بعيدة ، لكن مع ذلك كنا نصل في الوقت المحدد ودائماً دون تأخير .

الاميركان يحبوننا كثيراً ، وقد لمسنا ذلك في لقاءاتنا جميعها ، أما الاحتفاء والاهتمام والعناية فحدث ولا حرج ، ولولا البرودة في الجو لتمنى الانسان لو يعيش هنا ، او على الاقل لو يقضي وقتاً طويلاً . أما الاشياء الاخرى ، والتي لا يمكن ان تكتب ، فسوف احدثك عنها حال عودتي ! .

الرسالة الثالثة من سان فرانسيسكو وبتاريخ ١٨ حزيران . وجاء في بعض فقراتها : « لولا الشوق اليكم والى الاهل والوطن لقال الانسان هذا مكاني ، صحيح انه يحتاج الى الوقت لكي يتعود ، لكن في هذه المدينة العملاقة ، والمتنوعة الاصول والاعراق ، مع اتقان اللغة الانكليزية ، يمكن للانسان ان يعيش لفترة غير قصيرة ، في المدينة وحواليها . انها تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين . البناءات التي لا يستطيع الانسان ان يرى نهاياتها ، والشوارع التي لا يمكن لغربب ان يسير فيها دون خوف ، والجسور المعلقة والبحر الهائج . واجمل شيء في سان فرانسيسكو هو ليلها . المدينة لا تنام ولا تدع

حلوقهم وينظرون . حتى المرافقون الذين كانوا معنا بدوا بشكل مختلف عن الأيام السابقة ، انهم يرقصون مع الراقصين ، يضحكون ويهزجون ، ولولا الخجل ، ولولا اننا وقد رسمي رفيع المستوى لكان من الممكن أن نشترك .

اميركا ، يا اخ مطيع عظمة لا توازيها اية عظمة اخرى . ومثلها ذكرت في رسائلي السابقة : الابنية ، الشوارع ، المطارات ، حتى المطاعم والفنادق ، وحتى البشر، والآن، ولم يبق على اقامتنا الا ايام قليلة، اشعر ان هذه الزيارة كانت ضرورية بالنسبة لي ، لانها كانت مفيدة ، وهامة ، ولا بد ان اكررها مرات ومرات، وأرجو من الله أن يمكننا من زيارتها معاً، وأتمنى أن ألقاك قريباً وسوف نتحدث طويلاً» .

رافقت عودة حماد موجة كبيرة من الاحتفالات والاهتمام والحركة ، وقد تخللتها الاحاديث والاسئلة ، وابدى الجميع رغبة في ان يسمعوا منه مباشرة ، وان يعرفوا كل شيء عن « هذه الاميركا » . وحماد بانفعاله واجاباته كان يكرر الاجابات ذاتها مرات ومرات ، لان الاسئلة التي كانت تطرح متشابهة ولا تكاد تتغير . والحكيم الذي عاتب حماد لانه لم يخبره بمرضه ، حاول ان يكتشف ، قبل الآخرين ، نتائج هذه الرحلة وتأثيرها ، ولذلك تمت بين الاثنين عدة زيارات ، وقد تخلل تلك الزيارات الكثير من الاسئلة المفاجئة والمتباعدة ، لان الحكيم ، عندما كان طالباً في النمسا ، قرأ دراسات حول الطريقة المثلى والمؤكدة للاختبار او لقياس الذكاء ، وتتلخص هذه الطريقة بان يُسأل الانسان بسرعة ، وفي موضوعات متعددة لا صلة بينها ، وعلى ضوء رد الفعل ، وسرعة الاجابة ووضوحها ، يكتشف مدى قدرة العقل ، ومدى التنظيم الذي يربط بين اجزائه . لجأ الحكيم الى هذه الطريقة من خلال اسئلة اعددها سلفاً ، وقد خرج نتيجة هذا الاختبار ان « حماد برنجي ، لهذا العمل ولاي عمل آخر » وهذا ما دعاه لان يرتب له موعداً مبكراً مع السلطان .

اثناء اللقاء مع السلطان ، حاول حماد بكثير من الجهد والتركيز ان يلخص انطباعاته عن الزيارة ، ان يصف ويقول كل ما شاهده ، وما احس به ، لكنه ، ومنذ البداية ، اكتشف انه مرتبك ، وان افكاره تضيع وتتداخل ، ولذلك لم يقل الاشياء التي كان يريد ان يقوها ، او قالها بشكل مختلف . ورغم المساعدات العديدة التي قدمها الحكيم ، سواء بالاشارة الى الرسالة التي كتبها

- ما احد تذكرنا، ما احد زارنا او قال لنا تعالوا، قبل ما يطلع النفط من تحت رجلينا .

وزفر بحرقه واصاف :

- الله يرحمك يا خريبط : قلت لهم هذا هو الذهب . . وكلهم ركضوا .

والحكيم الذي لم يعرف كيف يقود المناقشة من جديد ، او كيف يجعل الجو اكثر مرحاً ، بدا له في لحظة معينة ان كلمات السلطان تحمل معاني كثيرة ، وربما كان يقصده ايضاً . ولذلك بذل جهداً ليغير مجرى الحديث ، فلما بدا له ان اللحظة مناسبة ، قال بفخامة وهو مطرق :

- ارى ، يا صاحب الجلالة ، ان دعوة توجه اليكم لزيارة اميركا ضرورية جداً ، دعوة من الرئيس الاميركي نفسه ، لان هناك اموراً كثيرة يجب ان تبحث مع جلالتم !

رد السلطان بنوع من السخرية :

- تقبلها يا حكيم؟ تبينا نقول لهم : اعزمونا يا جماعة الخير ، نريد نجيكم بزيارة؟

وضحك فبدا صوته خشناً وقد تخللته الحشجة :

- لو كانوا جماعتنا ، بينا وبينهم خبز وملح ، كان قلنا لهم : ولّوا انفسكم يا جماعة الخير ، باكر حنا ضيوفكم .

- الحق ما تقول ، يا صاحب الجلالة .

هكذا رد الحكيم بتواضع ، ثم اضاف وقد اصبحت لهجته جادة اكثر مما ينبغي :

- هم لازم يركضون ورائنا، ونقول لهم : اليوم لا ، واللي بعده لا ، وبعد ما ينشف ريقهم وهم يركضون نقول : ما يخالف ، على خيرة الله ، ونحدد لهم متى نجي وكم نجلس واللي يعجبنا واللي ما يعجبنا .

رد السلطان وقد انفرجت اساريره :

- هذا الكلام اللي ينقال يا حكيم !

حماد الى السلطان ، عندما كان في اتلاننا ، او الى الوصية اثناء المرض ، فان هذه الاشارات شغلت السلطان اكثر مما شغلته الامور الاخرى ، فطلب من حماد ان يطلع على الرسالة وعلى الوصية معاً . وحماد الذي بدا مخرجاً وخجلاً اعتبر نفسه انه وقع ضحية مؤامرات صغيرة ومكشوفة ، سواء من الحكيم او من مطيع ، لكنه ، مع ذلك ، قال اشياء كثيرة ، وإن ظل في شك حول اهميتها ومدى تأثيرها . ولما توقف عند زيارته الى واشنطن ، والاستئلة التي وجهت اليه ، والخاصة بالسلطان ، فقد تغير الجو ، اصبحت دقيقتاً وربما حرجاً ، لان السلطان الذي كان شديد المرح وراغباً بان يستمر الحديث هكذا ، من موضوع الى آخر ، فتح عينيه بما يشبه الاستغراب ثم مسد على لحيته وسأل :

- قلت لي سألوك عن اولاد السلطان واخوانه ؟

وتغيرت لهجته قليلاً ، اصبحت اميل الى السخرية :

- وانشاء الله سألوك عن حريمه ؟

ونفى حماد بسرعة وجدة ان يكون سؤال مثل هذا وجه اليه ، اجاب بحزم :

- ولو سألوني ، يا طويل العمر ، اقص لساني قبل ما اتركه يقول كلمة .

- وسألوك عن الامراء ؟

- قالوا انهم يريدونهم بزيارة وراح يرسلون الدعوات .

- وفتر . . سألوك عن فتر؟

- لا يا طويل العمر .

وبعد قليل استدرك مرتبكاً :

- سألوني ، يا طويل العمر ، عن الاعمار ، وسألوا عن ترتيب الامراء .

وبدا واضحاً ان السلطان لم يكن مسروراً من اسئلة الاميركيين عنه او من رغبتهم بتوجيه الدعوة للامراء لزيارة الولايات المتحدة ، قال بعد فترة من الصمت :

السابقة . وخلافاً لكل المسافرين الآخرين ، والذين كانوا يغيبون في اسفارهم فترات طويلة . كان صالح على قناعة ان ابنه عاد من مكان بعيد ، بعيد وخطر ، وان قلّة من الذين يصلون الى هناك يعودون . لا يدري من اين جاءت هذه الافكار او كيف امتلأ بهذه القناعة ، لكنه كان على يقين راسخ ، أما عندما علم ان ابنه مرض هناك وادخل المستشفى وعولج ، فقد تأكّدت شكوكه ونبوءته . قال لابنه في نهاية الليلة الثالثة لوصوله ، وبعد ان انفض الضيوف :

- ديرتنا ، يا وليدي ، ارحم ، واذا الواحد منه خير لاهله ولخوياه ، واذا مات ، يموت بارضه ، بين اهله وخوياه .

عمه شداد كان يخفي عواطفه ، عكس ابيه ، فما كاد يهدأ الجو قليلاً ، وبعد ان سلّم حماد على الجميع ، حتى قال له :

- اسمع يا حماد . . هالحين حنا اللي نشور ، وحنا اللي نقول ، أما ذاك العظريط ، اللي ما يفرق بين الناقة والبعير فخله يشور على من يستاهل شوره . وفهم كلام شداد على اكثر من وجه ، وفهم انه يقصد اكثر من واحد . أما حين اختلى بحماد فقد سأله :

- يا ول ، يا حماد ، شنو اللي دهاك ؟ الواحد منا بديرته ، بين اهله وعشيرته دايب ، وانت رايب تهفي من ديرة لديرة ، ومن عشيرة لعشيرة ، وكان آل المطوع اولادهم كثر وتاراتهم خلصت ! فلما قهقه حماد لكلام عمه ، اضاف العم :

- وهذي الديرة يا ابن اخي احسن من غيرها وجماعتك احسن من غير جماعة .

أما الجدد فملح الذي لم يعرف بسفر حماد الا يوم عودته ، حين اكتشف الحركة الزائدة والاستعداد ، فقد تطلع الى مطلق وسأله :

- ها . . يا جدّي مات احد ؟ من مات ؟

وحين هز مطلق رأسه عدة مرات دلالة النفي ، مع ابتسامة كبيرة ملأت

وهز الحكيم رأسه وقد بيت امراً . ثم اخذ الحديث وجهة اخرى : سأل السلطان عن المناخ والطعام ، وسأل عن صحة الرئيس الاميركي وما اذا كان الناس يحبونه ام لا ، وكاد يسأل عن امور محددة لكن وجد نفسه اقرب الى الحرج ، التفت الى الحكيم وقال له :

- وقالوا لي ، يا حكيم ، ان الجماعة هناك ، بالزواج ، ما يفرقون بين الحلال والحرام . . اللي يطيح بايديهم .

قهقه الحكيم في محاولة لان يخلق جواً مرحاً يساعد حماد على المشاركة ، فلما ظل حماد صامتاً ، وقد اطرق الى الارض ، سأله :

- نسينا نسألك ، يا حماد ، النساء هناك جميلات ؟

تطلع اليه حماد بنظرة هي مزيج من اللوم والعتاب والخجل ، وقد ادرك ان الاشارات الخفية التي وردت في رسائله الى مطيع عرف بها الحكيم ، وربما حدّث السلطان ايضاً ، رد ينهي الموضوع :

- مثل كل مكان يا حكيم ، فيهن المزيونات وفيهن المعظّمات اللي ما ينشرون بشلك .

وانتهت الزيارة ببعض التعليقات المرحّة ، مع كلمة قاهها السلطان وهو ينهض ليودع حماد :

- فتح قلبك وعينك زين ، يا وليدي ، والقلب قبل العين ، وعسى ان الله يوفقك .

ومن الذين سروا اعظم السرور بعودة حماد ابوه . كان مثل طفل لا يقوى على اخفاء فرحه ، وكاد يجر البعير الذي نذره ان عاد حماد سالماً ، كاد يجره الى المطار ليذبحه هناك . لولا ان ابناءه واخوته رأوا في ذلك خفة لا تناسب العائلة ، وقد يغضب هذا التصرف حماد ايضاً . وهكذا ذبح البعير في السوق ، على مرأى من الكثيرين ، ولم يحمل من لحمه الى البيت حتى قطعة صغيرة ، اذ وزع بكامله على فقراء موران . وظل صالح المطوع خلال يومين او ثلاثة يستقبل الضيوف . ويستمتع باهتمام الى ما يقوله ابنه ، خلافاً لكل السفرات

شيئاً لمنعها او لحجب وجهها عن الاطفال والصبية !

أما عندما زار حماد جده ، وكان ذلك بالحاح من الجد نفسه ، وبعد ان جلس الى جانبه ، فقد تطلع اليه وكأنه يتعرف عليه لأول مرة ، وبعد ان ابتسم الجد ولاطفه بان ربت على فخذه سأله :

- ها يا وليدي . تمر هذه الديرة احسن ام ديرة مغرب ؟

ولما ابتسم حماد ولم يجب ، مع ان الجد انتظر ، وبعدما تطلع طويلاً الى حماد ثم الى مطلق تابع :

- من يوم ما الله خلق الدنيا ، يا وليدي ، وجماعتنا تروح مشرق ؛ اشوفك انت رايح مغرب ؛ عسى انك لقيت شيء بمغرب ؟

ولما ضحك حماد بصوت عالٍ ولم يفهم الجد ، ولم يترجم مطلق ، مع انه كان يحمل محقانه وفي حالة استعداد كامل لان يترجم ، قال الجد :

- اذا عشنا نشوف . وعسى ان يكون خير !

وجهه ، سأل من جديد :

- ها . . من راح يعرس ؟

فلما استعمل مطلق المحقان ، بعد ان حسنه قياساً لفترة سابقة ، وابلغه ان حماد سيصل اليوم ، تطلع الجد بكثير من الاستغراب وسأل :

- ويرجع منين؟ ومتى راح؟

- راح لاميركا من شهر !

- امريكا !

- اي نعم اميركا .

- وهذه . . مشرق او مغرب ؟

- مغرب .

- الناس تروح مشرق يا وليدي ، ومن مشرق تحي الحنطة ويحي الخام ، ومن هناك يحي الخير ، وشنهو الي اخذ حمادنا مغرب ؟ ما احد شار عليه ؟ ما سأل احد ؟

وظل الشايب في حيرة من امره ، فلم يسمع بهذا المكان ، وكان يعرف ان الناس ، اغلب الاحيان ، يسافرون الى الشرق ، أما ان يسافر حفيده باتجاه آخر ، ولا يعرف ايضاً ، ويعود ، ويرى الناس في حركة حوله ، خلافاً للسفار الاخرى ، وخلافاً للمسافرين الآخرين ، فقد قدر ان حماد اصبح شيئاً مهماً . قال بحزم :

- اذا جاء قل له يربي ويسولفني .

وبدا حماد شخصاً جديداً بالنسبة للجميع ، بالنسبة لمرووسيه واصدقائه ، وحتى بالنسبة للنساء ، فقد ظلت زوجته تنظر اليه صامته ، وكأنها تكتشف آثار السفر على وجهه ، في عينيه ، وتريد ان تعرف ما اذا تغير ام لا ، وهل عاد اليها مثلها سافر ؟ أما امه فكانت مثل ابيه ، تركض من مكان الى آخر ، ولا تعرف اتضحك ام تبكي ، كانت دموعها تنحدر ، تتساقط ، ولم تكن تفعل

رغم ان لا عمل لديهم . وقد استعرض في هذه الساعات بعض الاوراق والملفات ، كما استخرج من العلبة الساعة الانيقة التي اهديت اليه في واشنطن . كانت ساعة مكتب بحجم قبضة اليد ، لها اطار اصفر يليه اطار مخملي اخضر اللون ، وكانت هذه الساعة ، بالاضافة الى التوقيت والتاريخ ، تنبه ، بجرسها الناعم ، لكن الواضح ايضاً ، الى انتهاء توقيت معين ، فاذا حدد حماد لاجتماع وقتاً معيناً ، نصف ساعة مثلاً ، فكان الجرس يتولى تنبيهه وذاكرته الى ذلك ، ثم يفعل ، مرة اخرى بعد خمس دقائق ، وهكذا . . الا اذا اعيد توقيته من جديد .

يضاف الى مزايا هذه الساعة مزية اخرى لا يعرفها سوى حماد ، ولم يبح بها لاحد في موران . كانت الساعة عبارة عن آلة تسجيل ، يمكن ان تسجل اي حديث يدور في غرفته ، مهما كانت المسافة بعيدة .

لقد اهديت الساعة الى حماد في الاجتماع الأخير الذي ضمه على انفراد ورئيس قسم السلامة في واشنطن ، ولم يكن معها سوى المترجم ، وليس المترجم الذي جاء به حماد معه ، وانما آخر كان يعمل في الادارة المضيفة .

في هذا الاجتماع وفي اجتماعات اخرى عديدة ، واغلبها كان يتم مع حماد على انفراد ، قيلت اشياء كثيرة ، صحيح انها اختلقت وتداخلت الى درجة كبيرة ، لكن مع ذلك ظلت واضحة او قريبة من الوضوح في ذهنه ، وان كان لا يستطيع ان ينقلها ، سواء للحكيم او لغيره ، لان التنبيهات ، والتي اخذت اكثر من شكل ، جعلته يقتنع ان من الافضل بقاءها له ، له وحده .

الآن وهو يضع الساعة على مكتبه ، ويوقتها على الثالثة صباحاً ، ثم يتيه في ذكريات واحلام بعيدة ، فتداخل الصور والروائح والامكنة ، ويلقي نظرة من النافذة على موران ، فيراها نائمة هادئة وكأنها تنام الى الابد ، ويرى الاضواء تشع فقط في هذا البناء الذي يتولى رئاسته ، يمتلئ بشاعر هي مزيج من الفخر والقوة والخوف .

لم يكن هكذا في يوم من الأيام ، وان كان شعور القوة هو الذي يطغى على

كيف يمكن لثلاثة شهور ان تغير انساناً بهذا القدر ؟ او كيف يمكن للانسان ان يتغير ، ان يصبح انساناً آخر ، خلال فترة قصيرة كهذه ؟

فبعد ان هدأت الضجة ، واراد حماد ان يستريح يومين او ثلاثة ايام ، قبل ان يعود الى العمل ، وفيما يحاول ان يقنع نفسه بالاسترخاء ، وجد ان حواسه كلها تتوتر ساعة بعد اخرى ، تصبح مستفزة ، وان عقله ينتقل من مكان الى آخر بسرعة البرق ، بحيث لم يعد قادراً على البقاء في مكان بعينه ، او ان يفعل شيئاً محدداً . وفجأة في مساء اليوم الأول ، وفيها الحوانيت المتأخرة في موران تغلق ابوابها ، وجد نفسه يتوجه الى مكتبه .

لاول مرة ، منذ ان بدأ العمل ، يتوجه الى مكتبه في مثل هذه الساعة . اثار وصوله ، لدى موظفي الخفر القلائل ، الاهتمام الكثير ، بل اثار التساؤل والقلق ايضاً ، وقد عزز لديهم هذه المشاعر حين طلب استدعاء بعض مسؤولي الاقسام واثنين من قارئي الشيفرة . ماذا يريد رئيسهم في هذه الساعة من الليل ؟ الا يمكن تأجيل ما يراد عمله الى الغد ؟

وخلال اقل من ساعة كان معظم مسؤولي جهاز الامن والسلامة في حالة اجتماع ، وقد استمر هذا الاجتماع مدة ثلاث ساعات ، تم خلاله استعراض أحداث الشهور الماضية ، واهم الاحداث التي وقعت ، وكيف تم التصرف ازاءها ، وانتهى بتوجيهات عامة . أما حماد نفسه فقد بقي بعد الاجتماع عدة ساعات اخرى ، ونتيجة بقاءه اضطر عدد من مرؤوسيه للبقاء ايضاً ،

معرفة عدد منهم . أما عندما انعطفت السيارة ومرت امام قصر الروض فقد تطلع الى القصر بامعان وكأنه يراه لأول مرة، ولم يسهُ عن مراقبة الحرس وإحصاء عددهم أيضاً .

واكثر من اية مرة سابقة ينام حماد حتى الضحى العالي ، وابوه الذي ذهب الى السوق مبكراً ، وعاد الى البيت لقهوة الضحى ، وسأل عنه ، ثم لما رآه يتمطى وفي عينيه وعلى وجهه بقايا النوم ، قال وهو يضحك :

- خل بيالك ، يا وليدي : حرار الطير ما تشبع الا بمخالبها ، ونومها نوم الكراكي ، أما اذا جاء الفجر فتسري .

هز حماد رأسه وشارك اباه الابتسام ، ثم اوضح له بعد ذلك ان الانسان يحتاج الى ايام لكي يتعود التوقيت الجديد ، لان فرق التوقيت بين موران وواشنطن سبع ساعات !

وهز ابوه رأسه دلالة انه سمع لكنه لم يفهم ماذا يعني بفرق التوقيت ، وكيف يمكن ان يكون . أما بعد ان سأل آخرين فقد ازداد تشوشه ، لانهم تكلموا في امور لم يفكر فيها ولم يسمع بها من قبل .

في فترة لاحقة ، وحين وصل حماد عند الفجر او بعده بقليل ، وكان يرى الجد يحاول بصعوبة تلمس طريقه من اجل ان يشرع باعداد قهوة الصباح ، وقف الى جانبه يساعده ، يقدم اليه ما يطلبه او ما يحتاج اليه ، وكان الجد يقبل هذه المساعدة بفرح . فلما انتهى قال له وهو يطلب منه ان يقترب لانه يريد ان يفضي اليه بسر :

- قلت لهم : اتركوا حماد ، حماد يدل دربه ولا بد يصل ، اذا مو اليوم اللي عقبه !

وضحك بصوت عالٍ ثم اضاف متسائلاً :

- وصار لي كم يوم اشوفك تدبي الفجر ، يا وليدي ، او قبل الفجر ، وكأنك صرت امام مسجد او تصلي جماعة !

ويتطلع الى حماد بعينه الخائبتين في ظلمة الصباح الأخيرة فلا يرى الا

باقي المشاعر ، وهذه القوة التي يحس بها ليست بعدد الرجال الذين يعملون معه ، ولا بالاجهزة التي تملأ الجزء الخلفي من مبنى الأمن والسلامة ، والتي لا تتوقف عن العمل ليل نهار ، انها اكثر من ذلك ، انها « المعرفة » ، فهو الآن يعرف اكثر من الجميع وافضل منهم ، وقد تأكد ان الذين يعرفون اكثر والذين يعرفون افضل هم الأقوى .

قالوا له في واشنطن انهم يعرفونه جيداً ، يعرفون كل شيء عنه ، من يكون ، عمره ، ترتيبه بين الاخوة والاحوات ، تجارة ابيه واعمامه واخواله ، وذكروا له لون السيارة المكشوفة التي كان يستعملها ونوعها وسنة صنعها ، ومع هذا فإن الذي كان يتحدث معه جاء على ذكر الموضوع عرضاً ، واكتفى بقراءة هذا القدر من المعلومات ، ثم طوى الملف وهو يضحك ، مشيراً الى ان لديهم من المعلومات الكثير الكثير ، عنه وعن الآخرين في موران . وهذا الأمر الذي افزعه في البداية ما لبث ان تطلع اليه بنوع من التقدير .

الآن ، في موران ، في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وبعد الاجتماع الذي عقده مع رؤساء الاقسام ، يحس ان المهمة المنوطة به من الضخامة والاهمية بحيث لا يستطيع غيره ان ينهض بها . صحيح انه لا يعرف كيف او ماذا يريد ، لكن مع ذلك عليه ان يكون انساناً جديداً ، حتى بالنسبة الى نفسه . واذا كان قد اختار هذا الوقت بالذات لزيارة المكتب ، دون انذار سابق ، وان يبقى حتى هذه الساعة ، ولا يعرف لماذا فعل ذلك ، يحس ان هذه البداية وهذه الطريقة يمكن ان تخط له طريقاً جديداً وخاصاً به .

ظل سارحاً في افكاره واحلامه فترة طويلة ، لكن ما كادت الساعة تدق معلنة الثالثة حتى استعاد نفسه من الخدر أولاً ، ثم من الذكريات والاحلام بعد ذلك . أما وهو يركب سيارته فقد تطلع الى الحرس بنوع من القسوة ، وكأنه يؤنبهم انهم ليسوا بالهيئة او اليقظة الكافية . وحين كان يعبر شوارع موران كان يلتقي بالذين يحملون الخضار وبالذاهبين الى المسجد ، ويلتقي بعدد من الرعاة وبيعض المسافرين . لأول مرة كان يتطلع اليهم بطريقة مختلفة عن السابق : احصى عددهم باهتمام ، تمنع بملابسهم وهياتهم ، وراهن نفسه ان لا بد من

- فكرة ان تزور المكتب ليلاً رائعة . وفكرة ان يكون في المكتب من يسهر ويتابع ضرورية ، لكن لا تلزم نفسك او تلزم الآخرين بالدوام الليلي .
وحامد الذي هز رأسه دلالة الموافقة والاقتناع قرر ان يستفيد من كل شيء ومن كل وقت ايضاً .

اشباحاً ، ولا يعرف ماذا حصل في هذه الدنيا !

هل قال الاميركيون لحامد ان يقلب نهاره ليلاً وليله نهاراً ام توصل الى هذه الفكرة بحدسه الملعون ورغبته الجامحة المجنونة ؟

لو ان الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد جواباً له ، لكن حماد لا يتوقف عن التغير ، ويفتق ذهنه كل يوم عن فكرة جديدة واسلوب جديد . ولان هذه الافكار والاساليب لا تقتصر عليه وانما تظال الآخرين ايضاً ، فقد لفتت نظر الحكيم ، اذ بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع ، وبعد ان تأخر حماد عن زيارته في الصباح ، او حتى قبل صلاة الظهر ، ثم محاولاته للاتصال به مرات عديدة اثناء النهار ولا يجده ، فقد جعلت هذه الامور الحكيم يستغرب . أما حين جاء من ابلغه ان حماد ، نهاراً ، في البيت ، وفي المساء ، وحتى ساعة متأخرة ، في المكتب ، فقد سأله حين التقيا في الاجتماع الاسبوعي :

- الظاهر يا ابو راشد ان توقيت اميركا آخذ عليك!

ولما تطلع اليه حماد بشيء من الاستغراب والتساؤل ، ولم يفهم مغزى الكلمات التي قالها ، ضحك الحكيم وتابع :

- نبحت عنك نهاراً في المكتب يقولون غير موجود ، نبحت عنك في البيت ليلاً يقولون غير موجود !

وبعد مناقشات طويلة متشعبة ، حاول حماد خلالها ان يوضح لماذا يداوم ليلاً ، وكيف ان التجربة ، رغم غرابتها وصعوبتها ، اعطت نتائج افضل ، من حيث انصراف جميع العاملين في الجهاز الى انجاز اعمالهم بسرعة ودقة ، اضافة الى امكانية استقبال بعض الاصدقاء ، دون ان يلفتوا نظر احد ، والاستفادة من اخبارهم ومعلوماتهم . بعد ان سمع الحكيم ما قاله حماد علق مازحاً :

- انا معك، جهازكم جهاز خاص ، وله وضعية مختلفة عن الدوائر الاخرى ، وحتى اذا داومت في بعض الحالات ليلاً ، فان من الضروري الا توجد لهذا الجهاز تقاليد ثابتة او يعرفها الناس .

وضحك الحكيم وكأن افكاراً كثيرة تصطرع في رأسه ، ثم اضاف

وسعيد ، اذ رغم القرابة النسبية التي تربطهما ، فقد خلقا لكي يكره احدهما الآخر ، « حتى ان الواحد لا يطبق الارض التي يمشي عليها الثاني » هكذا يقول الحكيم لنفسه .

بعد ان توطدت العلاقة بين حماد ومطيع ، واصبحا يتبادلان الافكار ويصلان ، اغلب الاحيان ، الى قناعات واحدة او متشابهة ، باقل الكلمات ، وباقل الجهد ، قال الحكيم ذات يوم ، وهو يتحدث عن هذا الموضوع بالذات ، لكن دون ان يشير الى مثل عملي :

- القلوب يا جماعة الخير سواقي ، ومهمة الانسان ، مهمة العقل ، ان يفتح بين السواقي لكي تصب في النهر الكبير .

هذه الفكرة المركزية في عقل الحكيم لها ترجماتها العملية المتعددة ايضاً ، فان يكون هذان الركنان منسجمين متفاهمين ، دون قسر او ارغام ، ودون تدخل مباشر منه ، معناه ان نصف المهمة التي يفكر فيها قد انجز . وهذا ما يفسر التأخير الذي حصل في البداية من اجل اختيار رئيس لجهاز الأمن والسلامة والتردد الذي رافقه ، أما بعد ان ساقَت الصدفة الموقفة حماد ، وذلك التعاطف الذي حصل ، ثم العلاقة التي قامت مع مطيع ، فقد اعتبر الحكيم ان « منطقة الظل » او القوة الخفية لا تزال تحالفه وتقف الى جانبه ، وهذا مما شجعه على تقديم اقتراح للسلطان لاختصار مدة اختبار حماد ، وبالتالي تسميته رئيساً لجهاز الأمن .

في فترة سفر حماد كانت فرصة للحكيم لان يعيد التفكير بكل شيء ، قضى لبالي بكاملها مفكراً مهموماً ، وهذا التفكير وهذا الهم ليس مبعثهما انه لا يعرف ما يريد ، وانما كيف يجمع اطراف الشبكة ، كما كان يقول لنفسه ، ثم كيف يواصل الابحار في بحر الظلمات ، لان موران والناس فيها بقدر ما يدون له بصورة من البساطة والطيبة ، واقرب الى المسئلة ، فان المظاهر ، في احيان كثيرة ، خداعة مضللة ، تماماً كالمياه العميقة . فهي غالباً ما تكون ساكنة هادئة ، لكنها فجأة تتغير ، ولذلك فانه يخشى الناس اكثر مما يفهمهم . حتى المدينة بمقدار ما تبدوله هشة وبدائية فانها صلبة ، قاسية ، وعلى شكل

اتسمت العلاقة بين مطيع وحماد ، منذ الأيام الاولى لتعارفهما ، بطبيعة خاصة ، حتى ليظن من يراها بعد شهر من هذا التعارف ، وكأنها اصدقاء منذ مدة طويلة ، ولقد سرَّ الحكيم الى اقصى حد من الالفة التي قامت بين الرجلين ، وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تشبه ظواهر اخرى ماثلة في الطبيعة وبين البشر ، وحتى بين الحيوانات ، قال الحكيم لنفسه وهو يتذكر اشياء كثيرة « من الصعب ان نعزو ظواهر معينة كالالفة او الصداقة مثلاً الى اسباب مباشرة او محددة ، كما انها ليست نتيجة الرغبة . المسألة اكثر تعقيداً من ذلك ، انها ترتبط بالعقل غير الواعي ، او بمنطقة الظل ، كما يسميها العلماء . . فعن طريق اللاوعي ، وفي منطقة الظل بالذات ، تعمل قوى لا ندركها ، تماماً كما يعمل القلب دون ارادة الانسان ودون رغبته ، وهذه القوى هي التي تكون عواطف البشر ونوازعهم . . وحتى عقولهم » .

هذه الظواهر في الحياة والكون ، او ما شابهها ، كانت تشغل الحكيم ، فيفكر فيها تفكيراً طويلاً متواصلاً ، لانه يعتبر ان مجرد التفكير رياضة هامة وله تأثير يطال الجسد ايضاً . لماذا يجب الانسان ولماذا يكره ؟ والحب والكراهية هل هما امران نفسيان وغير عقليين ام انها اكثر تعقيداً وتشابكاً من ذلك ؟ وما يقال عن اللحظة الاولى والنظرة الاولى هل هما حقيقة ثابتة وكلية ؟ هكذا يتساءل ، وفي محاولة لتأكيد قناعته يأتي بالامثلة الحسية : علاقته بالسلطان خزعول مثلاً ، لقد بدأت منذ الساعة الاولى ، وما تلا ذلك تأكيدات وتفصيلات . ومطيع وحماد : كيف تعارفا وارتبطا وكأنها خلقا ليكونا هكذا منذ الازل ؟ وبالمقابل مطيع

بحصيلة بدت للحكيم ، اول الأمر ، لا تتناسب مع هذا الجهد والانتظار ، لكن بعد ان صدرت الجريدة اليومية ، « البادية » ، ثم تلتها ، بعد خمسة شهور المجلة الاسبوعية « الواحة » ، وما رافق صدورهما من احتفاء ، ثم ذلك التأثير الذي اخذ يظهر ويتسع مع صدور كل عدد جديد ، تؤكد الحكيم ان سلاح الاعلام لا يقل اهمية وتأثيراً عن الاسلحة الفعلية التي تقتل وتدمر وتحقق اخيراً النصر !

كان الحكيم يريد من الصحافة الشيء الكثير ؛ صحيح انه لا يعرف ذلك بالتحديد ، او كيف يمكن الوصول اليه ، لكنه يحسه ، يتراعى له في لحظات معينة ثم يتوارى . ومع ذلك يعتبر ان دور الصحافة يتجاوز كثيراً مجرد نقل ما حصل من احداث واخبار هنا او هناك ، او مجرد تزجية للوقت والتسلية ؛ يريد ان يكون دور الصحافة كاملاً ، كلياً ، ودائم التجدد ، ان يعيد تشكيل عقل البشر وعواطفهم ونظراتهم ، واخيراً مواقفهم ، بحيث لا يفكر الانسان ولا يتصرف الا على ضوء هذه النظرة ، تماماً كما كانت الاديان تفعل . ويهز رأسه بنوع من الحيرة والتساؤل معاً ، ويضيف مخاطباً نفسه « الاديان ، اية اديان ، السماوية او غير السماوية ، كانت من التأثير والقوة الى درجة انها طبعت اتباعها بطابع واحد ، حتى لكأنهم من صلب رجل واحد : الاخلاق ، الافكار ، طريقة التصرف ، النظرة . . . بكلمة واحدة : كل شيء » .

ويتذكر الحكيم كتاباً قرأه عن العجبر : قوم توارثوا العادات والافكار ، اضافة الى الصفات ، دون ان يعلمهم معلم ، ودون ان يقول لهم احد . لقد حصل هذا نتيجة المناخ النفسي الذي عاش فيه هؤلاء ، وبالتالي تسربت اليهم كل صفات وافكار الذين سبقوهم ، اصبحت جزءاً منهم ، وهكذا ، ودون وعي في الغالب ، يُسرب جيل الى جيل ، يُشرب جيل من جيل ، بحيث يصبح الجد الاول والحفيد الاخير وكأنهم « اخذوا نفس الطريقة وتعلموا عند نفس المعلم » هكذا قال لنفسه ، ثم استمر بافكاره : « المطلوب من الصحافة ان تعيد تشكيل اي عقل ، حتى عقل السلطان » .

هكذا كان يحلم بدور للصحافة ، أما كيف يتفد ، ما يجب ان يقال ومن يقوله ، فانه كان في حالة اقرب الى الحيرة ، لكن مع ذلك قرر ان يخوض

طبقات بعضها فوق بعض ، فما يكاد ينشر طبقة ويعرف ما تحتها ، حتى يفاجأ بطبقات اخرى تحتها . كما تتصف موران ايضاً بالمزاج الحاد العنيف الذي يتولد في اللحظة ، ولا يشي بنفسه قبل وقوعه . عكس ما كان عليه الوضع في حران .

هكذا كان يفكر وهكذا كانت تبدوله الامور ، لكن مما ساعده في التغلب على هواجسه او على الوسواس (هكذا يطلق على لحظات الحيرة) الرسائل التي بعث بها حماد من هناك ، ثم الاحاديث التي جرت بعد عودته . صحيح انه لم يتحدث اليه مباشرة ، ربما احتراماً او خجلاً ، لكن مع مطيع تحدث عن كل شيء وبالتفصيل : عن ليالي سان فرانسيسكو ، والتي لم تقتصر فقط على التجول في الشوارع او الوقوف على ذلك الجسر العظيم في فم الخليج والنظر الى شعلة الضياء التي تشكل المدينة وتحدد ملامحها ، وتحدث ايضاً عن النساء الصغيرات اللواتي تعرف عليهن : شقروا ، جاهلن يسلب العقل ولا يمكن للانسان ان ينساه ، أما في الفراش ، الفراش المعطر الدافئ ، فان الواحدة منهن قادرة على ان تجعل اكبر رجل في احضانها كالطفل الصغير ، كلهن مدربات ، مليئات بالقوة والحوية ، ولكن لا يشبعن ولا ينمن . كما لا يتركن احداً يشبع او ينام . ليس فقط في سان فرانسيسكو وانما في اغلب المدن التي زارها ايضاً .

ومطيع الذي ذكر للحكيم عرضاً ، وبشكل مازح ، عن « الدلال الذي لاقاه الاخوان » وكيف ان حماد رجع مذهولاً مأخوذاً ، « وان صورة اميركا انطبعت في ذاكرته الى الابد » ، بعد ان سمع الحكيم بهذه التفاصيل ، ثم قام باجراء ذلك الاختيار ، كان واثقاً انه يمسك بيده اوراقاً قوية ، يمسك « الجواكر » ، هكذا قال لنفسه : الاعلام والامن ، واضاف وهو يتسم « واللاعب المر . الحاذق ، هو اللاعب الذي لا يظهر على وجهه اي انفعال ، يكون وجهه كالمطاط لا تقرأ فيه ربحاً او خسارة » .

وفي هذه الفترة تقرر ايضاً اصدار صحف من نمط جديد في موران ، فمطيع الذي قضى شهوراً من الاستعداد ، وسافر مرتين الى القاهرة وثلاث مرات الى بيروت ، للاتفاق مع عدد من المحررين الصحفيين والفنيين ، رجع

وافق على الكثير من الاقتراحات التي قدمها مطيع ، وطلب اليه ان يشرع دون تأخير ودون تردد .

اختار مطيع مجموعة من الصحفيين المحترفين ، وكانت لعدد منهم اسماء لامعة ، ودفع لهم الكثير الكثير ، اذ بالاضافة الى الرواتب الكبيرة ، اعطيت لهم امتيازات في السكن والسفر «لأننا نحن الرابحون في النهاية» كما قال لنفسه وكما قال للحكيم ، بعد ذلك ، رغم بعض الملاحظات والاقاويل التي ترددت وقالها اكثر من واحد .

يوماً ، هذه التجربة ، لا بد ان يبلور افكاره اكثر ، ان يعرف ماذا يقول ، وكيف يقوله .

ومع ذلك . ولانه الآن غير متفرغ لهذه المهمة بالذات ، فان الفترات التي يقضيها مع مطيع ، والاحاديث التي تجري بينها ، لا يعتبرها زائدة او ترفاً ، وليست ايضاً قتلاً للوقت ، كما يفعل الآخرون ، « انها ثقافة عجزية » هكذا يقول لنفسه ، ويضحك بعض الاحيان بصوت عالٍ .

ولان موران ليست جزيرة معزولة او محصنة ، فالعواصف حولها لا تتوقف ، ففي كل يوم تصل الاخبار حامله قصص الملوك المخلوطين والذين اعدموا ، والممالك التي كانت « مزدهرة وقوية » ثم سقطت وذابت كما يذوب الملح في الماء . كانت هذه الاخبار تفزع الحكيم ، تجعله مضطرباً ، لان اكثر ما يخشاه : الزمن . كان يقول لنفسه بنوع من الغيظ : « الرهان بيننا وبين الآخرين ليس اننا قادرون او غير قادرين ، الرهان هو الزمن . كان يخشى ان تتبدد احلامه وتضيع قبل ان يستطيع بلورتها . قبل ان يفرضها . وهذا التحدي بقدر ما كان يشوقه ويجرضه كان يفزعه ايضاً . « لسنا وحدنا . ولا نستطيع ان نهرب مما حولنا ، كل ما نريده فسحة من الوقت تكفي لان نكتمل خلالها ادواتنا ، وعند ذاك : مرحباً بالمعارك ! » .

.. وإلى ان تستكمل هذه الأدوات لا بد « أن تتحصن ، أن تتلقح ، لأن التلقيح الذي يسبق المرض او يرافقه ، يوجد مناعة ضد الطاعون الذي يعم ويجتاح المنطقة والعالم » . خاصة وانه يعرف اي مجانين يفرخون في المنطقة وماذا يمكن ان يفعلوا في ظل الجوع والقهر الذي ينزل بهم كل يوم ، يقول لنفسه بنوع من الحزن : « اذا اقترن الفقر بالحلم تولد الثورة » وحين يتذكر نشاط مطيع وصخبه يقول لنفسه : « اذا ضمنا ان يقرأ الناس ما نكتب ومنعناهم من قراءة ما يكتبه الآخرون ، واذا راقبنا كل شيء وعرفنا كيف نسد الشغرات ، نكون قد كسبنا نصف المعركة . . أما النصف الآخر . . . » .

وباتفاق كامل بينه وبين مطيع أولاً ، ثم مع حماد بعد ذلك ، « لا بد ان نبدأ اللعبة على اصولها ، ان نخلق صحافة وان نكسب صحفيين » ، لذلك

الميزة ، وقد تكون الصحراء المترامية ، وقسوة الحياة ، ثم تلك الليالي الطويلة ، ضمن الاسباب التي ساعدت وشجذت لديهم ملكة التأمل ، فاصبحوا بهذا الاستعداد الذي لا يخفى .

لذلك لم يعد الحكيم يخاف الوضع الداخلي ، لان الناس ، بعد ان تدفقت الثروة ، اصبحوا اقل ميلاً لان يهدروا قواهم في القيل والقال ، او حول موافد القهوة . حتى الامراء الذين بدرت عن بعضهم دلالات خشي منها السلطان اول اعتلائه العرش ، ما لبثوا هم انفسهم ان غرقوا في جمع الثروة ومراكمة المال ، واندفعوا ، كما تندفع السهام ، الى التجارة ووضع اليد على الاراضي ، ثم إلى المقاولات والمضاربة ، بحيث تفوقوا على الجميع ، واخذوا يتنافسون فيما بينهم : من الذي يملك اكثر من الآخرين ، ومن يستطيع ان يبني قصوراً تثير غيرة الآخرين ، وتتفوق على قصورهم ، واية فتاة جميلة كبرت في موران في غفلة عنهم ومن يسبق غيره إلى الزواج منها ، حتى اذا تحدد موعد الزواج امتلأت موران بالحديث عنها وعنه ، وفي يوم الزواج تنقلب الدنيا ، اذ يتحول الليل الى نهار ، ويسير الذهب انهارا وتمدّ الموائد التي لم يسمع بمثلها من قبل ، وتقدم الهدايا التي تفوق التصور وتتجاوز الخيال !

واذا كان الحكيم قد لخص لنفسه ، ومنذ البداية ، ان بناء الدولة يتطلب بالاضافة الى الادوات ضرورة وجود الفلسفة ، واذا كان قد اضطر ، لاعتبارات عملية بحتة ، ان يعطي الادوات اولوية ، من حيث التوقيت فقط ، فانه لم يغفل ليلة واحدة عن التفكير بالفلسفة التي يجب ان تنهض عليها الدولة « لأن الفلسفة اساس الفكر والعلوم » ، كما يقول لنفسه ، كما انه الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة ولان « دولة من غير فلسفة مثل سفينة دون ربان » .

الآن وقد استكمل ادواته ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، واطمأن الى الاوضاع ، لا يمكن ان يؤجل اكثر مما فعل مسألة التفرغ من اجل القيام بالمهمة الاساسية ، وهذه المهمة لا تبدأ من الصفر ، كما كان الامر في حران ، او حين وصل الى موران ، فالفلسفة التي يريد ان يرسي قواعدها ، ویشبت معالمها ، واضحة في رأسه ، بل في احيان كثيرة شديدة الوضوح . ولا

منذ وقت مبكر ، او على التحديد منذ ان التقى الحكيم بالامير خزعل في حران ثم بعد ذلك الزيارات التي قام بها الى موران ، والعلاقات بين الاثنين تقوئى وتتوثق ، وإن رافقتها بعض الهواجس والهموم بالنسبة للحكيم . أكثر من ذلك بدأت تنغص عليه عيشه ، فقد اصبح على يقين يترسخ ويتزايد يوماً بعد آخر انه ليس مجرد مستشار للسلطان ، وانما هو منذور لامر عظيم : بناء دولة !

وبناء دولة ليس بالامر الهين ، يجب ان يمتلك الانسان قوة خارقة وذكاء غير محدود ، وان يكون تحت امرته منفذون جيّدون : أكفاء ومخلصون ، ويجب ، اخيراً ، ان تكون الظروف مواتية . هذا هو الجانب العملي . وحين يستعرض الحكيم ما انجزه ، ويستعرض وجوه مساعديه ، يشعر بالغبطة . فاختيار حماد موفق للغاية ، فقد استفاد هذا الرجل من كل الوسائل والاشكال القديمة والحديثة ، في المدن وبين البدو ، عن طريق المال وعن طريق الصداقات . . . وعن طريق التخويف ايضاً .

وحين يتذكر الحكيم طريقته في التصرف مع حماد يحس ان تعبه لم يذهب هدرًا ، حتى ثقافة العنجر ، كما يسمي الدردشات التي تجري على رسلها ، والتي تأخذ مسارات متعددة ، يعتبر انها ضرورية ، فقد وسعت عقل الرجل واعادت خلقه ، أما السفرات والعلاقات التي اقامها ، خاصة مع المسؤولين في الأجهزة المماثلة ، فقد فتحت مداركه وأفاد منها كثيراً . قال الحكيم لنفسه بنوع من الرضا : « البدو ، بصورة عامة ، اذكيا . يجب الاعتراف لهم بهذه

تتجاوز العقل المجرد ، او الحواس المجردة ، ولذلك فانها شيء خاص . انها مزيج من القوى كلها بنسب واشكال شديدة التعقيد . واذا اراد الحكيم ان يسترسل لكي يشعر بالمتعة والتفوق ، فانه يعتبر الانسان قوة مُسيرة ، وان ما يسيرها ، بوعي ، او بدون وعي ، المراكز . والمراكز هي اربعة ، تبدأ من الاعلى لتصل الى ما دون الوسط قليلاً . فالعقل يعتبر اساس المعرفة وطريق الوصول ، ويمكن ان يطلق عليه ، مجازاً ، المركز الأول ، او المركز الاعلى ، وهو الذي يُحدد ويوجه ، لكن أيضاً بالاتفاق ومشاركة المراكز الاخرى . أما المركز الثاني فهو القلب . والقلب هو وجدان الانسان ونقطة الاستقطاب ، حيث تصب فيه المراكز الاخرى بعد ذلك ، ومنه تنتقل أيضاً . وفي هذا المركز يولد الايمان والافتناع ، ولا يمكن ان يصل الانسان الى نتيجة دون ان يكون هذا المركز في اقصى حالات القوة والنشاط . أما المركز الثالث فهو المعدة ، لان الانسان اذا كان جائعاً وغير قادر على تحصيل قوته تضعف عنده المراكز الاخرى ، وقد يتحول الى انسان خطر ، ولذلك يجب ان يرتبط هذا المركز بمركز القلب اولاً ، اي ان لا تترك له حرية الحركة الا بمقدار ما يخضع الى المركز الثاني ، وبالمراكز الاخرى بعد ذلك . أما المركز الرابع فهو الطاقة الجنسية ، وهذا المركز الذي يمله الكثيرون من العلماء ، يعتبر الحكيم نفسه محظوظاً لانه يعرف اهميته وقوته ، وقد تسنى له ان يواكب ، هكذا يقول لنفسه ، دراسة اهمية هذا العامل وتأثيره ، حينها كان طالباً في النمسا ، وهذا احد الاسباب الذي جعله يولي عناية خاصة للعامل الجنسي ، ودفعه لان يدرس الامراض التناسلية ويتخصص فيها .

أما كيف توصل الحكيم الى نظرية المربع فانه يتسم حين يتذكر ، اذ يقول لنفسه : « مثلما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية من سقوط التفاحة ، وقبله ارخميدس وهو يستحم ، كذلك وجدت نفسي اكتشف نظرية المربع » ويقطب جبينه ويغمض عينيه قليلاً ثم يضيف : « الاشياء كلها تقوم في جوهرها ، على هذه النظرية : اولاً واخيراً الاركان هي اربعة ، الكرسي ، مثلاً ، لكي يكون راسخاً وعلى اتم انسجام ، يقوم على اربع ارجل ، وكذلك الطاولة والسرير ، وكل شيء آخر . ليس هذا فقط ، اذا تأملنا نجد ان الطبيعة تقوم على نظرية

تتطلب اكثر من بضعة شهور ، وعلى اكثر تقدير سنة ، من اجل انجازها . فبعد ان قضى اوقاً طويلة في التأمل والتفكير والمقارنة ، امتلك القناعة الكاملة انه قادر على انجاز هذا العمل ، ولا بد ان ينجزه .

طبعي ان لا يستطيع مناقشة افكاره الآن ، وقد لا يستطيع حتى وقت متأخر ، لان تدوين هذه الافكار اولاً ، ثم استيعاب هذه الافكار بعد ذلك ، من قبل الآخرين ، يتطلب الكثير من الجهد والوقت .

أما كيف حصل هذا التطابق ، والذي لا يحصل الا نادراً ، واصبح الحكيم على هذه الدرجة من القناعة ، فانه يعزو ذلك الى القوة الخفية ، او « منطقة الظل » كما يجب ان يسميها ، وقد يستعمل هذا التعبير اثناء التدوين ايضاً . القوة الخفية هي التي تحدد وتمهد وتقود ، وهي التي تبسر للبشر كل شيء . فاذا كانوا جديرين بهذه الصفة ، واستطاعوا ان ينظروا ابعد من اليوم والغد ، وان يفعلوا ما يجب ان يفعل في وقته ، وبشكله الصحيح ، فلا بد ان تتغير الحياة ، وان تقوم حياة قادرة على البقاء والاستمرار .

وان تجتمع فيه الصفات كلها ، وبهذه الجدارة ، وان يكون في قمة الهرم ، خاصة بعد ان تنازل له السلطان عن جزء من صلاحياته ، وانشغل الامراء بالمال والنساء والقصور ، فان شيئاً اكثر من الدهاء ، واكبر من الخط ، ويتجاوز الكفاءة ، ما يعطي للامور ابعاداً وافاقاً لم يكن يحلم بها من قبل .

فبعد جهد متواصل ، وبمثابرة لا تعرف التعب او التوقف ، توصل الى فلسفة المراكز الاربعة ، او نظرية المربع ، وهذه النظرية الفلسفية ليست نزوة من نزوات الخيال ، كما انها لا تشبه ما قرأه الحكيم في كتب التاريخ التي انكب عليها خلال السنتين الماضيتين . انها نظريته هو . واذا كان لا يريد ان يبشر بهذه النظرية في الوقت الحاضر ، لانه لا يحتاج الى انصار ومؤيدين ، فقد امتحنت وجربت بحيث اصبحت مثل الطلقة المصوبة باحكام : لا تخيب .

نظرية المربع ، التي يفكر فيها بالليل والنهار ، والتي بدأت تستهويه الى اقصى حد ، تتلخص باعتماد القوى الاساسية المهيمنة على الانسان ، وهذه القوى ليست الخير والشر ، بالمعنى البسيط الذي يتداوله الناس ، كما انها

الأول والاساسي الذي ادى الى بلورتها وانجازها بهذه السرعة وبهذه المتانة ايضاً .

في اطار بلورة افكاره والوصول الى النظرية طرح الحكيم على نفسه سؤالاً بسيطاً : ما هو الانسان ؟ واذ لم يجد ضرورة لتركيز افكاره في مجال الاجابة عن هذا السؤال بالذات ، تابع فسأل نفسه : كيف يجب ان نتعامل مع الانسان ؟ وللوصول الى جواب ، خطوة بعد خطوة ، مرحلة بعد اخرى ، استطاع بلورة الافكار وانجازها .

صحيح انه واجه في بحثه بعض الاستثناءات والشواذ لكنه كان مقتنعاً ، كما اكد لنفسه ، ان الاستثناء يؤكد القاعدة ، كما يقولون ، وان عدداً من المسائل يحتاج الى مزيد من البحث والتقصي . . ثم التأمل . ولا بد ان يفعل ذلك في الفترة القريبة القادمة .

المربع : الفصول الاربعة ؛ الاتجاهات الاربعة ؛ حتى عناصر الطبيعة هي اربعة : الهواء ، والنار ، والماء . . . والتراب . وتركيب المخلوقات يقوم على نظرية المربع ايضاً : الحيوان يمشي على اربع ، الانسان يمشي على اربع « ويضحك لان الفكرة لا تبدو واضحة منذ الوهلة الاولى ، لكنه يشير الى ان رجل الانسان تحتوي على مفصلين : الساق والقدم ، ولذلك فان الساق لا تستطيع شيئاً دون القدم ، ولهذا فان الاثني هنا في واحد . والنتيجة اربعة ، هذا اذا تركنا جانباً اليدين ، وهما مخلقان التوازن ، والذي بدونهما لا يستطيع الانسان المشي » .

ويسترسل الحكيم اكثر من ذلك وهو يفكر في نظرية المربع : « وجه الانسان وجسده يعتمدان مبدأ الاربعة : اذا اخذنا الانسان طولياً نجد انه يعتمد نفس المبدأ : العين اليمنى ، الاذن اليمنى ، نصف الانب و نصف الفم ، وهما مقسومان فعلاً ، ثم نصف الاست ونصف الذكر ، وهذه اربع » .

ويمكن للحكيم ان يستمر الى ما لا نهاية اعتماداً على نظرية المربع ، ويتذكر بكثير من العجب انه وصل الى موران يوم الاربعة ، في الربيع ، وفي شهر ربيع الأول . ويعتبر ذلك من جملة مظاهر السعد القيمة ، والتي ساعدته على كشف هذه النظرية بهذه السرعة وبهذا العمق .

نظرية المربع ليست من التاريخ ، وان كانت شواهد التاريخ تؤيدها . ولا يمكن اعتبارها تطبيقاً لافكار وتجارب علمية ، مع ان النظريات العلمية ، خاصة ما يتعلق بالطب ، تقدم ، كل يوم ، دليلاً جديداً تدعمه هذه النظرية . أما بالنسبة لانجازات الانسان في مجال علوم الغيب والتنجيم ، وكذلك في علوم اللاهوت والفلك ، فتجعل الحكيم غير قادر على اهمالها او تجاوزها . ومع ذلك فان نظرية المربع ، ليست اياً من النظريات او العلوم الاخرى . انها نتيجة الالهام من ناحية ، وحصيلة العلوم والافكار والتأمل الطويل من ناحية اخرى . وهي بمقدار ما تهتم بالامور النظرية البحتة ، فان الجانب العملي فيها لا يقل اهمية وتأثيراً ، وربما كان الجانب العملي الدافع

قوية ، وان لم تكن قاضية ، ضد مالك الفريح .

العلاقة بين الاثنين ، ومنذ البداية ، تميزت بالمنافسة الصامتة ، وان حافظت على طابع الود الظاهري ، وبعض الاحيان المبالغ فيه ، خاصة وان الرجلين يتمتعان بحد عال من التهذيب والنعمه ، اضافة الى تقاسمها مودة السلطان واسراره . صحيح ان مالك الفريح سبق الحكيم الى موران بعدة سنوات ، ويعتبر نفسه من اهل موران الاصليين ، لان اباه او جده - اذ يترك الامر غامضاً ، حيث يستعمل كلمات عامة ، ويمكن ان تفسر باشكال مختلفة - اضطر الى السفر ، مثل الآلاف من اهل موران ، في تجارة - والغالب في رعية جمال - وكان يفترض ان يعود ، لكنه تأخر في العودة ، فتزوج واقام ، وجاءه اولاد ، ومرت الأيام ، فلما مات لم يستطع ابناؤه السفر او العودة ، فبقوا حيث هم ، « أما عندما حان الوقت ودعا داعي الوطن فلم تتأخر » هكذا يفسر الشيخ مالك عودته الى موران . وفي موران استفاد من علاقة بعيدة وغامضة بعائلة السلطان من ناحية النساء ، اضافة الى معرفة القراءة والحساب ، وإتقانه بشكل خاص لحساب الدويبة ، حيث اثار دهشة السلطان خريبط منذ الأيام الاولى لوصوله . أما بعد ذلك ، فقد توثقت علاقته بولي العهد ، واصبح احد المقربين اليه ، فلما اعتلى العرش عينه مساعداً لامين المال ، ثم بعد بضعة شهور اميناً أصيلاً .

مالك الفريح ، او الشيخ مالك ، كما اصبح اسمه فيما بعد ، وهو يعود الى موران ، ثم وهو ينضم الى القصر ، والى حاشية الامير ، بعد ذلك ، يصحح خطأ تسبب فيه الآخرون ، وانعكست نتائجه عليه خلال فترة من الزمن ، لكن ما كاد يعي هذا الخطأ حتى قام باصلاحه فوراً : عاد الى اهله والى موطنه ، وبذل أقصى الجهد لان يستعيد ارتباطه بما حوله : اللهجة ، الملابس ، النظرة ، التعرف على الاقرباء ، وعلى تاريخ العائلة ، وقد سجل ، في دفتر اتيق ، القرابات حتى الجد السابع ، ثم اخذ يطلق اسماء الاجداد والاقرباء على ابنائه ، الواحد بعد الآخر ، وكانت زوجته في كل مرة تخلف ولداً تدخل معه في خلاقات تطول الى شهر او اثنين حول اسم المولود الجديد ، والذي لا تعرف من أين نبشه او كيف جاء به .

« البدء من الصفر اصعب البدايات ، لكن بالتأكيد اهمها وارسخها » . هكذا قال الحكيم لنفسه وهو يستعرض ما انجزه حتى الآن ، كان فرحاً مثل طفل ومنتشياً كتمل ، لان « همأ » جديداً اضيف الى الهموم التي كانت تثقل كاهله . فالسلطان الذي واظب خلال الفترة الاولى على حضور اجتماعات الامن والسلامة ، بدأ يظهر تدمره « لان السوالف ذاتها تتكرر دائماً » ولذلك ما لبث ان جعل هذه الاجتماعات شهرية اولاً ، ثم اخذ يكتفي بالتقارير التي ترفع اليه ، ودون ان يقرأها يؤشر عليها بالقلم الاخضر : « نظر » ويعيدها . أما في السنة الثالثة لاعتلائه العرش ، وكان يبدو متألقاً وبصحة جيدة ، فقد طلب من الحكيم ان يتولى نيابة عنه الاشراف الكامل على هذا الجهاز . ايضاً .

لم يكن هذا القرار الا استكمالاً لشكليات متعلقة بالناحية المالية ، لان بعض الاجراءات التي كانت تقتضي موافقة السلطان وتوقيعه ، كثيراً ما تأخرت بسبب غيابه او عدم رغبته « النظر بالاوراق » ، او بسبب الحرص الذي يظهره مالك الفريح ، امين المال ، حيث كان يصّر على التواقيع والاختام اكثر من اصراره او حرصه على الاموال ، وقد ادى هذا ، ومنذ وقت مبكر ، الى نوع من الجفوة بينه وبين الحكيم . أما الآن ، وبعد هذا القرار ، فقد اصبح الحكيم مطلق اليد حراً في اتخاذ ما يراه ضرورياً بخصوص بعض الاجهزة ، واصبح « هذا المرابي اليهودي » ، ابن الحلابة ، يدفع والرجل على رقبته « هكذا قال الحكيم لنفسه بنوع من الزهو ، وقد شعر انه حقق ضربة

فقط يريدني ان استجيب له ، ان اتنازل ، وبعد اول تنازل ليس هناك الا طريق واحد: الانحدار الى ما لا نهاية، تنازلات تجر تنازلات، وهذا ما يريده وهذا ما يخطط له ، لكن انا واياه والزمان بيننا وبنشوف . لذلك امتلا الحكيم اصراً، اقرب الى التحدي، على الصمود والتجاهل وان لا يتنازل تحت اية قوة واية اعتبارات . كان يقول في لحظات التذكر ، وحين يمر طيف « ابن الحلابة » في مخيلته :

« وهل هناك مجنون على وجه الارض يذهب الى كلب جائع ، ومصاب بفقر الدم والسفلس ويحاول ان ينتزع من حلقه عظمة ؟ » ويضحك ويمز رأسه متوعداً . ولان مال موران هو مال السلطان ، لم يحاول الحكيم ان يسترضي الشيخ مالك او ان يتملقه . « الواحد يدور رأس النبع ويقصده » وهذا لجأ الى السلطان مباشرة . وعن طريقه كان يحصل على كل ما يريد . ليس ذلك فقط يحس الحكيم انه اكبر من هذه القضايا ، وان مهمته اخطر من ان يشغل بهذا الناطور او ان يلجأ اليه ، « فالناطور ، مها كبير ، تقول له : هات . . يعطيك . تقول له : خذ يأخذ منك ، أما ان يصغر الانسان عقله ويسأل : هل عندك يا شيخ كذا وكذا لاننا نريد ان نبي دولة . فالجواب الجاهز : ما عندي » .

بهذه الطريقة . ومن خلال اوامر السلطان ، حصل الحكيم على ما يريد من الاموال ، وقد حصل عليها دفعة واحدة ، سواء من اجل الصحافة او جهاز الأمن ، او من اجل « الهدايا والاكراميات ومصاريف خاصة » . وهكذا تجاوز الكثير من المعارك والاحراجات التي يمكن ان تحصل لو امتثل الى ما كان يريده ويفترضه الشيخ مالك .

أما الآن ، وبعد ان فوضه السلطان بصلاحيات جديدة ، فقد بدا في منتهى القوة والرضا ، وبدأ يفكر ويخطط لامور جديدة .

لقد بالغ الشيخ مالك بهذه التصرفات الى أقصى حد ، حتى ان الكثيرين الذين لا يعرفون تاريخه يقدرّون انه لم يغادر موران في حياته يوماً واحداً . أما في اوقات اخرى ، خاصة حين يتحدث الى الحكيم او الى مطيع فلا يمكن تمييزه عن اي « ميداني » عريق . كان يعتمد استعمال لهجة بلدية ، بمفرداتها الضيقة وبمخارجها الرخوة ، ليدلل على مدى معرفته ، ولكي يقول لاي انسان يسمعه انه يتحدث الى غرباء ، وان هؤلاء الغرباء لا يفهمون الا بهذه الطريقة !

والحكيم الذي بذل جهداً واضحاً لكي يتحدث باللهجة المورانية ، لم يتقنها ابداً ، بل وبدت للكثيرين مضحكة واقرب الى السخرية ، فلم يطل به الامر حتى انصرف عنها مضطراً ، وان تسبب له ذلك بمرارة لا تخفى . وفي محاولة غير مباشرة للرد على الشيخ مالك ، هجر لهجته الاولى ، ولجأ الى العربية الفصحى ، بمخارجها وقلقلاتها ، وبالغ في ذلك كثيراً ، حتى ليظن من يسمعه لأول مرة انه واعظ ، او انه يتعمد المزاح ، لكن بمرور الأيام تهذبت هذه اللغة ، وتعود الناس عليها ، فلم يعد يلفت إلا نظر الغرباء او الذين يقابلونه لأول مرة .

كان من السهل ان تحتمل موران الرجلين ، كما احتملت الآلاف الذين جاءوا من قبل ، لان فيها من الفرص والامكانيات ما يرضي الكثيرين ويشغلهم ، وكان من الممكن ان يُسوى الخلاف بين الاثنين لو وقع هذا الخلاف او لو ظهر ، لكن شيئاً مثل هذا لم يقع ، بل وظهر ما يخالفه تماماً . ومع ذلك ، فان معركة صامتة ، وفي الظلام ، لم تتوقف يوماً واحداً ، وكانت تأخذ اشكالاً غير مباشرة ، وان كان ظاهراً شديد البراءة . فالشيخ مالك لم يكن يشير الى الحكيم مجرد اشارة ، في محاولة لتجاهله ، او للتقليل من اهميته . أما اذا تعلق الامر بقضايا مالية فانه يتشدد ويدقق قبل ان يصرف ، كما يتأخر كثيراً ، لكي يثبت للحكيم مدى السلطة والقوة اللتين يتمتع بهما .

ظل الحكيم يظهر ترفعاً واضحاً عن المال ، فلا يريد ان تكون معركته مع « ابن الحلابة » - كما يسميه سراً - في هذا المجال ، « فهذا المرابي سيدفع اولاً واخيراً ، فقط يريدني ان اترجاه ، ان ابوس لحيته ، لكن فشر » لان الحكيم كان على يقين انه لو جر الى حيث يريد الشيخ مالك ، فلا بد ان يخسر ، « لانه

المدينة وبيوتها، كانوا يفعلون شيئاً ثم يتراجعون ، ثم لا يلبثون ان يعودوا اليه مرة اخرى ، وقد بدت على وجوههم وتصرفاتهم علائم الحيرة والنزق ، حتى اذا غرقوا في الانقراض وتاهوا في المنعطفات والتقاطعات جاء غيرهم ليواصلوا العمل ذاته او ليبداوا عملاً غيره .

مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها : مجموعة من الانقراض تتزايد كل يوم . والناس يتطلعون حولهم بحيرة او بتشفب ، لكن برغبة وحيدة ايضاً : ان يخلصوا من هذا الذي يجري . ولان الحكيم يرى موران على مصورات المهندسين المليئة بالعدوية والشفافية ، والمليئة بالاشجار ايضاً ، فانه لا يرى الشقاء ومدى العذاب الذي ينزل بالناس حوله ، ولذلك وجه اهتماماً متزايداً الى شيئين اثنين : الاراضي ، والفكر ، ففي النهار لا يتوقف لحظة واحدة عن « دراسة المخططات » . كان يفعل ذلك بكثير من الحماسة والاهتمام ، ولا يتردد في استدعاء مهندسي البلدية ودار الامارة لمناقشتهم في جميع التفاصيل المتعلقة بمستقبل موران ، حتى اذا « حفظ المخططات » يوماً بعد يوم ، شهراً بعد آخر ، ارسل رجاله « لمساعدة المعوزين في اطراف المدينة ، عارضاً عليهم ان يشتري الاراضي البور التي يملكونها . وانه مستعد ان يدفع لهم فوراً مبالغ يمكن ان تساعدهم في ان يبدأوا حياة جديدة! »

بعد ان ينتهي عمل النهار الشاق الطويل ، ويعود الحكيم الى قصر الحير ، يخصص جزءاً طويلاً من ليله للتأمل والتفكير بنظرية المربع .

الذين عرفوا او سمعوا بما يفعله الحكيم ، وكيف انه يبحث عن الفقراء في الليل والنهار لكي ينقذهم من فقرهم ، ولكي يؤمن لهم اعمالاً في البلدية ودار الامارة ، قلبوا شفاهم بشك وتساؤل .

مالك الفريح عرف قبل الآخرين ان الحكيم لم يترك ارضاً في موران الا واشتراها او ساوم على شرائها ، منفرداً او مع آخرين ، فكان يهز رأسه ويخرج صوته من انفه :

- والله . . والله اذا لقي شبر ارض واحد في موران كلها يندفن فيه ما اكون ابو صفوق !

موران التي كانت تغرق في الرخاوة والتأمل والانتظار ، بدأت تنتفض وتتغير : ابنة من انماط واشكال لا حصر لها تقوم وتنتشر في كل مكان ، شوارع تُشق وسط المدينة وعلى اطرافها ، وقريباً من منطقة القصور ، كما سميت منطقة الغدير ، فتبدو بقايا البيوت والجدران والاشجار وكأنها آثار عصور قديمة خلفتها هزة مفاجئة . الاجانب يصلون ويتكاثرون كل يوم ، ولا يطول بهم الوقت حتى يستقروا . الاعمال تتزايد وتتداخل بحيث لا يعرف الانسان هل يواصل في الغد ما بدأه اليوم ام ينتقل الى عمل آخر . والحياة ، بكلمة موجزة ، تنقطع جذورها ، تضطرب ، تتغير ، لكن لا احد يعرف ماذا سيصير .

صحيح ان الأمر اختلف كثيراً عما حصل في حران او رأس الطواشي ، وعما حصل في بدره وام العوالي وعجرة ، لان كل بناء يشاد هنا ، او كل شارع يشق ، يضيف الى الركام الموجود قروحاً جديدة وركاماً جديداً ، حتى لتبدو موران كالا حشاء المتناثرة ، او كاكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي اللامتناهي . وهذا المنظر الذي يمرض اي انسان مقيم ، ويجعله في حالة من التوتر والحزن ، فلا يعرف هل يمكن بعد الذي حصل في هذه المدينة التي تعود عليها والفها منذ ان فتح عينه على الحياة ، ان تعود الى حالتها السابقة ، او الى شيء من الانسجام ؟ والغريب الذي يصل موران لأول مرة لا يعرف هل جُنّ الناس فيها فحمل كل واحد معوله واخذ ينتقم من المدينة ويقوضها دون رحمة وباسرع وقت ؟ حتى المهندسون ، او من يفترض انهم كذلك ، والذين يقودون مجموعات من البشر والآلات هنا وهناك ، ويبداون بشراسة في تمزيق احياء

العجرمي وآخرون من اهل موران ، والذين استغربوا ثم غضبوا لانهم بدأوا يرون مدينتهم تهدم فوق رؤوسهم ، لم ينتظروا طويلاً لكي يصلوا الى القصر ويقابلوا السلطان :

- الفلا ، يا طويل العمر ، ما اوسع منها ، وهذه هي قريّة ، اتركوا موران مثل ما تركها آبائنا واجدادنا . واذا ما كانت تعجب الغرب واللقامين اللي جاءوا امس واليوم يتركونها ويتركونا ، حنا عاجبتنا وما نريد غيرها . ويصمت العجرمي قليلاً ، وتتغير لهجته :

- المسألة ما هي موران بس ، يا طويل العمر ، المسألة ان الأخباريات يريدون يحولون الناس عن دين الاسلام ، ويريدون نشر الفساد ، ولا بد انكم سمعتم عن القراطيس اللي يطبعونها ويحلونها ببيوتنا! وبعد قليل :

- وانت ، يا طويل العمر ، حامي الدين والرعية ، انت حامي المسلمين ، نريدك بسيفك تقطعهم وتقطع دابهم . والسلطان الذي ابتسم وقال كلمات قليلة ، لم تفهم كلماته ، او على اي وجه تفسر :

- وكلوا الله ، يا جماعة الخير ، وانشاء الله ما يصير الا الخير .

انشغل الحكيم اكثر من قبل بالنظرية ، وصادف ايضاً ان سفرات مطيع اخذت تطول وغيبات بدري الحلاق تمتد وتترايد ، ولذلك عرف الحكيم شيئاً وغابت عنه اشياء ، كما يقولون ، ويبدو ان العجرمي الذي لا يعرف التسليم او التراجع ، والذي ينقض على خصمه كما ينقض الثور ، لم يترك فرصة الا واستغلها ، ولم يترك احداً الا ووصل اليه .

ففي رحلة الصحراء التي تعودها السلطان في منتصف فصل الربيع ، والتي يحرص ان تكون خاصة الى اقصى حد ، بحيث تقتصر على الحد الأدنى من الحرس والحاشية ، اضافة الى افراد العائلة السلطانية ، وبعيدة عن اعين المستشارين والرسميين ؛ في هذه الرحلة ، ونتيجة ضغط الاخوة ، والمخاوف

أما عندما جاءه مساعده بناء لطلبه ، وظل وافقاً امامه صامتاً دون حراك ، فقد تطلع اليه طويلاً وكان يهز رأسه باستمرار ، الى ان سأله اخيراً :

- وشهو قولك باللي يكرم من كيس غيره ؟

وحين قلب المساعد شفّيته دون ان يعرف كيف يجيب ، تابع الشيخ مترنحاً :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني حتى يقال كريم النفس مقصود لكن نجسا !

ولما انتفض المساعد ، وبدا مرتبكاً ، ختم الشيخ مالك حديثه :

- احرص يا وليدي : لا تصرف قرش واحد قبل ما تنشف ريق اللي يريد القرش !

أما شمران العتيبي الذي سمع ما يتناقله الناس في السوق وفي مقهى زيدان فقد قال بسخرية .

- لا تصدقوا يا جماعة الخير ، وانا به ادري ، مثله مثل الطبرطع ، من مال غيره ينهش ويرضع !

وبصق ، واضاف بعد قليل :

- اذا كان كل الاجاويد مثله لاكان ولا كان الجود .

وتغيرت لهجته ، اصبحت ساخرة :

- وذاك هو قصر البعير . لو تكلمت قاعه لقات اللي يكفي وزود .

قال زيدان الذي كان يتابع الحديث :

- القرش اللي يندفن بقيعان مثل القرعة والحصيبة يموت يا ابو نمر ، واذا اشتغل بصير قرشين .

- وكل الله يا ابن الخلال ، ترى قرش الحرام يحترق ويحرق اللي يشيله ، واذا عشنا نشوف !

- لا يا خالي ، جئنا من اجل قضايا اكبر بكثير .

- لماذا نسكت اذن ؟ لماذا نقبل ؟

وضحك الحكيم ضحكة خشنة ، ومررت في رأسه افكار وخواطر كثيرة ، وفي احدى اللحظات كاد يعترف لمطيع بنظرية المربع ، لكن وجد ان الجو غير ملائم ، كما انه ليس في وضع نفسي يمكنه من شرح كل شيء . قال وهو ينظر الى نقطة بعيدة ، ابعدهما يحيط به :

- اسمع ، يا مطيع ، يا خالي ..

وكاد يتوقف ، او كاد ينسى ما اراد ان يقوله ، فالصمت امتد فوقهما مثل غطاء القبر ، لكنه تابع :

- اشياء كثيرة يتعلمها الانسان في وقت مبكر ، ويتصورها يقيناً لا يقبل الشك ، لكن الحياة تعلمه ان ذلك اليقين مجرد وهم .

قلب مطيع شفته دلالة عدم الاهتمام ، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما سمع ، لكن الحكيم تابع :

- الخط المستقيم مثلاً : لا يختلف اثنان انه اقصر خط بين نقطتين ، ولو سألتك الآن لاجبتي الجواب ذاته الذي يردده كل الناس ..

للحظات ظن مطيع ان خاله يهذي ، وان ما يقوله الآن لا صلة له بالهجوم الذي بدأ يحاصرهما . لم يابه الحكيم :

- انا الوحيد ، او من القلائل ، الذي يقول ان الخط المستقيم ليس اقصر خط بين نقطتين ، لا بل ابالغ واقول انه اطول الخطوط .

- وما علاقة ذلك بمشاكلنا ، بحديثنا ، يا خالي ؟

- كل العلاقة .

- لا افهم .

- على مهلك وستفهم كل شيء !

رفع مطيع يده بنوع من العصبية ، معتبراً ان خاله يسخر منه . تابع

الكبيرة التي اشاروا اليها ، والتي يمكن ان تهدد السلطنة كلها ، وليس السلطان وحده ، وافق السلطان ان يفتح عينيه اكثر من السابق ، وان لا يمنح ثقته لاحد خارج افراد الاسرة ، وان يجد من صلاحية المستشارين ، هؤلاء « الذين لا يفتنون الا بالسوء » كما قال الامير محجم .

نقل ابو مصباح للحكيم ، بكثير من الخفاء والسرية ، بعض ما جرى ، وازضاف « ان الحياة عاهرة وغدارة » والحكيم الذي وافقه بهزات من رأسه ولم يتكلم ، شعر ان الارض تميد تحت قدميه ، فلام نفسه انه اهمل كثيراً من الامور او نسيها .

أما عندما جاءه مطيع ، وبدا خائفاً مضطرباً ، وابلغه ان السلطان سَمَى الى جانبه سكرتيراً آخر ، وان الرجل لا يمكن التفاهم معه ، فقد هز الحكيم رأسه ، وبدا مهموماً وغرق في الصمت فترة طويلة ، أما حين حاول مطيع ان يخرج منه من صمته ، وكان اقرب الى العصبية والحدة ، فقد رد عليه وهو ينظر الى البعيد :

- السلطان سلطان ، يا خالي ، لا يسأل عما يفعل ، وهو الذي يجي ويميت ، هذا اولاً : وثانياً . نحن ، اولها وآخرها ، ضيوف عندهم ، واذا كانوا قد احسنوا ضيافتنا حتى الآن ، فان الحساد لا يتركون لاحد ان يأكل لقمة هنية .

- ويريد ان يتم كل شيء عن طريقه . قلت له لا بد ان نحدد المسؤوليات وان نتقاسم العمل ، قال : حتى كأس الماء التي تدخل غرفة السلطان لا بد ان اعرف بها . . . ولم نتفق على شيء .

- اتركه الآن .

- ولكن لن يبقي لي شيئاً .

- يكفي ان تبقى حياً !

- امن اجل هذا جئنا الى موران يا خالي ؟ من اجل ان نبقي احياء لتأكل

ونشرب ؟

المنتصر الأخير!

وعرق الحكيم في الصمت اللذيذ ، وبدا معجباً بالكلام الذي قاله . أما مطيع الذي فهم ولم يفهم فكانت حيرته تزداد ، ولا يعرف هل يواصل حواراً عابثاً مع خاله ام يتركه يتكلم كما يشاء . قال بتعريض :

- الفرق كبير بين الكلام الذي تقوله والامور التي تحصل في الواقع .

- ومع الغضب ، مع الانفعال ، يبدو الانسان عارياً ، تظهر نقاط ضعفه ، وتظهر الاسلحة التي يريد ان يستعملها ، وعندها يكون خصومه قد اضطروه للوقوف امام بنادقهم في الارض العراء . ولذلك ، منذ هذه اللحظة يجب ان نتعلم كيف لا نغضب ، او على الاقل ان لا نظهر غضبنا ، لئلا يعرفوا كيف سنتصرف .

وضحك الحكيم لانه تذكر :

- قبل اكثر من عشرين سنة ، في المانيا ، تعلمت هذا الدرس جيداً : كنت اسكن مع اثنين آخرين عند امرأة عجوز ، وكانت لديها قطة رمادية ، تحبها وتعتر بها ، وكانت المرأة تعاملنا حسب الكيفية التي نعامل بها القطة ، الذي يحب القطة ويدللها تحبه وتلبي طلباته ، والذي ينظر اليها بحياد تعتبره العجوز غير موجود ، أما من يزجج القطة او ينظر اليها بعداء فانه اذا بقي في هذا المسكن شهراً فلن يبقى الشهر الذي يليه . ومن سوء حظي اني منذ وقت طويل لم اتعاطف مع القطط ، لكن لم اناصبها العداة ايضاً ، كنت لا احس بوجودها . ولم اكتشف ابداً الفتنة التي تحدث عنها العجوز ، ولذلك كفت المرأة عن الحديث معي ، وابتعدت القطة عني ، أما هانس الذي كان يسكن معنا ، ويتظاهر انه مفتون بالقطة الى اقصى حد ، فكان يحظى باحسن معاملة ، ويتمتع بامتيازات لا يتمتع بها احد غيره .

تعاركت عدة مرات مع هانس بسبب القطة ، اذ كان يعتمد ان يرمي بها عليّ او ينميها في فراشي .

ذات يوم اختفت القطة ، وكنا انا وهانس في البيت حين غادرته العجوز لبعض الوقت ، فلما عادت ولم تجد قطتها ، هجمت عليّ وسألتي بعداء اين

الحكيم :

- هذا هو الأمر الأول الذي اريدك ان تحفظه عن ظهر قلب ، والأمر الثاني : تعلم ان لا تغضب .

- والله يا خالي انا قررت ان اترك وامشي .

- هذا ما يريدونه ، وهذا ما يدفعوننا لان نفلعه ، لكن نخطيء كثيراً اذا فعلنا كما يريدون او كما يتوقعون . يجب ان نفعل ما نريد وما لا يتوقعون .

- بصراحة ، يا خالي ، انا غير مقتنع ، وهذا العمل قبلته من اجلك ، ولولا معزتك لا ابقى يوماً واحداً .

- اعطني فرصة جديدة ، يا خالي ، واظنك لن تندم .

- ماذا تريدني ان افعل ؟

- ان تقتنع بان الخط المستقيم ليس اقصر الخطوط ، وان الغضب ، او اعلان الغضب ، يعني خسارة نصف المعركة سلفاً .

وصمت الحكيم ثم استرسل بلهجة جديدة وكأنه حضر نفسه لذلك منذ وقت طويل :

- كانت المرحلة الماضية كلها اكتشافاً واستعداداً للأيام القادمة ، واذا كان هناك غياب لدى خصومنا ، فان غيابهم الاساسي ليس انهم يكرهوننا ، فهذا مفهوم ومتوقع ، ولم يغب عن ذهني لحظة واحدة ، لكن غيابهم الحقيقي هو انهم بدأوا علناً وبالمعارك الصغيرة ، اي بدأوا بخوض الحرب قبل وقوع الحرب ، ونحن ، من هذه اللحظة ، لا نعتبر ان الحرب معلنة ، مع انها لم تتوقف بالنسبة لنا يوماً واحداً . واذا اردنا ان نحارب يجب ان نفعل ذلك في وقتٍ وبشكلٍ لا يتوقعونه ابداً .

وهذا ، يا خالي ، نصف البرهان على نظرية الخط المستقيم ، أما النصف الثاني من البرهان فهو ان الحروب غير المباشرة ، الحروب التي تقع بينهم ، دون أن نظهر ، دون ان نعلن عن انحيازنا ، يمكن ان تعطينا من حروب كثيرة كان يفترض ان نخوضها . لتقع الف حرب ، أما حربنا فهي الأخيرة ، او مع



وضعتها ، او ماذا فعلت بها . ولما انكرت معرفتي ، وانني لم ارها ، دخل هانس في تلك اللحظة ، ونظر اليّ وابتسم ، اكدت ابتسامته ونظرته انني لا بد ان اكون وحدي المجرم ، وهكذا استطاع ان يصل الى غايته .

فبعد ثلاثة ايام ، ونتيجة تحقيقات البوليس وتأكيد الشهود ، وهما العجوز وهانس ، وجدت نفسي على الحدود النمساوية ، وهناك اكملت دراستي ، ولقد علمني هذا الدرس كيف يجب ان لا اغضب ، او على الاقل الا اظهر غضبي الا في الوقت المناسب .

هذا الحديث كله كان يحكيه الحكيم لنفسه ، ليقنع به ، ليصل الى حالة نفسية تمكنه من مواجهة المرحلة القادمة . ومطيع الذي بدا مقتنعاً ، او تظاهر بذلك ، قرر بينه وبين نفسه أن ينتظر فترة قصيرة ، فاذا صلحت الامور واستقامت كما يتمنى او كما يريد بقي والا فلن يكلف نفسه خوض معارك يرى انها لا تعني شيئاً بالنسبة له ، اكثر من ذلك يعتبر ان خاله يغامر اكثر مما ينبغي ويذهب بعيداً في هذه المعارك الخاسرة بكل تأكيد .

لم يتأخر الحكيم ليوقف عمله في النظرية . صحيح انه بدا ، خلال فترة من الزمن ، مقتنعاً وراضياً ، اذ استطاع الوصول الى القوانين الاساسية ، الا انه بعدم تطبيقه لهذه القوانين شعر بالهبوط او بما يشبه خيبة الأمل ، لان النظرية ، اية نظرية ، لا تعني شيئاً اذا لم تأخذ ابعادها في التطبيق والممارسة .

أما بعد تسمية سكرتير جديد للسلطان دون استشارته ، ودون اشعاره ، فقد اعتبر ان الأمر اكثر خطورة مما قدر في البداية ، لان همساً بدأ يدور ايضاً حول احتمال اقامة مستشفى خاص بالقصر ، وان الدكتور مؤيد الدقاق قد استدعي لمقابلة السلطان مرتين في يومين متوالين ، دون ان يذكر شيء عن الأمر ، لذا تحسب الحكيم واصبح اميل الى الخوف .

أما حين سُمي مؤيد الدقاق طبيباً للقصر فعلاً ، فقد قرر الحكيم ان لا يعتبره خصماً او منافساً « لانه مجرد طبيب . أما انا فشيء آخر : انا صديق السلطان وصفيه ، وبيضاته بين يدي . . يضاف الى ذلك أني المستشار الذي يفكر نيابة عنه . . والنديم وكاتم الاسرار . وقبل كل هذا وذاك افهم كيف يفكر ، وماذا يريد . . وهذه هي بيضة القبان » .

اول ما فعله الحكيم ، وقد صمم على ذلك بعناد الاطفال ، ان يكون صديقاً للطبيب الجديد . « اذا ارادوا ان يأتوا لي بخصم ، ان يضعوا سكيناً في خاصرتي ، كما قال لي ابو مصباح ، فسوف اثبت لهم انهم لم يحسنوا الاختيار ، واني قادر على انتزاع السكين من الخاصرة كما يفعل الدراويش » .

اللقاء، حتى جاء ابن شاهين لزيارة الحكيم في القصر، وبعد بعض الاحاديث الجانبية استفسر منه عن « الفكرة السامية » التي اقترحها، ما هي تماماً، وكيف يجب ان تكون، والحكيم الذي افاض كثيراً في شرح وتوضيح اقتراحه، اكد انه لو نفذ فسوف يخلق اجيالاً مؤمنة، ويقوم صروحاً للدين على اسس قوية وثابتة، وليس كما هو الحال الآن « حيث يبشر الجهلة بالدين ويحمل لواءه الذين لا يفهمون اصوله ». أما في الزيارة الثانية، والتي تمت بعد اسبوعين، فلم يقتصر الحكيم في حديثه على كلية الشريعة فقط، بل وسأل ابن شاهين عن صحته، بطريقة معينة وابتسم، ولم يتردد في لحظة مناسبة من ان يفتح الدرج ويسحب زجاجة دواء، ناوفا لابن شاهين وهو يضحك :

- المقوي اللي طلبته مني قبل مدة . يا ابو محمد ، ما نسيتك ، لكن ما كان تحت يدي . الآن . . هذا هو، جربه وخبرني . . وادع لي لان دعواتك مستجابة .

وعاد ابن شاهين شاباً في حربه وقناعاته، وفي ليلته أيضاً . لم يكن بحاجة الى من يحرضه، الى من يقول له ماذا يجب ان يفعل، والحكيم بعيد، يراقب، يسمع . أما موران التي كانت تحب المطر والحرب فقد استعاضت عن تأخر الامطار هذه السنة بمشاهدة صراع الديكة . كان الصراع يجري في كل وقت وفي كل مكان : « العجومي لا يعرف الالف من العصا . واذا ناقصه شيء جلال على ظهره وتقول له حي » « ابن شاهين خيلته خصيانه، وبعد ما هُف الدنيا يريد يلتهف الآخرة . لكن بخسا » « قولوا للعود : اخاف يصير الدرب فوقاني . ارموا له حذيانه وما عليكم ، الحمار يدل مربطه » « وقولوا للشويبين : الحية ما تنحط بالحثل ، واذا دفت يشوف ونشوف » « العجومي يقول عني حية ؟ قولوا له الحية التي ترعى وتفري احسن من حيات التبن » .

وتطول المعركة وتتشعب . الحكيم يتظاهر انه لا يدري، فاذا سمع ابدى استغرابه ودهشته، واذا هدأت المعركة يوماً يرمي كلمة لكي ينبري مائة من اجل اضرامها . فالقصص التي تنتقل بين حي القلعة وحي سبيع، والتي تنتقل بين سوق الحلال والعوالي تصل بسرعة الى المقاهي والبيوت، وبانتقالها تزياد وتكبر مثل زوايع الصحراء، خاصة وان للرجلين من المزاييا والصفات ما

الشيء الآخر الذي فكر فيه، وما لبث ان نفذه بهمة وكثير من المكر، ان يكون صديقاً لمن يعتبرهم اصدقاء العجومي، لان صداقته للسلطان لا تعني العدا او نسيان الآخرين . واذا شعر بالندم لانه لم يلتفت الى اقامة الصلات الوثيقة معهم خلال السنين الماضية، ما عدا الامير ميرز والامير راکان، فقد قال لنفسه بنوع من العزاء « الوقت لم يتأخر ». وتذكر ما سمعه من بدري المدلل، ان لا يضع بيضه كله في سلة واحدة، قال وهو يضحك « هذا الامي، الثرثار، يعرف اكثر مما يعرف العلماء . ولا بد ان تكون التجارب علمته والاسفار فتحت عينيه » أما الخصوم الذين بدأوا حربهم ضده فيجب الا يشعروهم انه تلقى الانذار او انه يعرف شيئاً او يستعد لشيء !

العجومي يحتاج الى عجومي آخر، هكذا قال له مطيع قبل فترة طويلة، وهذا ما يجب ان يكون . وابن شاهين الذي زاره مرتين، و اشار اشارات قريية من الوضوح انه بحاجة الى انواع من المقويات تساعد وتقويه، والحكيم الذي تظاهر انه لم يفهم بوضوح، قال في محاولة لاسترضائه انه سيوصي به طبيباً من اصدقائه، اختصاصيا بامراض الشيخوخة، لكي يتولى « تطبيقه ». ابن شاهين اصبح الآن ضرورياً، والمقويات التي يجب ان تعطى اليه ليست لتمكينه من مواجهة الزوجة السادسة فقط، وانما لمواجهة العجومي ايضاً وقبل كل شيء .

لم يبعث وراءه، ولم يسأل احداً عنه مباشرة . انتظر الى ان جاء يوماً الى القصر . وفي حضرة السلطان، وبطريقة فيها من البراعة اكثر مما فيها من المكر، سأل عن بعض امور الدين، وابن شاهين لم يكن يحتاج الا للمثل هذه الاسئلة لكي يفيض ويجود، اذ ما كاد يسأله حتى تحدث كما لو انه يخاطب الجمعية، واتي بالآيات والاسانيد . والحكيم الذي كان يهز رأسه مؤيداً وخاشعاً، قال في لحظة تحيرها تماماً :

- السلطنة بحاجة الى كلية للشريعة، وبحاجة الى علماء افاضل، من امثالك يا ابو محمد .

كانت هذه البداية، وكان هذا هو الطعم، ولذلك بدل ان يركض الحكيم وراء ابن شاهين حصل العكس . فلم تمض إلا ايام قليلة على هذا

الرجلين ، رد بانفعال :

- فخار يكسر بعضه . واحد أخرا من الثاني .

- هذا ما يجب ان تفهمه . . .

وبدأ الحكيم يشرح وجهة نظره من جديد وبأسلوب آخر :

- اذا كان العيساوي يطالبك ان لا يدخل كأس ماء عند السلطان الا بمعرفته فاترك له الماء كله . واذا كان يريد ان يحدث السلطان عن انساب اهل الفلا فلا تتدخل ابداً . واذا كان يتصور ان قضاء اطول وقت مع السلطان هو كل ما يريد فلا تتنافس معه . المهم ان تعمل اشياء لا يستطيع العيساوي او غير العيساوي ان يعملها . . لا تنافسه في المكان والزمان الذي يريد وحيث هو قوي . دعه يركض وراءك وينافسك في القضية التي لا يعرفها ولا يقدر عليها . اتركه يركض حتى يتعب ، وعندما يتأكد انه اضعف منك يخضع لك ، وعليك ان لا تدله الى درجة تخرجه عن طوره .

بدت الفكرة مغرية لمطيع ، لكن لم يتصور كيف يمكن ان تطبق ، او لم يتصور لها شكلاً عملياً ، وفي محاولة لان يحمل خاله على ان يجعل الفسفور في عقله يشع ، كما يجب الحكيم ان يقول في لحظات التجلي ، قال له باستفزاز :

- يا خالي ، يا ابو غزوان ، العيساوي ما هو مثل العجرمي .

- اتركك من الكلام الفاضي ، العيساوي اصغر من رجل قملة ، وانت في

شبر ماء تغرق !

- انا؟

- اي نعم . . انت .

- والله غلطان يا خالي .

- لا يا سيدي . .

- اذن لا تعرفني !

- حافظك عن ظهر قلب !

يغنيها عن التحريض . ومع ذلك فان اهل موران يضيفون الكثير وهم ينقلون القصص ، ويجعلون كل واحد من الاثنين يلتهب ويتألق الى درجة الاشتعال الكامل ، ثم الاحتراق .

أما تلك النكت البذيئة التي يحفظها ابن شاهين ، وقد رواها في مناسبات كثيرة ، فقد حُورّت تماماً واصبحت تعني العجرمي وحده ، فكان الناس حين يسمعونها يضحكون من قلوبهم ، وكأنهم يسمعونها لأول مرة . والعجرمي يرد على النكت والقصص التي تروى بالشتائم والغضب . ويبالغ الى درجة انه يضع الجميع في سلة واحدة ، الذي ينقل القصص والنكت مثل من يسمعا ، مثل من يضحك لها ، وتتوالى خسارته للمعركة يوماً بعد آخر !

ذات ليلة ، وقد سمع السلطان بعضاً مما يقال ، فضحك كثيراً ، سأل الحكيم اي رأي يرى في هذا الذي يجري ، فرد بكثير من الهدوء والحرص :

- الاثنان من الافاضل ، يا صاحب الجلالة ، مثل اصابع اليد ، لا يمكن

ان تميز بين واحد وآخر .

وبعد قليل :

- وموران تحتاج الى كلية للشريعة ، فاذا كان رئيسها ابن شاهين اليوم فغداً يموت ويتركها للعجرمي وتنتهي المشكلة .

وقامت في موران كلية للشريعة ، وكان اول رئيس لها ابن شاهين ، لكن ابن شاهين عاش وعمر طويلاً ، والعجرمي لم يتوقف ولم يسلم .

قال الحكيم لمطيع في وقت مبكر ، وبطريقة اقرب الى النشوة ، وهو يشهد الصراع بين الديكة :

- ما قلته صار ، يا خالي ، لا يقل الحديد الا الحديد !

ولما نظر اليه مطيع باستغراب وتساءل ، اضاف :

- قلت لي في يوم من الأيام : لا يحل مشكلة العجرمي الا عجرمي مثله ،

وانت شايف وسامع بما هو حاصل بين العجرمي وابن شاهين !

فوجيء مطيع تماماً ، ولم يقدر ان خاله وراء هذا الذي يجري بين

وضحك الحكيم بعصبية ، ثم اضاف :

- اسمع يا خالي : المثل يقول كل واحد بعقله راضي ، برزقه ما راضي .
العيساوي مثل العجرمي واصغر منه . مستعجل ، طائر . بعد ما سمع هو
وعائلته ان الدنيا تغيرت ، وان باب الرزق عن هذا الطريق ركضوا .
اتركهم ، لا تنقف في وجوههم ، انتظر في الزاوية ، انتظر الوقت المناسب .
حتى اذا اخطأوا ، اذا وقعوا اضرب ، لا . . الافضل والاحكم ان يكون غيرك
من يضرب ، ويجب ان تكون الضربة قاتلة .

بدا مطيع فرحاً مثل طفل ، وكأنه وصل الى ما يريد ، قال وخرجت
الكلمات من بين اسنانه :

- والله لافرج الناس عليك يا ابن العيساوي !

- لا . . لا يا خالي ، اذا بدأت بهذه الطريقة ما راح تصل .

هكذا رد الحكيم وهو يتسم ، وبعد قليل :

- ازرع ، يا خالي ، في كل زاوية لغم ، وفي كل كلمة لغم ، ولا بد ان
يصطدم الحروف بلغم في يوم من الأيام ويتفجر ، وانت لا من شاف ولا من
دري ، وهذا ما قلته لك قبل فترة عن الخط المستقيم !

ولم يتنه الخال وابن اخته في مناقشات عقيمة او في خلافات كلامية .
انصرفا الى تخطيط صبور ، واعتمدا خطة متشعبة كأنها شبكة العنكبوت ،
فاذا افلت العيساوي من خيط فلا بد ان يشتبك بخيط آخر ، ولا بد ان يقع .

ادرك الحكيم ، منذ وقت مبكر ، ان موران تنتظر مستقبلاً كبيراً ، وهذا
الذي دعاه الى المجيء ، لكن ما جعله مرتبكاً بعض الشيء ، واحياناً نادماً ،
انه لا يفهم الناس هنا بالمقدار الكافي . فبشر هذه المدينة مختلفون كثيراً عن
البشر في حران او في اماكن اخرى . ورغم اطمئنانه الى نظريته ، والتي يمكن
ان تفسر اي شيء ، فقد لام نفسه انه لم يجسدهما بالممارسة الحية وبالتطبيق
اليومي ، الذي يمكن أن يغنيها ، على ناس هذه المدينة . ومثلما تفتح ذهنه من
كلمات او تصرفات ، قد تبدو صغيرة او ثانوية ، سمعها او صدرت عن
الآخرين ، وانطلق منها ، فقد وجد نفسه الآن يهتم بامور عديدة في آن واحد :
فكلية الشريعة التي قامت بهذا الاسم ، ما لبثت ان تغيرت بناء لاقتراح
الحكيم . اصبح اسمها : كلية السلطان خزعل للشريعة . والشارع الرئيسي
الذي يربط المدينة بالمطار اصبح اسمه شارع السلطان خزعل ، بناء لاقتراح
الحكيم ايضاً . أما المدينة الجديدة التي بدأ تشييدها قريباً من وادي الرها فقد
سميت بشكل عفوي مدينة السلطان خزعل ، لان السلطان الذي وضع
حجر الاساس قال للمشرف على المشروع وهو يضحك ، انه يترك له وللعاملين
معه ان يطلقوا عليها الاسم المناسب ! وهكذا ، وقبل ان تقضي السنة الثالثة
من ولاية السلطان ، كان اسمه قد اطلق على اماكن لا حصر لها ، في موران
والمدن الاخرى ، فالمدارس التي باسمه توجد في كل مدينة وقريه ، وكذلك
الشوارع والساحات .

وتتويجاً لهذا النشاط الذي بدأه الحكيم ، بالتنسيق مع مطيع ، اعطيت

الماضية ، وترك للآخرين ان يتقولوا عليه وان يفتروا ، امثال العجرمي وابن فريح وان يحرضوا ، فقد كان ذلك خطاه بالذات ، لان الانسان ، اي إنسان ، من لحم ودم ، أي أنه تطبيق لنظرية المربع ، وليس السلطان وحده تطبيقاً لهذه النظرية ، ولذلك فقد ترك ، سهواً ، بعض الامور تفوته ، ولا بد ان يصلحها الآن .

أما نظريته فلا يمكن ان يبدها من خلال مقالات صحفية ، او ان تظهر مشوهة ومجزأة . يجب ان يعنى بالامر الى اقصى حد ، ان يبذل جهداً متواصلاً ومتقناً من اجل اخراجها الى الناس في احسن حلة ، لكي يكون لها وقع القنبلة ، أما ان يتحدث عنها السوقه ، والذين يتعلمون القراءة والكتابة ، وان تصبح مدار اسئلة واستفسارات ، مثل اية قضية اخرى ، فانه لا يحتمل ذلك ولا يطيقه . قال لنفسه بنوع من الجد الاقرب الى الحزن « من الجلال واللائق اكثر ان تظهر النظرية بين دفني مجلد ، او مجموعة من المجلدات لثلاث تصحيح اشلاء ، او تصحيح مضغة في افواه الصعاليك وانصاف المتعلمين » .

وهكذا بدأت تنشأ علاقات جديدة بين الحكيم والامراء ، وكذلك الحال مع مطيع أيضاً . صحيح ان هذه العلاقات نشأت عرضاً ، او هكذا أريد لها ان تظهر ، لكن الحرص الذي ابداه الطرفان على قيامها واستمرارها لا يخفى ، فمباراة الفروسية التي جرت في السنة الثالثة في موران ، بعد ان كانت تجري في الصحراء ، بعيداً عن اعين الناس ، ودون رغبة بمشاركتهم ، لم تلبث حتى انتقلت الى موران ، وكان الامير ملحم هو الذي يرعى هذه المباراة . أما الحكيم ومطيع فقد كانا من اوائل المدعويين . والامير الذي بدا مضيفاً عذباً ، وبذل جهداً واضحاً في تعريف كبار الزوار بعضهم الى بعض ، وعلى الخيول ، قدر ، بصوت عال ، احتمالات معينة للمباراة ، وأشار بشكل سريع الى عدد من الخيول التي يملكها ، وكيف انها « ركضت في مصر والاسكندرية وببيروت . وقد فازت في كل المرات » .

دوّن مطيع بعض الملاحظات ، واستفسر من الامير حول عدد الخيول والسباقات التي فازت فيها ، ثم شارك مشاركة متحمسة اثناء السباق . أما في اليوم التالي فقد عبر عن ارتياحه وتقديره من خلال تقرير نشره في الجريدة

اهمية اضافية للاعلام « هذا باب ، يا خالي ، ما احد له قدرة ان ينافسنا فيه » ولذلك تم اختيار مكان جديد للجريدة والمجلة ، في ساحة الروض . وبدل المطابع القديمة اخرى جديدة ومتطورة الى اقصى حد ، وقد تولى راتب تأمين هذه المطابع بعد زيارة لالمانيا . ولم يقتصر نشاط هذه المطابع على اصدار الصحف ، فقد تجاوزتها الى مجالات تجارية عديدة وهامة .

الامراء ، اخوان السلطان واقرباؤه ، الذين تحوفوا في البداية من الحكيم والمستشارين الآخرين ، ما لبثوا في هذه الفترة ان نسوهم ، اذ شغلهم امور اخرى اكثر اهمية . فالاراضي حول وادي الرها ، والتي كان قسم منها مزابل لموران ، والاقسام الاخرى مراعي واسواق للابل ، اصبحت هدفاً مباشراً للتنافس بينهم : من يضع يده على القسم الاكبر منها ، ومن يضع يده قبل الآخرين ؟ وكذلك حصل أيضاً بالنسبة لعدد من الشركات .

ومطيع الذي بدأ بذكاء في ابراز صورة السلطان كل يوم في الجريدة اليومية ، وكان يوعز ويرتب هذا الموضوع بكثير من الاهتمام والحرص ، بدأ أيضاً في اظهار الاعمال الخيرية والزيارات الرياضية التي يقوم بها عدد من الامراء . كان يفعل ذلك بالتنسيق الكامل مع الحكيم ، الذي استهوته هذه اللعبة ، وبدأ يفكر في الأمر كثيراً ، وجمع به خياله ، ففكر ان يكتب مقالاً اسبوعياً ، او كل بضعة اسابيع ، يتناول بالشرح والتحليل نظرية المربع . وفكر أيضاً ان يكتب مذكراته . لكن لم يتوقف عند هذه الامور طويلاً ، « لأن المسألة الآن ان نمكّن اوضاعنا ، ان نخلق روابط ابدية » ويسرح في الخيال حين يردد كلمة « ابدية » اكثر من مرة ، انه لا يعرف ولا يحدد لها معنى ، لكنه يحسها قوية في قلبه ونفسه . ويحس ان الطريق لتحقيق هذه « الابدية » الآن ، لا تعني الحديث عن النفس بقدر ما هو الحديث عن الآخرين : السلطان والسلطة . وما دام اخوة السلطان يشكّلون جزءاً من السلطة ، ولا يستطيع ان يغفل او يهمل هؤلاء ، فلا بد اذن من ان يتحدث عنهم . ان يضعهم في الصورة ، رغم معرفته بالكثير من التفاصيل ، سواء تلك المتعلقة بموقف او رأي السلطان بهم ، او رأيهم بالسلطان ، لكن مع ذلك فالسلطة في النتيجة لعبة معقدة ، ويجب ان يلعبها ضمن شروطها . واذا كان قد اخطأ خلال الفترة

اليومية بتوقيع « مراقب » ، وارفقه بعدد من الصور التي ظهر فيها جميعها الامير ملحم .

ومن الامير ملحم الى الامير فواز ، الى الامير راکان ، الى الامير مناور الى الامراء الآخرين الأقل اهمية والاصغر سناً . فاذا كان الامير ملحم قد اهتم بالخيول وشغلته عن كل شيء ، فان هواية الامير فواز الرياضة . كان الاب الروحي للرياضة في السلطنة كلها ، ولانه قضى سنة وبضعة شهور بين القاهرة والاسكندرية ، وشهد هناك المباريات ورأى مدى الاهتمام بها ، ولانه حاول عدة مرات في القاهرة ممارسة كرة القدم ، لكن بدا له انه لن يجسها ، ربما لتقدمه في السن ، او لانه لا يقوى على العدو ، كما كان يصّر المدرب ، فقد صعد هذا الاهتمام ليكون مؤسساً لعدد من النوادي الرياضية ، وليكون الاب الروحي والراعي للرياضة والرياضيين في موران .

وكانت للامراء الآخرين ايضاً هوايات مختلفة ، استطاع الحكيم بكثير من الصبر والثابرة ان يعرفها او ان يحزرها . فالامير راکان معجب بشيئين اثنين : المسايح والعباءات . ولان الحكيم عزيز على الامير راکان ، وقد دعاه عدة مرات الى مزرعته خارج موران ، وابدى رغبته في محاورته حول قضايا اللغة والفقه ، فقد توثقت العلاقة بين الاثنين ، واقترح الامير راکان ، لكن دون إصرار ، ان تتولى الجريدة اليومية اعادة نشر « الفية ابن مالك » لتعم الفائدة!

أما حين كانت وداد تعد نفسها لزيارة دمشق وبيروت خلال الشتاء ذاته ، فقد اوصاها الحكيم على مجموعة من السباحات ، كتب لها على ورقة اساءها ولون خرزاتها وعدد هذه الخرزات ، لثلا تنسى ، واوصاها أن تعطي الورقة لراتب « الذي يجب ان يخلقها من تحت الارض ، لاني موصي عليها من اعلى المراجع » وطلب منها ايضاً ان تحضر معها عباءتين « وبر اصلي ، واحدة فاتحة بلون البلح اول نزوله والثانية غامقة بلون التمر ، ولا تبخلي ابداً ، يا ام غزوان ، لان كل شيء سعره معه » وضحك الحكيم وضحكت زوجته ، وعندما استفسرت لمن سيهدي السباحات والعباءات رد وهو يقهقه :

- لصاحب النصيب !

وحين نظرت اليه مستغربة وضحكت ، تابع :

- حتى هذه الساعة النية ان تكون الهدية للامير راکان ، لكن اذا رجعت بالسلامة ، وكانت معك الوصية ، نبيت خيرة ونشوف من هو اللي يستاهلها !

وفي اطار اكمال الطوق ، والوصول الى ابعد نقطة ، قال الحكيم ليقنع نفسه وزوجته ايضاً ، وقد خرجت كلماته عميقة ، وكأنها صادرة من القلب :

- اتذكر حديثاً للرسول عليه السلام ، لا اتذكر كلماته بالفاظها لكن اتذكر معناها ، قال : تهادوا فان الهدايا تؤلف بين القلوب ، او ربما قال : تقرب بدل تؤلف . نعم ان الهدية لا تخلق المحبة فقط ولا تولد اللفة فقط ، انها تفتح القلوب وتجعلها مستعدة لفهم وتقبل اصعب الاشياء وابعدها .

وتوالت هزات رأس الحكيم ، وبعد قليل اضاف بطريقة تقريرية صلبة :

- وبسفرتك ، يا وداد ، لا تنسي ان تحضري معك ما تستطعين حمله ، ومن كل شيء اثنان ، كما فعل نوح عليه السلام ، حتى اذا احتاج الانسان ان يقدم هدية وجدها تحت يده ، فلا يجمل ولا يجتار .

وداد التي قامت خلال سفرائها السابقة باحضار ما اوصتها نساء القصر عليه ، واشياء اخرى فكرت حين شرائها ان تقدمها لهذه الاميرة او لتلك ، لكنها ما لبثت ان تناست الموضوع بعد وصولها الى موران ، ثم نسيته فعلاً . فاذا عادت الى تذكره مرة اخرى ، او اذا اصطدمت بحاجة من الحاجات التي جلبتها معها كهدايا ، كانت تقول لنفسها : « ما عندهم يكفيهم ويزيد » وتبتسم وهي تنظر الى الهدية ، ثم تطويها وتعيدها الى مكانها .

هذه المرة والحكيم يشجعها ان تجلب معها اكبر كمية من الهدايا ، ويأتي باحاديث عن الانبياء والرسول يبدو لها الامر غريباً . سألت في محاولة للتأكد :

- قولك ، يا ابو غزوان . . . في تقدير لهذي الهدايا عند الجماعة ؟

- الهدية اقصر طريق للقلب . . . يا وداد !

وابتسم ، وبعد قليل :

تخرج من صندوق بدري ، بخفاء ودهاء ، كما يفعل الساحر ، لا تلبث ان تصبح الموضوع الوحيد للحديث ، حديث الصغار والكبار .

فالمسدسات الزائفة ، مسدسات الفلين التي حملها معه خلال سفرة قصيرة قام بها الى بيروت ، من اجل شراء انواع من العطور والمقاصت لصاحب الجلالة ، وبعد ان قام بتوزيع الهدايا على ابناء السلطان ، خلقت من الضجة والخوف والاهمية اضعاف ما خلقت المسدسات الحربية ذات المقابض القصيرة المفضضة التي حملها الحكيم . أما تلك اللعب التي كان بدري يحرص على شرائها من صديق له في بحدون كل صيف ، والذي يوصيه ان يجمع له منها اكبر عدد ، وبانواع مختلفة ، فكان لا يخرجها دفعة واحدة ، وانما يتخير وقت اخراجها . ويتخير ايضاً لمن يعطيها . كانت هذه اللعب تشغل القصر كله ، ثم تنتقل الى قصور الامراء فتشغلها ، ولا تلبث ان تشغل موران كلها . فالحيات المصنوعة من المطاط ، والعقارب التي تتحرك بالنابض الآلي ، ثم انواع الكبريت التي تحرق وتفرقع وتخرج منها الوان او روائح من نوع او آخر ، استهوت الكبار قبل الصغار ، بل واصبحت تملأ ليالي السهر الطويلة في قصر الغدير وفي القصور الاخرى ، وكثيراً ما تولدت منها قصص وأحاديث للأيام التالية : كيف جلس ابن شاهين على حية . . ثم قام فزعاً وهرب من المجلس ! وكيف اوقدت لابن خميس سيكارة بثقاب يخرج رائحة غير زكية ، وكيف اشتعلت حية ابن المشاط وهو يوقد غليونه الحجري .

أما عندما جاء بدري بالفتاش والاسهم النارية ، ووزعها قبل ثلاثة ايام من عيد الجلوس ، فقد جعلت تلك الليلة من ليالي موران لا تنسى ، فبعد ان بدأت اصواتها ترتفع ، وبعد ان ملأت سماء موران بتلك الالوان ، ولم يبق احد الا وشاهدها او انتظرها ، حتى تبتعتها اصوات الرصاص ، وقد حصل هذا دون تدبير ودون انتظار ، بحيث تحولت الليلة الى مهرجان استمر حتى ساعات الصباح الاولى ، وقد قدر الكثيرون احتمالات وآمالاً بعيد الجلوس الجديد .

واذا كانت الاسهم النارية قد خلقت هذا التحريض الذي استتبع استعمال كل سلاح في موران ، فقد فكر بعض العسكريين ان يستعملوا

- والي بده يكسب لازم يفت ، لازم يعطي ويهدي .

هذا الدرس الذي حفظه الحكيم جيداً من بدري المدلل نفذه بكثير من الذكاء والكياسة ، فلم يسرف في تقديم الهدايا ، ولم يعتمد ارتفاع اسعارها دائماً ، ولم يشر اليها بعد ان قام بتقديمها . كان يعتمد خطة محكمة وشديدة الدهاء . وكان اغلب الاحيان ، ينظر بعيني صقر ويسمع باذني حمار ويشم كالقطة ، فالامير الذي ينظر الى السباحات في ايدي الآخرين ، ويسأل عن انواعها ومزاياها ، لا بد ان يتلقى من الحكيم ذات يوم سبحة تفوق كل ما عنده او ما رأى . والامير الذي تهمة العطور والبخور ويبدو حريصاً على مظهره ومنظره ، ستصله فجأة حقيبة صغيرة ، متقنة الصنع ، وفيها عدد من زجاجات العطر ، وقد قام الحكيم بترجمة الكلمات الاجنبية . كان يكتب بخط انيق ، خلافاً لطريقته في كتابة الوصفات الطبية : « بعد الخلاقة » « عطر خفيف للنهار » « عطر لليل ، للنوم . . » « مقوي للجلد » وهكذا .

أما اولاد الامراء الذين لم تتكون لهم هوايات بعد ، فقد تذكر الحكيم عدداً منهم ، ولذلك جلب احذية رياضية واقلام حبر فابر وآلات تصوير كوداك ، وجلب مرة او مرتين مسدسات حربية مفضضة المقابض وصغيرة الحجم ، وقد تعمد عرضها امام السلطان ، لانه لم يكن بعد متأكداً ما اذا كان راغباً بواحد منها ، فلما ظهرت اسنان السلطان الامامية الكبيرة من الفرح ، ورازها مرتين او ثلاث مرات بيده اليمنى وصوب ، ثم رازها باليسار ، حين تأكد الحكيم ان هدية من هذا النوع تناسب جلالته ، احنى رأسه قليلاً الى الارض وقال بصوت حمله مقداراً كبيراً من التواضع :

- ترددت ، يا صاحب الجلالة ، في تقديمه لجلالتكم ، لان مقامكم اسمى من ذلك ، اما اذا قبلتموه فإنني لن انسى ذلك مدى العمر .

لكن كلما برع الحكيم في اختيار الهدايا ، سواء من ناحية نوعها او توقيت تقديمها ، كان يصطدم بالتحدي الذي يمثله بدري المدلل . فقد تخصص الحكيم بالامراء ، وبالامراء المهيمن بشكل خاص ، في الوقت الذي لم يقدم بدري المدلل هدية لامير ، وربما لم يفكر بذلك ، لكن مع ذلك فان الهدايا التي

اسلحة اكبر تعبيراً عن الفرح والمشاركة ، الا ان توصية الحكيم ، والتي لم تتأخر كثيراً ، في ان يكون الجيش والشرطة في حالة طوارئ ، هكذا جاءته الفكرة ، فوتت على هؤلاء ان يستعملوا اسلحتهم !

وهكذا يبدو التحريض قوياً لا يقاوم للحكيم ، رغم ان بدري المدلل لم يفكر بذلك ، ولم تخطر بباله لحظة واحدة ان يستغزه او يتحداه ، الا ان واقع الأمر كان على هذه الصورة ، والحكيم الذي كان يثني على بدري ، ويعتبره ضرورياً بالنسبة له ، كان يغتاض « من هذه القوة الشيطانية التي تجعله يتصرف وكأنه ابليس » .

أما عندما قام بدري المدلل بتزويج اثنتين من بناته الثلاث ، واحدة الى رئيس حرس السلطان ، والثانية الى نائب قائد شرطة موران ، فقد احس الحكيم بتحدٍ مباشر ، قال لنفسه وخرج صوته عالياً نزعاً :
- ابن الحرام علمناه على الشحادة سبقنا على الابواب .

في اليوم التالي لحفلة الزواج ، وكان الحكيم من ابرز حضورها ، بناء على إلماح مدير الشرطة ، والذي قال له انه لا يقبل ان يكون نائبه اقل من رئيس الحرس ، قال الحكيم لنفسه ، وبصوت عالٍ وبنوع من السخرية :
- الظاهر ، ابن الحرام بدري ربطها وحرّم عليها ، صار عم البدو والحضر سوا ، عن يمينه مدير الشرطة وعن يساره رئيس الحرس .

وضحك بغیظ ثم اضاف :

- والله يسترنا من الثالثة .

وفي تلك الليلة بالذات قرر الحكيم ان لا يتفوق عليه احد !

سمير قيصر ، او الاستاذ قيصر ، كما يطلق عليه الحكيم بعض الاحيان مداعباً ، وصل الى موران ضمن مجموعة من الصحفيين الذين تعاقد معهم مطبع اثناء زيارته الى القاهرة ، أما الذي رشحه واقترحه فهو راتب ، لان علاقة ، اساسها الصدفة ، نشأت بين الاثنين قبل بضعة سنوات ، حين كان راتب يقضي جزءاً من وقته في الاسكندرية .

ما كان وصول سмир قيصر موران ليثير اي اهتمام اولاً ، او اي تساؤل او خلاف بعد ذلك ، لولا المذكرة التي قدمت من السفارة الاميركية بعد بضعة شهور من صدور جريدة البادية ، فقد تضمنت تلك المذكرة اشارة الى ثلاثة مقالات ، نشرت في اعداد متفرقة من الجريدة ، وكان اثنان منها موقعين باسم سмир الصريح ، والثالث بالاحرف الاولى من اسمه ، وقد اشير بخطوط حمراء الى الفقرات التي اعتبرت خطرة . لم تكتف السفارة بذلك ، قدمت معلومات مستندة الى مصادر مؤكدة ، كما قال مستشار السفارة باول اندروس ، تشير الى « ان المدعو سмир قيصر سبق ان قضى عدة سنوات في احد السجون المصرية لاسباب سياسية » .

هذه المعلومات والملاحظات ولدت قلقاً اقرب الى الخوف ، وكانت تكفي لترحيل اي شخص من السلطنة ، لكنها ، مع ذلك ، لم تكن كافية لترحيل سмир ، لانه جاء عن طريق راتب اولاً ، ولان علاقات وثيقة نشأت بينه وبين مطبع والحكيم بعد ذلك . كما ان جريدة البادية ما كانت لتصدر او لتصبح بهذه القوة والاهمية لولا المساهمة الكبيرة التي يقدمها . ولذلك ما كادت ملاحظات

نخرج هذه الجثة ، من القبر ونحطها في وجهه !
ولما استخرج الحكيم قصاصات الجريدة وأشار الى الخطوط الحمراء ،
وقال انها اثار السفارة الاميركية ، فقد رد راتب بضيق :
- يا سيدي حط بالخروج .

ويعد قليل :
- الاميركان يخافون من خيالهم ، يخافون من كل شيء لونه احمر ، ولا
يجبون اي انسان له ماض .
وزفر فخرج صوته مختلفاً :

- وانت يا حكيم لا تحتاج لمن يقول لك ان واحداً له ماضٍ وتكر لهذا
الماضي افضل الف مرة من واحد يريد ان يبني امجاداً على ظهورنا .
وعزم راتب بعينه وقال وهو يتسمم :
- وانا ما عدت ولد يا حكيم ، وغير مستعد ان اورطك او اورط نفسي ،
والأيام بيننا .

بعد بضعة ايام من هذا الحوار ، وحين كانوا على مائدة الطعام والحكيم
بينه ابنه الصغير الى ضرورة ان يمسك السكين بيده اليمنى « لان اليمنى هي
الاقوى ، وهي المباركة » . علق راتب ضاحكاً :
- الآن فهمت . . .

فلما تطلع اليه الحكيم متسائلاً تابع والضحكة تملأ وجهه :
- لان سمير يستعمل يده اليسرى ظننت ان كل شيء فيه يساري ، وانه
سيبقى كذلك .

رد الحكيم ضاحكاً :
- يا اخي درهم وقاية خير من قنطار علاج .
- لا تخف يا حكيم ، اطمنك وانا مسؤول : الرجل مستعد ان يكتب باكثر
من يده اليمين ! وضحكوا جميعاً بنوع من المتعة !
ولم تكذب نبؤات راتب ومراهنة مطيع ، فالسفارة ذاتها ، واثناء احدي

السفارة تقدم ، وما كاد الحكيم يفتح مطيع بالامر ويتساءل عن الموقف الذي
يجب اتخاذه ، بما في ذلك احتمال ترحيل سمير والاستغناء عنه ، حتى صرخ
مطيع بما يشبه الاستنكار :

- قبل ما يرحل ارحل قبله ، هذه القضية حطها ببالك . . يا خالي .
وحين تساءلت عينا الحكيم بدهشة تابع مطيع :

- يا خالي صار اكثر من ثلاثة شهور ونحن نحضّر لاصدار مجلة
« الواحة » ، وكل شيء قائم على اكتاف سمير ، « والبادية » لا يمكن ان تستمر
اذا رفع يده منها .

هز الحكيم رأسه بموافقة وحزن ، وهذا شجع مطيع لان يقول :
- والمعلومات التي قالوها لك ، يا حكيم ، قديمة وفيها مبالغة . . .
وتغيرت لهجته :

- والرجل حكى لي عن هذه الامور ، وقال انها جزء من تاريخ مضي
وانقضى ، وانه نادم على اضاءة سنوات من حياته في اعمال سياسية صيبانية .

وبكثير من الدهاء والحيلة ، اضافة الى التلويح بالمخاطر التي تترتب على
نشر مقالات مثل تلك التي اشارت اليها السفارة ، مع اغراءات تتزايد فترة بعد
اخرى ، بدأ سمير يكتسب صفات جديدة ، وبدأ يصبح شخصاً لا صلة له
بالذي كانه . صحيح أن هذا نتيجة قناعة داخلية عميقة ، ونتيجة
استعداد كامل ، وربما كان يموه نفسه في الماضي ، اكثر مما هو نتيجة النقاشات
التي تعمد الحكيم اثارها معه ، خاصة وان الاثنان كان يروق لها ان يناقشا
الامور الفلسفية ، خلافاً لمطيع « العملي » ، كما يصفه الحكيم ، « لاننا نصدر
عن نفس التبع الذي هو اصل الينابيع كلها : الفلسفة » .

أما حين زار راتب موران وسأله الحكيم بما يشبه العتب كيف انه لم ينبهه
ولم يذكر له شيئاً عن هوية سمير السياسية وعن سجنه ، فقد رد راتب وهو
يضحك :

- الله يخليك يا حكيم الرجل طلق ماضيه كله وحرام ان نذكره ، او ان

أما كيف قامت العلاقة بين راتب وسمير فان الصدفة وحدها لعبت الدور الاساسي ، فقبل بضع سنين ، في الاسكندرية ، وخلال موسم الاصطياف ، وكان راتب احد نزلاء بنسيون روجينا تم التعارف ، وكانت صلة قرابة تربط سمير بصاحبة البنسيون .

والصدفة ايضاً قادتني مرة اخرى لان يلتقي به في القاهرة ، اثناء ما كان يجري البحث عن صحفيين للعمل في موران .

قال لهما ، بعد ان استشاراه في امكانية مساعدتهما للاتصال ببعض الصحفيين :

- تأسيس صحافة غير ان يعمل الانسان في صحافة قائمة . التأسيس يحتاج الى امكانيات استثنائية ؛ والاشخاص الذين يعرفون كيف ينشئون دوراً صحفية كبرى قلائل جداً . طبيعي القضية ليست مستحيلة ، لكن المهم ان تبدأ الصحيفة قوية ، وان تمتلك اسما كبيرة ، وهذا يجعلها في مركز القوة والتأثير .

وبعد ان يهز رأسه دلالة الاسف ، ويكون كلامه قد استوعب ، يضيف بلهجة حزينة :

- لدي تجربة في تأسيس الصحف ، وقد سبق ان ساهمت بانشاء عدة صحف ، وكان بودي لو استطعت مساعدتكم ، لكن . . .

وحين تتطلع اليه العيون يتابع :

-- لدي التزامات كبيرة وعاجلة في الفترة الحالية .

ويسأله مطيع بقلق ورجاء :

- الى متى ؟ اقص . . .

- ثم ان الحياة في موران ، وفي البلدان النفطية الاخرى ، شاقة ، ومن الصعب ان يتحملها الانسان .

ويهز رأسه بنوع من الاسف :

- والصحفيون الذين قد يرغبون في العمل هناك قليلون ، قليلون جداً . . .

المناقشات حول الصحافة ودورها في المرحلة الراهنة ، اشارت بكثير في الارتياح الى « النهج الواضح ، الذي يطبع صحافة موران ويجعلها رصينة ، قوية ، ومؤثرة تأثيراً واضحاً في تعبئة الرأي العام حول العرش ، وتأييد الافكار المعتدلة والتمسك بالقيم الدينية والاخلاق » ولم يفتر المستر باول اندروز ، مستشار السفارة ، ان يشير الى مقالات عبد الهادي البكري والشيخ عثمان اسماعيل وايضاً « مقالات سمير قيصر الأخيرة » ، قال هذه العبارة وهو يبتسم بغبطة !

مطيع الذي وجد نفسه يغرق في هذا الجو ، كان يقرأ نتائج عمله في وجوه الآخرين ، خاصة القصر وما حوله ، انه يريد صحافة مدوية ، تحظف الابصار ، ولذلك لا بد من حدث جديد ومثير كل يوم ، لان من شأن هذا الاحداث ان تستقطب ، أما ما يقوله الحكيم عن الاسس الفلسفية ، وعن المثل ، فانها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له الا بمقدار ما يمكن ترجمتها الى صيغ خفيفة مسلية تلفت الانظار وتثير الاهتمام ، وهذا ما جعله يركز كثيراً على القسم الفني ، وبشكل خاص التصوير « لان موران اليوم تغرق في الامية ، وحتى المتعلمون ، الذين يقرأون ويكتبون ، ليس لديهم الوقت لان يغرقوا في التحليلات الطويلة ، او في الكلام النظري الذي لا يؤدي الى نتيجة ، ولهذا يجب ان تعتمد الصحافة الحديثة على الصورة ، على الشيء غير المؤلف ، وهذا وحده مقياس النجاح » .

ما يتصوره مطيع او يفترضه ، وما يحاول الوصول إليه ايضاً ، ليس نتيجة اجتهاد ، فهو لم تكن له صلة بالصحافة في يوم من الأيام ، ولكن من خلال الافكار التي سمعها اثناء التحضير لاصدار الصحف ، والمناقشات التي جرت امامه في اماكن عديدة حول الصحافة التي يجب انشاؤها او الصحافة المطلوبة ، اضافة الى ما يلاقي هوى في نفسه ، توصل الى تكوين هذه الافكار العامة ، لكن دون ان يكون قادراً على تنفيذها شخصياً . ولذلك كان يكتفي بالتوجيه ، ويقتصر دوره على الاشراف .

وهكذا نشأت تلك العلاقة الخاصة والحميمية بين مطيع وسمير ، اذ شعر كل منهما انه يكمل الآخر .

ويعود الى لهجته الاولى :

- لكن يمكن اقتناع عدد منهم ، خاصة اذا كانت المزايا التي سيحصلون عليها مشجعة !

وبعد الكثير من الكر والفر ، من الاختبار والتأثير النفسي ، وبعد ان عرف كيف يقدم نفسه ويظهر مزاياه طلب مهلة شهرين .

- خلال هذين الشهرين استطيع ان انجز القسم الاكبر من التزاماتي واعتذر عن القسم الآخر ، واستطيع ايضاً ان اتصل ببعض الزملاء ، وان اقنعهم ، بشكل او آخر ، بالعمل معنا . طبيعي المسألة ليست سهلة ، خاصة واننا نريد صحفيين من الدرجة الاولى ، صحفيين كباراً ، لكن ازاء المزايا والإغراءات التي يمكن ان تمنح ، قد يوافق بعضهم على العمل معنا .

لام نفسه كثيراً بعد هذا اللقاء . اعتبر ان مهلة الشهرين التي طلبها تمثل ذروة الحماسة في حياته كلها . ماذا لو بحثوا عن آخرين ووجدوا من يلائمهم ، ولم يكلفوا انفسهم مجرد الاتصال به او الاعتذار ؟ وخلال هذين الشهرين ماذا يمكن ان يحصل والى متى يبقى ضائعاً حائراً وجائعاً ايضاً ؟ وهل تنظلي حيلة مثل هذه او تؤدي الى النتائج التي افترضها ؟

لم ينم تلك الليلة ، تاه في حالة من التخبط يولدها الشعور بالخيبة ، وتمنى في اعماقه لو انه كان اقل ذكاء ، اذن لما كان مضطراً لان يدفع ضريبة هذا الذكاء التافه ، ولما ضاعت منه هذه الفرصة التي انتظرها . وفي الغفوات القصيرة حلم انه عاد مرة اخرى الى السجن ، وانه يتعرض للتعذيب ، كما حصل له في الأيام الاولى من التوقيف ، وحين صحا في احدى اللحظات ، واستعاد احداث اليوم ، قرر ان يصحح خطأه ، ان يختصر المدة ، على الأقل لمدة شهر واحد ، وقد يوافق على فترة اقل !

وهذا ما حصل في اليوم التالي . واذا كان قد سيطر على عواطفه واخفى فرحته ، فان مطيع لم يستطع ذلك . اعتبر ان اختصار المدة من شهرين الى شهر واحد تضحية لا يمكن ان ينساها لسмир . أما موافقته على ان يتعاقد ، بعد ان اعتر ، « فقط اريد فرصة للتفكير ، نعم اريد ان افكر وادرس

الموضوع» ، مع الوعد بأن يبذل جهده من اجل الاتصال بصحفيين آخرين : أما حين وافق على التعاقد فقد اعتبر مطيع انه انجز نصف المهمة ، ولكي لا يترك الموضوع قابلاً لاعادة النظر او للتردد ، فقد دفع اليه مبلغاً سخياً ، دون ان يطلبه ، وهذا المبلغ الذي رفض سмир تسلمه ، في البداية ، بكثير من الابهاء « لان الامر سابق لاوانه ، والعلاقة بيننا قائمة على اساس الثقة » فما لبث ان وافق ، نتيجة الضغط والالحاح !

هذه « اللمسات الفنية » كما يسميها سмир كانت ضرورية . ويضحك وهو يفرك يديه « وراتب الذي عرف في وقت سابق اني سجنيت يجب ان يقف الى جانبي دون تردد » ولذلك ما كاد يقترح عليها ان يسافروا معاً الى الاسكندرية « لاننا انجزنا المهمة » وموافقة راتب المتحمسة ، لان ذكريات الاسكندرية ضجت في رأسه ، وحين ابدى مطيع بعض التردد ، تعهد سмир ان يختصر مدة الشهر الى فترة اقصر !

وفي الاسكندرية ، وفي لقاء منفرد ، ونتيجة الدور الذي قامت به روجينا ، فهم راتب الموقف كاملاً . قال وهو يضحك بالضحك :

- يا سيدي كل انسان له اخطاء في ماضيه ، واكثر الذين سجنوا لاسباب سياسية كانت الاسباب ، اغلب الاحيان ، واهية او ملفقة .

وبعد قليل وبلهجة ابوية :

- وعفا الله عما مضى !

أما بعد ان وصل سмир الى موران ، ونتيجة الجهود التي بذلها بالتعاون مع الكثيرين ، ولانه كان وثيق الصلة بمطيع اولاً ، ثم بعد ذلك بالحكيم ، وكان يفهم ما يريد اي منها ، ويستجيب له بكثير من الذكاء والطيبة . . والسرعة ايضاً ، ويعرف كيف يعبر عن افكاره بتلك الروح المرححة ، فقد بدأت تلك اللعبة الجديدة التي تركت آثارها في موران وما حولها .

تهتم بزوجها . أما فكرة ان يستقل كل واحد من الأخوين بيت خاص ، فلم تتصورها ولم تكن مستعدة لان تحملها .

قالت ذات ليلة ، وهي تنهض لتأوي الى فراشها ، وبدا كلامها غريباً :

- قبل ان تفصلوا بعضكم عن بعض اكون انا تحت التراب .

واذا كانت قد اطمأنت بعض الشيء حين ابدى ابنها ، دون كلمات ، نوعاً من التسامح ، وبدا لها ان الامور قد عادت الى طبيعتها ، فان تلك الروح الدؤوبة التي ولدتها الصعوبات ، وصقلتها التجربة ، منذ ان فتحت عينها على هذه الدنيا ، وكانت مجرد فتاة يتيمة ، تنتقل من بيت الى آخر ، ثم زوجت ، وهي لا تزال فتاة صغيرة ، من رجل يتجاوز عمره عمرها ثلاث مرات او اربعاً ، وعاشت معه سنتين فقط انجبت خلالها حسني ، وهي التي تولت تسميته ، لان الزوج مات قبل ولادته ببضعة شهور ، تلك الروح هي التي قادت خطواتها فيما بعد . وهي التي حددت لها كيف تسير وكيف تعيش . وحسني الذي كان عبثاً جديداً كان فال خير ايضاً ، ولذلك تعلقت به واحبته كثيراً . أما حين تزوجت مرة ثانية وجاءها سعيد ، وبعد سنة زكية ، فقد ظلت تحس ان الولد الأول له وضع متميز مختلف ، أما فيما بعد فان هذا التميز ، او هذا الاختلاف ظل غامضاً وخفياً ، لان عبء الثلاثة ، من حيث الأكل والهجوم ، كان واحداً .

لذلك ما ان وصلت مع هذه القبيلة الصغيرة ، بعد الرسالة التي جاءتها من حسني تطلب وتلح في الطلب ان تأتي ، وان الصحة والاحوال جيدة للغاية ، وقد اكد على ذلك اكثر من مرة ، لثلاث تخاف وتظن الظنون ، فقد حملت معها كمية كبيرة من « التجارة » التي كانت تنعاطها في عمان ، حملت معها اللبان والحنة والقمر الدين ، وحملت ايضاً البامياء اليابسة المشكوة بخيوط ، والملوخية المجففة ، اضافة الى عدد كبير من المكائس الناعمة والخشنة ، وكانت هذه المواد اخرى مشابهة لها تشكل تجارتها التي تدر عليها « ارباحاً » تكفي لمصروف البيت ، كما تقول .

كما ان هذه التجارة كانت تتغير وتتغير حسب الاماكن والفصول ، وتبعاً لرغبات المشترين وحسب امكانياتهم المادية ايضاً . ففي الصيف ، حين تكثر

قبل نهاية هذا الصيف وصلت الى موران ام حسني ومعها كتاتها وخمسة اطفال ، كان وصولها مفاجئاً للكثيرين ، واكتشف الكثيرون ، واستغربوا ، ان حسني وسعيد متزوجان ، وان لكل منهما عائلة ، ولكل منها اولاداً ايضاً ! واستغرب هؤلاء وغيرهم انهم لم يسألوا انفسهم من قبل ، ولم يسألوا الرجلين ، بالمقدار الكافي ، عن هذه الامور ، وكأنهم القوا وجودهما هكذا ، رغم ان كل واحد من الاثنين كان يسافر مرة او اكثر سنوياً ، يقضي شهراً او اثنين عند الاهل .

الآن ، بعد الحفاوة والدعوات ، وحين بدأت ام حسني تدقق وتعطي اذنيها للكنتين لتسمع من خلاهما ما لم يقله ابنها بشكل مباشر ، عرفت ان شيئاً جديداً قد حصل بين الأخوين ، وان حسني يفكر بالاستقلال في بيت خاص ، لانه لم يعد يحتمل . قالت لنفسها بحزن : « قلبي ، من زمان ، قال لي » .

وتذكرت كيف كانت في عمان كل شيء : تحضن الكنتين والاولاد وترعى الرجلين ، كما تحضن الدجاجة فراخها ، وكان لا يتم اي امر الا برأيها وبناء على مشورتها . الآن تشعر بالخطأ ، لانه تركت ابنها يسافران وحدهما ، وتشعر بخطأ اكبر انها تركتهما هذه الفترة الطويلة كلها . لهذا ، وبكثير من الصبر والدأب ، اخذت تحاول اصلاح ما افسده الزمان ، مستخدمة المكر البريء والحيل الصغيرة ، ومستعينة بالاطفال بشكل خاص . كانت تدفع الاطفال لكي يتعلق كل واحد بعمه ، وتدفع كل كنة لان تهتم بسلفها أكثر مما

- الناس في موران يتعاملون معنا كتجار جملة كبار ، وبضائعنا تأتي من الهند والسند ، أما الشغلات الصغيرة فلا نعد إليها ايدينا ، فاذا بدأنا ببيع العلكة والملبس ، واذا بدأت تقدرين لكل جريانة سودا قبقاب او بابوج ، ترى راح ننزل بعيون الناس ، وتخرب بيوتنا !

لم تفهم امه بوضوح ما اراد ان يقوله ، وبكثير من الهدوء والصبر ، مع التأکید الذي لا ينفك يتزايد على الغنى والوجاهة ، وانها يجب ان تكون امرأة مقدرة ، اكبر من كل نساء موران ، شرح لها ان تجارة من النوع الذي تفكر فيه سوف تؤدي الى اضرار كبيرة ، واكد لها ان الناس في موران يختلفون كثيراً عن عمان والشام ، ويجب ان يتم التصرف معهم بشكل مختلف تماماً . أما حين تساءلت :

- والحنة والبودرة واللبن اللي تعبت في حملها ؟

- خذي عشر طوق ربحاً فيها ، بس خلصينا منها !

هكذا رد سعيد ، في محاولة لان يدفن الفضيحة في مهدها ، فتساءلت من جديد :

- برأيك ان النسوان في هذي البلد ما بحنوا شعرهم ؟ ما بتبودروا ؟
وعلكة ما يعلكوا ؟

- كل شي بسوا .

- طيب ، احنا ليش خايفين ؟

- احنا خوف ما خايفين ، لكن هذه الشغلة ما هي شغلتنا .

- شغلة من ؟

- يا امي ، يا حجة ، بعد ما تقضي هنا كم شهر تعرفين كل شيء ،
تعرفين اخلاق الناس وطبائعهم !

- ولازم انتظر على هذي الاشياء التي حملتها كم شهر ؟

- هذه انسيها ، ادفينها بالتراب وكأنها ما كانت !

- والنعمة تندفن يا ابني ؟

الخضار ، ولا يفكر احد باستعمال الخضار المجففة ، تجلب الامشاط وليف الغسيل ، ولا تتردد في ان تحمل نماذج من الاقمشة الحريرية او الصوفية ، اضافة الى السبجات وانواع من الحلويات الشامية . وفي اوقات اخرى كانت تحمل المناخل والعقل والبخور ، ولا تتردد في جلب العباءات والفروا ، اذا وصيت عليها في وقت مناسب .

كانت رحلات ام حسني بين دمشق وعمان ، في تلك الفترة ، وكانت تتكرر بمعدل رحلة كل ثلاثة اسابيع او اربعة . ولا بد ان تحمل معها ايضاً مفاجآت عديدة . وبكثير من الدهاء تتصرف مع زبائنها ، والذين صنفتهم ضمن سلم وحسب اولويات معينة ، فهي ، اولاً ، لا تعلن عن وصولها الا بعد وقت يكفي لان ترتب جميع الحاجات ، وبعد ذلك تبعث باخبارها لعائلات قبل غيرها ، وتستقبل عائلات قبل غيرها . أما المواد التي جلبتها فتعرف متى تعرضها ولن .

هكذا كانت ام حسني طوال السنوات التي قضتها في عمان ، الآن ، وهي تصل الى موران ، ورغم طول المسافة وصعوبة الطريق ، ورغم الرسالة المطمئنة التي وصلتها من حسني ، والتي لم تترك احداً الا وقرأها لها ، فقد حملت معها ايضاً كميات من المواد والحاجات التي افترضت امكانية الحاجة اليها ، وبالتالي رواجها . اختارتها بعناية وغلفتها لتبقى اطول فترة وفي احسن حال . أما بعد ان استقرت واطمأنت الى وضع ابنيها ، وان كل شيء يسير سيراً حسناً ، فقد فكرت ، من جديد ، ان تفتح بيتها لاستقبال المشتريات من الجوار ، لكن ما كادت تلمح الى ذلك ، وباشارة بعيدة غير مباشرة ، حتى صرخ سعيد محذراً :

- ابوس رجلك يا حجة !

ولما بدا عليها الخوف تابع موضحاً :

- خبير من هذا النوع اذا طش وانتشر في موران ، معناه ان نرحل يا امي ،
ان نحزم اغراضنا ونمشي !

وحين فتحت عينيها بدهشة وتساؤل قال بصوت هامس :

- بهدي البلد كل شيء يمكن ان يندفن : البشر، النعمة ، وحتى الشرف
يمكن ان يندفن ، لان المهم هو المظهر ، ولازم ما نغلط يا حجة !

فهمت ام حسني ما قاله ابنها ، لكنها لم تقتنع ؛ اكثر من ذلك اعتبرت ان
حسني على حق ، لم يتغير ، لم تفسده النعمة ، فملاسه ، عدا يوم الجمعة ،
هي نفس الملابس التي تتذكر انه كان يلبسها قبل بضع سنوات في عمان ، أما
تقواه فبدل ان تنقص زادت ، وكذلك عاداته كلها في الأكل والنام . أما سعيد
فانه الآن شخص مختلف ، انها تنكره ، لكن تطمئن نفسها انها نزوة من نزوات
الشباب ، ولا بد ان يرجع الى عقله او يرجع اليه عقله ، كما يحصل له دائماً
بعد كل خسارة، بعد كل مصيبة .

واذا كانت العجوز قد وافقت على مريض فانها لم تستسلم ؛ انفجرت
داخلها كل تلك العبقورية البدائية ، تماماً مثل الحيوانات، التي تعرف كيف
تشق طريقها ، كيف تفك الحصار من حولها ، ولذلك ، ولم تكدمضي عليها
بضعة اسابيع ، حتى انطلقت كما تنطلق دودة الارض ، ففي وسط ظلام
موران الذي يحيط بباية امرأة ، استطاعت ان تعرف طريقها .

وصفت ام حسني لسعيد ان روحها طقت ووصلت الى حلقها ، شعرت
انها ستموت . و« ان الروح يا ابني صارت مثل عصفور يرفرف في صدري »
وتشير الى القلب ، ولذلك لبست ملاءتها وخرجت .

مشت ، مشت لا تعرف في اي اتجاه ، او الى اين . كانت تتطلع الى
البنائيات والناس من وراء منديلها السميك . كانت ترى كل شيء عجبياً غريباً
لا يشبه اي مكان آخر رأته من قبل . الناس يشترون ، يبيعون ، ينادون ،
بصرخون ، يضحكون ، وفجأة ، وبعد ساعات من المشي ، وصلت لا تعرف
الى اي مكان ، عطشت ، كانت تريد دعة ماء ، ان تستريح في ظل شجرة او
حائط ، وفجأة وجدت نفسها في مكان غير كل الاماكن ، وجدت نفسها في
القصر !

هكذا روت القصة اول مرة ، حين ذهبت بمفردها الى القصر . أما في مرة
لاحقة فقد اكدت انها تطلعت بامعان ، لكي لا تنسى ، كيف سارت بهما
السيارة ، هي وزوجة الحكيم ، في اول زيارة للقصر . وانها تتذكر معالم
اساسية هي التي قادتها في المرة الثانية . أما مسألة العطش ودعة الماء ، او
مسألة التعب والرغبة في الراحة والجلوس بظل جدار او تحت شجرة ، فقد
تخلت عنها . اذ ما كادت تصل الى القصر ، وما كاد ذلك العبد الاسود
يعترضها ، طالباً منها ان تبتعد ، ثم يسألها عن تريد ، حتى ذكرت انها تريد
ان ترى الشبيخة ، أما حين سألها من جديد ان كانت الشبيخة او احد آخر في
القصر طلب مجيئها ، فقد اكدت ان الشبيخة بالذات تنتظرها .

وبعدا صار الي صار .

لم تسمع ام حسني كيف تروي زوجة الحكيم قصة البداية ، ولم يجرؤ احد على اعادة روايتها امامها . اما هي فقد روتها بطريقة مختلفة للغاية : « بعدما كملت الاسبوع في موران حتى جاءت زوجة الحكيم ، نسيت اسمها ، البنت الطرابلسية . واذا الله ما كذبني يمكن اسمها وداد ، جاءت حتى تسلم علينا وتدعونا للعزيمة الي ناوي الحكيم يعملها لنا . بعد السلام والكلام قلت لها : يا بنتي انا العزائم ما متعودة عليها ، واذا كان لا بد ولازم كسايي والاولاد يحضروا . قالت ابدأ . هذا الكلام شيليه تماماً من راسك ، لانك اذا لم تحضري انا ازعل والحكيم يزعل ، والعزيمة من اجلك ، بالاساس ، لام حسني ، ام الكل . الخلاصة - قدر ما شدت وقدر ما اعتزرت ما في فائدة . رحت . اكلوا الجماعة . الأكل كله حاضر ، هي ما لها علاقة ، ما مدت يدها لطبخة . انا ما اكلت ، لكن ما خليت احد يشوف او يحس . المهم ، بعد الأكل ، قالت : يا ام حسني صار لك اسبوع او اكثر في البلد ، والظاهر ان الجماعة في القصر آخذين على خاطرهم ، زعلانين ، وانا من رأي ان نزورهم اليوم قبل بكرة ، والحكيم وصاني ان اقول لك هذا الكلام . قلت لها : يا بنتي انا عجوز اختيارة ومالي همة وما عندي مروة ، ولا اعرف كيف احكي معهم . قالت : زيارة ساعة ، وانا امر بالسيارة ونروح مع بعض ، وهناك ، وبعد السلام ، لا تحكي ولا مطلوب منك شي ، خلي كل شيء علي .

ظليت محتارة وركبني الهمة ، حتى النوم ما قدرت انام . وانا اتقلب على فراشي ، والدنيا حولي نائمة ، قلت لنفسي : كبري عقلك يا ام حسني ، ظلي بيتك ، لا تروحي ولا تحي ، الي يجبك ويسأل عنك هو الي بسأل وهو الي يجي ، اما وانت حاملة نفسك ورايحة لتلقني من بيت لبيت ، بكرة الناس تقول شايبة وشرشوحة ، وكل النهار دايرة وكان ما لها بيت . ولو كانوا ناس عادين مثل باقي الناس ، كان فيها وما فيها ، لكنهم امراء وملوك ، والواحد ، حتى لو ما كان له معهم حاجة او شغلة ، ينظروا اليه من فوق ، يتصوروا انه شحاذ وجاء للشحاذة والسؤال .

المهم . . للصبح ما نمت . كنت محتارة وركبني الهمة . في الأخير قلت

زوجة الحكيم تروي القصة بطريقة مختلفة : « زهقتي المخلوقة ، طلعت روحي . كل يوم والثاني وهي مزروعة بخلقتي : دخلك يا ام غزوان ، أنت وزوجك ناس اكابر ، احسن من جميع الناس ، وانا بنفسني زيارة القصر والتعرف على الحريم ، ولا احد يمكن ان يأخذني غيرك . واسكت ، لكن هل تسكت ؟ ابدأ . علقتني مثل العلق : نحن اقارب ، نحن حبايب ، وما لنا الا الله وانتم ، ولولاكم ما جينا الى موران ولا شفناها ، والواحد اذا سوى المعروف لازم يكمله . وأسألها : لماذا القصر يا خالتي ؟ من تريدين في القصر وماذا ستعملين هناك ؟ وترد : لا اريد اي شيء ، بس سلام وكلام ، بنفسني اشوف القصور وناس القصور » .

وتتهند زوجة الحكيم ثم تتابع : « اذا غابت يوم تحي ثاني يوم : يا ام غزوان : ابوس ايدك ، ابوس رجلك لازم تأخذيني للقصر . قلت لنفسي ، مثل ما لزق ابنا الحكيم وظل وراءه حتى وافق ، الظاهر ان هذه العجوز ما في نيتها ان تحل عني ، ستبقى لازقة .

المهم اتفقنا . قلت لها بكرة . ثاني يوم شرفت : مطقومة ، محبة شعرها ، محضفة ، وتطق بتمها ، الي ما فيه سنين ، العلكة : يا الله يا ام غزوان ، تأخرنا يا ام غزوان . خاف الجماعة يزعلوا إذا تأخرنا عليهم يا ام غزوان . رحنا . ونحن في السيارة مدت لي يدها بقطعة لبان ومسكة وقالت : حلي سنك يا ام غزوان ، وضحكت . وبعد شوي التفتت وشوشنتي : حتى الانفاس تكون طيبة اذا الواحد سلم وباس . ومن باب القصر الداخلي ، وما ان تصل امرأة لتسلم علينا حتى تهجم ام حسني عليها : وبوس وبجق . . بوس وبجق . استغربوا ، فتحوا عيونهم : خير ان شاء الله . منين لين؟ ويلشوا يتضحكوا ويتطلعوا فيها ويتطلعوا ببعضهم . انا صرت مثل القملة المفروكة ، خجلت ، غسلني العرق وما عرفت كيف اتصرف وكيف احكي . قلت لهم : ام حسني قريبتنا ومشتاقة وجاءت للسلام . قالوا : اهلاً وسهلاً ، وسكتوا . وهي مثل العفريشة تتطلع في الوجوه وتضحك . لما جاءت الشبيخة ، امي زهوة ، قلبها حسها . تركت كل الناس وهجمت عليها . ومثل القطة اندحشت فيها ، والشبيخة عقلها جوزتين بخرج ، انعبطت داخت ،

بعيني . قلت لنفسي الي بدو يصاحب الامراء لازم يتحمل غلاظاتهم وثقل دمهم ؛ وانا بهذي الافكار ، فكرة تأخذني وفكرة تردني انفتح الباب ودخل منه اربع خمس نسوان ، وقفت وسلمت ، لكن ، الله الوكيل ، الواحد لا يعرف الاميرة من الخدامة ، مثل بعضهن : صفر ، محصونات ولا كأن فيهن دم . كنت ارجف ، مبهوتة وخايقة ، سألتني واحدة لكن ما فهمت عليها . قالت لها ام غزوان : ام حسني قريبتنا والحكيم يجيها مثل امه ، وفرحتنا بوصولها الى موران لا تعادها الا فرحتنا بالتعرف عليكم ، وقلت لنفسي لازم يتم التعارف ولازم الطيبين يعرفوا بعضهم » .

وتستريح ام حسني قليلاً ، تستعيد في ذاكرتها هذا الحشد المتداخل من الأشياء والوقائع ، ثم تتابع بصوت صقلته جرعة الماء التي تناولتها : « كان يمكن لهذه الزيارة ان تكون الاولى والأخيرة لو ان الشبخة ما وصلت . لما دخلت الكل سكت ، وكان يمكن ان تسمع الابرة لو وقعت على الارض . قلت لنفسي هيك لازم تكون الامهات وهيك لازم تكون الاميرات : في عينها بريق يذوب الحجر ، والجين يضوي مثل الفجر ، مهيوبة ، راكزة ، وكأنها غير عن البشر . سلمت وقعدت ، لكن لم ترفع نظرها عني ، وانا ، سبحان الله ، قلبي لها لهف . منها سؤال ومني سؤال وانبت بينا للمحبة جسور ، وكأننا نعرف بعضنا من ازمان ودهور » .

لنفي : الله يكتب الي فيه النصيب . قمت وصليت ودعيت ، ورجعت للنوم . نمت . شفت احلام كثيرة ، احلام مثل الكوابيس : شفت حالي وسط جماعة كبيرة وكل واحد يجربي ويضربني ، وكل واحد يقول : هذه هي . قمت مفزوعة ، توضيت وصليت ، قلت لنفسي اذا مرّ هذا اليوم على خير نذراً عليّ اصوم ثلاثة ايام . قعدت في البلكون اقشر الفول ، بعد ما كسرت الصفرة وشربت فنجان قهوة . ولا اعرف كيف جاء على بالي ان اقلب الفنجان واشوف حظي . قبل ما ينشف الفنجان ، وقبل ما يخلص تقشير الفول جاءت زوجة الحكيم : يا الله . . يا الله يا خالي . بعثت خبر للقصر وقالوا انهم بانتظارنا . قلت لها اقعدني با بنتي ، اشربي قهوة ، استريحني ، وعلى رواق ، مع فنجان القهوة ، نحكي كلمتين ، لان البارح ، وسط الصباح والجماعة ما قدرنا نحكي . قالت : نحكي بالسيارة وقهوة شربت ، ولازم نمشي بسرعة لان الجماعة بانتظارنا . قلت : يا بنتي ما لي نفس بهذي الروحة . قالت : أبداً . انا ازعل وهم يزعلوا . المهم الحت والحت حتى طاوعتها . دكيت ملايتي الزم وتدحرجت وراءها . ركبنا السيارة وطارت فينا ، لا اعرف من اين راحت وكيف راحت ، غمضة عين ، وانا دائخة وقلبي يرجف ولساني صار مثل الخطبة ، حتى صرنا بالقصر .

هذا هو القصر ؟ هذا هو الي طوشونا فيه ؟ سألت نفسي ، وقلت : بيت المفتي بالشام احسن منه بالف مرة . بيت الحايك او بيت الطبايع بعمان احسن منه بالف مرة . ما فيه الا الحيطان العالية ، حيطان من طين ، ولا عرق اخضر ، ولا شقفة زرع . والغرف معتمة تقمط القلب ، وريحمة الزفر مالية الدنيا . قلت لروحي : يا حسرة على القصور وعلى الساكنين في القصور . تطلعت هون تطلعت هونيك : كل شيء وسخ ، مزقت وبألعت ، والله واعلم انه بعمره ما انغسل . قلبي انعص وتمنيت لو اني ما طاوعت هذي المقصوفة وما داست رجلي . . لكن . قالت لي امرأة سوداء مثل الفحمة : « اجلسي » . قالت هذه الكلمة بامر وكأني قاتلة ابوها ، واثارت الى كومة من الفرشات . قعدت . كنت خايقة وقرفانة ، وكأني قاعدة على اسياخ من نار . تركتنا السودا انا وام غزوان وراحت . تطلعت لام غزوان ، تطلعت حولي ، اسودت الدنيا

فتحت عينها على اتساعها ، فلمح فيها الاهتمام اكثر مما لمح الندم ،
فتأكد انه يسير في الطريق الصحيح . تابع :

- وقلت للجماعة اللي سألوا: اعطوني فرصة هذه الليلة وبكرة ارد عليكم
الجواب .

سألت بلهفة :

- وهذي الاشياء .. كثير غالية ؟

- غلاء ما هي غالية .. الا اذا صار عليها طلب .

- ومطلوبة كثير ؟

- اذا القصر طلبها ، اللي يبيعها يصير فوق الريح .

عضت عن شفرتها بنوع من الندم . احس ان شيئاً قد حصل . لم
يلاحظها . صمت ليفسح لها المجال وتتكلم . تطلعت في اكثر من ناحية ،
وهي لا تفعل ذلك الا حين تخسر في التجارة . يتذكر المرات القليلة التي
خسرت . خسرت حين اخذت منها واحدة من « الاكابر » ولم تسد ،
وخسرت مرة اخرى لما انكرت اخرى ، وخسرت حين اعاد لها مرة الزوج ما
اخذته زوجته ، بعد ان كان الاطفال قد اتوا على الجزء الاكبر من القمر الدين
واللوز . كانت تعترف لا لتؤكد خسارتها وانما لتعلم درساً . اليوم رأى في
عينها ذات النظرة .

بعد فترة صمت طويلة قالت بحقد :

- بنت الكلب تقول لي اجلسي ، اجلسي ، ويروح يوم ويحي يوم وتقول
لي : عمتي أريد حنة ، وأعطيتها . تقول : هذا لا يكفي يا عمتي لأن شعري
مكزبر ، واعطيتها مرة ثانية ، اعطيتها حنة تكفيها لاجداد اجدادها .
- من هي يا امي ؟

تنهدت بحسرة ثم قالت بما يشبه الاعتراف :

- العبدة السودا اللي تشتغل في القصر .

لما تأكد سعيد ان امه « دخلت » القصر ، وان العلاقة بينها وبين الشيخة
تزداد رسوخاً وقوة يوماً بعد آخر ، اصبح على يقين انها لا بد وان تمارس
« تجارتها » بشكل من الاشكال ، لان هذه العادة لم تفارقها منذ ان كان
صغيراً ، فاضطرب قليلاً ، بل اكثر من ذلك عاودته المخاوف ، وخشي هذه
المرة ان تحمل تجارتها وتدور بها بعد ان كان يأتي اليها المشترون في السابق . وفي
محاولة لان يعرف ما اذا بدأت ام لا ، سألها بشكل مفاجيء :

- انا غلطان ، يا حجة ، في الكلام اللي حكيناها قبل كم اسبوع !

- اي كلام يا بني ؟

- قلت لك انسي وادفني الاشياء اللي حملتها معك من الشام .

وبعد قليل وباسف :

- وانشاء الله تصرفت بها كلها ؟

نظرت اليه بارتياح قبل ان تجيب :

- خير انشاء الله ؟

- ما هم شغلة في السوق اليوم الا السؤال عن شوية حنة وشوية بخور .

وبعد قليل :

- ومستعدين ان يدفعوا وزنها ذهب ، لان هذه الاشياء مطلوبة للقصر

- المسألة اولها وآخرها : ان الواحد ينصب الفخ ، يرمي الشبكة ،
وبعدها كل انسان وشطارته !
- شطارته ؟

- اي نعم ! وبعد قليل : والشطارة ما هي دائماً البيع والشراء .
تطلعت اليه دون ان تتكلم ، انها تسمع شيئاً جديداً . لقد تعودت ان
تعرف الشطارة في البيع والشراء . في هذين المجالين وحدهما تظهر براعة
الانسان وقدرته ، ولا تتصور ان هناك مجالاً آخر . تابع وكأنه لم يلاحظ شيئاً :
- المهم ان يحصل الانسان على المال ، ان يعرف كيف يصل اليه !
مدت شفقتها السفلى فبانث طويلة رخوة ، التفت اليها بسرعة وقال :
- مثل ما يحط الصياد الشاطر الطعم في الفخ لازم نحن نحط الطعم في
الهدايا التي تقدم للقصر !

سألت بحذر :
- شو قصدك يا ابني ؟
رد بسرعة :

- ما دام المال عند القصر ، وما دام القصر يحتاج الى الحنة والبخور . .
والف شغلة ثانية ، فالواحد بدل ان يبيع الحنة والبخور يقول لهم : خذوا ،
واذا اخذوا . . تورطوا ، يدفعون بدل الواحد الف ، هذه هي الشطارة !
- بدون بيع وشراء ؟

- هذا هو البيع والشراء الجد . . يا حجة .
- ونعطي هذي الحاجات للاغنياء ، للامراء ، بدون ما نأخذ حقها ؟
رد في محاولة لان يحكم السيطرة على الموقف من جديد :
- اسمعي ، يا حجة ، هات لي كل « البضاعة » اللي حملتها معك من
الشام .

وبعد كثير من التردد ، والتأجيل والرجاء ، في محاولة منها ان تبقى حرة

- وغيرها يا حجة ؟

- فكرت ان ابيع الحنة والبخور ، لكن خفت من كلامك ، قلت لنفسي :
اغراب ولا اعرف طباعهم .

- وانشاء الله اعطيتها كل الحنة ؟

- لا يا ابني ، الشاطر اللي يعطي قطرة قطرة ، والمهبول اللي يدلق حاله فرد
مرة .

- يعني . . عندك حنة ؟

- انا امك ، من كل شي اخلي خميرة .

- وانشاء الله الخميرة كبيرة ؟

- لا تخف . يا ابني !

وضحكت ، فبانث سناها الاماميتان ، كانتا كبيرتين بارزتين . اطمأن ، ضحك
بصخب ، لكي يحاول ان يبدأ من جديد ، لكي يجرها الى حيث
يريد . بعد ان هدا وترك فترة كافية للصمت قال ليبدأ معركته :

- يا امي . .

تطلعت اليه بتساؤل تريد ان تتابع معركتها وقد اتضح لها ، تابع :
- ما دام القصر بحاجة الى الحنة والبخور ، وما دام انت وصلت ، فنحن
الآن في بداية طريقنا الى الجنة . . .

وبعد قليل اضاف بلهجة مختلفة تماماً :

- اذا انت ساعدتيني !

سألت باهتمام :

- انا ؟ كيف يا ابني ؟

- اي نعم ، انت !

تطلعت اليه متسائلة ، لكن بارتياح ايضاً ، تابع :

عَبَّ نفساً عميقاً :
- اسمعي يا حجة .. راح ادفع لك المصاري اللي دفعيتها وفوقها قدها ربح .. راضية ؟
ردت بمكر :
- البضاعة ، يا ابني ، ما هي للبيع !
- ايوه .. يا حجة .. هذه واحدة ، والثانية ، ما رايح آخذ البضاعة ، رايح اتركها عندك ، بس بشرط
- بشرط ؟
- اي نعم .. بشرط
- ما هو الشرط ؟
- ان تقدم هدايا للشيخة والاميرات . بالمختصر ، تقدم للقصر !
رفعت يديها الاثنتين دلالة انها لا تستطيع ، وبعد قليل :
- قلبي لا يطاوعني يا ابني .
وانخفض صوتها تماماً وكأنها تخاطب نفسها :
- اللي ما عنده شي يعطي ، يقول خذوا ، واللي عنده اموال قارون يأخذ وما يعطي ؟
- مثل المصيدة والجبنة .. يا حجة !
- السم الهاري .
- طولي بالك يا حجة ، يا ست الكل ، ومثل ما قلت لك : ادفع لك ثمن البضاعة كلها وفوقها الربح ، واركها عندك ، بس مسألة البيع والشراء اتركها .
ردت بنوع من الغضب :
- خلص يا ابني ، ويقطع اللي بدو بيع واللي بدو يشتري .

التصرف ، وان تبيع بالطريقة التي تروق لها ، وفي محاولة منه ان يسيطر كلية ، جلبت الصرر واكياس الخام الصغيرة ، وقد ساعدها في ذلك ، فلما وضعت جميعها في منتصف الغرفة ، على شكل كومة صغيرة مضحكة ، سألها وهو يفرك يديه فرحاً :
- ايوه .. يا حجة (وهو يستعمل نفس التعبير الذي كانت تطلقه عليها النسوة في عمان ، رغم انها لم تذهب الى الحج ، وخلافاً لحسني الذي يصّر على مناداتها : يا امي ، مؤكداً على الهمزة المكسورة) .
تطلعت اليه بنصف ابتسامة ، وبدت فخورة ببضاعتها ، سألها من جديد :
- هذه هي كلها ؟
هزت رأسها علامة الايجاب دون ان تتكلم . تابع :
- طيب ... كم دفعت ثمن هذه البضاعة كلها ؟
بانت عليها الدهشة وشيء من الخوف ، اذ ظنت انه سيتلفها ، قالت في محاولة لاستعادتها من جديد وقد سيطر عليها هذا الخاطر :
- يا ابني قيمتها ما هي كبيرة ، وبكرة نعطيها للمستحقين فطرة او زكاة ، لا توجع راسك بهذي الشغلة .
- الحق معك ...
وبعد قليل :
- بس بدي اعرف كم دفعت !
واستدرك بسرعة وهو يقهقه :
- لا .. ما مهم كم اندفع ثمن البضاعة ... المهم كم هو طلبك اليوم ، في موران ؟
- يا ابني
ولما رأى التوسل في وجهها ونوعاً من الحزن قال بلهجة جديدة ، وبعد ان

حياة مثل هذه تركت آثارها وقوانينها في نفس هذه العجوز ، ولا يمكن ان تستبدل بين يوم وليلة اياً كان الوضع الذي تعيش فيه الآن . أما ما يقوله لها سعيد فانه لا يتعدى نزوة من تلك النزوات التي تملأ رأسه ، كما ملأت رأس أبيه من قبله ، تركهما معاً للفقر والمصاعب ، بعد أن تخلّى عن الكثير ، وبعد أن وضع ثقته في كثيرين ، دون اوراق ، دون شهود ، فذهبت هذه الاشياء عند ما ذهب .

ولكي لا يستسلم لجو الحزن ويجاري امه فيفقد ما توصل اليه ، قال بانفعال :

- والله يا حجة كل ركضي وكل تعبي حتى اعوض عليك التعب ، لاني اعرف كم شقيت من اجلي ومن اجل اخوتي .

وهز رأسه باسف وحزن ثم اضاف :

- واليوم . . . ولأخر يوم في العمر ، أريدك فوق رؤوسنا ، وما أريد تتعبي ، وحتى شربة الماء لازم تصل عندك .

وانتقل الى موضوع آخر وبدأ يتحدث ويفكر كما لو انه وحده .

وتغير صوتها ، اصبح حزيناً :

- سألوا: شو اللي ودّك على المرء؟ قال: الأمر منه . وأنا يا ابني ، لولا الحاجة ، لولا الفقر ، وحتى لا تضيعوا وتمدوا ايديكم للناس ، حملت عنكم هذا الحمل ، تعبت وشقيت حتى لا تجوعوا ، حتى لا تخدموا في بيوت الناس . وانا يا ابني لا بنفسني تجارة ولا بنفسني ربح وخسارة .

وساد الصمت من جديد ، كان صمتاً حزيناً مذكراً ، مفتوح ابواب الماضي ، فتدفق هذا الماضي مشحوناً قاسياً ، وكأنه عدو . تذكر سعيد اياماً بعيدة ، تذكر كيف كانت امه تركض من مكان الى آخر ، في الليل والنهار ، من اجل ان تؤمن اعمالاً تكفي لشراء الخبز ، وكيف كانت تسهر الليالي ، ليلة بعد ليلة ، خاصة في رمضان ، أو قبل العيد الكبير ، من أجل أن تشتري لكل واحد منهم حذاء او قميصاً . كان تعبها يذوب ويتلاشى في الضحكة التي تتلقاها مقابلاً . وكانت في فجر العيد تبدو قوية وكأنها لم تسهر الليالي السابقة كلها ، لكي تتلقى فرحهم وابتساماتهم . وبعد ذلك ، حين وصلوا الى عمان ، وواجهوا صعوبات في البداية ، تولت فتح البيت ، هي التي صرفت عليه من التجارة الصغيرة التي اكتشفتها فجأة . . . وحتى وقت متأخر ، وربما الى الآن ، لا تعرف عمليات الحساب الصغيرة ، كانت تتعامل بكل سلعة على انفراد ، ولكي لا تخطيء او لا يخدعها احد ، كانت تصرّ على ان تأخذ ثمن كل سلعة بشكل مستقل ، وكثيراً ما كانت تفرد المواد التي تبيعها على مساحة كبيرة ، وفوق كل مادة ما يقابلها من النقود ، وكانت تحرص على ان تتوافر لديها مبالغ من القطع النقدية الصغيرة ، واول ما تفعله ان تصرف للنساء اللواتي لا يحملن مثل هذه القطع . أما اذا زادت المبالغ عن حد معين ، واذا اقتضى الأمر اجراء عمليات حسابية ، فكانت تستعين بكنتها او بالاثنتين معاً ، مع شرط لا تمّل ابداً من تكراره : « الترجيع غير مسموح ، المسموح غلط الحساب والسهو » وبعد قليل تضحك وتضيف : « للطرفين » وكثيراً ما راجعت الحساب مرة او اثنتين ، وكثيراً ما أعادت صف ما يماثل المواد التي باعتها ، ووضعت فوقها النقود ، أما المواد التي نفدت فكانت تضع ، عوضاً عنها ، مواد اخرى ، وتظل تقول وتكرر لنفسها اسم المادة المفقودة لكي لا تسهو ولا تخطيء!

سعيد كان الوحيد الذي ادرك قبل الجميع ان «الحجة في الطريق الصحيح» ولكي يشجعها ويحرضها بدأ يلعب اللعبة معها ، ولذلك ، وخلال فترة قصيرة ، حوّل البيت الى سيرك ، واراد ان يشرك الجميع فيه . كان يحمل معه ، كل يوم ، مجموعة من الكلمات الجديدة ، ولا يزال يرددها ، ويطلب من الاطفال ان يرددوا وراءه ، ثم يطلب من امه ان تفعل ذلك ايضاً ، في جو من المرح والمزاح ، مع الضحكات الساخبة والجواثر ، بحيث تحولت تلك الكلمات الى مجرد اصوات دون اي معنى ، ولأنها تتكرر بهذا المقدار وبهذه السرعة فقد تداخلت واصبحت مضحكة او اقرب الى الاحاجي .

وبكثير من الجهد الدؤوب والمثابرة ، اضافة الى استفزاز الجسد كله ليلعب دوراً مساعداً ، اخذت ام حسني تلجأ للاشارات ، والى وجهها وعينيها لكي يساعدها في التعبير ، الى ان توصلت الى خلق لغة خاصة ، لغة مضحكة ، لكنها كافية للتعلم والتعبير . والشيخة التي اعجبت ، لا تعرف لماذا ، بهذه المرأة بالذات فمنذ اللحظات الأولى ، وجدت في لغتها من الصراحة ما يساعدها على النسيان والتغلب على الحزن . وإذ أدركت أم حسني هذه العاطفة ، ولكي تقوي مركزها ، فقد واصلت اللعبة .

ومثلما كان فنجان القهوة محراثاً فتح لها دروباً في أماكن أخرى فقد دلّتها غريزتها إلى ان هذا المحراث لا يجيب . كانت تؤد ان تدعو نساء القصر الى بيتها ، فهناك ، مع الحديث عن حظوظ المستقبل ، من خلال ما يقوله الفنجان ، يمكن ان تفرد حاجاتها . سوف تفعل ذلك بكثير من التؤدة ، وكأنها تعرض امامهم اشياء ليست للبيع . ستعرض حاجة بعد اخرى ، ولا بد ان يشتروا . انها متأكدة من ذلك ، ومتأكدة اكثر ان لديهم من المال الكثير الكثير . لن يتعبوها في المساومة ، ولن يعيدوا الاشياء بعد شرائها . لكن دعوة مثل هذه سابقة لاوانها ، انها لا تعرف البشر هنا ، لا تعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون ، ولذلك فان الخطأ المبكر يكلف صاحبه ثمناً غالياً . ليس هذا فقط ، « انهم امراء وسلاطين » هكذا قالت لنفسها ، وهذا نوع جديد من الناس لم يسبق لها ان تعاملت معه ؛ صحيح ان الاغنياء ايضاً نوع خاص من البشر ، لكنها تعرفهم ، بل وتعرف كيف تخاطبهم وكيف تؤثر فيهم . كانوا

واجهت ام حسني في علاقتها مع الشيخة ، خلال المرحلة الاولى ، بعض الصعوبات : عدم معرفة اللهجة ، وبالتالي صعوبة التفاهم ، وكذلك الحال بالنسبة للتسمية المناسبة التي يمكن ان تطلقها عليها اثناء النداء او التخاطب . فزوجة الحكيم كانت بمثابة المترجمة اثناء الزيارة الاولى ، وكانت لا تتردد ايضاً في ان تنادي الشيخة بنفس اللقب الذي سمعت الجميع ينادونها به ، اي « امي زهوة » .

الآن وقد اصبحت ام حسني تزور القصر بمفردها ، وجدت نفسها مضطرة لاختراع لغة خاصة جديدة للتفاهم ، ومن اجل ذلك بذلت جهداً في تعلم بعض الكلمات ، وبذلت جهداً اكبر من اجل تحريض ذاكرتها لاستعادة ما حفظته من كلمات غريبة وشعر وامثال منذ ان كانت طفلة .

كانت تقضي الساعات امام النسوة في القصر ، وكأنها خرساء . منصتة ، صامتة ، متوترة ، واقرب الى الذهول ، تتابع الحديث بحواسها كلها ، لعلها تلتقط بعض الكلمات . أما وهي عائدة الى البيت فكانت لا تتردد في استعادة الكلمات التي سمعتها ، تفعل ذلك في الطريق ، ثم وهي تنزع ملاءتها ، واثناء ما تخاطب الصغار . الكنتان اللتان رأتا وسمعتا ، تظاهرتا انها لم تسمعاً ، او نظرت الواحدة في وجه الاخرى وابتمت . اما حسني ، وهو يسمع امه تتكلم بطريقة محمومة ، ولا تكف تردد لنفسها بصوت خافت كلمات غامضة ، وكأنها تردد الادعية ، وبعض الاحيان تسأله عن معاني كلمات معينة ، فقد اصبح على يقين ان « هواء موران لم يناسبها ، ويجوز انها عيّت »

تعال معه ، والقضية اولها وآخرها بيع وشراء ، عجبهم اشتروا ما عجبهم على كيفهم . الف واحد غيرهم يشتري » . وتستيقظ فيها كرامتها « اثقلي شوية يا مرة ، الثقل للمرة زينة ، وبكرة هم يلحقوك » وتقرر اخيراً أن تقدم تنازلاً جزئياً « القهوة . . الركوة والفناجين ، خفاف ، حملهم سهل . اقول لهم : اشتيت أن تشربوا قهوتي ، ان تجربوها ، بعدما شربت أنا قهوتكم . اشربوا وبعدين احكموا » ، وبعد ان يشربن اقول لهن « طبوا الفناجين لاني راح اشوف لكم بختكم » .

وحملت ، في صرة ، الى القصر ادواتها . أبقتها تحت ملاءتها انتظاراً للوقت المناسب ، فلما جاء هذا الوقت قالت للشيخة بما يشبه التوسل ، وكانت مرتبكة :

- يا امي زهوة . . .

ولما نظرت اليها المرأة بتساؤل واستغراب ، تابعت :

- عندي طلب ، واريدك ما تردي طلبتي .

- خير انشاء الله يا ام حسني ؟

- راح اعمل قهوة واريدك تشربي منها .

والشيخة التي فهمت ولم تفهم ظلت تنظر اليها بتساؤل ، فلما فكت صرتها واستخرجت ادواتها ، بما في ذلك السكر والقهوة ، وعرضتها امامها ، للتسديد على النظافة وحسن النية ، نهضت مهرولة مثل قطة الى الحوش ، حيث كانت النار ودلال القهوة ، وبكثير من البراعة ، وكأنها هيأت نفسها منذ وقت طويل ، بدأت .

خلال الفترة التي استغرقتها احتساء القهوة لم ترفع عنهن عينها . كانت تراقب بعناية ردود افعالهن ، مدى تذوقهن ، وهل يمكن لهذه القهوة ان تكون جسراً مثلما كانت في اماكن واوقات أخرى؟

الحنية التي لمستها في الوجوه ، والنظرات التي تبادلتها النسوة فيما بينهن كانت تكفي لان تهزم امرأة غيرها ، أما هي فقد حشدت نفسها لمواصلة

في اعماقهم بخلاء ، انانين ، كانوا يريدون كل شيء ، ويتمنون ويحاولون لو انهم لا يذوقون . لكن لم تترك واحداً منهم يفلت . حتى ترددهم كانت تعرف كيف تعالجه ، وتتغلب عليه . وهؤلاء ، هل هم مثل الاغنياء الآخرين ؟ هل يعتبر المال كل شيء بالنسبة لهم ؟

كانت مترددة في دعوتهن الى فنجان القهوة . لن تعرض عليهن شيئاً في المرة الاولى ، ولن تعرض في المرة الثانية ، لكن هل يرفضن دعوتها ؟ انهن اميرات ، دم خاص ، لا تعرف كيف يتصرفن ، او كيف تتصرف معهن ، لكنها ، مع ذلك ، تحس ان فنجان القهوة طريق لا يجيب ، ولا بد ان تلجأ اليه .

وهذه القهوة التي تقدم اليها الآن . . حاولت ان تكتشف فيها طعماً من نوع معين ، وجدت طعم البهارات كلها ولم تجد طعم القهوة . كانت تعرف ان القهوة يجب ان تُعدّ بكثير من العناية والمهارة ، يجب ان تُغلى وتعقد ، حتى اذا شُربت فتحت مسام البدن كلها ، وولدت لذة اقرب الى النشوة . وبعد ان تشرب ويُطبّب الفنجان ، تبدأ البقايا تنحدر وتنزل برخاوة لتخطّ معالم واشارات ودروباً تحدد وتكشف طريق المستقبل . أما هذه المياه العكرة ، المرة ، المليئة بطعوم لم تذوقها من قبل فيمكن ان تكون اي شيء الا قهوة . ولذلك كانت رغبته ان تصنعها بنفسها ، ان تدعوهم الى بيتها لتعلمهن درساً !

لكنها ، مع ذلك ، ظلت حائرة طوال الفترة الاولى ، وظلت تجبر نفسها على هذا « الصبر » تتجرعه ، وفي لحظة معينة استيقظت فيها روح الذئبة ، رغبة مواجهة العالم كله دون خوف ، من اجل ان تعمل وتعيش . لن تستمع الى كلمات حسني . « وسعيد فسقان ، لا يهه الا يومه ، وكل شيء على طيره . انا اللي تعبت وشقيت ، وانا اللي اعرف البشر » . وكادت ان تحمل معها الى القصر بعض الحاجات لتعرضها هناك وتغريهن بالشراء ، لكن فجأة توقفت « لا ترخصي حالك يا ام حسني ، طول عمرك والناس تجي لبيتك . كل الاكابر كانوا مزروعين عندك ، يسألون ، يترجون . . ويوصون . . وهذا الكلام متى ؟ قبل سنين ، لما كنت محتاجة . اليوم غير شكل ، والحجر بارضه ينفع » وترفض الفكرة ، تؤجلها ، ثم تعود اليها مرة ثانية « اللي ما يجي معك

الآخرين . فلما استمرت الشيخة تنظر اليها بتحفر اضافت بلهجة مختلفة :

- وما احسن الصبر الجميل مع التقي وما قدر المولى على خلقه بجري

كانت هذه مجرد البداية ، واذا ادركت الشيخة ما رمت اليه ام حسني ، فقد اكتفت ، لم تلح ، بل وبدا عليها للحظات الارتباك . ماذا لو تابعت ؟ وماذا لو قال الفنجان كل شيء ؟ قالت الشيخة بطريقة اقرب الى التورية :

- الناس خشب لين يتعارفون ، يا ام حسني ، والصدور صناديق !

والفتت ام حسني الى الفناجين الاخرى ، الى النساء الاخريات . وللحظات بدت وكأنها تعود عشرين سنة الى الورا . ارتسمت على شفيتها ابتسامة كبيرة ، تعبيراً عن المرح ورغبة الإثارة ، تماماً كما كانت تفعل مع تلك الصبايا في الشام وعمان ، حين يلجأن اليها لمعرفة فرص الزواج والحب والوصال ، طالبات ان تقرأ وتقول ما يجبهه الفنجان . الآن تعود الى نفس الطريقة : قالت كلمات عامة يمكن ان تؤول على اكثر من وجه ، قالتها مع ابتسامات وغمزات بالعين لكي لا يضطررها لان تقول كل شيء ، واذا فرحت كل واحدة بهذا المقدار ، وتمنت الا تواصل ام حسني هذه اللعبة الخطرة ، لكي لا تنكشف الامور اكثر مما ينبغي ، فقد بدأت كل منهن تفكر وتعمل لكي تلتقي بها على انفراد ، ان تسمع منها عن الماضي اولاً ، فاذا تأكدت طلبت ان تحدثها عن المستقبل ، وحتى لو لم تكن هناك الا ظلال من هذا الماضي ، فالاهم هو المستقبل !

فوجئت بالنتائج ، لم تتوقع ان تكون للكلمات التي قالتها هذا الاثر ، ولم تتوقع ان يتغير الموقف تجاهها بهذا القدر ، حتى هي شعرت انها تغيرت . بدت اكثر ثقة واكثر جرأة ، اصبحت قادرة على سؤال النسوة عن معاني الكلمات ، وتطلب منهن ان يتكلمن معها ببطء لكي تتعلم ، ولم تتردد ايضاً في استعمال بعض الكلمات الشامية ، رغم تأكدها انهن لن يفهمن معناها .

ومثلما تجر الهزيمة الى هزيمة اخرى فان الظفر يؤدي الى ظفر اكبر ، فما كادت تصل القصر في زيارة لاحقة حتى وجدت العيون معلقة بها ، تحتضنها ، تتابعها للتعبير عن المودة والاكتشاف معاً ، وبطريقة هي مزيج من الرغبة

الهجوم ، واذا كانت « التجارة » قد اكسبتها اشياء كثيرة فيما مضى من الايام ، فان معرفة الناس كانت ابرزها : كيف تفهم البشر ، وكيف تنظر الى ما وراء الاقنعة ، نقاط القوة والضعف لدى كل واحد منهم . كيف تفهم وتتعامل ، وهذه المعرفة التي لا تكشف عن نفسها ، هي التي مكنتها ان تعيش وان تقاوم ، وقد تأكدت هذه المعرفة اكثر من خلال فنجان القهوة . وهذا الفنجان الصغير كان كافياً لاصطياد اية امرأة ، مهما بدت قوية او بعيدة ، وكان بمقدار ما يفتح القلوب . . يفتح الجيوب ايضاً !

الآن تبدأ باستعمال هذا السلاح ، خاصة وان الفترة التي مرت مكنتها من ان ترى الكثير ، وان تسمع الكثير . ولانها لا « تفهم » اللهجة ، كما قدرت النسوة ، فقد بالغت كل واحدة منهن بالحديث امامها .

كان اول الفناجين فنجان الشيخة :

- قل لمن يحملهما ان هما لا يدوم

قالت هذا البيت من الشعر ، الذي حفظته منذ وقت مبكر ، ولطالما رددته ، وكان سبباً في علاقات وصدقات بينها وبين عدة نساء ، قالته ونظرت الى الشيخة بطرف عينا فلما وجدتها تصغي باهتمام اضافت :

- لا يكتم السر الا كل ذي ثقة والسر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ظهر التحفز في عيني الشيخة ، وبدا انها تريد ان تسمع المزيد ، لكن ام حسني تعودت ان تعطي بمقدار ، ان تعطي قطرة قطرة . لقد علمتها « التجارة » ذلك ، ثم علمتها الحياة ، لان من يعطي كثيراً وبسرعة لا يبقى لديه ما يعطيه ، والناس دائماً ينتظرون المزيد .

ولما صمتت لا تريد ان تتابع ، سألتها الشيخة :

- ويعد ؟

هزت ام حسني رأسها عدة مرات ، وكانت الهزات بين الرفض الخفي والتستر على قضايا لا تريد ان تبوح بها ، على الأقل الآن . . او امام

- لا مانع عندي من التجارة ، لكن لأننا شركاء فكل ما يباع ، وقبل ان يباع ، يتم باتفاق الشركاء !

ضحكت امه وهزت رأسها دلالة الموافقة ، ولكن كان متأكداً انها لا تعني هذه الموافقة ، او ان الموافقة لا تعني شيئاً لها ، اضاف :

- انت قلت لنا ان الفطرة فرض ، وان الفقراء يردها الواحد منهم على الثاني ، أما الأخير فلانهم يطلعها ولو صاع ملح . صحيح ام لا ؟

- صحيح يا ابني .

- ونحن ، الله فتح علينا ورزقنا ، وما عادت الفطرة تكفي ، لازم الواحد يزيكي .

- اي نعم ، لازم يا ابني .

- وانا برأيي ان الاشياء اللي عندك نطلعها فطرة او زكاة !

- يا ابني . . .

وضحكت بحزن ثم تابعت :

- عينك ما ضاقت الا على هذي الاشياء ؟

ضحك بصخب ليخفي حرجه وليواصل تطويقها :

- كل همي ، يا حجة ، ان انا مستريح البال ؛ ان اشتغل على رواق لاني اذا سمعت ، بكرة ، كلمة في السوق ، اذا انتزع مزاجي الله ما يدبرها .

- . . . قصدك يا ابني ؟

- مثل ما قلت لك المرة الماضية : خلي التجارة علي وعلى حسني .

- انت يا ابني تعجن وتعيد ، وكأن ما لك شغلة الا الاغراض اللي عندي !

رد بحزن وبلهجة جديدة :

- رأيي . . . يا حجة ان الشغلات التي عندك تعطيتها للشيخة ، تهديها للقصر .

والمداعبة سألها ان كانت تفضل قهوتها ام قهوتهم ، ولما ردت ، مع ابتسامة كبيرة ، إنها تفضل القهوة التي تصنعها «لأنها تشفي وتحكي ، تسلي وتحلي» فقد تعالت الاصوات طالبة منها ان تصنع قهوتها . وبنفس الطريقة السابقة ، بدأت مع الشيخة ايضاً :

قل لمن يحمل همأ ان همأ لا يدوم

وبعد ان ابتسمت اضافت :

- « وانت ، يا طويلة العمر ، يا محروسة السلامة ، الشيء اللي مرّ عليك ، الشيء اللي شفتيه ، لو مر على غيرك ، او غيرك شافه ، كان اليوم اثر بعد عين ، كان راح وانتهى ، لكن المصائب تخلق او كما قالوا في القديم :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

وفي الفنجان ، يا شيخة ، رسوم وعلوم ، فيه سلام وكلام ، وفيه اللي صار وجري وفيه اللي ما يندري ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، واللي ما ينحكي اليوم ينحكي ثاني يوم ، والف صلاة وسلام على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد !

وتكتفي الشيخة ، تتحصن وراء صمتها ، تغيب في الذكريات والماضي ، تعاودها احداث هزتها واقلفتها وافرحتها ، واخرى احزنتها ، لكنها الآن لا تريد ان تسمع ، او على الاقل لا تريد ان تسمع امام الآخرين .

وكما فعلت ام حسني في المرة السابقة مع النساء ، فعلت هذه المرة ، مع اضافة بعض الامثال وايبات من الشعر يمكن ان تفهم وتفسر على وجوه كثيرة . والنسوة اللواتي تضحكن بخجل ، وفهمن بعض ما قالت وراحت عنهن اشياء ، لكن يردن ذلك وكان ذلك يكفيهن .

سعيد الذي ادرك ايضاً المنزلة التي بلغتها امه في القصر ، ولدى الشيخة بشكل خاص ، فانه بمقدار ما كان فرحاً ، وكان يظهر عليه هذا الفرح كالاطفال ، فقد راودته الوسواس والشكوك مرة اخرى ان تحطوا امه الخطوة التي يخاف منها ، قال لها ليوقع اتفاقاً :

في وقت متأخر ، ومع فجاجين القهوة بدأت ام حسني تحمل الى القصر
البخور وماء الزهر والحناء ، وحملت عدداً من الاطواق والسبحات ، وثلاث قطع
من الحرير الاسود ، وخمس زجاجات من الكولونيا وثلاثين حطة بوال اصلي .

أما القلوبات والكنافة المبرومة التي جلبتها معها فقد طحنها الاطفال خلال
الاسابيع الاولى . اذ لم تستطع ان تحميها ولم تستطع ان تمنع الاطفال « لان
قلبي لم يطاوعني » كما قالت . أما آخر قطع الكنافة ، وبعد ان فتحت العلب
التي كانت تضعها فيها ، فقد كانت مجالاً لتندر سعيد وغبطة معاً . قال وهو
يجمع بقايا الفستق من العلبه ويلتهمها ، وكان هذا آخر ما تبقى :

- دائماً اولاد الاكابر كانوا احسن منا . كنت تصرخين اذا مدّ الواحد منا
يده . الآن ، اولاد الطفرانين اكلوا كل شيء ، لكن مع ذلك تركوا لنا
الفتافيت . المهم انه لم يبق للاكابر شيء !

قال هذا وضحك . وبعد قليل اضاف بنفس اللهجة :

- الحمد لله اللي صار لنا دور .

ردت امه بانكسار :

- يا ابني طعمينا اولاد الاكابر الكنافة حتى تأكلوا الخبز .

وبعد قليل :

- حرمتكم ، يا ابني ، حنية عليكم ، وما هو بخل . كان لازم تدبر

- اي والله يا ابني . .

وابتسمت ابتسامة واسعة وساخرة ، وبعد قليل :

- لان الجماعة وحدهم اللي يستحقوا الفطرة !

- لا يا حجة ، انا عندي قصد ثاني ، واريدك تساعديني في القصر . هذا

قصدي بالعربي الفصيح ، والباقي سلامة فهمك !

وبصعوبة فهمت ، او بصعوبة اقتنعت ، لانها لم تجد في نفسها القوة على
ان تتغير بهذا المقدار ، وان تتخلى عن قيم واساليب تعلمتها خلال حياتها
كلها ، لكن ، مع ذلك ، ونتيجة الحب الخاص ، القوة الخفية التي يملكها هذا
« الشيطان » وجدت نفسها تستجيب له ، تطاوعه ، ووجدت لذة في ان
تكتشف هذا العالم ، وان تعرف نقاط ضعفه بشكل خاص : كيف لا يشبع
هؤلاء الاغنياء من الهدايا ، كيف يأخذون ولا يعطون ، وكيف يفهمون الأخذ
والعطاء .

وليلة ، عندما وافقت مضطرة على حمل عدد من اعواد البخور الى الشيخة ،
بدت لها هذه المرأة كريهة الى درجة تستغرب كيف فكرت ان تقيم معها مجرد
علاقة .

ماذا يبقى بينها اذا انتهى موضوع البيع والشراء ؟ هل هما متساويتان ؟
هل يمكن او تتصور ان تكون صديقة لها كما كانت ام وجدي وصفية ونعمات ؟
هل يؤمن هذا النوع من الناس ويكون وفاقاً ؟ فكرت بذلك طوال اليوم وقد
اعتراها الحزن وشعرت باللاجدوى ، وخلال الليل لم تستطع أن تنام . بدت لها
الشيخة خبيثة ، قاسية وملينة بالحقد ، بل وتأكدت ان هذا الجبروت الذي يميز
حركاتها وسكناتها ، وما تولده في القصر ان جاءت وان ذهبت شيء غير
انساني . فاحست بالخوف ، بل وفكرت لو تقطع علاقاتها بالقصر تماماً . ولا
تدري كيف خطر لها هذان البيتان ، واللذان سمعتها مرار عديدة اثناء
الحديث عن العجوز الشمطاء في القصص القديمة :

عجوز النحس ابليس يراها تعلمه الخديعة من سكوت

تقود من السياسة الف بغل اذا انفردوا بخيط العنكبوت

في اليوم التالي ، وهي تنتقي مجموعة من أعواد البخور ، انتقت اضعفها
واصغرها ، وتمنت في اعماقها لو تكون آخر الاعواد التي تنتشقها « عجوز
البيّن » كما اصبحت تسمي الشيخة بينها وبين نفسها . وكانت تستعيد في
ذاكرتها الكلمات التي يمكن ان تقولها لها « لانك تقيّة نقيّة صائمه مصليّة ،
والنور يشع من جبينك ، جئتك يا بنت الاولياء ، يا بنت الاجداد ، يا ام
الايّام والفقراء ، جئتك بالنذر فاقبلي نذري واشفعي لي يا شفيعه ، يا
مباركة » وابتمت بسخرية ، لان الشيخة بدت لها في تلك اللحظات نقيضاً
لهذه الصفات كلها .

ومثلما كانت فناجين القهوة محراثاً فتح لها طريقاً عريضة ، اصبح دخان
البخور ، وهو يتلوى في الهواء ، على طرف النافذة ، شبكة طوقت الشيخة من
كل ناحية ، فبدت محذرة فرحة ، بل وبدت امرأة مختلفة تماماً عما كانت .
اخذت تعب الهواء وتنظر في وجوه النسوة حولها وتبتسم . قالت عدلة لنفسها
« جاء من يسحرها او يبطل سحرها ! »

الحبز ، ولا تتصور انه كان عندي احد اغلى منكم .

- قصة وانتهت يا حجة ، بس جاء من ينتقم !

هكذا رد بمرح ، وازاف بعد قليل ، وهو يوجه السؤال للاولاد .

- اكلتم يا شباب ؟ شبعتم ؟

ولم يتركهم لكي يجيبوا ، تابع :

- ولازم من الآن وحتى الساعة اللي تموتوا فيها تدعوا لهذي العجوز ، لانها
هي اللي ربتمكم ، واذا راح تصيروا رجال هي اللي سوتكم ، وهي اليوم وبكرة
تعبانة فيكم وما لازم تنسوا افضالها عليكم في يوم من الأيام .

تأثرت العجوز ، بدا وكأنها تتلقى الآن مكافأة سخية : الاعتراف . هذا
يكفيها . لقد تعبت لا من اجل ان تكسب ، او ان تجمع مالاً ، تعبت لكي
تحمي الصغار ، ولا تضطروهم للمذلة والسؤال . تشعر الآن انها وصلت . لم يتق
لها شيء ، ولم يعد هناك ما يغريها او يخيفها . واذا كانت فيها بقايا حرص ،
وتفكر بالتجارة ، او باشياء مشابهة ، فلكي لا تقع مرة اخرى . تحملت
الكثير ، عرفت معنى الجوع والحاجة ، وعرفت اكثر نظرة الناس الى امرأة
وحيدة والى أيتام ، ولا تريد ان تجرب مرة اخرى .

كانت اولى الهدايا التي حملتها ام حسني الى القصر ، الى الشيخة بالذات ،
سجادة صلاة في مقدمتها بوصلة تحدد اتجاه الكعبة ، وقد وصل الى سعيد عدد
منها كنماذج ، بعد فترة من تأسيس وافتتاح شركة السجاد الشرقية . اعطى
امه واحدة ، وطلب منها ان تحمل الثانية الى الشيخة ، فلما وصلت الى القصر
اثارت من الاهتمام الشيء الكثير ، وانتقلت في نفس اليوم الى ديوان الرجال ،
وكانت موضع تعليقات عديدة وتفسيرات مختلفة .

قامت ام حسني بنقلها وتقديمها ، وقد فعلت ذلك على اعتبار انها مجرد
رسول ، أما عندما حان الوقت لتبدأ بتقديم الهدايا من الاشياء التي حملتها ،
بناء على الحاح سعيد الذي لم يتوقف يوماً واحداً ، فقد احست بالتعاسة
والقهر ، واحست انها ترغم على اشياء سيئة ، لا تناسب طبيعتها . وليوم

ولان ام حسني لا تعرف غير البيع والشراء ، ولكي تجعل هديتها حللاً ، طلبت من الشيخة ان تعطيها بدلاً من البخور ذرة ملح . طلبت هذا الطلب ، وهي تبسم ، ولا تريد ان تفسر او ان تخوض في الأمر اكثر من ذلك . والشيخة التي استغربت هذا الطلب ، ولم تجد له تفسيراً مقنعاً ردت :
- سبحان من اودع في كل قلب ما يشغله .

وهزت رأسها ثم قالت لنفسها في تفسير الطلب الذي طلبته ام حسني ، « ديانك سيدك الى ان توفيه » .

أما بعد ان بدأت ام حسني تدرك ان الحياة ليست فقط تجارة ، او ان التجارة يمكن ان تأخذ اكثر من شكل ، وليس مجرد تلك العمليات الصغيرة التي شغلت بها نفسها طوال الفترات الماضية ، اذ بدأت تنال عليها عطايا القصر ، فقد فكرت في نفسها « الاغنياء غير الفقراء » ، الاغنياء لا يعطون الا اذا توقعوا مقابلاً ، حتى وهم يعطون للفقراء ، للشحاذين ، يريدون من هؤلاء ان يشكروهم بصوت عالٍ امام الآخرين . أما الفقراء فانهم يعطون دون ان ينتظروا مقابلاً من اي نوع ، صحيح انهم يعطون القليل ، ولكنهم بحاجة الى هذا القليل ولا يملكون غيره » .

في المرات اللاحقة لم تقتصر هداياها على الشيخة ، اذ قدرت ان الاشياء الأخرى التي حملتها معها تلائم الصبايا ، فانسليماني والترابة الحلبية ، وبعض الاعشاب « الحارة » يمكن ان تفيد المتزوجات حديثاً ، أما النسوة اللواتي كنا في القصر ينتظرن ابناء الاعمام ، بشكل خاص ، او اولاد الاخوال ، واللواتي طال انتظارهن ، فقد وجدن في ام حسني انقاداً . اولاً لأنها تستقرى لهن فناجين القهوة عما يجنبه المستقبل ، وبعد ذلك لكي تعطين شيئاً من السليماني والترابة الحلبية ليجلون وجوههن او لتبدو شعورهن لامعة زاهية . والنساء اللواتي عذبن انتظار الولد او الخوف ان يتطلع الأزواج الى زيجات جديدة ، خاصة بعد ان كثر المال ، تشبثن بام حسني ، فهي وحدها التي تستطيع ان تساعدهن .

وهكذا اصبحت محور اهتمام قصر الغدير . اذا تأخرت قبل الظهر تلتفت

الغبار؟ واذا شمت ريحة التوم او البصل المحروق؟ واذا انزركت المخلوقة او ارادت ان تتوضأ، وما انتبهنا ان الصغار وسخوا وجأجأوا.. شو رايح تقول علينا؟» .

وكتتأ ام حسني، اللتان كانتا كخادمتين بين يديها، وكانت توجه اليهما اوامر صارمة دقيقة، ولا تكسف عن مراقبتها، بدا انهما غير راغبتين بهذه الزيارة، اكثر من ذلك بدا عليها بعض التهاون، وهذا ما دعا ام حسني الى مزيد من القلق، وكانت المرأتان مستغربتين هذا الاهتمام وهذا الحرص كله. لم تكن حماتهما هكذا في يوم من الأيام فماذا تعني الشيخة، وماذا سيترتب على هذه الزيارة؟ هكذا قالت كل واحدة في نفسها، وهكذا قالت كل واحدة لزوجها. أما حسني الذي بدا متطيراً الى اقصى حد من هذه الزيارة، واعتبرها دليل شؤم، فلم يتدخل ولم يقل كلمة خلال اليومين الاولين، أما في اليوم الثالث، يوم الزيارة، وحين جاء للغداء، وطلبت منه امه ان يتغدى في المطبخ، على غير العادة، ونظر اليها باستغراب مشوب بالغضب، فقد ردت عليه:

- رضاي عليك يا ابني.. لان غرفة الأكل مسحتها قبل شوي وارضها مبلولة.

قال وهو يفر مثل ثور:

- الحق علي انا اللي صغرت عقلي وجيت..

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- نحن مع الناس العاديين ما ماشي حالنا، وكأنه كان ناقصنا اميرات وشيخات.

- يا ابني لازم الواحد يماشي زمانه، وكل بلد ولها عاداتها، وكل انسان وله مقام.

هزت رأسها وابتسمت بتوسل ثم اضافت:

- وهي مرة في العمر، يا ابني، وتمضي.

الزيارة التي قامت بها الشيخة لام حسني في بيتها كانت حدثاً بالغ الاهمية، فخلال الأيام الثلاثة التي سبقت الزيارة، مع لياليها، لم يتوقف الاستعداد، ولم يبق احد في الحي الا واصبح على علم بالامر. ومع ذلك لم يفارق القلق ام حسني لحظة واحدة، وقد اخذ هذا القلق يتزايد حتى اصبح هلعاً كلما اقترب الموعد. تمت ام حسني لو انها لم تلح هذا الاحاح كله على الشيخة، او لو انها اجلت الزيارة الى وقت آخر، لكنها لم تترك هذه الهواجس ان تستبد بها. ولثلا يفوتها الوقت او تقع فريسة للمرض، انصرفت بهمة كبيرة للعمل: اعادت تنجيد المخدات والفراش، واعادت ترتيب البيت مرة او اثنتين. حتى الملابس في الخزانة اشرفت بعناية على ترتيبها «لا يعرف النبي آدم، يمكن جاء على بالها ان تفتح الخزانة، ان تتفرج، فاذا ما كان كل شيء بمحلّه، نظيف ومرتب تقول: ما اوسخهم، من برّا رخام ومن جّوا سخام. ويمكن يجي على بال المخلوقة ان تتفرج على المطبخ، على غرفة المونة، وما احلانا ونحن نركض حوالها وندحش زبايلنا هون وهون» .

وتم ايضاً ترتيب المقاعد والخزائن، في غرفة الضيوف والغرف الداخلية. وقامت ام حسني بتعسيف السقف والجدران، ونفض السجاد، والشطف. قامت بذلك بنفسها، لانه لم تظمن «صغار ويمكن ان يستعجلوا او ينسوا» ورشت زوايا البيت بماء الزهر واشعلت البخور يومين متواليين. قامت بكل هذه الاعمال بكثير من الحرص والعناية، لكن، مع ذلك، ظل القلق او عدم الاطمئنان، يسيطر عليها: «ماذا لو رفعت طرف السجادة وشافت

- يا ريت يا امي ، لكن هذا الدرب طويل ، درب ما له آخر ! .

- لا ، يا ابني ، مرة وتمضي .

- طيب ، بسيطة ، بنشوف !

واكتفى بان اكل قطعة صغيرة من الخبز وشرب كوباً من اللبن ، فعل ذلك وهو واقف . وخلال دقائق ترك البيت دون كلمة .

أما سعيد الذي انشغل بهذه الزيارة اكثر من اي انسان آخر ، وربما اكثر من امه ، فقد جلب ، لا يُعرف من اين ، عدداً من قطع الزرع ، واشترى خروفاً لهذه المناسبة ، وقد انتقاه كبيراً بقرنين معقوفين ، واحضر كمية كبيرة من اللوز والبندق ، وتغنى لو كان في مكان آخر ، اذن لاختار اشياء واشياء ، «لكن موران مثل الضيعة» هكذا قال لنفسه . كما أبدى آراء بشأن نظافة البيت وترتيبه . وفي اليوم الثالث ، يوم الزيارة ، اخذ الاولاد الثلاثة ، ابنه وابن اخيه ، الى الحلاق ، واشترى للبتين الصغيرتين فساتين جديدة ، أما ملاحظات زوجته التي سمعها في الليلة الاولى تعليقاً على الزيارة ، فقد رد عليها بحزن اقرب الى الاهانة « امي ، وضيف امي ، على العين والراس . وما بدي كلمة زائدة او كلمة ناقصة » وزوجته التي صمتت ، وكان يمكن ان تكتفي بذلك ، لكن بعصية سألها من جديد : « فاهمة ؟ » فلما ردت : « ما حكينا شي » تابع : « الواحد يدفع حياته وماله كله من اجل زيارة من هذا النوع ، وفيه ناس تحكي كلام طالع نازل ؟ » .

وواصل سعيد تقديم المساعدة والمشورة في كل مرحلة ، وقضى وقتاً طويلاً مع امه على انفراد . كما اوصى زوجته ان تلبس اجمل ما عندها من ثياب وكيف يجب ان تتصرف وكيف يجب ان تبسم ، « لان التيسة ، زوجة حسني ، يمكن تحيون وتكون مثل البومة ، لا من تمها ولا من كمها ، ويجوز تحسبها الشيخة خرسا او هبله ، انت كوني جرّكة ، خفيفة ، حتى تبيض الوجه » .

لما اطمأن سعيد لكل الترتيبات ، بما فيها تغسيل الاولاد ، واحضار القصاب الذي سيتولى ذبح الخروف على عتبة البيت حين وصول الشيخة ، اوصى على قالب ثلج يكفي لمقهى كبير ولليلة كاملة ، بعدها غادر البيت مع

توصية واضحة فالها بصوت عال لسمع الجميع :

- اذا احتجتم الي فانا في القهوة ، قهوة عبد الرزاق ، سمعتم ؟

اختار مقهى عبد الرزاق ليكون قريباً من البيت ، ليرقب موكب الشيخة ، وليعرف ايضاً رد الفعل من الآخرين ، ولكي يلبي اي حاجة او طلب قد يجتد في اللحظة الأخيرة .

عند العصر ، حين اقترب وصول الشيخة ، كثرت المهرج وزادت الضجة ، من اولاد الحي الذين رأوا اولاد الاسطة وكركر بتلك الملابس الجديدة البيضاء ، وقد قصوا شعورهم وتعطروا ، وظلوا مرابطين عند الباب ، لكي ينقلوا بسرعة اخبار وصول الشيخة ، بمجرد ان يروا سيارتها . خلق هؤلاء الاولاد واولاد الحي ضجة كبيرة ، وقد تزايد المهرج وتزايدت الضجة بمرور الوقت ، مما ادى الى خشية ام حسني ان يفسد الاطفال نظافة الادراج والرصيف ، وقد غسلتها بنفسها عند الفجر . فاوصتهم اكثر من مرة . وظلت تراقبهم وظلت تراقب احفادها وعدم انشغالهم مع الاطفال الآخرين . كل هذه خلقت حالة من التوتر والمهرج لم تكن متوقعة .

بعد العصر بقليل وصلت الشيخة ومعها عبدتها تهاني واثنان من النساء تراهما ام حسني لأول مرة ، في سيارتين من سيارات القصر ، وبوصولها ارتفعت الاصوات والضجة ، ورافقها تدافع الاطفال ، وكادت الشيخة تنزلق وتسقط على الارض ، قريباً من الادراج ، لكن عيني تهاني انتهتا في الوقت المناسب ، فأسندتها من ابطنها ، وقد خلق هذا ، للحظة ، ارتباكاً لام حسني ، التي كانت في ملابس بيضاء واسعة اشبه ما تكون بالأجنحة ، خاصة وهي ترفع احدى يديها الى حلقها تغطيه لكي تزغرد ، وترفع الثانية بقارورة ماء الزهر ترشه على الضيوف . . .

كانت لحظات متوترة حافلة ، الامر الذي فوّت على ام حسني ان تقدم كتيبها بالطريقة التي استعدت لها كثيراً خلال الأيام الماضية . أما ما تلا ذلك من وصول الاطفال ، وهجومهم السريع الآلي على الشيخة لكي يقبلوا يدها ، وكذلك يقبلوا ايدي النساء الاخريات ، وقد سبب هذا مرارة واضحة للجدة ،

لم تحفها ، لكن لم تستطع ان تفعل ازاءها شيئاً ، فقد ادى كل ذلك الى التعجيل بتقديم الحلويات ، وحصل هذا بشكل سريع متلاحق ، مما اعطى للزيارة طابعاً غير ما قدرته وخطت له ام حسني ، وترافق ايضاً مع اسئلة واستشارات عديدة من القصاب ، ما اذا كان عليه تقطيع الذبيحة الى اجزاء صغيرة ام كبيرة ، وانه يفضل ان يكون الى جانبه احد لكي يرشده . كل ذلك ولّد ارتباكاً وحركة زائدة ، اضافة الى دخول الصبية وخروجهم ، وكانوا يتقربون من جدتهم لكي يسروا لها بأسئلة وطلبات لا تعرف كيف تجيب عنها او كيف تتصرف ازاءها .

كانت الشبيخة تتوقع جواً هادئاً وحركة اقل ، أما وقد رأت كل هذا فقد بدت متزعجة قليلاً ، ومما اكد هذا الانطباع لدى ام حسني انها رأتها تلتفت عدة مرات ، وطلبت مرة من تهاني ان تقترب منها ، واسرت لها شيئاً في اذنها ، وقد سبب هذا كدراً حقيقياً لام حسني ، وسبب لها الخجل ايضاً ، لانها في دارها لا تستطيع ان تتصرف كما كانت تريد او كما تتمنى . حتى الاحاديث التي تبادلتها معها كانت قصيرة ، سريعة ، وكثيراً ما انقطعت .

أما الشبيخة فلم تأت في هذه الزيارة لكي تأكل ، جاءت لتختلي بام حسني ، لكي تتحدث معها على انفراد دون رقابة ، حتى لو من بعيد ، ولكي تسمع منها بوضوح ما يقوله الفنجان . هذا ما قدرته وما هدفت اليه . أما في هذا الجو ، حيث تتراكم النسوة ، ويعم الصخب ، وحيث لا تعرف الصحون التي وضعت من تلك التي يجب ان ترفع ، فلن تستطيع ان تتكلم ، ان تقول شيئاً ، ولن يكون حالها هنا افضل من حالها في قصر الغدير .

محاولات ام حسني ان تخلق جواً طبيعياً هادئاً ، وان تتصرف ببساطة وتلقائية اصطدمت بذلك الانفعال الذي تولد من الحركة الزائدة والارتباك ، ثم الضجة التي كانت تصل من الخارج ، الأمر الذي ادى الى المزيد من الارتباك والحيرة ، ثم بعد ذلك الى اختصار الزيارة .

كانت ام حسني قد خططت ان تستبقي الشبيخة على العشاء ، او على الاقل ان تتذوق بعض قطع من المعلق ، خاصة وانها جهّزت بعض المشهيات والاكلات الخفيفة المناسبة . لكن هذا الوضع ادى الى ان تفقد السيطرة ،

وشعرت في لحظة قيام الشبيخة تريد الانصراف ، ان اية محاولة جديدة ، لن تجدي ولن تغير شيئاً . قالت بطريقة استعراضية :

ـ هذه الزيارة غير محسوبة ، يا شبيخة ، لانها قصيرة ، ولان الاولاد وكنائني كانوا راغبين يشوفوك وان يسلموا عليك ، وكانت هذه الزيارة لهم .

ولما ابتمت الشبيخة موافقة ، تابعت :

ـ أما زيارة ام حسني فمن بد ولازم ان تكون غير شكل !

ـ المهم ان نشوفك ، يا ام حسني ، هنا ، هناك ، لا فرق ، وعسى ان

يكون بيتكم عامر واستروا ما شفتم منا !

وبنفس الصخب والضجة ، اضافة الى المراسيم ، خرجت الشبيخة بعد الغروب وانتهت الزيارة . لكن الحديث عنها لم ينته ، والضجة التي رافقتها لم تتوقف . والذين لم يعرفوا بالزيارة قبل حدوثها عرفوا بعد ذلك . أما الاطفال الذين كانوا في الأيام الماضية شديدي الانفعال والترقب ، انتظاراً لهذه الزيارة ، وانتظاراً للشبيخة بالذات ، فقد اصيبوا بخيبة امل شديدة . حتى عندما اقبلوا على هذه المرأة العجوز ، وقبلوا يدها ، كانوا يتوقعون امرأة اخرى ، او على الاقل ليست هذه المرأة بالذات .

والكنتان ايضاً شاركتا الاطفال هذه المشاعر ، وان كانت مشاعرهما اوضح . ففي محاولة منها للتعبير عن عدم الاهتمام ، سألتنا عن النساء اللواتي كن مع الشبيخة ، سألتنا ما اذا أكلن ام لا ، وسألتنا ما اذا قرابة من نوع او آخر تربطن بالشبيخة . أما عندما تساءلنا عنها فقد كانت الاسئلة اقرب الى الهزء « عيونها واحدة نازلة وواحدة طالعة . . او انا غلطانة ؟ » « لا . . وانا لاحظت » « وحلقها رخو كأن عندها فالج او بتمها لقمة » « ونظراتها . . مثل نظرات الحرامية ، تتطلع على الداخل وعلى الخارج وكأنها خائفة » « مو بس هيك ، كل دقيقة تمر ايدها على تمها ، تمسحه ، وهي تتأوب ، وكأنها بالعة حسكة وعطشانة » « وعيونها تدمع ، لاحظت ؟ » « ظني ان عينها اليمين حولة ، لانها كل لحظة تدير وجهها كله ، وكأنها ملقوطة » « وعرجا » « وشفقت عكازتها ؟ طولها مرة ونص » « وسودا مثل الفحمة ، ولي » « كل شيء فيها

بقرّف « بتعرفي ؟ حبيت ازكزكها ، جاء على بالي اسألها : قولي لي يا خالتي مين اكبر انتِ او ستنا حواء » « تضرب ، وجهها ما بيضحك للرجيف السخن » .

لاول مرة تسمع ام حسني من الكنتين مثل هذا الكلام ، ومع ذلك تظاهرت انها لم تسمع . ولو لم تكن مذهولة وتحاول ان تستعيد كل التفاصيل ، حتى الصغيرة منها ، منذ ان سمعت الاطفال يدقون الباب بصخب ثم بصرخون معلنين عن وصول الشبخة ، وحتى لحظة مغادرتها ، لولا انشغالها الكامل لما تركت الكنتين تتكلمان بهذه الطريقة ، كانت في لحظات كثيرة تسمع النهايات ، وترى ابتسامات السخرية والضحك ، اكثر مما تسمع الكلمات .

أما عندما جاء سعيد ، وقد جاء قبل ان تُجمع فناجين القهوة ، وقبل ان تجمع بقايا الحفلة ، فقد كان في شوق ولهفة لان يسمع من امه ، ان تحدّثه بكل التفاصيل منذ ان وصلت الشبخة وحتى لحظة مغادرتها ، واذا كان قد بدأ بنوع من اللوم ، في ان امه لم تسبق الشبخة على العشاء ، فقد ردت بطريقة اقرب الى اتهام الآخرين ، الى اعتبارهم مسؤولين بشكل او بآخر ، قالت بنزق :

- يلعن هالزيارة ويلعن يومها !

تنفست بحقد اقرب الى الغضب وتابعت :

- ويلي اتطلع عليها واسمعها . وويلي اتطلع واسمع غيرها!

وتطلعت الى الكنتين اللتين اهتمتا بجمع البقايا . كانت تعتبرهما مسؤولتين بشكل ما ، وكانت تريد ان تشتكي ، لكن في اللحظة الأخيرة عدلت ، اذ لو فعلت يمكن ان تجرى المراتين عليها ، فما دام سعيد معها ، لا بد ان يتولى زوجته ، ولا بد ان تتراجع ، أما اذا بدأت بالشكوى منذ الآن ، واتخذت موقفاً حاداً عصبياً ، فان الزيارة تعتبر فاشلة تماماً ، وعكس ما ارادت .

تحدثت مع ابنتها بطريقة رخوة وغامضة . قالت ان النساء يتزاورن ، وان هذه الزيارة مثل غيرها ، ولذلك لا تفاصيل كثيرة يمكن ان تقال او يمكن ان تنقل !

الأيام التي اعقبت الزيارة اتسمت بمقدار كبير من التوتر الخفي والكدر ، واتسمت ايضاً بذلك الصمت المدوي الذي ينذر كل لحظة بالانفجار . وكأن التعب والاحقاد والرغبات الكامنة ، والتي تمّوه نفسها غالباً ، وجدت نقاط الضعف فنشطت واحتقنت ، لكن انتظرت بعض الوقت لكي تطل برأسها ، ثم لكي تنفجر بعد ذلك .

فأم حسني التي توقعت الكثير من هذه الزيارة ، أصيبت بخيبة امل كبيرة ، فلامت نفسها ، لكن احتملت وصبرت ، وبدل ان تفرغ غضبها على الكنتين او على الصغار امتلأت به ، فاعتزلت الجميع اول الامر ، ثم ما لبثت ان سقطت مريضة . حصل هذا على التحديد في اليوم الخامس الذي اعقب الزيارة ، واستمر مدة اسبوعين . وقد حمدت الله « لان العلة وقعت في ولم تصب الصغار او آباءهم » ولم تذكر شيئاً عن الكنتين . ونتيجة الحمية القاسية ، وتلك الادوية التي تعودت على تناولها في حالات مشابهة ، بدأت تستعيد صحتها شيئاً فشيئاً ، لكن آثار المرض والضعف لازمتها فترة غير قصيرة .

أما حسني الذي حاول ان يبقى طبيعياً ، او ان يتظاهر بذلك ، خلال الأيام الاولى ، مع تصميم لا يلبث يتزايد على الصمت ، لكي يعبر عن احتجاجه بشكل ما ، فقد نقل العدوى الى زكية ، وزوجته ، فبعد ان كانت طبيعية في وقت الزيارة ، عكس ما توقع سعيد ، اذ ركضت وضحكت ولبست احسن ثيابها ، واستمرت كذلك في الليلة ذاتها ، ثم في اليوم الذي يليه ، وتبادلت مع أديبة ، سلفتها ، التعليقات الساخرة حول الزيارة وحول الشبخة

العشرات من الاميرات والخدم والعبيد، وقد امتدحوا جميعاً اكل ام حسني «
» كادت ان تصرف الخدم وتبقى زائرة لعدة ايام .

وباشكال اخرى كثيرة كان ينقل خبر الزيارة وما رافقها وما اعقبها ، واخذ
بصور له خياله اموراً لا تلبث ان تتغير مرة بعد اخرى ، دون ان يحس بذلك ،
ودون ان يعتبر نفسه مخطئاً او مبالغاً . أما بعد ان وقعت امه مريضة ، ثم ذلك
الجو الذي خيم على البيت، فقد لام نفسه لأنه لم يستفسر بالمقدار الكافي حول
التفاصيل الدقيقة التي رافقت الزيارة منذ لحظة الوصول والى ان غادرت
الشيخة . ولما حاول ذلك مع زوجته ، وبعد اسبوع تقريباً ، فقد ردت بما يشبه
اللوم والسخرية :

- والله ، يا رجال ، ما جاءنا من هذه الزيارة غير التعب ووجع الرأس !

أما حين بعث القصر ، او بعثت الشيخة ، بسيارة لتسأل عن أم
حسني ، وقد حصل ذلك في الاسبوع الثالث ، وقال السائق « القصر طالباها »
فقد ردت ام حسني بنفسها من وراء الباب الموارب ، قالت للسائق :

- سلم لي على الشيخة وقل لها انشاء الله كم يوم وام حسني تبين
عليكم !

ولم يفتم الحكيم خبر الزيارة . فقد نقله اليه رضوان ، الذي بلغه سعيد ،
ثم سمعه من حسني بعد عشرة ايام . واذا كان قد توقف عند الخبر قليلاً ،
واعتبره هاماً ، الا انه اقنع نفسه ان زيارات مثل هذه يمكن ان تتم « بين
العجائز حتى يقطعوا الوقت » وكاد ان يلوم زوجته لانها لم تستطع ان تدعو
بعض نساء القصر ، خاصة زوجة السلطان او الاميرات المهمات . لكن قال
لنفسه بنوع من التعزية « اللي يعتمد على مرا مثل اللي يحصد هوا » .

أما زوجة الحكيم التي سمعت بخبر الزيارة في وقت متأخر ، وازادت ان
تفاجئ زوجها بابلاغه بامر الزيارة ، فقد اكتشفت ان الخير وصله قبلها ،
وبدل ان تصب جام غضبها على « الكرنيبة » كما اصبحت تسمي ام حسني ،
اكتفت بان قالت :

بالذات ، تغيرت فجأة في اليوم الثاني ، اصبحت امرأة اخرى : فبعد ان غادر
حسني البيت الى دكانه ، حجرت نفسها والاطفال في غرفتها ، فلم تغادرها ،
ولم تسمح للاطفال ان يغادروها ايضاً . أما عندما احتج الاطفال وبدأوا
بالصرخ فقد عاقبتهم بقسوة ، ولم تتركهم يغادرون الغرفة ، الا مرة واحدة
والى الحمام بالذات ، وطلبت من الابنة الكبيرة ان تحضر قليلاً من الاكل
والماء . استمر الحال كذلك إلى المساء . إلى أن جاء حسني ، فخرج الأطفال مرة
اخرى ، لكن لفترة قصيرة ، ثم اعادتهم بقسوة . وتكرر الشيء ذاته في اليوم
اللاحق ثم في الأيام التالية ، مع شيء من التراخي . وحين مرضت ام حسني
واعزلت في غرفتها زارها حسني عدة مرات ، أما هي فقد اطلت من باب
الغرفة مرتين ، وسألت ما اذا كانت حماتها بحاجة اليها او بحاجة لشيء . فلما
صمت ام حسني واشاحت بوجهها اعتبرت انها أدت واجبها فلم تحاول بعد
ذلك !

سعيد لم يفهم سبباً لهذا الذي يجري حوله . كان يتوقع ان تأخذ الامور
مجرى آخر ، مما دفعه لان يسأل نفسه ثم يسأل زوجته . وسأل امه ، لكن دون
ان يصل الى جواب مقنع ، فافترض ان اخطاء من نوع او آخر وقعت اثناء
الزيارة او بعدها ، وان امه وزوجته تتكتمان عليه ولا تريدان ان يعرف . وبدا
له هذا الافتراض صحيحاً او ممكناً ، وما عزز لديه ذلك سلوك اخيه وزوجته ،
فرغم انها حاولا التظاهر ان كل شيء طبيعي ، لكن البرودة والجفاف كانا
واضحين ، سواء من الصمت او من النظرات ، فلما استفسر والح ضحك
حسني بسخرية وكأنه يقول له دون كلمات « تقتل القليل وتمشي بجنازته » .

كان سعيد يريد من هذه الزيارة بداية صاعقة ، اذا صح التعبير ، هكذا
كان يفكر وهكذا كان يتمنى . حتى وهو يجلس على الرصيف في مقهى عبد
الرزاق ، التفت بجلبه واضحة حين مرت السيارات ، وقال بصوت واضح
سمعه الذين كانوا حوله « سيارات القصر ، سيارات القصر يا جماعة » أما في
اليوم التالي ، ثم في الأيام اللاحقة ، فلم يترك احداً الا واصله بشكل ما ان
الشيخة كانت بزيارتهم امس ، وانها « قضت اليوم بكامله ، وكادت ان تنام
عندنا ، لكن القصر بعث يطلبها » « وان الشيخة اكلت وشربت ، وكان معها

لكنه فهم كلمات اخيه وامه تعريضاً به ، زفر وهز رأسه . قال سعيد :

- واليوم احسن من بكرة ، يا حجة .

قال حسني ، وخرج صوته غاضباً مهدداً :

- اسمعي يا امي : قبل ما تحطي رجلك بالقصر احمل حالي واولادي

وامشي .

- خير . . انشاء الله ؟

هكذا سأل سعيد باستغراب ، وكأنه فوجيء بهذا الموقف . رد حسني ،

وقد حاول ان يتماسك ويجعل صوته واضحاً وبطيئاً ، لكنه بدأ يرتجف :

- الله يجعلك بخير . . .

وبعد قليل :

- انا من يوم ما الله خلقي مع الحكومة ما لي خلطة ، لا احبها ولا رايد

اشاكلها .

- ومن طلب منك ان تخالطها وتشاكلها ؟

- اسمع يا سعيد : اول درس تعلمناه من الحجة ، اول كلمة قالتها :

العيب وحدك ترجع راضي . وكانت دائماً تقول : ابعده عن الشر وغنى له ،

وانت من يوم ما وصلنا موران ما لك شغلة الا تدور على الشر دوار .

- ادور على الشر ؟

- اي نعم يا سيدي ، بصراحة ، بدون لف او دوران ، كل شغلك

تتحكحك بالحكومة وتدفش الحجة على القصر .

- انا ، يا سيدي ، ما فهمت قصدك ولا فهمت كلامك .

- قصدي ان نبعد عن الحكومة ، ما نخالطها .

- يعني اذا زارت الحجة القصر ، او اذا جاءت الشيخة لبيتنا بزيارة معناها

انا خالطنا الحكومة ؟

- اي نعم . . يا سيدي .

- اذا كانت شاطرة ، وبدها تلعب من وراء ظهري والله لاخليلها تفتل لي

خيطان !

في نهاية الاسبوع الثالث ، وقد بدأت ام حسني تبلّ من مرضها ، بدأت

نذر العاصفة تتجمع في البيت . فالرسالة العاجلة ، التي جاءت من القصر ،

او هكذا اعتبرها وسماها سعيد ، بدعوة امه ، لا يمكن ان تؤجل او ان

تهمل ، لان الامر قد يُفسر تفسيراً سيئاً وضاراً . كان يريد ان تقوم بالزيارة

بسرعة . وام حسني ذاتها التي ملت المرض والبقاء في الفراش احست ان

روحها ترفرف في صدرها ، ولا يمكن التغلب على هذا الضيق الا اذا غادرت

البيت . لا يهم الى اين ، المهم ان تغادره ، ان تبعد عنه قليلاً ، خاصة وان

الكتنتين آلتاها ، وان تكن زوجة حسني اكثر ، لكنها اشتركتنا معاً بالسخرية منها

ومن ضيوفها ، وابديتنا عدم الاكتراث واضح اثناء مرضها . تمننت لو تعود ، من

جديد ، مثلما كانت من قبل : قوية ، قادرة على تقديم مصروف البيت ، او على

المشاركة فيه ، وان تسافر وتاجر كما كانت تفعل .

حسني ذاته اعتبر صمته عقاباً كافياً ، ولا بد ان يراجع كل واحد موقفه ،

كما فعل هو ، فيتوقف الطيش وتنتهي المظاهر ، واعتبر ان زكية قد اوصلت

الرسالة نيابة عنه ، اذا لم تصل رسالته ، فقد كان مستعداً في هذه الفترة ان يبدأ

من جديد ، كما فعل في كل المرات السابقة ازاء اخطاء سعيد وحقاقته .

كان يمكن للامور ان تأخذ شكلاً هادئاً وطبيعياً ، حتى الزيارة التي ولدت

هذا المقدار من التوتر يمكن ان تنزلق الى الظلمة فتتوارى وتضيع من ذاكرة

الجميع ، لكن سعيد لا يمكن ان يترك الامر ان يجري في مجراه الطبيعي . فما

كادت رسالة جديدة تصل من القصر مع هدية حتى قال لامه بصوت قوي مع

شيء من اللوم واراد من الجميع ان يسمع :

- يا حجة زعل الامراء والسلاطين غير زعل الناس العاديين .

- اللي يزعل يرضى يا ابني .

- الا . . هم ، لانهم ما تعودوا على الزعل .

كان حسني يسمع . كان يسمع وهو صامت ، ولم يكن ينوي التدخل ،

حكومة شوربة ، مثل حكومة موران ، فيمكن الواحد اليوم يكون سلطان تاني
يوم ملح وذاب ، وكأنه ما كان في يوم من الأيام ، مَيّت وشبعان موت ،
وانا ما جاي على بالي اموت .

- ولا انا . . . يا سيدي !

هكذا رد سعيد وهو يضحك !

- طيب ، اذا كنا متفقين ، خلينا نبعد عن القبور ، لان اللي ينام بين
القبور ما يشوف الا المنامات الوحشة .

والتفت الى امه وسألها :

- احكي يا امي ، ليش مرضتي ؟

ردت وهي تضحك بسخرية :

- المرض من الله ، يا ابني ، والعافية من الله !

- والشيخة ؟ وزيارة الشيخة . . ما هي سبب المرض ؟

قال سعيد في محاولة هجوم جديدة :

- يا حسني . . كبر عقلك ، فكر مثل الخلق والعالم . . علاقتنا مع القصر
تفتح لنا الف باب وباب ، ونحن لا جماعة مناصب ولا جماعة وظائف ، وانا
رأي بالحكومة انها اخرا مما تتصور ، لكن اذا صارت لنا علاقة بالقصر نمشي
مصالحنا . . لا حتى نصير وزراء !

- يا سيدي الحكومة تعطي التسعة حتى تأكل العشرة ، الحكومة بنت ستين
كلب ، ما لها امان وما لها صاحب ، كل يوم لون وكل يوم شكل !

- هذا لواحد يريد ان يكون وزيراً ، لواحد يعمل في السياسة . أما اذا كان
مثلك ومثلي ، كل همه الشغل والفلوس ، فالعلاقة مع الحكومة حتى تنفتح
امامنا الابواب المسدودة ، حتى نصل ، لانه اذا صارت لنا علاقة ، واذا دفعنا
كم قرش ، سيطرنا ، نعم سيطرنا ، ومثل ما قالوا من قبل : طعمي الفم
تستحي العين .

- غلطان .

- غلطان مو غلطان هذا رأي .

- رأيك غلط .

- اسمع يا سعيد .

وزفر حسني ثم ضحك بمبراة وتابع :

- القصر هو الحكومة ، هو الدولة ، وانت تعرف هذا احسن مني .

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وتابع من جديد :

- وانت تعرف ، يا سيدي ، ان الحكومة ، مثل الشرموطة ، كل يوم مع
صاحب وما لها صاحب ، لا تحلل ولا تحرم ، ما لها قلب ولا لها رب ، ولا
يهمها الا مصلحتها ، فاذا حطيت حالك بين المطرقة والسندان صرت عجينة ،
وخسرت الأول والأخير !

- طيب . . ما علاقتنا بهذا الكلام ؟

- يا سعيد ، يا حبيبي : العب وحدك ترجع راضي ، ونحن ما جئنا
لموران الا لنشتغل ، لنحصل على رزقنا ، وما لنا غير شغلة !

- طيب من قال ان لنا شغلة ثانية ؟

- كل يوم والثاني : يا الله يا حجة . تأخرت على القصر يا حجة . لازم
تروحي القصر يا حجة . لو كانت زيارة وانتهينا كان سدينا بوزنا وسكتنا .
لكن شايف ، زيارة جرت الثانية ، وبعد ما كنا نروح عندهم صاروا يجوا
لعندنا ، ومثل ما قال ذلك الرجال : السلام جرّ الكلام والكلام جر المشقة !

- اف اف . . اف ، صار فيها مشانق !

- اي نعم يا سيدي ، وانت بتعرف رأي لما فاتحنا الحكيم ان نعمل معه
في موران . قلت له : والله يا حكيم خبزة وبصلة والواحد رأسه مرتاح احسن
من الوظيفة ، احسن من ابن الحكومة ، لان الحكومة غدارة ، ما لها امان وما
لها صاحب ، هذا اذا حكيت عن الحكومات اللي مثل الخلق والعالم ، أما

وظل الخلاف قائماً واستمر ، حسني يرفض بشكل قاطع ان تكون له علاقة ، اية علاقة ، بالقصر ، وسعيد يرى العكس تماماً ، ويرى ان الابتعاد عن هذا المجال ، خاصة في هذا الوقت وهذا المكان ، نوع من الجنون لا يمكن ان يغفره او ان يتسامح فيه . والعجوز التي احتارت بين الاثنين قالت في محاولة لان توجّل الموضوع ، لا لأن تحسمه :

- من يوم الله خلقنا ونحن نركض ونشقى ، فلما وصلت اللقمة للتم كفرنا واختلفنا .

وزفرت ، ثم قالت بحزن :

- طولوا بالكم !

دون تردد ودون انتظار طويل قررت أم حسني أن تهجر موران . يجب أن تفعل ، لا يسم إلى أين ، أو إلى متى ، المهم أن تغادر . ستبقى بعيدة إلى أن تشفى ، وعندما تعود مرة أخرى سوف تعرف كيف تكون مختلفة عن السابق . لن تقبل ان تتحول الى كرة ، يقذفها واحد الى آخر ، يكفيها ذلك . واذا نجت من الموت هذه المرة ، فقد لا تنجو في المرة التالية . أما الشيخة ، امي زهوة ، فلن تعني لها شيئاً بعد الآن . هذه المرأة لا تعرف الحب ابداً ، ولم تعرفه في حياتها كلها ، تعرف شيئاً واحداً : كيف تكرهه ، وكيف يزداد كرهها لكل من حولها يوماً بعد آخر . ونساء القصر الاخريات . . اي نوع من النساء هن ، واية افكار واحلام تملأ رؤوسهن ؟ لقد عرفتهن جميعاً ، لا تحركهن سوى الاحقاد والرغبات الصغيرة . صحيح انها لا تفهم بعض الكلمات التي يوشوشنها بها ، لكنها مع ذلك تستطيع ان تقدر . اذ لا تفعل اي منهن شيئاً سوى الحديث عن الاخرى ، وكل واحدة تريد فقط لنفسها ، ان تحدثها ، وان لا تحدث غيرها عما يقوله الفنجان . كماها ذلك ، لم تعد تطيق .

حتى حسني وسعيد اصبحا مختلفين كثيراً عن السابق ، لا بد ان تعود الى معاقبتها ، كما كانت تفعل من قبل . كانت في السابق تكتفي بالتهديد ، بالصمت ، وبعض الاحيان بمجرد ان تلبس ملاءتها وتظاهر بانها ستركهم . كانوا يمتثلون بالخوف ، ولا يلبثون ان يتغيروا ، ان يصبحوا شكلاً آخر . الآن يجب ان تعود الى نفس الطريقة ، ولا بد ان يتأثروا . ما زالوا صغاراً ، وعقوبة

من هذا النوع ، وليس مجرد التهديد ، سوف تعيدهم الى العقل .

أما بالنسبة للكنتين فلن تتسامح ابداً . لقد تغيرت المرأتان خلال بضعة شهور ، كما لم تتغيرا طوال سنوات . كيف تسمح بذلك ؟ وكيف كانت مسيطرة وقادرة خلال الفترة الماضية كلها ، ثم فجأة ، وبمجرد ان تغاضت قليلاً ، بمجرد ان تهاونت في التنبيه والمراقبة ، او بلفت نظر الأزواج ، اختل كل شيء ؟ لا بد ان تعود مرة اخرى المرأة التي كانتها . سوف تعرف كيف تتصرف ، فقط تحتاج الآن الى بعض الراحة .

لكن اين تسافر ؟ والى متى ستبقى ؟ وهل تقوى ان تعيش وحيدة مرة اخرى ؟

لم تجد ان عودتها الى دمشق تليق بها ، اذ لم تترك جارة من الجارات الا وحدثتها أن ابنيها لا يصبران على بقائها يوماً اضافياً بعيدة . يريدان ان تكون اليوم قبل الغد في موران . ماذا تقول الآن اذا عادت ؟ هل تقول انها في زيارة مثلما كانت تفعل من قبل ، او انها جاءت لتبقى ؟ وهل تقوى ان ترجع وتختلف ابنيها واحفادها دون ان تراهم ؟ ستموت حزناً وكمداً ان تصورت انها لن تراهم مرة اخرى .

يجب ان تفكر بمكان آخر ، مكان ينقذها ، ولا يعرضها لاجراجات دمشق واسئلة الجارات والاقرباء .

كان يمكن ان تفكر بالذهاب الى مكة ، هناك تستطيع ان تنقذ روحها ، ان تتوازن من جديد ، لكن الوقت لم يكن وقت حج . وفجأة عن لها ان المكان الوحيد الذي يلائمها هو المدينة ، الى جانب قبر الرسول . هناك يمكن ان تستعيد نفسها ، ان تتوازن وترتاح وتبتعد ، حتى اذا امتلأت بذلك الجو ، وتشبعت بالرائحة الزكية والراحة العميقة يمكن ان تعود امرأة اخرى .

حاول سعيد ان يشيها عن الفكرة : « المدينة بعيدة ، والوقت غير مناسب ، أما اذا جاء وقت الحج فسوف احمك على كنفني الى هناك » ولم تقتنع ولم تتراجع . وحسني الذي كان مثلها مملوءاً بهذا التعب وبهذه الهوموم لم يطل به الامر حتى اقتنع :

- اوصلك وأؤمن عليك وارجع يا امي .

ومثلها خاف سعيد ، حين رآها تحمل صررها وتأتي الى موران ، فقد خاف من تلك الصرة الكبيرة التي لم تترك لاحد غيرها ان يحملها ، وعندما وضع اصبعه عليها يدسها ، قال وهو يتسّم :

- يا حجة . . . هناك ما لك غير الزيارة ، أما التجارة فاتركها لغيرك .

ردت بمزيج من الغضب والحزن :

- زيارة قبر الرسول ، يا ابني ، اكبر تجارة للبي آدم في الدنيا والآخرة ، ولا تحف .

- وهذه البقح يا حجة ؟

- بقجة خير وبركة ، يا ابني ، وتنفع !

وهكذا رحلت الى المدينة .

في المدينة بدا لها الناس نوعاً مختلفاً : اقرب الى الضوء واشبه ما يكونون بالاشباح : يمشون على رؤوس اصابعهم ، يتحدثون بهمس او بتعب ، وكأنهم لا يقوون على الحديث او لا يريدون . ينظرون ولا ينظرون . أما تلك الملابس الخفيفة فاشبه ما تكون بالاكفان : بسيطة ، ناعمة ، تنزلق على الاجساد كما تنزلق الريح . واحسنت ام حسني ان حياتها الماضية كلها لا تعني شيئاً . تحولت مرة اخرى الى ذرة من رمل ، الى لحظة من ضياء . حتى الاكل اصبح النسبة لها هنا شيئاً مختلفاً ، انها تأكل فقط لتبقى لتكون قادرة على زيارة قبر النبي ، وان تصل هناك . وعابدها الالاف انها اتعبت نفسها واتعبت الآخرين من اجل ان تستقبل الشیخة وان تهیء لها كل ما هیأته . اكثر من ذلك تمر امام ناظرها حياتها من جديد ، تراها مختلفة ، لا تعني شيئاً ولم تحق اي شيء .

قبل ان تصل الى هنا كانت تظن انها بحاجة الى شهور من العلاج لشفی . كانت تريد أن تنام نوماً طويلاً متصلاً ، لكن فجأة احسست بالقوة ، وبعدم الرغبة في النوم . لم يبق لها الا القليل على هذه الارض ، ثم تنقلب لتصبح تحتها . لقد تعبت كثيراً ! تحولت ، باعت ، رأت أناساً باشكال لا

بحصر لها . والآن تريد ان تستريح . ان تفكر بحياتها كلها ، وان تحاسب نفسها .

بوضوح الايام البعيدة . كانت الاشياء ، في ذلك الزمن البعيد لها رائحة خاصة ، نعم رائحة تنتشيقها الآن ، تعاودها مرة اخرى . لماذا نسيت هذه الاشياء كل تلك الفترة ولماذا تعاودها الآن ؟

انها حائرة الى اقصى حد . لا تعرف كيف تكون هي نفسها وانساناً جديداً في نفس الوقت . اكثر من ذلك لا تعرف كيف تقترب من البشر ومن الرسول في آن واحد . لامت نفسها كثيراً انها تقاضت ارباحاً اكثر مما ينبغي على الاشياء التي باعتها . ولامت نفسها اكثر لانها ساوت بين الاغنياء والفقراء في الاسعار . كان يجب ان تفرق ، ان تميز البشر . صحيح ان الفقراء دفعوا ، لكنهم كانوا يأتون بالقطع النقدية الصغيرة . كانت تفرحها هذه القطع وتساعدوا ، لكنها لم تتسامح مرة واحدة في ان تأخذ ما تفرضه سعراً للبضائع التي كانت تبيعها .

وهنا .. انها لا تعرف ماذا تفعل بالمال الذي تركه لها حسني . دائماً تشتري حاجات ، وتكتشف بعد فوات الاوان انها اكثر من طاقتها ، او مما تقدر على ان تأكله . قالت في نفسها وهي تنبسم وتذكر : « الاولاد يأكلون الاخضر واليابس ، وكان يجب ان يكون كل شيء كثيراً ، تمتلئ عيونهم ، فلا يشتهون ، ولا يمدون ايديهم بعد ذلك » الآن لا تعرف ماذا تفعل بالرغيف الثاني . كان يكفيها واحد . لكن تجدد نفسها تشتري اثنين . واذا كانت قد حملت معها الى غرفتها ، القريبة من المسجد ، الرغيفين في الايام الاولى ، فانها استمرت بعد ذلك على شراء الرغيفين ، لكن قبل ان تصل الى الغرفة كانت تعطي رغيفاً الى واحد من الذين يقفون عند باب المسجد ، وترجع بالآخر .

تفكر بذلك كله والليل لا ينتهي : امي زهوة ، الشيخة ، تحيرها . ماذا تريد هذه العجوز او كيف تفكر؟ ولماذا هي حازمة قاسية مع الآخرين في الوقت الذي تكون معها هادئة مقبلة وكأنها طفلة؟ ولماذا تتحول الى اذن كبيرة شديدة التحفز لا لتقاط كل كلمة تقولها لها؟ قالت ام حسني لنفسها « بالتأكيد تنتظر شيئاً ، والا لما كانت بهذا الشكل » . وبدأت تستعيد همسات نساء القصر ان غابت الشيخة ، وبدأت تذكر ايضاً اشكالهن وتصرفاتهن . هل يمكن ان تقتل او تكون بهذا السوء ومن اجل اي شيء ؟

لم يقتصر الامر على رغيف الخبز او الأكل البسيط الذي تعودته هنا ، اصبح الوقت بالنسبة لها فائضاً ايضاً : كانت تكتفي بساعة نوم او اثنتين ، ولأن الليل اطول من ان يُقضى في الصلاة ، اخذت تفكر بكل شيء . تذكرت ايام كانت صغيرة ، وحين تزوجت اول مرة ، ثم حين تزوجت في المرة الثانية ، وتذكرت كيف جاءها الاولاد وكيف ربهم . وتستغرب انها تتذكر اشياء للمرة الاولى ، لم تخطر ببالها من قبل ولم تفكر فيها ، فجأة تراها امامها ، وكأنها تحصل من جديد . انها تتذكر الايام البعيدة اكثر مما تتذكر غيرها ، حتى تلك التي حصلت في الايام الاولى لوصولها الى موران لا تبدو لها

وتغرق في الصلاة والعبادة لتنسى . ترقب الناس والاشياء حولها لكي لا تفكر . لكن ، مع ذلك ، يبقى لديها من الوقت الكثير ، ودون ان تحس او ان تقرر تجدد نفسها غارقة في التفكير والهموم .

وتتغلب ، من جديد ، على حيرتها وهمومها بالصلاة . تقضي يومها كله في صحن المسجد . لكن الليل ، هذا البحر الذي لا يهدأ ولا ينتهي ، يحاصرها ، يحيفها ، وهي هنا وحيدة . لو ان احداً معها لشعرت انها اقوى . حتى القطة ، ياسمين ، التي كانت عندها في دمشق منذ ايام بعيدة ، كانت تؤنسها ، بعد ان ينام الاطفال . كان يكفيها ان تتلفت حوالها فترى الجميع

صحيح انها لم تطمان لاجاباته حين سألته عن اخيه : كيف تركه ، وكيف هي علاقتها الآن ، لكن اياً كان الجواب كانت سترافقه في العودة . يكفيها هذا الدرس الآن . والصغار ، ما ذنب الصغار الذين تركتهم رغم شدة تعلقها بهم ؟ واذا كان الكبار قد اذنبوا فلم تعاقب الصغار او تتخلى عنهم ؟

قال لها سعيد في احدى اجاباته عن اخيه :

- ابو تيسير بعده عايش بعقل عمان او الشام .

وزفر بحسرة وتابع :

- وموران تحتاج الى عقل ثاني !

أما حين استفسرت ما اذا سألت عنها الشبخة او احد آخر من القصر ، فقد رد وهو يقهقه :

- القصر لا يتذكر الا الناس اللي بوجهه . . يا حجة .

وبعد قليل ، وهو يهز رأسه :

- بعد سفرك باسبوع ، اسبوعين ، سألوا ، لكن بعدها نسوا كل شيء !

نياماً ، تشعر بالقوة والثقة . قرقرة القطة ، في تلك الليالي ، كانت تسليها ، تساعدها على ان تقضي عدة ساعات اخرى من اجل انجاز بعض الحطات الاضافية . الآن تمتلئ بالوحدة والخوف . قد تموت هنا دون ان يحس احد ، دون ان تقول كلمة اخيرة وصية لاولادها ، لا تريد ان تنتهي هكذا ؛ ان تموت وحيدة ، بعيدة ، منسية . لا احد يعرف قبرها ، او يزوره . صحيح ان الفقراء يزورون قبور الذين لا احد لهم ، ويضعون فوقها اغصاناً خضراء ، لكن القبور هنا بلا عدد . بلا اهمية ولا تزار ايضاً . انها متأكدة ان ابنائها سيحزنون حين تموت . وسوف يكفرون عن اخطائهم تجاهها حين تمضي ، وقد يبنون لها قبراً جميلاً وقوياً ، لتبقى بينهم حتى بعد ان يفنى جسدها . اذا ماتت هنا ستموت مجهولة تماماً . حتى اسمها لن يتذكره احد ، ولا يعني شيئاً لاحد . وبعد شهر ، او ربما بعد سنوات ، اذا جاء احد ابنها ، او جاء معاً ، وسألا عنها فلن يتلقيا جواباً من اي نوع ، الحركة الوحيدة ان يقلب كل من يسألانه شفته وكتفيه دلالة انه لا يعرف .

لا ، لا تريد ذلك . صحيح ان هذه الارض شريفة ، مقدسة ، والكثيرون يفضلون ان يموتوا هنا ، لكن ما يريحها اكثر ان تموت بين ابنائها ، بين اناس يعرفونها ويحبونها ، ستموت راضية عند ذلك ، ستموت دون شعور بالندم او الغربة .

وتمضي الأيام تتلوها الشهور . تغرق في النهار بين الناس ، وتغرق في الليل بالوحدة . تشغلها في النهار هموم الناس واحاديثهم ، وتنشغل في الليل بهمومها وافكارها . كل ما تصمم عليه في ليلة تنساه في اليوم التالي . أما حين يغيب بعض الذين عرفتهم في اسابيع او شهور سابقة ، فتعرف انهم ماتوا ، فتحزن لموتهم ثم لا تلبث ان تنسى ، فاذا تذكرتهم مرة اخرى حزنت من اجلهم اقل مما حزنت في المرة الاولى ، أما ملامحهم فتبدأ تغيب الى ان تتلاشى ، وكذلك اسماؤهم .

بعد ثمانية شهور حين جاء سعيد واصطحبها الى الحج ثم عاد بها الى موران لم تمنح . كانت تحس انها شفيت وانها راغبة ومستعدة للعودة . اكثر من ذلك كانت تحس بشوق كبير الى الصغار .

ومع زوجته في الموقف . واذا كانت تملك بقية قوة في فترة سابقة ، وقادرة ان تمنع خصام الزوجتين ، فقد اصبحت اضعف من ان تفصل بينهما في المرحلة الجديدة ، واصبحت كلماتها الحازمة المؤنبة تثير السخرية اكثر مما تولد الخوف او المهابة .

قالت حسني بياس مرير ، حين الحّ عليها ان تأكل معه بصورة دائمة :

- لا تهتم بمسألة اكلي يا ابني ، انا ادبر نفسي .

ولما الحّ اكثر من قبل ردت :

- ... والاكل آخر شي بالنسبة لي ، يا ابني .

أما حين تطلعت عيناه بتساؤل واستغراب فقد تابعت :

- واكلي بعد الحج والزيارة صار مثل اكل العصافير .

وابتسمت وازافت بحزن :

- ويمكن ان اعيش على الهواء اذا كنت راضية ومرتاحة !

أما محاولاته في ان تأكل على مائدته يوماً وعلى مائدة سعيد يوماً ، فقد أغضبته ، قالت بحدّة ، وبدا صوتها اقرب الى قطة تموء :

- يقطع الأكل ويومه ، اتركني ، يا ابني ، بحريتي ، ولا تخف عليّ !

سعيد تظاهر انه لم ير ولا يعرف ، ولذلك لم يتدخل ولم يطلب شيئاً ، كان متأكداً ان كل شيء مؤقت . ومع ذلك لا يريد ان يكون السبب في اي اجراء يقدم عليه حسني . حتى مسألة القصر ، او ان تكون لأمه علاقة قد تساعده في العمل ، فما لبث ان صرف عنها النظر ، لانه وجد منافذ اخرى ، واستطاع ان يصل الى اكثر ما كان يريد .

اي حزن يستبد بالانسان حين يكتشف ان كل جهده وعمره ذهب عبثاً ، دون جدوى وبلا اية نتيجة ، سوى هذه الاجواء المعتمة القاسية ، وهذه الآلام التي يعاني منها كل واحد على طريقته ؟ ما فائدة الثروة ان كانت نتائجها كما ترى عيناها ؟ واي معنى للسفر والانتقال من مكان الى آخر اذا كان المكان

بدا لها ، منذ الأيام الاولى لرجوعها ، ان ابنها ما زال موجودين معاً في البيت ، لانها لا يستطيعان ، ولا يستطيع اي منهما ، اتخاذ قرار الانفصال . لكنها ، عملياً ، منفصلان ، لان بدل المائدة الواحدة ، والتي كان يتخللها الكثير من الاحتفاء والصخب ، اصبحت مائدتين ، واغلب الاحيان تبدأ الواحدة وتنتهي دون ان يحس بها الذين في الجانب الآخر من البيت . وبعد تلك العلاقات الحميمة بين الكنتين ، لم تعد الواحدة تُكلم الاخرى الا مضطرة . وتتعمد احدهما ان تدخل المطبخ حين تغادره الثانية . أما الاطفال الذين كانوا رسل المحبة والوفاق ، فقد منعوا ، وبقسوة ، من الاختلاط او اللعب معاً ، فاذا صدف ان اكل الواحد منهم في بيت عمه او جلب حاجة كان ذلك سبباً لخلاف قد يمتد الى ايام او الى اسابيع ، وما يرافق ذلك من عقوبات وصراخ .

وحسني وسعيد تغيرا ايضاً ، سواء في العلاقة ، او في العمل ، وحتى في وقت الوصول الى البيت . أما الكلمات التي يتبادلانها فكانت اقرب الى المجاملة ، او لكي لا يبقيا صامتين اذا التقيا .

ندمت ام حسني ولامت نفسها لانها تأخرت بوصولها الى موران اول مرة ، لكنها تكتشف الآن ان كل شيء متأخر وفات اوانه . اكثر من ذلك بدا ان وجودها اصبحت عنصر خلاف جديد . كل واحد من الابنين يريد ان تأكل على مائدته ، ان تكون في القسم الذي يحتله من البيت ، وان تكون معه

هناك صديقاتها ، ولا بد ان يفهمنا وان يساعدنا .

هكذا بدأت تفكر وتمتلئ بهذه الرغبة ، لكنها لم تجرؤ ان تفتح ابنيها او ان تتخذ قراراً . وإلى ان تتخذ ذلك القرار بدأت بين يوم وآخر تخرج . تزور جارة من الجارات ، او تمشي في الشوارع على غير هدى . يكفي ان تقضي ساعة او ساعتين خارج البيت لتبقى حية ولثلاث تمرض او تموت .

زكية كانت تنتظر ذلك ، تنتظره بلهفة ، لانها على يقين ان حماها لا تعرف سوى القصر ولا تزور الا الشيخة . فما ان تغادر البيت حتى تتحري غرفتها لتعرف ما اذا اخذت بخوراً او لباناً ، وكانت تعرف ذلك ، اغلب الاحيان ، دون ان تضطر الى فتح الصرر ، فرائحة الغرفة ، او الترتيب الزائد الذي تحرص عليه ام حسني ، لا بد وان يشعرها بما فعلت حماها . أما اذا عادت من مشوارها ، فكانت زكية تدفع اليها الصغار لتتأكد ، فينهال عليها هؤلاء بالاسئلة ، او يطلبون ان تعطيهم مما اعطتها الشيخة . هكذا كانوا يطلبون ويتصرفون نتيجة توصيات امهم والدروس التي لا تتعب من ترديدها على رؤوسهم !

ولم يتأخر حسني لكي يتدخل :

- انا ، يا امي ، من هذيك الليلة ، حالف يمينا : اذا دخلت القصر عينك ما عاد تشوفني !

فترد بغضب :

- يقطع القصر والي ساكن فيه .

- ما علينا ، بس لازم تأخذي بالك !

- بسيطة يا ابني !

لم تكن زكية تكتفي بهذه القناعة ، كانت ، ايضاً ، تريد دليلاً ، لكي لا تبقى لحسني اية حجة . فبعد الوصايا التي ردها عشرات المرات ، وكانت اغلب الى التهديد « ان تبلع لسانها ، وتغمض عينها . مهما سمعت او رأيت من امه » فانها الآن لا ترغب بدخول معركة خاسرة ، ولا تريد مجرد نصر عادي او

الجديد سيولد هذا المقدار الهائل من التعاسة والالم ؟ وهي . . الم تكن مسؤولة عن كل ذلك ؟ اليس ما تراه الآن نتيجة تربيتها وطريقتها في التعامل والتصرف ؟

بدأت لها موران ضيقة ومعادية ، وبدأ لها البيت مثل سجن ، وامتلأت ايامها ولياليها بالوحدة ، اكثر مما كانت تحس بليالي المدينة . هل اخطأت مرة اخرى حين وافقت على المجيء ؟ وهل نستطيع شيئاً تجاه الصغار الذين حملوها من مكان الى آخر ؟

بذلت محاولات لان تجمعهم ، او لان تجمع بعضهم على الاقل . كانت تقطع رغيفاً من الخبز قطعاً صغيرة ، وتضع فوق كل قطعة كعباً من السكر ، ومع الفصص التي تروىها كانت تزقهم كالعصافير ، لكن صرخات زكية او أديبة ، وزكية بشكل خاص ، منادية على الاولاد ، تقطع عليها اللذة الوحيدة المتبقية لها . كان الصغير وهو يرتجف ، ثم ينهض مسرعاً ، بعد ان يمسخ طرفي حلقة بظاھر يده ، لثلاث تظهر عليه علامات الأكل ، تغرقها في تعاسة لا حدود لها ، وتجعلها عاجزة عن التصرف او المقاومة . ماذا تفعل . وكيف ترد ؟ كان النداء على الصغار ، ان يتركوها ، وان يلتحقوا بامهاتهن يشعرها انه لم يبق لها شيء ابداً .

وفكرت من جديد ان تربي قطة او عصفوراً « هذه الحيوانات لا تتخلى عن الانسان ولا تتركه ، حتى عندما يتركه ابناؤه » لكن من اين لها قطة مثل ياسمين ؟ وهل تبقى لها من العمر ما يجعلها تبدأ من جديد ؟ واذا ماتت لمن تترك هذا الحيوان المسكين ؟ هكذا فكرت وهي تتخلى عن الفكرة ايضاً .

حتى الصلاة لم تعد تكفي . يمكن ان تصلي ساعات ، ويمكن ان تسبح ، لكن اكثر من مرة وجدت نفسها تفكر باشياء اخرى اثناء الصلاة . كانت تستغفر وتستدرك ، وكانت تبدأ من جديد ، لكن كثيراً ما تكرر الامر ذاته .

لم يبق امامها الا ان تسافر مرة اخرى ، ان تعود الى الشام ، والى الطيبة بشكل خاص ، هناك يمكن ان تقضي ما تبقى لها من ايام ، ويمكن ان تبرر عودتها بحجة ان المناخ لم يناسبها ، وان الماء اثر عليها فلم تحتمل وجاءت .

صغير ، يجب ان تحقق نصراً مؤكداً وكاملاً ، ولذلك فان اي خطأ ، مهما كان صغيراً ، يمكن ان يؤدي الى نتائج معاكسة ، اذ بعد ان احتملت الكثير من حماها في فترات سابقة ، وتحملت ايضاً سعيد وسخريته ، فقد حان الوقت لكي تفتح بيتاً خاصاً بها ، ولان يكون لها وحدها زوج ، لا ان تكون مجرد شريك ، كما كانت تقول .

ولذلك لا تتعب من البحث والتنقيب ، ولا تتوقف عن دفع الصغار ليأتوا بالدليل من عند جدتهم ، حتى اذا ملكت هذا الدليل ، وفي لحظة مناسبة تضعه امام حسني : « حلفت اكثر من يمين انك لن تبقى يوماً واحداً في هذا البيت اذا دخلت امك القصر ، وامك لم تدخل القصر مرة ، دخلته عشرات المرات ، واليوم كانت هناك واليك الدليل » وتقدم اليه دليلاً لا يمكن دحضه ، ولا يختلف حوله اثنان .

هكذا كانت زكية تهيء نفسها ، رغم قناعتها ان حماها ذهبت مرات عديدة الى القصر . وان تكن في زيارات قصيرة ، خلافاً لعاداتها السابقة . اذ كانت تقضي هناك ساعات طويلة كل يوم . الآن تتعمد ان تذهب اثناء غياب ابنها ، ولا تقضي الا وقتاً قصيراً ، لكي لا ينكشف امرها . ومع ذلك فزكية ليست في عجلة من امرها ، لقد انتظرت وقتاً طويلاً ، ويمكن ان تنتظر ، فاذا قبضت على حماها بالجرم المشهود فلن تستطيع الانكار او التمويه اذا ووجهت بذلك .

الآن لا تريد ان تعرّض نفسها الى موقف ضعيف ، فالضعف يجبر الى ضعف اكبر منه ، والخصومة الآن ليست بينها وبين حماها ، انها بين حسني وامه ، وعليها ان تدفعه لمواصلة الحرب ، ومن الافضل الا تظهر .

ما كانت أم حسني لتزور القصر لولا الحصار الذي يطوقها، والذي تراه في عيون الصغار والكبار . وما كانت لتفعل ايضاً لو لم تأتيا سيارة القصر على غير انتظار او توقع . ومما حرصها اكثر انها هي التي فتحت الباب وتلقت الدعوة ، دون ان يحس احد . صحيح انها في اعماقها تشعر بالمرارة لان القصر نسيها تماماً ، لكن مثلما قال لها سعيد حين سألته ، ان ناس القصور لا يسألون عن الآخرين الا اذا احتاجوا اليهم ، او اذا التقت بهم عيونهم . ومع ذلك فان الفضول الممزوج بالشوق ، وتلك الرغبة في تحدي الحصار ، وان تشعر بانها حرة وقادرة على ان تفعل ما تريد ، كل هذه الاسباب معاً دفعتها لان تفكر بزيارة الشيخة . طبيعي لن تلبى الدعوة فوراً ، لكنها لن تتأخر كثيراً .

الشيخة كانت بحاجة ماسة لان ترى ام حسني ، لان تستقرىء لها ما يقوله الفنجان ، اذ بعد ان مرت على قصر الغدير تلك الأيام الصعبة ، حيث مرضت تهاني ، وخلال ثلاثة ايام ماتت ، دون ان يعرف سبب مرضها او موتها ، ثم بعد ذلك ، وخلال اسابيع قليلة مات سرور . والشيخة التي حزنت لموت تهاني ، أقنعت نفسها ان موتها نتيجة العمر او لسبب غامض ، أما سرور فان موته لا يترك شكاً ان في الامر سرّاً لا تفهمه .

اذ بعد ان مرض سرور ، او بالأحرى بعد ان اصيب بالحُمى ، وبدأ يهذي ، وربما قال اشياء اخافت الذين سمعوه ، وقد يكون وصل ذلك الى علم السلطان ، فما ان مضت ساعات حتى زاره ، على غير توقع ، ودون طلب ،

الدكتور المحملجي .

بعد ان فحصه اعطاه ابرة ، وارغمه على ان يشرب دواء ، وخلال فترة الظهر زاره السلطان بنفسه ، وكان الحكيم برفقته ؛ أما عند العصر ، او بعده بقليل فقد مات سرور ، ودفن قبل ان تغيب شمس ذلك اليوم !

موت سرور اخاف الشيخة الى اقصى حد . كانت بحاجة الى سند ، الى معرفة الأيام القادمة ، وفجأة تذكرت ام حسني ، وحدها يمكن ان تنقذها ، ان تقول لها ما يحبته القدر ، خاصة وان النساء حولها بدأن ينظرن اليها بطريقة مختلفة عن السابق . صحيح ان الأمر لم يتعد نظرات التساؤل لكن هذه النظرات بدأت تقلقها .

بعد ثلاثة ايام قامت ام حسني بالزيارة .

بدا لها القصر يختلف عن اية فترة سابقة ، اذ ما عدا البوابة التي ظلت مثلما كانت من قبل ، فان كل شيء تغير . هدمت اجزاء كثيرة من الاسوار الداخلية ، وقامت اجنحة جديدة وواسعة ، اضافة الى بنايات لا تعرف كيف بنيت بهذه السرعة . حتى جناح الشيخة ، فما عدا الغرفة التي تشكل مدخلاً للجناح ، لم يبق شيء .

والشيخة بدت لها امرأة اخرى خلال هذه الفترة : اكثر احديداً ، بحيث اصبحت عصاها اطول من أي فترة سابقة ، وشعرها طال عن السابق وابيض ايضاً . أما لونها فاصبح على سواد وزرقة ، الشيء الوحيد الذي لم يتغير عيناها . ما زالتا مشعتين صارمتين ، واقرب الى العناد او الحذر .

استقبلتها الشيخة كما لم تستقبلها من قبل . اذ رغم الحزن ، فقد احتضنتها بقوة وقبلتها خلافاً لكل المرات السابقة . وام حسني التي كانت تنوي ان تعاتب ، وان لا تطيل زيارتها ، ما لبثت ان شعرت بالضعف ازاء هذه الحفاوة ، فنسيت الكلمات التي حضرتها واستعدت لها ، وتسامحت تجاه نسيان الشيخة وعدم سؤاها ، خاصة بعد ان حدثتها اولاً عن تهاني ثم بعد ذلك عن موت سرور الغامض .

رغم الحزن كانت الشيخة تريد ان تعرف ما يحبته لها المستقبل ، وام

حسني التي اعتذرت انها لن تستطيع ، على الاقل هذا اليوم ، اشارت ، بشكل غير مباشر ، انها تفضل ان يؤجل الموضوع ؛ والشيخة التي التقطت هذه الاشارة ، فهمتها جيداً ، رغم انها كانت تتحرق داخلياً لان تعرف كل شيء وباسرع وقت .

ام حسني لم تطل زيارتها ، اذ انسحبت رغم الالحاح عليها ان تبقى ، انسحبت سريعاً بحجة ان احد احفادها مريض ولا بد ان تكون الى جانبه ، لانها الوحيدة التي تستطيع ان تمرّضه وتعني به .

لم تكد تصل البيت ، بعد العصر بقليل ، حتى وصلت بعدها عباءتان . كان من السهل ان تخفي العباةتين ، لكن قبل ان تمر ساعة على هذه الهدية ، وصلت هدية اخرى ، بعثت اليها الشيخة بغزال وبكمية من البلح . فتحت زكية الباب وتسلمت الهدية ، في الوقت الذي كانت ام حسني « تخفي » العباةتين ، لكي لا تخلق شراً . هكذا قالت لنفسها . لم يقتصر الأمر على ذلك ابلغ السائق الذي جلب الغزال والبلح انه سيمر غدا صباحاً ليأخذ الاولاد ، حسب الاتفاق بين الشيخة وام حسني الى القصر . ثم يصطحبهم مع اولاد آخرين في نزهة .

في ذلك المساء اصبحت زكية متأكدة وتملك الدليل . أما الوقت الذي فصل بين وصول السيارة ووصول حسني فكان قصيراً الى درجة لم يمكن امه من تدارك الموقف ، او اختراع حجة مقبولة .

لما دخل حسني ووجد الاولاد يتراكمون حول الغزال ، والبلح في منتصف الباحة ، ورأى امه تصرخ وتطلب من الاولاد ان يهدأوا وان يتركوا الغزال لتتمكن من ربطه ، ورأى زوجته تجلس على الدرجة الاولى ، وقد بدا عليها السرور والشماتة في آن واحد ، فقد صرخ بغضب :

- بس . . . انت وهو ، كافي صباح .

فلما توقف الاطفال وهذا الغزال قليلاً ، لكن لم يزايله التعب والخوف ، التفت الى امه وزوجته وسأل باتهام وهو يشير الى الغزال :

- من أين جاءتنا هذه المصيبة ؟

وانقضت ، لكنها لم تنته ولم تنقض ؟ واية ذكريات يمكن ان تغيب في الصدر ، في ذلك الكهف المظلم ، فلا تتحرك ولا تنوي الظهور او العودة ، لكن فجأة تظهر ؟ واية قدرة للانسان على التسامح والطيبة ونسيان الاسباء تجعله ينسى ويرضى ، لكي يبدأ من جديد . . . وفجأة ينكشف الغطاء ، ينقذ بفعل التعب وعدم الرضا وعدم القدرة على الاحتمال ، فيظهر كل شيء لانه لا يقوى على البقاء في الداخل لحظة واحدة ؟

في تلك الدقائق القليلة التي استغرقتها اسئلة حسني ، وبتلك الطريقة الساخرة في مخاطبتها ، وكأنها ليست امه ، او كأنها طفلة صغيرة مذنبة ، تجمعت في صدرها وقلبها عشرات المشاعر والافكار والرغبات . تذكرت حياتها منذ ان كانت طفلة صغيرة ، تذكرت لعبة القماش الزرقاء التي صنعتها ولم تصنع غيرها . ثم انتزعت هي ولعبتها ورميت في حوض ذلك الرجل المسن ، ابو حسني ، ليلعب بها كما كانت هي تلعب بلعبتها ، فيوقظها في الليل المتأخر ، لتبقى ساهرة ، لانه لا يستطيع ان ينام ، او لتفرك له رجله وظهره ، او لتصنع له الزهورات قبل ان يبدأ بقراءة القرآن . وفي الليال اخرى ، عندما تكون شديدة النعاس ولا تشتهي سوى النوم ، كان هو يشتهي ويريد اشياء اخرى ، فلا تعرف كيف تستجيب له ، كيف تساعده ، او كيف تغافله وتعود الى النوم من جديد ، وقد امتلأت خوفاً واشمئزازاً . أما عندما مات ، وقد فعل ذلك فجأة ، فلم تميز ما اذا كان نائماً او استبدت به نشوة من نوع ما فحملته بعيداً ، أو انه مات ولن يعود اليها مرة اخرى .

أما بعد ذلك ، وحين تزوجت مرة اخرى ، وظنت ان الآلام التي تحملتها في يتمها وزواجها الأول تكفيها ، ويمكن ان تعيش الآن مثلها يعيش الناس الآخرون ، ففرحت واقبلت وحملت المرة الاولى ثم المرة الثانية ، وجاءت لشكيب الاسطه بولد وبنت ، كما تفعل جميع النسوة ، وكانت مستعدة ايضاً ان تفعل كل شيء من اجل ان تأتي له باولاد ذكور آخرين ، تركها ومشي ، طلقها . . . وغاب .

ولما اشتغلت بعشرات الاعمال الصغيرة ، من التطريز الى الصوف ، الى تربية الحطات ، ثم بدأت بتجاراتها الصغيرة ، واخيراً حين انتقلت الى

قالت زوجته باندفاع :

- اسأل مرة عمي . . .

التفت الى امه التي كانت تمسك بحبل ، وبدت مرتبكة ، اقرب الى الخوف ، وسألها :

- ها حجة (وكان يستعمل هذا التعبير لأول مرة) شو المسألة ؟

ردت بسخرية وقد آذاها ان يخاطبها بهذه الطريقة :

- اللي تشوفه عينك

وبعد قليل :

- غزال ؟

- اي نعم غزال : على عيني وعلى رأسي ، غزال ، لكن من اين شرف

الغزال ؟ كيف ترك الدنيا ووصل الى بيتنا ؟ نزل من السماء ؟ طلع من الارض ؟ وليس ترك كل الناس وشرف لعندنا ؟

كان يتكلم بسخرية وببطء . بنفس طريقة امه ، قالت زوجته في محاولة للوصول الى اقصى النتائج :

- بعثوا الغزال وبعثوا البلح . . كله من القصر ، من الشيخة .

- والبلح كمان ؟

هكذا تساءل بسخرية وهو يلتفت صوب البلح ، تابعت زوجته :

- وقالوا ان نحضر الاولاد ، لانهم راح يبروا الصبح حتى يأخذوهم الى القصر .

- يا سلام . . . شي عال ، شي حلو ، وشو كمان ؟

والتفت الى امه وسأل بنفس السخرية :

- وشو كمان يا حجة ؟ شو مطلوب منا كمان ؟

اية احزان يمكن ان تتجمع في القلب وتشوي هناك ، وكأنها انتهت

- ما له قصة يا ابني . غزال مثل كل الغزلان .

- نزل من السماء ؟

- لا يا ابني ، الغزلان لا تنزل من السماء ، من السماء تنزل الملائكة ورضا

الامهات .

- طيب . . من اين جاءنا ؟

- من الشيخة . . يا ابني .

- يعني رحمتي . كسرت يميني ؟

- حتى لا اتعبك ولا تتعبني يا ابني رحمتي ، وبكرة انا رايمحة ، وكل يوم

يمكن ارواح !

- يعني يميني فالصو بالنسبة لك ؟

- يمينك على رأسي ، يا ابني ، لكن لازم تعرف : كل حياتي ، من يوم

كنت بنت صغيرة ، وحتى اليوم وانا ملجومة ، محلوف علي ، مربوطة وقاعدة :

لا ارحمك ولا اخلي الله يرحمك ولا اخلي رحمة الله تنزل عليك . لما كنتم صغاراً

كنت ملجومة ، لما كبرت ظلمت ملجومة ، واليوم وبكرة انت رايد اظلم

ملجومة ، لا يا ابني ، انا وحدي اللي اقرر وما رايدة احداً يقرر عني ويقول لي

وين ارواح وامتي ارواح وامتي ارجع .

- يعني انا لا شي باعتبارك !

- افهم على كيفك .

لما جاء سعيد ووجد الجوم مشحوناً متوتراً هكذا : امه تقف في جانب

ويدها جبل ، وقد اصبح وجهها بين الصفرة والزرقة من الانفعال واليأس ،

وحسني يحوم مثل حيوان محبوس ، يتطلع الى الغزال والى عشوق البلح ،

ويتطلع الى امه ، والصغار وقفوا في الزوايا او قريباً من الادراج ، وكان الغزال

وحده يتحرك حركة صغيرة خائفة . لما رأى المنظر هكذا ادرك ان عاصفة قد

هبّت على البيت ، قال بمرح ليخلق جواً جديداً :

- الغزال فأل خير . . والبلح اشرف الثمر .

عمان ، وعلى مدى سنوات عديدة ، وهي تتاجر وتربح وتسافر ، وتقسم ما تحصل عليه الى ثلاثة اقسام متساوية : الاول لمصروف البيت ، والثاني لكسوة الصغار ، أما الثالث فتبقيه رأس مال لتشتري به وتبيع ، ولا تترك الا قروشاً قليلة ، جمعتها قرشاً فوق آخر ، من اجل شيء خاص عزيز عليها ، ولم تبح به لاحد ابداً ، الى ان تجتمع لديها من اجل شراء هذا الشيء ما يكفي ، واشترته ، وابقته بعيداً ملفوفاً ، وكانت تضيف اليه بين فترة واخرى بعض المستلزمات التي تعتبرها ضرورية ، هذا الشيء الوحيد الذي تملكه ، او تعتبره حقاً خاصاً بها ، وما عدا ذلك ، وطوال حياتها ، ولم يبق من هذه الحياة الا القليل ، هكذا قالت لنفسها ، تركض من اجلهم ، جاءت من اجلهم ، تعبت من اجل ان لا يتعبوا او يذبلوا ، وبعد أن كبروا زوّجتهم ، ثم جاء أولادهم ، وهي تواصل الآن التعب والسهر والشقاء ، من اجلهم ايضاً . لا تريد مقابلاً ابداً ، وإذا طلبت شيئاً الآن فكلمة ، وحتى الكلمة إذا لم تصدر من القلب ، من اعماق القلب ، لا تريدها ، يكفي ان يتركوها ، ان تعيش كما تشتهي وكما تريد ، أما ان تحاسب ، ان تمنع ، ان تراقب ، وان يقال لها اخيراً افعلي ولا تفعلي ، فلم تعد تحتمل .

وحتى القصر والشيخة وموران وكل شيء في هذا الكون لم يعد اي منها يعني لها اهمية او غبطة ، فقط تريد ان تفعل ما يجعلها تحس انها لا تزال موجودة وحرّة ، وانها قادرة . اكثر من ذلك تريد ان تقول لا او نعم حسب قناعتها ورغبتها دون فرض او ارغام .

هكذا احست وفكرت وسافرت . . ثم عادت ، فلما وجدته لا يزال ينظر اليها ، وكذلك العيون الاخرى ترقبها وتتابعها ، وكادت ان تنسى كل شيء مرة اخرى ، فما ان التفتت الى الغزال ، ومدت اليه يدها تريده ان يقترب حتى جاءها صوت حسني :

- ما قلت لنا ، يا حجة قصة هذا الغزال !

- قصة هذا الغزال ؟

هكذا تساءلت بحزم اقرب الى الاحتقار ثم تابعت :



ضحك حسني بسخرية واذاف :

- والشيخة اشرف البشر .

- كل الناس خير وبركة ، يا ابو الشباب .

هكذا رد سعيد في محاولة لان يمتص غضبه ، وبعد قليل :

- واولها وآخرها نصف الالف خمسية ، وما في شي يستوجب ان الواحد يحرق دمه ، يحرق اعصابه .

والتفت الى زوجته :

- شويا اديبة . الدنيا مولعة ، الدنيا خرابانة . شو صاير ؟

- ما في شي يا ابن عمي . . .

وبعد قليل اضافت :

- ولو طولوا بالهم المسألة بسيطة ، وما تستاهل .

وطلب منها ان تحده ، ان تفهمه ما حصل ، فلما اشارت ، بكلمات قليلة ، ان القصر بعث لهم بالغزال والبلح ، وان هذا سبب الخلاف والغضب ، قال لينهي الخلاف :

- المسألة من اولها لآخرها بسيطة : نذبح الغزال او نرجعه لاصحابه ، والبلح الف واحد ييوس ايدينا اذا اعطيناه شوية .

لكن لم تنته المشكلة ، ففي صباح اليوم التالي ، جمع حسني وزوجته حاجاتهم بسرعة وغادروا البيت مع الاولاد ، ورغم ان سعيد بذل جهداً كبيراً لكي يحمله على تغيير قراره ، على تأجيله ، الا انه امتلاً اصراراً ، وفي محاولة لان يقنع سعيد ان هذا الحل هو افضل الحلول قال وهو يدفع الاولاد امامه .

- احسن لك واحسن لي ، ويمكن احسن للحجة (هكذا اصبح يسميها) ، وحتى نظل اخوان ونحب بعضنا ان نفترق ، واذا ما افترقنا اليوم لا بد ان نفترق بكرة . ويمكن نفترق بكرة على زعل .

وحاول ان يضحك او ان يتبسم ، وهو يهز رأسه ، للتعبير على ان هذا الحل هو احسن الحلول .

لم تمض ايام على مغادرة حسني الدار حتى مرضت امه من جديد . بدا
المرض وكأنه استمرار للمرض السابق ، وادبية التي شعرت بتأنيب الضمير ،
لأنها كانت احدى المتسببات في ذاك المرض ، وفيما ادى اليه من نتائج ،
اندفعت هذه المرة ، وقد اصبحت ربة البيت الوحيدة ، الى معالجتها والعناية
بها . واذا كانت قد رأتها كيف حضرت ادويتها في المرة السابقة ، واية اعشاب
غلتها واية اعشاب سحقتها ، وكانت تريد ان تفعل مثلها ، فقد قالت لها
حماتها ، وخرج صوتها متحسراً :

- لا تغلبي حالك ، يا بنتي ، لان مرضي هذي المرة غير مرض هذي
المرة .

وحين تطلعت اليها مستغربة ومتسائلة في نفس الوقت ، تابعت العجوز ،
بعد ان تنحنحت :

- وما تشفيني الا عشبة بوادي الطيب !

- شو يامرت عمي ؟ عشبة بوادي الطيب ؟

- اي نعم ، يا بنتي ، عشبة بوادي الطيب ومية بلادي !

وحين حاولت ادبية ان تقنعها ، ان تلح عليها ، وان تجرب ايضاً ، لعلها
تصبح افضل ، ردت عليها العجوز بابتسامة حزينة ، وبكلمات متعبة :

- النبي آدم طيب نفسه ، يا بنتي ، وانا اعرف حالتي !

- وصلوني لبليدي وما عليكم مني . . .
- على العين والراس ، يا حجة ، يا امي .
- نساfer بكره ؟
- نساfer بس تكوني قادرة على السفر !

وتنقضي الليلة ، وتمتلىء ام حسني بروائح المسك وهي تستعيد رائحة وادي الطيب ، وترتوي حين تتراءى لها تلك المياه الباردة العذبة ، أما سعيد الذي يتقاسم مع اديبة سهر تلك الليلة ، لانه يمتلىء خوفاً ان تكون الليلة الأخيرة للعجوز ، فتتراءى له حياته الماضية وهو يستعيدها ، يجدها قاسية ، مليئة بالصعوبات ، لكنها مع ذلك اكثر لذة وانسانية من الحياة التي يعيشها الآن ، هنا في موران لا يفعل شيئاً سوى الركض ، يركض في كل الاتجاهات ، ويركض معه الآخرون ، يقنع الكثيرين من اجل ان يقنع نفسه ، يضحك ، لكن ضحكه سخريه ، وكأنه يضحك على نفسه ، ومع ذلك لا يجد شيئاً افضل ليفعله .

في الصباح ، مع اول خيوط النهار ، كانت ام حسني قد استعدت تماماً ؛ ارتدت ملابس الخروج وضعت بقجتها امامها ، وجلست في اعلى الدرج ، مقابل غرفة سعيد ، تنتظر .

لقد فعلت ذلك بعد ان وضعت للغزال أكله وقليلاً من الماء ، وبعد ان صلت الفرض ورددت بعض الادعية ، وفكرت ان تأكل شيئاً لكي تقوى على تحمل السفر ومصاعب الطريق ، لكن لم تجد نفسها قادرة على تذوق اي شيء ، اوراغبة باي شيء .

وبنفس طريقة الليلة الفائتة حاول ان يرجىء السفر ، مع تأكيد لا يلبث يتزايد انه حالماً تبلى من المرض وتستعيد قوتها لا بد وان يسافراً معاً ، وهناك ، يمكن ان يبقى معها ان ارادت ، ويمكن ان يؤمن لها كل شيء . ويمكن ان يعود مرة اخرى الى الشام او عمان تاركاً موران لاهلها ، وهي تسمع ولا تسمع ، لكنها بعيدة ومليئة بالحزن ، واذا تحصن بالصمت ، لا تعلق ولا تجيب ، تزداد اصراً على مغادرة هذه المدينة الملعونة ، مدينة الفجيعة والسحرة والعاطلين .

وفي الظهيرة والمساء حاول سعيد ان يخفف عنها ، ان يقنعها ان حالتها بسيطة ، ولا بد ان تشفى خلال أيام ، وبعد ان تشفى يمكن ان يستجيب لها وتساfer ، ومن اجل ان تشفى لا بد ان يأتيها بطبيب ، وهي ترفض ، تزداد اصراً ان دواءها هناك ، وانها حالماً تصل سوف تستعيد صحتها ، أما اذا استلمها الأطباء هنا ، كالمحملجي وأمثاله ، وبدأت ابرهم تثقب جنبها ، فان ذلك سيعجل بموتها ، ولا تريد ان تموت هنا .

ولكي تقنعه انها ليست بحاجة الى اطباء او الى ادويتهم ، توافق على ان تصنع لها اديبة مشروباً من زهورات متنوعة تصفها لها ، وبعد ان تشربه تتظاهر بالنشاط ، بانها استعادت قوتها ، وتتنظر الى عيني سعيد :

- يا ابني ، برضاي عليك ، سفرني ، خليني ارجع لبليدي واهلي . . .
- يا حجة . . نحن اهلك ، ونحن بلدك .
- كنتم اهلي ، يا ابني ، اليوم ما عاد لي اهل .

وتسقط على خدها دمعة ، لا تحجل منها ، وتريد الكل ان يراها ، وتتابع كأنها تخاطب نفسها :

- واللي ما عنده بلد ما له بلد .
- وكللي الله يا حجة ، وبلا هذا الكلام .
- وتزفر بحرقة وتمز رأسها :

- ما عاد في فائدة من الحكمي ، يا ابني ، لأنسي بزماي حكيت كثير وما احد سمعني !

- إذا كان قصدك حسني وزعله وتركه للبيت فهذه المسألة بسيطة ، رغم ان الحق عليه ، لك علي ان ابوس راسه وارضيه ، ونظل ، بوجودك ، اخوان وجبايب ، المهم ان تخلي المرض وراء ظهره .

وتمز العجوز رأسها دلالة ان هذا ليس كل شيء . وحين تغرق الغرفة في الصمت ، ويعجز سعيد عن خلق المرح الذي تعود ان يخلقه دائماً ، يأتي صوتها ضعيفاً منهكاً :

- بيتك ، يا ابني ، واهلاً وسهلاً باي وقت !
وهو يلتفت ، وقد اصبح قريباً من الباب ، قالت ، وخرج صوتها متعباً :
- ولا تنسى تسلم لي على الاولاد . . . وعلى زكية !
وهو يهبط على الادراج كانت دموعها تهبط على خديها ، وكأنها تودعه
لآخر مرة . شعرت ان الدنيا تضيق وتطبق عليها ، وشعرت انها لم تعد بحاجة
الى شيء او احد . شعرت انها وحيدة تماماً . دائماً كانت وحيدة ، لم يفهمها
احد ، ولم يقف الى جانبها احد .
حين عادت ادبية ، بعد ان ودعت سلفها ، وجلست على طرف
الفرش ، وبدت محرجة ، اذ لا تستطيع ان تسألها ، في هذه اللحظات ، عن
حسني ، لثلاث تثير احزانها من جديد ، ولا تجد ايضاً كلمات تقولها ، سألتها ما
اذا كانت بحاجة الى شيء او ان تفعل شيئاً من اجلها . فقد ردت عليها :
- لو كانت زكية ، بنتي ، موجودة . . .
وبعد قليل وبخزن :
- كان لازم تكون موجودة .
- انا مثل بنتك يا مرت عمي .
- صحيح يا بنتي .
وتطلعت ام حسني حوالها ، بدت مترددة حائرة ، احست ادبية ان لديها
ما تقوله ، سألتها بلهفة :
- اذا كنت بحاجة لشيء بعيوني اخدمك يا مرت عمي ، قولي .
- كل اللي عندي قلته ، يا بنتي . . .
- صحيح يا مرت عمي ، اي شيء اطلبه ، وانا جاهزة .
استدارت ام حسني على جنبها و اشارت باصبعها الى ما تحت السرير .
تطلعت ادبية بتساؤل ، تابعت ام حسني بتعب :
- البقجة .

ايام بليلها ، والصحة والمرض يتناوبان ، وام حسني مثل شمعة تذوب
وتتلاشى ، او تصبح مثل مسمار يستعصي على الليّ او الانكسار ، وسعيد الذي
يرقب الضوء ، ضوء كل نهار جديد ، لانه كان يمتلىء يقيناً ان الموت لا يأتي الا
في الليل وخفية ، كان موزعاً وحائراً بين ان يتركها تغيب كما يغيب الدخان ،
يتركها تموت وتتلاشى دون ان يحضر طبيياً ، لانه وحده القادر على ان يفهم
مرضها وان يعالجها ، وبين ان يراعي حالتها النفسية ، ويعتبر ان مرضها نتيجة
الحزن ، فاذا زال هذا الحزن تستعيد نشاطها وقوتها . وهو بين هذه المشاعر
المتناقضة يحاول ان يعيد للبيت المرح والضجة ، ولا يتردد في تقديم الوعود .
اما حسني الذي جاء في اليوم الخامس لزيارتها ، فقد كان محرجاً
ومتضيقاً ، وظل اغلب الوقت ينقل عينيه في انحاء البيت ، وكأنه يراه لاول
مرة ، او كأنه يراقب اية تعديلات جرت بعد غيابه . وحين سأل امه ما اذا
كانت احسن من قبل وما اذا كانت اوجاعها مثل المرة السابقة ، فقد ردت وهي
تنظر الى السقف ، وكانت ممددة في فراشها :

- لا تخاف عليّ يا ابني .

واستردت نظرتها ، وقالت :

- والله ما يقطع احد . . يا ابني !

وانتهت الزيارة بعد ان انقضى الوقت بالصمت او بالانفاس العميقة
والزفرات التي كان يصعدها حسني بين لحظة واخرى ، وكان يريدتها حديثاً
اقوى من الكلمات وامضى ، أما هي فقد استرقت اليه نظرات كثيرة ، وكأنها
تستعيد في ذاكرتها صوراً قديمة وتقارنها بالصورة التي امامها ؛ كانت تشعر
نحوه بالمحبة الشديدة والمرارة معاً . وتريد ان تفرغ ما في قلبها قبل ان تستعيده
كما كان من قبل ، لكن وجدت انها غير قادرة على ذلك .

قال لها وهو يقبل يدها :

- سامحيني يا امي ولا تبخلي عليّ برضاك !

- رضاي عليك يا ابني .

- واذا بكرة انشغلت وماجيت اللي بعده اكون عندك .

- الله يرحمها ويرحمنا .

قال سعيد لزوجته بعد اسبوعين على الوفاة :

- دائماً .. عيني كانت على البقجة ، كنت خايف من كبرها ، كنت
متصورها من جملة التجارة ... وابدأ ما تصورت انها كفن !

- البقجة؟

- فيها ، يا بنتي ، ما حضرته لآخرتي .

وظلت عينا ادبية تنظران بحزن وتساؤل ، تابعت ام حسني :

- فيها ، يا بنتي كفني !

وفي فجر اليوم التالي ، لحظة انقشاع الظلمة وبداية اول النهار ، وبعد
ساعة من وصول طبيب من المستشفى الاهلي ، وقد انتدبه الدكتور صبحي
المحملجي ، لكي يقوم بمعالجة ام حسني بعد ان اعتذر هو عن القيام بهذه
المهمة بنفسه ، لانه « اعتزل المعالجة العامة » كما قال لسعيد ، الذي وصله بعد
منتصف الليل بقليل ، في تلك اللحظة ، بين آخر الظلمة واول النهار ، وحينها
كان سعيد يجوب موران من اقصاها الى اقصاها بحثاً عن صيدلية لشراء
الدواء ، فاضت روح ام حسني !

قالت ادبية لسائق القصر الذي جاء بعد ثلاثة ايام ، مبعوثاً من الشيخة ،
يسأل عن أم حسني ، قالت له من وراء الباب الموارب انها غير موجودة . وحين
سألها متى تعود او متى يعود هو ، لان الشيخة تريدها لامر مستعجل ، ردت
ادبية :

- قل للشيخة انها راحت .

- ومتى ترجع ؟

- لن ترجع !

سافرت ؟

- اعطتك عمرها !

- شنهو ؟

- ماتت

- ماتت ؟

- اي نعم ، ماتت .

وفي غير فصل الشتاء ، او حين تتأخر القوافل او لا تصل ، فان موران التي تعيش حياة رتيبة هادئة ، لا تكف عن انتظار يوم الخميس ، انه يوم السوق والاعراس ، وغالباً ما يكون يوم الولايم ايضاً . ففي هذا اليوم يتحرك الناس اكثر مما يفعلون في غيره من الأيام . وفي هذا اليوم ايضاً تصل الماشية التي غابت في البادية فترة ليست قصيرة ، ومعها يصل البشر من الامكنة المحيطة بموران للبيع او للشراء ، مع ما يرافق ذلك من الاحاديث والمساومات ، وما يتخللها من صعوبات ومكر ، وبعض الاحيان خلافات تنتهي بالغضب والقطيعة ، او تنتهي بالرضا ، لكن كل طرف يخفي مشاعره الحقيقية ، لكي لا يشعر الطرف الآخر انه غلب او غلب .

هذا الانتظار الذي تظل موران تعيشه يوماً بعد آخر ، شهراً بعد آخر ، يتركز ، اكثر ما يتركز ، في سوق الحلال ، انه بمثابة الرئة التي تتنفس من خلالها موران ، او البؤرة التي تتجمع فيها الاشياء ثم تتفرق ؛ ففيه يلتقي اهم الرجال وتجري اكبر الصفقات واطرها ، واليه تصل الماشية والارزاق ، واليه يصل الغرباء والقادمون . صحيح ان هذا السوق ليس في وسط المدينة ، وليس مكاناً نظيفاً او جميلاً ، لكنه بكل تأكيد اهم الامكنة على الاطلاق .

ففي اقصى الشرق ، مع ميل قليل نحو الجنوب ، وغير بعيد عن وادي الرها ، حيث الطريق الذي تسلكه القوافل ، اغلب الاحيان ، من اجل الوصول الى موران ، يقع سوق الحلال : بسطة واسعة من الارض ، مستوية ، قاسية ، في جانب منها آبار المياه ، وفي جانب آخر حظائر للماشية والدواب ، وهي حظائر بسيطة ، او بالاحرى لا تتعدى المربعات او المستطيلات من الارض المسورة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة ، وغالباً ما تؤجر لقاء مبالغ زهيدة ، والغرباء عادة هم الذين يستأجرونها ، ليأمنوا عدم اختلاط ما شيتهم ودوابهم بمواشي الآخرين او دوابهم .

على اطراف هذه الارض ، او على اطراف السوق ، كما يسمى عادة ، قامت بضع دكاكين ، وقد بنيت بشكل بدائي وسرعة متناهية ، وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ ، يباع فيها كل ما تحتاجه القوافل ، وتتعاطى

ظلت موران ، مثل كل البلدان والقرى في هذه الصحراء العصية الجامحة ، وادعة ساكنة سنين لا حصر لها ، لا تشغل ولا تنفعل بالامور الطارئة الا لفترة قصيرة ، ثم تعاود حياتها الطبيعية ، التي تميزها ابداً : الانتظار . انها تنتظر المطر والقوافل وسوق الخميس ، وتنتظر ايضاً شيئاً ما تحسه ولا تعرفه !

كان المطر ، او مجرد تلبد السماء بالغيوم ، سواء امطرت في هذا المكان ، او في اي مكان آخر ، يولد في القلوب رضا لذيذاً اقرب الى الفرح ، فالمطر يعني اياماً اقل عسراً سوف تأتي ، وان حياة الناس ستكون اقل تعاسة ، وقد يؤدي ، وغالباً ما يؤدي ، الى بقاء الآباء والابناء فلا يرحلون .

أما وصول القوافل فانه يعني وصول عدد من الغائبين الذين طال انتظارهم ، اضافة الى ما تحمله القوافل من الارزاق والاخبار وروائح الامكنة البعيدة ، فيشتري الناس في هذه الأيام اكثر مما يفعلون في الأيام الاخرى ، ويعرفون او يقدرّون الصعوبات الجديدة التي قد تواجههم نتيجة ثبات الاسعار او تغيرها . وما بين استقبال الغائبين ، والسؤال عن الذين لم يرجعوا ، ومعرفة اخبار الاماكن الاخرى ، اذا جاءتها الامطار او تأخرت ، تعيش موران اياماً حافلة غير عادية ، فتتغير حياة الناس وتصرفاتهم ، ويبدون اكثر نشاطاً واقل حذراً ، لكنهم في كل الاحوال لا يكفون عن الحديث فيما بينهم ، ولا يكفون عن توجيه الاسئلة للقادمين .

في السوق، لا يملكون إلا كيساً أو كيسين من التبن، أو سطلاً فيه قطران لمدواة
الابل، لكنهم تشبثوا واستمروا الى ان حانت الفرصة التي طالما انتظروها، فلما
جاءت جاء معها الخير كله، فتحولوا الى اغنياء. وغيرهم من الذين كان
يضرب بغناهم المثل، ويُعدّون من اصحاب الرعايا والرزق الوفير، ما لبثوا
بين عشية وضحاها، ان اصبحوا فقراء، لان مواشيهم هلكت في سنة من
سنوات المحل، او لانها دخلت البادية طلباً للمرعى فغابت وغابت اخبارها
معها.

الأطفال الذين فتحوا اعينهم على الحياة، وبدأوا باكتشاف العالم المحيط
بهم، متجاوزين أولاً بيوتهم ثم الحي الذي ولدوا فيه، كان اول ما عرفوه
واكتشفوه: سوق الحلال. فمن هذا السوق ساقوا ضحايا العيد؛ ومن هذا
السوق اشتروا حماراً او بغلاً لنقل الماء، قبل ان تمد الأنابيب الى البيوت. ومن
هذا السوق تمت زيجات كثيرة حين اتفق الآباء؛ ومنه بدأت الاسفار الكبيرة
والبعيدة والتي غيرت حياة الكثيرين.

وفي هذا السوق كانت تجري الامازيح وتروى النكات، ومنه تنتقل الى
موران، وخلال رحلتها القصيرة تتغير ويضاف اليها الكثير، فيضحك الناس
ويطربون؛ ومن السوق كانت تطلق الالقاب والوصاف فثبتت على
الاشخاص اكثر مما ثبت عليهم اسماؤهم؛ وفي السوق كان يستغيب الناس
بعضهم بعضاً، وكانوا يراقبون كل شيء بعيون مدققة، فيعرفون الاسرار
والاخبار حتى اكثرها خفاء.

هكذا كان السوق منذ ان وجدت موران. واذا كان لكل سوق معلمه
ورجاله والعارفون بخفاياه واسراره، دون ان يظهر ذلك من الملابس او
التصرفات، ودون ان يظهر ذلك ايضاً من اول وهلة، فان اثنين او ثلاثة من
هؤلاء الرجال ترسم ملامحهم في مخيلات الناس وتترسخ، ليس لانهم فعلوا
اشياء خارقة، او لانهم اقوى من غيرهم او اغنى، وانما لان وجودهم ارتبط
بحياة الناس على نحو غير مألوف، ولان تصرفاتهم لا تخضع للمنطق الذي
يحكم تصرفات الآخرين. واذا كان لكل دولة او لكل مدينة، حاكمها
واغنياؤها، ولها رجالها الاقوياء، فان لكل مدينة ايضاً اناسها الذين يلخصون

بامور كثيرة في آن واحد. وتكون هذه الدكاكين عادة مليئة بالبشر والاشياء
ويختلط فيها الباعة بالمشتريين، خاصة في ايام معينة، او على التحديد منذ
عصر الاربعاء وحتى ظهر الجمعة. وتبلغ ذروة نشاطها يوم السوق، يوم
الخميس. وفي غير هذه الأيام تخلو الدكاكين من البشر او تكاد، كما لا يتردد
اصحابها في اغلاقها لساعات طويلة.

غير بعيد عن السوق، او على التحديد في الطرف الغربي منه، يقع
المسجد، وهو عبارة عن ارض مربعة محاطة بسور من الحجارة التي انتقيت
بعناية وصفت بعضها فوق بعض بطريقة محكمة، خلافاً لحجارة اسوار الحظائر، كما
فرشت ارضه بحصائر بسيطة متفاوتة المساحات والالوان، وقد دب الى اغلبها
التلف.

وفي الجهة الاخرى المقابلة من السوق كانت مقبرة موران، واذا كان من
الصعب ان يميزها الغرباء، الا اذا دققوا النظر ورأوها في ضوء النهار، فان
اهل موران يعرفون قبورها قبراً قبراً، رغم ان اكثر القبور سويت مع الارض
ومالت شهادتها او رفعت من امكانها، لان كل قبر وكل حجر يعني شيئاً
حياً قوياً لكل انسان في هذه المدينة.

حين يتجمع المشهد كله، وينظر اليه من مسافة معينة، يبدو على شكل
مثلث: الجامع رأس هذا المثلث، أما ضلعاه فهما السوق والمقبرة.

في هذا المثلث من الارض كانت تشكل موران مرة بعد أخرى، وكانت
فيه تبدأ الافراح والاحزان والمخاوف، ومن هنا ايضاً كمانت تولد الافكار
والاخبار، والى هنا كان يصل المسافرون والغرباء، بحيث لا تخلو ذاكرة احد
من اهل المدينة، او الذين عاشوا فيها، من ذكرى حادة مرتبطة بهذا المكان،
ذكرى اب عاد بعد سفر طويل، او ذكرى الذين سافروا وغابوا، وما رافق
الساعة الأخيرة من ركض وحزن ووصايا، واخيراً كيف نهضت القافلة
وسارت، ثم كيف ابتعدت الى ان غابت، وما يتولد عن ذلك من مشاعر
الحزن والرغبة واللوعة.

وفي هذا المثلث من الارض تروى قصص بعض الافراد الذين كانوا فقراء

كان يجلس في ظل سور المسجد ، والى هذا المكان يأتيه الذين يريدون مشورته ، والذين يريدون سؤاله ، او اولئك الذين لا عمل وارههم لكي يتحدثوا او لكي يستمعوا الى الاحاديث التي تدور .

ومن خلال الاسئلة او بسماع الاحاديث ، تُعرف اخبار القوافل وحالة السوق ، فيقرر الواحد ما اذا كان عليه ان يبيع او ان يشتري ، او ان ينتظر . وما يجب ان يفعله هذا اليوم او في يوم آخر .

فاذا لم يكن اليوم يوم السوق او يوم وصول احدى القوافل ، واذا لم يكن الفصل شتاء ، فان شمران الذي يصلي المغرب في المسجد ، يكون نهوضه للصلاة ايداناً بانتهاء يومه . ولا بد ان يتحرك لكي يقضي هذا الواجب بسرعة ، ثم يشق طريقه وسط المقبرة ، في مسلك لا يغيره ، ولسانه لا يتوقف عن ترديد تتمات الرحمة ، فاذا اقترب من السور الغربي يرتفع صوته بشكل واضح ، لان هناك قبر ابيه ، حتى اذا تجاوز المقبرة اتجه الى بيته ، قاطعاً موران من شرقها الى غربها .

الأيام التي غاب فيها شمران عن السوق قليلة ، والأيام التي لم تنقل عنه قصة او خبر اقل . واذا كان بحضوره لا يثير تساؤلاً او لا يلفت النظر ، فان غيابه يثير تساؤل الصغار والكبار ، ويشكل هذا الغياب فجوة في سور المسجد وفي السوق كله . ويؤكد الكثيرون أن الصمت كان يرين مثل ظل ثقيل وحزين على السوق حين يغيب .

بمقدار الثبات الذي يخلقه شمران في سوق الحلال ، ويعطيه ملامح شديدة الظهور ، فان صالح الرشدان ، او كما يُلقب بصالح النذير ، يشاركه في ذلك ، بل ويزيد عليه ، لانه وحده الذي يخلق في السوق من الصخب والهرج ما لا يخلقه الآخرون مجتمعين .

مهنة صالح الاساسية : « حذو الخيل » ، هكذا يجيب حين يسأل عن عمله ، يجيب باصرار وسخريّة معاً . علماً بأنه لم يشاهد ، ولو مرة واحدة ، يحدو حصاناً . اكثر من ذلك لا يقترب منه اصحاب الخيول ، سواء اكانت معهم خيولهم أم لم تكن ، خشية ان يدعي يوماً انه حذا خيولهم او اعطى رأياً فيها !

حياة هذه المدينة ، فتبدو مختلفة عن غيرها من المدن ، او مختلفة عن ازمان اخرى .

من هؤلاء شمران العتيبي ، ليس لانه صاحب مال وماشية ، وليس لانه ممثل السلطان ، الذي يتسلم الباج عن كل دابة تدخل السوق او تباع فيه ، وانما لانه « العارفة » الذي يستشار ويؤخذ رأيه في القضايا الكبيرة والخطيرة حين تحزب الامور ، وحين يقع الخلاف .

اذا وقع الخلاف في السوق ، وكثيراً ما يقع ، يرجعون الى شمران ويحكمونه ، فهو الذي يعرف الخيول ، يعرف انسابها واعمارها ، وبكم يبعث مثلاتها هنا وفي اماكن اخرى ، من باعها ومن اشتراها . ويعرف الابل القوية ، يعرف صحتها ومرضاها ، وكيف يجب ان تعالج ومتى . فاذا وقع الخلاف حول الماشية التي سافرت او جاءت ، ونصيب كل واحد من الذين شاركوا فيها ، فان الذي يفصل في هذا الخلاف ويقبل حكمه دون مناقشة طويلة ودون اعتراض ، هو شمران . أما تلك الشرائع الضمنية التي تحكم علاقات الناس ، وتحدد ما لهم وما عليهم دون ان يعرفوا كيف جاءت هذه الشرائع او لماذا ، فان شمران ، الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، واحد من القلائل الذين تسمع كلمتهم ويؤخذ برأيهم .

وما يقال ايضاً عن انساب القبائل والقرايات او الخصومات التي تقرب او تباعد اذا نسيها الكثيرون ، او اختلطت وقائعها في ذاكرتهم ، فعند شمران الخبر اليقين والمعرفة الاكيدة .

لم يكن شمران غنياً ، ولم يكن فقيراً ، انه من الآلاف الذين يعبرون هذه الحياة دون ان يسألوا ، ودون ان يتساءل غيرهم ، كيف يتوافر لهم الرزق ، لانه غالباً ما يتوافر ، نتيجة الصدفة او الحظ ، او نتيجة تواضع المطالب والاكتفاء بما هو موجود ، او ربما بهذا التنظيم الخفي والحرص الذي لا يصل حدود اللجاجة ، فلو لم يكن لشمران هذا العدد من الاولاد ، ولكل واحد منهم ، منذ وقت مبكر ، عمل يعرفه وثابر على القيام به ، دون ايعاز ، لما استطاع هو ان يقضي هذه الساعات الطويلة في السوق ، في مكان لا يغيره :

جعلته في نظر الكثيرين هكذا .

يروون عنه انه يحدّث الحيوانات والحجارة ، ويرفض ان يتحدث مع البشر الا في الامور الضرورية . فحين يأتي صاحب حمار بحماره ، لكي يحذوه ، كان يتحدث الى الحمار ويسأله اكثر مما يتحدث مع صاحبه يسأله : « هذون الظلام مو بس تاغيبك ، لاعنين والد والديك ، مدبر ومشييلين عليك احمال رينا ، وبهذي الدنيا الواحد يظلم الثاني ، وانت الوحيد المظلوم وما تظلم » ويهز رأسه اسفاً ويتلفت الى ادواته ، وبعد ان يهيئها يبدأ العمل والحديث معاً : « لا تظل حمار طول عمرك ، بيس رأسك ، عاند ، والبط ، واذا رفست عور ولا تحف » فاذا ضحك صاحب الحمار يلتفت اليه صالح بنصف وجهه غاضب ويخاطبه ، وتخرج الكلمات من بين اسنانه :

- خلوا بقلوبكم رحمة ، قولوا هذا الله خلقه ولازم يستريح .

فاذا رد صاحب الحمار او ظل يتسم ، يترك صالح رجل الحمار ويلتفت اليه :

- تقول : حمار .. وما يفهم ؟ تقول حمار ولازم يحمل ؟

وحين لا يسمع رداً يتابع :

- لولا الدواب اللي الله خلقها ، لولا الحلال ، ما كنتم تساوون شي يابني آدم !

المراث التي غضب فيها صالح الرشدان ، نتيجة كلمة او تصرف ، لا عدد لها ، فهي من الكثرة بحيث تحصل كل يوم . وعندما يغضب يتوقف عن العمل ، لا يواصله في تلك الساعة ايأ كانت المرحلة التي وصل اليها ، وبعض الاحيان لا يواصله ما دام الرجل الذي امامه هو صاحب الحمار ، مما يضطر صاحبه ان يسحب حمارة لمسافة معينة فيسلمه الى آخر ، متظاهراً انه باعه ، وان هذا الآخر قد اشتراه ، لكي يعاود صالح العمل .

أما المبلغ الذي يتقاضاه اجراً فانه يتفاوت من واحد الى آخر ، ومن فترة لآخرى ، « من صاحب الحمار .. لان الاجرة مثل الزكاة ، كل واحد وما

اذا قلت الحمير ، او حين يؤجل اصحابها حذوها اسبوعاً بعد آخر ، لفقرهم ، او لانهم لا يعتبرون الامر هاماً ، فلا بد ان يجذ صالح ما يفعله .

خلال شهر رمضان ، من كل عام ، وايام الاعياد ، يهجر صالح سوق الحلال ، لا يعترف بوجوده ، بل ولا يقترب منه ، لان لديه عملاً خطيراً يشغله ، اذ يحمل طبلًا ويدور في شوارع موران ، وحوله عدد يتزايد كل لحظة من الصبية يصخبون ويتضحكون ، وهو بانفعال ولذة ، ويتوقع خاص يدق على الطبل دقاً موصولاً ، مع كلمات هي بين الادعية والشتمات يوجهها الى الكثيرين باسمائهم . وفي الليل المتأخر ، يرتفع صوته اكثر مما يرتفع في النهار ، وقد شابه الغضب او جدية مبالغ فيها ، خاصة حين لا يجد الاستجابة كافية لطبله او لصراخه ، طالباً من النيام ان ينهضوا « لان الحياة قصيرة . وعلى الناس ان يقضوها في الصلاة والعبادة ، لان الموت ينتظر الجميع والحساب على الابواب » .

فاذا انتهى رمضان وانتهى العيدان ، ويكون صالح عادة خلال الايام الثلاثة الأخيرة من رمضان ، اضافة الى ايام الاعياد ، حاملاً علماً اخضر ، وقد ثبته في وسطه بطريقة ماهرة ، خلال هذه الايام يكون قد جمع كميات من الخنطة والشعير ، زكاة او فطرة ، ولذلك ينصرف الى توزيعها بخفاء ودهاء على المحتاجين . كان هذا العمل يرهقه الى أقصى حد . اذ بعد ان يصّر كميات الخنطة والشعير على شكل صرر ، تتناسب مع عدد افراد العائلة المحتاجة ، ويصفها بانتظام ، وقد علمها بخطوط وحده يعرف معناها ومن تعني ، وبعد ان يحسبها عشرات المرات ، ويستعيد في ذاكرته اسماء الذين ستوزع عليهم ، يقوم بتوزيعها دون ان يحس به احد . ويستغرق هذا الامر اياماً ، يعود بعدها الى السوق ، وقد هيا نفسه لعمل طويل مرهق ، بعد ان غاب عن السوق طوال هذه الفترة .

اما لماذا ينظر الناس الى صالح على انه مجذوب موران او احد مجاذيبها ، فلان التصرفات والقيم التي يتصرفها او عملاً رأسه ، وتلك الكلمات والاحكام التي يطلقها ، خاصة على الكبار والاعنياء ، وما يرافق ذلك من مزاح في العمل والعلاقات ، اضافة الى كمية كبيرة من الاختلاقات والاكاذيب والمتاعب ،

« الغضب رأس الحماقة ، والكبير هو الصغير ولازم يسأل » لكنك تعرفه يا صالح « وهو يعرف ابن الرشدان ! » .

الى جانب شميران وصالح في السوق عبيد الطويل : قصير ، سمين بعينين صغيرتين مليتين بالمكر والسفاهة ، من يراه اول مرة يظنه شيخ السوق واغنى من فيه ، فحركته الدائمة السريعة بين المشتريين والبائعين ، وتلك الكلمات التي يوجهها الى هذه المجموعة او المجموعة الاخرى ، وبصيغة الامر ، طالباً سرعة البت في العرض الذي يقدمه او يوافق عليه تجعل الناس في حيرة من امره : « علينا . . الرأس بثلاثين ، اذا بعتم اشترينا » وحين يصمت من يوجه اليه الكلام يصرخ « ثلاثين ونص » فاذا اشاح الآخر بوجهه يصرخ مرة اخرى « واحد وثلاثين » فاذا ردّ عليه مرة بهزة رأس وابتسامة يصرخ عبيد من جديد « بع احسن لك ، يا ابن الحلال . . وهذا هو سعر السوق » ويتظاهر انه نفض يده من هذه الصفقة ، فيتحرك الى الجهة الاخرى ، ويخاطب المجموعة الثانية « يا جماعة . . الغنم طيبة ، شعبانة ، والراس منها يسوى اربعين » انت تريد تبيع او تشتري يا عبيد؟ الغنم جلد وعظم وما تسوى شي ابداً . . اذا باعها بثلاث وثلاثين اشتر » يا جماعة الناس حوله ويمكن يشرون منه باكثر « سمه من جديد . . ونشوف » .

ويدور عبيد في السوق ، لا يذهب لمساومة جديدة مباشرة ، يجب ان يتأكد من المنافسين الموجودين ، وما هي احتمالات الاسعار ، فاذا مر بعض الوقت وتأكد يعود بهجوم جديد : « اذا بعث ، يا ولد ، بسومنا احسن لك » يفتح الله « السوق ميت واللي دفعناه ما تحصل عليه من غيرنا » رح من وجهنا يا رجال واخلنا نترزق « اسمع . . السعر اللي ادفعه هالحين هو آخر سعر : اثنين وثلاثين » بعدك بعيد . . . بعيد ، وهذا سوم واحد ما يريد يشري . .

ويعود عبيد الى جماعته مرة ثانية : « يا جماعة : شمري ابن حرام ، يعرف غنمه ويعرف السوق ، وانا رأي ان تقووا قلوبكم وتوافقوا على سعر الاربعين » يا ابن الزمار . . انت معنا او مع الشمري ؟ « معكم او مع الشمري ؟ الله منكم يا أهل موران . . لا تحللون ولا تحرمون ! » .

ملكيت يمينه « فيتقاضى من المسورين اكثر مما يتقاضى من الفقراء ، وبعض الاحيان يتعامل بالجملة ، حيث يدخل حمار احد الفقراء ضمن حمير الآخرين ، ويتقاضى عنه اجراً من القادرين .

انه يفعل ذلك عن قناعة . . وعن دهاء ، فاذا سئل لماذا يفعل ذلك ولماذا يميز بين الناس بهذه الطريقة يجيب بصوت رخو ساخر :

- اللي ما يعجبه . . موران وسبعة وخله يلهم الرمل الى ان يشبع !

تعود عليه الناس والفوا طريقته ، ولذلك كانوا يتخذون من هذه المناقشات او المساومات وسيلة للثرثرة وقتل الوقت ، او ليخرجوا صالح عن طوره ، وعندها يبدأ بالشتيمة ويملاً الزبد شدقيه ، يرمي حطته على الارض ، مهدداً متوعداً ان يتوقف عن هذه المهنة « ويقطع اهل موران » عند ذلك يتراجعون ، او يتظاهرون بالتراجع . كانوا يقولون له كلمات كبيرة مليئة بالمبالغة في محاولة لاسترضائه ، يشيدون بكفاءته وبالمهنة التي لا يحسنها غيره ، ومدى الاهمية والفائدة التي تعود على موران من قيامه بها ! وبعد وقت مليء بالاستغفار ومناجاة الله يوافق ويعود الى مواصلة العمل . . .

ولان صالح الرشدان هذا النمط من البشر فقد اصبح جزءاً حياً قوياً من موران ، يسأل الناس عنه ويمازحونه ، بل ويأخذون رأيه بالقضايا الكبيرة التي تجري حولهم : « الدوسري اشترى موران كلها ويريد يرحل اهلها ، ويش تقول يا صالح ؟ » « موران لاهلها ، لا للدوسري ولا لغيره . والناس ما ترحل » « لكنه اشترها » « اشترها ما اشترها اتركونا من سوائف المجانين . . موران بمكانها لا تروح ولا تتغير والدوسري هو اللي يروح ويرحل » .

فاذا وصلت خيول الى السلطان وانتشر خبر وصولها فلا بد ان يبحث الكثيرون عن صالح : « القصر يسأل عنك يا صالح ، وطويل العمر قال : خلي ابن الرشدان يصلنا ويكون قريباً منا ، لان الخيول ما احد يدبرها غيره » كان ينظر الى الذين يتحدثون اليه غير مصدق ، فاذا أكدوا له بالايان كان يرد : « طويل العمر يعرف مكاني ، اما يجي او يبعث لي طارش بقرطاس وختم . . . » وبعددها نشوف « هذا الكلام ما بصير يا صالح ، وطويل العمر زعول »

ومثلها انتقل عبيد مرات كثيرة من اجل اتمام الصفقة ، وبعد ان ينتهي من البدوي ، الذي يشبه القمري كما يصفه ، لانه لا يعرف متى يأتي ومتى يذهب ، ينتقل الى الذين كلفوه بالشراء ، ومع هؤلاء يلجأ الى السفاهة اكثر مما يلجأ الى التخويف :

- لولا ان عبيد قطع قلب هذا المسكن اللي يريد يرجع لاهله ما باع باقل من اربعين !

وبعد ان يترك هذه الكلمات ، التي يكررها باكثر من طريقة ، اثناء ما يتحسس ظهور الغنم والياتها ، تستقر في عقول الذين اشتروا ، يتابع بسخرية :

- وهالحين لعبوا اصابعكم ورضوا عبيد !

فاذا تأخروا او بدا عليهم التردد والانشغال يغير لهجته :

- وهذا شمرا ، ابو عمر ، قريب ويعرف .

ولكي لا يتركوا عبيد يستعمل كل مهارته او كل سفاهته ، يصرخ احدهما في وجهه :

- اسكت هالحين ، يا ابن الحلال ، واخلنا نشوف درنا .

وحين يتطلع عبيد باستغراب يضيف الآخر :

- لا تخف ، يا رجال ، ما تكون الا راضي .

يرد عبيد بسخرية :

- هذا الكلام ما يفيد ، ما يوكل خبز ، يا الله لعبوا اصابعكم وطلّعوا فلوسكم .

- اصبر يا ابن الحلال ، وكل الله !

وبدهاء ومماثلة يسحب احد الشريكين الغنم ويتأخر الثاني لمفاوضة عبيد ، ويكثر من الجهد والصراخ والغضب ، وبعد أن يتجمع الناس غالباً ، تنتهي الامور بان يحصل عبيد على ما يريد .

وتظل المساومة قائمة وعبيد يدور مثل المكوك بين الطرفين ، ويزحف السعر قليلاً والشمري لا يتكلم ، يهز رأسه بعد كل سعر جديد يقدمه عبيد دلالة الرفض ، فاذا الحّ عليه عبيد اكثر تفتّر شفثاه عن ابتسامه ساخرة ، مع كلمة لا يتعب من تردها : « بعيد . . بعيد » فلما وصل السعر الى الخمسة والثلاثين ، وكان هذا أقصى سعر يمكن ان يوافق عليه اثنان من اهل موران كلفا عبيد ان يتم الصفقة لحسابها ونيابة عنها ، قال عبيد للشمري بيأس مرير : « تظلون بدو . . لا تعرفون تبيعون ولا تعرفون تشرون ، والسعر اللي دفعته ما احد يدفعه ، لكن الظاهر ما لك نصيب ولازم تنتظر الخميس اللي يجي وتبيع بعشرين » وزفر عبيد وسأل : « ها . . بعث باربع وثلاثين ونص ؟ » « بعيد . . بعيد » « بخمس وثلاثين ؟ » « الله يبارك لك » .

هكذا بشكل مفاجيء ، داهم ، وكأنه مزنة من مزن الربيع ، حيث لا يتوقع من يراقب هذه المساومة الطويلة الشاقة أن يتنازل ذلك البدوي قيد أملة يجده يوافق وتم الصفقة . وهنا تبدو قدرة عبيد في التسلط والسيطرة ، حيث يوجه اوامر حازمة الى الفريقين ان يتحوا جانباً مع الغنم ، وان يسرع المشترون بتسليمه المبلغ ، فاذا استلمه وضعه في جيبه وطلب ان تعدّ الغنم اكثر من مرة ، أما البدوي الذي لا يُعتد بالرقم الذي ذكره ، وظل يعيده ويراقب بانتباه غنمه وهي تسحب منه ، فيصبح خائفاً متحسباً ، ويظن انه وقع ضحية مؤامرة محكمة ، خاصة وان عبيد الذي وضع الفلوس في جيبه بدأ يتحرك هنا وهناك ويسأل ويستفسر ! وانشغل المشترون بالغنم يتأكدون من جودتها وسمتها . خلال هذه الفترة الصعبة من الانتظار والخوف يصرخ عبيد على البدوي طالباً منه ان يتبعه . وفي ظل جدار المسجد يجلس ويطلب منه الجلوس ، وبعد ان يستفسر منه عن عدد الغنم ويكم باعها وكم يصبح ثمنها ، تبدأ عملية تعدّ الطويلة الشاقة ، لان لكل منها طريقته في الحساب . فاذا انتهت هذه العملية ، مستقبياً عبيد قسماً من المبلغ معه ، تبدأ المفاوضات حول ما يستحق له عند هذا البدوي ، واغلب الاحيان ، ضمن جو الخوف والارتباك ، يحصل عبيد على اكثر مما توقع ، ولا يعرف البدوي هل اعطاه كثيراً او قليلاً ، لان الامور اختلطت عليه .

المبالغ التي وصلت الى يدي عبيد كبيرة ، وان كانت متفرقة ، وربما كانت تكفي لان يبدأ عملاً اكثر راحة ، ويمكن ان يجنيه هذا الركض في السوق ، لكن هذا العمل يستهويه ، يجعله ، بنظر نفسه ، سيداً .

يقول عنه شمران : خباص . ويصفه الذين يسخرونه ، ويحتاجون الى خدماته بانه ابو السوق . أما الذين يكرهونه فانهم لا يترددون في ان يقولوا عنه حيال وزمار .

وفي سوق الحلال بموران عدد كبير من الاشخاص ايضاً ، لكن ملاحظهم تغيب وتظهر ، إما لانهم لم يمارسوا اعمالاً ثابتة وإما لانهم تحولوا عنها ، وبعضهم لم يتردد في السفر . مرّ في السوق جمعة ، الطيب الاسود الذي كان يداوي الجمال . ومرّ اخوان اثنان كانت مهنتهما القصابة لانه كثيراً ما كانت تجري عمليات الذبح في السوق ، لكن ما كادت موران تتغير قليلاً حتى تحول الاخوان ، فاصبح احدهما صاحب مطعم والثاني سائق سيارة . ويمكن ان يقال الشيء ذاته عن أبي غريفة ، الذي كان يصنع القهوة ويدور بها في السوق او يقف على باب المسجد ، لكن لم تمض فترة حتى التحق بحاشية السلطان خزعل واصبح شخصاً مختلفاً تماماً .

كل ذلك جزء من تاريخ موران الذي بدأ يغيب ويختفي من ذاكرة الناس ، اذ ما كادت بضع سنين تمر على تولي السلطان خزعل حتى جاء ابو غريفة ذاته ، وعن طريق جويبر الضويحي ، منادي حران ، يبلغ المصلين الذين يخرجون من المسجد ان السوق بدءاً من الخميس اللاحق سيكون في العوالي ، وان على الحاضر ابلاغ الغائب . أما اصحاب الدكاكين فقد ابلغوا عن طريق الشرطة وطلب اليهم ان يرحلوا .

قبل ان يقف جويبر الضويحي ، منادي موران ، تلك الجمعة ، عند باب المسجد ، ويبلغ الخارجين من الصلاة ، ان سوق الحلال سينتقل الى العوالي ، وعلى الحاضر ان يبلغ الغائب . . قبل هذا وقعت امور عديدة : فالحكيم الذي غاب من ذاكرة الكثيرين ، وكاد يُنسى ، حتى شمران كاد ينساه ، او بالاحرى لا يتذكره الا كما يتذكر مرضاً قديماً ، جاء الحكيم بزيارة الى سوق الحلال ، جاء قبل ثلاثة اسابيع من قرار نقل السوق .

الوقت بين العصر والغروب ، شمران في ظل سور المسجد ، يستمع اكثر مما يتحدث ، واليوم من الأيام العادية ، فلا هو الخميس ، ولا يوم وصول قافلة من القوافل . ترك الحكيم سيارته بعيداً ، ونزل مع ثلاثة من رجال القصر ، واعطى لزيارته طابعا من البساطة ، اذ توجه اول ما توجه الى المسجد . صلى هناك ركعتين تحية للمسجد ، وبقي بعد الصلاة فترة غير قصيرة في حالة اقرب ما تكون الى الابتهاال والخشوع ؛ فما ان نهض واتجه غرباً ، قاطعاً السوق من اوله الى نهايته حتى قال شمران ، الذي ظل يراقبه بصمت اقرب الى الذهول ، وكأنه لا يصدق ما يرى :

- ما هي كل صلاة صلاة يا جماعة الخير . . .

ولما نقلوا نظراتهم بينه وبين الحكيم الذي كان يتعد قليلاً قليلاً ، لكن لا يكف عن النظر في الوجوه ويتسم ، حتى تابع شمران :

- وهذه الصلاة ما هي لله !

قصير، لكنه ما كاد يعرف حتى ترك ما كان فيه من حديث ولجّ في البحث عن صالح . كان صالح منهكاً الى اقصى حد بحذو حمار ، فلم يفتن إلى ان شيئاً غير عادي يجري في السوق، ولم يفتن إلى أن شمران فوق رأسه يناديه .

لما رفع رأسه ورأى شمران تساءلت عيناه ، قال له شمران بلهجة هي بين الحزن والسخرية :

- أبشر يا صالح وولم نفسك .

ولما ظل صالح صامتاً وعيناه تتساءلان ، تابع شمران :

- قبل كم يوم جانا الشيوخ ، وانت تخبرهم ، واليوم جاء اخوان طويل العمر ، وبارك او اللي عقبه يجينا العود الكبير ، وانت بعد اليوم ما لك شغل الا بالصقلوية والحمدانية ، وبك حيل وقصّ فلوس !

- هذي بعيدة عن حلوقنا يا ابو غر .

- ناظر وشف : الجماعة بالدشاديش البيض مثل العرسان ، وما تركوا احد بالسوق الا وسألوه ونشدوه : كيف انت وشلونك ، وبعدها ما يندري !

تلقت صالح اكثر من مرة وفي اكثر من اتجاه ، لم ير شيئاً غير عادي ، لان الزحام في تلك الساعة كان يحد من الرؤية ويجعل الاشياء والاشخاص في حالة من التداخل لا تمكّن من التمييز . وحين ارتدت عينا صالح الى شمران ، قال له :

- الله يسترنا من الثالثة !

لما تأكد صالح ان شمران جادّ في كلامه ، رمى المطرقة التي كانت في يده ، وفرك كفيه وقال :

- تذكر ، يا ابو غر ، امس ، ذاك اليوم ، كان خربيط يجينا للسوق ، تذكر ، وكان صوته يهدر : « يا جماعة الخير ، يا ولاد الحلال ، اشهد بالله انكم تحملمت الكثير وما بقي الا القليل ، فاذا خلصنا ابشروا ، ما ننسى لواحد منكم افعاله وافضاله ، بس اليوم نريد معونتكم ، يا نشامة ، يا اجاويد » . وراح يوم وجاء يوم ، اللي انقتل انقتل ، واللي ترك وراه ايتام ترك ، وخربيط لما

وإذا كانت قد انقضت زيارة الحكيم دون ان تترك اثرأ او تخلف همأ في قلوب الكثيرين ، لانه لم يتخللها حديث او سؤال ، واتسمت بتلك البراءة والتقوى ، فان اهم دخل الى قلب شمران ، وبعد ايام اصبح خوفاً .

اذ لم تنقص بضعة ايام على هذه الزيارة حتى جاء الامير ميزر بزيارة مماثلة ، لكنها اتسمت هذه المرة بالكثير من المظاهر والاهتمام والضجة ، وطالت اكثر من زيارة الحكيم ، كما تخللتها الاحاديث والاسئلة والامازيح ايضاً .

دخل الفرخ الى قلوب الكثيرين بعد زيارة الامير ميزر ، لانهم تذكروا اياماً قديمة ، ايام كان السلطان ذاته يأتي بزيارات الى سوق الحلال . تذكروا كيف كانت تجري الاحاديث ، وكيف كان الناس آنذاك ، خاصة وهم يسمعون الامير ميزر يقول ، ان مياه المواسير سوف تصل السوق ، وان السوق سيتحول الى مرج اخضر ، بحيث من يصله او يراه بعد سنة او سنتين لن يعرفه . قال كل ذلك بلهجة مرحة تخللتها الضحكات الصاخبة ، الأمر الذي جعل العديدين يشاركون ويتحدثون . أما شمران الذي ظل في مكانه ، قرب المسجد ، وكانت تصل اليه ، من بعيد ، ضحكات الامير والصخب الذي يتولد من احاديث الرجال واسئلتهم حوله ، فقد اصبح همه خوفاً في هذا اليوم . قال لنفسه « صار سنين ما شفناهم ولا سمعنا سواالفهم وما اظنهم اليوم احسن من الامس »

وفي اليوم التالي هذه الزيارة تماماً ، وكان يوم اربعاء ، وسوق الحلال بين العصر والغروب يعج بالرعايا والبشر ، ويختلط فيه الذين يريدون البيع مع الذين يذرعون السوق من بدايته حتى نهايته ليعرفوا حالة الاغنام وليتأكدوا منها قبل ان يقرروا الشراء في اليوم التالي ، في هذا اليوم وصل الامير ميزر ومعه الأميران فواز وملحم ، ورغم الضجة التي رافقت مجيئهم ، إذ دخلوا بسياراتهم الى وسط السوق ، الا ان ضجة البشر والنداءات ، اضافة الى حالة الهياج التي ميزت الابل ، نتيجة الصراخ والزحام ، جعلت الزيارة تمر دون أن ينتبه اليها الكثيرون .

الزيارة لم تفت شمران ، صحيح انه عرف بها قبل ان تنتهي بوقت

توقع الغبار» احذروا وتوقوا يا جماعة الخير : غبار ونفار وقلة رزق » يعرف ذلك من حركة الريح ، ومن ذلك الخدس الباطني الذي لا يخطئ .

هكذا كان صالح بالنسبة لسوق الحلال ، ولانه لا يخاف ولا يتردد ، يلجأ الآخرون الى تحريره ، فما ان سمعوا خبراً حتى ينقلوه اليه ، وعند ذاك يبدأ ولا يهدأ .

في وقت من الاوقات لم يكن الامر يتعدى المزاح ، واقصى ما يصله التعريض ؛ فحين جاء من قال ان السلطان بدأ يلبس الحرير والقصب ، قال صالح كلمة انحفرت في ذاكرة الناس ، قال :

- خذوا بالكم يا اهل السوق . . ترى اول الرقص خنجلة !

أما عندما شاع خبر زواج السلطان بامرأة نصفها شركسي ونصفها عربي فقد رفض صالح ان يعمل ذلك اليوم ، قال للذين سألوه :

- اتركوا البيع والشراء يا اهل السوق ، لان اليوم يوم التعريس !

وحين استغربوا وتجاهلوا اجابهم بغضب :

- ابوي هو اللي عرس ، اخذ واحدة بدوية وبيبطنها تانية حضرية . ويفهم الناس من يعني وماذا يعني ، وحين يأتيه الصوت :

- يا ابن الرشدان قل الله يعطينا ، ولا تحسد الناس .

يرد وهو يضحك :

- تطلع براس الواحد منكم نخلة وما يحصل !

ويقفه الذين يسمعون ، وبعد ان تتراجع القهقهات والابتسامات ، يفرقون في التفكير او يسأل بعضهم بعضاً او يتساءلون .

هكذا كان صالح ، وموران التي احتملتها ووجدت فيه تغييراً من الرتبة التي كانت تلقها ، وكانت تقول من خلاله ما لا تستطيع ان تقوله مباشرة او علناً ، فان بعض العقلاء كان يلح على صالح ان يهدأ وان يكف ، او « ان يضع في جيبه حجراً يثقله » ، لان القصر اذا صبر واحتمل ، او تظاهر انه لم يسمع ، فلا بد ان ينتهي صبره ذات يوم .

صار سلطان ملح وذاب ، نسي كل شيء . ولما جاء نوبة أو نوبتين للسوق : « الله يعطيكم العافية ، شلونكم ، وفي امان الله » . أما اذا سأله احد فيرفع صوته فوق كل الاصوات : « حنا بحد السيف اخذنا . وحنا اللي عفيننا وسامعنا . . وحنا وحنا » . والناس اللي حاربوا ، اللي تحملوا وماتوا ما عاد يذكرهم . كان يضحك على الجميع بالكلمة الزينة ، يقول : « اشهد بالله انكم نشامة واهل مروة » . لكن بعد هذا الكلام ما يلقي الواحد شيء ابد .

وتغيرت نبرة صوته :

- الله كم موران شافت !

رد شمرا بحدلة :

- يلزمها تشوف اكثر !

ضحك صالح وتابع :

- لا تحف ، يا ابو عمر ، تشوف واذا ما خربت ما تعمر . . .

وبعد قليل :

فمن ظن ان الدهر باق سروره فذاك محال لا يدوم سروره

استراح صالح اكثر مما يفعل عادة . ونتيجة الحاح صاحب الحمار قام الى عمله من جديد ، لكن ظل يردد : « . . لا يدوم سرور . . اي نعم لا يدوم سرور » وحاول ان ينتهي بسرعة ليعرف اي شيء حصل ؛ اذ ادرك ان اليوم يختلف عن ايام غيره ، واحس ايضاً ان شمرا بحاجة اليه لان « ابو عمر وتد السوق ، وهو السراج والمطر » هكذا يصفه صالح ان كان راضياً عنه ، أما اذا لم يكن فانه يصمت ، لا يجيب ، عكس موقفه من اشخاص آخرين .

العلاقة بين الاثنين خاصة وغريبة ، كما انها تختلف عن اية علاقة بين اثنين . واذا كانت لشمرا ذاكرة تشبه الارض والمطر ، فان صالح لا يقل عنه ، يعرف الناس من اصواتهم ، اذ يميزهم دون ان يرفع رأسه ، كما يشم رائحة المطر قبل قدومه بساعات ، يحرك انفه بطريقة عصبية ، كما يفعل الارنب ، ثم يأتي صوته : « يا جماعة الخير : المطر علينا او حوالينا » أما اذا

واشار الى قصر الغدير لتأكيد من يعني ، ثم تابع :

- تراها خاست ، وياكر ، اذا عشتم ، تشوف عيونكم !

أما بعد ان تقرر نقل سوق الحلال من مكانه ذاك الى العوالي ، فان الصدمة التي حلت بشمران كانت أكبر من أن يتحملها. وصالح الذي رفض الامتثال للأمر ، وظل لاسابيع لاحقة يصبر على المجيء كل يوم الى السوق ، فيفرد ادواته ويشعل ناره ، فما لبث ان اضطر الى هجره في وقت لاحق ، بعد ان هجره قبله كل من كان فيه ، وبعد ان وصلت الآلات وبدأت عملها .

أما صالح فلم يفترض ان القصر يمكن ان يخاصمه او ان يكون خصماً « القصر قصرنا ، والدولة دولتنا يا جماعة الخير ، ولولانا . . خريبط وابن خريبط من هم ؟ حنا ما نريد القصر لابن الخايبة او ابن العايبة ، نريد القصر للرحمان » والعجرمي يسمع ما يقوله صالح فيرتفع صوته : « مثل ما قلت لكم : هذه ديرة ايمان وابد ما تصير ديرة كفر ، وذاك الابيض المرقش ، اذا تحملناه اليوم باكر يطيح وتنكسر رقبتة . . وروحوا للشيخ صالح الرشدان واسمعوا ويش يقول ! » .

وبين سوق الحلال وموران تنتقل القصص والنكات والاشاعات ، لكن هذه الامور كانت تضحك الناس اكثر مما تثيرهم ، وتجعل الحياة اقل قسوة واكثر مرحاً . فاذا قصّ السلطان لحيته او بدل هيئته ، اذا تزوج او جاءه غلام جديد ، واذا مرّ موكبه متوجهاً الى هذه الناحية او الى تلك ، كان صالح لسان السوق « يا جماعة الخير . . . من يوم ما جاء ذاك وصار كل يوم يلبسه ويعطره ويدندشه ترى صرنا مثل بول البعير . . كل يوم لورا » .

ويعرف الناس ان السلطان قصّ لحيته ، او انه بدا بملابس جديدة ، مختلفة عن السابق ، فاذا سمع العجرمي يرتفع صوته : « هذا الدرويش ، يعني صالح ، يده مربوطة بالسما ، ودعاه مستجاب » .

وينظر الناس الى صالح وينظرون حولهم ، وصالح يتزوج يوماً بعد آخر ، تصبح كلماته نذيراً بعد ان كانت تحذيراً : « الحقوا حالكم يا اهل موران ، الدنيا مصبحة مسية ، اذا ما قامت القيامة اليوم تقوم ثاني يوم ، واذا ما تم موت الله تموتون موت العبد ، المال ما ينفع ، والدنيا فانية والبي آدم ذرة بهذا الكون وما يلزم ان يأخذه الغرور ، وكل نفس ذائقة الموت ، وعندها لا ينفع لا مال ولا بنون ! » .

في ذلك المساء ، بعد ان غادر الامراء ، وهدأت ضجة السوق ، واذا تأخر شميران ، خلافاً لعادته ، وبعد ان وصل صالح وعرف ما حصل قال يخاطب شميران والذين حوله :

- من يوم ما وصلنا الاغراب ، وصاروا له مثل الجفن للعين . .

أما الأبل التي كانت لديه فالتى لم تضع خسرت بعد ان ملأت اللوريات
والقلايات موران ، وقلبت عاليها سافلها وليلها نهاراً ، ولذلك اضطر ان يبيع
الأبل لانه لم يعد يملك ثمن طعامها ، ولم يعد احد « يسومها مجرد سوم » .
باعها بسعر التراب ، ونام تلك الليلة وشتيمة السلطان لا تنزل من فمه .

أما ما ورثه لابنائه الأربعة ، او ما ورثوه من اجدادهم دون ان يرغب او
يدري ، فكان شيئاً عجباً : ورث نمر العلم ، فهو الوحيد بين اخوته الذي تعلم
القراءة والكتابة . حتى إذا اتقن كتابة رسائل المسافرين وحسابات سوق
الحلال ترك المكتب ، ومثلما كانت لآبيه زاوية في سوق الحلال كانت له زاوية ،
ومثلما كان أبوه يتحدث عن احساب الخيول وانسابها كان نمر يتحدث عن قضايا
الناس ومشاكلهم ، ومثلما تغير أبوه تغير هو . اصبح لا يتحدث الا في
السياسة . كان يقرأ ويسمع ويستقضي ويتتبع ، بحيث تتجمع لديه اخبار
موران كلها . ويوماً بعد آخر لم يعد نمر يكتب الرسائل والعرائض فقط ،
اصبح يتحدث اهل موران عن كل شيء ، وبين يوم وآخر اصبح الاسم الذي
يعرف به : نمر الجريدة !

أما بدر فلم يمك في حياته فلماً ولم يخط حرفاً ، استعاض عن القلم
بالمفك ، ولا احد يعرف كيف تعلم اصلاح الادوات الكهربائية او متى ،
خاصة الراديو . قال أبوه ، ذات يوم ، لما سئل عن عمل بدر :

- لا تتوهموا يا جماعة الخير : بدر ما تعلم الا شيء واحد : تعلم يفسخ ،
وحتى السيارة يفسخها !

فلما سألوا شمرا من جديد ، معتبرين كلامه مزحاً او سخرية ، تابع :

- والي ما يصدق يلزمه يناظر المقبرة حدر درانا، وبعدها يصدق !

وبدر الذي بدأ هكذا ، حيث « قتل » في رحلته الصعبة عشرات الادوات
الكهربائية ، خاصة الراديو ، ما لبث ان تعلم . فاية اداة كهربائية ، مها
كانت جديدة ومعقدة ، قادر على اصلاحها ، ويجب ان لا يسأل ما هو العطل
او كيف سيصلحه « اترك الماخوذ وارجع بعد ثلاثة او اربعة ايام » وخلال هذه
الفترة ، وبمعالجة صبورة ، لا بد ان يصل الى احدى نتيجتين : « هذا ميت قبل

حبة شمرا للخيل تفوق اية حبة ، وتعلقه بها تفوق تعلقه باي شيء ،
« لان بنواصيها الخير الى يوم القيامة » يقول شمرا ان الرسول هكذا قال ،
ويضيف « واذا ضاق صدر الانسان او ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغير اهللاً
واجباباً واطناً » وبعد قليل يهمس ، كأنه يتأمر : « ويجي بها واحد من
الاحمرين : الدم او الذهب » ويتسم وهو يختم كلامه : « وما يندري يمكن
يجي بها الاثنين جميع » .

أما السلطان فانه ينظر شمرا ظالم حتى لو عدل « يجب الملك اكثر مما يجب
الرعية ، ويجب نفسه اكثر مما يجب ربه » .

لم يورث شمرا ابنائه الخيل ، لان ما كان عنده منها اكلته نيران العصر
الجديد ، ولكنه ورثهم معاداة السلطان ، وقد تأكد هذا العداء واصبح نهائياً
حين اجبر على ان تشترك خيله ، وكان عنده اثنان من اطيب خيول موران ، في
سباق الرجبة ، اذ بعد ان حمل الحمداني والصقلاوي بسيارة ابن مهيد ، شبت
النار بالسيارة وقضت على الحصانين . يقول شمرا ان السلطان طلب من ابن
مهيد ان يفعل ذلك ، لكي لا تظهر خيل شمرا ولا تفوز ، وابن مهيد قال
امام الشيخ : « قضاء وقدر ، يا مبارك ، وانا خسرت اكثر من العتيبي :
احترقت سيارتي « لكن لم تمض شهور حتى كان لدى ابن مهيد ثلاث سيارات
ولم يبق لدى شمرا اي حصان ، لان الخيول الاخرى لم ينتظر اياماً لكي
يبيعها لشداد المطوع « اذ بعد ما راح الغالي ما عاد شيء بالعين » .

والتساؤل ، تابع :

- بموران كلها ، يا يويه ، ما يبيع الكتب الا البخاري وابن حزم ، ويلزم بدل مكتبة ان تكون عشر .

- وتبيع القراطيس يا وليدي ؟

- ابيع الكتب . . يا يويه !

- وظنك من يشري؟

ولم ينتظر جوابه :

- اذا ما كذبي ري يا وليدي يجوز الوحيد اللي يشري منك اخوك ، نمر ، حتى يسولف الناس ويحوس موران ! .

وضحك شمران بصخب حزين . فقد تعلم ان الناس يمكن ان يتاجروا بالاغنام والارزاق ، ثم تعلم ايضاً ان هناك من يتاجر بالارض والبناء ، أما ان يتاجر الانسان بالقراطيس فلم يتصور ذلك ولم يتوقعه . ماذا يمكن ان يكون هناك من الكتب غير القرآن وسيرة عنترة والوزير ؟ وحتى القرآن يوهب ولا يشترى ، ويحصل ذلك مرة في العمر ، وربما لا يفتح ، اذ يكتفي الناس به بركة ، ومن المفيد ان يكون موجوداً في البيت ، أما غير ذلك فلم يتصور شيئاً ابداً .

الآن وهذا الشاب الذي لا يُعرف كيف يفكر او ماذا يريد يطلب مساعدته ، فهل يستجيب له ام يتخلى عنه ؟ هل يصم اذنيه ويفقده مرة اخرى كما فقده خلال سنواته العشر الاولى ؟

حاول معه ، قال له ان موران بحاجة الى الحلال والارزاق اكثر مما هي بحاجة الى القراطيس ، وان البخاري وابن حزم يكفيان موران ، ولا يريدان معهما احداً . وقال له ان المصيبة بنمر وبدر تكفي ، ويمكن ان يساعده في رعية اغنام او جمال ، فاذا لم يشأ فالقماش يشبه القراطيس . وموران كلها تلبس ، ولا احد في موران يقرأ . لكن نجم لم يجب ، صمت . وشمران الذي كان يخاف صمت ابته اكثر مما يخاف كلامه وافق في النهاية . باع واشترى وأمن له ما

ما يصلني وما منه فائدة » او «دوك شوفه احسن من قبل ام لا ؟ » .

هكذا بدأ ، أما بعد ذلك فقد اصبح اختصاصياً في اشياء نادرة : كيف يتغلب على التشويش الذي يوجهه ضد بعض الاذاعات ، وكيف « يسرق » التيار الكهربائي لبيوت الفقراء . كان يفعل ذلك بلذة ، ودون السؤال عن المقابل او النتيجة .

ومثلما سُمي نمر نمر الجريدة ، فقد اطلقت اسماء عديدة على بدر : بدر راديو : بدر موجة قصيرة ، موجة طويلة ، لكن ظل الاسم الذي لا يفارقه ، خاصة حين يذكر شيء له علاقة بالكهرباء : ابن شمران ، ولا شيء غير ذلك .

الابن الثالث لشمران : نجم .

تربى نجم بين اخواله بني مرة ، ومن بني مرة اكتسب قصص الاثر والحذر ومعرفة الآخرين ، ولانه جاء الى موران وعمره عشر سنين ، فقد جاء كبيراً ومتكوناً . كان شديد الحذر ، حتى تجاه اخوته ، وافراد أسرته . كان صامتاً مثل حجر ، وعنيداً مثل جبل . حاول ابوه وحاول اخوته ان يعرفوا اي بشر هو . او ماذا يمكن ان يكون ، لكنهم لم يصلوا الى نتيجة . أما متى تعلم القراءة والكتابة ، وهل تعلمها في موران ام عند اخواله ، فلم يعرف احد . فجأة اكتشفوا انه يكتب ويقرأ ، وليس مثل اخيه نمر يبحث عن الآخرين ليكتب لهم الرسائل والعرائض ، كان يكتب لنفسه ويقرأ دون ان يعرف الآخرون ودون ان يحسوا . واذا كان شمران قد فسر « جفلة » الولد انه لم يألف جوهم لانه عاش عند اخواله . « واتركوه على طبيعته ولازم يصير » ، فقد صار وتكون على مزاجه ، دون ان يتدخل احد .

وفي وقت لاحق ، وحين جاء نجم يطلب من ابيه مالاً لانه يريد ان يتاجر ، فلما سأله اي نوع من التجارة يستهويه : الخيل او الغنم ، او البيع والشراء في السوق فقد فوجيء برده ايضاً :

- هذي السوالف اصحابها ، يويه . . .

ولما نظر اليه ابوه وهو يتسم ، وكانت ابتسائه اقرب الى الاستغراب

حولها ، والتي كانت ابوابها مفتوحة باستمرار . والتجارة ؟ والشوارع ؟
واخلاق الناس ؟ وعلاقتهم ؟ كل شيء تغير ، كل ما كان يعرفه انهار وانتهى ،
ولذلك فضل ان يبقى في المقهى . هناك يمكن أن يجد بعض الذين يعرفهم ،
يمكن ان يتحدث معهم او ان يستمع اليهم . انهم يعرفونه جيداً ، يعرفون
كيف يتحدثون وكيف يسألون ، وحتى الذين خربتهم موران وفسدتهم
السيارات تبقى لديهم اشياء كثيرة يمكن ان تقال ، او على الاقل يعرفون كيف
يسمعون !

ومثلاً حاول ان ينسى خيوله التي احترقت وارضه التي سرقت ، ثم حاول
ان ينسى سوق الحلال او ينشغل عنه ، فانه يوماً بعد آخر يحس بانفصال عن
كل ما حوله ، اكثر من ذلك يحس بالعداء . وهذا ، او ربما غيره ، جعله يظل
بعيداً عن المكتبة ، او على الاقل ، ان لا يقترب منها اكثر مما ينبغي ، كما فعل
ايضاً تجاه « المشغل الفني لكهربية السيارات والادوات المنزلية » .

في الماضي ، في سوق الحلال ، كان يحس انه جزء من كل ما يحيط به ،
حتى الحيوانات حين كانت تمرض او تتوجع يعرف مرضها ووجعها ، يعرف
ذلك من عيونها ، من بخار حلوقها ، كان يتحدث اليها ، يسألها ، وكانت
تجيبه . أما الآن فانه يستغرب كيف يستطيع بدر استلام هذه الآلات الجامدة ،
الميتة ، وكيف يتعامل معها . كيف يمكن ان تحدثه عن امراضها ووجعها
وكيف يستطيع ان يعيد اليها الحياة؟ والكتب التي يبيعها نجم من يقرأها من الناس
ولماذا ؟ وهل هناك بشر يحتاجون الى مزيد من التعلم ما دامت الحياة حولهم
تضج وتغلي وتتغير كل يوم ، وما دام الناس لا يتوقفون لحظة واحدة حتى
للحديث او السؤال ؟ قال لنفسه بنوع من الأسى : « سوق الحلال عالم ،
والرجال هناك تتعلم . أما من يوم ما طار السوق فكل شيء صار مثل الطحين
المدرور في الريح » .

لو كان في وضع نفسي افضل ، مثلما كان ايام السوق ، لما تردد في
السخرية من ابنه نجم « والتجارة » التي اختارها . ولقال عنه ما قاله عن بدر
او اكثر ، لكنه الآن يحس بالضيق ، اكثر من ذلك يرى ان كل شيء دون
جدوى . صحيح ان المال اصبح اكثر من قبل ، لكن دون بركة ودون معنى ،

طلبه ، وقد ساعده بدر ايضاً ، وقامت في موران مكتبة ثالثة : مكتبة ابو ذر .
أما صالح ، اصغر الاخوة ، فقد تربى مع ابيه ، في سوق الحلال اولاً ،
ثم عند شداد المطوع ، بعد ذلك . فحين احترقت خيول ابيه ، وحين هجر ما
تبقي له من حلال ، لم يجد غير شداد . بدأ صالح فارساً وسائساً اول الأمر ،
ثم ملك ربع حصان ثم نصفه ، ولانه ليس له عالم غير هذا العالم ، اذ كان
يعرف كيف يركب الخيول وكيف يروضها ويسوسها ، فقد اعتبره شداد مثل
ابنه ، حتى ظن الكثيرون ، في وقت متأخر ، ان صالح من آل المطوع .

قامت المكتبة قبل انتقال سوق الحلال الى العوالي بسنة او اكثر قليلاً ،
وشمران الذي آمن لنجم ما يحتاجه من مال لكي يبدأ « تجارته » لم يسأل عن
هذه التجارة ، فقد كانت عادته الا يتدخل في شؤون اولاده ، لانه يثق بهم ،
ولان احداث سوق الحلال واخباره تشغله تماماً . أما بعد ان انتقل سوق
الحلال وضاع شمران في موران ، فان من جملة الاماكن التي زارها وقضى فيها
وقتاً ، كانت مكتبة ابي ذر .

لم يتصور شمران في لحظة من اللحظات ان ابنه يحسن اختيار العمل الذي
يناسبه ، لكنه وافق على اعطاء المال مختاراً ، ومع ذلك لم يوافق على العمل .
أما الآن ، وهو يجلس في المكتبة ، ويرى ابنه في حركة دائبة ، ويرى الناس
يدخلون ويخرجون ، يشترتون او يبيعون ، فقد لام نفسه انه لم يعرف سوى
الخييل ، ولم يتعد سوق الحلال . قال لنفسه بنوع من الحزن « موران اللي
نخبرها راحت ، ماتت ، وهالحين بدل موران ذيك ماية موران ، وعسى ان الله
يجعل خاتمتها زينة ! » .

ومع ذلك لم تستهوه المكتبة ، ولم تستهوه الادوات الكهربائية ، حتى نمر
الذي عاش معه في سوق الحلال ، ويعرفه اكثر من اولاده الآخرين ، يجده
الآن شخصاً مختلفاً ، ويجد ان همومه وعقله شيء آخر . حاول ان يتذكر كيف
كان بالنسبة لابيه وجده ، وللناس الذين كانوا حوله ، وجد ان كل شيء الآن
يختلف عما كان من قبل . السيارات بدل الخيل والابل ، البيوت العالية
الاسوار والمغلقة الابواب بدل الخيام او تلك البيوت الطينية التي تعتبر جزءاً مما

مكتبة الانصاف ، واذا كان البخاري وابن حزم قد شتما وارتفعت اصواتهما في السوق ، فان نجم وجد في مكتبة الانصاف سنداً .

كان نجم يقرأ قدر ما يبيع او ربما اكثر ؛ كان يقرأ معظم ساعات الليل ، وفي النهار يقرأ خلال الفترة التي تفصل بين الانتهاء من زبون واستقبال زبون جديد ، وهذه العادة التي بدأت منذ وقت مبكر ، هي التي دفعته لاختيار هذا العمل دون غيره ، ومن خلال الكتب والاسفار اصبح شخصاً مختلفاً عما كان او عما عرفه الآخرون . لقد حصل هذا ببطء وصمت معاً بحيث لم يلفت نظر أحد ، حتى هو لم يفتن للشخص الذي اصبحه . واذا كان نفوراً جفولاً منذ صغره ، حتى من اخوته ، فقد بدأ يتغير ، أخذ يتحدث عن الكتب التي يبيعها ، كما لو انه يتحدث عن اصدقاء : من كتبها ، في اية فترة ، ماذا قالت وماذا قال عنها الآخرون . وهذه الطريقة في التعامل ، في البيع ، حبيته الى الكثيرين وكونت له صلوات واسعة . حتى اخوه عمر الذي كان يعتبر نفسه عالماً بكل شيء ، ويواظب على قراءة الجريدة كل يوم ، ولا ينام الا بعد ان يستمع الى عدة نشرات اخبار ، استغرب ان اخاه يعرف بهذا المقدار ، وان عالم الكتب يفوق كثيراً ما افترضه وما تصوره ، ولذلك اصبح يقضي جزءاً من وقته في المكتبة ، وكان لا يتردد في ان يساعد بعض الاحيان .

ولولا الثأر الذي يملا عقل عمر ضد مطيع ، واحساسه ان قوة خفية تشده الى ذلك الكرسي قرب دائرة الجوازات ، يرقب من هناك القصر وبشر القصر ، ويكتب العرائض بشكل معين ، لولا الثأر والقوة الخفية لما تردد في ان ينتقل الى المكتبة ، وان يقضي وقته يقرأ ، حتى اذا دخل التحدي مع « اللقامين » يعني مطيع وامثاله ، استطاع ان يسحقهم ، ان يتفوق عليهم ، لكنه صرف النظر عن فكرة تغيير عمله - علماً بان هذا كثيراً ما كان يجري في موران - وان ظل على علاقة تقوى وتعمق مع نجم ، ومع الكتب التي يقترحها عليه .

لما بلغ شميران ان عمر يقضي جزءاً من وقته في المكتبة ، ولاحظ في البيت كيف اصبح الاخوان متلازمين ، يقرآن او يتناقشان ، قال بسخرية وهو يهز رأسه :

- مقروود على مقروود . . والله يستر !

قليلون هم الذين يصبحون اغنياء ، يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم ، أما الآخرون فانهم الآن يركضون كالكلاب المطرودة ، لكي تصل الى ايديهم النقود ، فما تكاد تصل حتى تتبدد وتضيع ، ليس هذا فقط ، اخلاق الناس واشكالهم تغيرت ، وكأنهم ليسوا الذين يعرفهم . حتى اولاده تغيروا . قال في نفسه بلوعة « سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير » .

افتتح نجم مكتبة ابي ذر ، بعد زيارة الى القاهرة وبيروت ، استغرقت ثلاثة شهور ، اشترى خلالها كميات كبيرة من الكتب ، جلب معه قسماً منها وجاءت الاقسام الاخرى على دفعات . توقع الكثيرون وتراهنوا ان تنتهي « تجارته » خلال السنة الاولى ، وبخسارة محققة ، لان موران التي تعرف الاكل والبناء والذهب لم تتعلم القراءة بعد ، فاذا كان البخاري يعيش على المصاحف الكبيرة والصغيرة ، وعلى الف ليلة وليلة والوزير سالم وعنترة ، فان ابن حزم لا يقترب من المصاحف ، عدداً جزئي عم وتبارك ، اضافة الى القرطاسية وما تحتاجه المدارس ، أما ان تكون في موران مكتبة ابي ذر ، فان اي مجنون ، غير ابن شميران ، لا يفكر بذلك .

ولان موران لا تتوقف لكي تفكر ، ولان الناس لا يعرفون شيئاً اكثر من ان يقلد الواحد الآخر ، فلم تشغل المكتبة احداً ولم تغره ، ولذلك ما لبثت ان نسيت ، ونسي الناس ايضاً الخسارة التي توقعوها لها .

لكن موران اخرى كانت تتكون دون ان يحس بها احد ، وهذه الموران هي التي جعلت المكتبة تستمر وتتسع ، وجعلت نجم يستعين بشريك آخر ، ثم يسافر مرة او مرتين كل سنة لشراء كميات كبيرة وجديدة من الكتب .

ومثلما استقبلت موران عشرات الآلاف من البشر من اماكن واشكال مختلفة ، وقدرت على استيعابهم وتوفير الحياة لهم ، كذلك كانت قادرة على ان تستقبل وتستوعب آلاف الكتب كل سنة ، تولت مكتبة ابي ذر بيعها وتوزيعها .

اكثر من ذلك فتح اثنان من اهل موران مكتبة جديدة قرب مسجد السلطان خزعل ، كانت اكبر من المكتبات الاخرى ، واكثرها تنوعاً ، سميها

تسير . واذا كان همه في وقت من الاوقات ان يفكر بالعيشة ، فقد تكفل الاولاد عنه بهذا الواجب ، خاصة بدر ، الذي اصبح بين يوم وآخر ، وكما يقول ابوه « يلعب بالفلوس لعب » .

كانت موران في الأيام السابقة بحاجة الى شمران . كان الناس يلتفون حوله التفاف السوار على المعصم ، وكانت المشاكل في موران تتطلب رأيه ومشاركته . الآن ، وقد رحلوا سوق الحلال الى العوالي ، ولم يعد الناس يهتمون بالخليل والابل ، ولم تعد الرعايا تعبر هذه الصحراء كلها لتصل الى موران ، وانما يأتيها اللحم المذبوح من اقاصي الدنيا ، وحلت السيارات محل الاباعر ، فقد احس بالهرم والتعب قبل ان يهرم وقبل ان يتعب ، ولذلك اكتفى بقهوة زيدان في شارع القاضي . كان يقضي نهاره هناك ، يستمع الى الناس اكثر مما يستمع اليه الناس . كان يرى وجوهاً لم يرها من قبل ، ويسمع كلاماً لم يسمعه من قبل : السيارات : انواعها ، أسعارها ، كم تحمل وكم هي سرعتها . ويسمع ايضاً عن قطع الغيار والكفرات ، ولا يعرف هل يسأل ، هل ، يشارك ام يبقى مستمعاً ؟ حتى هؤلاء البدو الذين كان يعرف بعضهم في سوق الحلال تغيروا الآن . أين ابلهم وغانمهم ولماذا اصبحوا هكذا ؟ واذا كانوا بهذا الشكل الآن فكيف سيكونون غداً ؟

بعد تفكير طويل وهم وانتظار اراد شمران ان يمتحن نفسه : السيارات التي تقف قرب كراج السبيعي ، هل يستطيع ، بعد ان سمع الكثير وراقب وحفظ الاسماء التي يرددها الناس حوله ، هل يستطيع ان يميز انواعها وان يعرفها ؟

هكذا سأل نفسه ، ليس من اجل ان يختبر معلوماته ، وانما ليرد على كلام ابنه بدر الذي قال له قبل ليل انه مستعد ان يشتري سيارة اذا كان هناك من يرافقها في اسفارها « لاننا اذا اعتمدنا على السائق يأكلنا ويأكلها » . وكان يقصده هو . ذهب شمران الى كراج السبيعي . دار حول السيارات ، نظر اليها بامعان ، نظر الى مقدماتها بشكل خاص ، كما كانوا دائماً يفعلون . نظر الى اطاراتها ، والى صناديقها ايضاً في محاولة لان يقدر نوعها وحولتها ، ورجع الى مقهى زيدان وهو يؤنب نفسه : « حسافا . . . يا ابو عمر ، انت اللي كنت

لو تركوا لشمران خيوله ، لرأوه يوماً ولم يروه في اليوم التالي . ولو تركوا له ارضه لعرفوا كيف يتفاهمون معه ، او على الاقل ان يتجنبوا كلامه . أما عندما « رفعوا » سوق الحلال الى العوالي ، بحيث « لا يمكن ان يصله الا مجنون او واحد باله من المهم خالي » ، كما يقول شمران ، فقد دفعوه بالقوة لان يشتم وان يقول ما لا يقال . كان في احيان كثيرة لا يتردد في ان يقول اي شيء ، لم يكن يكتفي بالكلمات ، اذ اضافة لها يستعمل يديه ، وكثيراً ما كانت تلك الاشارات ابلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات .

حماد الذي يعرف شمران ، وكانا في يوم من الأيام اصدقاء ، حين اتصله التقارير او يأتي من يقول له ان شمران لا يفعل شيئاً سوى شتم الحكومة ، وانه يقول عنها « فلاني وتركاني » ، ولا يوفر حتى السلطان ، كان يهز رأسه بحزن ، ثم يطوي التقارير ، او يقول للذين يحملون الشتائم :

- يجوز لشمران ما لا يجوز لاحد : حرقوا خيله ، اخذوا ارضه . ومن عند قبر ابوه رحلوه ، فخلوه يقول كلمة والثانية ، وياكر او اللي عقبه يتعب ويسكت .

لم يتعب شمران ، لكنه غرق في موران الجديدة التي لم يعرفها من قبل . أخذته الحركة السريعة والتغير الكبير . كان ينهر ويتساءل ، ثم يصمت بانتظار شيء ما ، أو تبلغ به الحدة درجة لا يقوى معها على السكوت . وهو بين الانتظار والصخب ، او بين المراقبة والانبهار لا يعرف كيف تمر الحياة او كيف

يعاود زيارته الى بيته ، مرة اخرى ، « لان الزرقا خلّفت » ، او « لانه جاءني خيول ماتشمن وما مثلها في العالمين » او « الحمداني المحجل اللي تخبره يا ابو نمر يريد القصر ، ولازم تشمنه » رغم هذه المحاولات فقد كان شمران في رفضه صلباً عنيداً ، بحيث اضطر شداد الى الرضوخ والموافقة !

ويقدر ما كان مقهى زيدان قريباً من المكان الذي كان فيه سوق الحلال ، كان بعيداً عن قصر الروض ثم عن قصر الغدير ، لان شمران يعتبر ان « العوج من الثور الكبير » ولذلك لا يريد ان يرى السلطان او ان يسمع اخباره ، وكأنه بهذه الطريقة من التجاهل يعبر عن احتقاره ، او يريد ان يعاقبه ، فهو السبب في هذا البلاء الذي حل بمروان !

في الطرف الآخر ، غير بعيد عن قصر الغدير ، قرب دائرة الجوازات ، اتخذ عمر مكاناً له : يكتب العرائض والرسائل ويتابع معاملات السفر ، ويرقب ايضاً القصر : من جاء اليه ومن خرج منه ، وماذا فعل هناك ، بعد ان يكون قد قرأ الجريدة « من الفها الى بائها » ، وبعد ان يكون قد استمع الى عدة نشرات اخبار في الليلة الفائتة وصباح ذلك اليوم .

كان نمر يسمع عن مروان من الاذاعات اكثر مما يقرأ عنها في الجرائد « والاذاعات هناك والجرائد هنا . . . يا عباد الله » ومع ذلك لم يكن يصعب عليه استنتاج السبب ، اما اذا مرت سيارة مطيع متجهة الى القصر ، وهو فيها « لأبد مثل الارنب » ، في المقعد الخلفي ، لا تبين منه سوى نظارتيه ، فكان يقول بصوت مسموع ، وهو يضرب الجريدة على الطاولة التي امامه :

- الله . . . الله من هالزمان ، صارت العنز الجربا تسرح بالغنم !

فاذا نظر اليه من يسمعه بتساؤل يتابع بلهجة جديدة متأمة :

- هذا اللي فات هالحين شيخ الكذابين ، ما له شغلة الا يكذب وينفخ بذلك !

وبعضية يشير الى الجريدة والى سيارة مطيع قبل ان تنعطف ناحية اليمين لتدخل الى القصر من باب جانبي ، ولا بد عندئذ ان تكون العريضة التي يكتبها ، والموجهة غالباً الى القصر ، عن طريق مكتب الشكاوى ، شديدة

تميز الناقة اللي جابت بطن من اللي جابت بطنين من نظرة ، وتعرف الفلوم هي امه ، والفرس من هو حصانها ، وتعرف وين شبرت وين ربعت ومتى تشبت ، تصم عليك هذي الحدايد كأنها الصخر؟ » ولم يبذل جهداً او محاولة بعد ذلك لان يلعب هذه اللعبة .

اما الحسرة التي أكلت قلبه حين استولى الحكيم على ارضه ، وكادت تقتله ، فقد حاول ان ينساها بعد ان سمع الكثير عن الاراضي التي تم « شراؤها » لحساب الامراء او لحساب الحكيم ، لم تبق قطعة ارض في موران او حوالها الا بيعت واشترت عدة مرات ، وفي كل مرة يتضاعف سعرها قياساً للمرة التي سبقتها ، بحيث اصبح مجرد ذكر الارقام يولد الدوار في رأس شمران ، ومع ذلك كان يسمع من يقول في مقهى زيدان : « تجارة . . . ودائماً التجارة فيها ربح وفيها خسارة » اما لماذا لم يكن الامر هكذا من قبل ، وهو الذي تربى وعاش في السوق ، ويعرف كيف يتم البيع والشراء ، ويعرف الحيل التي يلجأ اليها عادة الذين يبيعون والذين يشترون ، فان ما يراه الآن اقرب الى السر ، وما يسمعه ليس له علاقة بالبيع او التجارة ، انه شيء آخر تماماً ، لا يجد له اسماً أو تفسيراً .

ومثلما كان سوق الحلال ملجأ وحصناً لشمران ، فيه يلتقي مع الذين يريد ولا يريد ، ولم تكن من عادته ان يزور احداً في بيته ، عدا شداد المطوع ، حيث يلذ له ان يقضي واياه معاً ، وحوطها الخيول ، ساعات طويلة ممتعة ، اقرب الى النشوة ، يتحدثان ويستعرضان هذه المخلوقات الرائعة التي « ظهورها حرز وبطونها كنز » كما يحب شمران ان يقول ، وهو يربت على كفل فرس او حصان ، كانت هذه الزيارات قبل الرحبية ، اما بعد ذلك ، اذا اراد شداد ان يراه ، او ان يسمع رأيه ، فكان يأتيه الى السوق ، مثل كل الآخرين ، رغم ان شداد كان كثير الخوف على خيوله ، يخاف ان تحفل او ان تؤذى ، ويخاف اكثر من ذلك من عيون الآخرين !

بعد ان رفع السوق من مكانه ، وهجر شمران سوق العوالي ، فلم يزره الا كما يزور قبراً ، واستقر في مقهى زيدان ، كان كل من يريد ياتيه الى هناك ، وقد فعل شداد ذلك عدة مرات . اما محاولاته في ان يجمله على ان

اللهجة والجفاف ، ليعبر عن احتجاجه واحتقاره .

فاذا انتهى الدوام الرسمي ، واستراح غمر وانكسرت حدة الشمس ، بدأ جولته في موران : يذرعها من اقصاها الى اقصاها ، يقول للناس اي شيء حصل : من رأى وماذا رأى وماذا سمع . كان يعرف كيف يقول الاشياء ولن يقولها . ولا بد ان تنتهي جولته في مقهى زيدان ، حيث يكون ابوه صافئاً متأملاً ، او غارقاً في الاستماع للذين حوله يتحدثون عن السيارات التي وصلت الى موران ذلك اليوم ، ماذا تحمل ولن . وخلال دقائق ينثر غمر أخباره في المقهى ، ويترك على وجوه سامعيه وفي قلوبهم خوفاً وتساؤلات ، حتى اذا انتهت مهمته اصطحب اباه وعادا .

من أكثر الامور مدعاة للحيرة والعجب ان غمر يملك من الاخبار كمية هائلة ، اكثر مما يملكه اي انسان آخر . حتى الاخبار التي تبدو غير قابلة للتصديق لاول وهلة ، لما توحى به من مبالغة وتضخيم ، كانت تأتي الوقائع ، في وقت من الاوقات ، لتؤكد صحة ما قاله . فاذا جاء ذكر الحكيم او مطيع فغندئذ لا يملك شمرا ن نفسه من التعليق ، وغالباً ما يكون تعليقاً ساخرأ اقرب الى الشتيمة . أما اذا وجد الاربعة ، بمن فيهم ابن الرشدان وعبيد الطويل ، فلا بد ان تكون ليلة من الليالي التي تنتقل اخبارها بسرعة ، وتصل في احيان كثيرة الى حماد . فنمر الذي يبدأ صامتاً ، وكأنه غير راغب في الحديث ، ويتطلع حواله بنظرات جذرة ليختبر المكان والبشر ، وليقدّر كيف يبدأ او ماذا يقول ، ما يلبث ان يقع تحت وطأة الاسئلة والاستفزاز : « موران اليوم مثل مقبرة ، لا من باع ولا من شري » « السلطان عرس » « السلطان خلف » « المالطي شري مقبرة حران وياكر يشري مقبرة موران » . عند هذا لا بد ان يتصدى غمر او ابوه لهذا الهذر الذي يجري حوله ، فاذا تكلم شمرا ن اخذ الحديث نسقاً معيناً لا يلبث ان يصبح ساخرأ ، لان ابن الرشدان يجب ان يشارك ، وعادة ما يشارك بتعليق او بشتيمة ، أما اذا تكلم غمر فقد تعود ان يفعل كما تفعل الاذاعات :

- اليكم اولاً ، يا جماعة الخير ، الاخبار . اخبار موران اليوم ان طويل العمر يفكر بعرس جديد ، وربما في غضون ايام . المالطي باع القاع غرب

المسجد للامير ميزر ، وتشارك معه بقاع جديدة غرب وادي الرها .

ويزفر ويهز رأسه بأسى ثم يقول :

- اما التعليق ، يا جماعة الخير ، فكل واحد منكم عنده عقل وعنده فكر ، من يوم ما سرح الذيب بالغنم طاحت الدنيا وخرت !

ويخرج من جيبه الداخلي الجريدة ، لا يهم ان تكون جريدة اليوم ، او اي يوم آخر ، المهم ان يري الذين حوله صورة مطيع ، هذا هو عدوه الاساسي ، وهي صورة لفرط ما تكررت تبدو وكأنها الصورة ذاتها : مطيع يقف الى جانب السلطان في احد الاحتفالات او الاستقبالات ودائماً يدها مكتفان الى صدره بذل ، وعينه تنظلعان الى السلطان باعجاب . يشير غمر الى الصورة ويقول :

- هذا هو مسيلم الكذاب ، يكذب مثل ما يشرب الماء ، مثل ما يتنفس ، لكن الحقيقة كالشمس ، والشمس ما يحجبها غربال .

هذا النوع من الاخبار والتعليقات لا يروق لشمرا ن ، فقد علمته التجارب ان لا يثق بكلام الجرائد ، « لان هذي القراطيس ، وكل ما مكتوب فيها ، ما تمز شعرة ولا تشيل بعة » ولا بد ان يدفع الحديث باتجاه آخر ، على الاقل نحو الحكيم :

- يا جماعة .. تذكرون موران قبل ما يصلها ذاك المبقع وامثاله كانت بالف خير ، لكن من يوم ما وصلها سفت وانحدرت ، والله يستر من الجايات .

ولان كلام شمرا ن لا يزال غامضاً ولا يعرف الذين حوله عمن يتحدث ، فلا بد ان يتدخل صالح :

- لا مبقع ولا صالح على روحه ، يا ابو غمر ، قولها وخلصنا .

- وتحسبني اخاف ؟

- ما يندري !

ويغمز صالح الرشدان بعينه لمن حوله انه استفز شمرا ن ، ولا ينتظر شمرا ن :

ويتراجع ، ولا بد ان تصبح الامور افضل من قبل .
هكذا كانت تجري الاحاديث والمناقشات في مقهى زيدان ، لكن تعرض
صالح الرشدان للضرب اكثر من مرة ، وزرع بعض المخبريسن في المقهى ،
وبشكل ظاهر تماماً ، جعل شمران يأتي يوماً ويغيب اياماً . ولم يعد نمر يهتم اذا
مرّ ذلك اليوم او لم يمر ، كان يقول اذا سئل :
- موران كلها قهوة ، والواحد يشرب بفلوسه ، في هذا المكان او ذاك ،
وزيدان ما هو عايش علي !

- اسمع يا ابن الرشدان ، واخل غيرك يسمع ، ذاك ، اللي بالك فيه ،
انت تعرفه وانا اعرفه ، مسيكين ، على باب الله ، اذا امست يطيح بحرمة
وبعدها يشخر ، أما ذاك اللي عالتق فانوسه وللصبح ما ينام وفكره كله منين
يجيبها ومنين يحوفها فذاك غريمي .. اليوم .
- المسيكين اللي تقول عليه يا ابو نمر ..

يقول احد الذين يستمعون ذلك ، ليزيد النار اشتعالاً ، فيتدخل صالح :
- والله ما احد مسكين الا جتاً .. أما الجماعة هناك فاكلوا التمرة
والنواة ، وما خلوا لغيرهم شي .
- اذا تحكي على الفلوس يا ابن الحلال فالي تقوله صدق ، لكن المسألة
اكبر واكبر ...

ويسحب شمران نفساً عميقاً حزيناً ، وهو يقول هذه الكلمات ، ثم
يتابع :

- أبوه كسر رقاب العباد . سوى اللي ما يتسوى . قلنا ثار؛ أما هو، الي
قال : يحيي يوم يا ابو نمر ما يصير الا ما يرضى الناس .. وخذها من
هالشارب . قلت له خير يا مبارك ، لكن اللي صار ، ما تشوفه عينوكم !

ويزفر مرة اخرى :

- مثل ما قلت لكم : المبقع راس الحية ، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل :
حظ الحصان بين الحمير يتعلم النهيق .

- ما ظل خيل يا ابو نمر !

هكذا يرد صالح الرشدان ، فيضحك شمران من اعماقه ويرد :

- والله هذا هو الصحيح يا ابن الرشدان : الخيل كلها صارت كُدُش .

ويتدخل نمر ويتدخل آخرون ، في محاولة لان يوجهوا الحديث وجهة
اخرى ، لكن شمران مصر على ان الحكيم هو رأس البلاء ، وان السلطان اداة بيده ،
وهو الذي يسيره ، فاذا ضرب ، او ابعد ، لا بد ان يخاف السلطان

ظل هكذا شهوراً طويلة ، وشهراً بعد آخر يزداد الحصار حوله وتزداد صعوبة الحياة بالنسبة له . انه منذ اربعين سنة لا يمارس الا هذه المهنة ولا يعرف غيرها . لقد حذا حمير موران من المهد الى اللحد ، وحذا عدداً من الخيول والبغال ايضاً . كانوا في السابق يتزاحمون حوله ، ينتظرون ساعات وساعات ، وكانوا يكيلون له المديح ويستعملون الكلمات الكبيرة لاسترضائه . الآن ، لا احد ينظر اليه ، لا احد يطلب منه شيئاً . أما اذا تحدثوا فلكي يسخروا : « هالقلاب ، يا صالح يبي حذوة . . فاضي اليوم او نجيك غير يوم ؟ » « هالفرس ينراد لها قص اظفر وحذو يا صالح ، لكن بشرط : الصغيرة اللي وراها على البيعة ويش قولك » . ويشيرون الى سيارة كبيرة وخلفها سيارة صغيرة . وصالح لا يوفرهم ، لا يوفر احداً منهم : « والله يا اهل موران حميركم احسن منكم ؛ ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر واوادم ، اما هالحين فانتم زق » . ويقول « حذي الحمير من رجلها ، أما الحمير اللي اشوفها هالحين فينراد لها حذي من روسها » . ويضحكون بصخب لكلمات صالح ثم لا يلبثون ان يشغلوا سياراتهم ويمشون تاركينه وحده .

حين كانوا يقولون له فيما مضى ان القصر يطلبه لكي يحذي الخيول هناك كان يرد ان « القصر ما هو احسن من الناس الواقفين ، فاذا كان عنده اي شيء يطرشه ونشوف » أما الآن فقد اقتنع ان يقدم معروضاً الى القصر لكي يتولى هذه المهمة ، ويمكن ان يوافق على راتب مقطوع ، واكد له الكثيرون ان ذلك حل معقول . وعمر الذي وافق مضطراً على كتابة هذا المعروض ، وكان متأكداً ايضاً ان لا احد سيقروه او يجيب عنه ، كتبه بروح ساخرة تقطر احتقاراً : « عظمة السلطان وولي امر العباد . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . انا صالح الرشدان ، من موران ابا عن جد ، بعدما صدر امر جلالتمكم بنقل سوق الخلال من مكانه تدربت المصايب فوق رؤوس الخلق وانا واحد منهم ، قلت الاشغال وانسدت الابواب ، ومعلوم لكم اني اقوم بحذو الخيل منذ اربعين عاماً ، لكن وصول السيارات قللت الأرزاق ، فأطلب منكم التعيين في القصر ، وبمسؤولية الخيل ، وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله .

هل يمكن لمدينة ان تعادي انساناً مثلما فعلت موران مع صالح الرشدان ؟ وهل يوجد انسان ، غير صالح الرشدان ، قادر على ان يوزع هذا المقدار الهائل من الشتائم . . على مدينة بأسرها في محاولة للانتقام ؟

اذ ما كاد سوق الخلال ينتقل الى العوالي حتى ضاع صالح الرشدان ، لم ينتقل الى هناك « لان ولا اي ابن كلب صاحب حمار يصله » ولم تستطع موران ان تستوعبه او ان تؤمن له العمل ، رغم انها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون اليها من كل مكان .

ولانه « تورط » فتزوج متأخراً ، فقد كان عمر اكبر اولاده اثنا عشرة سنة ، وكان هذا الصغير يرافقه في تجواله ، حاملاً جزءاً من معدات العمل ، أما الخمسة الآخرون ، من اولاد وبنات ، فكان يتركهم في البيت .

صالح يذرع موران كلها ، بحثاً « عن ابن حرام يريد يحذي حجشه » فيعثر على واحد او لا يعثر ، لان اصحاب الحمير اصبحوا اقل من السابق ، او لانهم لم يعودوا يحفلون حذيت حميرهم او لم تحذ ، لانها « لم تعد تجيب فلوس اكلها » بعد ان كثرت السيارات والقلابات ، وحلت محل الدواب في النقل . أما اصحاب الخيول الذين لم يعترفوا بصالح الرشدان . من قبل ، فقد اصبحوا اشد انكاراً له في المرحلة الجديدة ، اذ ما يكادون يرونه يوم حول اسطبلاتهم حتى يبعثوا من يطرده ، وكأنه مرض يخافون على خيولهم منه . لقد حصل هذا مرات عديدة ، وكانهم اتفقوا فيما بينهم على ذلك .

مراجعتي في قهوة زيدان » .
وقضى اياماً واسابيع في مقهى زيدان لا يفارقه ، على أمل ان يعث القصر

بطلبه ، لكن شيئاً مثل هذا لم يحدث . وخلال هذه الفترة ، ولما عرف بعض الخبثاء ان صالح ينتظر استدعاء من القصر ، وان لديه هناك مهمات خطيرة ، اصبح سخرية اكثر من اية فترة سابقة : اي داخل للمقهى ، خاصة اذا كان شخصاً جديداً ، يترافق مع الكثير من الهمس والتعليقات ، «ابشر يا صالح : الخير جاء » « الرجال اللي جاء هالحين يسأل عن صالح ، قلنا له خير ، قال خير ، بس الكلام من راسي لراسه ، قلنا له هالحين ما هو موجود ، لكن يجي ، تبي نعلمه أو قبلها نروزه ، خاف يكون عند سالفه ثانية » وصالح يراقب ، يتابع ، ينتظر ، لكن دون جدوى .

قال لشمران ذات يوم ، وكان لا ينظر اليه ، لان عينيه مركزان على باب المقهى :

« وشنبو شورك ، يا ابو نمر ما دام القصر مثل المقبرة : لا علم ولا خبر ؟
- هيل عليه التراب واسلح فوقه .
- يعني ما منه نتيجة ؟
- لا حياة لمن تنادي ، والاحسن دور لك سالفه ثانية .
- وطويل العمر ينسى صالح الرشدان ؟
- نسي الجميع يا شيخ .
وضحك شمران بحزن وتابع :
- ومن هو صالح الرشدان لطويل العمر ؟
- ومن هو طويل العمر بليانا ؟ ويش يسوى اذا حنا رحلنا او كنا غير موجودين ؟

ولم يقتصر حقه على البشر بل امتد الى السيارات ايضاً ، فما يكاد يمر بسيارة متوقفة ، وليس عندها أحد ، حتى يفعل شيئاً للتعبير عن احتقاره ، اذا لم يستطع ان يبول ، يطلب من ابنه ان يفعل « حيل يا وليدي ، اللي تقدر عليه » ، فاذا لم يستطع اي منها ، فلا بد ان يجمع في حلقه بصقة كبيرة : « تفو عليك وعلى يومك » ولم يتردد ايضاً في ان « يزرع » اعداداً كبيرة من المسامير والزجاج المكسور في شوارع معينة . كان يختار الاماكن التي يعتبرها اكثر ملاءمة من غيرها ، خاصة الطريق المؤدي الى قصر الغدير ، لكن هذه المهمة كلفته الكثير : ضربه اصحاب السيارات ، بدأوا « يمازحونه » بسياراتهم ، ولم يترددوا في ابلاغ الشرطة ، والشرطة تولت تأديبه .

ويزداد الحصار حوله ، ويحاول شمران ان يساعده ، ليس فقط في ان يمده بالمال بين فترة واخرى ، وانما في ان يؤمن له عملاً بعد آخر . طلب من بدر ان « يدبره » اول الامر ، وبدر الذي وافق لم يعرف كيف يستخدمه او كيف يستفيد منه ، قال له « اجلس يا عم صالح ، اشرب قهوة وسولف ، فاذا احتجت الى شيء من السوق ، بدل ما اروح انا انت تروح » وصالح الذي وافق لم يلبث ان خلق مجموعة من المشاكل ، خاصة لاصحاب السيارات الذين يأتون من اجل اصلاح كهرباء سياراتهم ، مما اضطر بدر الى صرفه ، بعد ان تحمله بضعة شهور .

ووجد له شمران عملاً في كراج السبيعي ، صديقه القديم ، لكن لم تمض بضعة ايام على عمله ، كحارس في الكراج ، حتى تسبب بعدد من

موجودين ؟
- يا صالح ، يا ابن الخلال ، مثل ما قلت لك سالفه القصر شيلها من راسك ، هذه السالفه ما توكل خبز .

خبز؟ وذاك راعي الملة والدين ، ليش صاكُ بابه ، لا يسمع ولا يجيب ، وكأنه من اهل الكهف ؟ « يتوقف قليلاً يتطلع بامعان الى الوجوه التي تتابعه ، يهز رأسه بحزن ويقلب يديه بحيرة « قبل كم سنة كنا بالف خير ، لكن من يوم ما جاءت هذي البلايا ، وعنظر كل واحد منكم بقلاب او بيك آب ، وبعد ما كنتم تحبون الاكتاف واللحى وتقولون نضحك على صالح ، وصالح يفك ويدق ، وما راح يوم وجاء الثاني حتى صرتم مثل ذاك الصاكُ بابه « فاذا سمع كلمات المديح تكال اليه من جديد ، او من يقول له ابشر ، ولا بد ان ينال المساعدة ، يصرخ مثل جريح « تحسُون انتم وفلوسكم ، ما ابوها ، ابي اشتغل ، ابي ادقق » ، ويجد عملاً ، او يجسدون له عملاً ، لكن مثل كل المرات السابقة ، ما تكاد ايام تمر او على الاكثر بضعة اسابيع حتى يقع الخلاف وتذب المنازعات .

قال له عبيد الطويل بنفاد صبر .

- يا صالح ، يا ابن الاوادم ، السالفة اللي براسك شيلها ، وموران اللي تخبرها راحت ، ماتت ، هالحين حنا بموران ثانية ، فاترك الخيل وحذو الخيل ودور على شغلة ثانية ، والامت من الجوع .

واوضح له ان امامه احد خيارين : ان يفعل مثله ، حيث انتقل من دلالة الغنم والاباعر الى التوسط في عمليات بيع وشراء السيوت والاراضي ، وان الشغلة الجديدة ، بالاضافة الى ارباحها الكبيرة ، فانها سهلة ويمكن ان يعملها في بضعة أيام . اما الخيار الثاني فان يفعل مثل شميران ، ان يجلس في مقهى زيدان او اي مقهى آخر ، ويصمت او يتعلم الصمت ، « لان الناس كلها صارت عينها عليه حمرا ، واذا سكتوا اليوم ما يتعرف ويش يصير عقبه » وفي محاولة اقناعه باحد هذين الحلين ابدى استعداداه ان يساعده في تأمين عمل « وهذه المرة آخر مرة يا صالح » فاذا احب ان يفعل مثل شميران ، فان بدر ابدى استعداداه ان يستخدم ابنه ، وان المبلغ الذي سيتقاضاه « مع قرش من هنا وقرش من هنا يكفي ، المهم ان تخلصنا من الطلاب يا صالح ، وهذا ما هو رأي بس ، رأي ابو نمر ، ورأي الناس كلهم ، والا هذا حدنا وياك » .

واذا كان لكل قرية ولكل مكان ذاكرة وقلب ، فان المدن الكبيرة ، خاصة

الخلافات بين اصحاب السيارات والكراج ، فصرف من العمل بعد ان ضرب .

وتكرر العمل والبطالة . وصالح الرشدان حائر ضائع ، ينتقل من عمل الى آخر ، لكن لم تكن نهاية اي عمل افضل من نهاية الذي سبقه ، بحيث لم يستطع شميران ان يستمر او ان يفعل اكثر من ذلك ، قال له بعد ان تعب من مشاكلة :

- والنعم ، يا صالح ، اهلك سموك صالح وما هم غلطانين ، وهالحين اذا ما تنصلح وتصير مثل الاوادم دور على غيري وخليه يتعب بك .

- ما اظن احد تعبان مثلي يا ابو نمر .

- تعبان وما تخلي احد يستريح .

- وهم تاركيني استريح ؟

- صرت تدور على الشر يا صالح والناس صدورها ضيقة ، اذا حملت يوم ما تحمل الثاني .

- صرت مثلهم يا ابو نمر ؟

- الله يهديك يا صالح ، لان صدري ضاق وروحي رفرفت .

وهكذا انقطعت العلاقة بين شميران وصالح ، بعد ان استمرت سنين وسنين ، لكن رغم القطيعة بين الرجلين فان كل واحد منها لا ينسى الآخر ، ولا يغفل عنه ، فشمران الذي لم يستطع ان يفعل اكثر مما فعله من اجل صالح كلّف ابنه نمر وكلّف عبيد الطويل ان يتفقداه بين فترة واخرى وان يساعدها .

وكلما ظن الناس ان نوعاً من السلام خيم اخيراً ، وان صالح توقف عن شتائمه ، او وجد ما يشغل به نفسه ، يرتد نحوهم كالزوبعة ، الى مقهى زيدان ، الى المسجد ، او يقف في منتصف السوق : « قولوا اللي تقولوه علي يا اهل موران ، قولوا عاقل ، قولوا مجنون ، ما اشتري كلامكم بنواة ، لكن اريدكم تعلموني ، باي دين وباي شرع ناس تبني العلالى والقصور وتلعب بالفلوس لعب ، وما يندري مين جات هذه الفلوس ، وناس ما تلقى كسرة

يجري حوله ، لان العمل اكثر من ان يطيقه او يقدر عليه . كان يعمل اكثر من الآخرين ، ولا يفرغ من العمل الا بعد ان يفرغ الجميع . وفي احيان كثيرة كان يطيب له ان يتوقف عن العمل يوماً او يومين ، ويجلس ليستمع الى شمران او الآخرين وهم يتحدثون ، لكن « لا احد يرحم ولا احد ينتظر وصاحب الحاجة لجوج » !

وانتقل من السلطان الى الآخرين « صالح لا يمكن ان يفوت قضية ، يمكن ان يسامح ، ان يسكت ، لكن لا تخفى عليه خافية » استحضرهم واحداً بعد آخر ، ماذا يجب ان يقول لهم وامام من : « الشهود احياء والناس ما تنسى يا فلان » ولان الذين يريد ان يتحدث معهم كثيرون فقد اعطى للاشياء حوله اساءة وصفات وبدأ ، لم يترك احداً ولم ينس شيئاً .

كان كل ذلك يجري وصالح يجوب الشوارع وحيداً ، بعد ان عمل ابنه عند بدر ، باحثاً عن صاحب حمار ليحذوه له . كان يريد ان يمارس المهنة ليس من اجل ان يحصل على مقابل ، وانما لكي يثبت لنفسه انه ما زال قادراً على العمل ، وانه لا زال نافعاً للآخرين . لكن لا احد يستجيب له ، لا احد يسأله او يطلب منه شيئاً . حتى الشتائم التي كانت تستهوي الكثيرين في وقت سابق لم تعد تعني لهم شيئاً الآن . ولانه لا يعرف التوقف او الراحة ، ولا يجد احداً لكي يتحدث معه ، فقد اخذ يتحدث لنفسه ، وبصوت عالٍ ، دون ان يابه او يخاف !

قال شمران لما بلغه ما وصلت اليه حالة صالح :

- اللهم حسن الختام !

التي تتكون وتتغير بسرعة ، تفقد ذاكرتها وتتعلم الفسوة باتقان ، ولذلك فاذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من ايام ، واجبت شتائمه وطريقته في التعامل ، فانها ما لبثت ان تجاهلته ثم نسيت . حتى عندما مات له طفل ابن عامين لم يجد احداً يساعده او يمشي معه . كان وهو يحمل الصغير ملفوفاً بثيابه ، في طريقه الى المقبرة ، يثر السخرية اكثر مما يثير الشفقة « يا جماعة .. صالح سارق له سرقة ، ومثل الحرامي يهرول ولا بد ينكفي على وجهه وتبين سرقة » « هالركضة ما هي الله يا صالح لازم وراك سالفه » ولا يرفع وجهه ، لا يسمع ، ويمسك بجثة الصغير بحقد اكبر ، وكأنه يريد ان يستمد منها مزيداً من الصلابة والقوة .

ويحاول ان يتعلم الصمت لكن الصمت لا يواتيه ولا يأتيه ، ولان احداً لا يسمع اليه ولا يلتفت لما يقوله ، فقد بدأ يكلم نفسه . بدأ اول الامر يفكر بما يجب ان يقوله اذا رأى السلطان في يوم من الايام ، كيف يبدأ وكيف يدفع الحديث بالاتجاه الذي يريد ، ولكي لا يخطيء ولا يتردد اخذ يطلق على الاشياء التي امامه اساءة بشر يعرفهم او يريد ان يتحدث اليهم ، ينظر الى الباب او الى الجدار ويبدأ « يا طويل العمر ، والاعمار بيد الله ، هذه الدنيا فانية ولو دامت لاحد ما وصلت لكم ؛ انا يا طويل العمر تعرفني ، او على الاقل سمعت سالفتي ، انا صالح الرشدان ، موران كلها تعرفني ، واذا سألت تلقى الجواب . بسوق الحلال عشت عمري كله ، ما وصلت دابة من ثلاثين .. اربعين سنة ، الا ومرت تحت يد صالح ، ومثل ما شمران كان وتد بالسوق صالح كان مثله ، لكن ما يندري من هو اللي شار عليكم ان ينشال السوق من مكانه ، لا بد يكون لثيم او ابن حرام ، لان من ذاك اليوم والناس هاجه ، كلها تقول الله لا يبارك ، وهذا الله ، يا طويل العمر ، هو المنتقم الجبار ، وما احد يقلت من عقابه ، ولو كنت بمكانك يا طويل العمر لا بد ان افتح تحقيق واعرف اللي شار واللي قال وأنزل به اشد العقاب ، ومع ذلك هالحين يلزم تأمرون ويرجع السوق مثل ما كان » ويفرح صالح بهذه النتيجة ، ويتخيل من جديد السوق وقد عاد الى مكانه : حركة حافلة : البشر والدواب ، وكل انسان لديه ما يفعله او ما يقوله ، وهو لا يلتفت الى الكثير مما

في البداية على شكل تساؤل مرح ، ثم اصبح تساؤلاً جاداً ، واخيراً اصبح سؤالاً يتكرر في كل جلسة بأشكال عديدة ، وكان الحكيم في الغالب وراء هذا التساؤل او السؤال . ووداد التي وجدت ان صحتها تتحسن ، وانها تنتعش وتتغير تماماً خلال زيارات راتب ، اعتبرت ان انتقاله الى موران سعادة لا توازيها اية سعادة ، واذا خافت لأول وهلة من فكرة زواجه ، ولا تطيق ان تراه متزوجاً ، فإنها ما لبثت ان اقتنعت واقنعت نفسها ان الطريقة الوحيدة لكي تحتفظ به ، لكي يبقى فلا يسافر ، وان يكون قريباً بهذا المقدار ، هي ان يتزوج ؛ وان يتزوج بمعرفتها ، عن طريقها ، لكي تضمن بقاءه وقربه أولاً ، وتضمن ايضاً ان تختار له المرأة المناسبة !

بعد الكثير من البحث والتأمل والانتظار ، سافرت ووداد الى بيروت ، واستمرت شهرين وعشرة ايام في هذه السفرة . لكن لم يمض على سفرها الا اسبوع واحد ، حتى ارسلت برقية الى الحكيم : « رجاء ابلاغ راتب ان العروس بانتظاره ، يلزم توجهه لاتخاذ القرار المناسب » . طار الحكيم من الفرح ، واعتبر ان زوجته تمتلك من الامكانيات الشيء الكثير ، وان كانت لا تظهرها ، او لم يكتشفها هو سابقاً . ويكثر من الحفاوة والمودة هنا راتب وشدد على ضرورة سفره في اقرب فرصة « اليوم قبل بكرة ، لان المسألة لا تحتمل التأجيل » ويضحك الحكيم بقهقهة ثم يضيف « مسألة مستقبل ، يا راتب ، مسألة مصير » ويهز رأسه بمرح لذيد : « ومثل ما دخلنا نحن القفص الذهبي ، ولانك عزيز علينا ، نريدك ان تدخلكه مثلنا ! » .

وراتب الذي يتذرع ببعض الاشغال والواجبات ، وانه لا يستطيع السفر قبل ان يفرغ منها ، وان « بنت الحلال ستنتظر ، لان ليس عندها خيار آخر ، سوى الانتظار ، خاصة وان ام غزوان حضرته وقالت لها اية سعادة تنتظرها ، واي زوج ستربحه وتدخلكه الى العش ! » .

بعد مناقشات عديدة تخللها المرح والجدية ، سافر راتب ، وانتظر هناك شهرين الى ان تم العثور على الفتاة المناسبة . وقد اوضحت ووداد لزوجها ، بعد ان عادت ، « ان الامور تعرقلت اكثر من مرة ، لان البنت الاولى اللي ربطناها ، لم تعجب راتب . وحتى الثانية لم تعجبه . وفكر ان يلغي الزواج

بعد ان اتسعت الاعمال وتشعبت ، لم يعد الحكيم قادراً على ان ينصرف الى كل عمل بنفسه ، ولم يعد الاشخاص الذين حوله قادرين ايضاً ، وهذا مما اضطره الى اقتناع راتب بالانتقال الى موران والاقامة فيها ، كما بذل جهداً كبيراً الى ان تمكن من استدعاء الأغا للتباحث معه بشأن التعاون ، خاصة وان هناك افاقاً جديدة تكشف امامه من خلال نشاط رضائي بالذات . ولم يطل الامر حتى حقق هذين الهدفين معاً ، فبدأ الحكيم خلال هذه الفترة في منتهى القوة والرضا عن النفس ، وشاركته العائلة هذا الجو من الحيوية والفرح ، خاصة وان غزوان اوشك على التخرج وجاء بزيارة خلال العطلة الربيعية . كان يبدو اقرب الى الرجال بمظهره الذي ازداد سمته ، وبطريقة تصرفه وحديثه . وقد ولد هذا تفاؤلاً كبيراً لدى الحكيم ، وكان يود في اعماقه لو ان غزوان بقربه ، اذن لاكتسب خبرة كبيرة ، ولصرف معه وقتاً وجهداً من اجل ان يختصر الزمن ، وان ينطلق الى الحياة العملية ، لان الحكيم ، رغم محبته للعلم ، يعتبر ان الحياة هي التي تصقل الانسان وتحدد بالنتيجة امكانياته ووضعه في المجتمع .

ولم ينس الحكيم « الواجبات » ايضاً ، فراتب الذي تعود النزول في بيت الحكيم ، وجد ان من الضروري الانتقال الى بيت مستقل ، ووجد ايضاً ان حياة العزوبة ، خاصة في مدينة مثل موران ، غير ممكنة ، او على الأقل ان نظرة الناس لرجل مثله ، بسنه وامكانياته المالية ، لا تستقيم اذا ظل اعزب ، وهذا ما دعا ووداد ان تأخذ على عاتقها البحث له عن زوجة . صحيح ان الأمر طرح

وانشغل الحكيم أيضاً بغزوان - فبعد ان زاره في الولايات المتحدة في صيف السنة الماضية ، اكتشف ان ابنه كبر وتغير كثيراً ، فبالإضافة الى النباهة التي ميزته منذ ان التقى بهم في المطار ، فان كل حركة وكل تصرف اقدم عليه بعد ذلك ، وخلال الزيارة كلها ، اكدت له « ان هذا الشاب - ويجب ان اقول ذلك بحياد - مثال حي للذكاء وحسن التصرف . . . والطموح ». فقد حدثه غزوان عن سان فرانسيسكو بافاضة ، واخذه بنزهات طويلة ومتعددة ، وكان يضع لكل زيارة برنامجاً مناسباً ، وكثيراً ما فاجأ اباه وامه . فزيارة الحَيِّ الصيني في المدينة ، والتجول بين مجموعة كبيرة من الصينيين ، اثارا افكاراً لدى الحكيم تصور انه نسيها لفرط ما ابتعد الزمن! وزيارة الغابات المعمرة التي لا تبعد عن المدينة كثيراً اثارت لديه مفاجأتين اثنتين في آن واحد : فحتى ذلك الوقت لم يكن يظن ان ابنه تعلم سواقة السيارة بعد ، أما عندما استأجر غزوان سيارة منذ الليلة السابقة ، وقد أنتقاها بمواصفات ثلاثم مستوى العائلة ، وجاء بها الى الدار دون ان يحس به احد ، ثم في الصباح وابوه يسأله ماذا رتب لهم لهذا اليوم ، يقول له رداً على السؤال :

- ان ترى بعينك احسن من ان تسمع باذنك !

ويكثر من البطء والثقة يستخرج مفاتيح السيارة الواقفة ، يفتح الباب الايمن ، ويطلب من امه ان تتركب ، والام التي نظرت اليه ثم نظرت الى زوجها لا تعرف هل تستجيب له ام لا ، أما عينا الحكيم اللتان دارتا دورة كاملة ، وكأنه يفيق من نومه ، فقد فوجيء تماماً ، لكن كلمات غزوان الواثقة ، الواضحة ، تطلب منها ان يركبا ، وان يركبا في الكرسي الامامي ، وامه في الوسط ، لم تترك لها الخيار . أما تلك البراعة التي اظهرها غزوان في السواقة ، في معرفة الاتجاه والطرق ، ثم تلك الاغاني التي احضرها خصيصاً ، ووضعها في المسجلة ، فقد اضفت على الرحلة متعة كبيرة ، انست الحكيم ، خلال جزء طويل من الطريق ، الخوف .

المفاجأة الثانية التي اذهلت الحكيم الى اقصى حد ان تكون في الدنيا أشجار بهذه الضخامة وبهذا العمر المديد ، فما كاد ينزلق إلى غابة (Red Wood) ويشهد تلك الأشجار التي لا تثير الإعجاب فقط ، وإنما تثير الدهول والتساؤل ،

كله ، لكن في النهاية اقنعناه انا وعمتي ام احسان ، ولقينا البنت المناسبة . . . وتزوج وسافر » وتهدت وابتسمت لان هذا الحمل الثقيل سقط عن عاتقها ، والحكيم الذي قدر المصاعب والمتاعب التي ترافق الزواج رد عليها بمرح :
- مثل هذه الشغلة لا تحصل الا مرة في العمر ، فاحدي ريك واضحكي بعبك .

وضحك بقهقهة ، ثم قال بعد ان هدأ :

- ونحن مو مثل غير جماعة !

ردت بنوع من الغيظ المصطنع :

- اي والله . . . هذا الشيء اللي ناقصكم !

- ليش يا ستي . . . غيرنا احسن منا ؟

- لا ما قضية احسن ، لكن كل ناس ولهم عاداتهم .

- وعادات موران واهلها الا تعجبك ؟

- لأ . . . يا سيدي !

- انا ، يا ستي ، صرت موراني : عاداتهم عاداتي ، واخلاقهم اخلاقي ،

وتاوي اعمل مثلهم !

- شو قصدك ؟

- ان اتزوج مثلهم !

- تطلع عينك وما راح تشوف غيري !

وهجمت عليه تقبله ، تحضنه ، تتطلع الى عينيه بتحديد . شعر الحكيم بغبطة كبيرة . شعر ان وداد تحبه اكثر مما يقدر واكثر مما تظهر ، لكنها تكابر ، تخفي عواطفها . أما الآن ، وبعد هذه الفترة من البعد والشوق فانها تكشف اوراقها ، تفضح ما يعتلج في قلبها من عواطف واشواق ، قال وقد امتلأ رقة :
- انت كل شيء لي في هذه الدنيا واغلى من عيوني !

غزوان ومدى « تقدمه بالعلم » قال وهو يتسم ابتسامه كبيرة تظهر اسنانه كلها :

- والله العليم ، يا حكيم ، ان غزوان آخذ منك ومن امه !

بعد فترة من الاحاديث المختلفة ، والتي كانت تدور حول الولايات المتحدة ، سأل السلطان ما اذا كان احد من الاولاد رافقهم بهذه السفرة ، ودون ان ينتظر الاجابة ، سأل عن اعمار الاولاد ، والحكيم الذي سر كثيراً لهذا السؤال ، والذي يدل على اهتمام السلطان ومحبته ، اجاب بكثير من التفصيل عن اسماء الاولاد والتاريخ الدقيق لميلاد كل منهم !

الآن ، وغزوان يعود الى موران ، ويرى ابوه ان من « الواجبات » الاساسية ان يقوم بزيارة القصر والسلام على السلطان وتقديم الشكر له ، فقد كانت مناسبة اضافية ، لا لان يتأكد السلطان من عمر « غابة نوح » وانما ليلمعن بالصور ، لان ينظر دون تحفظ ، اولاً ، لكي يدقق ويقارن بين الصور ووجه غزوان ثم بينها وبين . . وجه الحكيم واخذ يردد نفس الكلمات التي قالها قبل شهر :

- اتاري ، يا حكيم ، غزوان آخذ منك ومن امه !

وغزوان الذي بدا شخصاً مختلفاً في هذه الزيارة ، اقنع اباه ان من المناسب ان يزور السلطان بنفس الملابس التي يلبسها في ستايت State ، وان يتصرف على هواه ، وهذا ما حصل وقد تركت الزيارة اثراً مريحاً لدى الحكيم ، اذ اتى السلطان على مظهر غزوان وعلى دراسته ، وقال في نهاية الزيارة :

- ولا بد نزور غابة نوح يا حكيم ، ما دام غزوان هناك ليكون دليلنا ويراوينا كل شيء .

وانتهت زيارة غزوان « اقصر من البرق » كما قال ابوه ، وهو يودعه ، وشعر انه لم يتكلم معه ، لم يره بما فيه الكفاية . قال له عند باب الطائرة :

- ما شعبنا منك ، يا حبيبي ، لكن تبقى دراستك هي الاهم ، وانشاء الله ترجع الينا في اقرب فرصة ، والله بحرسك ويوفئك !

حتى بدأ الحكيم يخلق في عوالم بعيدة وغامضة . استعداد بتشويش كبير أكثر الوقائع التاريخية التي قرأها ، وبدا له أن كل شيء ممكن في هذه الحياة ، وأن الخلود أمر يتعلق بالدرجة الأولى برغبة الإنسان ثم بمدى قدرته !

كان مذهولاً لا يجد الكلمات المناسبة التي يقولها لنفسه او لغيره . كان يضرب على الاشجار ، يتطلع الى اغصانها ، يتابع سيقانها في هذه الرحلة التي لا تصل الى نهايتها ، وتظهر على وجهه علامات العجب ، وظل يردد ، دون تعب ، كلمة واحدة : « سبحان الله ، سبحان الله » . أما غزوان الذي استعد لهذه الرحلة بكثير من المعلومات والطرائف ، فقد فاجأ اباه وامه بمقدار ما يعرف . أما تلك الصور التي التقطها ، وكان حريصاً ان تكون جامعة ، وقد استعان بعدد من الزوار لالتقاطها ، فقد ظلت مدار حديث طويل وطريف للحكيم بعد ان عاد الى موران ، وصدق ان الكثيرين رأوا وداد في هذه الصور لأول مرة !

السلطان الذي استمع بكثير من الانتباه للحكيم بحدته حول رحلته ، وحول عظمة الولايات المتحدة ومدى اتساعها وتنوع خيراتها ، دقق ، بكثير من العناية ، بالصور التي قدّمها اليه الحكيم ، معتزراً ان « ام غزوان اضطرت ان تكشف عن وجهها لان عادة اهل البلاد لا تسمح بغير ذلك » . ابدى السلطان شكوكه حول ما يقوله الاميريكيون عن عمر الاشجار ، ولا يمكن ان يصدقه الانسان ، اذ « كيف يعرفون اكثر من سبع او ثامن جد ؟ » « وكيف يعرفون ان عمر هذه الشجرة الف سنة وهذي ألفان ولا هم زرعوها ولا عرفوا من زرعها؟ » والحكيم الذي حاول ان يقرب الموضوع الى منطق يمكن فهمه واستيعابه ، وتحدث عن « امور علمية » ، لم يستطع ان يستمر ازاء ابتسامات السلطان ، والتي كانت اقرب الى السخرية او عدم التصديق .

كان السلطان بعد كل عبارة جديدة يقولها الحكيم عن « غابة نوح » - كما اطلق عليها ، تثير اهتمامه ، او هكذا يتظاهر ، فيلتقط الصور مجدداً ويتمعن بها ، وكأنه يعاود دراسة اعمار الاشجار ، لكنه في الحقيقة كان ينظر الى وداد ، ينظر الى شعرها ، الى رقبتها ، الى طولها ، كان يدرس اية امرأة تكون ، قياساً للنساء اللواتي عرفهن ! في لحظة مناسبة ، وقد سأل السلطان عن دراسة

- التيس احسن من الجدي ، يا ابو غزوان !

هكذا رد راتب بمرح ، فاجابه الحكيم :

- لكن التيس يظل تيس .

- مظلوم هذا الحيوان ، يا حكيم ، لأنه أذكى وأجراً من حيوانات كثيرة!

- يا سيدي .. المهم ان يكون الانسان فوق شغله ، لان اولاد الحلال

حولنا اكثر من اهم على القلب !

وفهم الذين سمعوا الكلام ، انه يعني اكثر من واحد ، لكن مع ذلك

انصرفت الازهان الى رضائي بالدرجة الاولى .

اصبح الحكيم بعودة راتب قادراً على ان يتحرك ، ان يعطي وقتاً اطول

لهذا المهّم الذي يشغله ، خاصة وان فترة الصيف ، رغم صعوبتها ، كانت من

اغنى الفترات واهمها ، لان سمير الذي بقي الى جانب الحكيم ، كموقف

تضامني ، هكذا فسّر تأجيله لاجازته السنوية ، بدا كريماً اكثر من اية فترة

سابقة ، اذ كانت المناقشات بينه وبين الحكيم تطول في اكثر الليالي وتمتد الى

السحور ، وقد صادف ان جاء رمضان خلال الصيف ذلك العام ، والحكيم

الذي كان محافظاً واقرب الى التزمّت بطبيعته ، وجد ان جو موران يفرض عليه

ان يكون اكثر محافظة ، ولذلك لم تظهر وداد بعد ان عادت امام الضيوف ، ولم

يرها الا عدد محدود من الرجال .

أما تجاه سمير ، خاصة في نهاية هذا الصيف ، فكان الامر مختلفاً .

فاللقاءات والمناقشات التي تجري في قصر الحير ، اغلب الليالي ، وعلى الشرفة

الغربية ، وكانت في البداية تقتصر على الاثنين فقط ، فما لبثت ان انضمت وداد

اليها . انضمت اول الامر قياماً بواجب الضيافة ، ثم برغبة ان تسمع وتتابع .

كان يروق لها ان تعرف ما يشغل زوجها وما يفكر فيه ، وان تعرف ، ان تسمع

وان ترى هذا الرجل ، الذي لا يتوقف الحكيم عن ذكر فضائله وقوة

عقله ... وخفة دمه ايضاً !

بدأت اللقاءات اواخر الصيف ، أما بعد ان غاب راتب فترة طويلة ،

انتظر الحكيم بفارغ الصبر عودة راتب من شهر العسل ، وقد امتد هذا

الانتظار وطال ، بحيث شمل الصيف كله ، وقد سبّب له هذا قلقاً

وارتباكاً ، اذ كان يريد ان يبدأ « الرحلة الكبرى » ؛ رحلة البحث

و « التقصي » ثم بداية « التدوين » ، وهذه الالفاظ والصفات من اختياره

هو ، أما ان يكون مثل الذئب : عيناً مغمضة واخرى كالفنجان لا تعرف

الراحة أو المنام ، ليرقب ذلك الخبيث سعيد ، او ليعرف ماذا يصنع رضائي ،

خاصة في هذا الصيف اللافح ، والذي بدا للحكيم اقسى واطول من اصيف

اخرى ، فقد شعر انه يضحي اكثر مما يجب ، ويتحمل اكثر مما يطيق ، وانه

يؤجل اموراً لا تحتمل التأجيل .

أما بعد ان عاد راتب من رحلته ، وكان في منتهى الرضا والثقة ، وبعد

الحفلات التي اقيمت له ، وكانت حدثاً مشهوراً في موران ، فقد ظهر الحكيم

في حالة من الزهو ، اقرب الى الغطرسة ، قال لراتب بتورية لا تخفى :

- تحمّلت كثيراً خلال هذا الصيف ، ولا يكلف الله نفساً الا وسعها ،

والآن جاء دوركم !

وراتب الذي يعرف مداعبات الحكيم ويتحملها بصدر واسع ابتسم ولم

يعلّق .

تابع الحكيم وهو يتبسّم ، ويغمز بعينه :

- ولازم تعرف ، يا راتب ، ان اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس .

احضانها طفلاً صغيراً . لقد حاول في اوقات سابقة ان يتمرد ، ان يكون كما يريد او كما كان ، لكن جبروتها سحقته ، لا ليس الجبروت ، انه شيء آخر يجار في وصفه او تسميته ، وان كان دائماً شيئاً قوياً كاسحاً ، لا يقوى على مقاومته . مرة ترفع صوتها ، مرة تبكي ، مرة ترفض ، ومرة لا تتركه يهدأ او ينام لحظة واحدة . تقبل عليه كسحابة الربيع ، او تمتنع كأنها فتاة عذراء . تركع عند قدميه كجارية ، تفرك ساقيه وتداعب باطن القدم ، او تفرسه كآية ليرة دون ان تنتظر موافقته او حتى سماع صوت رغبته . وهو في جميع الحالات ، رغم الاستعداد والتهيؤ . . يسقط ، يتراجع ، ويجد نفسه في احضانها طفلاً مستجيباً يبحث عن الدفء والحنان ، او يبحث عن شيء ما يفقده !

الآن تشعر انها فقدته ، تشعر ان هذه الفتاة الصغيرة ، ابنة التسعة عشر عاماً ، سرقتها منها وتحاول ان تفلت . هل يمكن ان توافق او ان تسلم في مواجهة هذه الفتاة الغريبة ؟ هل تنسحب وترضى بذلك الدور الكئيب : دور الحماية ؟ وراتب ، ذاك الذي يفخر بتجاربه ، وماضيه ، هل يقنع بهذه الدجاجة الخائفة المرتبكة وينساها ؟ لا تتصور لحظة واحدة ان ذلك شيء ممكن . لتتركه الآن ، لتتركه بعض الوقت ، ريثما يمل ذلك الجسد الباهت ، والذي يشبه الوجبة الخالية من الطعام ، ولا يختلف مذاقه عن مذاق الماء ، بالتأكيد سيميل ، وربما في وقت ابكر مما تتوقع ، وسوف يعود اليها . لكن اذا عاد هل ترضى وتستجيب اليه بمجرد ان يرغب ؟ لا ان هذا جزء من ماضٍ انتهى وانقضى . الآن تريد ان تعذبه الى درجة الفهر ، الى درجة التوسل . يجب ان يبكي لكي يعوض عن بكائها في الايام السابقة ، يجب ان يدق بابها مئات المرات ، وسترده على هذه الدقات بأن يؤكد وجودها لكن غير راغبة فيه ايضاً . ليست مستعدة لان تستجيب له ، حتى اذا هلك ، اذا قبل قدميها ، وبعد ان ينتظر ويتلف ستنقذه مرة اخرى ، سوف تستعيده لكن لكي يبقى لها هذه المرة .

هكذا افترضت ان الامور ستجري ، لكن مع ذلك لم تكن متأكدة ، ولم تكن مستعدة للانتظار . لن تبقى مثل امرأة مهجورة لا تملك شيئاً سوى الانتظار . ولن تقبل ان يتذكرها الآخرون عندما لا يجدون غيرها ، او لا

اطول مما قدرت وداد ، وعاد اكثر سعادة مما قدرت ايضاً ، فقد خلق لها هذا تحدياً دون ان تعرف له سبباً . واذا كانت بوادر هذه الحالة قد بدأت قبل عودته ، وقد ادرك الحكيم ذلك ، نتيجة العصبية والحدة التي ميزت تصرفاتها وعلاقتها مع الخدم ، فقد قدر ان الامر يعود ، بالدرجة الاولى ، الى جو موران ، وربما ايضاً الى شهر رمضان ، رغم ان وداد لا تصوم الا حسب مزاجها ، متخطية كل الاعتبارات الدينية ، اذ كانت تصوم ، بعض الاحيان ، كالاطفال ، والحكيم الذي يعرف ذلك ويوافق عليه يقول لها بنوع من التعاطف الواضح :

- الثواب على قدر المشقة ، والاطفال والنساء لهم اعذار كثيرة . .

ويتسم ثم يضيف :

- وساعة موران ، في مثل هذا الحر تعادل اياماً بكاملها ، ولذلك يكفي هنا ان يصوم الانسان بالنية او حسب درجات المادة ! .

أما بعد الحفلات التي جرت لراتب ، وكانت وداد بمثابة ام العريس والعروس معاً ، واظهرت اهتماماً وفرحاً بالغين ، واشتركت في التحضير وتقديم العروس للضيوف وللقصر بعد ذلك ، ثم تلك الاقتراحات التي قدمتها للزوجين الجديدين ، سواء من حيث الناس الذين من المناسب ان تقام معهم العلاقات ، او من حيث ترتيب البيت ؛ بعد تلك الاجواء التي شغلته وادخلت تغييراً كبيراً على حياتها ، فقد بدأت تحس يوماً بعد آخر انها خسرت الكثير ، وانها اخطأت خطأ لا يمكن ان تغفره لنفسها ، حين جارت زوجها ووافقت على فكرة زواج راتب ، ثم اصبحت كل شيء في اللعبة . وتأكد هذا الشعور وتعمق بعودة راتب ، فقد بدا لها انساناً مختلفاً . كانت اذا نظرت اليه بتلك الطريقة التي تعرفها جيداً ، وتعرف كيف تؤثر عليه وكيف يستجيب لها ، يهرب منها ، يتظاهر انه يستمع الى الآخرين ، او انه يقوم بعمل ما ، واذا تلح اكثر من قبل ويتهرب اكثر من قبل تعرف كيف ترد عليه ، وكيف تخضعه مرة اخرى !

لو كانت في بيروت ، لو كانت معه وحده ، لعرفت كيف تعيده الى

- تأخرت ، تأخرت كثيراً ، ما اخرك ؟

فرصته من خده واحتضنته بقوة . كانت دافئة شبيهة ، وكانت نسמת الفجر قد ايقظتها ، ولما سألتها من جديد ان كان الحكيم قد نام ام لا ، ردت بسخرية :

- اهذه الدرجة خايف ام صرت تغار ؟

ولا تعرف لماذا ارادت ان تداعبه ، ان تثير غيرته . بدا سمير اقرب الاشباح اليها ، سألت بمكر :

- اعجبك السهرة ؟ اعجبك سمير ؟

وتذكرت النكت التي رواها سمير على مائدة الطعام ، كانت محتشمة في الظاهر ، لكن تحت هذا الغلاف الرقيق من الحشمة كانت التورية الماكرة الفاجرة ، وقد ضحكوا لها طويلاً ، حتى ان راتب تطلع اليها اكثر من مرة بنظرات لا تخفي دالاتها . الآن وهي تسأله ، وهي تستعيد تلك النكت التي لم تقل كل شيء بوضوح ، تحس غيرته . فلما ظل صامتاً مستمتعاً بهذا الدفء قالت لتستفزه :

- ما رأيك لو حببت سمير واثمت معه ؟

وردت على سؤالها بجسده كله : ارتمى عليها بقوة كما لو انه يعاقبها ، يلطمها ، ثم لوى ساعدها ببعض القسوة ، لكنه لم يؤذها ، وحين حاولت ان تفر منه ، ان تبعد قليلاً لتنظر الى وجهه والى عينيه لتقرأ الجواب ، كانت الظلمة الشاحبة تحد من الرؤية او تمنعها ، قالت لتواصل لعبتها :

- ما جاوبت على سؤالتي ؟

ومن بين اسنان مصطكة قال كلمة واحدة :

- اخربي !

قالها بمزيج من الحقد والشتيمة والمداعبة وعدم التصديق . وناما تلك الليلة كما لم يفعلا من قبل ، شعرا بالغبطة والارتواء اكثر من اية مرة سابقة ، وشعرا انها اقرب الى بعضها بعضاً من اية فترة ، أما عندما سمعت نحنحات

يجدون شيئاً يفعلونه . لا . . . لن ترضى ، يجب ان تؤرق حياته ، ان تجعله مجنوناً بها ، ومتى ؟ في ذورة شعوره بالانتصار ، في اللحظة التي يحس فيها انه تجاوزها ، او انه لم يعد يجبها او بحاجة اليها ، وعندما تظن تلك الصغيرة المفتونة بصدرها وبردفها ، انها ملكت وسيطرت ، تكتشف فجأة انها لم تملك سوى الريح ، ولم تسيطر الا على الوهم ، فتخضع عندئذ ، لكن بذل اكبر وبتسلم كامل ونهائي .

الغيرة ، اذن ، هي الوسيلة التي يجب ان تلجأ اليها لتثيره . ان يكون في حياتها رجل آخر . ليس مجرد رجل تلتقي به في الظلام ، حين ينام الآخرون ، كما كانت تفعل معه ، فلا يحس ولا يعرف ، وانما ان يكون شديد الحضور ، قوياً ، وان يراه راتب بعينه وبحواسه كلها ، ليتأكد كم هي مرغوبة ومشتهاة ، وليعرف ايضاً كم اصبحت مستحيلة بالنسبة له . لن يكون الحكيم بطل هذه اللعبة الخطرة ، ولن يكون احد الذين يفترضهم ، سوف تتجاوز كل ظنونه وتوقعاته : سوف تحب سمير !

تذكر . . . في احدى الليالي سألتها وهو يضمها ، بعد ان نام الحكيم ونزلت اليه مثل قطة ، عن سمير ، فاكتفت بان قالت بهمس :

- مثل كل عفاريت هاروش وماروش !

وراتب يعرف معنى هذه السخرية ، حين تلجأ اليها . لذلك لم يسألها مرة اخرى . اما في المرات اللاحقة ، وكان سمير يتحدث الى الموجودين ، لكن كان ينظر الى الحكيم بالذات ، وكأنه الشخص الوحيد ، فقد اكتشف راتب فيه مكرراً اقرب الى السخرية ، وفي نهاية السهرة ، وبعد ان غادر الضيوف ، قال الحكيم لراتب دون ان يسأله :

- لو كان في موران كم واحد مثله لحرثت المنطقة كلها وخليت الكل يركع .

وراتب الذي كان يفكر في قضايا اخرى لم يجب ولم يعلق ، أما عند الفجر ، وحين كانت وداد تنسلل الى فراشه ، وقد طال انتظارها لها ، فقد سألتها بنوع من الاتهام :

صاحبة اكدت للصغيرة انها لا تملك ان تقرر بمفردها ، وانها هي التي تقرر نيابة عن الجميع ، خاصة نيابة عنها ، ولذلك فقدت الصغيرة القدرة على التصرف او التكيف ، ووقعت مريضة .

أما راتب الذي ظن ان وداد التي كانت ملك يديه امس ، ستبقى كذلك اليوم وغداً ، لذلك كان يتصرف بكثير من الثقة والاطمئنان ، وسيعود اليها حالما يشبع من هذه القطة الصغيرة ، وانه في وقت قريب سيرتد الى أوزته المتعالية ويردها كما يرد دجاجة ضالة او هاربة ، وسيعاودها مرة بعد اخرى ما وجد ان نفسه تشتهيها ، بدأ يكتشف ان الاوزة تبتعد ، وانها من هذه المسافة تنقره ، تسخر منه ، ولا تردد في ان تقول ، بكلمات واضحة ، انها توشك على الطيران بعيداً لتنضم الى سرب آخر ، ولتكتشف عالماً جديداً . لا تكتفي بذلك تعرف كيف تعامل سمير امامه بالذات ، كيف تدلله ، وتضحك للذات التي يروها ، واخيراً كيف ان الكلمات التي قالتها قبل فترة طويلة تعنيها ، وتعني شيئاً جديداً !

وراتب يتظاهر ان اللعبة لا تعنيه ، او انها نوع من الاستفزاز والاثارة ، ولا بد ان تنتهي كما بدأت ، بمجرد ان يغمز بعينه او يأتي باشارة ، لكن يكتشف يوماً بعد آخر ان اللعبة اكثر جدية مما قدر او مما يحتمل . يقول في نفسه « الرجل يستطيع ان يرضي الله ويرضي الشيطان معاً ، أما ان يرضي امرأتين فأمر مستحيل » ويتنظر ويتابع ، ويصبر ان لا ينسى .

الوحيد الذي دخل اللعبة نتيجة حسابات ، وكان متأكداً من حساباته ، هو سمير ! فموران وسلطانها وحكيمها ، وكل ما حملت ارضها او اظلت سماؤها ، لم تكن تعني له اكثر من : الاقامة الجبرية في منفى . صحيح انه هو الذي اختار هذا المنفى ، وانه سيبقى فيه بضع سنين ، لكن سيرجع ثرياً كبيراً لبدأ حياته من جديد . ونتيجة هذه القناعة ، غابت المرأة من مخيلته او كادت . واذا كان قد ارغم نفسه على ان ينساها خلال سني السجن ، لثلا يتعذب او يضيع ، فلم يكن يملك الامكانية لان يجعل احلامه حقيقة واقعة ، خاصة هنا ، في موران ، ولذلك واصل اللعبة ذاتها ، ليس عن عفة او عدم رغبة ، وانما « لان موران كلها تمارس العادة السرية ولا تمارس الجنس ، لان

ابي عبد الله في الحديقة فقد اجفلت ، ومثل قطة انسلت هاربة تاركة الباب نصف مفتوح ، لثلا يحدث اغلاقه صوتاً يوقظ الحكيم !

بغريزتها احست ان سمير الشخص الوحيد الذي يجعلها تستعيد راتب ، ولذلك ، ودون ان تتردد ، ودون ان تنتظر بدأت لعبتها . فبعد ان انتهت الحفلات الرسمية التي اقيمت لراتب ، وخلال شتاء ذلك العام ، اقترحت نظاماً للتزاور بين مجموعة من العائلات ، كان راتب اساسياً فيها ، وكان سمير ايضاً . وهذا النظام في تبادل الزيارات ما كان ليروق للحكيم لولا المقدمات التي سبقته . فسمير الذي ابدى تلك الشهامة ، وبقي في موران ذلك الصيف ، واعطى للحكيم جل وقته وخلاصة افكاره ، لم يرتفع بنظر الحكيم فحسب ، وانما اصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، وما كان هذا ليتم دون موافقة وداد ومشاركتها . واذا كان الحكيم قد خشي شيئاً فهو ان تعاودها الآلام الغامضة والكآبة فتتزلزل ثم تدخل في تلك الحلقة من الامراض والحزن ، وربما المشاكسة ، فتفسد عليه ما حضره وما استعد له ، لكن حين وجد ان سمير يغير الجو بمرحه وشبابه ، وليس مثل غيره من الضيوف ، وأن وداد لم تعد تنزعج من المناقشات التي تجري بينها ، فقد اعتبر نفسه محظوظاً الى اقصى حد ، واعتبر « ان قوة عليا ، غامضة وكلية ، هي التي تقود خطواته وتيسر له اداء رسالته » . ولذلك قدر لوداد هذا « النبل » واعتبر ان تضحياتها ونكرانها لذاتها لا يمكن ان ينسى ، وهذا ما جعله يوافق بانسداد على اقتراحها .

كان شتاء حافلاً مليئاً بالصواعق والرعود ، فالفتاة الصغيرة التي فرحت بالفستان الابيض الذي لبسته لأول مرة ، كعروس ، في موران ، وبدت مثل دمية وسط الاحتفالات والحفاوة ، والتي كانت تبدو مرتكبة خجولة لا تعرف كيف ترد على الاسئلة او كيف تتصرف ، ما انقضت على اقامتها بضعة شهور حتى سقطت فريسة للمرض . قال الحكيم : « عدم التكيف نتيجة الكآبة وضعف الشهية » . أما جارتها ، ام جميل ، فقد كانت متأكدة انه « وهم الحبل لكن دون حبل » وقد اعطتها نوعين من الادوية لمعالجة انتفاخ البطن والبدوار . وداد وحدها كانت تعرف العلة ، لكن لم تقل ذلك ، اذ بعد عدة سهرات

بعد بضعة ايام بعث الحكيم يطلبه ، ويلح ان يأتي وان يلقاه في تلك الليلة بالذات . اكّد السائق على ذلك بلهجة جازمة وباساليب عديدة . تأكد سمير ان منيته قد حانت ، وان العقاب الذي ينتظره سيكون شديداً ورادعاً ، لكي يؤدب « هؤلاء الوافدين » . أما عندما وصل الى قصر الحير بعد الغروب بقليل ، وكان خائفاً منها ، وتعنى في اعماقه لو انه لم يصل موران ولم يرها ، فقد وجد الحكيم على الشرفة بانتظاره ، وما كاد يراه ، وكان متحسباً قلقاً ، وعلى وجهه حالة من التجهّم والاستغراب ، وقد زادت هذه الحالة في شعوره بالانهاك ، وبكلمات مرتبكة اقرب الى التوسل القى سمير التحية ، لكن الحكيم لم يرد عليها وانما تقدم نحوه وقد زاد تجهمه ، وهو ينظر الى عينيه بتحديد . كاد سمير يتكلم ، ان يصرخ ان لا علاقة له بهذا الذي حصل ، وانه لم يفكر ولم يحاول ابداً ، لكن كلمات الحكيم الوجلة الخائفة جاءت في اللحظة الأخيرة :

- قلت لنفسي ان غيبتك ما هي طبيعية . .

- عيان . . يا سعادة البية ، عيان خالص .

خرجت الكلمات حزينة متوسلة ، وكأنها تطلب غفراناً ، او على الاقل تأجيل العقاب . امتدت يد الحكيم الى جبينه تجسه ما اذا كان حاراً ام لا . أما عندما ظهرت وداد من باب الشرفة بضحكة تملأ وجهها وبفستان سماوي ضيق قليلاً ، يبرز صدرها الفخور الشامخ ، وقالت وهي تقدم نحوه :

- طوّلت علينا يا استاذ سمير . . .

فقد تأكد عندئذ ان الظنون التي ملأته خلال الأيام الماضية مجرد اوهام . وعندما هرع الحكيم الى الداخل ليأتي بحقيبه الطبيه ، فقد قالت له وداد بما يشبه الهمس :

- ما لك حق تغيب هذي الغيبة الطويلة ، او زعلان منا ؟

وعلى المرجوحة في صدر الشرفة مُدّد سمير ، وقام الحكيم بفحصه بكثير من العناية ، لكن لم يتوصل الى نتيجة ، وقد زاد في حيرته الاعراض التي ذكرها سمير ، فاكتمى بان اعطاه قرصاً مهدئاً ، على ان يجري له فحوصاً

الجنس الآخر غير موجود » هكذا كان يقول ليقنع نفسه قبل ان يقنع أحداً ، وليلدل على ان المرأة غير موجودة ، او على الاقل لا يمكن الوصول اليها ، ولئلا يغرق في الاوهام والاحلام !

ولان المال هو الهدف الاساسي وربما اوحيد فقد صعّد ميوله كلها نحو هذا الهدف السامي ! أما بعد ان جاءت وداد لتحضر مناقشاته مع الحكيم ، ولتكون ربة بيت مضيافة ، فقد اعتبرها ديكوراً « في هذا الخراب الجميل » : يعني موران ومن فيها ، ولذلك فهذا الديكور يرطب الجو قليلاً يكسر وهج الشمس . وقد يمنع ايضاً سفّ الرمال .

لم تكن وداد صورة المرأة التي يتمناها او يشتهيها ، بكل تأكيد ، هكذا قال لنفسه ، ولذلك لم تثر فيه ، حين رآها اول مرة ، انفعالاً ، ثم في المرة الثانية لم تثر فيه شهوة ، خاصة وانها تحصنت وراء صمتها ، وكانت عيناها تتوهان في المدى دون ان تستقرا على شيء او على احد .

في المرات اللاحقة ، خاصة في الحفلات التي اقيمت لراتب ، او في تلك السهرات التي اصبحت تنعقد في قصر الحير او في بيت راتب ، وفي بيوت الاصدقاء الآخرين ، بدت له وداد امرأة مختلفة : اكثر شباباً واكثر فتنة . وانه يعني شيئاً بالنسبة لها . استغرب انه لم ير هذا الشباب وهذه الفتنة من قبل ، او لماذا كان غافلاً عن هذه النظرات المليئة بالشهوة والنداء . أما حين تحرّشت به اول مرة ، بان وضعت يدها فوق يده وضغطت ، فقد ارتبك ، بل وبدأ شاكاً من معنى تلك الحركات او انها تقصدها ، وراتب الذي التقط هذه الاشارات فوراً ، وفهم معناها وابتسم ، زاد في ارتبائه .

انقضت بضعة ايام على هذه السهرة ، كانت اطول ايام يعيشها سمير في موران ، وكان متأكداً خلالها ان الحكيم سيعرف ، وعندئذ لا بد ان يلقنه درساً لن ينساه في حياته كلها . لن يكتفي بان يلقي به في جب عمقه مائة ذراع من جباب موران ، وهناك ، وبعد ان يقضي سنين عديدة لا يرى خلالها نوراً او بشراً ، وبعد ان ينهكه المرض ، سوف يمسك به كما يمّسك بنار ، ويلقى خارج الحدود : فقيراً ، منبوذاً ، بعد ان يكون قد خسر صحته وشبابه . . . وأمواله .

اضافية اذا لم تتحسن حالته في الأيام القادمة . لكن قبل ان تنتهي تلك الليلة ، ومن خلال الاحاديث المرحة التي اسعفت الحكيم ، ثم من خلال العشاء الشهي الذي حضرته وداد ، استعاد سمير قوته وحيويته ، وبدا انساناً آخر . أما عندما قام مستأذناً بالانصراف ، فقد اقترح عليه الحكيم ، كوسيلة في الحيلة ولزيادة الاطمئنان ، ان يقضي الليلة ضيفاً عندهم ، لكنه اعتذر ، وأيدت وداد الاقتراح بكثير من الحماس ، وقالت انها ستعد له السرير خلال ثوان قليلة ، وفي محاولة لاقتناعه اشارت ان الحكيم سيكون قريباً . . اذا اقتضى الأمر وضحكت ، لكنه اصر على ان يغادر ، وازاء هذا الاصرار اصرا ، من جانبها ، ان يوصله بالسيارة ، « لان المشوار في هذه الليلة ، وموران نائمة ، سيكون جميلاً » .

في السيارة ، اكثر من مرة ، لامست يداها يده ، وقالت الايدي ، في تلك الليلة ما لم تقله الكلمات او العيون ، وبدا لسمير انه يسير في شارع له اتجاه واحد ، ولا بد ان يسير في هذا الشارع الى نهايته .

- حب واحك واكره واحك !

هكذا قال الحكيم لراتب ، وكان يهز رأسه بنوع من الاسف والحزن ، بعد ان استمع اليه طويلاً يحدّثه عن تغيير موقف سمير ، وعن بخله « وان الرجال لا يمكن ان يعرفوا الا بعد ان يجربوا » .

ولما خيم الصمت بين الاثنين اضاف وكأنه يحدّثه نفسه :

- بعد ان اختبرت الرجل ، بعد ان عرفته عن قرب ، فقد تغير موقفي منه ، اصبحت اقرب الى الشك وعدم الثقة .

ولما حاول الحكيم ان يذكره برأيه فيه اول وصوله الى موران رد راتب بنزق :

- الله يخليك يا حكيم ، وانت سيد العارفين : سبحان الذي لا يتغير .

وزفر بحرقة ثم اضاف :

- المال ، يا حكيم ، يقتل الراس ، والمنصب يغير . وشايف لك ان سمير تغير . أما شو اللي غيره فعلمي علمك !

رد الحكيم وهو يتسم ابتسامة واسعة :

- يا ابن الحلال . . اذا الرجال صمد له كم قرش فقل لي من في موران ما انظمر بالفلوس ؟ واذا المسألة مسألة مناصب فالرجال ما بنفسه لا منصب ولا ما يجزنون .

حول اهمية هذا العامل وتأثيره ، ليس فقط على سلوك الانسان الفرد وانما على الدول وعلى المجتمعات البشرية ايضاً ، لا يجد الوقت او القوة لكي يكتشفه بنفسه وعندها بالذات ، او لكي يمارسه كما يقول . ولا تعرف وداد كيف حفظت من سمير ، هذا الخلد ، كما يسميه زوجها مداعباً ، كلمة لم تفهمها جيداً لكن تحس باعماقها معناها . قال لها ذات ليلة ، بعد محاضرة كان يلقيها الحكيم عن الاخلاق ، وقد قام الحكيم ، مثل عادته كل ليلة ، وطال بقاؤه في الحمام ، قال لها : « من يتكلم بهذا المقدار عن العفة ليس لديه الوقت لممارستها او ليكون عفيفاً ! » .

الآن تريد ان تكتشف عبقرية الجسد ، ان تمتحنه لتستقرىء فيه كل ما يستطيع ان يقوله ، وبجموح يتجاوز كل حد .

راتب ما زال يؤرقها ، يخض دماها . بمجرد ان تراه تستفز ، يملؤها التحدي ، فتصبح كالبقعة التي يلوح لها بقطعة من اللحم او الجبن ، فلا يمكن بعدها ان تهدأ أو أن تستسلم . تشعر أنها محتاجة إليه ، تريده كل ليلة ، وبنفس الوقت تشعر تجاهه بالكراهية والنفور ، اذ ما تكاد تراه حتى تتبدد وتضيع ، تجد نفسها غير قادرة على النسيان او الغفران ، اكثر من ذلك تجد نفسها غير قادرة على ان تستسلم . يجب ان يأتي ، ان يركع ويتوسل ، وبعد ذلك ليذهب مرة اخرى . انها توافق على ان يفترقا . أما ان يبقى هكذا : واثقاً ، مكتفياً ، متعجرفاً ، وان لا يحس بوجودها الا كما يحس بوجود الآخرين ، فلن تغفر له ذلك ابداً !

ليست هي التي تفكر وتقرر ، جسدها وحده هو الذي يفيض الآن ، يطغى عليها ، يتجاوزها . والحكيم الذي يسف تلك الادوية ، ويبدو شاباً متألقاً في بعض الليالي ، لا يلبث ان يجبو ويتلاشى . لشد ما كانت تكره شخصه . كان يستفزها هذا الشخير الى درجة التحطيم . كانت تقضي ، في احيان كثيرة ، الليل بطوله ، في محاولة لان تنام وتغفو ، لكن ذلك الصوت الرتيب المتواصل المشحون بكل الثقة والطمأنينة يبدها ، يهداها ويولد لديها عصبية جامحة فلا تقوى على المقاومة او الانسحاب .

- انا اللي علي قلته يا حكيم ، ولولا معزتك عندي لا حكيت ولا طلع مني كلمة .

وبعد قليل وبحزن :

- ومع ذلك خل المسألة ببالك والأيام بينا يا حكيم !

تطلع اليه الحكيم بتوجس ، لان وثوقه هذه المرة تجاوز الحد المألوف .
سأله بارتياب :

- لك يا راتب خاف تكون سامع اشياء لا اعرفها ؟

وبعد قليل :

- ها سامع شيء ؟

- ابدأ ابدأ ، المسألة من اولها الى آخرها انه اصبح انساناً من نوع آخر ، غير ما عرفته !

سأله الحكيم بنوع من التحدي :

- طيب .. شورأيك لو حكمننا مطيع او حماد ؟

- يا سيدي ، الله يخليك ، المسألة من اولها الى آخرها لا تستاهل !

كان راتب يريد ان يبذر الشك ، ان يبعد سمير ، اكثر مما يريد ان يشير الى علاقته بوداد ، لانه ما زال واثقاً بقدرته على ان يستردها ، كما انه لم يصبح غريباً الى الدرجة التي يحتاج فيها الى مساعدة الآخرين لطرد هذا المنافس . تكفي هذه الاشارة الآن ، أما لو حاول اكثر من ذلك فربما استطاعت وداد ان تقنع زوجها انه وحده الذي حاول ان يتحرش بها ، وقد تولد من ذلك اشكالات ومنغصات هو في غنى عنها الآن ، خاصة في هذه الفترة المبكرة من زواجه .

ووداد .. هذه اللبوة التي اكتشفت جسدها في وقت متأخر ، والتي عرفت الحكيم حتى حرف الياء ، تريد الآن ان تعوض كل ما فاتها . فالذي يتحدث بهذا المقدار عن الجنس ، والذي يملأ سهراته مع الاصدقاء بتفاصيل لا تنتهي

وتستبد به النشوة فيضيف موضحاً :

- وكل ما كثرتم ، وكل ما غلّيتم انتم كرام ونحن مستاهلين !

لا يمكن ان يبدأ « الاقلاع » كما يتصوره وكما يتمناه الا حين يكون في منتهى الصفاء النفسي والعقلي ، وان لا يشغله العمل اليومي ، او ان يقطعها عما هو فيه . وكان يخطط ايضاً ان يكون الاقلاع قوياً صاعقاً لكي يرتفع ويخلق ، حتى اذا اخذ ارتفاعاً وتيرة فعندئذ لا يخاف ولا يتوقف .

كل يوم يلقي نظرة حانية على مجموعة الدفاتر التي رتبت بعناية ظاهرة على الطاولة الكبيرة قرب النافذة الغربية في الغرفة العليا . وفي عاولة لان « يشحن » نفسه لبدء العمل سَمَى تلك الغرفة « المحراب » وسمى الطاولة التي دهنت من جديد : « الصخرة » . أما الدفاتر السبعة الاولى فقد اطلق عليها اسماء ، بعد ان رقمها : الاول : الاستهلال ، وكتب بخط ثلث اعتنى به كثيراً : « بين يدي القارئ » . وكان الثاني : « تذكرة الاذكياء لمعرفة سر البقاء » . واطلق على الثالث : « سر الاسرار في معرفة تقلبات الليل والنهار » . واطلق على الرابع : « المختار من اخبار العصور الخوالي في معرفة الاوائل والتوالي » . أما الدفاتر الثلاثة الأخيرة فقد فتح فيها اقواساً ليدون الاسماء التي سوف يستقر عليها ، وظل متردداً بين عدة اسماء . ولم ينس ان يكتب بخط فيه تواضع : تأليف الدكتور صبحي المحملي ، وكاد يكتب النطاسي ، لكنه عدل . وفكر ان يستبدل لفظة الدكتور ، باعتبارها اجنبية ، بلنظ الحكيم ، وقد وجد في الكلمة الأخيرة وقعاً مؤثراً ، لانها تتجاوز كثيراً المعنى اللفظي الى معانٍ أخرى . أما الكتاب بمجموعه فكان يريد له اسماً مدوياً . ورغم انه فكر بعناوين عديدة فقد ظل متردداً ، وان كان اقربها الى نفسه : « الدستور عبر الدهور » ، ومع ذلك ظل حائراً ، لانه يريد ان يكون « المربع » ظاهراً او موجوداً في العنوان .

المشكلة الاساسية التي كانت تؤرقه : كيف يستطيع ان يتصرف لكي يحيم السلام على قصر الحير . ان ارضاء وداد وقناعتها ، ثم مشاركتها واخيراً السلام مع الآخرين هي الاركان الاربعة التي تقوم عليها النظرية ، ولذلك

اكثر من ذلك لا تعرف حقيقة شعورها نحوه : تحبه وتكرهه في آن واحد . تريده ولا تريده ، اذ بمقدار ما يمثل لها جواً من الطمأنينة والرضا ، تحسه بارداً بعيداً ، بل ومعادياً . حتى جسده لا يشبه الاجساد المتحابية المتلهفة ، وجوهه ليس مثل جو الآباء او العاجزين والمرضى ، انه حالة خاصة ، متفردة ، لا تعرف طبيعتها وجوهرها . اية هموم وافكار تملأ رأسه وتؤثر على جسده ؟ اية احلام ورغبات يريد الوصول اليها ؟ فكرت في ذلك طويلاً ، لكنها لم تصل الى اية نتيجة . المال ؟ لقد جمع من المال ما يكفي لان يحيا مرتين او اكثر ، لو كان يعرف كيف يحيا . السلطة ؟ انه الآن اكبر من الآخرين واقوى : « ظل السلطان » ، هو الذي يقرر نيابة عنه ، وهو الذي يفكر ويتصرف في كثير من الامور . هكذا قال لها في لحظات تجليه ، كان يشير الى ذلك بكثير من الفخر ، والتباهي . ثم فجأة ينسحب الى داخله ، تماماً كما تفعل السلحفاة ، فيصمت وينغلق وكأنه هاجر الى مكان قصي . تريد ان تعرف كيف يفكر وماذا يريد ، لكنها ، رغم السنين التي قضتها معه ، لم تستطع . وهذا الجو من الغموض يجعلها تضيق في متاهات لا تعرف كيف او الى اين يمكن ان تنتهي . في اماكن اخرى ، في اوقات اخرى ، كانت تعرف ان الدخول لا يكفيه ، او ان طرابلس ضاقت عليه ، او انه يريد ان يغير العيادة وأثاث البيت . هكذا كان يقول . أما بعد ان وصل الى السلطنة فإنها لم تعد تعرف كم يملك ، او كيف يفكر او ماذا يريد .

الحكيم في عالم آخر : « كيف يبدأ الاقلاع ؟ » هكذا يقول لنفسه ، ويؤجل القرار او البداية يوماً بعد آخر . اذ بعد ان جمع عدداً من الدفاتر الجلدية الانيقة ، ولم يترك احداً من معارفه الذين سافروا خلال تلك الفترة الا وردد امامه نفس الكلمات :

- لا تتعبوا انفسكم بحمل الهدايا ، كل ما اريده : مجموعة من الدفاتر الراقية ، دفاتر كتابة ، والاحسن ان تكون مجلدة وكبيرة ، والاحسن ان يكون لكل واحد منها لون يختلف عن لون الآخر .

ويضحك بقهقهة عالية ويضيف :

- واذا طبشتوها : قلم باركر او شفرز !

على رجل فيجب ان يعرف مفاتيحه ، والمرأة التي يجب لا تعتبر مجرد مفتاح عادي ، وانما هي مفتاح عام (Masterkey) تفتح ابوابه كلها وتختصر المسافات ، ووداد التي يخاف الحكيم من صمتها ويرتعب من غضبها وعزلتها يمكن ان تجعلني غنياً خلال فترة اقصر ، وسوف تساعدني على ان اغادر هذه المدينة القاتلة ! .. واذا مرّ طيف راتب في مخيلته قال بنزق : « ابن الايه والايه ما يسبب الناس في حالها ؟ ما يسببها عايشة ما دام هو نايم على احلى بطن في موران ؟ » .

حرص اشد الحرص ان لا تمرض ، الاتعزل ، اما اذا بدأت مشاكستها او اذا اثقل عليه الآخرون بالواجبات والهموم فعندئذ سوف يؤجل مشروعه الى وقت آخر .

ويستغرب الحكيم ان سميماً لم يكن عنصر مثاقفة فقط وانما عنصر طمأنينة ايضاً ، ووداد تحس بالرضا لوجوده ولعلاقته به ، وقد فسر الأمر « ان كل امرأة لديها شكوك حول علاقة زوجها بنساء اخريات ، ولا يمكن ان تطمئن او ان تتخلى عن شكوكها الا اذا وثقت بصديق زوجها » ولذلك فان من جملة المزاي التي يتمتع بها سمير هذه الصفة ايضاً ، وقد تأكدت تماماً من خلال المناقشات التي تجري بين الاثنين ، وكانت تستمع اليها بكثير من الانتباه والمتابعة !

اما سمير الذي لم يلتفت ، اول الأمر ، الى نظرات ووداد او لم يستطع تفسيرها ، ثم وقع في ذلك الارتباك الذي جعله مريضاً وخائفاً لبضعة ايام ، بعد ان غارزته بوضوح وعلى مرأى من راتب ، اذ قرصته من يده وضحكت ، ثم وضعت يدها فوق يده اكثر من مرة ، فقد تأكد تماماً من موقفها ودعوتها بعد ان اوصلته بالسيارة تلك الليلة هي والحكيم .

لم يكن بحاجة الى اكثر من هذه الاشارات ليبدأ . صحيح ان ووداد قد تجاوزت الخامسة والثلاثين ، وبدا جسدها ممتكاً او اقرب الى السمنة ، لكن تلك العناية التي توليها لنفسها ، تجعلها تبدو اصغر سناً . ولان موران مدينة الاشباح ، بحيث لا يمكن لانسان ان يرى المرأة او ان يصلها ، فقد لجأ سمير الى تصعيد ميوله او الى اجازات طويلة ، بحجة العمل ، في اماكن عديدة ، وخلال تلك الاجازات الى بيروت والقاهرة ، وسافر اكثر من مرة الى اثينا وروما ، كان « ينتقم ويتزود » كما كان يقول لنفسه !

الآن ووداد تقتحم عالمه ، وبعد ان تأكد من جبروتها ومدى تعلق الحكيم بها ، فقد امتلأ رغبة في ان يدخل هذه التجربة . قال لنفسه : « المرأة الثرية لا تكبر مثل المرأة الفقيرة ، ولا بد ان تكون شهية وممتعة ، خاصة في موران الزفت » . ويتوه في افكار واحلام غنية ولذيذة : « اذا اراد الانسان ان يسيطر

اضطرتها الى مغادرة الغرفة لتأوي الى فراشها ، تاركة اياه الى « صفات الشياطين ومخاطبة الارواح » .

والحكيم الذي حرص منذ وقت مبكر ان يكون « مثل الجوزة المغلقة » ، هكذا يصف نفسه ، لا يريد ان يبوح باساره الى اقرب الناس اليه ، لقناعته ان « السرّ اذا تجاوز اثنين ذاع » . ونتيجة لهذه القناعة كان يفكر ويحلم واخيراً يقرر بشكل منفرد . أما اذا اراد ان يمتحن صحة موقف من المواقف ، او ان يحسم في قضية اشكلت عليه ، فكثيراً ما لجأ الى احدى طريقتين او الى الطريقتين معاً : كان يفتعل مناقشة او يثير مجموعة من التساؤلات ، وغالباً ما يكون لها علاقة بالقضية التي تشغله ، وخطوة بعد اخرى يدفع المناقشة الى اسئلة يمكن من خلال الاجابة عنها ان يقيس وان يقرر . أما الطريقة الثانية فهي ان يقيس « الهوى » في نفسه ، وهو مولع بهذه الكلمة ويصر على استعمالها ، فاذا وجد انه يميل الى شيء بذاته فلا بد ان يجتنبه . لقد اقتنع بهذه الطريقة منذ سن الشباب ، ولا يعرف كيف او لماذا ، وكثيراً ما ردد امام مطيع او امام اصدقاء آخرين ، عبارة بذاتها ، خاصة اذا التبست الامور : « اذا اشكل عليك امران فانظر ايها اقرب الى نفسك واجتنبه ! » .

هكذا كان الحكيم في اموره كلها ، أما في قضايا الفكر وفلسفة الكون ، بشكل خاص ، فكان الامر اكثر دقة وتعقيداً ، لانه اذا امكن للذين حوله ان يفهموا ويشاركوا في القضايا اليومية والعملية ، فانهم في امور الفلسفة لا يستطيعون مجرد ادراك مقاصده ، ولا ينتظر منهم بالتالي اية مشاركة ، فهم اضعف من ان يقدروا مدى الحرقه الداخلية التي تلتهب في اعماقه ، واقل احساساً باهمية هذه الموضوعات وخطورتها . ولذلك كان يفضل ان يبلور افكاره بمعزل عنهم ، فاذا التمعت فكرة في رأسه ورآها تقربه من الوصول الى « النظرية » سجلها بكثير من السعادة ، لكن في حالات اخرى ، وبعد ان يقضي الساعات الطويلة مفكراً متأملاً ويستعصي عليه الوصول الى اية نتيجة ، فكان يعزو ذلك الى جو موران « الخبيث » والذي « يبخر الافكار ويبدها لحرارته او للغبار الكثيف الذي يهب في معظم اوقات السنة » . او يتذرع بكثرة المشاغل وتزايد المسؤوليات ، والتي « تسرقه » عن التفكير في الامور التي يحبها .

رغم زحمة المشاكل التي تشغل الحكيم ، فان قضايا الفكر وفلسفة الكون لا ينساها ، لانه : « منذور لشأن اكبر من موران ، وابتعد من الأيام التي يقضيها الانسان على وجه البسيطة » . وهذه القضايا كثيراً ما شغلته ، بل وجعلته يشعر بالنعاسة ، لانه لا يوليها ما تستحق من وقت واهتمام . ولذلك قرر ، بعد ان رتب الكثير من الامور ، ان يصرف جزءاً من لياليه مفكراً متأملاً بالقضايا الكبرى . كان يقضي الساعات في حالة من التأمل العميق ، تصل حدود الدهول ، وفي محاولة للوصول الى البؤرة ، كما يُسمى النقطة التي يركز عليها تفكيره ، كان يغلق عينيه ويقطب حاجبيه ، ثم يتخيل هذه النقطة بالذات ، وما يكاد يصل الى نتيجة او الى فكرة ، حتى يدونها بسرعة وبطريقته الخاصة ، كأن يكتب : « مراقبة الرياح ، عبر الفصول ، ضرورة كبرى ، لانها تؤكد صحة النظرية » او يكتب : « الكتيبان الرملية ، في صحراء موران ، تأخذ الشكل الهلالي ، لان الرياح تجري من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وهذا برهان على صحة النظرية » او يكتب : « تقاطع ضوئين من مكانين مختلفين يؤدي الى اربعة » ، ويكتب اخيراً وهو يضحك ، ويشعر باللذة : « الجماع يتم وفق نظرية المربع » !

كان مثل هذه التأملات او الكتابات بمقدار ما تريحه وتخلق لديه الغبطة ، تخلق توتراً وحزناً لدى وداد ، اذ اضافة الى انها لا تفهم معنى الكلمات التي يدونها ، فانها تعتبرها مضیعة للوقت ، ولا تليق بانسان مثله . أما لحظات الصمت الطويلة التي يغرق فيها خلال السهرات ، فقد كانت تثيرها وكثيراً ما

كان يروق للحكيم ان يتكلم في هذه الاجتماعات عن « فلسفة الاعلام »
لا عن الاعلام كعمل يومي . ماذا تريد موران من الاعلام ، وكيف تحققه ؟
« كيف يكون الاعلام في خدمة القضايا الكبرى ؟ » « كيف يمكن للاعلام ان
يعيد خلق البشر ؟ » وسمير الذي كان يظهر تجاوباً واضحاً في هذه المناقشات ،
اذ يقدم افكاراً « لتعميق الحوار وبلورته » ، كان يقابله مطيع الذي يريد ان
يبحث الهموم اليومية وكيفية التغلب عليها . وكثيراً ما حاول ان يضع حداً
« للقضايا الكبرى والبحث في القضايا الصغرى » كما كان يقول مازحاً ،
ويطرح ما يتطلبه العمل . كان من شأن ذلك ان يزجج الحكيم « لانه يقطع
عليه سلسلة افكاره ويسقطه من اعلى عليين الى الدرك الاسفل نتيجة ادخاله في
اليومي » .

ولان هذه الحالة تكررت مرات كثيرة ، وقد سماها سمير ذات يوم
« تمرينات عقلية » قبل الشروع في مناقشة القضايا الاخرى المطروحة ،
والوصول الى حلول لها ، فقد تفتق ذهن الحكيم عن حل مثالي : « يوم
للرب ، ويوم للقلب ؛ يوم للقضايا العملية ويوم لقضايا الفكر » . وهكذا
تحول اجتماع ليلة الخميس الى مناقشة « القضايا الكبرى » ، حسب تعبير
الحكيم ، وهذا الاجتماع الذي كان يدخل الملل على المشاركين فيه ، ولم
يكونوا متحمسين للمناقشة او ابداء الرأي ، ما لبث ان اخذ نسفاً جديداً ، اذ
اصبح مقصوداً على اثنين فقط : الحكيم وسمير ، وبدل ان يتم في القصر او في
مقر جريدة البادية انتقل الى قصر الحير .

بدت هذه الصيغة للحكيم مريحة ومثالية ، فان يكون في بيته يشعر
بطمأنينة اكبر ، وان يكون وحيداً مع سمير يكتشف ان عقله يتوقد وانه اكثر
ذكاء من اماكن اخرى . أما عندما تبدأ تلك المناقشات الخصبية حول « الدوافع »
او حول « القوى الخفية » في الانسان ، ويتذكر الحكيم بعض المقالات التي
قرأها في شبابه ، ثم ما اضافت له دراسة الطب ، خاصة حين كان في
النمسا ، ويستعرض افكاره والنتائج التي توصل اليها ، فإنه كان يحس بالزهو
والتألق ، اكثر من ذلك يحس انه اقترب كثيراً من «لقاء القبض على النظرية
وليس على افكار فقط » .

الآن ، بعد ان رتب اموره وشعر بالثقة والاستقرار ، يجد نفسه اكثر ميلاً
لبلورة افكاره ، خاصة وانه اكتشف في سمير ليس مجرد صحفي كفو ، وانما
« خدن له وللقضايا الكبرى » ، فبعد المناقشات التي جرت بين الاثنين ،
ولان الفلسفة كانت دراسة سمير في الجامعة ، ثم موضوع اهتمامه ، فقد تبين
للحكيم ان القضايا المعلقة او المؤجلة يمكن ان تجد حلولها . طبيعي لن
يكاشف سمير صراحة ، ولن يطلب منه ، على الاقل في هذه المرحلة ، ان
يشارك مشاركة مباشرة ، لكن يمكن للمناقشات ان تحرض فكره اولاً ، ويمكن
ان تحفز بعد ذلك على ان يدون افكاره بوضوح اكثر من السابق .

ادرك سمير ، منذ الاسابيع الاولى ، الميل الفلسفي ، لدى الحكيم ،
لكن اعتبره ضرباً من اللغو الفارغ ، لانه لا يستند الى اساس ، ولا يدل على
ألمعية من اي نوع ، بل هو اقرب الى الاستعراض من اي شيء آخر ، تماماً كما
تحفظ سيدات المجتمع مجموعة من التعابير لكي تسلي الواحدة منهن ضيوفها ،
او كما يفعل بعض الثقلاء حين يحفظون عدداً من النكات ليقنموا الآخرين
بخفة دمهم !

هكذا كانت حقيقة تقديرات سمير ، لكنه لم يبح بها ، فما دام مرتبطاً
بالحكيم ، ولان الحكيم « عقل » موران ، وأحد رجالها النافذين ، فهو
بحاجة اليه ، ليس مجرد الحاجة فقط ، بل يعتبره طريقه الى القوة والثروة ،
ولذلك عليه ان يجاريه في هذا الهذر الذي يروق له ، وان يستمع ويظهر اقتناعه
بكل ما يقوله ، فهو بهذه الطريقة يستطيع ان يثبت اقدامه ، ويقرب اكثر مما
يريد .

لعبة مثيرة حافلة في جانب ، ومملة وغيبية في جانب آخر ، لكن الاثنين
يقبلان عليها بكثير من الحماس والرغبة الظاهرة . ومثلما خصص الحكيم
صباح كل سبت لاجتماع لجنة الأمن والسلامة من اجل تقدير الموقف ، فقد
خصص ليلتين ، الاثنين والخميس ، من كل اسبوع ، لقضايا الفكر
والاعلام . هكذا اطلق على هذين الاجتماعين ، وكانا يضممان الحكيم ومطيع
بالاضافة الى سمير وبعض العاملين في اجهزة الاعلام ، وقد انضم الى هذه
الاجتماعات في وقت لاحق ممثل عن جهاز الأمن والسلامة .

وفراسته صائبة ، « لكن حماد بطيء الفهم وعقله محدود » ويضيف لنفسه وهو يضحك : « المراكز الدنيا والوسطى هي الأقوى » . أما سعيد فلا يمكن اعتباره صديقاً أو موثقاً ، بل هو عدو محتمل ، « لان المراكز مختلفة ، غير منضبطة ، وغير متساوية من حيث التأثير » . أما مطيع « فإنه قريب ، والقراية ترتب ضرائب ، وهذه الضرائب يجب ان تؤدى » ويهز رأسه ثم يتابع بثقة : « ومع ذلك فانه لا يخرج عن شوري ولا يتصرف دون الرجوع الي » .

ويستعرض الحكيم في ذاكرته شخصيات اخرى واشخاصاً آخرين عرفهم او مروا في حياته ، ويتوقف من جديد عند سمير ، يقول لنفسه : « مثل هذا الخلد لا يجد الانسان : قط من خشب : يصيد ولا يأكل ، يسلي ويحلي ويأكل ويحلي » ومع ذلك يجب ان لا يبالغ في اظهار حبه او اعجابه به ، لان « الحب الهادى هو الحب الدائم . وهو الحب الاقوى » .

وسمير ، بعد تجارب وخيبات قديمة ، يعرف لماذا جاء الى موران وماذا يريد : « الصدفة خلقت هذه الثروة ، والصدفة هي التي دفعتني الى هنا ، ولولا ذلك لظللت بعيداً ، ولظلت موران ، بالنسبة الي ، نسياً منسياً ، قبيلة تائهة في هذه الصحراء غير المحدودة ، لكن ما دمت قد جئت ، وما دام لي دور ، وقادراً ، فيجب ان استفيد من كل شيء والى اقصى حد ، لانها فترة محدودة ، قصيرة ، عابرة ، ولا يمكن ان تتكرر ايضاً . ليس لدي وهم من اي نوع ، ولا يمكن ان اتق او اتوقع » .

وحيث ينظر حواليه يقول لنفسه بحزن « لا يمكن للانسان ان يتفاهم مع هؤلاء البدومها قدم من تنازلات ، انهم حيوانات صحراوية ، ويتصرفون بخصائص لا يمكن ان يتنازلوا عنها ابداً ، ومن الجنون ان افكر بالتكيف معهم . يمكن ان اضحك عليهم ، ان امازحهم ، لكن نبقي عالين » وحين يتذكر حماد ومالك وآخرين يزفر ويحدث نفسه : « واصبحوا معقدين بعد ان جاءتهم الثروة بشكل مفاجيء ودون استحقاق . كل واحد منهم يتصور نفسه رباً من الارباب ، ويفهم كل شيء ، لذلك من العبث مناقشتهم او التفاهم معهم حول اية قضية ، انهم اعند من الصخر » وحين تمر صورة الحكيم في مخيلته يبتسم « مغرور وثأفه ، يتصور نفسه انه قادر وقوي ، لكن في الحقيقة

ومن اجل اصفاء الحميمية الكاملة على هذه اللقاءات كان الحكيم يتبسط كثيراً في الحديث عن نفسه ، حين كان طفلاً ثم حين اصبح شاباً . أما دراسته في المانيا والنمسا فقد تحدث عنها مرات عديدة وبافاضة ، ولفرط ما كرر قصصاً بذاتها فقد حفظها سمير تماماً ، لكنه دائماً كان يبدي دهشته واعجابه وكأنه يسمعها لأول مرة ، وهذه الطريقة في الاصغاء والاستجابة كانت تدخل السرور الى قلب الحكيم وتجعله في احيان كثيرة مرحاً .

ذات مرة ، عندما تحدث عن ايام قديمة ، ايام الشباب واول سنين ممارسته الطب ، وكان يتحدث ، ربما للمرة الثالثة او الرابعة ، كيف ترك طرابلس الى حلب ، فقد قال سمير بلهجة جادة ، لكن مرحة ايضاً :

- اسمح لي ان اقول لك يا سعادة اليه ان حياة سيادتك من الغنى الى درجة يجب ان تكتب ، لتكون قدوة للاجيال القادمة .

والحكيم الذي سر من هذه الملاحظة لم يعلق ، لكن الفكرة راقت له جداً ، اذ لم يفكر في الامر تفكيراً واضحاً متكاملأ . صحيح أنها خطرت له في اوقات سابقة ، وفي محاولة لرفع مستوى الجرائد والمجلات في السلطنة ، ان يساهم فيها ، وان يكتب حول نظريته او حول تجاربه وحياته ، الا ان هذه الخواطر لم تدم طويلاً ولم تتبلور ، لان « النظرية يجب ان تظهر كاملة ، وبمستوى النخبة ، لا ان ترمط على صفحات الجرائد والمجلات امام الصعاليك والسوقة » ، أما الكتابة عن حياته وتجاربه فقد وجدها مبكرة . الآن وسمير يطرح الفكرة تضح حياته في ذاكرته وتنتصب بايامها ولياليها كما لو انه يراها تتكون امام ناظريه . لكن في لحظة قال ليقنع نفسه « كل شيء في وقته حلوا » .

هذه اللقاءات كانت بداية لعلاقة من نمط جديد بين سمير والحكيم ، علاقة حميمة ومتكافئة ، لان الحكيم الذي يشعر تجاه الآخرين بمشاعر متباينة ، وبعض الاحيان غامضة او متناقضة ، يجد تعويضه مع هذا الانسان « مثلما البطون تحتاج الى الغذاء فان العقول تحتاج الى الغذاء ايضاً ، وقد تكون حاجة العقول اكثر من حاجة البطون ، لكن اكثر الناس لا يدرك ذلك ، خاصة في موران » فالعلاقة بحماد تشعره بنوع من الرضا ، لان تعليمه اجدى

« مهنته » اوصلته الى موران وادخلته الى قلب السلطان ، فتوهم القوة ، مثل بالون ، ويمكن ان ينتهي في لحظة ، خاصة من الناحية السياسية ، لكن مع ذلك يجب التفاهم معه او على الاقل مجاملته . أما اوهام الفلسفة والقضايا الكبرى فانها اكاذيب ، يحلوه ان يلعب بها كما يحلوا لاغلب الرجال ان يلعبوا مع النساء ، متوهمين ، في لحظات معينة ، انهم اصبحوا محبوبين ومرغوبين ، وبالتالي قادرين على السيطرة ، لكن عندما تنتهي الليلة ، عندما تنتهي الشدة ، يكتشفون كم كانوا واهمين ومخدوعين ، ويجزنون انهم خدعوا بهذا المقدار .

ويتذكر حياته الماضية ، فيهبز رأسه دلالة التصميم « انا لست مستعداً ان اكرر تجاربي واخطائي . اعرف الآن من اكون ، وماذا استطيع . . وكيف . هذه الاسئلة التي تعلمتها في الجامعة ، وكانت تبدو لي في ذلك الوقت بسيطة الى اقصى حد ، هي الآن الاسئلة الصعبة والمشوقة ، واجدها اليوم في منتهى الحكمة .

على هامش المناقشات « المعمقة » التي اجراها الحكيم مع سمير ، اشار بشكل عرضي الى ان لديه نظرية يريد ان « ينصرف الى تدوينها ونشرها بين الناس لتعم الفائدة » و اشار ايضاً الى انه بهذا الدافع اضطر الى مراجعة اعداد كبيرة من الكتب القديمة ، وتعمد اجراء الحوارات الذاكرة مع ذوي الاختصاص ، وانه دون في دفتر خاص ، سماه « الخرطوش » الكثير من الافكار التي توصل اليها والاستشهادات والتضمينات التي توضح أفكاره .

ولا يعرف الحكيم كيف خطرت له ايضاً فكرة ان يوصي على عباءة سوداء ليلبسها اثناء العمل ، خاصة وانه سيبدأ التدوين في مطلع العام ، فترة البرد في موران . اكثر من ذلك تراءت له فكرة العباءة السوداء ضرورية للغاية ، لانها تشبه ملابس القضاة او الرهبان ، وهو في عمله سيكون قاضياً ويصدر احكامه الكلية والحاسمة ، وسيكون راهباً ايضاً في محراب الفكر وفاء للنذر الذي قطعه على نفسه باخراج نظرية المربع الى الناس .

تبدت الصورة واضحة لسمير ، رغم حذر الحكيم وعدم كشفه لاوراقه . كلها ، فوجد الامر من الطرافة والتغيير بحيث يجعله يتغلب على صعوبة الحياة في موران ، فبدأ يلعب اللعبة : اتى للحكيم بعدد من الكتب ، ووضع الاشارات على الكثير من النصوص ، ودخل معه في مناقشات فرعية كثيرة ، وفي لحظة توهج ومزاج مرح لم يتردد في ان يطلق على الحكيم تسمية : المعلم الرئيس ، تشبيهاً له بابن سينا . أما عندما اطلعه الحكيم على العنوان المقترح

ان يكتب قبل الاستهلال كلمة يشير فيها الى انه انجز تدوين الكتاب وهو «نزيل موران» وفي عهد السلطان خزعل، لكن لم يتوقف عند هذه الفكرة طويلاً، لانه لم يحب في حياته كلمة نزيل، فهي تذكره بنزلاء السجون والمصححات العقلية؛ ولانه لا يريد ان «ينشر نفسه على حبل، ويقول للقاصي والداني انه ليس مورانياً، او انه مجرد ضيف في موران».

قرر اخيراً، حسماً لهذا القلق، ولكي ينصرف الى «المتون لا الى الحواشي» ان يوافق على اهدائه الى السلطان. «اعرف انه لا يستحق هذه الدرة، لكنه مثل كل الملوك والرؤساء يجب ان يكون مركز الاستقطاب والاهتمام، لكي ينظر اليه الجميع ويتصوره الجميع عبقرى زمانه، مع انه لا يساوي نكلة. وعلى الانسان ان يضحك على هؤلاء الملوك والرؤساء وان يدغدغ سخافاتهم بكلمة، وهذه الكلمة ستكون جواز المرور، فاذا ملك الانسان الجواز وصل الى النجوم» وتراءى له الاهداء مكتوباً بماء الذهب، على الصفحة الاولى، والسلطان ينظر الى تلك الكلمات المذهبة ويرى اسمه كالقمر يلمع وسط النجوم، عندها لا بد ان يغدق عليه اكثر مما اغدق على اي انسان، ويأمر بتوزيع الكتاب في كل مكان، وبين عشية وضحاها يصبح الكتاب بين ايدي الناس يقرأونه ويحفظون نصوصاً منه، والذين لا يعرفون القراءة يمسكون باولادهم او اقربائهم المتعلمين ويطلبون ان يقرأوا لهم بضع صفحات من هذا السفر، لكي يحفظوا منه مقاطع يرددونها كما يرددون القرآن او كما يحفظون ابيات الشعر التي يحبونها. اكثر من ذلك تراءى له الكتاب يترجم الى عدد كبير من اللغات الاجنبية، ويصدر في عواصم عديدة في وقت واحد، ويكون موضع اهتمام الصحافة والاذاعات والجامعات، ويُدرس بعناية من قبل الدوائر المسؤولة، ليس باعتباره كتاباً هاماً فحسب وانما لانه من اعداد شخصية مرموقة، ولانه يمثل سياسة وفكر سلطنة موران في الحاضر والمستقبل، ولذلك يجب ان يُعنى بكل كلمة، وان يتم التوقف عند كل جملة، اذ بدون ذلك لا يمكن فهم سياسة موران او الفكر الذي يوجه كل خطوة من خطواتها وكل موقف من مواقفها.

وفكر ان تكون اللغة الالمانية اولى اللغات التي يجب ان يترجم اليها

للكتاب، وبعد فترة صمت وتأمل، فقد ارتأى سمير اضافة عنوان فرعي، واقترح عنواناً مؤقتاً: «الناموس الاساسي في الفكر السياسي لابي غزوان الحكيم النطاسي: صبحي المحملجي الطرابلسي».

هذه الامور جعلت الحكيم في حيرة، فسا يقوله الرجل يتسم بمقدار كبير من الجدية، والمعونة التي يقدمها مخلصه، لا يتطرق اليها الشك ابداً؛ حتى الاقتراح بان يستمر في المناقشة، رغم تقدم الليل في كثير من الاحيان، وموافقة سمير ان ينام في قصر الحير، كل ذلك جعل الحكيم ميالاً الى اعتباره جاداً ويعني كل كلمة يقوها وكل موقف يتخذه. اما ان يقارنه بابن سينا، في هذا الوقت المبكر، وقبل ان ينشر نظريته بين الناس، ففيه شيء من المبالغة، لكنها نتيجة المحبة وليس نتيجة سوء النية. قال الحكيم ليقنع نفسه: «قل لي بماذا تفكر اقول لك من انت، والرجل لا بد ادرك ما افكر فيه وما انوي عمله!».

بهذه الطريقة اكتملت الحلقة او كادت. فخيم على قصر الحير نوع من الرضا، لان الحكيم يوشك على الانتهاء من استعداداته وينتظر مطلع العام لكي يبدأ، ومع ذلك ظل مشوشاً قليلاً، خاصة حين راودته فكرة اهداء الكتاب الى السلطان. فقد بدت له اهمية الكتاب، في لحظات معينة، تفوق كثيراً الشخص او الفترة التي يعيش فيها والناس الذين حوله، اياً كان مستواهم، ولا يعرف كيف عن له «مالي الدنيا وشاغل الناس، المتنبى»، لا بل سيطر عليه، قال لنفسه في لحظة انفعال: «من هو هذا القزم الأعرج، كافور ومن سيتذكر هذا الاسود الذي الذي كان مشغره نصفه لولا أبو الطيب؟» وبدا اكثر ميالاً أن لا يكون الاهداء الى السلطان، «انه مجرد انسان عادي، ولولا المشورة التي تقدم اليه لما استطاع شيئاً».

لكنه لا يستطيع ايضاً ان يتجاهله، ان يمر على الموضوع هكذا دون الاشارة اليه او دون ذكره. فكر ان تكون في نهاية المقدمة اشارة الى السلطان، لكن تخوف من هذه الفكرة، اذ «قد يأتي اخوان السوء، وبعد قراءة الكتاب، بما فيه المقدمة، لا بد وان يقولوا للسلطان ان لا ذكر له في كتاب من مئات الصفحات الا في ذيل صفحة من صفحاته، عندها تبدأ المشاكل! وفكر

انسان ان يقرأه ويخرج بنتيجة . ووداد التي فهمت ولم تفهم ، لم يكن سؤالها يتجاوز ابداء الاهتمام واشعاره انها معه ، وكان هذا يكفيه .

وفي غمرة الاستعداد للافلاق كُتفت المناقشات وأُعطِي لها نسق عملي ، ففي كل ليلة من خريف ذلك العام ، كان الحكيم يحدد موضوعاً للمناقشة ، وكثيراً ما يكون بيتاً من الشعر او حكمة ، ويسميه الاستهلال ، حتى اذا اشبعاه بحثاً وشرحاً ، وتوصل منه الى نتيجة يعتبرها مرضية قام بتسجيلها ، ولا يتردد في ان يعيد تلاوة ما سجله على مسامع سمير ، وكان يسمي هذه النتيجة « القفلة » .

وداد تحضر جزءاً من هذه المناقشات . كانت تسمع بصمت وتنقل نظراتها بين الرجلين ، لكن اغلب الاحيان لا تسمع ما يقولانه . فاذا ملّت من هذه الاحاديث فلا تلبث ان تنسحب لتوجه الخدم او لتساعدهم في اعداد العشاء ، فاذا انتهت دعتهما الى المائدة . وعلى مائدة العشاء يأخذ الحديث نسقاً آخر : يصبح خفيفاً ، ناعماً ، طريفاً ، والعادة ان يشارك فيه الجميع ، وكان هذا يسعد الحكيم ويجعله في حالة من النشوة ، فاذا تساءلت وداد في نهاية العشاء ما اذا كانا سيواصلان ، يرد سمير بمرح :
- على مزاج الحكيم وحسب اوامره .

ويقهقه الحكيم فرحاً كطفل ، اذ لا يتصور ان كرمأ مثل هذا لا يزال موجوداً بين الناس ، فيعلن بحماسة كبيرة رغبته في ان يواصل العمل ساعة او ساعتين « من اجل الوصول الى قفلة او اثنتين » . أما وداد التي تستعد لتركها ، بعد ان تكون قد امتلأت نشوة ، فانها تكرر الرجاء ذاته .

- لا اريد ان اوصيكم : الانسان يحتاج الى الراحة والنوم . . ايضاً !

وتضحك بغنج ثم تضيف :

- ولا تظلموا ارواحكم !

يطمئنهما الحكيم ، مؤكداً لها « ان الافكار جاهزة ولن اتعب سمير او اطيل عليه » فترجوه بهمس اقرب الى الحياء « ان لا يشعل النور لكي لا يوقظها » ويبسّم ويهز رأسه دلالة الموافقة !

الكتاب ، لأنها اولاً لغة الفلسفة ، وثانياً لان الامان اكثر من غيرهم استعداداً لفهم الافكار العميقة والذكية . وبعد ان يترجم لا بد ان يبعث بنسخة الى تلك العجوز التي سكن عندها وتصرفت معه بتلك الطريقة الفظة ، دون ان تظن لحظة واحدة « ان الرجل الذي طرده من بيتها سيكون بهذه الهمية وبهذه القوة » . ربما لا تزال تلك العجوز حية الى الآن ، وقد تشتري بنفسها الكتاب ، لكن مع ذلك يجب ان يرسل اليها نسخة ، مع كلمة وتحية ، سيكون لها درساً ، وقد تندم ؛ « لكن هيهات ان تنفع الندامة » . أما اذا ماتت فان ورثتها سوف يستلمون الكتاب وسوف يتداولونه ، وبعدما يقرأونه ويعجبون به ، سيكون « ضيف كل سهرة ، وسوف يقدمونه لاصدقائهم ويذكرون لهم ان الكاتب عاش في هذه الغرفة ، وفي هذا البيت بالذات ، ولا بد ان يشيروا اين كان ينام واين كان يدرس » .

وفكر لو انه يتجاوز النظام القاسي الذي فرضه على نفسه ، او الوقت الذي حدده لبدء « التدوين » وان يشرع فوراً . « اذ ما الفرق ان ابدأ الآن او في اي وقت آخر ؟ من سيحاسبني ومن سيكلف نفسه دراسة هذه القضية بالذات ؟ » لكنه عاد وقرر « ان يكون العمل ضمن نسق واضح ، وان يخضع لنظام لا يجيد عنه » لان النظام في رأيه جزء من النظرية ، ولا بد ان يتقيد بكل التفاصيل لكي يصل الى النتيجة التي يريد .

هكذا راودته الافكار والمخاوف ، وهكذا اعتراه التردد والقلق ، لكنه مع ذلك استطاع ان يتوصل الى حلول اعتبرها مناسبة ، وارجأ قضايا معينة لكي يفكر فيها اكثر من قبل .

وداد كانت ملكة الخريف كله ، بايامه ولياليه ، ثم الشتاء الذي تلاه ، فما كادت تدخل التحدي حتى بدت اكثر فتوة واكثر اشراقاً . اضفت على الحكيم جواً من العناية ، وسألته باهتمام عن المدة اللازمة من اجل انجاز كتابه ، وما اذا كان ذلك الكتاب قصة ام شيئاً آخر ، وسألته ايضاً اذا كانت قادرة على ان تقرأه وان تفهمه ، والحكيم الذي اغتبط لهذا الجو واعتبره فالأ حسناً ، شرح لها بكثير من التبسط ان الكتاب يمكن اعتباره كل شيء « سيكون كتاباً جامعاً ، فيه قصص التاريخ وقصص الاقدمين ، وفيه الحكمة والشعر . ويمكن لكل

وكأنه ملك كل شيء . أكثر من ذلك وجدت أن سمير ، بشكله وسنه وطريقته في التصرف « يختلف كثيراً عن هؤلاء التجار » .

ودون خوف او تردد ، وبعض الاحيان بتحدٍ ظاهر ، اقرب الى السخرية ، اصبح سمير واحداً من الناس الذين لا يفارقون قصر الخير . وهذه الصيغة في العلاقة جعلت الحكيم يفترض ان بإمكانه ان يكشفه بنظرية المربع ، اكثر من ذلك فكر لو انها يشتركان معاً في صياغتها . لكن اعتبر الامر سابقاً لاوانه ، وربما فيه بعض الخفة « ليأت الاقتراح منه . اذا اقترح سوف يعطيني من امور كثيرة ، يمكن ان املي عليه ويكتب ، او اودعه افكاري فيتولى صياغتها » لكن فجأة امتلاً بالقلق « غداً . عندما تصدر النظرية ، لا بد ان يقول الحساد : ان سمير قيضر ابوها وامها ، هو صاحب الفكرة وهو الذي كتبها ، ولا يعدو دور الحكيم الزخرفة ، وربما وضع اسمه ليستفيد او ليروج الكتاب » ولذلك صرف النظر ، بكثير من الحزن ، عن هذا الاقتراح .

راتب الذي كانت عيناه كعيني الذئب لا تحفى عليه صغيرة او كبيرة ، قال للحكيم ذات يوم :

- يا حكيم . . لا احد يحضر الدب الى كرمه !

ويتطلع اليه الحكيم باستغراب ودهشة ، ويسأل :

- شوقصة الدب والكرم . . يا راتب ؟

- سمير . . يا ابو غزوان .

- شوقصة سمير ؟ وليس انت تارك كل الناس وما عندك الا سمير ؟

- يا حكيم ، ما ظل حداً الا وحكى ، يقولون : لبخله ترك بيته وعاش براس الحكيم !

- يا راتب كلام الناس كثير ، والي يسمع كلام الناس يدوخ .

- بس يا حكيم الأخ زادها كثير .

- يا سيدي ، بصراحة ، انا اللي ماسكه ، انا اللي يستفيد منه .

وبكثير من الارتباك والتداخل شرح الحكيم لراتب ان لديه مشروعاً

وفي رطوبة الساعات الأخيرة من الليل ، ومع النسيمات الرخية ، وبعد ان تطمئن وداد ان الحكيم انزلق الى فراشه كالقط ، وغرق في ملكوته الابدي ، تنسل . كانت وهي تنحدر الى الطابق السفلي ، تبدو كالثعبان في هذا السكون الذي لا يقطعها سوى شخير الحكيم ، ومثل الاحلام الجميلة المعطرة ، او كالحوانات الاليفة التي تعرف كيف تداعب اصحابها ، وكيف تدخل الى اعماق قلوبهم ، ودون ان يحس سمير متى دخلت او كيف . تنزلق في الفراش الى جانبه .

ساعات حافلة من المتعة والخوف معاً ، وهذا الخوف بالذات يحول كل حركة وكل لمسة الى كهرباء صاعقة ، فلا يتذكر اي منها انه عاش لذة كهذه من قبل ، او ان لذة مثل هذه يمكن للانسان ان يصلها او ان يدركها ، حتى اذا تبددت الظلمة أو كادت ، وبدأت الأشكال والأشياء في غبش الفجر تبين ، لكن دون وضوح ، وسمعت اصوات العصافير ، تتحرك وداد ، لكن دون رغبة ، ايذاناً ان ليلة اخرى على وشك ان تنتهي . كانت في حالات كثيرة ، بعد هذه الحركة المؤذنة بالرحيل ، تلقي بنفسها عليه مرة اخرى ، تحتضنه ، تقبله وكأنها لا تنوي ترك الفراش ابداً . وهو الذي يشعر بالارتواء يمتلىء بالرغبة ، فتصبح استجابته اضعف ورغبته اقل ، حتى اذا تسللت تاركة الباب نصف مفتوح قام فاغلقه وغرق في النوم .

في الصباح ، والحكيم يتناول افطاره على الشرفة الخارجية ، ان كان النهار مشمساً ، يوصي الخدم بكثير من الحرص ان لا ترتفع اصواتهم وان لا يحدثوا اية ضجة ، « لان الاستاذ نائم ، ولا بد ان يكون قد تعب من سهر الليلة الفائتة » . أما وداد التي تتأخر ، مثل عاداتها ، فانها تبقى في الفراش ، او تشغل نفسها باشيائها الخاصة ، وتظل هكذا الى الظهر تقريباً ، الى حين عودة سلمى من المدرسة .

تكررت مثل هذه الليالي كثيراً ، ووداد التي كانت مندفعة بتأثير الغيرة ورغبة في التحدي أول الامر ، ما لبثت ان شعرت بسخف راتب وتفاهته : « جبان . لا يعرف سوى المال ، ولا يختلف عن الحكيم بشيء ، حتى الشكل ، بعد ان تزوج ، اصبح اقرب الى السمنة ، ويبدو راضياً عن نفسه

كتاباً كبيراً ، وذكره بالكتب التي اوصاه عليها خلال زيارته السابقة الى موران ، وكيف ان هذا المشروع لا يقتصر باهميته وتأثيره على موران وحدها ، ولا يقتصر على الفترة الحالية ، وإنما يتجاوزهما إلى المنطقة كلها ، والى فترة زمنية طويلة . كما اشار الحكيم بكثير من المراة الى الاضطرابات التي تعصف بالعالم ، وان السبب فيها عدم وجود « علماء اكفاء يتصدون لصياغة الافكار من اجل حماية الاخلاق والدين والوطن » وبطريقة غامضة ، وفيها شيء من التواضع ، اشار الى انه يتصدى لهذه المهمة ، وان سمير الوحيد الذي يمكن ان يساعده .

ومثل المرة الاولى اجل راتب معركته انتظاراً لظروف أفضل!

بعد ان اصبح حماد شخصاً مهماً في موران ، ويتردد اسمه همساً بين الكثيرين ، بدا الامر غريباً لعمه شداد . لما التقى به بعد شهور طويلة ، سأله بسحرية :

- يا وُل ، يا حماد ، قبل سنتين ، لما سألتك وين تشتغل قلت لي بالقصر ، مشاور للسلطان ، وهاالحين اشوفك تهفي ، كل يوم بديرة ، وكأن السلطان ما يريد شورك !

وضحك بصوت عالٍ ، ثم تابع :

- علم عمك الصحيح ، يا حماد ، انت مشاور سلطاناً ام مشاور غيره ؟

ابتسم حماد ولم يجب . التفت شداد الى الذين يسمعون :

- خلوا ببالكم يا جماعة : حماد مثل ما قالوا جماعتنا : اذا نوى ما يعلم بطاريه ، ويظن ان الناس ما تعرف ، لكن يروح يوم ويحي يوم وكل شي يظهر .. وبعدها ويش يقول ؟

- يا عم اللي تشوفه عينك : يقول السلطان : سافر ، اسافر . يقول السلطان : سو ، اسوي . يقول السلطان : اجلس ، اجلس . وانت تظن ان ورا كل سفرة فرس ، لكن هذا ما هو بصحيح !

هكذا رد حماد مداعباً ، وفهمت كلماته بأكثر من شكل . وعمه الذي هز رأسه موافقاً قرر أن يعرف بطريقته الخاصة .

بالحدس ، اول الأمر ، ما لبث ان بدأ يعي نتائج كل موقف وكل خطوة ، خاصة وان زيارته العديدة الى الولايات المتحدة افادته كثيراً ، ثم جاءت نصائح مركز الابحاث والتقارير التي قدمها لتحديد له عملياً ما يجب ان يعمل ، واخيراً المناقشات الخصبة التي كانت تجري بينه وبين مساعديه ، خاصة من الاميركيين ، وبعض الاحيان بوجود مستشار السفارة ، باول اندورز ، وقد ادت كلها الى نتائج حاسمة ومفيدة .

الآن والحكيم يبدي هذا الخوف كله من « الرياح الحمراء » ، كما يسمي الافكار والحركات التي تسري في المنطقة ، ويصبح عصبياً نزقاً وهو يطلب من حماد ان « يتخذ الاجراءات المشددة من اجل اجتثاث هذا الميكروب قبل ان يصبح مرضاً مستوطناً ، مثل الكوليرا والبلهارسيا والتراخوما » ويرفض ايضاً ان تسرف موران في اعتماد اسلوب الهدايا والعطايا ، هذا الموقف الذي تقبله حماد بنوع من « التفهم » والرضا ، اثار في نفسه تساؤلات وافكاراً كان يحاول ان يبعدها او ان يمورها خلال الفترات السابقة ، لكنها تنبثق الآن من جديد : لماذا يبدو الحكيم متشدداً قاسياً تجاه « الوافدين » كما يسميهم ، ويجعلهم كلهم في سلة واحدة ؟ ولماذا يبدي هذا الحرص كله لموران والسلطنة اكثر من اهل موران واكثر من السلطان ذاته ! المال . . . هل اذا دفعت موران هنا وهناك ، وكما تريد وليس كما يطلب الآخرون ، يعتبر امراً زائداً ؟

رغم النصائح التي تكررت كثيراً ان لا ينفعل ، ان لا يقول « نعم » نهائية ، او « لا » نهائية ، وان لا يقرأ على وجهه اي موقف ، فانه يجد نفسه غير قادر على السكوت او الاحتمال . قال للحكيم بسخرية مبطنه :

- تذكر يا ابو غزوان : نشف ريقنا الى ان خالصنا من مالك ابو كزلك - وقد اطلق عليه الحكيم هذه التسمية لانه كان يحار باستعمال نظارتيه - كنا نقول له ادفع يقول ما عندي فلوس ؛ واليوم بعد ما خالصنا منه ، وبعدها انعم الله على السلطنة بهذا الخير ، واذا اعطينا هنا وهنا فحنا اللي نكسب ، ومن زمان جماعتنا قالوا : اللي يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه .

توقف قليلاً ، تنفس بعمق ثم اضاف :

لم يتغير حماد على اهله واصدقائه فقط ، تغير على نفسه ايضاً . فبعد ان كانت موران المدينة ، وليس موران السلطنة ، عالمه الذي يدور فيه ، واذا تجاوزه فانه لا يفعل ذلك الا الى البادية القريبة ، عدا سفرات قليلة رافق خلالها القوافل ، لكنه لم يواصل سفره الى المحطات الأخيرة ، حيث وصلت تلك القوافل ، فانه الآن ، ويوماً بعد آخر ، تستبد به هواية اكتشاف العالم فيقبل عليها بكثير من الرغبة والشوق ، ويمارسها بطريقته الخاصة ايضاً . والاميركيون الذين اشاروا عليه بان يقلل من ظهوره في الاماكن العامة ، وان ينتحل اسماً مستعاراً في بعض اسفاره ، من قبيل الحيطه ، وان يُبقي تحت تصرفه مبالغ من المال جاهزة ، لكي يتصرف بها عند الضرورة بشكل مباشر ، وهون الرجوع الى احد ، او دون المرور باشخاص آخرين ، هذه الافكار والاقتراحات راقته له الى أقصى حد ، وبدأ عقله يتفنن في اختراع الاسماء والالقاب ، كما جهّز لنفسه مجموعة من جوازات السفر باسماء وهيئات مختلفة ، حتى انه لا يتمالك نفسه من القهقهة بصوت عالٍ اذا نظر الى الصور الملصقة على الجوازات ، خاصة حين يتذكر متى وكيف التقطت له هذه الصور . أما المبالغ المالية التي كانت تحت تصرفه ، فقد اقتطع قسماً منها ووضعها في الخزانة الحديدية ، التي يحتفظ فيها ايضاً بعدد من المسدسات وجوازات سفر جاهزة للاستعمال في اية لحظة ، بعد ان توضع عليها الصور وتدون الاسماء .

الشخص الوحيد ، او من الاشخاص القلائل ، الذي لم يلاحظ على حماد تغيراً مهماً هو الحكيم ، واذا لاحظ ذلك التحسن المستمر والذي كان نتيجة الاندماج بالعمل الى حد الهوس ، والذي رافقه اكتساب خبرات تزيد بمرور الأيام ، مع مرونة عزائها الحكيم الى الجهد الذي بذله في تدريبه وصلته ، ثم جاءت السفرات لتوسع مداركه وتزيد وعيه .

ومثلها تفاعل الحكيم باختيار حماد ، تفاعل ايضاً بالتقدم الذي حققه ، وهذا سهّل وعجل في ان يترك له معالجة الكثير من الامور دون تدخل ، ثم في استغلال الجهاز بعد ذلك .

لقد حصل هذا دون اعلان ودون قرارات ، وحصل ، عملياً ، قبل ان يقرر الحكيم التنازل عن بعض الصلاحيات . وحماد الذي فعل ذلك

- وظني يا ابو غزوان انه اذا صرفنا كم قرش هنا وهناك نخلص من الشتائم اللي تسمعها صبح وعشية . ونخلص من الفتن ومن السلاح اللسي يحطوه تحت الحمل ويعبرون به الحدود لحين ما يجي وقت ويرفعونه بوجهنا .

وانخفض صوته حتى كاد لا يسمع :

- ومثل ما قالوا : شبع البطن تستحي العين .

ولم يقتنع الحكيم ، ظل مصراً على رأيه ، ولم ينتظر حماد موافقته لكي يتحرك ، او لينفذ ما يدور في رأسه ، لكن دون ان يطلعه على شيء ايضاً . وفي جو الحركة والانفعال ، ومن المنافسة المكتومة ، ولان اموراً كثيرة جدت خلال هذه الفترة ، ان مثل هذه المناقشات لم يتكرر، كما لم تظهر اية خلافات بوجهات النظر ، خاصة وان الحكيم استغرقت افكار وهموم جديدة .

« زوجني قريبته ويريد وحده يكون عمي . . لكنه متوهم وغلطان » هكذا قال حماد لنفسه ، وهو يتذكر ابتسامة الحكيم الساخرة ، بعد ان سألته عن رضائي والآخريين ، وكيف لم يقل له عن الاعمال الجديدة والمشاريع التي سينفذها .

ليس هذا اول سوء تفاهم يقع بين الاثنين ، فقد سبق ذلك ايضاً الاختلاف حول السياسة التي يجب اتباعها في المنطقة ، وحول علاقات جهاز الأمن والسلامة بالاجهزة الاخرى . واذا كان حماد قد تعلم دروساً خلال السنوات الماضية ، فلعل اول وأهم هذه الدروس : الصمت ، وحسن الاستماع . لا يتكلم اذا لم يُسأل ، واذا سئل يجيب باختصار شديد ، ولولا تلك الابتسامة التي تسبق الاجابة ، او ترافقها ، وغالباً ما تملأ وجهه ، او تشكل قناعاً لهذا الوجه ، لأسيء فهم موقفه واجاباته .

تعلم الصمت واتقنه ، بعد ان رأى الكثير وسمع الكثير : كل واحد من الذين حوله لا يلذ له شيء اكثر من ان يتحدث عن الآخرين . كان حماد يعتبر ان المعلومات التي تقال هامة وطريفة في آن واحد ، وكان يعتبر ايضاً انها ستكون مفيدة ذات يوم ، ولذلك اخذ يحتفظ بها !

الحكيم ، من جانبه ، افترض أن الخدمة التي قدمها لحماد بتعيينه في هذا الجهاز ، ستجعله تابعاً وخاضعاً له تماماً ، ولذلك تعامل معه ، منذ الأيام الاولى ، بطريقة متعالية ، واخذ يستعرض امامه كل ما يعرفه ، لا من اجل أن

« الكوشان » التسجيل مجموعة من العناصر تبُلِّغه بحركة الاراضي وعمليات البيع والشراء التي تتم في موران وخارجها ، وكان لديه أيضاً بعض العاملين في مجال التوسط ، وعدد من التجار . أما ما قاله لعمه ان الارض مثل اية تجارة اخرى ، عرضة للربح او الخسارة ، فكان يهدف الى ان يهدئه ويسترضيه اكثر مما يريد اقتاعه .

ويتذكر حماد تلك القصة التي حدثه عنها سعيد منذ وقت مبكر ، وكيف تصرف الحكيم بخصوص بعض عقاراته ، خاصة مستشفى الشفاء التي كانت له في حران ، فبعد أن سخر الكثيرون ، حين بنيت في ذلك المكان النائي ، وظنوها في البداية ابنية تابعة للشركة ، أما بعد ان تجاوزها البناء ، واصبحت اقرب الى وسط المدينة ، وكان يفترض بالاراضي المحيطة بها ان تصبح حدائق ، كما قال الحكيم ، الا انه لم يتردد ، بعد اقل من سنتين ، وبعد ان زرع قسماً منها ، في ان يفصلها عن المستشفى . فصلها بسور نصفه الاسفل من الاسمنت والنصف الاعلى من الاسلاك ، على ان يشرع ببناء مجموعة من الدكاكين ، الا ان ضرورة انتقاله الى موران حملته على الابطاء في مواصلة البناء ثم ايقافه ، فلم ينجز بناء سوى الاساسات . أما عندما اشترت الدولة المستشفى ، وتقرر شق طريق الى الغرب ، وكان من المقرر لهذا الشارع ان يمر في ارض الحكيم ، واضطرت الدولة لشراء الاراضي والتعويض على اصحابها ، فقد قال الحكيم كلمة بين المزاح والجد ، لكنها وحدها التي نَفَذت .

سأل رئيس لجنة الاستملاك :

- هل تريدون الارض غرب المستشفى ؟

- القسم الاكبر ضمن مخطط شارع السلطان ، ولا بد من استملاكها .

- وابنية السوق المركزي ؟

- السوق المركزي ؟

- كل شيء انتهى : المخططات ، الخرائط ، الاساسات ... وبين يوم والثاني يكون السوق قائم .

يعلمه ، وانما ليثبت له جهله وقلة درايته . وحماد الذي « انعبط » خلال الفترة الاولى ، وهو يستمع الى الحكيم يتجول في انحاء العالم ، ويتحدث عن امور كثيرة ومعقدة ، ما لبث ان اكتشف عدم جدوى اكثر الامور التي يتحدث عنها ، لان « الحكيم لا يعرف اقرب الاشياء واقرب الناس اليه » ، وقد تأكد من ذلك نتيجة وقائع كثيرة .

لم يقتصر الأمر على ذلك ، كان يلذ للحكيم ، حتى وقت متأخر ، الحديث عن بداية تكوين جهاز الامن ، فقط ليذكر حماد بافضاله عليه واهميته بالنسبة له . حتى اللهجة الابوية التي كان يستعملها السلطان ، حين يطلب شيئاً او ينبه الى شيء ، وكان حماد يستمع بكثير من الرضا والموافقة ، اغرت الحكيم ، وكان شديد الكلف بها ، بل واخذ يستعملها ايضاً ، الأمر الذي يثير حماد الى اقصى حد ، بل ويجعله نزقاً ، لكن كان يداري الاثارة والنزق بالتحمل والصمت ، الى ان اصبح عادة .

بالمقابل لم يذكر حماد ، ولم يشر مجرد الاشارة الى المنافع الكبيرة التي حققها للحكيم اول مرة ثم في المرة الثانية ، حين كان وسيطاً بينه وبين عمه راشد ، ثم عمه شداد ، والحكيم نفسه لم يعد الى تذكر هذه الامور ابداً . اكثر من ذلك حين طلب راشد المطوع ان يلتقي بالحكيم ليتفاوض معه على ما له من ارض الحصيبة ، او بالاحرى ما تبقى لآل المطوع منها ، فقد ابدى الحكيم استغرابه لطلب راشد المطوع ورغبته في لقائه . قال لحماد بتساؤل اقرب الى السخرية :

- الارض اللي يحكي عنها عمك ، يا حماد ، ما لها قيمة ، وانا بعت

الارض اللي اشتريتها منه بخسارة . لكن ، من اجلك ، يمكن ان اساعده ، يمكن ان اجده له مشترياً !

ولما هز حماد كتفيه بعدم اهتمام لان الامر لا يعنيه تابع :

- واذا كان يريد بيع الارض جنوب المسابيل يمكن ان نحكي وان

نتفاهم !

لم يكن حماد بحاجة الى من يقول له ما اذا كانت تلك الارض ، او

غيرها ، بيعت ام لا ، وبكم بيعت ومن اشترها ، فقد كانت له في دائرة

الحكيم ، اذ يستجيب ، ظاهرياً ، لكل ما يقوله ، لكن لا يفعل الا ما يريد .
عندما اخذت العلاقات بين الرجلين منحى دقيقاً ، خاصة اثر التفاوت او
الاختلاف حول علاقات سلطنة موران مع الدول المحيطة ، برزت فكرة زواج
نادية . تذكرها الحكيم حين تذكر بدري ، ودون انتظار طويل ودون تردد ،
وبعد ان هيا لها جيداً ، كلف مطيع ان يفتح حماد . وحماد الذي فوجيء
بالفكرة راق له وبدت طريفة ايضاً ، وربما كانت طرفتها ، في جانب منها على
الاقبل ، مستمدة من وداد ذاتها ، اذ كانت تبدو له جذابة مليئة بالانوثة
والحيوية ، وما كادت تتدخل بطريقتها الخاصة حتى تمت الموافقة وبعدها
الزواج ، وقد استغرق ذلك كله فترة قصيرة جداً . أما بعد ان انقضى شهر
العسل ، وقد قضاه العروسان في الولايات المتحدة ، فقد امتلأ حماد شكاً ان
يكون الزواج فخاً يريد الحكيم ان يصطاده به من جديد ، ولذلك ، وبعد ان
انتهت الحفلات التي اقيمت على شرف العروسين ، اتخذ موقفاً فيه الكثير من
المهارة : اغدق الهدايا على نادية ، وادعى كثرة العمل من ناحية ثانية ، الامر
الذي يجعله غير قادر على تلبية الكثير من الدعوات او حضور السهرات ،
ولذلك بدأت تتباعد لقاءاته بالحكيم ، بدأت بالتدرج ، لكن باصرار ، ثم
اخذت تتباعد اكثر .

وبكثير من الصبر والدأب استطاع ان يكسب نادوية ، واستطاع ان يقنع
الحكيم بعلاقات من نوع جديد .

وشيئاً فشيئاً اصبح الحكيم لا يعني لحماد سوى شيء ثانوي ، حتى افكاره
وتحليلاته تبدو له سخيقة ، اقرب الى الهذر ، ومليئة بالاحلام ، فهي لا تعتمد
على اية معلومات ، اكثر من ذلك انها مليئة بالنفاق والتلفيق . يجتبر بمكر بدائي
هو السلطان ، ما يحب وما يكره ، وما يرغب ان يقال له ، ويغزل على هذا
النول ، دون ان يكلف نفسه عناء التدقيق بين ما قاله امس وما يقوله اليوم ،
ولذلك لم يعد يعاب حماد بتحليلاته او اقتراحاته ، كان يتركه يتكلم كما يشاء .
هز رأسه لما يقوله دلالة الاقتناع والموافقة ، لكن يمتليء تصميماً ايضاً على مخالفة
كل كلمة . حتى الاجتماعات الاسبوعية ثم الشهرية التي كانت تشغل القصر
في المرحلة الأولى لتكوين جهاز الأمن والسلامة ما لبثت ان فقدت اهميتها

- الشارع لازم يمشي يا حكيم .
- والتعويض ؟
- نعوض عن الارض .
- والبناء ؟
- البناء ، مثل ما تشوف عينك ، شبر عن الارض !
ضحك الحكيم ونظر بتحديد الى عيني رئيس اللجنة وسأله :
- لو فرضنا ان الاستملاك تأخر شهراً او شهرين وقام البناء ، ماذا
تفعلون ؟

- نشترى ونهدم ونفتح الشارع .
- وتدفعون عن البناء والهدم وترحيل المواد ؟
- اي نعم !
- واذا خالصناكم من الهدم والترحيل ، اما تقولون لنا الله يعطيكم العافية
ويكثر خيركم ؟
- نقول .

- ادفعوا عن هذا وذاك والله يبارك لكم !

ورئيس اللجنة الذي بدت له الفكرة مشوقة ، طلب من الحكيم ان يؤجل
اتخاذ القرار ، أما بعد ان تشاور مع آخرين ، واستأذن الامير ، والذي اتصل
بدوره بموران ، فقد تمت الموافقة على دفع التعويض عن الارض والهدم وترحيل
المواد !

كان يكفي حماد ان تكون له صلة بسعيد فقط ليعرف ادق الاسرار واكثرها
خفاء . أما حين قامت صلة بجميع الذين يحيطون بالحكيم ، بمن فيهم رضوان
وابو عبد الله ، وبخادمة تساعد زوجته ، فانه يعرف عنه اكثر مما ينبغي ،
ولذلك اكتشف منذ وقت مبكر نقاط ضعفه « وهواياته » وماذا يملك واين ،
وان تظاهر انه لا يعرف عنه اي شيء ، اكثر من ذلك بدأ يلعب بمكر مع

اثناء احدى زيارته ، وحين جرى الحديث عن الحكيم « رجل ثرثار »
وضحكوا ، ثم اضافوا « وهو ، في كل الاحوال ، غير مؤذ ، ويمكن ان يكون
مفيداً في المستقبل » .

الآن ، بعد ان ملك الحكيم مساحات كبيرة من الاراضي في موران
وحولها ، اضافة الى ما يملكه في حران ، وقد سجل هذه الاراضي باسماء اولاده
وزوجته ، ولم يسجل باسمه سوى قصر الحير ، والارض التي اشتراها اول
وصوله الى موران ، وبدأت تلك المضاربات ، وارتفعت نتيجة لها الاسعار ،
ثم دخل مع بعض الامراء ، يشتري ويبيع ، اضافة الى ذلك البيوت العديدة
في بيروت والجبل وطرابلس ودمشق ، وبين فترة استراحة واخرى يهذي بأفكار
ومشاريع كتب يريد ان يفرغ لكتابتها ، فقد تأكد حماد « ان الرجل يفهم
بالسياسة مثل ما انا افهم بالطب » وان كل ما يقوله او يفعله ستار لا شياء
اخرى ، خاصة بعد اختلافه مع سعيد ، ثم بداية اختلافه مع راتب ، « أما
ذلك المنحوت من قصب » ، يقصد سمير ، « فما عنده حلال او حرام ، يفني
بالطالعة وبالنازلة وما يرف له جفن » .

كان يمكن لحماد ان لا يرى الكثير من الامور ، او ان ينساها حتى لو
رآها ، لكن « اصدقاء الحكيم واقرباءه لا يسهون ولا ينسون » ، فما يكاد يمر
يوم الا وواحد منهم في وجه حماد : « يا سعادة البية ، دا راجل مجنون ، مجنون
خالص ، بفكر باختراع نظرية جديدة للعالم ، نظرية المربع ، سمعت حاجة زي
كدا يا بيه ؟ » ويصمت سمير قليلاً ثم يضيف : « وعزيزي اكتبها له ، دا راجل
عيبط لان اللي عنده نظرية لازم يكتبها بنفسه ، والا ايه يا بيه ؟ » ويأتي مطيع
« انا وياك اصحاب ، يا ابو راشد ، والا لا حكيت ولا شكيت : الحكيم صاير
رجل لا يطاق ، لا يهيمه الا نفسه ، خرب علاقاته مع الناس كلهم ، وآخر
شيء راح تخرب بينه وبين راتب ، لان ابن قيصر صار الحاكم النهائي في قصر
الحير ، والحكيم لا يعمل اي شيء بدون شوره » وراتب يتكلم ولا يتكلم :
« والله يا اخ حماد كان وضعي في مرسلها عال العال ، وكانت حياتي في بيروت
ماشية تمام ، لكن الخاح الحكيم ، رسائله وبرقيات ، وكلها تؤكد على ضرورة
مجيئي اليوم قبل بكرة . فلما وصلت نسييني ، لا علم ولا خبر ، حاط عقله

بتغيب السلطان مرة بعد اخرى ، ثم بذلك الاستعراض الاقرب الى الزهو
الذي يمارسه الحكيم على مجموعة من المساعدين والموظفين الذين يستدعيهم لا
لكي يسمع منهم وانما ليلقنهم دروساً خائبة في سياسة ليس لها وجود في اي
وقت او في اي مكان !

في وقت لاحق ، ولم يطل هذا الوقت كثيراً ، اثر اكتشاف محاولة لاغتيال
السلطان ، وقد تابع حماد المحاولة بنفسه ، وعرف تفاصيلها كاملة ، قدمها
هدية للسلطان ، دون ان يدري احد ، خاصة الحكيم ، ونتيجة ذلك قامت
علاقة خاصة بالسلطان ، وخصصت للجهاز اموال طائلة يتصرف بها بالشكل
الذي يراه مناسباً ، ودون الرجوع الى اية جهة :

كان حماد بحاجة الى هذه الثقة بالذات ، وبحاجة الى هذه الاموال لكي
يتحرك ، فما كادت تمر بضعة شهور ، ويبدى السلطان عدم رغبته بحضور
الاجتماعات الشهرية لجهاز الأمن والسلامة ، حتى بدأ حماد يفعل مثله . بدأ
يختار ، اول الامر ، اسفاره في فترة انعقاد هذه الاجتماعات ، ثم لم يتردد بعد
ذلك عن الاعتذار ، بحجة وجود اشغال طارئة وهامة ، مكتفياً بايفاد نائبه او
احد المسؤولين لديه في الجهاز . والحكيم الذي اعتبر السفر حجة مقبولة ، او
كما كان يسميها : « القوة القاهرة » ، ما لبث ان تعود على اسفار حماد او على غيابه
قال له حماد ، ذات مرة ، رداً على استفساراته :

- المهم ، يا ابو غزوان ، ان يكون احد مسؤولي الجهاز .

وابتسم ابتسامة عريضة واطاف :

- الا اذا اردت تأجيل الاجتماعات مرة بعد مرة ، او ان ألغي السفر!

- المهم ان نكون في الصورة ، على صلة بالمعلومات ..

- ابشر يا ابو غزوان . ما يحضر احد من الجهاز الا وعنده كل المعلومات ،

وراح اشرف بنفسه .

وهكذا انتهت ، او كادت ، علاقة العمل المباشرة بين حماد والحكيم ،
خاصة بعد الزيارتين اللتين قام بها الحكيم الى الولايات المتحدة . قالوا لحماد

تحت ابدنا الف شغلة وشغلة .

وقبل ان يخرج راتب من مكتبه ، اتصل حماد بمدير تموين القوات المسلحة ، وطلب اليه « ان يقدم كل مساعدة للسيد راتب القتال ، اخونا وصديقنا ، لانه يستأهل » .

ولم تمض ثلاثة ايام حتى اصبحت الشركة الشرقية للمواد الغذائية مسؤولة عن تأمين الاعاشة لحامية موران ! مع رجاء قاله حماد لراتب واصر عليه :

- هذا الموضوع بيني وبينك يا اخ راتب ، ورجاء ان لا يعرف ابو غزوان ، لانه لا يرتاح لتدخل الاجهزة بالقضايا التجارية ، ولا يجب ان تسمى الاشياء عليه !

وراتب الذي غمز بعينه رد وهو يسلم على حماد بحرارة :

- ولا يهملك ، يا ابو راشد ، وهذه المساعدة لن انسأها ، ولا بد ان تنقذنا .
- بسيطة . . اذا ظلينا على صلة ، كل شيء ينحل وتصير الامور احسن .
لم يعد حماد مديناً لاحد ، ولم يظهر انه دائن لاحد ايضاً . ظل بنفس الابتسامة التي تميزه دائماً ، وظل بنفس الود ، لكن الشيء الوحيد الذي تغير انه غالباً لم يعد موجوداً في المكتب اذا اراده احد منهم ؛ كان سكرتيره عبد المولى شديد المودة والتهذيب « ابو راشد سافر قبل يومين ولم يبلغنا بموعد رجوعه » « ابو راشد طُلب إلى القصر » « ابو راشد في اجتماع طارئ . . ولا يُعرف موعد انتهاء الاجتماع ! » .

ويتصل حماد بمن اتصل به مرة وينسى مرة اخرى ، ولان الكثيرين لا يحتملون التأجيل او الانتظار ، ولان لدى حماد الكثير من المساعدين فقد كلف بعضهم ان يستقبل « الاصدقاء » وان يتحدث معهم ، « أما القضايا الخاصة ، القضايا التي تحتمل التأجيل ، فاننا بمجرد ما افرغ سوف نلتقي ونتحدث » وهكذا قيلت اشياء كثيرة لبعض المساعدين ، وأجلت اخرى ، لكن بدا يتضح ان حماد اصبح هاماً وصديقاً يمكن الوثوق به ، ويمكن الاعتماد عليه عند الحاجة ، هكذا قال كل واحد من اصدقاء الحكيم لنفسه ، ولم يقله للحكيم او لاحد آخر !

بعقل هذا اللي اسمه سمير وطول الليل والنهار : لت وعجن ، قال راح يطلع كتاب ، كتاب بعشر مجلدات ، بعشرين مجلد « بصمت قليلاً ثم يضيف : « عصفورية يا ابو راشد ، مستشفى مجانيين تماماً ! » .

وحماذ يستمع ، يستغرب ، يصمت ، لكنه في النهاية يريد هذه المعلومات ، لا بد ان تفيده في وقت من الأوقات ، لأنها تثبت له أي رجل هو الحكيم ، واي مساعدين واقرباء له ، ومتى يجد الوقت ليفكر بالكتابة ؟ وهذه النظرية التي يتحدث عنها سمير ، اي نوع من النظريات ؟ ماذا تعني ولن ستوجه ، وماذا ستكون نتائجها في النهاية ؟
ولكي يواصل حماد لعبته ، وضع مبلغاً في ظرف ، ووضع الظرف في جيب سمير ، وقال له وهو يتسم ابتسامة كبيرة :

- رجاء المعذرة ، يا استاذ سمير ، هدية صغيرة !

وحين ابدى سمير « اعتراضه » تابع حماد :

- موران ، يا استاذ سمير ، صارت غالية ، ولا بد ان تكون للانسان موارد اضافية !
وبعد قليل :

- وبين الاصدقاء ما في هذه الشكليات او الاعتبارات !

وقبل سمير المبلغ « بصعوبة » ، واستمر على زيارة حماد اسبوعياً ؛ أما مطيع فقد رفض استلام اي مبلغ في المرة الاولى وفي المرة الثانية ، أما حين ابدى حماد غضبه « لان الفلوس ما هي لجيبك وما هي من جيبي ، وانما هي مساعدة يمكن ان تصرف بمعرفتك ، ولن يستحقها من الذين يتعاملون مع الجريدة » فقد قبل مطيع هذا التفسير ، قال في محاولة لتبرير هذا القبول :

- ساقدم ايضاً بكل مبلغ يصرف . . مهما كان صغيراً !

- الله يخليك يا ابو رشدي ، بسيطة ، والموضوع كله ما يستأهل .

أما على راتب فلم يعرض اي مبلغ ، قال له بعد ان استمع اليه طويلاً :

- صحيح ان الاشغال صارت في الوقت الحاضر اصعب من قبل ، لكن

منتقاة للتدريب في الولايات المتحدة ، ثم ربط الجميع برئاسة الجهاز مباشرة . كانت له عيون بين الخدم والحرس وبين النساء أيضاً ، بحيث يعرف كل شيء ، حتى مع اي من النساء قضى السلطان ليلته ، وهل انتقل تلك الليلة الى امرأة اخرى ام لا ، كان يصل اليه ، ويعرف متى نام ومتى استيقظ ، وما اذا زاره احد او حصل اي شيء في القصر . .

أما الامراء الذين لم يفهموا مهمة جهاز الأمن والسلامة ، في البداية ، ولم يقيموا له وزناً ، فقد اخذوا يكتشفون شيئاً فشيئاً ان حماد يمكن ان يساعدهم في امور كثيرة : في تأمين المعلومات او الحاجات ، من داخل السلطنة او خارجها ، وكان يعرف اكثر من ذلك كيف يخدم الآخرين ، وكيف يكون مفيداً وضرورياً في الوقت المناسب ، فما يكاد احد الامراء يتحدث عن بندقية صيد بمنظار ، كنتك التي عند صاحب الجلالة ، حتى تصله واحدة مثلها بعد ايام او اسابيع في اقصى الحالات . ويمكن أن يقاس على هذا امور كثيرة . واذا احتاج امير آخر الى معرفة مالك الارض جنوب قصور الخالدية فلا يتطلب الامر اكثر من ساعات قليلة ليقدم له حماد المعلومات المطلوبة او اكثر منها . أما في حال سفر امير او اميرة الى الخارج فلا بد ان يقدم حماد مجموعة من العناصر للحماية والخدمة ، عدا عن اشعار السفارة لتأمين الإقامة والسيارات والمرافقين .

كان يفعل هذه الاشياء ، وغيرها بتواضع جم وكأنها جزء من واجباته ، فلما زاد المال بين يديه اكتشف ان الناس يجيئون المال اكثر من اي شيء آخر ، ومن اجل الحصول عليه مستعدون لتقديم اية خدمة .

والقصر الذي كان يقدم الهدايا والعطايا ، ما لبثت هذه المهمة ان انتقلت الى الجهاز ، بعد الاخطاء الكثيرة التي وقعت والشكاوي التي قدمت ضد الشيخ مالك ، خاصة وان ثلاثة من الذين اشتركوا في محاولة اغتيال السلطان كانوا من قبيلة لم يتلق رئيسها العطايا المخصصة له تلك السنة ؛ قال السلطان لحماد وهو يتبسم ابتسامة ذات مغزى ، بعد ان كلفه بهذه المهمة :

- جماعتنا وحنا ادري بهم اذا سيديت حلوقهم أمنت شرهم .

- الصدق اللي تقوله يا طويل العمر .

أما كيف اصبح حماد قوياً هكذا وموجوداً بهذا القدر فهو نفسه لا يعرف ، او بالاحرى لا يستطيع ان يفسر الأمر تفسيراً واضحاً ، اذ ما كانت تمر فترة على وجوده في الجهاز حتى وجد حوله عدداً يتزايد من الناس يحيطون به وكل منهم يريد ان يتحدث اليه ، او ان يكسب رضاه ، ولانه تعلم الاصغاء والابتسام ، ثم تعلم اصدار الاوامر ، فقد اصبح محبوباً ومرهوباً في آن واحد . أما عندما تعلم ان يعطي او ان يسهل للآخرين الاخذ ، فقد اصبح محبوباً اكثر من قبل . ويوماً بعد يوم امتلأ ثقة بنفسه وتأكد انه يعني الكثير للآخرين . وقد تأكد له ذلك من خلال زيارته للولايات المتحدة ثم المانيا ودول اخرى فقد اصبح رجلاً مختلفاً : اصبح يعرف ماذا يريد وكيف يصل .

ولانه اقتنع منذ وقت مبكر ان « الجهاز » لموران كلها ، وليس لجهة او لاحد ، ولانه رئيس هذا الجهاز ، فهو الوحيد الذي يتخذ القرار ، وهو الذي يعرف كل شيء ، لذلك لا يجوز لاحد ان يتدخل او يقترب ، حتى السلطان لا يحق له ذلك « فالجهاز انقذ حياته عدة مرات ، حتى من اخوته انقذه » ثم ان السلطان لديه من المشاغل الكثير الكثير ، فاذا لم يستقبل الوفود لا بد ان يزور المناطق ، واذا انتهت هذه المشاغل والمهمات يتفرغ للمهمة التي لا يتعب ولا يمل منها ابداً : النساء . وحماد الذي زرع عيون في كل مكان لم ينس القصر ، بل كان القصر احد ابرز واهم الاهداف . فعل ذلك بكثير من العناية والاتقان « حياة صاحب الجلالة عندنا اغلى من كل شيء » ولذلك اختار عناصر القصر بنفسه ، بعد ان امتحنها في مهمات وحالات سابقة ، وبعث عناصر معينة

ملحم الى قوات الحدود ، وادى ذلك الى مصادرة البضائع التي كانت تحملها الجمال ، واستلم ملحم ثلث قيمة البضائع المصادرة ، كما اعترف بذلك امام عدد من الناس ، وكان بينهم شمران .

قال شداد يواصل هجومه :

- وجاء نوبات بحياة خريبط ، وجاء مرة او اثنتين قبل سنين ، تذكر يا ابو فوزان ، وما قال مرحبا ، هالمرة جاي مشنشل بدل المرحبا ماية ، وبدل قبضة تمر خيل وموزر ، ويمكن يطلب منا ، بعد ، بنية !

- لا بد يكون ندم يا ابو غانم ، والندم ملح الرجال !

- ندم او قريشات طويل العمر ؟

قال ابو فوزان في محاولة هجوم :

- وهذا الحصان مني لك ، يا ابو غانم ، اقبل !

- خيل اللثيم تكدش يا صالح ، وتخرب الخيل الطيبة .

قال شداد لاختيه بمرارة :

- يا رجل . . .

- اسمع يا ابو فوزان ، ولا بد انك سمعت من غيري ، موران ما عندها سالفه الاحاد ، فبعد ما قال له طويل العمر اعط ، فتح حماد كيسه واعطى ، لكن ما ترك شين الا واعطاه ، ما ترك واحد بينا وبينه ثار الا واعطاه ، واليوم جاء ملحم حتى يرد لك يوم الزرقا ، فاذا نسيت تذكر ، واذا عجزت حنا اقدر .

وبضحكة انهى صالح الموضوع ، على الاقل مؤقتاً ، أما شداد ، فقد قال كأنه يتحدث نفسه :

- راح يجي يوم ندفع ثمن خيلنا وكدش غيرنا ، ويجوز انه اللي ما استلم هو اللي يدفع !

ويعتقد البراعة التي لجأ اليها حماد في كسب بعض الناس ، فقد كان بارعاً

- عصفورين بحجر واحد : ترضيهم وتربطهم .

لم يكن حماد بحاجة الى مثل هذه التوصية ، فقد سبق له ان قدم بعض الهدايا الى عدد من الشيوخ لانهم ساعدوه في كشف عمليات تهريب سلاح كانت قد جرت ، ومرة اخرى لانهم ساعدوا في تقديم اليد العاملة من اجل بناء مخازن لقوات الحدود . أما الآن وقد اصبح جميع الشيوخ يتلقون العطايا المخصصة لهم من جهاز الأمن ، فقد قامت علاقات حميمة بين هؤلاء والجهاز ، كانوا يتقاطرون على موران ، وكانوا يقضون اياماً في ضيافة حماد ، ويكثرون من العناية والصبر ، وبعد ان افرد بناء خاص سُمي دائرة البادية ، اصبح هؤلاء الشيوخ يراجعون الدائرة ليس فقط لاستلام العطايا وانما للتوسط لحل الكثير من المشاكل او من اجل تأمين ما يحتاجونه من دقيق وسكر او حاجات اخرى .

حتى شيوخ القبائل من البلدان المجاورة الذين تعودوا على زيارة السلطنة بين فترة واخرى ، ومنذ ايام السلطان خريبط ، غالباً ما يرجعون برعايا وهدايا ، فقد واصلوا القيام بهذه الزيارات واكثرها منها في السنوات الأخيرة ، وكان السلطان لا يخل عليهم ، اذ بالاضافة الى الحفاوة والاستقبال ، كانوا يعودون باموال لم يحصلوا عليها ، او يملأونها بها من قبل ، وقد تولى جهاز الأمن القيام بمهمة الاتصال او تقديم الهدايا .

قال شداد لاختيه بعد ان رأى الحصان الذي قدمه له ملحم بن المهيد هدية :

- يا ابو فوزان . . هذا الحصان ما يعجب ، وما هو لله !

- ما مثله ، يا ابو غانم ، وانت تعرف الخيل !

- اصله من اصل صاحبه ، وانت تخبر يوم الزرقا !

- الله منك يا رجل ما تنسى شيء ابداً .

- الرجال ما تنسى يا ابو فوزان ، تسامح لكن ما تنسى .

وصمت الاخوان وكأنها لا يريدان ان يتذكرا يوم الزرقاء ، حين وشى بهما

الركض المجنون ويستعيدون ذاكرتهم ، ومن جديد يستبد بهم القلق فيتساءلون ويتطرون ! الاغنياء ، والذين يزيد غناهم يوماً بعد يوم ، يخافون ويزداد خوفهم بمقدار تزايد ثروتهم ، والفقراء الذين كانوا يعرفون كيف يجتالون على الحياة في الأيام القديمة لتأمين رزقهم ، يجدون ان هذه الحياة اصبحت اقوى منهم واكثر مكرراً ، وهي ترميهم من مكان الى آخر ولا يعرفون اين ستدفعهم او اين ستكون قبورهم . فيرهفون آذانهم لسماع الاصوات الآتية من بعيد .

كان السلطان لا يحب هذا الغضب ، بل ويخاف منه ، وكثيراً ما تمنى في اعماقه لو ان الكهرباء لم تصل الى موران ، او لو ان الطائرات لم تعرف طريقها اليها ، اذن لعاش الناس في قناعة ورضا ، كما عاش ابائهم واجدادهم . لكن ما دام هذا قد حصل ، وما دامت موران غنية الآن فلتعط ، ويصدر اوامره الى حماد ان يتحرك ، ان يعطي . وحماد الذي يعرف اكثر من الآخرين لا ينتظر الحريق يصل الى موران لكي يتولى اطفاءه ، انه يذهب اليه ، يذهب تسبقه عطاياه ، وبوصول العطايا والاختلاف حول اقتسامها ، يؤمل الغاضبون والجائعون ، ويتنفس الذين يحكمون الصعداء ، ويثري الوسطاء ، فيتراجع الغضب وتنكسر حدته .

الحكيم الذي اعترض على هذه الطريقة ، وكان يُسمع اعتراضه في وقت سابق ، لم يعد حماد يعاب بما يقوله الآن ، رغم انه يستمع اليه بكثير من الانتباه والادب ، لكنه لا يفعل اكثر من ذلك ، أما ما يقوله عن الدعوة والدعاة ، وما يسر به عن نظرية المربع ، فانه يثير سخريته وأسفه ، وفي احيان اخرى يجعله نزعاً ، حتى الهاتف الذي يأتيه من الحكيم مستفسراً عن الاحداث التي تتردد اصداؤها في الأذاعات ، يعتبره تدخلاً في امور لا تعنيه ، فيجيبه مرة ويطلب من سكرتيره ان يجيب مرة اخرى ، أما حجم الاموال التي ارسلت او لمن اعطيت فانه لا يعرف ويجب الا يعرف عنها اي شيء .

ومثلما ذهب حماد هناك لاطفاء الحريق ، او ذهبت امواله ورساله ، فانه هنا يشدد قبضته ليُحكم السيطرة ، يريد ان يجعل موران ساكنة مثل مقبرة ، لا يحب ان يسمع شيئاً او احداً . نشر عيونته في كل مكان يحصي على الناس انفسها ويرقب اية حركة او أي سكون ، حتى القصر ، وبدافع الحرص اكثر من

ايضاً في استعمال القوة ، او التهديد بها . قال له اندورز ذات يوم « السياسة التي تجعل الوضع في موران مستقراً سياسة بسيطة ، لكن تحتاج الى ذكاء في التنفيذ » . تطلع اليه بمودة وتابع : « سياسة الجزرة والعصا » ولما نظر اليه حماد باستغراب وتساؤل ، قال له :

- القوة والمال .. وضحك وهو يصحح : لا المال والقوة .

ويكثر من الصبر والهدوء ، وخلافاً لطريقة الحكيم في الحديث ، شرح له أن الظروف الجديدة في موران تساعد على قيام حالة من الاستقرار والرضا ، فقط يحتاج الأمر الى استعمال وسيلتين اثنتين ، او واحدة منهما على الاقل : الاغراء والشدة . الإغراء تجاه الاشخاص والقطاعات التي تعتبر ان الوضع القائم وحده هو الذي يناسبها ، لانها من خلاله تكسب وتقوى وتؤمن مصالحها ؛ والقوة تجاه الأشخاص والقطاعات الاخرى ، القطاعات المتمردة ، التي لا ترضى بشيء ولا تقنع بشيء .

كان حماد ، بحدس غامض ، يدرك ان الكثيرين في موران يحتاجون الى المال او الخوف ، الذين لا يأتون بالمال يمكن ان يخافوا العصا ، حتى لو لم تستعمل العصا ، خاصة وانه من خلال التجربة اكتشف ان لا احد يشبع من المال ، وكان هذا يضايقه الى اقصى حد ، فهو ، رغم الاموال التي بين يديه ، يشعر انه بحاجة الى شيء آخر ، او كان يرى ان المال لا يعني كل شيء في هذه الحياة ، وربما كان هذا هو السبب ، او على الاقل ، احد الاسباب ، التي جعلته ينظر الى الحكيم هذه النظرة .

وتمر الايام وينشغل الناس في موران بالحياة التي تموج وتتغير حولهم ، فيركضون من اجل الكسب او تدبير الرزق : فينسون قلقهم او ينشغلون عنه ، لكن موران جزء من ارض كبيرة تمتلئ بالجوع والقهر وتنفجر بالغضب ، وتتحرق الى شيء آخر غير ما يقال لها وما تسمعه ، ومثل المؤذن الذي يشق صوته ظلمة الفجر ، اعلاتاً عن بدء يوم جديد ، كذلك تهدر اصوات الغاضبين والجائعين حول موران ، وتنتقل من مكان الى مكان في هذه الارض العربية الحزينة ، فتصل اصداؤها الى موران ايضاً ، فيتوقف الناس عن

السابق على السلطان ، طلب احاطته بمزيد من الحراسة والمراقبة . . والاهتمام ايضاً .

بعث الى عمر من يبلغه « ابلغ لسانك ، لانه كلمة والثانية وكأن امك ما جابتك ، والاحسن القم حجر واسكت » وعمر الذي ضحك بسخرية ، اعتبر هذا التهديد دليلاً على الخوف اكثر مما هو مظهر قوة . قال للرسول :

- سلم على ابو راشد وقل له : الدم ما يصير ماي ، واهل موران قراب ويعرفون اللي يصير واللي ما يصير ، بس خله يتوقى من اللقامين ومن اللسي حاطين على خشومهم مناظر !

كان يقصد احد اثنين : مطيع او سمير ، او ربما ، يقصدهما معاً . أما شمران عندما بلغه التهديد الذي وجه الى ابنه فقد قال امام كثيرين في مقهى زيدان :

- ظني ان حماد ما يقول اللي قاله لانه رضع حليب امه وربى بين الخيل .

وبعد قليل اضاف بنوع من النزق :

- وبكل الاحوال يلزم يعرف هو وغيره ، الغريب والبعيد ، ان الحرب اولها الكلام .

وحامد الذي بلغه ما قاله شمران وابنه ضحك بغیظ وقال دون رغبة :

- يا عباد الله اعرف اكثر منهم واحسن منهم ، بس خليه يكفونا شرهم حتى نشوف دربنا !

غاب الامير فز عن السلطنة بضع سنين ، متنقلاً بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة ، التماساً للراحة والاستجمام او طلباً للعلاج . لم يرجع الى موران خلال هذه السنين الا لفترات قصيرة ، لا تتعدى الاسبوع . وكان في كل زيارة يجزم امتعته فجأة ويرحل من جديد ، بعد ان يكون قد امتلأ تشاؤماً وعاوده المرض مرة أخرى .

في هذه المرة ، وقبل انتهاء العام بثلاثة اسابيع ، عاد . قال الكثيرون «زيارة مثل زيارته السابقة ، والبرد هو اللي حمله وجابه ، فإذا ربعت في المكان اللي جاء منه يشيل ويرحل مثل الطيور» وقال آخرون ، وظهرت على وجوههم علامات الحزن « لداه ما لقيوا دوا وقالوا له تموت ببلادك اخير لك ولنا . . وجاء » . أما السلطان خزعل الذي اعتبر مجيء اخيه حدثاً عادياً ، لا يثير تساؤلاً او خوفاً ، وبالغ في الاهتمام به ، فما لبث ان احس بالقلق ، لان فز الذي كان قليل الكلام ، غامضاً ، اصبح الآن مغلقاً تماماً ، ولا يجيد شيئاً كاجادته الصمت . ومما زاد في قلق السلطان ثم تحوفه ان الامير اعتذر عن قبول قصر السعد الذي بني أخيراً ، وكان واحداً من اجمل القصور في موران . كان اعتذاره اقرب الى الرفض ، وفضل ان يعود الى بيته السابق ، والذي اصبح متداعياً اقرب الى البيوت المهجورة ، لان احداً لم يعتن به خلال فترة غيابه .

قال السلطان لما بلغه اعتذار اخيه عن قبول قصر السعد :

- من به طبع ما تركه . .

« قصر الحير » ، وقد اختار له طرازاً المانياً ، فإن اكثر الذين سخروا او استغربوا ، ما لبثوا ان شاركوا في اللعبة : بدل القصر اثنان او ثلاثة! وبدل الطابق الواحد عدد من الطوابق ؛ وبدل الشبابيك العريضة واجهات زجاجية تمتد من الجدار الى الجدار ، لان هذا ، كما يقولون ، يعطيهم شعوراً انهم لا يزالون على صلة بالطبيعة وبكل ما حولهم ! ومثلما كانت تسمى الخيول اخذوا يطلقون على قصورهم اسماء والقاباً غريبة ، وبعض الاحيان مضحكة . كما اخذوا يربون الحيوانات ، خاصة الغنم ، داخل هذه القصور ، حتى اذا سرحت الغنم الى جانب الشبابيك او الابواب الزجاجية ، وبدأت تمسح ابوازاها بالزجاج او تطحها اثارت الفكاهة والضحك اكثر مما تثير الاستغراب !

لم تمض سنوات حتى اصبحت موران مدينة عجيبة . فمن الاسفار التي قام بها الكثيرون الى بلدان عديدة ، ومن المجلات التي حملوها معهم ، او من الرسوم البدائية التي خططوها لبيوت رأوها في هذه الاسفار ، اضافة الى وجود شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور ، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد ، او كما تشكل الحدائق اليابانية : مجموعة من الالوان والاشكال والحجوم لا تحتملها عين : بيوت فسيحة الى درجة لا يُعرف لاي شيء ستستعمل ، او من سيسكن فيها . عشرات الغرف توازيها الدهاليز والممرات المعتمة كأنها الانفاق ، لتكون فاصلاً بين جناح وآخر ، اضافة الى الابواب بمصاريع او تلك التي تدور او التي تختفي ؛ أما الجدران فقد كُسي اغلبها بالخشب او القطفة الملونة ، وفرشت الارضية بالموكيت الغامق اللون ، حتى الممرات والادراج فرشت ، وبالغ الكثيرون ففرشوا المطابخ ودورات المياه! أما المدافئ الانكليزية فقد كانت نمطاً سائداً ومرغوباً في البداية ، خاصة حين شيد الامير ميزر قصره على طريق الرها ، لكن ما لبث الكثيرون ان فضلوا عليها انواعاً اخرى من المواد الفرنسية والالمانية !

حمى المنافسة في بناء القصور لا تهدأ ولا تتوقف ، ولا يبقى احد الا ويشارك فيها . أما السلطان فقد سبق الجميع ، اذ اضاف الى هواياته القديمة هواية جديدة : ان يعيش مع كل زوجة في قصر ، وان يبني لكل عروس قصرأً جديداً! لكن لم تمض فترة حتى جاء من ينه السلطان ، وقيل انه الديميري

وفهمت عبارة السلطان على وجوه شتى . أما عندما جرى الحديث في امور اخرى ، فقد ردد السلطان عبارة بذاتها مرتين ، ردها دون مناسبة ظاهرة وابتسم ، قال :
- على النبي آدم ان يمشي ممشى زمانه .

وقد ربط الكثيرون بين الجملتين ، وترآى لهم انه يعني اخاه فز ، لكنهم ، مع ذلك ، لم يكونوا متأكدين تماماً . فالامير اذا كان يفترض ان موران لا تزال كما تركها ، او مثل ايام ابيه ، فانه يخطيء كثيراً ، لان موران تلك لم يبق منها شيء ، لم تتسع وتكبر ثلاث او اربع مرات فقط ، وانما تغيرت . وما عاد لها صلة بالمدينة التي كانتها قبل بضع سنين . والامير اذ يتصور ان تناوله للتمر او اللبن ، كما كان يفعل من قبل ، او كما كان يفعل ابوه ، ليقنع الرعية ويجعلها تتمسك به ، لانها تراه يشبهها وقريباً منها ، فان موران قد كُفت عن اكل التمر او شرب اللبن منذ سنين عديدة ، أما اهمية السلطان الآن ، ومدى تأثيره وتعلق الناس به ، فان ذلك بقدر ما يبدو قوياً وكرماً ، بقدر ما يبدو بعيداً وغامضاً .

موران الآن لا تحتاج الى سلاطين مثل خريبط : متقشفين او يتظاهرون بالتقشف ، ولا تحتمل ان تعود كما كانت . أما ان يأتي الامير فز حاملاً علله وصمته ، ومفترضاً ان السكن في ذلك البيت القديم يمنحه ميزة من اي نوع فانه يخطيء كثيراً ، لان موران التي فتنتها السيارات الاولى حين وصلت اليها قبل سنين ، والتي لم تزد على عشرين او ثلاثين سيارة في عهد السلطان خريبط ، وكان معظمها خاصاً بالقصر ، فان هذه الفتنة تبدو صغيرة الآن ، ولا تتعدى اللعبة التي يملها الطفل بسرعة ، فيستبدلها بغيرها ، ليغيرها مرة اخرى بعد فترة قصيرة ، فتتراكم السيارات كما تتراكم اللعب ، وتتغير كما تتغير الجوارب . هذه اللعبة تجاوزتها موران منذ سنين لتفتن بلعبة جديدة : القصور . فجأة اكتشف الناس ان الخيام التي كانت تظلمهم ، او تلك البيوت الطينية التي كانت تؤويهم ، اصبحت كريهة ولا تليق بهم .

ومثلما كان الحكيم من اوائل الذين بنوا القصور ، واطلق على قصره اسم

كان وصول شركة الغزال بداية الجنون في موران، والحكيم الذي بدا اول الامر شديد القلق لوصول امين الورداني وشركته، ما لبث ان اكتشف خطاه، لان اثمان الاراضي التي اشتراها من قبل تضاعفت عشرات المرات، ثم مئات المرات بعد ذلك، وهذا انساه، او جعله يتغاضى، عن كل شيء عداه. أما العلاقة التي قامت بين الرجلين خلال الفترة القصيرة التي قضاها امين الورداني في موران، فقد جعلت الحكيم يتأكد « انها يكملان بعضهما بعضاً، ولا يمكن ان يتنافسا او يتحصنا » لان امين الورداني يحتاج الى الكثير من المواد، وان « الحكيم، بحكم معرفته وعلاقته يمكن ان يساعد في تأمينها » أما التموين واقامة العمال، فان « الشركة بحاجة إلى متعهدين ثانويين، وهؤلاء لا يمكن ان يتم اختيارهم او الاتفاق معهم الا بناء على ترشيح الدولة او على الأقل موافقتها » .

هكذا بدأت موجة الجنون، وهذه الموجة التي استمرت واتسعت لم تترك احداً او شيئاً. حتى شداد، الذي كان غارقاً في جنونه الخاص، وكان بعيداً لا يسمع الا الاصدااء البعيدة، ولا يهتم بها كما يفعل اكثر الذين حوله، فقد جاء من يقول له ان « ارض الحصيبة اصبحت ارض الذهب » وان الحكيم الذي اشترى تلك الارض ليقم عليها مستشفى، قد باعها للقصر، « لان السلطان سيقم ثلاثة قصور للضيافة »، لما سمع شداد ذلك لم يستطع ان ينام تلك الليلة، جاء الى اخيه عند الفجر، فلما التقى بمفلق، شبيه آل المطوع، قال له، وكان متأكداً انه لا يسمعه :

- يا مبارك، يا ابو دهام . انت اللي قلت لنا يوم الرحبة وقبلها : اتركوا خريط، قلنا : يا ابو دهام تراه يحفر قبورنا، قلت هالحين هو اللي يحفر قبره، واليوم احسن من اللي عقبه . وما راح يوم وجاء الثاني الا خيل وركب ؛ قلت : اذا مشى البيرق مشينا . سكتنا . . وبعدين مشينا .

ومفلق المطوع الذي كان يتطلع ولا يسمع ولا يعرف ماذا يقال، كان يهز رأسه، لكنه لا يتوقف عن انشغاله بتقليب النار من اجل اعداد القهوة . تابع شداد :

- وقلت يا ابو دهام اتركوه، ما منها رجا، لان الاحدب يعرف كيف

الذي عقد له على زوجاته، هو الذي نبهه، ان الناس بدأوا يعرفون عدد الزوجات من عدد القصور، الامر الذي دعا الى شراء كافة الاراضي المحيطة وتسويرها .

قال شمران ان الراجل يحتاج، لكي يدور حول قصور الغدير والخالدية، يوماً كاملاً، أما الخيال فانه يحتاج الى ثلاث او اربع ساعات اذا سارت القوس خيباً .

ومثلها وصلت الى موران السيارات ومكيفات الهواء والجواهر، ومثلها وصلها أعداد تزيد كل يوم من الغرباء، فقد وصلها ايضاً امين الورداني، صاحب شركة الغزال للمقاولات والتعهدات : رجل مربع او اقرب الى القصر، سمين، مرح وعملي بكل ما تعنيه هذه الكلمة . وصل فجأة بطائرته الخاصة الصغيرة الى موران، وبرفته مجموعة من المساعدين . ولثلاثة ايام متوالية، وبموكب من السيارات، لم يهدأ ولم يتوقف ذرع موران من اقصاها الى اقصاها، وقيل انه وصل الى الرحبة والرحبية، وقيل ان الحكيم اقام له وليمة في المليحة، وما كاد غبار الركض والانتقال يهدأ حتى انتشرت الاخبار ان موران ستهدم ويعاد بناؤها من جديد، وانتشرت اخبار اخرى ان العاصمة ستنتقل الى المليحة، لان مياهها اكثر وهواءها اطيب .

لما سمع شمران هذه الاخبار قال كلمة ردها الكثيرون بعده . قال :

- هذي الديرة ما عاد يفيدها حجام وكبي . . صار دواها برداها .

وقبل ان ينتهي اسبوع على وصول امين الورداني وافق السلطان ان يُبنى له قصر جديد في منطقة الخالدية، وان تبنيه شركة الغزال، واشترط ان يكون شبيهاً بالقصور العباسية، وان يبني الى جانبه مسجد يشبه مسجد ايا صوفيا، كما اقترح الحكيم! وامين الورداني طلب بالخالج ان يوافق على ان يكون هذا القصر هدية من شركة الغزال « لكي تتعرف السلطنة على نوعية الاعمال وجودتها »، الا ان رفض السلطان، واحتمال ان لا تسير الاعمال كما قدر امين الورداني تم الاتفاق ان تقدم الشركة كشوفاً في نهاية العمل بالتكاليف الفعلية، « ولا تطلب قرشاً اضافياً » .

يدبر امراً :

- والله . يا ابن الحرام ، يا مالطي ، ما تخلص !

وبعد قليل وقد توصل الى قرار :

- ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل : اغر على الحضري ومرّدك السلامة .

وبكثير من الانفعال شرح شداد لاخيه ان ارض الحصيبة ما كان ليبيعها لولا تدخل حماد ، وانه باعها ، « لان المالطي يريد ان يبني عليها اجزخانة » أما بعد ان باعها للقصر وقبض ثمناً لها ذهب الارض كله ، فلن يفوت الأمر ولن يسكت . أما اخوه فقد رد بكثير من المرارة :

- يا ابو غسانم شورنا صار ينفع الصغار والحريم ، أما اللي كبروا ، اللي راحوا ورجعوا فصار شورهم من رأسهم ، والأيام وحدها تعلمهم !

ينام ، ترى الاحدب نام على قلوبنا !

على مسافة امتار كان صالح ، ابو فوزان . كان يسمع ولا يعرف عن اي شيء يتكلم اخوه ، لما التفت ورآه قال له :

- قلت لك يا أبو فوزان : حماد . . من يوم ما حط يده بيد ذلك المالطي ، وصار مشاور السلطان ما عاد حمادنا ، نفصنا يدنا منه ، وما عاد منه فايذة ورجا . قلت وكلّ الله . سكتنا ، قلنا الصبر زين . قرينا عليه . قلنا له كل شي ، قلنا له هذي موران وهذون ناسها ، وهذا اللي يصير وهذا اللي ما يصير ، لكن كل ما قضيناه الجادة ينحر الجبل ، يغّب ويبعد وما ينعرف ليوين ولتي !

كان شداد منفعلأ اقرب الى الغضب ، وصالح الذي ما زال حائراً لا يفهم بوضوح ما يعنيه اخوه او ماذا يجب ان يفعل ، رد وهو يتسم :

- يا ابو غانم وكلّ الله ، اصبر ، وكل شي بوقته زين . . .

- وقتنا فات يا ابو فوزان .

وبعد قليل وبسخرية :

- والي ما اخذته السارحات اخذه المالطي .

- اخذه المالطي ؟ من هو هذا البلية وشهو الي اخذه ؟

- لكن غريمي حماد .

- حمادنا ؟

- ما هو بحمادنا ، يا فوزان ، لأنه باعنا ونسينا .

- وكلّ الله يا رجال .

قال مفلح ، بعد ان شرب اول فنجان ، وقدم الفنجان الثاني لابي غانم :

- القهوة ، مثل الماء ، تغسل السم !

قال هذه الكلمات دون ان يعرف عن اي شيء يتحاور الاخوان ، لكن ادرك انها يتخاصمان . تناول منه شداد الفنجان ، شربه بهدوء ، وقال كأنه

- مثل ما يقول اهل موران : برد الشتا توقّه وبرد الربيع تلقه .

وبرح اوضح لسмир ان برد الصحراء خبيث، وهو يتسرب الى الجسد كما تتسرب المياه في الرمال ، انه يتسلل بخفاء ، حتى ان الانسان لا يحس به الا في وقت متأخر ، ولذلك يجب تجنبه واتقائه ، أما اذا دخل الربيع او اقترب ، فان الهواء ، رغم برودته ، لا يضر الانسان ، لا بل ينفعه .

كان هذا الشرح ضرورياً ليفسر ارتدائه للعباءة السوداء ، والتي بدت رافهة ، انيقة ، وقد ظهر فيها كشيخ وقور مليء بالحكمة والمعرفة .

لم يبق على بداية العام الجديد سوى اسابيع قليلة ، وكان الحكيم ينتظر انقضاءها بفراغ صبر وقلق معاً ، حتى وصل الامير فز . لما بلغ الحكيم خبر وصوله ضرب على ساقه وقال دون ارادة :

- الله يسترنا من الاعظم !

ويعد قليل ، وهو يهز رأسه بحزن اقرب الى الاسى ، قال بتسليم :

- اللهم اجعله خيراً !

وروى لمطيع وآخر تم استخدامه في الفترة الأخيرة ، وكانت مهمته تنظيم مواعيد الحكيم ، روى لهما ان حلماً روعه في الليلة الفائتة ، فقد رأى نفسه محاصراً بالنيران وكلما حاول الهروب والنجاة كان رجال ملثمون ، لا تبين سوى عيونهم الحمراء الغاضبة ، يدفعونه ويعيدونه الى وسط النار ، وكانت اصواتهم اقرب الى هزيم الرعد .

روى هذا المنام وربط بين هذه الرؤية وبين وصول الامير فز . أما بعد ذلك بايام فقد تأكد الحكيم ان الامر اكثر جدية مما تصور او قدر ، حين رأى السلطان مهموماً ، ثم حين امر بان تدعى لجنة الامن والسلامة الى اجتماع عاجل لتقدير الموقف ، وكان قد انقضى على عدم مشاركته في مثل هذه الاجتماعات فترة تزيد على الستين .

تطرق السلطان في الاجتماع ، وفي محاولة للتمويه ، الى الاوضاع في المنطقة ، وقال : « ان الدنيا حولنا ما هي بخير ، والناس مثل الاباعر الهاجّة ،

كان يمكن للحياة ان تستمر وتتابع دون ان يغيرها شيء ، حتى اذا دخل فصل الربيع وهاجرت الاطيار ، عرف ما اذا كان الامير فز سيقى ام سيرحل ، وما اذا كان سيستقر في بيته ذاك ام سيرتبه الى بيت آخر ، لكن جاء من ابلغ السلطان ان اخاه جاء ليبقى ، وانه لن يترك البيت الذي هو فيه الى بيت آخر ، وقد اكد الخبر عدد من نساء القصر ، اذ عرفن من اخريات على صلة بنساء الامير .

والسلطان الذي بدا قوياً واثقاً خلال السنين الماضية ، والذي عرف كيف يكسب اخوته كلهم ، وكيف يدخلهم جميعاً في جوه ، عدا مجحم المشغول بصقوره ، والذي لم يصل موران ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة الامرة واحدة ، وقيل انه مرض وكاد يموت ، لانه نام تحت سقف ، فنقل الى البادية على محفة ، ولم يسمع احد اخباره بعد ذلك ، عدا مجحم وراكان ، فان الآخرين غرقوا في جو موران وفي لعبتها الجديدة ، وبدأوا يتنافسون فيما بينهم في القصور والنساء والجواهر ، ثم بالاسفار الى بقاع العالم و « اركان الارض الاربعة » كما يقول الحكيم .

الآن والامير فز يصل ، وما رافق وصوله من اخبار وتفسيرات ادخل القلق الى قلب السلطان ، ثم الخوف ، ولان السلطان قلق ثم خاف فان القصر تغير ، واكثر ما تغير واول من تغير الحكيم . فبعد ان انتظر الشهور الأخيرة واستكمل استعداداته للاقلاع ، بما في ذلك ارتداء العباءة السوداء في اكثر الليالي ، وقد رد على نظرات سمير حين رآه اول مرة لابساً تلك العباءة ، رد عليه بعبارة لم يفهمها بسهولة ، قال له :

والتفت السلطان اكثر من مرة ثم اضاف بهمس :

- وإذا راح يجينا بلاء، يا أبو غزوان، من حدر رجلينا، من جماعتنا واقرب الناس لينا !
وحاول الحكيم أن يطمئن نفسه، وكادت أن تنقضي السنة فينسى هذا الهم الطارىء، ويعود إلى المهمة التي نذر نفسه لها، لولا الخلاف الذي وقع بين راتب وسعيد .

فالشركة التي قامت قبل بضع سنين ، والتي ازدهرت واعطت نتائج هامة وكبيرة خلال السنين الاولى ، ما لبثت ان تعرضت الى التصدع ، ثم سوء التفاهم ، والخلاف .

بدأ الخلاف ، اول الامر ، حول تجارة المواد الاولية . لكن تم تلافيه وتجاوزه ، أما حين اتسعت اعمال وعلاقات سعيد ، فإنه لم يعد متحمساً لاستمرار العلاقة ، لكن لا يريد أن يكون البادىء بإنهائها .

بدا الافتراق اولاً من خلال رفض الحكيم وراتب المشاركة في شركتي السجاد والادوات المنزلية ، فقد اعتبرا ان موران لم تصل بعد الى الدرجة التي تحتاج الى شركات من هذا النوع . أما بعد ذلك ، ونتيجة للأفاق التي فتحتها حماد ، بان سلم تموين القصر الى الغامدي ، ثم تعهدات تأثيث القصور ، وقد فعل ذلك دون التشاور مع الحكيم ، فقد تغير الحال .

أما الهدية التي قدمتها الشركة الشرقية للسجاد ، بان قامت بفرش جامع السلطان خزعل باثمن انواع السجاد ، فقد اعتبرها الحكيم نوعاً من المزاودة اقرب الى الجنون ، ولا يمكن ان يتسامح تجاه خطأ من هذا النوع ، رغم انه لا يحسر قرشاً واحداً . كانت وجهة نظره واضحة . قال لسعيد وهو يعاتبه :

- الواحد ، يا سعيد ، يا أبو شكيب ، يقدم عباية او مسبحة ، واذا تخنها يقدم عباية ومسبحة . أما ان تفتح علينا هالباب ، وتقدم سجاد بعشرات الالوف ، وكل سجادة احسن من اختها ، وكل سجادة تنطح الثانية ، فبكرة أهل البلد ما بتخلي علينا سترأ مغطى : جاءوا وأكلوا البيضة وقشرتها ، ما تركوا لنا اي شيء ، ملكوا كل شيء ، موبس هيك ، الواحد منهم ما عاد يفرش غرفة او بيت صاروا يفرشوا الجوامع !

او كأنه وُضع في اذناهم فلفل يحركهم ويدفعهم من مكان الى آخر بجنون » .

بعد ذلك تساءل السلطان ببراءة عن اوضاع الامن والحدود ، ولما تلقى تطمينات مؤكدة من حماد ان « الامور ممسوكة بيد من حديد ، وان الناس منصرفه الى العمل ، ولا يشغلها اي امر آخر » ابدى الحكيم تخوفه « ليس من الداخل ، فالداخل ، والله الحمد ، يرقل ، في ظل صاحب الجلالة السلطان ، بالخير والنعيم ، والناس في رضا وقناعة . أما الخوف ، الخوف الحقيقي ، فهو الذي يأتي من وراء الحدود ، من الدول المجاورة ، ولا يمكن مقاومة هذا الخطر الا بالفكر والدعوة ، ولذلك من الزم الامور بالنسبة للسلطنة ان تكون لها وجهة نظرها الفلسفية الكاملة والقوية » .

استراح الحكيم قليلاً ثم قال وهو ينظر الى السلطان :

- ومثلما كانت الدعوات التاريخية ، يا صاحب الجلالة ، تستند الى الفكر والاقناع ، فيجدر بسلطنة موران ان يكون لها مفكروها ودعاتها ، وان تكون لها دعوتها ، وان تحارب الكفر والاحاد والفساد ليس داخل حدودها وانما خارج الحدود .

والسلطان الذي التقت نظراته اكثر من مرة بنظرات حماد ، قال ليحسم المناقشة :

- حنا ، اللي علينا ، حدودنا وبلادنا ، وما علينا بغيرها ، فاريد منك يا حماد أن تفتح عينك وأذنك ، وأن لا تترك كبيرة او صغيرة إلا وتقول لي عليها ، حتى لو كانت من ابني او اخوي .

وفهم تماماً ان السلطان يعني اخاه فز ولا يعني انساناً سواه ، أما بالنسبة للملاحظات الحكيم فلم يرد عليها في الاجتماع ذاته . أما في لقاء لاحق ، وقد تم خلال الاسبوع نفسه ، فقد قال السلطان ، وهو يطلب من الحكيم ان يقترب :

- يا ابو غزوان الجماعة بره ، هنا وهنا ، شريناهم ، عطيناهم من عطايا الله ، قلنا لهم خذوا واسكتوا ، وما يغرك الكلام اللي تسمعه بالاذاعة او الجرايد ، كله ضراط ، وما يساوي نواة . . .

في الأيام الأخيرة من العام ، قال راتب للحكيم في اجتماع ضم جميع الشركاء ، وكانت محاولة تسوية :

- انت يا ابو غزوان ابو الجميع ، ولولاك ما كان صار شي . . .

رد الحكيم ، بكثير من التواضع :

- استغفر الله ، استغفر الله ، يا راتب .

نظر سعيد الى راتب بطرف عينيه ، تابع راتب :

- عفا الله عما مضى ، نحن اولاد اليوم !

والنتف اكثر من مرة ، حتى اذا التقت نظراته بنظرات الحكيم ، وبدا انها

متفقان ، قال :

- الشيء الذي يقرره الحكيم نوافق عليه .

وبعد قليل :

- وانت ، يا ابو غزوان ، فضل ونحن نلبس .

قال سعيد :

- ابو غزوان على العين والراس ، لكن هذه الشغلة ما هي شغلته !

وضحك بسخرية ثم اضاف :

- وقبل كم سنة ، طلع على لساننا شعر ، ونحن نريده ان يتدخل . كنا

نبوس ايده ، لكن يفتح الله . قال ان هذه الشغلة ما هي شغلته .

- كان شغلي لفوق راسي ، لفوق شوشتي ، يا ابو شكيب !

هكذا رد الحكيم بانفعال ، وبعد قليل :

- وبعدين . . اولها وآخرها انتم اخوة ، وكل خلاف بين الاخوة سحابة

صيف .

ولم يتمكنوا من الوصول الى نتيجة . قال سعيد في نهاية ذلك اللقاء :

- مثلها بدأنا اصحاب نتفاكك ونحن اصحاب ، واكثر من الشغل في

وسعيد الذي سمع وابتسم ، حاول باساليب شتى ان يوضح للحكيم ان الهدية لبيت الله ، وانه نذر قبل سنين عديدة بأن اول ارباح يجنيها ويحققها ، لا بد ان يقدمها زكاة عن ارواح الموتى والاحياء ، وانه غير نادم ولا يشعر باسف ، كما انه لا يعتبر نفسه مخطئاً . بعد هذا التوضيح اشار الى ان الهدية ليست من ماله فقط ، وانما شاركه ايضاً الغامدي ، وان الرجل وافق بطيبة نفس ولم يعترض ، لكن الحكيم لم يكن مستعداً للمناقشة او للتفاهم ، قال في نهاية ذلك اللقاء :

- انت يا سعيد ، بعد هذه الهدية سويتنا اشهر من نار على علم ، وتعال بكرة واخلص من كلام الناس .

* وفي محاولة لان يرضي سعيد الحكيم وعد ان لا يتكرر خطأ من هذا النوع ، وطوي الموضوع . ثم اشيع في وقت لاحق ان تأييد جامع السلطان خزل كان تبرعاً من اشخاص كثيرين ، من بينهم او على رأسهم ، الحكيم . واشيع ايضاً ان عدداً من المتبرعين - ولان التبرع لبيت الله - رفض ان يعلن عن نفسه ، « وتكلف بعض الاخوان ان يعلنوا اسماهم نيابة عن الآخرين ! » .

أما بعد هذا الدرس ، بعد هذه التجربة المرة ، فقرر سعيد ان يطوي اوراقه ولا يفتحها ابداً : « بدنا العنب . . ما بدنا نحارب الناطور ؟ » هكذا قال لنفسه ، مقررأ ان يهمل وان ينسى الحكيم ، حتى الوقت المناسب ، « فاذا بسمت له الخازوق اطلعه من عيونيه » . ولذلك لم يهتم بشركة المواد الغذائية الا بقدر ما تبقى ، صارفاً كل جهوده الى الاعمال الاخرى .

بعد ان وصل راتب الى موران واستقر فيها ، وبعد ان اكتشف آفاق العمل وامكانياته ، بدأت المشاحنات والتحديات : اراد ان يفرض صيغة جديدة : لمن تعطى التسهيلات ، ولن لا تعطى ، وكيف يجب ان تسعر المواد ، الى غير ذلك من التفاصيل . وسعيد الذي تصور نفسه بارعاً ، ويمكن ان يتفاهم مع العفاريت ، وجد نفسه انه لا يستطيع ان يتفاهم مع هذا الانسان الذي هبط من المريخ ، فترك الامر لابي الحميدي ، لكن ما انقضت فترة حتى اعلن الآخر عجزه .

موران ما في !

ورغم محاولات الحكيم فان الامور انتهت، وقد سببت له هذه النهاية تعاسة كبيرة « عندما وصلت اللقمة للتم ، وبعد ما جاء راتب ليحمل عني كتف ... كل المشاكل جاءت دفعة واحدة » وتذكر بحزن وصول الامير فتر ايضاً . وكيف انه سيكون ، مضطراً ، الى تأجيل العمل ، مرة اخرى .

قال لراتب ، وكان بين الحقد والحزن :

- قل ما يصيبكم الا ما كتب الله لكم .

ونام الحكيم تلك الليلة مهموماً حزيناً . قال لنفسه وهو يحاول ان يغفو « وتنتهي سنة اخرى من هذا العمر ، ولا يعرف الانسان هل تقدم ام تأخر ، واذا تقدم او تأخر نحو ماذا ؟ » وغفا وهو يفكر بهذا السؤال الصعب القاسي والذي يشبه الصخرة على الصدر .

السلطان الذي اطمأن بعد التأكيدات التي قدمها حماد ، والتي قدمت من الاخوة ومن جهات اخرى ، اعتبر « ان المال يفتت الصخر ، وفتر مثل غيره ، بعد مايشوف ويتأكد ، وين ما راح يرجع » ولذلك تراجع الخوف ليصبح مجرد قلق ، وحتى القلق اصبح هاجساً يأتي ويذهب بين فترة واخرى .

أما الذي ركبه الوسوس ، واستبدت به الظنون فهو الحكيم . « لان راتب رجل مكاتب ، يجل شركات اجنبية ما هو رجل سوق » وامكانية البحث الآن عن شركاء ، او احضار شركاء من الخارج عملية صعبة ، او على الأقل اصعب من قبل ، ليس ذلك فقط ان راتب نفسه يبدو هذه الأيام شخصاً مختلفاً « وكأنه ركبه عفريت » : كثير الصمت ، قلقاً ، وبعض الاحيان ظاهر النزق . لفت الأمر نظر الحكيم وحرار فيه « يمكن الرجل مقصر وخجلان ان يتكلم او يقول ؟ » واستعاد الحكيم معلوماته الطبية ، خاصة في المجال الجنسي ، فتذكر حالات من هذا النوع . ومدى التعاسة التي تولدها، لكن تذكر ايضاً الحكايات القديمة التي كانت تقال عن راتب ، وكيف بدد جزءاً من ميراثه على النساء والسفر . وفكر ان يفتحه في الامر ، او على الأقل ان يضعه في جو يحمله على

قالت ذلك بسخرية ، فهم الحكيم عكس ما ارادت . تطلع اليها بتحديد ، وهو يمز رأسه ، لان ما قدره وجد الآن جذره في هذه الكلمات القليلة ، قال بحزن :

- العمى ما حلهم يختلفوا . ما عرفوا بعضهم .

- لأ . . . يا ابو غزوان ، ما فهمت قصدي ، قصدي انهم غارقين ببعضهم وكأن الله غيرهم ما خلق !

- هيك ازن ؟

- واكثر من هيك يا سيدي ، شايفها وما هو مصدق ، وهي بتعرف كيف تغنج وتتكسر وهو كان فيه عقل وضيعة !

وتابعت بعد قليل وهي تضحك بسخرية :

- قلنا لخالنا اذا تزوج يركز ، بصير بني ادم ، اتاربه ولد ، كلمة تاخذه وكلمة تجيبه . وهي فهمته وبدأت تلعبه جدياني : يوم وحام ، ويوم وجع ظهر . ويوم دخليك زهقت خذني لعند اهلي . وهو ما له شغلة الا يرضيها ويدلعا : اساور وحلق ، مباريم واطواق ، ويا حبيبي ويا عيني ، وهي تزيد !

هز الحكيم رأسه دهشة واستغرب انه لم يلاحظ ذلك ، ولم يقدره ، مع انه دقيق الملاحظة تماماً وكثيراً ما « يلقطها على الطائر » كما يصف نفسه باستمرار . اضاف بنوع من الحزن « الانشغال بالنظرية ينسي الانسان صلاته » . لما رأته وداد بعيداً اعادته من جديد :

- ما قلت لي شو قصدك من السؤال ؟

- الحقيقة ، يا وداد ، ان الرجال يختلف علي ، وصار التفاهم معه صعب !

- الحق عليك ، يا ابو غزوان ، انت اعطيت عين ، طمعتة ، فكر وتصور حاله صار بني آدم ومهم ، وكأنه نسي .

وبعد قليل وبحقد :

ان يبوح ، « لكي اساعده واحل له مشكلته » ، لكنه عاد وتردد « المهم الآن ان تُعالج المصاعب المادية ، لا ان نحل العقد النفسية » هكذا قال الحكيم لنفسه . واصل وقد تذكر سعيد : « ابن الحرام تركنا في عزّ الشغل » ورنث في اذنه من جديد كلمات محمد عيد التي قالها قبل سنوات ، في بداية الفترة التي وصل خلالها سعيد وحسني الى حران ، قال كأنه يخاطبه :

- اينما كنت . . الله يسر لك يا عيدو (هكذا كان يناديه في لحظات التحبب القصوى) .

وبعد قليل وهو يفر من اعماقه :

- والانسان . . لا يُعرف خيره حتى يجرب غيره .

وبكثير من الجهد والمشقة عُثر على شريك جديد ، فقد تم الاتفاق مع فليحان الزوبعي ان يتولى ادارة شركة المواد التموينية ، بعد ان انسحب منها سعيد الاسطه وعبد العزيز الغامدي ، وقد وافق الحكيم وراتب ان يتخليا للزوبعي عن خمسين في المائة ، مقابل اسمه ومقابل العمل ، لان من جملة الشروط الجديدة التي اقرت اخيراً في موران ، ان يكون في اي عمل شريك موراني ، ويجب الاتقل حصته عن النصف .

سأل الحكيم وداد في احدى الليالي ، مستوضحاً عن زوجة راتب :

- ما قلت لي يا وداد . . . كيف العلاقة بين راتب وزوجته ؟

- راتب وزوجته ؟

سألت بصوت عصبي مرتجف ، وكأنها استفزت او ظنته يقصد شيئاً بعينه !

- قصدي . . كيف متفاهمين ؟ حابين بعضهم ؟

- فولة ومقسومة .

- يعني متفاهمين ؟

- كثير . . يا سيدي !

ناحية وبين رضائي ومعه بعض الامراء وسعيد والغامدي من الناحية الثانية ،
من اجل بناء ثلاثة مطارات في سلطنة موران ، واحد في موران العاصمة ،
والثاني في حران ، والثالث في الحدود الشمالية ، قريباً من مدينة البقعة ،
اضافة الى بناء شبكة من الطرق الدولية تربط عدداً من مدن السلطنة بالدول
المجاورة .

لا يعرف الحكيم كيف يمكن لاتفاق مثل هذا ان يتم بمعزل عنه اولاً ،
ودون معرفته ثانياً . اذ بالاضافة الى الارقام الخيالية التي لم يستطع ان يتصورها
تصوراً دقيقاً واضحاً ، سواء من حيث نفقات هذه الانشاءات او من حيث
الارباح التي سيجنيها كل فرد له علاقة ، فان الاهانة الحقيقية التي احس بها
ان يتم كل هذا دون ان يعرف ، دون ان يُسأل . اين هو؟ ماذا اصبح ؟
والاصدقاء الذين لهم معرفة او صلة كيف يمكن ان يتكتموا عليه ولماذا ؟

سأل راتب ما اذا عرف او سمع عن هذه الامور ، ولماذا لم يقل له ، رد
راتب ببعض النزق :

- الله يخليك يا حكيم . . اذا دبرنا شركة المواد الغذائية فنحن بالف خير !
واذ لم يعجبه هذا الجواب ، وابدى استغرابه ، فقد تابع راتب بسخرية
مبطنه :

- الزوبعي صار مثل الزئبق ، يا ابو غزوان ، محتال ونصاب وما تعرف كذبه
من صدقه ، وانا امبارح وصلت موران ، منين بدك أعرف؟

أما عندما سأل حماد ، وكيف لم ينهه للموضوع ، فقد رد عليه بكثير من
البرود :

- انت تعرف يا حكيم : الجهاز براسه الف شغلة ، وكل واحدة اخطر
واهم من الثانية ، فما عنده الوقت ليعرف من باع ومن شرى !
وابتسم حماد بأدب ثم اضاف :

- وانت ، يا طويل العمر ، قلت لنا اهتموا بالقضايا السياسية ، بقضايا
الامن ، وما عليكم بغيرها !

- لازم له فركة اذن ، حتى يعرف شو بيسوى ، ومن هو !

- طولي بالك يا وداد ، الامور ما وصلت لهذه الدرجة .

وصلت واكثر . واذا ما لاحظت انا شايفه كل شيء !

- روقي . . يا بنت الحلال .

- من يوم وصوله . او بعد ما وصل باسبوع ، اسبوعين ، صار يسمع ،
صار يحكي كلمات بمعنى . وانت ، يا ابو غزوان قلبك طيب ، لا تسمع . انا
سمعت كل شيء وفاهمة عليه تماماً .

تطلع اليها باستغراب اكثر من قبل . تابعت :

- كان يخاف منك خوفاً حياً ، ما كان يتجرأ يقول كلمة ، الآن صار
يمزح ، يتناول ، فاذا تركته بدون فركة اذن يمكن بكرة يتمادى ويزيدها . .
يمكن يحكي عليك او علي !

- فشر ، اقص لسانه .

هكذا رد الحكيم بغضب ، وكأنه احس بالاهانة او تخوف من احتمالات
المستقبل ، واطاف بعد قليل بحزن :

- غريب . . يا وداد ، كل واحد احسنا اليه ، ساعدناه ، قابلنا
بالاساءة . الناس صارت بدون اخلاق ، ما عندها دين او قيم ، لكن
بسيطة . . بنشوف !

- لازم الواحد يكون قدّ حاله يا ابو غزوان !

- ومع ذلك . يا وداد ، الدنيا اخذ وعطا . والانسان لا يمكن ان ينعزل ،
ان يعيش وحده ، لازم يتحمل جزء من خريئات البشر .

كان الحكيم بحاجة ماسة لراتب ، خاصة في هذه الفترة ، ولذلك لا يمكن
ان يسرف في اساءة الظن به ، او اظهار عواطفه نحوه ، لكن صمم ايضاً ان
يتعامل معه بحزم وانتباه ، لئلا يتمادى أو يفعل كما فعل الآخرون .

الصدمة الثانية التي لم تتأخر كثيراً : الاتفاق الذي تم بين شركة الغزال من

- لان الفلوس . يا صاحب الجلالة ، تصبح رماحاً وسيوفاً بيد اللئام ، او
كما قال الشاعر :

لا تركيبه على النهود فانه ليرى ظهور الخيل اوطاً مركبا
او تفضموه عن الرضاع فانه ليرى دم الاعداء احلى مشربا
- والله صحيح اللي تقوله يا ابو غزوان .

وفهم الحكيم شيئاً ، وفهم السلطان شيئاً آخر ، لكن الموضوع الاساسي
طوي ، مع تصميم لا ينفك يتزايد لدى الحكيم ان لا يترك قضية تفوته او ان
يسهو عنها . لما وصل الى هذه القناعة اعتبر ان ارجاءه لكتابة النظرية ليس
خطأ ، فالنظرية يمكن ان تحتل ، ويمكن ان تؤجل ، خاصة وانها لا تعني هذه
الفترة وحدها ، ولا تعني هذا الجيل وحده ، وانما هي تمتد وتستمر عبر
الاجيال . ومما زاد في قناعته وتأكده ان اموراً بهذا الحجم سها عنها او فاتته
خلال فترة التفكير والتحضير فقط ، أما لو تابع فان اموراً اكثر خطورة واهمية
يمكن ان تفوته . هكذا قال لنفسه من اجل ان « يوافق » بصعوبة على ارجاء
الإقلاع .

لو ان الامور لم تتعد ذلك لعرف الحكيم كيف يواجهها اولاً ثم كيف
يعالجها ، لكن ما كان يقلق الحكيم هو عدم مجيء غزوان خلال الخريف
الفاتح ، ثم الرسائل العديدة التي بعث بها ، وكلها تشير ، بشكل او بآخر ،
الى احتمال تأخير مجيئه ، وربما عدم مجيئه خلال هذا الربيع أيضاً . كان يريد
« واحداً من الصلب ، من اللحم والدم ، قريباً ليكون عوناً ، بعد أن نخلى عنه
الآخرون » ولذلك بعث برسائل عديدة إلى غزوان يطلب إليه فيها أن يأتي .

لما مرت الاسابيع الاولى من الربيع وغزوان لم يأت ولم يكتب ، فقد اصبح
قلق الحكيم خوفاً « بعد ان انهي دراسته في الصيف الفاتح . لم تبق له حجة .
يجب ان يأتي ، أما فكرة الدراسة العليا فانها دلح لا يمكن ان اوافق على بقاءه ،
أما اذا اراد البقاء لان امرأة امسكت به فهذه هي المصيبة الكبرى . معنى ذلك
ان يرى الانسان نهايته بام عينه : كيف يذوب ويتلاشى مثل الشمعة ، دون ان
يخلف اثرأ او احداً » .

هز الحكيم رأسه موافقاً ، لكن بدا بوضوح انه لا يعني هذه الموافقة ، قال
حماد :

- ولو سألتنا يا حكيم كان علمناك بكل شيء .
واضطر الحكيم ان يوافق على هذه التفسيرات او التبريرات ، وان يطوي
الموضوع مع هؤلاء .

أما حين التقى بالسلطان ، فقد تعمد ان يذكره امامه ، قال له ببعض
المرارة :

- اخشى ، يا صاحب الجلالة ، ان لجنة الاستشارة الاقتصادية في القصر ،
وبعد ما من الله سبحانه وتعالى بالمال ، لا تقدر اهمية المال ، ولا تعرف كيف
يجب ان ينفق ، لان كثيراً من المشاريع التي تمت الموافقة عليها اخيراً بدأ الناس
يتكلمون حولها : من تعهداها ؟ بكم ؟ وهل هي ضرورية ام لا !
قال السلطان وهو يتبسم ابتسامته الحصانية الكبيرة :

- يا ابو غزوان . . اذا الناس اشتغلت ، ولعبت بالفلوس تنسى كل
شيء ، وهذا اللي حنا نريده . خل الناس تركض وتتعب ، حتى اذا جاء الليل
مثل الحجارة انسدت وغفت !

رد الحكيم بغيظ ، وكان يعني ما يقوله :

- يا طويل العمر . الرجال ما هي بس بالفلوس تنسح . بالفلوس وبالنهود .

ضحك السلطان بقهقهة عالية وبدأ يتلمظ ، وبعد ان تطلع الى الحكيم
تابع وهو يهز رأسه :

- الحق ما تقوله يا ابو غزوان ! .

- والفلوس لمن يستاهلها ، لمن يستحقها الف هناء ، لكن بعض الاحيان
تروح بغير دريها وتضر ، او كما قال الشاعر :

وأحفظ درهمي عن كل شخص
لثيم الطبع لا يصفو لانسني

وبعد قليل وبحزن :

دم الانسان ولحمه ، على الاولاد بالذات « وتذكر ايضاً ولديه اللذين يدرسان في مدرسة داخلية بيرمانا ، وكيف يحس نحوهما بالرابطة الحقيقية ، بالمحبة التي تفيض من قلبه ، وتجمعه بعض الاحيان حزينا . كان يفكر متى ينضم اليه اولاده جميعاً ، كيف يكونون حوله مثلما يكون الاشبال حول ابيهم الاسد . عند ذاك سوف يتكلم معهم كما يتكلم مع نفسه . حتى ادق افكاره واكثرها خفاء يمكن ان يطلعهم عليها ، عكس ما يفعل الآن ، اذ لا يستطيع ان يظهر عواطفه وقناعاته لاقرب الناس اليه . « ليس من السهل الثقة بالناس او حتى معرفتهم ، والانسان لا يمكن ان يُكتشف ويُعرف الا في حالات قليلة : عند الخوف ، او عند اقتسام الاموال والنساء ! « ومرت في ذهنه صور الذين عرفهم او ساعدهم ، لكن اقوى صورة ، والتي طغت على كل ما عداها كانت صورة سعيد . « ابن الكلب لما وصل الى حران كان مثل الشحاذ، اطعمته ، سقيته ، وخذ يا ابني ، بس اشتغل . لما صار براسه خير دار ظهره ومشي . ولا حتى كلمة يكثر خيرك يا ابو غزوان . . وراح يشتغل مع من ؟ مع الناس اللي رايدين رأسي ، اللي رايدين يشوفوا جنازتي اليوم قبل بكره . طلع لثيم وخسيس ولا كأني احسنت اليه ، لكن هذه هي حال الدنيا : الشاطر وذراعه ، لا اخلاق ولا شرف « ولما تراءت له صورة غزوان ، وقد اصبح رجلاً وواثقاً قال يعزّي نفسه : « كفانا تجارب ، نحن اولاد اليوم » .

تحدث الحكيم كثيراً مع زوجته ، قال لها « ان المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين » ولا بد ان يبدأ من جديد اعتماداً على غزوان . وتحدث معها ايضاً حول افكار كثيرة ، لكن دائماً كان مشوشاً ، وغالباً ما انقطع الحديث فجأة . فبعض الاحيان لا يعرف ماذا يقول ، او كيف يعبر عن الافكار التي تملأ رأسه . وفي احيان اخرى يرى وداد شاردة ، وربما تفكر في امور اخرى . قال لنفسه ذات مرة ، وكان يتحدثها ووجدتها بعيدة « لا بد انها تفكر بوجه لغزوان . تستعرض الوجوه والقربان ، وتفاضل بينها ، وغزوان اذا تزوج واستقر تأخذ الامور شكلاً آخر ! « وفجأة تراءى له ان غزوان تزوج وجاءه اولاد : وانه يجد ، بالاضافة الى مشاغله الكثيرة ، الوقت الكافي لكي يداعب الصغار ، لكي يقضي معهم وقتاً ممتعاً . قال في نفسه « اول شيء

هكذا تضاعفت وتجمست مخاوف الحكيم ، وكانت هذه المخاوف تعاوده في ساعات واطقات كثيرة ، حين يكون مع الآخرين ، وحين يكون وحيداً . وعاودته ايضاً في الاحلام وقد فزع منها كثيراً . ولولا المعلومات الواسعة التي يملكها في تفسير الاحلام لوقع فريسة للاوهام اوربما المرض .

الآن ، في نهاية الربيع ، وقد عاد غزوان ، بعد ان طال انتظاره ، فقد بدا بنظر ابيه ، وينظر الكثيرين الذين رأوه وعرفوه من قبل رجلاً بكل معنى الكلمة : سمن كثيراً قياساً للسابق وبدت له صلعة خفيفة في مقدمة الرأس ، اضافة الى مظهر الرجال وطريقة تصرفهم . تذكر الحكيم شبابه ، لكنه لم يكن اصلع هكذا . قال لنفسه بنوع من الفخر « الملعون على اخواله ، خاصة من ناحية الصلع » . أما معرفة غزوان باناس كثيرين فقد فاجأت ابيه . يعرف عدداً من الامراء ، وعلاقته بهم علاقة حميمة ، ويعرف ايضاً عدداً من كبار الضباط ، والحكيم الذي دهش وابدى استغرابه اول الامر ، ما لبث ان اصبح فخوراً « الولد سر ابيه ، والدروس التي تعلمها منذ الصغر تظهر نتائجها الآن » .

كان وصول غزوان مناسبة لان يجدد الحكيم حيويته وينشرد اعتباره ، فالعزلة التي عاشها خلال الشهور الأخيرة ، ثم الصدمات التي تلقاها واحدة بعد اخرى ، والتي تجاوز كلام الناس عنها الهمس الى الحديث الصريح ثم السخرية ، جعلته يشعر بالاهانة والانكسار ، اكثر من ذلك جعلته يفقد ثقته بنفسه وبالآخرين . أما بعد ان وصل غزوان ، وتلك الحفاوة التي اظهرها نحوه اصدقاءه ومعارفه ، فقد بدأ الحكيم اكثر مرحاً وتفاؤلاً بالمستقبل . حتى آام الظهر التي لازمته خلال الشتاء ، والتي اضطرته الى الاستمرار بارتداء العباءة السوداء ، رغم قراره بتأجيل التدوين ، بدأت تتراجع ثم زالت تماماً .

اخذ الحكيم يعيد ترتيب اوراقه ، كما يقولون . قال لنفسه بأسى : « الانسان يتعلم من كيسه ، لا بد ان يجري ويجرب حتى يصل الى نتيجة ، الى حالة التوازن الكلية . أما الاشخاص الذين يسمون انفسهم اقرباء او اصدقاء ، او هكذا يدعون ، فغالباً ما يكون الطمع هو دافعهم . الآن لا يمكن الاعتماد الا على الدم ، على الاقرباء الحقيقيين ، الاقرباء الذين هم من

هكذا تساءل بإعياء كأنه لا يصدق اذنيه ، فلما استوعب معنى الكلمات التي قالتها زوجته تهالك على كرسي قريب . اسودت الدنيا في عينيه ودارت ، شعر انه منبوذ ، منبوذ ووحيد ، وان الجميع يتخلون عنه . لم يبق احد الى جانبه، حتى وداد تبدو له الآن بعيدة بعيدة، والا كيف نقلت اليه الكلمات بهذا الحياء البارد وكأنها لا تعني لها شيئاً خطيراً ، شيئاً اقرب ما يكون الى القتل ؟ كان بإمكانها ان تنقلها بشكل آخر ، ان تمهد لها ، وقبل ذلك ان تحاول منع غزوان من السفر . لو كانت امأ بالمعنى الحقيقي لفعلت ذلك ، ولما مكنتها الوصول الى نتائج حقيقية . معه ، هو الانسان المجرب ، والذي بلغ هذا العمر ، لا تمهدأ ولا تتوقف عن المحاولة اذا اردت شيئاً . كانت دائماً تصل ، فكيف مع هذا الشاب الصغير ؟

ظل هكذا وقتاً . غاب عن كل ما حوله ، او لم يعد يحس بكل ما حوله . حتى وداد التي ظلت الى جانبه بعض الوقت ، استغربت رد فعله ، ثم ملأت فانسحبت ، ولم ينتبه لانسحابها او حين جاءت الى الغرفة مرة او مرتين !

ولا يعرف كيف خرج ، وكيف ركب السيارة ؛ وحين سأله رضوان الى اين يتوجه اشار بيده اليسار ان يتحرك ، ولم يقل كلمة واحدة .

وكلما قطعت السيارة مسافة والتفت رضوان قليلاً الى الوراء متسائلاً ، كان الحكيم يشير اليه بالحركة ذاتها ان يستمر . اجتاز موران من اقصاها الى اقصاها بدت له مدينة منفرة قاسية . نفس الشعور الذي لازمه منذ اللحظة الاولى لوصوله اليها ، صحيح انها تغيرت كثيراً خلال هذه السنوات ، امتلأت بالفيلات والبيوت المبنية على الطراز الياباني والطراز الانكليزي ، وبيوت اخرى كثيرة اخذت من كل طراز طرفاً ، وظلت في امكنة عديدة منها ، خلف الشوارع الواسعة وخلف الابنية الحديدية العالية ، تلك البيوت الطينية الواطئة . كما شقتها الشوارع العريضة والشوارع الدوارة ، رغم ان كل هذا حدث في بضع سنين ، وتغيرت احوال الناس وحتى اشكالهم ، اذ اصبحوا اكثر سمنة ، ولا يبالغ الحكيم اذا شبههم بالبراميل ، كما كان يسمى نائب امير حران ، ومع ذلك لم يحب هذه المدينة ولم يألفها .

يجب ان يعرفوه ، واول كلمات يجب ان يحفظوها : العائلة . . واسم العائلة « ويدا له اسم المحملجي جيداً وقويًا ، لكنه اعترف انه صعب ايضاً . كاد ييوج ويثرثر بهذه الافكار لوداد ، لكن وجد ان الوقت ما زال مبكراً !

ثلاثة اسابيع من الافكار والاحلام ، وقد تعمد ان لا يبحث مع غزوان اية مشاريع محددة ، وان لا يتحدث عن المستقبل حديثاً دقيقاً او كاملاً ، اذا كان البدو لا يسألون ضيفهم عن حقيقة زيارته لهم خلال الثلاثة ايام الاولى للزيارة ، واذا كانت موران لا تزال تغرق في عقلية البداوة والانحطاط رغم المال ، والمظاهر ، فيجب ان اتفوق عليهم ، نعم ان اتفوق عليهم . وفي كل شيء . . ساتركه هو لكي يفاتحني في الموضوع ، علماً بأنه ليس ضيفاً وانما هو من عظام الرقبة ، او هو عماد آل المحملجي . . عمادها للمستقبل « وضحك بزهو .

في نهاية الاسبوع الثالث لم يقل له غزوان . قالت له وداد . وبدت غير منفعلة :

- يا ابو غزوان . . عند غزوان موضوع خجلان يحكي فيه معك . .

ومثل طفل صغير سأل بانفعال :

- خير يا وداد . . بشري ، احكي . .

وتراءى له ان الكلمة الوحيدة التي ستنتطق بها هي : الزواج . شعر بالفرح وبما يشبه الارتخاء النشوان . كان يتطلع اليها بلهفة . وعيناه وحدهما تلحان عليها ان تتكلم .

سألت بانكسار قريب من الخوف :

- وما في زعل ؟

- زعل ؟ اعوذ بالله ، الواحد يزعل من ابنه ؟

قالت وعيناها الى الأرض :

- غزوان ناوي يسافر ، يرجع لاميركا .

- يسافر ؟ يرجع لاميركا ؟

فوقهم التراب، فيصبحوا جزءاً من التراب الذي حولهم، وأخيراً يطلب منه أن يأخذه الى المقابر، فلا بد ان يكون في الامر شيء يفوق قدرته على الفهم أو الاستيعاب، ومع ذلك لا يجد مفرأً من الاستجابة، لكن صمم ايضاً ان يكون حذراً، واذا تطلب الأمر قاسياً.

لقى الحكيم نظرة واسعة على الارض الفسيحة، ولم يجد الا احجاراً قليلة متناثرة هنا وهناك، احجاراً بحجم الجماجم، تزيد قليلاً او تنقص قليلاً، ولم ير القبور. التفت الى الوراء، رأى على بعد خطوتين منه رضوان صامتاً، لكن وجهه مليء بالقسوة. سأله برخاوة:

- هذه هي قبور موران؟

هز رضوان رأسه ولم يتكلم. قرأ الحكيم الفاتحة ومسح وجهه. ثم استدار وركب السيارة من جديد وقال:

- الى البيت.

قال الحكيم لنفسه والسيارة تقطع موران مرة اخرى من الشرق الى الغرب «لا قيمة لشيء ابدأ، لا للأحياء ولا للموتى، في هذه المدينة، فاذا كانت قبورهم هكذا، فان موتهم اشد تعاسة من حياتهم».

في الليل المتأخر، لأول مرة تسرى وداد زوجها يبكي، بكى بصمت ثم نشج، وحاول ان يکنم صوته لكنه لم يستطع. وحين استوضحت بطريقة حزينة اقرب الى الشفقة رد دون ان ينظر اليها:

- كان املنا بغزوان، قلنا انفرجت، لكن يبدو انه لا يطيق موران... ولا يطيقنا!

وحاولت ان تشرح وتوضح، لكنه لم يسمع ولم يناقش، بدا له اكثر من قبل انها لم تحاول ثنيه عن فكرة السفر، وربما كانت راغبة بهذا السفر، وتأكد انه لن يستطيع شيئاً.

أما بعد ذلك، وحين تكلم غزوان، فقد شرح لابه انه التزم مع شركة

الآن وهو يذرع المدينة، لا يرى في وهج الشمس الا كتلاً سوداء صماء عاتية، وهذه الكتل تناصبه العداة ايضاً. تمنى لو انه لم يأت، وتمنى لو انه لم يعرف هذه المدينة.

قال لرضوان، ولا يعرف لماذا:

- خذني الى ولي من اولياء الله... يا ابني!

التفت اليه رضوان برأسه وبجزء من جذعه ليتأكد من الكلمات التي سمعها. قال له من جديد:

- ولي... ولي يا ابني.

وحين ظل وجه رضوان جامداً مستغرباً، زفر الحكيم وسأل:

- ما عندكم في موران اولياء؟ رجال صالحين؟

- كل الناس خير وبركة يا حكيم.

- يا ابني ناس ماتوا وما بقي منهم الا قبورهم وبركاتهم.

- مثل هذون بموران ما تلقى... يا حكيم.

وتأكد رضوان ان الحكيم بوضع غير طبيعي، انه يهذي، او انه لا يفهم ما يقوله. ظل ينظر اليه في المرأة، يراقبه، رآه يتغير، يغمض عينيه، يفتحها على اتساعها، يهز رأسه بلوعة. خاف من هذه الحركات، لكنه ظل صامتاً. في لحظة مفاجئة قال له الحكيم بنزق:

- خذني يا ابني الى مقابر موران.

انزلقت السيارة برخاوة كالحية، وكأنها كانت وحدها تسير، لان الدهول امتد الى رضوان ايضاً، فاذا كان قد استغرب منذ البداية طلب الحكيم في ان يسير هكذا دون وجهة محددة، فقد عزا الامر الى رغبة في الترويح عن النفس او الاستمتاع بالشمس في هذا اليوم الربيعي، أما بعد ان طلب منه ان يأخذه الى الاولياء والصالحين، والموتى بشكل خاص، مع انه يعرف ان موران تنسى موتها بسرعة، لا تنساهم فقط، بل وتدرس آثارهم بمجرد ان تهيل

في سان فرانسيسكو ، وسيبدأ العمل معها في ١٥ تموز ، ولا يستطيع ان يتأخر يوماً واحداً عن هذا التاريخ ، لانه وقع عقداً ، وقال ايضاً ان للشركة اعمالاً هامة في الشرق الاوسط ، بما في ذلك سلطنة موران ، وقد نصحه بعض اصدقائه من العسكريين والامراء ان يبقى على صلة بهذه الشركة ، خاصة وانه سيكون في قسم المبيعات ، وسوف يكون العربي الأول الذي يستخدم في الشركة ، وفي هذا القسم . أما فكرة الزواج فإنها غير واردة الآن ، وحلماً يأتي الوقت المناسب . . فلن يخطو اية خطوة قبل ان يستشيرهُ !

راتب وسمير كانا مع غزوان ، وساهما ، ليس في اقناع الحكيم ، وانما في التخفيف عنه ، ذكرا ان العمل ومستقبل العمل يتطلب وجود شخص ، مثل غزوان ، على صلة بالشركات الاجنبية ، وان كل عاقل يخطط للمستقبل يجب ان يفكر هذا التفكير ، « لان موران - كما قال سمير - وصلت من حيث العمالة ، الى السقف ، ولان اي توسع واية آفاق محتملة تتطلب علاقات مع المنايع ، والمنايع في الخارج ، مع الشركات الاجنبية » والحكيم الذي سمع ولم يسمع ، لم يكن يملك الاعتراض ، لان الامور ، كما بدت له ، اخذت مساراً لن يستطيع تغييره .

الشيء الوحيد الذي استطاع الحكيم ان ينتزعه من ابنه كوعد : ان لا ينقطع ابداً عن الكتابة ، وان يزورهم في موران ، مرتين في السنة ، وان يبقى مع العائلة فترة لا تقل عن الشهر في كل مرة . وسافر غزوان وبدأ الحكيم ينتظر ، ثم غرق في جو موران والعمل من جديد .

الانسان الوحيد الذي بكى بحرقه يوم سفر غزوان : اخته سلمى . بكت كما لم تفعل من قبل . تعلقت برقبتة ، امام الجميع ، وطلبت منه ان لا يسافر ، ولما ابتسم ولم يجب ، سقطت دموعها ، ثم بكت بحرقه ، واخيراً اخذت تنشج وتضرب بقدميها الارض . صحيح ان امه بكت ، او بالاحرى سقطت دموعها ، لكن مع ذلك لم تكن حزينة . ابوه بدا متماسكاً واقرب الى عدم الاهتمام ، وقد حاول ان يضحك ، لكن فكيه لم يساعده .

الصغيرة التي لا يمكن تقدير عمرها بدقة ، لكنه بكل تأكيد لا يزيد على اربع عشرة سنة جعلت الجميع في حالة من الحزن اقرب الى اللوعة . قال الحكيم لنفسه « لو ان وداد فعلت بعض ما فعلته هذه الطفلة الصغيرة لما سافر » وقالت وداد « صغيرة ووحيدة ولا تعرف ماذا يفرحها وماذا يبكيها . . لكن بكرة تنسى » أما نادبة التي احتضنت سلمى ومسدت على شعرها فقد اعتبرت ان سفر اخوتها الواحد بعد الآخر هو السبب ، أما بعد ان جاء غزوان فانها تريد ان تتمسك باحد . وهكذا فكر راتب وحامد . . وسمير ايضاً . لكن سمير رأى الى جانب الدموع شيئاً لا يعرف ما هو . صحيح انه رأى الصغيرة مرات كثيرة من قبل ، لكن لا يعرف لماذا لفت نظره نهذاها . كانت في السابق اصغر من ان ينظر اليها ، وكان لا يرى فيها الا مجرد طفلة صغيرة ، يمكن ان تستحق منه ابتسامة او كلمة على ابعد تقدير . أما الآن وهو يراها هكذا فقد استغرب بكاءها اولاً ، ثم استغرب اكثر من ذلك تلك الدقات العصبية القاسية المؤثرة وكأنها دقات طبل .

كان تدخل سمير ذا نتائج حاسمة ، فقد استطاع بكثير من البراعة ان يقنع الحكيم : « لان الاسكندرية ليست فقط البحر ، الاسكندرية مقاهي الشاطئ ، الاستراحات ، الهواء البحري المنعش .. وهناك يمكن ان نتابع البحث ولا بد ان نصل الى نتائج مهمة » .

وسافر سمير مبكراً . وكان يفترض ان تسافر وداد بعده بايام لتصطحب معها الاولاد من لبنان ، على ان يسافر الحكيم وسلمى مباشرة بحيث يلتقي الجميع في الاسكندرية في الخامس من تموز ، وقد وافقت وداد على هذا التاريخ « كرمال عيون الحكيم » ، اضافة الى شراء بعض الحاجات الضرورية من بيروت .

وفي بداية هذا الصيف وافق الامير فزان يتنقل الى قصر السعد ، كانت موافقته مفاجئة وغير متوقعة ، وقد سر السلطان من هذه الخطوة واعتبرها دليلاً على بعد نظره ، فقد توقع منذ البداية هذه النتيجة « لان الدم ما يصير ماي ، يا ابو غزوان » هكذا قال للحكيم وهو يرف الى هذه البشرية السارة . ولان السلطان كان في حالة من الانشراح وصلت حد الفرح فقد تحلى ، لاول مرة ، عن بعض العادات التي تعودها ، فبعد ان كان يرفض الدعوات ، ولم يدخل اياً من بيوت الذين يعملون في القصر ، فقد ابدى رغبته في ان يزور الحكيم في قصره .

هذه الرغبة التي سرت الحكيم الى اقصى حد افزعته ايضاً ، اذ لم يبق على سفر وداد سوى ايام قلائل ، ودعوة مثل هذه تتطلب استعداداً قد يتجاوز الاسابيع ، لكن حالة الانفعال التي سيطرت على قصر الحير ، والتي انتقلت كالكهرباء من الحكيم الى وداد ذاتها جعلت الأمر سهلاً وصعباً في آن واحد . اعتبر الحكيم ان زيارة السلطان له في بيته ليس رداً للاعتبار فقط وانما تعزيز للنفوذ وتأكيده . وان هذه الزيارة يمكن ان تفتح له آفاقاً جديدة . خاصة وقد بدأ يتذكر بعض ما قاله غزوان عن امكانية قيام علاقات خاصة بين سلطنة موران والشركة التي يعمل لديها من اجل اعادة تسليح الجيش ، ولاقامة شبكة من المنشآت العسكرية . تذكر الحكيم ذلك وود في اعماقه لو ان غزوان اخر سفره شهراً او اثنين . اذن لاستطاع بنفسه ان يشرح للسلطان وان ينال موافقته

والاشياء معها بدت صعبة او قاسية في هذه الحياة فلا بد ان تنتهي ايضاً ، وهكذا انتهت هذه اللحظات ، اذ حين بدأ غزوان اميل الى العصبية وكاد يفقد سيطرته وتتساقط دموعه ، فقد سحبت امه سلمى من يدها . قالت لها ان سفرته قصيرة وسيعود ، وقالت انها ستأخذها معها بعد شهرين في زيارة لغزوان . اما الحكيم الذي ظل متماسكاً ومزح اكثر من مرة ليخلق جواً يمكنه ، قبل ان يمكن احداً غيره ، من تحمل هذه اللحظات ، فلم يحتمل ، اذ غرق في صمته وظل يرقب المشهد بانفعال اقرب الى الانهيار والحزن ، لكن في لحظة انتهى كل شيء . قبل غزوان الرجال جميعاً وسلم على النساء ، وعندما جاء دور سلمى ، قال لها بطريقة استعراضية :

- اذا لم تضحكي ما راح اودعك .

ولم تضحك ، لكنه قبلها اكثر من مرة ، غمر وجهه في شعرها وقرص خدها ، ثم لوح بيده وهو يتقدم نحو الطائرة ، بعد ان فتحت له خصيصاً قاعة الشرف ، وخلال لحظات انتهى المشهد كله .

احتاج الحكيم الى بضعة اسابيع لكي يعود الى حالة من الصفاء ، وكاد يفكر او يشرع بجماعة العمل في النظرية من جديد ، اذ راجع « مسوداته » اكثر من مرة ، ووضع خطوطاً حمراء وخضراء تحت عبارات بذاتها ، وقد بدا سعيداً وهو يقرأها لنفسه بصوت عالٍ ، لكن هجوم الصيف مبكراً تلك السنة افسد مزاجه ، بل وجعله عصبياً ، خاصة وان وداد اقترحت منتصف حزيران تاريخاً لبداية الاجازة ، واقترحت ان تقضي العائلة الصيف كله او الجزء الاكبر منه في الاسكندرية ، « لاننا زهقنا من بيروت والجبل ، ولازم الاولاد يغيروا جو » اما الحكيم فكان يطمح ان يقضي الصيف في الفيلا التي اشتراها قبل ثلاث سنين في ضهور الشوير ، « لان الهواء البارد يفتح خلايا الذهن .. ولان الفيلا اذا لم تسكن سنتين متواليتين فلا بد ان يفكر اهل الضيعة ان اصحابها ماتوا او تخلوا عنها .. واولاد الحرام كتار » واذا لم تقتنع وداد فقد فكر الحكيم ان يقضي جزءاً من الصيف في الاسكندرية ، والجزء الآخر في ضهور الشوير ، « لكن المشكلة اني والسباحة عداوة ، ما لنا صحبة مثل الشحم والنار ، والشمس طالعة من نافوخنا » .

« ولا بد ان تعتذر منه ، والا سأجنّ او اقتل نفسي » هكذا قالت للحكيم بعد ليلة لم تذق خلالها النوم ، وقد استعانت بثلاث من النساء من اجل ترتيب غرف القصر . والحكيم الذي لم يذق النوم ايضاً ، بعد ان كفّ عن تقديم المساعدة ، وانصرف الى اعداد كلمة ترحيب بالسلطان . وقد قضى الليل بطوله يكتب ويمزق . واستعمل اكثر من قلم « لان بعض الاقلام استعصت وحرنت ، ولان بعض الدفاتر عاقر فلا تحبل ولا تلد » فقد قرر ان يرتجل الكلمة ارتجالاً . ولكي لا يخطيء او يسهو عن امر من الامور سجل رؤوس اقلام الافكار التي سيتطرق اليها ، واستعاد بعض ابيات من الشعر ، كان على ذلك المستوى من التشوش والانفعال حينما سمع صراخ وداد ثم بكاءها ، واخيراً طلبت منه الغاء الزيارة او ان يفعل اي شيء من اجل انقاذ الموقف ، والا فانها لا محالة ستجن او تقتل نفسها .

وبكثير من المداراة واصطناع الصبر اوضح لها ان السلطان رجل بسيط ، لا يلاحظ ولا يدقق ، ثم انه سيكون وحده ، او مع عدد محدود من الرجال ، واقترح عليها اخيراً ان تنام ساعة او ساعتين ، وسيتولى بنفسه الاشراف . وفي محاولة لاقتناعها قدّم لها حبة مهدئة وكاساً من الماء ، وفجأة تطلعت اليه بنظرات متفرسة خاف منها وارتجف قلبه ، أما حين ابتسمت وهي تستلم منه حبة الدواء ، فقد قالت وكأنها توشوشه :

- بشرط واحد . .

- بشرط؟

- اذا كان السلطان وحده لازم اسلم عليه !

- لكن يا وداد . .

- ما فيها .

ونامت وداد حتى الظهر . نامت نوماً عميقاً متصلاً كما لم تفعل منذ ثلاثة ايام ؛ وخلال نومها حلمت ان السلطان جاء ، وانها تقف بين يديه . كانت خائفة اول الأمر ، اما عندما ضحك كالحصان ، فقد ابتسمت . ولما ضحك اكثر من قبل ضحكت معه ، وحين مد يده الى ذراعها عند الكتف ، وكأنه

مباشرة . ومع ذلك ، قرر الحكيم ان يمهد للأمر ، على ان يأتي غزوان في فترة مبكرة لتابعته ، ونتيجة لذلك راودت الحكيم فكرة اعادة النظر بالاجازة من حيث موعدها او مدتها . أما وداد التي وصل انفعالها درجة الاضطراب ، فكانت لا تعرف اتفرح ام تغضب ام تبدأ الاستعداد دون تأخير . فالسلطان الذي ملأ حياتها خلال السنوات الماضية لفرط ما تحدث عنه الحكيم وغير الحكيم ، والذي كان يبدو خطيراً وكبيراً . . وفتياً ايضاً ، نظراً لكرمه ولكثرة ما تزوج من النساء خلال الفترة التي قضتها في موران ، ثم ما ذكره لها الحكيم ، واكثر من مرة ، حول تمعنه بالصور التي التقطت لهم في اميركا ، وكيف انه اكتشف الشبه بينها وبين غزوان . وتلك النسوة التي عاودتها مرة بعد اخرى ان السلطان تطلع الى صورتها بكثير من العناية والانتباه ، كل ذلك ملأها رغبة في ان ترى هذا الرجل ، ان تراه عن قرب لتعرف اي نوع من الرجال هو .

ثلاثة ايام من الاستعداد الكامل ، ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ . لم يستطع خلالها احد من اهل قصر الحيران يستريح او ان ينام ، الا كما تنام الكراكي ، فالعمال الذين جندوا لطلاء اجزاء من الادراج والشرقتين الامامية والخلفية ، اضافة للمدخل ، أمضوا يومين وليلتين قبل ان يفرغوا . والذين جاءوا لتقليم الحديقة والعناية بدوالي العنب والخضار استمروا في العمل طيلة يومين كاملين ، وثلاثة منهم واصلوا العمل ايضاً حتى في يوم زيارة السلطان . أما الطباقون والخدم والذين ساعدوا في اعادة ترتيب البيت فقد سببوا من الازعاج والارهاق لوداد ما دفعها الى الصراخ عدة مرات ، وقد بكت امام عدد منهم مرتين على الأقل . والحكيم الذي كان يدور كالنحلة ولا يعرف ماذا يفعل او كيف يكون مفيداً وساعد في هذا العمل الحافل السريع الذي يجري حوله ، فقد تأكد في حالات عديدة ان عدم تدخله يمكن ان يؤدي الى التقليل من وقوع الاخطاء ، او على الاقل يمكن للبشر الذين يعملون ان يقوموا بعملهم دون اضطراب ودون ان يحسوا بالمراقبة .

في الصباح المبكر جداً ليوم الزيارة وصل الاضطراب والفوضى حداً ايقنت معه وداد انها لن تستطيع ان تستقبل السلطان ما دامت الامور بهذا الشكل ،

الكراج الايسر .

خلال الفترة الاولى ظل التهيب، الاقرب الى الارتباك ، مسيطراً ، فقد اجال السلطان نظره في الغرفة اكثر من مرة . وتطلع بالحاح نحو الابواب الداخلية . وحين قال ان القصر جميل ومريح ، رد الحكيم بالقصة المشهورة التي حصلت لهارون الرشيد ، وقد رواها لابنائه اكثر من مرة ، اذ توقع ان يتعرضوا لسؤال من السلطان مثل سؤال الخليفة للصبي الذكي ، وكيف عليهم ان يجيبوا !

لاول مرة يلتقي الرجلان خارج القصور السلطانية او الاستراحات . الآن في قصر الحكيم . اي شرف تفضل السلطان فمنحه إياه، واي شعور بالامتنان يغمره في هذه اللحظات ؟ كان يوده ان يقول ذلك ، ان يعبر عنه . وخطرت له فكرة ان يقف ويلقي الكلمة ، لكن وجد ان الوقت ما زال مبكراً ، وربما كلمة من هذا النوع ، وامام السلطان وحده تعتبر غير لائقة او نوعاً من النفاق ، فصرف النظر عنها . وخطرت له فكرة ان يستعيد بعض النكات ، لكن تعلم منذ وقت مبكر ان النكتة اذا لم تأت في السياق ، وبالمناسبة ، او كما كان يقول لنفسه « حفر وتنزيل » فلا بد ان تعتبر خفة لا تليق به . وفكر ان يسأل السلطان عن اخيه الامير فزوما اذا جدت امور حول سلوكه وعلاقتها ، لكن تردد « قد يعتبر ذلك تدخلاً ، ثم لا يليق سؤال السلطان حول الامور المزعجة » .

هكذا مرت الافكار في عقل الحكيم ، واذ خاف من الصمت ، فقد حاول ان يبتسم اكثر مما ينبغي ، وان يفرك يديه اكثر مما يفعل عادة . قال لنفسه : « ما كنت قط عبياً او مرتبكاً كما انا الآن » وأحس ان الزمن في مثل هذه اللحظات ، قياساً مختلفاً . وتذكر انه سجل ملاحظات ذكية للغاية حول مفهوم الزمن ، ووضعها تحت عنوان كبير : « مفهوم الزمن عند المحملجي » . وتذكر ايضاً انه احتار بين كلمتي « زمن » و « زمان » . وكان مصمماً ان يبحث الفرق بينهما ، لكن لا يعرف كيف سها عن ذلك .

قال السلطان في محاولة لان يخلق جواً اليفاً :

يخس اللحم ، فقد شعرت بنشوة ، وبخوف ايضاً . ولما قرصها من خدها صرخت بلذة ولم تتألم ، وفجأة طلب السلطان من الجميع ان يخرجوا فخرجوا ، وبقيت معه . كان قوياً مثل ثور ، وكان بسيطاً مثل طفل . كان يضع نظراته على عينيه بين لحظة واخرى وينظر الى كل جزء من اجزاء جسمها ، وهي بمقدار ما تفرح تشعر بالحنج ، لكن كانت دائماً تحس بالنشوة . أما حين كان يتقلب فوقها فقد احست بنار متوهجة ، بنار دافئة تملأ خلاياها كلها ، وظلت هكذا وقتاً طويلاً ، كانت تضحك وتحاول الهرب ، لكن النار تطوقها من كل ناحية . لما افاقت وجدت ان الحكيم قد اسدل الستائر المزدوجة ولم تكن تعرف هل هي في الليل ام في النهار . وحين تذكرت قامت فزعة ، وتطلعت الى السرير بخوف وكأنها تحاول اكتشاف ما اذا كان فيه احد معها !

والحكيم الذي اضطرب لحالة وداد ، وخاف ان تتفاقم وربما تؤدي الى نتائج لا يريدونها ، فقد اضطرب اكثر للشرط الذي وضعته : ان ترى السلطان ! ماذا لو اصرت ؟ وماذا لو كان مع السلطان آخرون ؟ والسلطان نفسه ماذا سيقول وكيف سيفسر الامر ؟ هذه الحالة شتت افكاره اكثر من قبل ، وكاد يصرف النظر نهائياً عن فكرة الخطاب ، خاصة وانه حاول تذكر بيتين من الشعر ، لكنه لم يستطع . وقضى صباح ذلك اليوم ، وحتى الظهر ، يتحرك في كل الاماكن دون ان يفعل شيئاً . أما بعد ان استيقظت وداد ، وكانت في حالة من الاشراق ، بعد نوم عدة ساعات ، فقد عاوده التفاؤل ، اكثر من ذلك بدا مستعداً ان يستجيب لطلبها فيما اذا كان السلطان وحده . . او مع رجال قلائل .

وجاء السلطان كالمستل ، جاء وحيداً ، ما عدا سبعة من الحرس . حتى السيارة الكاديلاك السوداء التي يسميها « الحف » ، والتي يفضلها على عشرات السيارات غيرها ، لما تتمتع به من مزايا تشعره وكأنه في غرفة نومه ، تخل عنها هذه المرة . ولم يستعمل الروز رويس الرمادية ، « النعامة » اذ كانت مرتفعة قياساً للسيارات الاخرى . ولم يستعمل « الحصان » ايضاً ، جاء بسيارة شفر مثل تلك التي تستعملها عادة نساء القصر . أما سيارتا الحرس فقد وقفت واحدة عند الباب الداخلي للقصر ، امام سيارة السلطان ، والاخرى ادخلت

الذي حصل والرفاه الذي يعيش فيه الناس ، وكيف ان ذلك كله نتيجة السياسة الرشيدة والحكيمة التي يتبعها جلالته . وان المستقبل سيكون افضل من الحاضر ايضاً « فقط يتطلب الأمر ان يكون لموران جيش قوي وسلاح حديث .. وهذا ليس صعباً او بالامر المستحيل » .

السلطان منتعش ، يهز رأسه موافقاً ومؤيداً ، ويضحك بفرح بين لحظة واخرى ، لكنه كان ايضاً بحاجة الى احاديث مرحة طليّة ، وجو من نوع آخر ، وعندما اقترح السلطان ان يبقوا على الشرفة وان يتناولوا عشاءهم في نفس المكان ، لانه لاحظ الطاولة الكبيرة التي اعدّها الحكيم في الصالة الداخلية ، فقد حبكت الامور فجأة . قال الحكيم بلهجة اعتذار :

- اذا كنتم تفضلون الشرفة ، يا صاحب الجلالة ، فيمكن ان نخدمنا اذن ام غزوان .

لم يجد السلطان كلمة مناسبة يرد بها ، ضحك بصوت عالٍ ، فكانت ضحكته اقرب الى الصهيل ، وكانت تعبيراً عن الفرح واللذة والموافقة . ولم ينتظر الحكيم ، نهض مثل قط ، وخلال دقيقة او اثنتين بدأ الموكب : الحكيم يتدحرج بشوبه الابيض ، وحبات دقيقة من العرق تتجمع على مهل فوق جبينه ؛ ووراءه ، على بعد خطوتين ، وداد ، بفستانها الاسود الضيق ، والذي يبرز بياض بشرتها المتألقة ، خاصة الرقبة وبداية الصدر ، وخلفها بخطوة واحدة سلمى ، وقد لبست ثوباً سماوياً موشى بوردات بيض ، أما شعرها الاصفر الكستنائي فقد عقصته وربطته بشريط اسود ، كانت تبدو صغيرة كأنها طفلة ، وكانت تبدو كبيرة كأنها امرأة ، خاصة وان امها رطبت وجنتيها بحمرة خفيفة لا تكاد تبين ، ولأول مرة وضعت لها كحلاً ابرز العينين الواسعتين الخائفتين .

كان الحكيم يقرأ في وجه السلطان انطباعه ورد فعله ، وكان يرقب بعناية كبيرة كل حركة مها كانت صغيرة او خفية .

ولاول مرة يبدو السلطان مرتبكاً كطفل ، وهو يسلم على المرأتين ، وربما ارتجفت عضلات وجهه ، اذ ركز نظارته اكثر من مرة ، وظل واقفاً اكثر مما

- الكانديشن رحمة من الله يا ابو غزوان ، خاصة بالنهار ، أما بالليل فهواء ربنا طيب !

لقطها الحكيم بسرعة ، وبارتباك ظاهر سأل :

- اذا كنتم تفضلون ، يا صاحب الجلالة ، هواء ربنا فيمكن ان نجلس في الشرفة .

- اخير لنا يا حكيم .

ومثل الجمل نهض . كان الحكيم قد كلف ثلاثة من الخدم ان يأتوا باوقات حددها لهم ، وان يدخل كل واحد من باب حدده له ايضاً بدقة ، وفي وقت محدد ، لكي تقدّم لجلالته الاركيعة ، ثم يقدم البخور وماء الزهر ، وحدد اين يوضع الجمر ، ومتى تأتي القهوة وكيف تقدّم . الآن ، بخروج السلطان الى الشرفة ، يختل البرنامج ، وربما ولد هذا نوعاً من الاضطراب ، الذي قد يؤدي الى نتائج غير محمودة . قال السلطان يواصل تبسطه :

- كأن البنائين توهم مخلصين القصر .. يا ابو غزوان .

والثفت السلطان في اكثر من ناحية يجتبر القصر ويتعرف عليه . رد الحكيم بمرح :

- البناء الجيد .. والسلاح الجيد ، يا صاحب الجلالة ثمنه فيه !

- عسى ان يكون منزل مبارك وعامر .. يا ابو غزوان .

- اقبل ، يا صاحب الجلالة .

- ابد .. حلالكم وانشاء الله دايمن فيه .

- بوجودكم يا صاحب الجلالة ، وانشاء الله دائمين فوق رؤوسنا .

في الشرفة ، وقد جلس الحكيم على نفس الكرسي الذي تعود الجلوس عليه ، ومع نسيمات الليل الرطبة الرخية تفتحت خلاياه وشعر بالثقة . تحدث عن موران حين وصلها ، كيف كانت مدينة بسيطة : « لا ماء ولا كهرباء ؛ أما الشوارع ، أما الابنية ، أما الحياة » ، وهز رأسه وهو يستعيد ويتذكر ويتسم . « أما الآن ! » . وتحدث عن المدن الاخرى في السلطنة والتقدم

لا يمكن ان تكون بهذه الحيوية والاهمية والانس لولا اللمسات الحضارية التي اضافها على الزيارة ، منذ اللحظة التي ترجل جلالته من السيارة وحتى لحظة المغادرة . فالجلوس في الشرفة ، مقابل الخضرة وتحت أفقاص الكناري ، واعواد الريحان التي قدمها للسلطان في لحظة مناسبة ، ثم كيف ساق الاحاديث والنكات ، وكيف افاض بتألق لم يصل اليه في يوم من الأيام . أما جلوس وداد وسلمى معها ، فقد اضفى على الجو عطراً رقيقاً ، وجعل السلطان في حالة من الود لم يره في مثلها من قبل . صحيح ان المرأتين لم تجلسا كل الوقت ، فقد تحركتا كثيراً ، وحتى في لحظات غيابهما استطاع الحكيم ان يروي بعض النكات ، ما كان ليرويا لو انها موجودتان !

يمر هذا الشريط في ذاكرة الحكيم ، أما كيف خطرت له تلك الفكرة العبقرية ، وكيف لمعت كما تلمع النيازك ، فانه هو نفسه لا يعرف كيف يفسرها ، ولذلك يعزوها للالهام ؛ فقبل ان يحدّثه عن موضوع التسبيح ، « وان الحظ ، والحظ وحده ، مكّن غزوان من التعرف على اهم واكبر شركة في العالم لبيع السلاح ، ويمكن ان نستفيد من معرفته وعلاقاته ، وقد وافق ان يقوم بهذه الخدمة للسلطنة من اجل الحصول على كل ما نريد من السلاح وبأية كميات نريد » .

ما كان لهذا الحديث ان يجدي او ان يكون عملياً لو لم تلمع الفكرة الام :
- الرجال العظام ، يا صاحب الجلالة ، يجب ان يبقوا في ذاكرة الاجيال ، وان يكون ذكركم على كل لسان ، وهذه المهمة ليست مهمة للتاريخ القادم ، وانما يجب ان تكون مهمة الحاضر قبل ان تكون واجب المستقبل ، ولذلك ارجو ان تسمح لي ، يا صاحب الجلالة ، وساعدني بان اناك موافقتكم على اقتراح محدد : ان نكتب تاريخ جلالتم ، منذ ايام الطفولة وحتى اللحظة الحالية . . .

السلطان الذي بدا له الامر طريفاً وجذاباً لم يعرف كيف يجيب عن هذا الطلب ، فقد اكتفى بالابتسام فبانت اسنانه الكبيرة . تابع الحكيم :
- سوف نسّمّي الكتاب يا صاحب الجلالة : « نسر موران » .

يفعل عادة مع ضيوفه الآخرين . والحكيم الذي اخرجهم وقوف السلطان أكثر مما ينبغي ، قال بانفعال :

- استغفر الله . . استغفر الله ، تفضلوا . . تفضلوا يا صاحب الجلالة .
ولما دارت عينا السلطان بتساؤل ما اذا كان من اللائق ، ان يطلب من المرأتين الجلوس ، فقد تولى الحكيم انقاذ الموقف :
- تفضلي يا ام غزوان ، اقعدي معنا شوية ، وبعدين شوفي كيف ترتبي قعدتنا .

ضحك لكي يكتسب شجاعة اضافية ، ثم تابع :
- لان جلالته رغب ان نسهر ونتعشى تحت السماء ، افضل من ان نخنق حالنا في الغرف وتحت المكيفات .

جلست وداد مقابل السلطان ، أما سلمى فقد ظلت واقفة ، وبدا ان الجميع نسوها او انشغلوا عنها ، والحكيم الذي التفت اكثر من مرة ، وفي محاولة لاختبار الجو ، ومدى الصميمية التي تولدت ، اكتشف نسيانه لسلمى ، قال لها باعتذار :

- تعالي . . تعالي ، يا حبيبتي . . تعالي الى جانبي !

« ثلاث ساعات وثمانيا وثلاثين دقيقة استغرقت زيارة جلالته » هكذا قال الحكيم بكثير من الغبطة ، وهو يستعيد مع وداد وقائع الزيارة « وكان من الممكن ان يبقى فترة اطول لو الحينا عليه اكثر » هكذا ردت وداد . وهي تتمطى وتستعيد في ذاكرتها صورة الرجل : كيف ضحك وكيف اكل وكيف نظر اليها بطريقة لذيذة .

أما عندما يستعرض الحكيم وقائع الزيارة ، واقعة بعد واقعة ، دقيقة بعد اخرى ، فيعتبر ان الحظ يمكن ان يلعب دوراً . « لكن الذكاء والالهام يلعبان الدور الاساسي » ففكرة الزيارة ليست لحظة عابرة ، وليست وليدة المصادفة . فقد اشار الحكيم الى انه يتطلع الى شرف مثل هذا ، وعبر عن هذه الرغبة بمناسبة عديدة . والزيارة ، زيارة اي كان ، حتى لو كان السلطان ، لغيره ،

- تعرفي .. يا وداد ..
- وضحك وهز رأسه بغبطة :
- كثير من الامور : توفيق .
لم يرد ان يقول لها ذكاء ، اذ خشي ان تسيء فهمها ، أما كلمة « حظ »
فانه لا يحبها ، كان يسميها دائماً : عكاز الكسالى . فلما وافقته تابع :
- حتى اختيارك ان نقضي الصيف في الاسكندرية ، وان يكون سمير قريباً
منا ، اشياء اساسية من اجل انجاز « نسر موران » .
- ضحكت بغنج . وقالت :
- لازم تعرف دائماً كيف تصدقني وتأخذ بشوري !
- مثلك ما في .. يا اميرة .

واقاض الحكيم طويلاً في شرح اهمية هذا الاقتراح وضرورة تنفيذه ، وانه سيتولى بنفسه الاشراف المباشر على جميع مراحل العمل . وأشار الى ان لديه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة على احسن وجه . والسلطان الذي كان يحتبر مدى جدية الكلمات ، ومقدار ما يعنيه الحكيم ، سأل في لحظة صمت :

- لو كتبتم عن ابوي وعن تاريخ السلطنة ما هو اخير؟

- سوف يتم التطرق الى الموضوعين ، كبداية ، يا صاحب الجلالة . سوف تخصص بعض الفصول الاولى للمغفور له والدكم ، وتأسيسه للسلطنة ، وسوف يشار ايضاً الى تاريخ وجغرافية موران .

وابتسم الحكيم وتطلع الى السلطان ثم تطلع الى وداد ، وقال :

- وهذا الكتاب ، يا صاحب الجلالة ، ليس مجرد تاريخ ، انه سيرة حياة رجل عظيم ، ويجب ان يتضمن مجموعة من الصور : صور الطفولة وصور الصبا والشباب ، وحتى الوقت الحاضر ، ويجب ان يوزع على نطاق واسع جداً ، على الافراد والمؤسسات ، وان يترجم الى عدة لغات .

وهكذا اقتنع السلطان ، وظل الحكيم محتفظاً بالمفاجأة الأخيرة :

- سمير قيصر ، يا صاحب الجلالة ، سيتولى صياغة الكتاب ، فقط نحتاج منكم ، يا صاحب الجلالة ، ان تخصصوا لنا وقتاً كافياً لكي تحدثونا عن طفولتكم وعن ايام الشباب ، أما ما تبقى فسوف تتولى امره انا وسمير ، ولا بد ان يرضيكم ويرضي كل من سيطلع عليه !

لا يعرف الحكيم كيف هبطت عليه الفكرة ، فجأة وجد نفسه يفكر هكذا ثم يتجرأ ويقترح ، ولعله ما كان ليواصل لولا الجو الودي الحميم الذي كان فيه السلطان ، وبما شجعه ايضاً انه حين التقت نظراته بنظرات وداد وجد منها تشجيعاً واضحاً ، فقد غمزته مرتين ، وكأنها تطلب منه ان يصرّ وان يتابع . أما في الليل المتأخر ، وقد اقترح الحكيم عليها ان يتابعا السهر في الشرفة ، وبعد ان تحدثا كثيراً ، وصمتا كثيراً ، وبدا ان كلا منهما يود ان يتشرب لحظات اللذة حتى الشماله وبطريقته الخاصة ، فقد قال لها بكثير من الود :

ولم تطل المناقشة ، قال الحكيم ليحسم الامر :

- لا تخف ، اذا خرج الكتاب مثلما اتصوره ، وارضى جلالته ، فمسألة المكافأة لا تسأل عنها ، راح تنظمر بالفلوس ، مني ومن جلالته . . ومن المصروفات الخاصة ايضاً !

قال سمير لنفسه « صفقة العمر . شهادة تأمين مدى الحياة ، ويمكن ان تفتح آفاقاً غير محدودة لمستقبل لا اتوقعه الآن ، ولذلك يجب ان العب بمهارة » وبدأ يفترض ارقاماً محتملة : عشرة آلاف ، مائة الف ، خمسمائة الف . . مليون . قال مليون وهو يضحك بغبطة : مليون ايه ؟ جنيه ؟ فرنك ؟ دولار ؟ وبدأ يتصور ماذا سيفعل حينها يستلم المبلغ : « اضعه في البنك واعيش على الفائدة . اوظفه في مشروع ، ويجب ان ادرس الأمر بشكل جيد للغاية ، ويمكن ان يتضاعف المبلغ خلال سنتين او ثلاث سنوات » . وفكر ان ينشئ مؤسسة صحفية جديدة تتفوق على الاهرام واخبار اليوم « كفانا ان نبقى اجراء . . الآن يجب ان يعمل الانسان لحسابه مباشرة » ان يقيم شيئاً باسمه ليبقى العمر كله ، ويبقى ايضاً بعد ان يموت . وتجراً اكثر وبدأ يتصور المؤسسة الصحفية ، واسماء الصحف والمجلات التي ستصدرها ، واين يجب ان يكون مركزها ومطابعها . . « ولا بد أن نقيم شركة للتوزيع ليصل المطبوع الى اقصى مكان في الكرة الارضية ، لا ان نبقى تحت رحمة شركات التوزيع » .

وفكر ايضاً ان يكون لديه دفتر « خرطوش » مثل ذلك الذي عند الحكيم ، وفي هذا الخرطوش يمكن ان « يدون » كل ما تسمعه اذناه او تقع عليه عيناه . ومن هذه المادة الاولية يصنع اولاً « نسر موران » وقد وافق على هذه التسمية واعتبرها ذكية ، ويحتفظ بالباقي ، بما في ذلك صور نادرة لجلالته ، للوقت المناسب ، لا بد ان يستفيد منها باشكال واوراق مختلفة : اذ قد يموت السلطان فجأة ، قد يعزل ، وقد يقتل ايضاً « فما دامت المادة الاولية موجودة يمكن استخراج اشياء كثيرة منها » .

وفي الأيام التالية ، وخلال اسبوعين ، وهي المدة التي استطاع الحكيم ان يبقاها في الاسكندرية ، ولم يستطع ان يبقى فترة اطول ، لانه ، كما قال لوداد

قال سمير للحكيم في اليوم الثالث للقائهما :

- انا موافق على القيام بهذه المهمة ، لكن الامر يتطلب شرطين : الاول : مجموعة من المراجع عن جلالته . والثاني : ان يخصص لنا جلسات عمل عديدة ، بعد ان نهيء مجموعة من الأسئلة .

- ولا يهملك ، اتركها علي ، انا مسؤول ، وانا الذي سأؤمن لك كل شيء .

ابتسم سمير بمرح ، وسأله :

- ويبدف كام ؟

ولم يفكر الحكيم بهذا السؤال ، او بالاحرى لم يخاطر بباله ، فقد افترض ان كتاباً يمثل هذه الاهمية ، ويمكن انجازها خلال بضعة شهور ، لا يجوز الحديث فيه عن الاتعاب ، وبطريقة لا شعورية ردد وراء سمير وبنفس الطريقة :

- ويبدف كام ؟

- انت عارف ، يا بيه ، ان كتاباً عن السلطان ليس مثل اي كتاب آخر ، انه يتطلب جهداً استثنائياً ، ولا يحتمل خطأ من اي نوع ، ولذلك يجب ان يعامل الموضوع كله بصورة استثنائية .

وابتسم ابتسامة واسعة . ونظر بتحديد الى عيني الحكيم ، ثم تابع :

- لو كان اي كتاب آخر فالمسألة بسيطة . . .

ولآخرين ، وكأنها لا تستطيع ان تألف هذا الصخب كله ، او وجود هذا العدد من افراد الاسرة حولها في كل لحظة . كانت حائرة ماذا تفعل او كيف ، فالحكيم الذي لم يعترض على ارتدائها المايو ، وان تقضي جزءاً من نهارها على الشاطئ ، رفض ان يتعري او ان ينزل الى الماء رغم الحاحها . فكان هذا سبباً في جزء من النكد ، ولانها لا تعرف السباحة ، ولا تستطيع اكثر من ان تبذل جسدها بالماء ، رغم المحاولات التي بذها الاولاد لتعليمها ، كانت تقضي ما تبقى من وقت على الشاطئ بيداها كتاب لا يكاد ورقه يُقلب ، اذ لم تألف الكتب ، او عادة القراءة ، وتستغرب كيف يقرأ الناس او كيف يضيعون اوقاتهم في هذه السخافات غير المجدية . هذه التسلية لم تقنعها ولم ترضها . أما بينها وبين سمير فان اشياء كثيرة حصلت . لم تكن المرأة الوحيدة التي يعرفها ، فقد اكتشفت ان له علاقات واسعة ، وانه يعرف عدة نساء ، وكان يقضي معهن وقتاً غير قصير . حتى اللحظات او الاوقات التي كان يقضيها الى جانبها والى جانب الاولاد ، لا يتردد في ان يقيس اية امرأة تمر ، ويتابعها بكثير من الاهتمام وهي مقبلة ثم وهي تدير ، وكانت تظهر على وجهه علامات الاعجاب والشهوة واضحة تماماً . ولم يكن ليخفيها ، اكثر من ذلك كان يتلذذ باظهارها لتراها هي بشكل خاص .

حتى في الاوقات التي كانت معه في الفراش ، وقد تعمد ان يسكن بعيداً عنهم ، وتعمدت وداد النزول الى المدينة لشراء بعض الحاجات ، وكانت تلتقي معه خلال هذه الاوقات ، كان يبدو شخصاً مختلفاً عما كان في موران : اصبح واضح الملل ، ولا يتردد في ان يقول بعض الكلمات الخشنة ، كان يقولها بين المزاح والجد ، لكنه يعينها . أما خفة الدم التي ميزته في موران فقد انتهت هنا تماماً ، بل وبدا اقرب الى القسوة والجفاء .

كان يمكن ان تفهم هذه التصرفات ، او ان تبقى بحجمها الطبيعي ، وقد تلمس له الاعذار ايضاً ، لكن اشد ما فاجأها محاولاته الماكرة والخفية لان بصطاد سلمى . لقد رأت ذلك ليس بعين الام وانما بعين المرأة . رأت طريقته في تعليمها السباحة . ورأت نظراته لها وهم على الشاطئ ، او وهم جلوس في الشرفة . كان باستمرار يسألها ، يوجه اليها الحديث ، ولا يتردد بعض الاحيان

« لست ملكاً لنفسي ، فلا استطيع ان امدد رجلي وارك السلطان والدولة ؛ ثم اني انتظر غزوان ، ولا بد ان يأتي في فترة قريبة ، ولا يمكن ان اتركه وحده . خلال هذه الفترة خاض مع سمير في مناقشات عميقة ؛ كيف يكون الكتاب : عدد الفصول ، عنوان كل فصل ، واين يجب ان توضع الصور في مقدمة الكتاب ام في نهايته . ولم ينس ان يتطرق الى عدد النسخ التي يجب ان تطبع ، الى غير ذلك من الامور الفنية . وعندما وصل الى المقدمة التي سيضعها للكتاب تردد واحتر ، هل من الملائم ان يضع اسمه على الغلاف باعتباره كاتب المقدمة ام لا ؛ والمقدمة ذاتها هل هي مجرد كلمة عادية مثل الكثير من المقدمات التي توضع ام هي دراسة معمقة للفلسفة السياسية والاجتماعية التي تنهض عليها السلطنة كلها ؟

حتى اليوم الأخير قبل سفره ظل حائراً ومتردداً ، قال لسمير وهو يبلغه بسفره :

- لا بد ان اعود بسرعة ، لاني لا استطيع ان اتأخر ، ويجب ان اهيء لك المراجع الضرورية عن تاريخ السلطنة وارتب المواعيد مع جلالته .

وسمير الذي « حاول » ان يقنعه بتأجيل سفره ، « وانه لا يمكن عمل شيء خلال الصيف » اقتنع اخيراً انه يمكن على الأقل « توفير المصادر » حتى اذا وصل شرع بالعمل فوراً ، فطلب منه الحكيم ، بما يشبه الرجاء ، ان لا يتأخر !

شهر الصيف كانا اخطر شهرين في حياة كثيرين ، فالحكيم الذي احس بخيبة امل كبيرة ، نتيجة انهيار بعض احلامه ، وجد في الظروف الجديدة امكانية لاستعادة كل ما خسره ، اكثر من ذلك يريد ان يعمل وحده وحسابه الخاص ، بعدما تعب من علاقاته مع الآخرين ، وكيف انهارت هذه العلاقات ، او على الأقل تعرضت للمصاعب . قال لنفسه في محاولة لحسم هذا الاختيار الذي يعتبره اساسياً : « العب وحدك ترجع راضي » .

أما وداد التي اضطربت بعد تلك الليلة ، بعد زيارة السلطان ، فانها لا تعرف الآن حقيقة مشاعرها . اصبحت في الاسكندرية امرأة متعبة لنفسها

ان يربت على كتفها او على ساقها . وسلمى التي كانت كالزهرة اول
تفتحها ، هنا ، مع اخوتها وآلاف الناس حولها ، في جو من الحرية ، بعد
سجن موران الذي امتد شهوراً طويلة ، وجدت نفسها مستعدة للاستجابة ،
لتشرب الحياة الجديدة ، كما تشرب المياه المالحة في كل مرة يغمرها ماء البحر .
لم تكن تعرف ماذا يريد سمير منها او لماذا ينظر اليها بهذه الطريقة ، لكنها كانت
مأخوذة بكل شيء هنا ، بما في ذلك نظراته وطريقته في التعامل معها .

وداد وهي ترى ذلك ، تتابعه ، وبالمقابل ترى كيف يحاول ان يتعد عنها ،
تتوتر ، تمتلئ غيظاً ، لا تتصور انها يمكن ان تعامل هكذا ، او ان شيئاً مثل
هذا يمكن ان يقع ، لكن لا تريد ايضاً ان تعترف او ان تسلّم : مايوه القطعة
الواحدة التي كانت ترتديه اثناء وجود الحكيم استبدلته بـ مايوه قطعتين ، وقد
تعمدت ان تشتري ثلاثة منها باللون صارخة حادة ، انتقتها بحيث تناسب مع
لون جسدها . الخوف من الماء الذي ملأها في الأيام الاولى تخلت عنه ،
وبذلت جهداً لتعلم السباحة ، حاولت ذلك مع الاولاد ومع سمير . وخلال
هذه المحاولات شربت كمية من المياه المالحة امرضتها ، فاكتفت بان « تسبح »
في المياه الضحلة . أما الدعوات التي اخذت تتكرر يوماً بعد آخر ، وكل دعوة
باسم واحد من الاولاد ، ودائماً سمير المدعو والضيف ، فكانت تهدف ان
تقبض عليه ، ان لا يغيب عن عينها . وعشرات التصرفات الاخرى ، وكلها
من أجل ان تستعيده وأن تقنعه أو أن تقنع نفسها أنه لا يزال الذي تعرفه
وتريده . وسمير حاضر غائب ، او كالماء لا يمكن مسكه او معرفة لونه ، ماذا
يريد وبماذا يفكر .

وهكذا ، في لحظة مفاجئة ، عصبية ، وقد وعددها سمير واخلف ، قررت
أن تسافر . خلال ساعات ، استعدوا . ولما جاء سمير عصر ذلك اليوم ، لم
يكن باق على سفرهم بالقطار الى القاهرة سوى ساعة ، ورغم انه بذل جهداً
استثنائياً لكي يحملهم على تأجيل السفر ، وادعى انه كان مريضاً فلم يحضر الى
مقهى عرابي ، الا ان وداد كانت قد حسنت وقررت .

قالت له وهي تبسم وتمد اليه بدأً طويلة مستقيمة ، لكي لا تفسح له مجال
الاقتراب :

- شكراً استاذ سمير ، وانشاء الله نلتقي قريباً في موران !

شهر كامل من المحاولات والصراع الأعمى . بعد سفر الحكيم ، وكلما
بدا لاي منهم انه اقترب او وصل يكتشف انه كان يسير بالاتجاه الآخر ،
بالاتجاه الخطأ . فسمير الذي كان يريد ان يبقى على صلته مع وداد كان يريد
في الحقيقة ، في المرحلة اللاحقة ، سلمى . ووداد التي تبذل جهداً لاستعادته
تقربه وتبعد سلمى ، او تجعل لعلاقته بها تلك الطفولة والبراءة التي لا يمكن ان
تتحول الى شيء آخر . أما سلمى المفتونة بالجو الجديد ، وبالاهتمام من اخوتها
والشباب الكثيرين حولها وحولهم ، وبسمير ايضاً ، تحس ان جسدها نما وتكور

- شكراً على ايه يا افندم ؟ انا زعلان قوي .

- زعلان ؟

- ايوه يا افندم . . والا ايه معنى ده السفر المفاجيء ؟

- بقي لمدارس الاولاد اسبوع ، يا استاذ سمير ، ولازم اوصلهم واؤمن حاجاتهم !

- كده . . اذن ؟

وضحك ضحكة صغيرة ، ثم التفت الى سلمى :

- وانت مسافرة يا سلمى ؟

ولما هزت رأسها وضحكت ، قال كأنه يخاطب نفسه :

- خسارة . . والنبي .

بعد بضعة شهور ، وبقبول الامير فتر لقصر السعد وانتقاله اليه ، وما رافق ذلك من زيارات ودعوات ، ظهر بوضوح ان السلطنة تعيش ، من جديد ، فترة من الازدهار والاستقرار ، لم تر مثلها من قبل ، خاصة وان الاخوة الامراء عبروا ، تجاه بعضهم ، عن الكثير من المودة والتفاني ، وقد ذكرت تلك الحالة السلطان بالايام التي اعقبت الرحبية ، حيث كان اولاد السلطان خربيط واخوته يتراخسون من مكان إلى آخر بتفانٍ وانكار للذات ، من اجل ترسيخ الدولة وتعزيز هيمنتها لمواجهة الخصوم جميعاً وتجاه الاخطار التي قد تتولد بسبب الاهدال او التراخي .

الآن تعيش السلطنة فترة مثل تلك . ومما زاد في هذه المشاعر وقواها ، خلال المرحلة الجديدة ، وخلافاً لكل الفترات السابقة ، حالة القوة والغنى التي فاضت وسيطرت ، فبدت السلطنة مرهوبة ومرغوبة في آن واحد . واذا كان السلطان خربيط قد استعان بالكثيرين لتثبيت حكمه وتصفية خصومه ، ولم يكن يملك من المال الا القليل ، وكان في كثير من الاحيان مضطراً للتقتير والتأجيل وشدد الاحزمة على البطون ، فان المال فاض وتجاوز كل حد ، وتدفق اكثر مما يتصور اي انسان . ومثلما كان خربيط دقيقاً شديداً ، بل ومقتراً في المال ، فلا ينفقه الا بمقدار ، ولا يعطيه الا بعد تمحيص وانتظار ، وعلى دفعات ايضاً ، فان السلطان خزعول لم يبخل ولم يتردد في البذل والعطاء ، بحيث لم يبق احد ممن يحيطون بالقصر او له علاقة او صلة بالعائلة الا وحصل على نصيب ، فظهرت البحبوحة بالتصرفات وعلى الوجوه ، وفي الملابس ، والمآكل ، وبدا

يخاف من غريب ، ويتابع بلهجة سرية متأمة :

- يا جماعة الخير .. الفلوس بامر جلالته ، وهو صاحب الامر والنهي ، لكن مثل ما قالوا من قبل : من أمنك لا تخونه ولو كنت خاين ، فحرام نرمي الفلوس في التراب .

وبعد الكثير من المناقشات والضغط والمكر ، وغالباً ما يكون وحده في طرف والآخرون في طرف آخر ، والسلطان ابداً لا يتكلم ، ينظر بفرح الى خصام الديكة ، الى هذا الذي يجري امامه ، حتى اذا انتهى ، اذا قرر شيئاً ، يكون الشيخ مالك راضياً مقتنعاً وأول الموافقين :

- هذا اللي يصير ، وكل واحد عنده ضمير ، ويريد الخير لهذي البلاد ... يوافق !

الحكيم يفهم التعريض اكثر مما يفهمه اي انسان آخر ، لان الرهان الاساسي بين الاثنين من هو ابن البلاد ومن هو الغريب ، من يريد مصلحة دولة موران ومن جاء من اجل الكسب !

هذه الموافقة لا تعني للشيخ مالك الا اجتياز نصف الطريق ، وربما نصفه الاسهل . فاذا جاء من خصص له المال يطلبه ، كان الشيخ مالك ، الذي لا يحمل ورقة ولا قلماً ، ينظر اليه بكثير من الاستغراب والتساؤل :

- يا عباد الله ما تطلبون شيء غير الفلوس ؟ ما تعرفون الا قوله هات ؟

فاذا ضحك من يطلب المال او غضب ، نتيجة تجاهل الشيخ مالك ، يسأله بجذ وغضب :

- وشن هي الفلوس اللي تريدوها؟

- اللي قررها جلالته .

- اللي قررها جلالته ؟

وبعد قليل :

- اتركوا طويل العمر يا عباد الله ، خلّوه يستريح ، دوختوه بقولة : نريد

ونريد .

الجميع في حالة من الرضى والزهو .. الا مالك الفريح .

فالشيخ مالك الذي كان مستعداً لان يغض النظر وان يتساهل ، لم يعد يحتمل ازاء الاسراف الذي يزيد يوماً بعد آخر . ففي الاجتماعات التي كان يجري فيها بحث تمويل المشاريع ، وكان يتطلب وجوده ، وبعد ان يتكلم الكثيرون ويسرفوا في الكلام حول اهمية المشاريع وضرورة الاسراع باقامتها وتأمين التمويل اللازم لها ، كان في كثير من الاحيان يصرخ كالمندوع :

- حنا ما علينا : مشاريع زينة موزينة ، هذي عليكم ويم ضمائرکم ، لكن يا عباد الله .. ما تقولون فلوس منين ؟

ويلتفت الى مساعده الذي يحمل دفاتر الحسابات :

- عطني يا ابن الحلال ..

ودون ان يتقدم مساعده لاعطائه الدفاتر ، ودون ان يحاول هو ، يتابع :

- يا جماعة الخير ...

يضحك بغیظ ، يتطلع خلسة الى السلطان ليقراً مدى اهتمامه ، فاذا وجدته مهتماً يجيب :

- ما باقي الا قريشات ، يا طويل العمر ، فاذا كنتم تريدونها لهذا المشروع اولغيره فالامر امرکم ، لكن بعدها لازم نوقف .

أما اذا رآه بعيداً وغير مهتم ، وربما يفكر بامور اخرى فكان يصرخ :

- هالحين نفرد بساطنا ونقول كل شيء !

وبأمر اقرب الى الغضب يطلب من مساعده ان يعطيه الدفاتر هذه المرة وان يقرب ، ان يجلس الى جانبه وان ينتبه .

- صاحب اجلالة موجود والبساط احمدي ، وكل واحد يقدر ويقول ...

وقبل ان يفتح دفاتره ، وقبل ان يتكلم احد ، يصرخ بمساعده :

- خذ قرطاس واكتب ...

ويلتفت الى هذه الجهة ، ثم الى الجهة الاخرى وكأنه يخشى من شيء ، او

- شي واحد ؟

- وريقة من يد السلطان !

ويتسم الشيخ مالك حتى تبدو اسنانه ، فلا يعرف ان كانت ابتسامه تشفّ او ابتسامه فرح ، ويضيف :

- ولا تنس ، يا وليدي ، على الوريقة توقيع طويل العمر . . . والختم ، وبعدها الله كريم .

وفي الجولة الثانية ، وبعدها يأتي كتاب السلطان وعليه التوقيع والاختام ، يحاول الشيخ مالك ان يفاوض ما إذا كان المطلوب الآن المال جميعه او قسماً منه ، وما اذا كان من الممكن اختصار المبالغ ام لا ، مع الكثير من الحدة في المناقشة والسخرية ، والتذكير بالجنة والنار ، فاذا انتهى من ذلك كله ، وبدا الطرف الآخر مصراً وغير مستعد لاعادة النظر او المساومة ، يرد عليه الشيخ بزخامة :

- كل اللي قلته ، يا وليدي . على العين والراس ، وامر جلالته ما ينرد ، لكن ما هو قولك اذا قلت لك : الفلوس اللي تبيها ما هي بواجدة ، ما هي عندنا .

ويصرح الشيخ مالك على حامل دفاتره ان يأتي ويحضر معه الدفاتر ، فاذا جاء وجاءت يبقيا مغلقة ، ويبقى المساعد واقفاً ، ويقول بحزن :

- اريد واحداً منكم يصير بمكاني . . . ولو يوم واحد !

في مرات كثيرة كان يصل الشيخ مالك الى ما يريد او الى بعض ما يريد : ان يخفض المبلغ ، ان يجزّته ، او ان يؤجله . وعندما يحصل شيء مثل هذا يفرح الى اقصى حد ، يتغير ، يصبح انساناً مختلفاً ، فلا يلبث ان يفيض بالاحاديث ويطلب الشاي والقهوة ، لنفسه ولضيفه ، مرات عديدة ، ولا بد ان يتذكر كيف ان موران تعرض الى مؤامرة ، خاصة من الغرباء الذين هجموا هجوم الجراد ، ولذلك يجب « ان نفتح عيوننا ، ان نحرص على كل قرش ، لانه اذا خلص مالنا طفيت نارنا وما احد يتذكرنا » ولا بد ان يسوق الحديث

فاذا انتهى من هذا الدرس وهذا قليلاً يتطلع الى وجه سائله بمنتهى البراءة :

- الله العليم انه ما عندك سالفه غير الفلوس ؟

فاذا هز رأسه دلالة الايجاب ، يعاود الشيخ مالك :

- يا ابن أخي ترى الفلوس لمالك الملك ، وحنا بهذي الدنيا ندرج درج مثل سيل الحدور ، والعاقل العاقل ، ابن الحلال ، اللي عرف ان بعد هذي الدنيا موت ، وبعدها حساب وكتاب .

واغلب الاحيان لا يعقب هذا الكلام اي تعليق ، فاذا ساد الصمت فان ذلك لا يضايق الشيخ ابداً ، ينصرف الى سبخته الصفراء ينقل حباتها ثلاثاً ثلاثاً ببراعة ظاهرة ، فاذا تنحنح ضيفه ينبهه الى وجوده او الغاية التي جاء من اجلها فعندئذ يرفع الشيخ نظره فيها من الغيظ بمقدار ما فيها من الحقد ، ويهدر صوته :

- اذا كان كلام الله ما احد يسمعه خلنا نسمع كلام العبد . . .

ويلتفت اليه بابتسامه سخرية :

- سولف يا وليدي .

ولان ليس عند من محدثه حديث آخر ، « سالفه » او شيء اضافي يقوله ، فانه يذكره فقط بالمبلغ الذي خصصه جلاله السلطان ، وانه يعرف جميع التفاصيل ، ولا حاجة لتكرارها الآن . والشيخ الذي يحاول ان يتذكر ، واغلب الاحيان لا تسعفه ذاكرته بما يكفي ، يطلب مزيداً من الايضاح ، ويتوقف عند بعض النقاط ليسأل متى حصل هذا ومن كان موجوداً ، وماذا قال جلالته ، حتى اذا تأكد من جميع هذه التفاصيل بهزات من رأسه تطلع بامعان في وجه محدثه وتخرج كلماته بطيئة :

- زين . . . زين ، هالحين فهمنا السالفه . . .

يتوقف لحظة ، يتسم ، ثم يضيف :

- باقي عليك يا وليدي شي واحد . . .

بعد الاجتماع الذي اتخذ فيه قرار اقامة البرج ومدينة خزعل الرياضية ،
ونتيجة ضحكات الشيخ مالك وسخريته من هذه المشاريع ، وانها لن تجدي ،
واشار ان من يقترحها هم اعداء موران ، وصل الغضب بالحكيم درجة فاقت
كل حد . قال للسلطان الذي حضر جزءاً من الاجتماع الذي بحث فيه هذه
المشاريع :

- بعد مغادرتكم الاجتماع يا صاحب الجلالة جن جنون هذا الابليس ،
ابن الفريخ : لا تحملوا . . الفلوس ما تشوفها عينكم ، والبرج ما يبنى .
والاخوان كلهم : « هذا امر صاحب الجلالة يا شيخ مالك ، وهذا المشروع
تقرر وتوافق عليه » ، وابدأ يا صاحب الجلالة . يضحك ويمد لسانه ، ولذلك
ارى انه تجاوز حدوده ، يا صاحب الجلالة ، وتطاول على الجلالة ، ولازم
يتأدب ويكون عبرة لغيره .

ولم يتأخر السلطان في اعفائه ، لكن ابقاه تحت تصرفه ، دون ان يخصص
له عملاً جديداً !

بشكل او آخر الى تلك القصة التي سمعها منه الكثيرون : « حضر هجان من
مكة في مسافة تسعة ايام واخبر بان الفرنج قد ملكوا كمران وانهم يحاصرون
مدينة سواكن ، وان الشريف امير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين ،
وجاعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة ، واقاموا بجدة خوفاً على البندر
من الفرنج ان يهجموا عليه ، وارسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء الخبر
تنكد له السلطان الى الغاية ، ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه ،
فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد ، فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان
وصلى الجمعة ، فلما خرج قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ،
ورقي المنبر خطب خطبة بليغة في معنى النازلة التي وقعت بسبب الفرنج .
واخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما اقيمت الصلاة قال المؤذنون :
القنوط عقيب الصلاة ، فلما صلى قاضي القضاة الجمعة قنط في الركعة الأخيرة
فقنط السلطان والامراء ومن في الجامع قاطبة »^(١) .

بعد ان ينتهي من هذه القصة يسأل نفسه ويسأل ضيفه :

- بعدما وصل الخبر لسلطان مصر شنهو اللي صار وشنهو اللي جرى ؟

ولا ينتظر الاجابة ، فقط تتغير لهجته تصيح اقرب الى السخرية :

- تنكد ، اي نعم تنكد ، وانتظر الى ان صارت الجمعة ، وقنط ، وبعد ما

قنط ما تذكر احد ولا احد تذكره !

ولا يزال الشيخ يحكي ويهذي ويوحى ، لكن بهدف واحد ، ان يبلغ
رسالة محددة : « الحكيم صبحي المحملجي عدو موران ، واذا كان هناك اذى
ينتظرها ، او عدو يتربص بها ، فانه هو ، او عن طريقه . لكن لم يذكر اسمه
مرة واحدة ، ولم يشر اليه !

والحكيم الذي احتمل الكثير ، والذي لم تعد له علاقة مباشرة بالشيخ
مالك ، لا يمكن ان يغفل عن التعريض ، ولا يمكن ان ينسى الانتقام . الآن ،
في ظل الظروف الجديدة ، يجد ان الوقت قد حان .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الرابع - ص ٣٠٨ .

- او الحد من اضرارها ، كما سأله عن مناطق اخرى من العالم مشابهة وكيف تقاوم هذه الامراض ، والحكيم الذي تحدث باستفاضة عن المناطق الحارة في العالم ، وكيف ان الوفيات بين الاطفال تبلغ ارقاماً قياسية ، اشار إلى ان النسبة في موران اقل بكثير ، وان السنوات القادمة ستكون اقل منها الآن بكل تأكيد . وقد انتهت المقابلة بنوع من الرضا المتبادل ، مع تأكيد الحكيم بصحة احكامه السابقة .

لم يقتصر موقف الامير فتر على مجرد الانتقال الى القصر الجديد ، او تلبيته الدعوات التي وُجّهت اليه ، بعد ان كان يرفض في السابق بطريقة خشنة ، اقرب إلى القسوة ، وانما عبر ايضاً خلال هذه الدعوات باحاديثه وتعليقاته عن تبسط واضح واخوة حقيقية . صحيح ان احاديثه خلت من الطلاوة ، لكنها لم تخل من المودة . حتى وهو يستمع الى اخوته ابدى الكثير من الكياسة وهو يستفسر ، وهو يسأل ، ثم حين كان يعبر عن رضاه وتفهمه . أما الامراء الذين كانوا شديدي القلق بعد عودة الامير فتر ، وذلك الموقف الذي اتخذته ، والذين تمنى اكثرهم لو انه لم يعد ، فقد ندموا انهم اساءوا الظن الى هذه الدرجة ، ولذلك فقد اصبح فرحهم الآن مضاعفاً . وهذا الفرح ذاته انتقل الى السلطان وعم القصور كلها . ولقد فكر السلطان في احدى لحظات الاشراف ، وكطريقة للتعبير عن المودة القصوى ، ولترسيخ تقليد جديد في الاسرة ، لو يقترح ان يتزوج جميع الاخوة ، اولاد المغفور له السلطان خريبط ، في ليلة واحدة ، ان هذا لو تم سيخلق فرحاً في جميع انحاء السلطنة . وسوف يستمر هذا الفرح اياماً بلياليها ، وربما كان فالاً حسناً ، وقد يصحح تقليداً جيلاً بعد جيل . كما سيخلق في ذاكرة الاجيال القادمة نوعاً من الاعتزاز ، خاصة اذا ترافق ذلك مع زيجات ترتب منذ الأيام الاولى للولادات الجديدة التي ستكون في وقت واحد ، او في اوقات متقاربة . تماماً كما يحصل بين الكثير من المخلوقات ! هذه الفكرة التي الهبت خيال السلطان لبضع ليال ، ما لبث ان تخلت عنها في الدعوة التي اقامها الامير ميمز لاجيه فتر . اذ بعد احاديث عديدة تخللتها الامازيح ، اشار الامير زعل ، مخاطباً اخاه الامير فتر ، الى انه يراه الآن اكثر قوة واكثر شباباً مما كان قبل سنين . فرد فتر ببعض الجفاء :

شعر الحكيم بالزهو والقوة عندما تخلص من هذا الخصم ، لقد انتظر طويلاً الى ان جاء الوقت المناسب ، وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح « سيكون امثلة للآخرين ، ويجب ان يعرف الجميع من هو الدكتور المحملجي » هكذا قال لنفسه بنوع من الفخر . واذا وجد ان السلطان في حالة نفسية متألمة ، اقرب الى الجور ، فقد اعتبر ان كثيراً من الافكار التي شغلته في اوقات سابقة ، وان كثيراً من الاحلام التي يريد الوصول اليها اصبحت قريبة ولا بد ان يصلها ويحققها في فترة قريبة .

لم يخطيء في فراسته ، فالقصر ، وكل من له علاقة ايضاً ، يبدو بشكل مختلف عن السابق : الحركة والنشاط والبشر ، وكل شيء آخر يوحي بهذا الجو ويشجع عليه ، وكأن عودة الامير فتر ، ثم الوفاق الذي حصل ، بموافقة على البقاء والمشاركة في السلطة ، والتي لم يتحدث عنها احد بصوت عالٍ او بوضوح ، كان الجميع يتمناها ويتنظرها . واذا كان قد لام نفسه لانه لم يقدر اهمية هذا الأمر ، ولم يتوقع ما يترتب عليه ، ما لبث ان اخذ ايضاً . اذ لم يتأخر عن زيارة الامير فتر ، وقد قصد ان يتحدث معه في امور عديدة ، لكي يكتشف ذكائه ومدى معرفته . واذا كان قد خرج بنتيجة هذه الزيارة : « الرجل عادي ، واقرب الى الامية ، لانه لا يحسن اية لغة اجنبية ، ولا يحسن بالنكتة الذكية اللماعة ، كما انه اقرب إلى المحافظة من ملابسه وطريقته في التصرف » . رغم ذلك وجد الامير انسانا بسيطاً . فقد سأله عن عدة امور متعلقة بامراض المناطق الحارة ، وكيف يمكن اتخاذ اجراءات مناسبة لمكافحتها

مطبع وسأل سمير ، سألهما معاً واستمع باهتمام الى كل ما قالاه ، ثم سأل كلاً منهما على انفراد . وراقب عن كثب وبكثير من الحرص الدعوات التي اقيمت ، وكانت مقصورة على الامراء واولادهم ، ولم يحضرها احد من الغرباء . أما عندما سئل الحكيم عما يتوقعه من مستقبل للامير فتر ، فقد رد ، وبدا على وجهه الحزن الشديد :

- الله يساعدنا ويساعده .

وبدا انه غير مستعجل لاعطاء رأي واضح ، أما بعد المقابلة الصحفية بعدة اسابيع فقد قال كلاماً اوضح :

- يجب ان لا ييأس الانسان من شيئين اثنين : رحمة الله وتقدم العلم . وانا الآن اتكلم كطبيب ، صحيح ان هناك حالات مستعصية لا يجدي معها العلاج المعروف ، لكن الامل موجود دائماً في اكتشافات طبية جديدة . وهذه الاكتشافات قد تغير الكثير ، شرط ان يكون الاطباء المعالجون على صلة مع مراكز الابحاث والجامعات الهامة في العالم .

وفهم الذين تحدث اليهم الحكيم بهذه الطريقة ان الحالة الصحية للامير فتر تدعو الى القلق ، وربما الى القلق الشديد ، خاصة وان كثيرين تذكروا الاشاعات التي رافقت بداية وصوله ، وان الاطباء الذين عالجوه قالوا له : « داك ماله عندنا دوا والأخير ان تموت بديرتك ، بين اهلك وعشيرتك » . ومما زاد في رسوخ هذه القناعة ان الحكيم الذي زار الامير فتر خلال الاسابيع الاولى ، ثم زاره مرة اخرى في قصر السعد ، وكانت الزيارة الأخيرة ، اضافة الى المقابلة الصحفية ، بايعاز من السلطان ذاته . فقد بدا واضحاً انه يكفي بهذا القدر من العلاقة ، ولا يحرص على علاقة اقوى .

أما حماد فقد رد بمرح عندما سأله الحكيم عن تقديره للوضع الجديد :

- مورانا بمكانها ، يا ابو غزوان ، ما تتحرك وما تتغير !

فلما طلب الحكيم مزيداً من الوضوح رد حماد :

- ظني ، يا حكيم ، ان الامور مثل قبل ، والاحسن ان الواحد منا ما يتدخل بينهم . لا شاف ولا سمع والا راح طعام للنسور !

- اللي يدري يدري يا زعل والي ما يدري يقول كف عدس !

وفهم من هذه الاشارة ان الامير لا يزال يعاني من بعض المتاعب الصحية ، لكنه يتحمل ويقاوم بنوع من المكابرة ، ولولا رغبته ان يكون بينهم ، وحتى ان يموت على ارضه وبين اخوته ، لفضل البقاء هناك . وللحظات عبرت في ذاكرة كل واحد ممن كانوا يتابعون الحديث احزان واشواق ، لكن ازداد اكبارهم وتقديرهم لهذا المسافر الذي عاد اخيراً . وهذا ما جعل السلطان يصرف النظر عن الاقتراح .

أما عندما بدأت تعقد تلك الاجتماعات الخاصة ، والتي غالباً ما تمتد وتطول ، ولا يحضرها مع السلطان والامير فتر سوى عدد قليل من الاخوة ، وعقد الاثنان منفردين ثلاثة اجتماعات في اسبوع واحد ، انعقد منها اثنان في قصر الغدير ، والثالث في قصر السعد ، فقد تأكد الجميع ان الامير جاء برغبة التعاون والمساعدة ، وانه يضع نفسه تحت تصرف اخيه السلطان . ومما زاد في هذه القناعة ما قيل ان الامير قد يتخذ له مقراً في القصر السلطاني الجديد ، في الخالدية .

هذه الفورة العارمة من الحماس والتغير التي امتدت اسابيع ، ولم يبق احد في موران الا وتحدث عنها وشغلته بشكل او بآخر ما انفكت ان تراخت ثم تراجعت . وقد ساهم الامير فتر ذاته في كسر حدتها من خلال الحديث الصحفي الذي اجراه معه سمير قيصر وحضره مطبع ايضاً . فقد اوضح بشكل غير مباشر ان وضعه لم يتغير عندما كان في الخارج او وهو يعود الى ارض الوطن ، وانه يضع نفسه في خدمة السلطنة والسلطان ، لكنه يفضل الراحة في الوقت الحاضر .

أما الاحاديث التي سبقت المقابلة الصحفية او اعقبها ، فقد كانت اكثر وضوحاً ودلالة . فقد اصر الامير فتر ان لا تعطى للحديث اية اهمية استثنائية . ورفض ان تنشر له اكثر من صورة واحدة لانه يفضل ان يكون بعيداً ، لكي لا يزعجه الناس ، وتتأثر بالتالي صحته .

الحكيم كان شديد اللهفة لمعرفة أدق المعلومات واصغر التفاصيل . سأل

لقد بعث الى غزوان ببرقيتين وثلاث رسائل ، البرقيتان تطلبان المجيء وتؤكدان ان يكون في اقرب وقت ، أما الرسائل فقد كانت واضحة لا تحتمل تأويلاً او خطأ . ومع ذلك لم يصل حتى الآن . رد عليه غزوان برسالة قصيرة يشعره ان شركته اوفدته مع فريق الى البرازيل ، وحالما يعود سيرتب اموره ويأتي . لم يقل له كم سيبقى في البرازيل ومتى يعود منها ، ولم يحدد اي موعد لاحتمال وصوله الى موران . قال الحكيم ليصبر نفسه وليجد المبررات لغزوان « الغائب عذره معه . . لكن اذا جاء ساعاته والومه » .

خلال هذا الوقت هيا لسمير اكثر المراجع التي تساعده في عمله . أما المواعيد مع السلطان فقد الملح اليها بسرعة دون ان يطلب تحديداً ، فالامر سابق لاوانه ، ثم ان هذه المواعيد تتحدد على ضوء الكثير من الاعتبارات ، ويجب ان يكون مسؤولاً عنها ، « لان الامر لا يحتمل اي خطأ . ويجب ان تكون على ضوء تقديري وبوجودي » .

المح السلطان ، اكثر من مرة ، الى تلك السهرة ، واطرى ، وهو يتلَمَط ، اكل ام غزوان ، وسأل ، بغموض ، عن « العائلة » ، وقال ان سهرات مثل هذه لا بد ان تتكرر في المستقبل ، والحكيم الذي استمع الى الاطراء ، وكان مطرقاً الى الارض ، ابتسم اكثر من مرة ، واستعاد وقائع السهرة بكثير من اللذة والاستمتاع . وتذكر الظروف التي رافقتها ايضاً ، وكيف كانت وداد مرتبكة خائفة ، وكيف بكت وطلبت منه ان يعتذر للسلطان . قال لنفسه وهو يواصل ابتسامته ويتذكر : « النساء ناقصات عقل ودين » ، اذ لولا اصراره والمحاولات التي بذلها ، من اجل تهدئة وداد اولاً ، ثم كيف تصرف وكيف تحدث اثناء السهرة ، فلربما اخذت الامور ، ثم العلاقة مع السلطان ، مساراً آخر .

حتى راتب الذي بدرت منه بعض « الاخطاء » او كما سماها الحكيم « جهل » بدا الآن اكثر توازناً ورقة ، وحين سأل الحكيم عن الطيب الذي يرشحه لكي يشرف على نبيلة « لانها حامل ، يا ابو غزوان ، وتشعر بالآم في الظهر » فقد سأل بنوع من الارتباك اقرب الى الخجل ، الأمر الذي جعل الحكيم يعيد النظر بافتراضاته السابقة ، لكن لم يتأخر في الوصول الى تسمية

وتذكر الحكيم ، من جديد ، الكتاب الذي سيضعه ، بالتعاون مع سمير ، عن « نسر موران » ، فشعر بالاعتزاز لاختياره هذا العنوان بالذات ، اذ بالاضافة الى دلالاته ، فانه شديد القوة والجمال معاً . أما ما يقوله حماد الآن فانه يدل على بعد النظر ، لكنه مع ذلك لا يحس ان موقفه واضح او ان عواطفه ثابتة ومؤكدة تجاه ما يجري .

لقد حصل ذلك كله قبل سفرة الصيف ، أما الآن ، بعد ان عاد الحكيم من السفر فقد كان متأكداً من قناعاته السابقة ، اذ لم يسمع شيئاً عن الامير فتر ، وربما اختفى من جديد . وقد فسر الحكيم ان مرض الصفراء يولد الكتابة ايضاً ، وهذه قد تغيب ، او لا تظهر بوضوح ، لكنها تلازم المريض الى آخر ايام حياته ، ولذلك فان ما ظهر من نشاط في مطلع الصيف ، لا يعدو ان يكون حالة طارئة او مؤقتة ، قد تتكرر مرة او اثنتين لكنها لا تعني شيئاً في النهاية . الامر الآخر الذي لفت نظر الحكيم بعد عودته : المودة الظاهرة والفياضة التي بدرت من السلطان . قال له ان غيبته طالت اكثر مما ينبغي . وقال ان جو موران خلال هذا الصيف كان ارحم من سنوات سابقة ، وعلى التحديد من السنة الماضية او التي قبلها . وقد حفزت هذه المودة الحكيم وحرصته على ان يخطو الى الامام خطوات كبيرة ، لكن حز في نفسه ايضاً انه يحارب وحيداً ، وان الآخرين ، حتى الابناء ، رغم التضحيات التي يبذلها من اجلهم ، فانهم لا يتجاوبون بالمقدار الكافي ، والا كيف يفسر تأخر غزوان ، وكيف يفسر تأخر سمير ؟ لقد اختصر رحلته ، لم يبق ، بعد الاسكندرية ، الا ثلاثة ايام في ضهور الشوير ، حتى انه لم يستطع ان ينام في الفيلا ، لانها كانت بحاجة الى جهد كبير من اجل تنظيفها واعادة ترتيبها ، وان كان قد قضى نهاراته الثلاثة ينتقل بين الشرفة الامامية الصغيرة والمدخل ، لكي يشعر الجميع بوجوده . واتفق مع بستاني جديد ، لان القديم مات قبل وصوله ببضعة شهور ، وان قال قريبه الذي جاء يطالب بما يستحق له من اجور انه مات قبل وصول الحكيم بخمسة عشر يوماً فقط ! والحكيم الذي تظاهر بالتصديق تلفت اكثر من مرة الى الحديقة لكي يقول له ، دون كلمات ، ان الرجل مات قبل سنة او اكثر ، والا لما كان وضع الحديقة كما يراه الآن !

جميعاً تعني الحكيم فلا بد ان يسأله او ان يأخذ رأيه .

كان مطيع محرراً لا يعرف كيف يبدأ الحديث ، فالابن الأول الذي سماه رشدي ، على اسم ابيه ، دون سؤال احد ، لم يرق كثيراً للحكيم ، لم يقل ذلك بشكل مباشر ، لكن المح اليه . الآن يريد ان يتابع الوزن نفسه ، واقرب الاسماء إليه ، او ربما الاسم الوحيد الذي طغى على غيره من الاسماء : صبحي ، فاذا اخرج الحكيم اختيار هذا الاسم فان البديل : غزوان . ولذلك لا بد ان يسمع رأيه .

ما كان هذا الموضوع ليشغل مطيع اوليقلسه لولا المناقشات السابقة ، والتي كان يلذ للحكيم ان يخوض فيها مع ضيوفه ، وكانت تبدو له طريفة وهامة في آن واحد ، اذ كان يسخر كثيراً من بعض الاسماء ، خاصة في موزان ، او من الاشخاص الذين لا يحسنون اختيار اسماء ملائمة لأولادهم . ويتذكر مرة ان الحكيم قال وهو يستعرض الاسماء السائدة في موران « العمى يضربهم ، حمير ، ما في بالدنيا ارخص من الاسماء ، وما في اكثر منها ، والواحد منهم تارك كل الاسماء اللي ترفع الرأس ورايح على : كلب ، جحش ، على فليحان وخريان ، وكأن ما في الدنيا اسم غزوان او حامد . . او كمال او سلمى » كان الحكيم يترنم وهو يردد الاسماء الأخيرة . وقال ان الطريقة الوحيدة لخلق جيل متوازن صحي في المستقبل ان تعطى للبناء اسماء مناسبة ، وان تفرض ضريبة قاسية على الآباء الذين لا يسمون ابناءهم اسماء كبيرة وهامة . .

الآن ومطيع يستعيد صدى تلك المناقشات ، ويروق له ان يبحث هذا الموضوع بالذات مع الحكيم ، ولكي لا يقع تحت طائلة السخرية او الضريبة ابتسم اكثر من قبل ثم قال للحكيم في لحظة صفاء :

- مثل ما يقول اهل موران يا خالي : انت عمه وسمه ، ولا بد انه بعلمك ، يا خالي : بين يوم والثاني ، الله راح يرزقني بولد ، والاسماء اللي فكرت فيها واحد من اثنين : صبحي وغزوان ، فلازم تختار لي !

ضحك الحكيم من اعماق قلبه . كان اقرب الى النشوة ، فهذه اللفتة من

طبيب مناسب اولاً والى تفسير يعتبره الاقرب الى الصحة في تحديد وضع راتب بعد ذلك « في سن معينة ، وللرجل المجرب والمتقدم بالعمر ، يصبح الطفل اعز واهم شيء ، ولا بد ان يكون صاحبنا ، عندما تأخرت زوجته ، خاف ، لعب الفار بعبه . . أما الآن فاصبح يشعر بالتوازن والثقة » وما اكد صحة استنتاجاته ، او تفسيراته الجديدة ، ان العمل في شركة المواد الغذائية تحسن كثيراً عن السابق ، وتم التعاقد بين الشركة والجيش على كميات كبيرة من « مواد الاعاشة » ، وان العلاقة بين راتب والزويعي افضل من قبل ايضاً . .

أما مطيع الذي استهوته الصحافة كثيراً ، خلال الفترة الماضية ، وانشغل عن الامور الاخرى ، فقد اقلق هذا الحكيم ، فاضطر لان يلفت نظره ، ولان يتدخل في بعض الامور « لان العمود في الجريدة ، يا خالي ، لا يساوي الخبر المكتوب فيه . وانت في الاول والاخير ، اب للصحافة ولست ابناً لها ، فاذا اردت ان تسكر الباب ساعات وساعات ، والضوء الاحمر شاعل ، لا ترى احداً ولا يراك احد ، لا تراقب ولا توجه ، وكل همك ان تكتب كم كلمة ، ويجوز ان لا يقرأها أحد ، راح يكون حالنا تيتي تيتي مثل ما رحبت جيت ، لا صرنا صحفيين ولا اشرفنا على صحافة » هذا الكلام الذي قاله الحكيم لمطيع قبل سفره بشهرين او ثلاثة ، والذي اغضب مطيع ، بعض الشيء ، لكنه رد عليه بضحكة غيظ ، يبدو انه اثر واعطى نتائج ايجابية ، لان مطيع استعاض عن العمود اليومي ، والذي كان يساعده سمير « بمراجعتة » ، بمقال رئيسي اسبوعي في مجلة الواحة ، لم يكن مجرد مقال في الصفحات الاولى فقط ، وانما مقال مع صورة ، وقد اختار لنفسه صورة جانبية قديمة بعض الشيء ، لكي يظهر في حالة تفكير عميق !

هذا التطور الذي لمس الحكيم ، والذي اثنى عليه كثيراً ، دون ان يشير الى المناقشة التي جرت بينها قبل شهر ، ترافق مع « حدث سعيد » كان ينتظره مطيع بين يوم وآخر ، وهذا الحدث ما كان ليعني شيئاً هاماً او استثنائياً بالنسبة للحكيم لولا الظروف التي رافقته ، فقد كان مطيع مصمماً ان يسمي الوليد الجديد ، اذا كان غلاماً ، واحداً من اسمين : صبحي او غزوان ، أما لو كان بنتاً فظل متردداً بين اسمين ايضاً : سلمى او نعمى ، وما دامت هذه الاسماء

مطيع ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، تدلل بوضوح على ان الرجل ليس متأثراً به فقط ، وانما يعتبره قدوة ومثلاً ، « والا لما حصرني في هذه الزاوية » ، وهذا الموقف لا يدل على الوفاء فقط ، انه اكبر من ذلك ، ولا بد ان يقابل الانسان الوفاء بالوفاء ، وان يقابل الثقة بثقة مثلها . قال الحكيم وبقايا الضحكة تملأ حلقه :

- ما اكثر من الاسماء يا خالي ، لكن اذا نويت على واحد من هذه الاسماء ، فتوكل على الله ولا تتردد .

- انت عمه وسمه !

- لا تحرجني اكثر من اللازم يا خالي !

وفي جو من المرح والمودة ترك الحكيم لمطيع ان يسمي المولود الجديد الاسم الذي يشاء ، ولا مانع ان يكون صبحي ، أما اذا كان المولود بنتاً فقد اقترح ، بما يقرب الحسم ، ان يكون الاسم : لبني ، بدل سلمى او نعمى . ومطيع الذي وافق بغبطة قرر دون تردد : الولد : صبحي ، والبنت لبني .

وشعر الحكيم بالنشوة ، رغم الاخطاء التي حصلت في الفترة الماضية ، اكثر من ذلك اعتبرها اخطاء صغيرة ، يمكن ان تحدث مع اي انسان ، لا بل ان اخطاء الآخرين اكبر مما وقع له . ان ما يعزبه ان مساعديه ، والذين يعملون معه ، يثقون به ، يحبونه ، ويعتبرونه مثلاً لهم ، ولذلك يلتفون حوله ، يسألونه ، يأخذون رأيه في الصغيرة والكبيرة ، « اكثر من ذلك لا يسمون اولادهم الا ببناء لمشورتي ورأيي . . وهذا هو العزاء » . ولم يشأ ان يتذكر حسني او سعيد ، ولم يخطر بباله ان يتذكر محمد عبيد او مفضي . ونام تلك الليلة مطمئناً ، ولم يقلقه الا تأخر المسافرين : غزوان اولاً ، ثم وداد . واخيراً سمير !

« الانتخابات » الاولى التي جرت في بداية الخريف ، لاختيار اعضاء غرفة تجارة موران ، كانت بمثابة صدمة جديدة للحكيم . كان يمكن ان يوافق على سقوط قائمته ونجاح اية قائمة اخرى ، لكن الذي لا يمكن ان يوافق عليه او يتصوره نجاح القائمة المعادية : قائمة سعيد ورضائي . صحيح ان الغامدي هو الذي اصبح رئيساً للغرفة التجارية ، ورضائي نائباً للرئيس ، « لكن تبقى القائمة ، بعناصرها ، بطريقة تشكيلها ، وحتى بالمغزى الذي رمت اليه ، من صنع هذا الخبيث سعيد » ، ولذلك فهي تشكل تحدياً للحكيم اقرب الى الاهانة .

واذا كان الحكيم قد احتمل بصعوبة التمهيدات التي حصلت عليها شركة الغزال قبل بضعة شهور ، فقد صرف وقته وجهده ، منذ ذلك الوقت ، للرد من خلال غزوان وشركته . لكن غزوان الذي جاء لمدة ثلاثة ايام فقط في اواخر الصيف ، وقدم « افكاراً » كما ذكر اثناء استقبال السلطان له ، حمل معه من موران اقتراحات ووعده ان تدرس هذه الاقتراحات وان « يرد عليها في اقرب فرصة » .

انقضى شهران ، شهران طويلان بالنسبة للحكيم ، ولم يتلقَ رداً ولم يصل الرد ، كل ما تلقاه رسالتان ، الاولى ، شخصية ، من غزوان ، ولم يشر فيها ، الا عرضاً ، الى الاقتراحات التي حملها ؛ مع تأكيد ان « النتائج ستكون ايجابية » ؛ والثانية من الادارة العامة للشركة تذكر انها تلقت اقتراحات السلطنة ، وانها موضع دراستها واهتمامها ، وحالما تستكمل الدراسة المطلوبة

في اعماقه ان التعب الذي حل بوداد هو سببه ، فلام نفسه انه حملها مسؤوليات اكثر مما تحتمل ، خاصة وانها كانت وحيدة في بيروت . ولذلك وبكثير من التفهم والتضحية احتمل الجو الصعب الكثيب الذي سيطر على قصر الخير ، لكن شعر، اكثر من قبل، انه وحيد، وحيد تماماً، وان اقرب الناس اليه لا يفهمه .

لم يقتصر الأمر على ذلك « سمير افندي عنفص » «مش ممكن، يا سعادة البيه ، احط اسود على ابيض قبل الاتفاق على شيئين : المكافأة التي استحقها لهذا العمل ، والشئ الثاني : عشر جلسات عمل مع السلطان ، لاني عايز اعرف كل حاجة عن جلالاته ، ولازم اتناقش معه في التفاصيل الصغيرة». والحكيم الذي بذل جهداً استثنائياً ليحمل سمير على ان يتخلى عن الشرطين او ان لا يصير عليهما « لان المكافأة اذا تحددت الآن ما هي من مصلحتك يا استاذ سمير ، لان صاحب الجلالة قد يأمر لك باضعافها ، ثم ان الجلسات مع جلالاته لا يمكن تحديد عددها سلفاً ، يمكن ان تكون اقل او اكثر ، ولكي تكون مفيدة يجب ان تطلع على تاريخ السلطنة ، وبعد ذلك تنفق على الاسئلة والتفاصيل الاخرى » ويدفع الى سمير بعدد من الكتب التاريخية والجغرافية لقرائها ، تمهيداً لوضع مخطط الكتاب ، وبعد ثلاثة اسابيع او اربعة ، وحين يسأل سمير ما اذا انجز قراءة هذه الكتب ، يكتشف انه لم يمد يده اليها « لان الاستاذ مطيع كلفني بشغلانة عاجلة يا سعادة البيه ، والظاهر ان الشغلانة دي تهم القصر » .

وظل وضع الحكيم عرضة للصعود والهبوط تبعاً للاجواء التي تحيط به ، ولطريقة الآخرين في التعامل معه ، فان يزوره مطيع بين يوم وآخر ، وان يستشيريه في تسميته الغلام الذي سيأتيه ، ولا يقدم على عمل دون التشاور معه ، ثم يسمع من الآخرين ان مطيع اتخذ مجموعة من المواقف او اقام عدداً من العلاقات دون ان يشير اليها مجرد اشارة ؛ وان يكون راتب في حالة من الرضا والثقة بالنفس ، بعد ان كان في حالة اخرى اول الصيف ، وهكذا حالات الآخرين المتقلبة او المتغيرة ، فان ذلك ينعكس بوضوح وبسرعة على الحكيم ، فيقع فريسة الاوهام والوساوس ، فلا يعرف هل الخطأ خطأ ام خطأ الآخرين .

سوف تتخذ الاجراءات المناسبة ! وتختتم الشركة رسالتها بالشكر والتقدير العميقين « للدكتور صبحي المحملجي ، ولابنه ، السيد غزوان ، الذي اثبت خلال الفترة القصيرة على عمله في الشركة جدارة وكفاءة استحق بموجبه تقدير رؤسائه » .

الآن ، بنجاح القائمة « المعادية » ، يتزعزع وضع الحكيم ويضطرب ، « كل ما دبرناها من جهة تنفخت من الجهة الثانية » وقد زاد من اضطرابه ان التقليد الذي كان سائداً ايام السلطان خريبط ، بان يذهب الامراء وابناؤهم بمعية السلطان الى البادية ، وان يقضوا هناك فترة من الزمن ، دون ان يرافقهم احد من المستشارين او الغرباء ، هذا التقليد الذي لم يحرص السلطان خزعل على اتباعه بدقة ، اذ كان يقع سنة ولا يقع في السنة التي تليها ، وغالباً ما يختصر ليومين او ثلاثة ، بدل اسابيع ، واحياناً يتخلف عنه بعض الامراء ، بدا هذه السنة ، وبمشاركة الامير فخر ، او ربما بمبادرته ، شيئاً مختلفاً عن السنوات السابقة . ومما زاد في غيظ الحكيم او تشاؤمه ان ارسل بطلب حماد ، وقد عرف ذلك من مطيع ، في اليوم التالي للسفر ، ثم ثابته بعد ثلاثة ايام ، ولم يسأل عن الحكيم . وقد بقي الاثنان الى نهاية الفترة ، اما بعد ان عاد حماد وسأله الحكيم فكان جوابه اقرب الى السخرية :

- ما عدا السوالف والقنص ما حصل شي يا ابو غزوان !

وحين نظر اليه الحكيم وكأنه لا يصدقه تابع :

- . . . وكان فيه سباق خيل !

وهز الحكيم رأسه بموافقة يائسة ، لكن تأكد ان حماد لا يريد ان يتكلم ، وتأكد اكثر انهم يستبعدونه ولا يريدون ان يعرف !

لو ان وضع الحكيم في البيت ، مع وداد ، كان افضل لعرف كيف يواجه الآخرين ، او على الأقل ان يخلق توازناً من نوع ما يجتمى به ، لكن بعد ان تأخرت كثيراً بين الاسكندرية وبيروت ، بسبب الاولاد واعادة تأثيث البيت في بيروت ، عادت الى موران امرأة مختلفة : نزقة ، صامتة ، واقرب الى المرض . والحكيم الذي بذل جهداً كبيراً لاجراجها من هذا الجو ، كان يشعر

وسمير . . لماذا يبدو هكذا بعد ان عاد من السفر؟ حتى زيارته اصبحت قصيرة متحفظة ، ولا يخفي رغبته في ان يغادر بعد وصوله بفترة قصيرة ، وكأنه يقوم بزيارة مجاملة . قال الحكيم لنفسه : « ربما وقعت اخطاء خلال زيارة الصيف ، اخطاء مني او من الاولاد ! » ويحاول ان يتذكر ، يستعرض الاحداث والأيام خلال زيارته فلا يجد شيئاً ، يسأل ودا ما اذا احست بتغير سمير واختلاف سلوكه . فتجيب اجابات غامضة قصيرة ، بحيث لا يستطيع ان يفهم شيئاً . ويسألها ما اذا ارتكب الاولاد اخطاء ولم تلاحظ ، فتفتني بشدة ، لكن دون رغبة في ان تخوض بالموضوع اكثر من ذلك .

كيف يمكن اعادة جمع الحياة وتنظيمها بعد ان تفرقت وتبددت هكذا؟ والصدقات والعلاقات اي جنون اصابها بحيث اصبحت غير مفهومة ، غير مستقرة ، وعرضة لاحتمالات لا حدود لها ؟

ظلت الحال هكذا الخريف كله وبداية الشتاء . السلطان عاد من رحلة البادية لكنه عاد انساناً آخر : بدا عليه الهرم او ما يشبه الابلال من مرض طويل ، واصبح اقرب الى الصمت ، محباً للعزلة ، واخذ يقضي وقتاً اطول مما تعود في احد القصور البعيدة عن قصر الغدير ، وهذا الوضع زاد في قلق الحكيم ، بل ووصل حد الخوف ، خاصة وان ذلك تفاق مع ظهور متزايد للامير فز ، فقد قام باداء صلاة الجمعة ثلاث مرات متوالية في جامع السلطان خزعل ، وقام بجولة في انحاء السلطنة استمرت شهراً كاملاً ، وقد رافقه في هذه الجولة عدد من اخوته الى جانب الحرس والمرافقين والصحفيين . وما قيل سابقاً عن احتمال تخصيص مقر ومكاتب للامير في قصور الخالدية فقد اصبح حقيقة مؤكدة ، لان الاثاث الانكليزي الذي يفضله الامير وصل قبل الانتهاء من القصور ، فوضع في قصر السعد بصورة مؤقتة . اما محاولات الحكيم لاستدراج حماد لكي يحدثه عن رحلة البادية ، ويفهم منه التطورات الجديدة او التي يمكن ان تقع ، فقد انتهت الى الفشل او الى خلق المزيد من التشويش بالنسبة له . قال له حماد في محاولة للهروب من الاجابة :

... وتعرف يا ابو غزوان السلطان يحب اخوته مثلما يحب اولاده ، وهذه الصفة موروثه اباً عن جد ، واهل موران كلهم يعرفون ، والامير فز

يقول لنفسه بكثير من الحزن ، « اصعب شيء في هذه الحياة ان يكون الانسان وحيداً ، او ان يمتلىء بهذا الشعور ، رغم وجود الآخرين حوله ، ورغم الضجة التي تحيط به » ويفرق في حالة من الحزن يحس معها ان حياته تبددت ، وان العمر كله انقضى في الركض الاحمق ، حتى اذا وصل ، او توهم الوصول ، يكتشف انه كان يركض في الاتجاه الخاطيء ، او نحو هدف لا يريده . حتى الزوجة والاولاد اصبحوا في المرحلة الجديدة مختلفين عن السابق . لا يعرف ماذا يريدون او كيف يفكرون ، ولذلك فان مشاعره نحوهم تبدو مهتزة ، قلقة . لقد تعب من اجلهم ، قضى عمره ليجمع ثروة ، وبعد ان وصل ، وحين اراد ان يسلمهم هذه الامانة ، يجدهم بعيدين او غير آبهين ، وكان الثروة لا تعني شيئاً بالنسبة لهم . كان يريد غزوان بقره ، معه ، لكن غزوان فضل البقاء هناك ، ولا يعرف الى متى سيقى وهل يحتمل ان تكون حياته في اميركا افضل مما لو جاء وسلمه كل شيء ؟ ووداد . . كانت في الماضي تحبه اكثر ، او على الاقل هكذا كان احساسه ، أما الآن فانها تشغل نفسها بامور تافهة : بالملايس ، بالملكياج ، بالزيارات ، فاذا تبقى لديها بعض الوقت فانها تنصرف الى البيت والاثاث . لم تعد تحس بوجوده واهميته كما كانت تفعل ، وحين تسأله عن صحته فان سؤالها اقرب الى المجاملة او الشفقة ، بحيث لا تعني لها الاجابة اي شيء ، فما ان تتظاهر بسماعها حتى تفرق من جديد في صمتها . أما الملايس والهدايا ، أما تلك العطور والمجوهرات التي لا يبخل ان يحمل منها كميات كبيرة بين فترة واخرى ، وكلما يفرغ حقيبته ، ويكون القسم الاكبر لوداد ، وتظن انه لا يحمل غيرها ، فكان يفاجئها بما خبأه في الحقيبة الاخرى . ومع ذلك ، ورغم الضحكات الفرحة ، القصيرة ، فان كل شيء ينتهي فجأة ، وتعود بسرعة الى عالمها . وهذا العالم لماذا يبدو حزينا مليئاً بالتوتر والصمت ؟ ماذا تريد اكثر مما يعطيها او يوفره لها ؟ هل هناك امرأة تعيش افضل منها ؟

هذه الامور شغلت الحكيم الى اقصى حد ، وهو بمقدار الثقة التي تملأه بانه قادر على ان يفسر اصعب القضايا ، يجد ان القضايا التي تواجهه شديدة التعقيد ، تموه نفسها ، او سريعة التحول ، بحيث لا يطمئن الى اي تفسير .

وقد ارتأت الشركة ان يلقي كلمة امام صاحب الجلالة السلطان يوضح عمق الروابط بين الولايات المتحدة وسلطنة موران والفوائد التي تعود على البلدين من التعاون المتبادل . كما ارجو ان تحدد للوفد مواعيد مع وزير الدفاع ووزير الداخلية وقائد الجيش ومدير المخابرات ، لان هناك اشياء كثيرة يمكن ان تبحث وتقال ، ويمكن ان يتم التعاون بشأنها ، (وقد اقترح رئيس الشركة بالذات ، ان يتم معك لقاء خاص يا بابا . . عدا عن اللقاءات الاخرى في الدعوات) . وبالمناسبة يجب ان تبذل جهداً استثنائياً في ترتيب الدعوات ، لكي ثبت لهم ان ما قرأوه في كتب التاريخ عن الكرم العربي ليس شيئاً يخص الماضي وانما هو مستمر حتى الآن . لدي اشياء كثيرة سوف نتحدث عنها يا بابا . لكن الآن اريد منك ان تبذل اقصى جهد من اجل تنظيم هذا الموضوع ، واذا اخذت الامر على عاتقك فسوف تكون النتائج مشجعة للغاية . خاصة وان الجماعة ابدوا استعداداً كبيراً للتعاون ، وفي مجالات كثيرة .

وفي ختام الرسالة ، التي كانت من ثلاث صفحات ، لم ينس غزوان الاشارة الى ضرورة حجز الطابقين الخامس والسادس في فندق موران الكبير ، باعتبار ان هذين الطابقين يحتويان على شقق وليس فقط على غرف منفردة ، واثار أيضاً الى السيارات التي يجب ان تخصص للوفد والمرافقين . . « واخيراً يا بابا الهدايا ، ان الهدايا ، وانت تعرف ذلك جيداً ، تلعب دوراً طيباً » وقد وضع خطأ تحت كلمة « طيباً » ، ثم اشار الى ان الوفد لا يستطيع التأخر اكثر من اسبوع ، ويجب ان يستعد الوفد للمفاوض . . « للمفاوضات . . ولتوقيع العقود » اما موعد وصول الوفد فسوف يكون في ٩ / ١٢ / .

نظر الحكيم الى التاريخ مجدداً ونظر الى الروزنامة المعلقة على الحائط . قال بما يشبه الاضطراب : « ما بقي لنا الا ستة ايام » . وخلال هذه الأيام الستة لم يبدأ لحظة واحدة . طلب موعداً عاجلاً من السلطان « للاهمية القصوى » كما ابلغ زيد الهريدي :

- يا طويل العمر . . . أبشر . . .

ولما نظر اليه السلطان ، الذي كان بملابس بسيطة اقرب ما تكون الى

كان منحرف الصحة ، أما بعد ان من الله عليه واستعاد صحته فمثله مثل غيره من الامراء !

أما زيد الهريدي الذي زار الحكيم مرتين خلال اسبوع واحد ، فقد جاء من اجل هدف محدد لم يخفه ولم يمويه كما فعل في مرات سابقة :

- طويل العمر يسلم عليك يا ابو غزوان ، ويريد من ذلك الدواء الازرق اللي اعطيته منه قبل سنة !

والحكيم الذي حاول ان يستفسر اكثر ، متجاهلاً الدواء الذي يعنيه زيد ، رغم انه يعرفه ، وقد سماه بنفسه هكذا ، لم يستطع ان يتوصل الى معرفة الجوهر معرفة دقيقة ، او الى نتيجة واضحة ، قال له زيد في الزيارة الثانية لكي يطمئن :

- لو كان فيه شيء ، يا ابو غزوان ، انت اول من يعرف ، لان مودتك عند طويل العمر ما يصلها احد !

واعطاه الحكيم الدواء الذي طلبه ، مع توصية واضحة :

- بلغ صاحب الجلالة تحياتي واحتراماتي ، وقل له يجب الا يجهد نفسه !

زايل القلق الحكيم بعض الوقت ، لكنه لم يطمئن ، لانه لم ير السلطان خلال الشهرين الاخيرين سوى مرتين ، وفي المرتين كان هناك آخرون بحيث لم تنح الفرصة لحديث راسخ او شخصي ، ومع ذلك قرر بحزن ، يقرب حدود التهور ، ان يتجاوز هذا الوضع ، لكنه احس بغصة لانه يحارب وحده ، ولان الآخرين لا يتعاونون معه بالمقدار الكافي .

« كلما ضاقت تنفرج » ، هكذا قال الحكيم لنفسه ، بعد ان قرأ رسالة ابنه غزوان التي جاءت في بداية الشهر الثاني عشر ، كانت رسالة طويلة ، ومما جاء فيها : « . . . وسيكون معي في الوفد نائب رئيس قسم المبيعات وثلاثة من مساعديه ، اضافة الى المستشارين الفني والقانوني للشركة . المطلوب يا بابا ، ان تظهر للوفد اقصى درجات الاهتمام والترحيب ، ويجب ان يكون ضمن البرنامج استقبال من قبل صاحب الجلالة ، خاصة وان احد مساعدي نائب رئيس المبيعات يتقن العربية (وسوف احديثك عنه) ولكن بلهجة مغربية ،

ام غزوان ، قال في محاولة استرجاع لذينة :

- انشاء الله ما يمر كم يوم الا وتشوفونا ببيتكم .. يا ابو غزوان !

- الف اهلاً وسهلاً ، يا طويل العمر ، شرف عظيم ، يا صاحب الجلالة .

وضحك الحكيم بطريقة معينة ، ثم تابع :

- وخاصة انه في مناسبة ، يا طويل العمر ..

سأل السلطان باهتمام :

- خير انشاء الله ؟

- مخدومكم .. غزوان ، يا طويل العمر ، بعدما كلفته بموضوع تسليح الجيش ، سافر وهذا الموضوع هو الموضوع الوحيد اللي في راسه ؛ ظل يبحث ويدور الى ان توصل الى نتائج مهمة جداً .

توقف قليلاً ، ابتسم ، نظر الى السلطان بتدلل واطراف :

- امس ، يا طويل العمر ، استلمت منه رسالة ، اكبر شركة سلاح في اميركا مستعدة ان تسلم جيش موران باحدث الاسلحة واهمها ، وباسعار رخيصة ، باسعار مثل الكذب ..

- ما تمنا الاسعار ، يا ابو غزوان ، اللي يهنا ان يكون لموران جيش اقوى واهم من كل الجيوش وبعدها كل شيء سهل !

- تماماً ، يا صاحب الجلالة ، هذا هو الامر المهم . ومن توفيق الله ، سبحانه وتعالى ، ان غزوان وصل الى اهم شركة ، وبعد كم يوم تتأكدون بانفسكم .

هز السلطان رأسه اكثر من مرة دلالة الرضا . تابع الحكيم بلهجة جديدة :

- عندي طلب .. يا صاحب الجلالة ..

- سم .

الثوب الذي ينام فيه ، بدهشة وصهل مثل عاداته عندما يكون فرحاً ، تابع :

- اللي كنا ننتظره ، يا طويل العمر ، صار باليد .

وصهل السلطان مرة اخرى ، ثم مسد على لحيته ، وقال للحكيم بكثير من المودة والهدوء :

- استرح .. يا ابو غزوان ، وخلصنا نسألك اول شيء عن صحتك واحوالك ، وبعدين نسولف بالسوالف الثانية .

خجل الحكيم من كلمات السلطان ، وكأنه يعرض به لانه لم يسأله عن صحته ، حاول ان يتدارك :

- الله يلعن الشيطان لانه ينسي الانسان .. يا طويل العمر .

- وكل الله .. يا ابو غزوان .

- وصحة جلالتم يا طويل العمر ؟

- الحمد لله . مثل ما تشوف ..

وصهل من جديد ، وتابع :

- ما دمت انت طيبنا يا ابو غزوان ، وتدز لنا من القواطي الزرق والحمر ، وما دام الله رايد كل شيء بخير .

وشاركة الحكيم الابتسام ، وكان بوجه لو يضحك مثله . بدا له السلطان في صحة جيدة خلافاً للمرة الأخيرة ، حين رآه قبل ثلاثة اسابيع . قال مداعباً :

- كنت بحاجة الى الراحة ، يا طويل العمر ، ويبدو ان جو البادية لم يناسبك ، وربما اتعبك !

- الواحد يروح للبادية يوم او اثنين . هدي المرة طالت : عشرين يوم ، تعبت شوي ، لكن من اسبوع اسبوعين .. لله الحمد !

ولم ينس السلطان ان يسأل عن عائلة الحكيم . وتذكر من جديد طعام

قال في لحظة متألمة ، وقد عاد السلطان الى ذكر الدواء الازرق :

- يا طويل العمر ، هناك قضايا كثيرة يمكن ان تقوي الانسان . . .

وضحك قليلاً ثم تابع :

- القوة . يا طويل العمر ، ليست بالعمر او بالادوية ، القوة بالثقة . . .

هز السلطان رأسه ، لكن لم تفهم هزة الرأس ، أهي دلالة موافقة ام

استغراب ، تابع :

- اذكر ، يا صاحب الجلالة ، اني قلت لجلالتكم قبل سنوات انكم رمز

وقدوة لهذه الامة ، والناس يتطلعون الى هذا الرمز بكثير من الاحترام

والتقدير ، لكن الكثيرين لا يعرفون ما يجب ان يُعرف عن جلالتكم .

لم يعلق السلطان ، لكنه ابتسم . تابع الحكيم :

- والآن ، وبعد ان توافرت الظروف المناسبة ، كل ما اطلبه منكم ، يا

صاحب الجلالة ، ان تحددوا لنا موعداً او اثنين من اجل استكمال المعلومات

التي يجب ان ينتظمها الكتاب الذي سيصدر عن جلالتكم ، وان تذكروا لنا فيما

اذا كانت لديكم افكار او رغبات يجب ان ترد في الكتاب .

لم يقدر السلطان فيما اذا كان الحكيم يسأله ، يطلب منه طلباً معيناً ، او

انه يحدّثه عن المشروع الذي حدّثه عنه قبل شهر . قال في محاولة لعدم

الاجابة :

- كل شيء بوقته زين ، يا ابو غزوان .

- خير البر عاجله ، يا طويل العمر .

- سم . . يا ابو غزوان .

- هل اطمح بان تحدد موعداً او اثنين من اجل استكمال المعلومات ؟

- الي تشوفه يا ابو غزوان .

- بعد شهر من الآن نبدأ ، يا صاحب الجلالة .

- على خيرة الله .

- مدراء الشركة طلبوا مقابلة جلالتكم اثناء زيارة موران ، لان عندهم

اشياء كثيرة لازم تطلعوا عليها شخصياً

وبعد قليل وهو يحاول ان يضحك بصوت بدا مشروخاً متكسراً :

- بعثت ، يا صاحب الجلالة ، عدة رسائل الى غزوان اذكره بالاقترحات

التي قدمت من سلطنة موران وضرورة متابعتها والبت بها ، الى ان جاءني

امس ، امس فقط ، رسالة الموافقة ، والجماعة سوف يحضرون الى موران يوم

٩ الشهر ، وسيبقون اسبوعاً . .

وتغيرت لهجته :

- ورأيي يا صاحب الجلالة ، ان تستقبلهم قبل اليوم الأخير من زيارتهم ،

استقبال مجاملة ، لتعبر لهم عن العلاقات ومدى قوتها بين سلطنة موران

والولايات المتحدة . ان استقبلاً مثل هذا يقوي الشركة ويدعمها فيما اذا كانت

هناك بعض الجهات داخل الحكومة الاميركية تريد ان تعاكس تقديم صفقة

سلاح كبيرة وهامة للسلطنة .

- وتريدني اخطب واتكلم ؟

- ابدأ . . يا صاحب الجلالة . . يمكن ان تسأل المدراء عن صحتهم ،

عن رأيهم بزيارتهم ، عما رأوه في موران . هذا كل شيء . .

وبكثير من المداورة والمكر توصل الحكيم الى اقناع السلطان بالموافقة على

استقبال الوفد ، كان بوّده لو ان الظروف افضل ، اذن لاقنعه بدعوة الوفد الى

حفلة غداء او عشاء في القصر ، او ان يرافق بعض الامراء الوفد الى حفلة

صيد وقضاء يوم وليلة في الصحراء . ان هذا شيء يحبه الاميركيون كثيراً ، لقد

عرف ذلك واختبره اثناء اقامته في حران ، لكنه لم يجرؤ على ان يطلب مثل هذا

الطلب .

ظلت الورقة الأخيرة لو استعملها لا بد ان يكسب السلطان الى جانبه ،

ان يقنعه بتقديم تنازل اضافي : « السيرة » . يجب ان يحدد له وقتاً لاستقبال

سمير اولاً ، ثم البدء بكتابة السيرة ، بعد ذلك .

ينس التنبيه على شركة ، ومنذ وقت مبكر ، بضرورة حمل مجموعة من الهدايا . أما بعد وصوله فقد قضى مع ابيه حوالي ساعتين لتحديد كيف توزع الهدايا ، بحيث لا يقع خطأ . حتى الامير فنز كانت له هدية بين الهدايا ، وهي عبارة عن صفحات من القرآن مخطوطة على رق غزال من القرن التاسع الهجري ، وقد اشترت من لندن لهذا الغرض . أما هدية السلطان فكانت كبيرة ومتنوعة : عدة قطع من السلاح رُسم عليها شعار السلطنة وخط عليها اسم السلطان ، اضافة الى مجموعة من المناظير الحربية ، ويمكن ان تفيد في الصيد ايضاً . وكانت بقية الهدايا مجموعات من الاسلحة الفردية او اسلحة الصيد ، ولم ينس الوفد ان يحمل اربعة صقور اسكتلندية رمادية اللون .

هدية الحكيم كانت عبارة عن مجموعة من اقلام الحبر الذهبية الثمينة ، وقد خبأ غزوان هذه المفاجأة عن ابيه حتى اللحظة الأخيرة ، أما عندما تسلمها وفتحها فقد نظر الى ابنه بكثير من الانفعال ، ولم يتمالك نفسه ، اثناء معانقته ، من حبس دمعتين انحدرتا على خده . وهذه الالتفاتة من غزوان نحو ابيه كانت نتيجة الاحاديث التي جرت خلال الزيارة القصيرة في نهاية الصيف ، حيث ذكر الحكيم ان أمنيته ، بعد بضع سنين ، ان يتفرغ لكتابة مذكراته ، و اشار ، عرضاً ، ان من جملة الشروط التي تحرضه على الكتابة ، بالاضافة الى الجو والوضع النفسي : الادوات ، واوضح انه يقصد بالادوات الاقلام والورق .

توقع الحكيم وامل كثيراً ان يبقى غزوان بضعة ايام اخرى بعد سفر الوفد ، لكنه لم يجرؤ ان يبحث معه هذا الأمر ، لانه لا يحتمل الرفض ، فكلف زوجته ان تتولى هذه المهمة ، ووداد التي بدت في وضع نفسي افضل ، لم تدخر وسيلة من اجل اقناعه . لكن غزوان كان واضحاً وحازماً في عدم استجابته الى الضغط ، قال لها في محاولة توضيح اخيرة :

- يا ماما انت ما لازم تقبلي ، لاني اذا تأخرت عن الوفد يوماً واحداً راح يلعب الفار بعبيهم ، ويمكن يقولوا اشتغل من ورا ظهرنا . وعندها بتبوظ الشغلة كلها .

بدا استقبال السلطان للوفد مليئاً بالجلال والمودة ، لانه كان تنوياً لاتفاق كبير وطويل الامد بين الولايات المتحدة وسلطنة موران ، وقد لعب غزوان ، لتوقيع هذا الاتفاق ، دوراً بارزاً ، اثار اعجاب الكثيرين . ولم يتردد السلطان في الاشارة الى هذا الدور اثناء حفل الاستقبال . وما لفت النظر ايضاً ان السلطان خص ثلاثة في الوفد بمعاملة خاصة : رئيس الوفد ، ومساعدته الذي يتقن العربية وغزوان ، اذ بالاضافة الى التبسط بالحديث ، وقد قام غزوان بالترجمة بين جلالته ورئيس الوفد ، فقد كانت السيوف التي اهديت الى هؤلاء اجمل من غيرها واعلى سعراً . أما اعجاب السلطان الواضح بغزوان فقد جعل زيد الهريدي يردد ، وعلى مسمع من الذين حوله ، وكان يوجه الكلام الى الحكيم :

- هالحين تأكدت ، يا ابو غزوان ، ان لا احد اغل عنده منك . . وتشوف عينك !

والحكيم الذي انفعال واضطرب كاد يشرق وهو يرد عليه :

- الله يطول عمره ، الله يخليه ، لاننا بدونه لا نسوي شيئاً .

أما كيف سارت الامور منذ وصول الوفد ، وكيف انتهت هذه النهاية السعيدة ، فان الحكيم لعب دوراً هاماً في التحضير ، ثم جاءت براعة غزوان وذكاؤه ليلعب دوراً حاسماً في كل المراحل اللاحقة . وكان لا تصالاته ولا استخدام معارفه ومعارف ابيه اهمية فائقة في الوصول الى هذه النتائج ، ولم

على مقاعد الدراسة ، وربما ردها احد المجانين الذي يدعي الفلسفة ، والا من يقرر الحرب اذن ومن يخوضها ويقرر نتائجها ؟

ومثلما كانت اكثر المناقشات تبدأ بنقطة ثم تتشعب وتتداخل ، وغالباً ما يُبنى كيف بدأت او ماذا كان يراد منها ، فان الحكيم نسي قول ذلك الفيلسوف المجهول ، لكنه لم ينس ما يحيط به من هموم ومتاعب يومية ، كان يريد ان يعرف مستقبل موران ، إذ على ضوء ذلك يعرف كيف يسير وكيف يتصرف ، وغزوان الذي لا ينفك يؤكد ، وبشكل متزايد ، ان اتخاذ القرار يتناسب تناسباً عكسياً مع الاهمية في العلاقة بين الداخل والخارج ، فكلما تزايدت اهمية بلد ما اصبح اقل قدرة على التقرير ، ولذلك يجب ان لا يشغل ابوه نفسه بما يعتبره هموماً . والحكيم الذي سلم ، ظاهرياً ، بما يقوله ابنه حاول ان يتذكر كيف كان يفكر عندما كان بعمره ، اية افكار سيطرت عليه ، وكيف كان ينظر الى الحياة والناس ، ثم كيف تغير سنة بعد اخرى ، وما اضافته اليه الحياة من تجارب ومعارف ، وكيف ان هذه التجارب والمعارف لا تختلف عما تعلمه في الجامعة فقط وانما تناقضها . قال لنفسه في محاولة الوصول الى نقطة توازن « عقله ، الملعون ، براق ، برنجي ، ولا بد ان يكون سياسياً بارعاً ، لكن بعد ان تصقله الحياة وتدربه » .

واذ ادرك غزوان ان اباه لا يتق كفاية بما يقوله ، فقد قال مداعباً :

- المهم يا بابا ان تتم هذه الصفقة ، لانها ستكون خميرة جيدة ، وسوف تفتح لنا آفاقاً لا نهاية لها ، لان السلاح في هذه المرحلة ولهذه المنطقة اهم شيء !

وشارك الحكيم ابنه الابتسام ، وكان متأكداً ان الجهد الذي بذله في تربيته اخذ يثمر ، ولا بد ان تكون النتائج عظيمة للغاية .

لقد جرى هذا الحديث في إحدى الليالي ، أما في الليلة التالية ، وقد شارك سمير في جزء منها ، وبدا الجميع في حالة من التألق والرضا عن النفس ، فقد اخذ الحديث منحى آخر ، اذ تكلم الحكيم عن ذكرياته ، وأشار عرضاً انه منذ وقت مبكر يسجل يومياته ، « طبعي الاحداث الكبيرة والهامة وليس احداث

وكتعبير عن التضحية وفي محاولة لاسترضاء امه وابيه وافق ان يقضي معظم الليالي في البيت ، وان ينام ايضاً ، رغم « ان الشقة محجوزة في الفندق » .

في الليالي التي قضاها غزوان في البيت ، والتي غالباً ما تطول وتمتد ، وكانت تقتصر عليه وابيه ، بعد ان تسحب امه « لاني نعسانة ، ولان كلامكم ما يخلص » في هذه الليالي جرت احاديث كثيرة ، اكتشف الحكيم من خلالها « ان الدراسة في اميركا افادت غزوان وغيرته كثيراً » فقد حدثه ان المرحلة الجديدة ، خاصة في السنوات الأخيرة ، غيرت كثيراً في المفاهيم السياسية والعلاقات الدولية ، وموران الآن تعني شيئاً هاماً للولايات المتحدة وللغرب بصورة عامة ، لموقعها ولامكانياتها البترولية ، وللدور الذي تلعبه في المنطقة ، ولذلك انتقل مركز القرار من الداخل الى الخارج ، « أما مسألة غرفة تجارة ، يا بابا ، او مسألة العلاقة بين فلان وعلان ، فانها لا تعني شيئاً » . ووضح له ايضاً ان اهمية المنطقة ، باعتبارها تمثل مستقبل العالم ، لا يمكن ان تترك بأيدي مجموعة من الشيوخ والامراء البدو ، « لان القضية اكبر واخطر من ذلك ، تماماً كما لا يمكن ان تترك مسألة الحرب ، اية حرب ، يقررها مجموعة من الجنرالات ، كما قال احد الفلاسفة » .

والحكيم الذي انتفض اكثر من مرة ، وكأنه يطرد النوم عن اجفانه ، وهو يستمع الى ابنه ، فوجيء بما يسمعه . كان يريد ان يجدد عن نظرية المربع ، عن التأملات والنتائج التي توصل لها ، لكنه يجد ان عقل غزوان نمط آخر ، « وربما لا يدرك البواعث العميقة والكامنة في الانسان » وحاول ان يتذكر بعض النظريات وكيف انها عجزت عن تفسير السلوك الانساني ، ولذلك فشلت . « أما هذه الاميركا فانها معجزة . والا كيف استطاعت ان تسيطر على العالم ؟ » .

كان الحكيم مشوشاً مضطرباً ، فما يسمعه من كلام لا يقنعه بالمقدار الكافي ، لكن ما يراه من نتائج لا يترك لديه اي شك . اما ذلك القول الذي نسبته غزوان الى احد الفلاسفة ، حول ان الحرب اكبر واخطر من ان يقررها العسكريون ، فقد جعله في شك كبير ، ان ما يقوله ابنه مجرد كلمات تعلمها

قضية اخرى !

هكذا رد غزوان بمرح مخاطباً سمير ، لكنه يعني اياه ، وكأنه يلومه ؛ عند ذلك تأكد الحكيم ان ابنه سوف يتفوق عليه بذكائه وحسن تصرفه ، وان الاشياء التي عجز عنها سوف يتولاها هو : قال في محاولة دفاع عن النفس :
- ظروفنا غير ظروفكم يا ابني . . . والدنيا تغيرت !

وفي اليوم قبل الأخير اقام الحكيم للوفد دعوة كبيرة في فندق الرابية ، وقد ارتأى غزوان ذلك « لان الجماعة ما ناسبهم اكل المناسف واللحم كل يوم ، هذا اولاً ، وثانياً : لازم تظهر بنظرهم ، يا بابا ، شخصاً مختلفاً عن اهل موران ، والنقطة الأخيرة ان الحفلة اذا اقيمت في الفندق ، في مكان عام ، لا تخفى على احد ». اعجب الحكيم بالفكرة ، رغم انها ليست مألوفة في موران بالمقدار الكافي ، وشط به الخيال ، اذ فكر في احدى اللحظات لو يعود الى الملابس التي كان يلبسها قبل استقراره في موران ، وفكر لو يلقي كلمة الترحيب باللغة الانكليزية ، لكن لغته من الضعف والارتباك الى درجة يمكن أن تثير السخرية ، وقد يصل ذلك إلى حساده ، أما لو التقي كلمته بالالمانية فيمكن ان يساء فهمه ! وفكر طويلاً بالمدعوين ، اراد من هذه المناسبة رداً موجعاً لخصومه ، لحاسديه ، ولذلك استبعد دون تردد ، ومنذ البداية ، اسمين : الغامدي لانه لا يعترف بصفته كرئيس لغرفة التجارة ، والثاني ، سعيد لانه يريد ان يقول للقاصي والداني ان العلاقة بينها انتهت تماماً . أما رضائي فقد دعاه من قبل ، وسوف يدعوه الآن ايضاً ، ويمكن هذه الدعوة ان تشكل محاولة لشق غرفة التجارة او خلق قوى متعارضة داخلها ! وفكر الحكيم بآخرين كثيرين ايضاً ، لكنه استبعد واضاف ، ثم اعاد النظر مرة واخرى ، الى ان استقر على قائمة يعتبرها لائفة ، « لان الكرم ليس بالضخامة او الكثرة ، وليس بالاسراف ، وانما بالبشاشة ، بحسن التصرف ، وبتلك اللمسة الحضارية ، خاصة مع مجموعة من هذا النوع » .

كان الحكيم وغزوان مثل عريسين وهما يستقبلان المدعوين عند باب قاعة الطعام الرئيسية ، وخلال الخمس والاربعين دقيقة التي سبقت العشاء ، والتي

كل يوم « وان هذه اليوميات سوف تساعده في كتابة مذكراته « التي ستكون سجلاً لتاريخ المنطقة خلال الخمسين سنة الأخيرة » وسمير الذي اطرى بحماس طريقة الحكيم في تسجيل اليوميات ، توقع ان تكون المذكرات على جانب كبير من الاهمية . أما غزوان فقد كان غمطاً آخر من الافكار والسلوك ، قال ضاحكاً :

- تذكر الالف دولار يا بابا ؟

- الالف دولار ؟

- اللي اعطيتني ياها يوم السفر . .

- اي نعم . . كيف لا اتذكر ؟

- صارت خمسة وعشرين ألف دولار خلال الكم سنة اللي مرت !

زقزقت وداد كعصفورة من كلمات ابنها وكانت مغتبطة بالجو العام ، قالت كطفلة صغيرة :

صارت عندك فلوس كثيرة يا ماما !

أما الحكيم فقد ابدى دهشة فاقت كل حد ، تساءل باستغراب :

- يعني الواحد بخمس وعشرين ؟

وافاض غزوان في شرح كيفية توظيف هذا المبلغ ، وكيف ان البنوك في State تساعد المستثمرين وتجد لهم فرصاً جديدة من اجل اعادة الاستثمار ، وانه نقل المبلغ ، مرة بعد اخرى ، من استثمار الى آخر ، بحيث اصبح بهذا الحجم ، وختتم شرحه وهو يتسهم :

- اذا عرف الانسان كيف يوظف امواله ، كيف يشتغل ، يمكن ان يصير مليونيراً !

قال سمير وهو يهز رأسه :

- حاجة عظيمة خالص !

- انتم ضيعتم جهودكم ووقاتكم بين كتابة المذكرات والسياسة والـ

ان ترجم السؤال لاييه ، فقد دارت عيناه دورة سريعة ، وكأنه يبحث عن سبب ، ثم قال وهو يتسم :

- عرس من اعراس موران !

وما كاد غزوان يترجم حتى اضاف الحكيم وقد تحولت ابتسامته الى ضحكة :

- والظبل في الاعراس هو القائد ، هو السيد .

قال الزويبي باستنكار ودهشة :

- لكن اليوم ما هو يوم الخميس ، يا حكيم !

- بموران صارت كل الايام خميس ، يا ابو عمران ، بوجود صاحب الجلالة المفدى !

هكذا رد الحكيم ، وقد بدا متألماً مثل ديك بعد مطر خفيف ، وعندما ترجم هذا الحوار للاميريين بدوا مسرورين للغاية ، وقد شاركهم الآخرون هذا السرور . أما عندما كان الحكيم يودع ضيوفه عند الباب الخارجي للفندق ، فقد كان صوت صالح ، بين دقة طبل واخر ، يأتيه واضحاً ، كان يقول :

- بشر القاتل بالقتل والسارق بالفقر .

كان يقول ذلك بنغم مع دقات الطبل ، ثم يدق بقوة ويغير النغم وهو يدور :

- اليوم الاسود يوم جيتنا وشفناك . . واليوم الابيض يوم تعطينا فناك .

ويشير الى الحكيم وهو يترنم ويضحك ، وبعد ان يردد المقطع الثاني بسخرية ينتقل الى نغم جديد :

- ويا من تعب ويا من شقي ويا من على الحاضر لقي .

عندما يردد هذا النغم يصبح ساخراً وحزيناً في آن واحد ، وفجأة تتغير نبرة صوته ، تصبح سريعة حادة وهو يردد :

- ما طار طير وارفع الا كما طار وقع .

كانت عبارة عن حفلة كوكتيل ، تبادل خلالها المدعوون الاحاديث وتم التعارف بين اكثرهم ، وقد لعب غزوان ونائب رئيس الوفد ، الذي يتقن العربية ، دوراً بارزاً في التعريف والترجمة ، أما الحكيم فقد كان مثل والد العريس ، حيث وزع بشاشته واهتمامه على الجميع بقدر متساو تقريباً ، وان وقف مع رئيس الوفد ونائبه فترة اطول ، وتبادل معها احاديث متعددة ، وقد اشار ، ولا يعرف كيف عن له ذلك ، انه بصدد وضع كتاب عن تاريخ موران ، وهذه الاشارة بالذات استوقفت نائب رئيس الوفد ، وابدى اهتماماً ملحوظاً . أما الكلمة القصيرة التي القاها الحكيم على مائدة العشاء ، وقد القاها ارتجالاً ، وضمنها نكتة ، فقد ادخلت السرور على نفوس المدعوين ، حتى الاميريين ، عندما ترجمها غزوان ، والذي تكلم بنفس نبرة ابيه ، مما لفت نظر اغلب الضيوف واثار اعجابهم !

تحدثت موران عن حفلة الحكيم فترة طويلة ، ووصلت اصداؤها الى قصر الغدير ، خاصة وان عدداً من الامراء ورجالات القصر حضرها ، ومما جعل الحديث عنها يستمر ويطول ، ويأخذ مناحي شتى ، انه وقعت خلالها او عقبها امور عديدة : فخلال فترة الكوكتيل ، ولا يعرف كيف ، وضعت تحت اطباق المدعوين ، في قاعة الطعام الرئيسية ، منشورات ضد اتفاقية السلاح ضد الاميريين . كان تحت كل طبق منشور طوي بعناية ووضع باتقان ، حتى انه لم يلفت نظر الكثيرين اول الامر . أما عندما فتحت احد المدعوين المنشور وقراً بعض ما ورد في سطوره الاولى ، فقد خاف وتلفت ، خاصة وقد رأى تحت الاطباق ، امامه ، والى جانبه ، منشورات مماثلة . وكانت المحاولة الأخيرة في جمع المنشورات ، بعد ان اكتشفت ، غير ذات جدوى ، فالذين لم يعرفوا عرفوا ، والذين لم يريدوا ان يحتفظوا بها فعلوا ذلك ، وقد سبب هذا احراجاً مؤقتاً للحكيم ، لكنه تدراكه بنكة رواها في ظل التساؤل والذهول ، مما ادى الى تجاوز الموضوع . الأمر الثاني الذي سبب احراجاً متأخراً ، اي بعد انتهاء حفلة العشاء ، صالح الرشيدان وطبله ، فدوي الطبل الذي كان يصل المدعوين ، اثناء العشاء ، بوقع منتظم ، وعندما سأل احد الاميريين عما يعني ولماذا بهذه القوة ، فقد ارتبك غزوان للحظات ولم يعرف كيف يجيب ، أما بعد

والحكيم الذي بدا محرّجاً للكلمات التي يسمعهها ، او للشئام التي توجه اليه ، حاول بجهد ان يبعد عن وجهه ، عن سمعه ، عن انظاره وانظار الآخرين ، هذا الذي جاء ليفسد كل شيء . واهل موران من المدعويين الذين يعرفون صالح الرشدان ، او الذين رأوه في شهر من شهور رمضان السابقة او في احد العيدين ، يدق طبله ويجمع الفطرة او العيضية ، لم يتصوروا انه يعرف الشئام التي يقولها الآن ، او السخرية المرة التي تنزف من كلماته ، واستغربوا اكثر انه يستعمل طبله في هذا الوقت من السنة ، او في هذا الوقت من اليوم ، وعندما وقف قربه بعض المدعويين يسألونه او يداعبونه . لماذا اختار هذا المكان أو هذا الوقت فقد كانت كلماته جاهزة :

- لازم الواحد يقول للاعور اعور بعينه ، حتى يعرف ويعرف الناس ، ويشير الى الحكيم :

-- وهذا الظالم ما يشوف حدبته ، يشوف حدبة غيره ، ولازم هالحين نقول له ويشنّهو

تمنى الحكيم لو أن هذه الأمور لم تحصل ، وتمنى لو أن حماد لم يغيب ، لو كان حاضراً لعرف كيف يتصرف ويمنع هذا الشعب ، هذه الاسماء الصغيرة ، والتي ربما كان وراءها سعيد بالذات ، لكي يفسد عليه حفلته ، ولكي يؤكد له أنه موجود وقادر على الانتقام ! وتمنى أيضاً لو أنه أقام هذه الحفلة في بيته . قال لنفسه وهو غارق في المقعد الخلفي لسيارته ، بعد أن ذهب غزوان ليوصل الوفد ، على أن يلتحق به «الحسد رأس مال اللئيم ، ولا بد أن ننتقم من هذا الجاحد سعيد ، لأن هذه الأشياء كلها من فعله» وحاول أن يستعيد ، بأشكال مختلفة وقائع الحفلة : كيف بدأت ، ماذا قال وكيف قال ، والآخرين ، كيف كان رد فعلهم ، لكن فكره تركّز حول أمر واحد : رد فعل الأميركان .

قال حماد لما بلغه ما حصل في حفلة الحكيم :

- صالح ما يغني من راسه . . يا جماعة !

وهز رأسه وهو يستعرض الوجوه والاحتمالات ، واذاف كأنه يكلم نفسه :

- هذا الطبل ما هو طبل رمضان والعيدين ، وما هو طبل الله !

وحين اشار مساعده الى ضرورة اعتقال صالح وتأديبه رد عليه بسخرية :

- لا . . اتركوه ، ما يخالف ، خلّه يطبل ، لان الصوت يدلنا من اي بير طالع ، وذاك اللي نريده .

ظل رد فعل حماد ازاء ما جرى هادئاً بل اقرب الى البرود وعدم الاهتمام ، والكثيرون الذي توقعوا عقاباً قاسياً لصالح ، استغربوا انهم رأوه في الأيام التالية يتجول في الشوارع مزهواً ، ولا يتردد في ان يعيد على مسامع الذين يسألونه الكلمات التي قالها عند فندق الرابية ، وفي وجه الحكيم بالذات .

قال الحكيم لحماد يعاتبه :

- كان لازم تحضر يا ابو راشد ، أولاً : الجماعة سألوا عنك ؛ وثانياً كان

ممكّن ان تمنع الهيصّة اللي صارت !

ابتسم حماد ، وحاول ان يكتفي بالابتسامة جواباً ، لكن نظرات الحكيم المحددة المتسائلة اضطرتّه ان يتكلم :

فالحكيم الذي تأثر اشد التأثر في تلك الليلة ، ثم في الليالي التي تلتها ، وكان على يقين راسخ ان سعيد وراء الذي جرى ، ما لبث ان اصبح اقل ميلاً لاعتباره وحده المسؤول . لان الافكار التي بدأت تملأ رأسه والشكوك التي تراوده ، جعلته يحس ان القضية اكبر واخطر من ذلك ، فسعيد يمكن ان يعاكسه شخصياً ، يمكن ان يتحدث ضده ، أما هذا الذي جرى فانه يتجاوز كل حدود ، واخطر من مجرد خصومة او تنافس بين اثنين . وحماد الذي كان مستعداً للحوار مع الحكيم في فترات سابقة ، او على الأقل لان يصغي اليه ، استغرقته الاعباء والهجوم الجديدة ، ولذلك انقضت فترة دون ان يرى احدهما الآخر . حتى الرقم الجديد لتلفون حماد الخاص ، لم يحصل عليه الا بضعة اشخاص ، ولم يكن الحكيم واحداً منهم ، ولذلك لم يتحدث أحدهما للآخر الا مرات قليلة . كان عبد المولى ، المهذب ، يزداد تهذيباً حين يعرف ان الحكيم على الخط ، فيبلغه ان ابا راشد غير موجود ، او انه سافر قبل ساعات قليلة . ويزداد غيظ الحكيم وخوفه معاً ، فلا يعرف كيف يتصرف ، او باية طريقة يرد على هذا التجاهل والاهمال . اكثر من ذلك ، اصبح يعيش تحت هاجس ان قوى شريرة وغامضة تلاحقه وتستهدفه ، وقد تقضي عليه ، دون ان يعرف طبيعة هذه القوى او من وراءها . ومع ذلك لم يكن مستعداً لان يبوح بهذه المخاوف لاحد ، لانه لا يجرؤ ولا يملك الدليل . واسف انه لم يخص نفسه ، اثناء تقسيم الهدايا ، بقطعة سلاح « السلاح يونس ويشجع الانسان » ، لكن عاد واعتبر القضية اكبر من ان تواجه بسلاح فردي ، فالمؤامرة كبيرة ، والقوى التي تترصد به من المكر والذكاء بحيث انها تموه نفسها باستمرار وتأخذ اشكالاً ووجوهاً لا حصر لها ، حتى سعيد لا يعدو ان يكون اداة من الادوات .

هموم حماد كانت من نوع مختلف ، فمنذ ان وقف صالح عند فندق الرابية ، تبدو له موران ، التي ارادها ساكنة مثل مقبرة ، وكأنه لا يعرفها او لم يعيش فيها ، مخادعة ماكرة ، بل اكثر من ذلك تبدو له خطيرة ، لكنه كتم غيظه ، لان صالح اقل من ان يكون خصماً ، ليس هذا فقط ، يريد ان يعرف ماذا ومن وراء المنشورات ، من وزعها وكيف ، ولهذا فان صالح مجرد طعم وسوف يصيده الآخرين . سوف يتركه يسرح كما يشاء . لن يعترضه ولن يدع

- تعرف اشغالنا ، يا ابو غزوان ، وبعدين انا اغلب الحفلات لا احضرها ، وهذا ما هو من اليوم ، من زمان !
- وهذه الهيصمة . . من برأيك وراءها ؟
- الله اعلم . . يا ابو غزوان !
- تقديرك ؟
- لا اعرف .
- يمكن تكون غرفة التجارة ؟

كان يريد ان يقول سعيد ، لكنه اثر هذا التعميم ، ردد حماد باستغراب وسخرية :
- غرفة التجارة ؟

- هيك قلت لنفسي ، لاني تعمدت ان لا ادعو جماعة الغرفة بعد اللي صار في الانتخابات الأخيرة .

- وكل الله يا رجل ، الجماعة كلهم طيبين واجاويد ، وظني ان لا احد منهم يفكر ، مجرد تفكير ، بقضايا من هذا النوع .

- وهذا الشحاذ اللي كان يطبل ويزمر عند الباب . . من ورّه ؟ من حط بجيبه كم قرش وقال له : طبل وسب واشعل امواتهم ؟

- هذا خبل ، يا ابو غزوان ، وما يتأخذ بكلامه !

- لازم تمسكوه ، تقررره ، لانه اول الخيط ، وبعده المسبحة كلها تكرر .

- ما اريد امسوي من هذا الخبل بطل وشهيد ، اريد اكظ الناس اللي هم وراه .

- لكن اذا قبضتم عليه يوصلكم .

- لا تخف يا ابو غزوان . . نصل .

وانتهى الحوار بين الاثنين حول الموضوع . لكن الموضوع لم ينته .

كانت امور معينة فاتته ، لسبب او لآخر ، فلا بد ان تكون قد وصلت الى السلطان ، « لا يمكن ان يخفوا عنه صغيرة او كبيرة ، ومن حديث الى آخر ، لا بد ان اصل الى نتيجة ، أما بالنسبة اليّ فربما يتحفظون او ربما لا يريدون اخفاي اكثر مما ينبغي » . أما الأمر الأخير الذي يريد الوصول اليه فهو التأكيد على التوصية التي ردها غزوان عشرات المرات ، حول ضرورة ان تبعث السلطنة ، بين فترة واخرى ، برسائل استفسار حول صفقات السلاح والمطالبة بتقديم مواعيد التسليم ، بغض النظر عن النفقة الاضافية ، لان من شأن هذا الالحاح ان يقوي مركز غزوان في الشركة ، ويمكن ان يساعده على ابرام صفقات اضافية ، سواء مع السلطنة او مع دول اخرى . وقد اعتبر الحكيم ان الظروف التي ستوافر في جولة مثل هذه لا بد وان تساعده على تأكيد الطلبات التي اشار اليها غزوان .

ما كان الحكيم ليصل الى هذه القناعات والمشاعر لولا وداد ، فبعد الكتابة والعزلة التي سيطرت عليها منذ عودتها ، بدت ، في نهاية الشتاء ، في حالة من المرح والعنفوان ذكرته بشبابه او ببداية ايام الزواج ، لانها بمقدار ما حاولت الابتعاد عنه ، او التهرب من « الواجبات » خلال الفترة الماضية ، وقد عزاها الى التعب او المرض ، فقد بدت في هذه الفترة امرأة مختلفة : كانت تقبل عليه بلهفة ودلال ، وكانت تبدي من الصبا ما خفي عنه طوال شهور ، لا بل سنوات . هذا عدا عن المرح ورغبة المشاكسة ، واذا كان قد تقبل هذه الامور بتحفظ ، اذ ظنها نوبة او حالة من الحالات الطارئة ، فان استمرارها وتزايدها ، اعادا اليه الثقة بنفسه وبكل ما حوله . حتى فكرة المؤامرة التي سيطرت عليه اعتبرها هاجساً من الهواجس التي تستبد بالانسان نتيجة العزلة والوحدة ، او نتيجة عدم فهم الآخرين له . أما حين انتبه الحكيم للجو ، فقد اعتبر ان الطبيعة ، حسب نظرية المربع ، تنشط وتتغير في هذه الفترة من السنة ، وهي بمقدار ما تفجر الحياة في النبات والحيوان ، فانها لا تغفل عن الانسان ايضاً !

وبكثير من الرغبة والانفعال بدأ يتكيف مع حالة وداد الجديدة ، وشعر ان جسده وروحه يستجيبان له ، وقد ساعده على ذلك ايضاً ان سمير تعهد له ان

احداً يعترضه ، لكن سيراقبه من بعيد ، حتى اذا وضع يده على خصمه سيضربه بلا شفقة وبلا رحمة ، لكي يؤدب موران لسنوات وسنوات .

ولانه خطط بهذا الشكل فلم يكن في عجلة من امره « فالطريدة اذا اطمأنت وشعرت بابتعاد الخطر يكون صيدها اسهل ، أما الغشيم فلا يصيد ولا يخلي غيره يصيد » هكذا قال لنفسه ، أما الآخرون فقالوا ان صالح لا يزال يجول في الأسواق يشتم ويتكلم وكأن ليلة الرابعة قتلت الخوف في قلبه ، فيضحك حماد ويقول برخاوة :

- يا عباد الله اتركوا ابن الرشدان ، يكفيه ان الله طارده من نعمته !

وحين يقولون انه لا يوفر شيئاً ولا يترك احداً يرد :

- خله ينفث اللي بصدرة ، لانه اذا ما نفث راح علينا الخيط والعصفور !

وينقضي شهر وشهر آخر ، وحماد لا يتحرك ، لا يُسمع صوته ! أما الحكيم الذي امتلأ بالخوف من المؤامرة التي تستهدفه ، ولا بد ان تقضي عليه بين يوم وآخر ، فقد اصبح الآن أقل شعوراً بالخطر ، فيطمئن قليلاً ، تعاوده الثقة ، خاصة وان سمير انجز قراءة الكتب التاريخية والجغرافية حول موران ، والتي اجل قراءتها مرة بعد اخرى ، بحجة أعمال طارئة كلفه بها مطيع ، كما صدف ايضاً ان تقرر قيام السلطان بجولة تشمل انحاء السلطنة ، مثلما فعل اول اعتلائه العرش ، على ان يكون الحكيم ومطيع ضمن المرافقين ، وتدارك الحكيم الأمر فاضاف سمير ايضاً .

كانت الجولة ، بمعنى ما ، رداً على جولة الامير فز ، وللتدليل ايضاً على مدى الاهتمام الذي يوليه السلطان لرعاياه . وقد اعتبر الحكيم الجولة مناسبة لانجاز عدة امور في آن واحد : يمكن من ناحية ان تتم لقاءات عفوية تساعد سمير على صياغة مناسبة للسيرة « لان الفنانين يحتاجون الى اجواء موحية ، وهذا العمل ، في الجانب الاساسي منه ، عمل فني » هكذا قال الحكيم لنفسه ؛ ويمكن ان يفهم الظروف الجديدة بعد وصول الامير فز ، ثم بعد جولة البادية ، لان هذه الجولة اقلقت ولا تزال ، خاصة وان مؤامرة الرابية ، هكذا اصبح يطلق على تلك الليلة ، تبدو له غير عادية ، وربما بعيدة الغور ، فاذا

الخائن الجبان» الذي حاول ان يهرب منها ، ولا تعرف لماذا برقت في مخيلتها ايضاً صورة السلطان : بضخامته ، بضحكته التي تشبه الصهيل ، وبتلك النظرات التي لم تستطع ان تفهمها او ان تفسرها ، قالت لنفسها « لا احد يستطيع ان يفهم شيئين في موران: السياسة والرجال» وتذكرت الحالة النفسية التي المت بالحكيم خلال الفترة الماضية ، كان يتحدث بغموض عن المؤامرة ، وعزلة السلطان ، وعن الكتاب الذي سيضعه بالتعاون مع سمير ، لكن لم تفهم شيئاً ابداً !

ينجز « السيرة » خلال فترة قصيرة : « أنا ، يا سعادة البيه ، اذا كنت في حالة انسجام ، واذا توفرت لي المواد الاولية ، وكنت عايز ، يمكن ان اكتبها في فترة قياسية » .

كانت وداد تريده ان يسافر ، ان يغيب عن وجهها ، لان التحدي الذي وضعته لنفسها جعلها لا تنام في اكثر الليالي . الآن تريد ان تختبر قواها ، ان تكتشف ما اذا كانت لا تزال قوية وقادرة على ان تفرض وتقرر ، وانها لا تزال قادرة على الانتقام ايضاً ، كما كان الحال في كل الاوقات السابقة . يجب ان تدخل هذا التحدي ، وان تظفر ، لن تخاف ولن تتردد .

وسمير؟ انه الآن شخص مختلف ، فبعد ان عاد الى موران ، عاد ، من جديد ، الشخص الذي كان قبل السفر ، لكن صدود وداد ، او بالاحرى قسوتها ، جعله لا يعرف كيف يتصرف . انقطع عن الحكيم فترة من الزمن ، انشغل بأمور عديدة تراكمت خلال الصيف ، كلف بمهمات عاجلة من اجل اصدار صحيفة جديدة ، لكن شعر ايضاً انه لا يستطيع ان يتعد اكثر من ذلك . ودون ذكاء كبير ، ولانه يدرك نقاط ضعف الحكيم ، فقد استطاع العودة من جديد الى السيرة ، او الى « نسر موران » .

وسلمى؟

عادت من رحلة الصيف مليئة بالاحلام والرغبات ، لكن موران خذلتها مرة اخرى ، حاصرتها بالمخاوف نتيجة قصص أمها ، والتي لا تنفك تحذرها وتنبهها من هؤلاء الرجال ، وكيف انهم مثل الذئاب لا يوقرون شيئاً او واحداً ، خاصة البنات الصغيرات ! كانت وداد ، وهي تتحدث الى سلمى ، ترى شبح سمير ، تراه متربصاً ، منتظراً ، ولا بد أن ينقض عليها ويفترسها ، وكانت تقصده بالذات ، فبعد ان شبع منها اخذ يتلفت حوالبه ، ولم ير الا سلمى ، فهل تسمح له ان يفترسها ؟ هل تقدمها اليه ؟ كانت مستعدة لان تفعل اي شيء فقط لتبعده عنها .

أما عندما تقرررت جولة السلطان ، والحكيم بمعينه ، وكذلك سمير ، فقد اعتبرت وداد ان الفرصة اصبحت مهيئة اكثر من السابق لان تستعيد « هذا

أكثر الناس ان هذا ما كان يجب ان يُعمل ، رضي القصر او لم يرض ، وذهب الخيال باناس كثيرين ان هذه الرسالة التي بلغها صالح ، وعرفت بها موران كلها ، اذا لم تصل او لم تجد ، فلا بد ان يفعلوا مثلما فعل . وآخرون قالوا ان ما فعله ابن الرشدان لن يغير شيئاً ، ولن يثني الحكيم وامثاله عن شراء الاراضي وتشبيد العمارات ، رضي الناس ام غضبوا ، وبالغ هؤلاء فقالوا ان الحياة التي نعيشها اليوم افضل من التي ستاتي ، « لان الخير بالجايات » .

شمران يسمع ، يتذكر ، يذُكر الآخرين ، وبين لحظة واخرى ينظر الى الرجل الذي امامه : كم غيرَه الزمن ، كم اتعبه ، لكنه لم يستطع ان يذُله . فتلك النظرة العنيدة ، الاقرب الى الشر ، لم تفارق صالح ابداً ، لا . . انها الآن اشد وضوحاً وقوة ، كان في سوق الحلال يتظاهر بالغضب اكثر مما يغضب ، وكان يعرف كيف يغفر للكثيرين او ينسى اساءاتهم ، أما الآن فقد زايله الخوف نهائياً ، بل واصبح مستعداً ان يفعل اي شيء .

ويرتأى لشمران وجه حماد ، يميل على صالح وهمس باذنه :

- عدوك ، بعد اليوم ، يا صالح ، ما هو الاملط ، ذاك اخذ منك حقه وزود ، هالحين بحر زين بابن المطوع ، تراه اذا نسيت ما ينسى !

- بخسا !

- تحزم للواوي بحزام اسد . . يا صالح .

- اكثر من « النعمة » اللي عايشين فيها ، يا ابو نمر ، ما نلقى !

- برد الشتا . . . وغدر اللثيم توفه .

- والله ما عندي غير حياتي وعباتي ، يا اخوي ، يا ابو نمر .

وتفرق موران في همومها فتنسى هموم الامس ، وتبتعد صورة ليلة الراهية ، ويعود الحكيم بعد جولته مع السلطان قوياً ، اقوى مما كان من قبل ، وتظهر صورته في الجرائد والمجلات : الى جانب السلطان ، يتحدث اليه ، يهمس باذنه ، ولان نمر من القلائل الذين يقرؤون الصحف والمجلات فهو الوحيد الذي ينقل الى الآخرين في مقهى زيدان وفي السوق ما جرى ، فيسمع الناس

شمران الذي انقطعت علاقته بصالح الرشدان منذ فترة طويلة ، لم يتردد ، بعد ان سمع بما حصل ليلة الراهية ، وامام الكثيرين ، في ان يعانق صالح بحرارة عندما جاء الى مقهى زيدان . فعل ذلك بكثير من الود ، وكأنه يعتذر عن الفترة السابقة ويلوم نفسه انه كان قاسياً تجاهه بهذا المقدار . أما صالح الذي انفعل ايضاً ، ولم يستطع ان ينظر الى وجوه الرجال حوله ، فقد كان اقرب الى الخجل او الاحراج ، رغم انه منذ تلك الليلة ظل يمشي مزهواً فخوراً في شوارع موران ، وكأنه انتقم للجميع .

تذكر الرجال ، وتذكر معهم آخرون ، موران قبل سنين : كانت وادعة ، راضية ، وكان الناس ، رغم صعوبة الحياة ، يدبرون رزقهم ، ثم يجدون وقتاً لان يتحدثوا ، لان يسمعو القصيد ، وفي بعض الليالي لان يغنوا ويرقصوا . هكذا كانت الحياة وكانوا راضين . أما منذ ان جاء الاميركان ، ومنذ ان وجد النفط ، فقد تغيرت الحياة والبشر ، انقلبت رأساً على عقب . حتى المال لم يعد له ذلك المعنى الذي كان له ايام السوق . أما الغرباء ، والذين اصبحوا اكثر من اهل موران ، فانهم اخلاط من البشر ، بعضهم يأتي ويذهب دون ان يحس به احد ، وآخرون جاءوا ليقبوا . وحتى هؤلاء كان من الممكن احتمالهم لو انهم بشر حقيقون ، لكنهم ليسوا كذلك . انهم جاءوا ليسرقوا ، ليستبدوا بالآخرين ، ليسخروهم ، ولا يشبعون ايضاً .

كان الحديث يجري هكذا ، وصورة الحكيم لا تفارق مخيلة اي منهم ، أما بعد الذي فعله صالح ، والذي انتقل في موران مثل انتقال الضوء ، فقد احس

يقولون له ان موران في عرس ، وان الناس لا يعرفون كيف ينفقون الاموال التي حصلوا عليها ، وانهم لا يفعلون شيئاً اكثر من الدعاء لطويل العمر . وهؤلاء الذين يشتمون ، الذين لم يتركوا شيئاً الا وقالوه في المنشور الذي وزعوه : من هم واين هم ؟ حتى الاميركان عرفوا بالامر ، وهو ، ابن موران ، الذي ينفق الاموال بالملايين هنا وفي كل مكان . . . كيف لا يعرف ؟

ومر في خاطره طيف نمر الجريدة ، قال لنفسه : « ابن شمran بما يبه الا لسانه الطويل ، وظني ان هذي السالفة ما هي بسالفته » ومع ذلك زرع قرب دائرة الجوازات واحداً آخر يكتب العرائض ، لعل « عداوة الكار تحلي نمر يطلع اللي ببطنه » . لكن انقضت اسابيع وبدل ان يصبح الاثنان عدوين صارا صديقين . اكثر من ذلك حين يأتي بعض الاشخاص طالبين من نمر ان يكتب لهم او ان يتابع لهم معاملاتهم يرسلهم الى القحطاني « حتى يترزق ويظل » . وتصل حماد التقارير :

« نمر ما عنده الا قالت الجرايد . . كتبت الجرايد » .

أما حين سأل سعيد ما اذا سمع او عرف بما وقع في فندق الرابية ، ومن يحتمل ان يكون « وراء هذا الخبل ، صالح الرشدان » فقد رد سعيد بعد ان ضحك من اعماق قلبه :

- سمعت . . وعرفت يا ابوراشد .

وضحك من جديد ، وتابع بلهجة مختلفة :

- اذا كنت تريد رأي ، فرأي ان الحكيم نفسه وراء العملية كلها ، هو اللي اعطى للطبال كم قرش وقال له : تعال ، سل الجماعة !

- خف ربك يا ابن الحلال .

- الحكيم . . وانا اعرفه مثل ما اعرف نفسي : يجب العلية ولو على خازوق !

- اترك هذي السوالف . . يا رجل .

ويهزون رؤوسهم ، وينتهي كل شيء بالصمت ، او بشتيمة من صالح ، ان كان موجوداً ، او بكلمة مع حركة ذات معنى من شمran .

قال شمran لنمر ذات يوم :

- تراها بعد ما امطرت ، اللي شفناه البرق . . وبعده يجي الرعد والمطر !

لم يفهم نمر ما قصد اليه ابوه ، ظل منتظراً ، تابع شمran :

- ليلة الرابية ابرقت ، أما الرعد ، أما المطر فاما علينا او حوالينا واليوم او عقبه ولازم تتوقى !

- وليش توصيني يا بويه ؟

- عين الذيب ما تنام يا وليدي !

وشرح شمran لابنه ان حماد لن يسكت ولن يغفر ما حصل ليلة الرابية ، ولذلك يجب ان يتوقى وان يجترس ، وأنه يمكن ان يعمل اي شيء متذرعاً باسباب واهية او بوشايات كاذبة ليتنقم ، ونمر الذي سمع وفهم قال كلمة سريعة :

- يا بويه . . ما قتلنا ولا سرقنا وما اظنك بخايف ؟

- الخوف ، يا وليدي ، مات بقلبي من زمان ، بس هالحين اتنشق رايحة المطر . . ولا بد تمطر !

قال حماد لنفسه « هذه الشغلة ما هي شغلة شمran . شمran وصالح قوم والسوق كله يعرف » .

ولم يتوقف عن التفكير والافتراض . حتى عمه شداد مريباله ، لكن شداد مشغول بخيوله ، ولو اراد ان يخاصم الحكيم لفعل ذلك مباشرة ومنذ وقت طويل ، ثم ليس المهم ما فعله صالح « صالح عقله جوزتين بخرج ، كل من يقول خذ هذي القريشات وطبل يقول له هات وحلت البركة » المهم المنشورات : من طبعها ؟ اين ؟ وهل الامر يقتصر على المنشورات فقط ؟ قد يكون اليوم هكذا لكن غداً لا احد يعرف ماذا يمكن ان يحصل . وهو . . اين هو من كل ما يجري؟ لماذا لم يعرف من قبل؟ ورجاله هؤلاء الكسالى الثرثارون

احد . فيغير ارقام هواتفه في الدائرة ، في البيت ، ولا يُعرف ما اذا كان في موران او خارجها . والحكيم الذي يلاحقه في الليل والنهار ، متسائلاً ما « اذا قبضتم على المجرمين ، لان المسألة اكبر مما تتصور يا ابو راشد ، وما هي مسألة الدكتور المحمليجي او غيره ، كاشخاص ، هذه مؤامرة تستهدف الاطاحة بالنظام ، وبالقضاء عليه من جذوره . . ومثل ما قلت لك : امسكوا هذا الأزعر كل شيء ينكشف » وحما الذي يسمع على الهاتف ما يقوله الحكيم ، يهز رأسه ويحار كيف يرد عليه ، كيف يجيبه ، وينتهي الحديث بينهما بان يعد حماد باتخاذ الاجراءات المناسبة وبسرعة ، ويعد ايضاً ان يتصل به في وقت لاحق ، لكنه لا يتخذ اية اجراءات ولا يتصل .

في جولة السلطان ، والتي افترض الحكيم انه سيتوصل خلالها الى حل جميع المشاكل التي تقلقه ، او تلاحقه ، بما فيها معرفة « ابعاد المؤامرة » كان من المقرر ان يشارك حماد في الجولة ، لكنه اعتذر في اليوم الأخير قبل السفر ، « لاسباب طارئة » ، وكلف نائبه بمرافقة السلطان ، على ان يحاول هو الالتحاق في اقرب فرصة ممكنة . والحكيم الذي شعر بخيبة امل لتخلف حماد ، كان لديه الكثير لكي ينجزه خلال الجولة ، ولذلك ما لبث ان تجاوز هذه النقطة ثم نسيها ، ولم يعد الى تذكرها الا في حران ، عندما اقترح على السلطان ان يصلي عصر احد ايام الزيارة في مسجد السلطان خزعل ، وبدا فخوراً وهو في معيته في المسجد الذي ساهم بتشييده ، وكان يريد ان يقول ذلك لكل انسان ، وخطر بباله بشكل خاص حماد ، الذي لا يعترف بكرمه بالمقدار الكافي !

وبعودة السلطان الى العاصمة والاحتفالات الكبيرة التي رافقتها، بدا ان موران تعيش في عرس حقيقي ، وقد فاجأ ذلك السلطان ذاته والحكيم وجميع الذين رافقوه ، أما من اقام هذه الاحتفالات وكيف ، فان حماد كان وراءها ، لان احدى توصيات المجموعة الاميركية التي وصلت أخيراً ، وضمن توصيات اخرى ، ان يشعر الناس ، وبكثافة ، بوجود الدولة ، خاصة السلطان لتتولد في قلوب الجميع القناعة . . والخوف معاً !

على مسافة اربعة اميال من وادي الرها ، وبموجب من مئات السيارات ،

- طيب ، يا ابو راشد ، الأيام بيننا وتشوف .

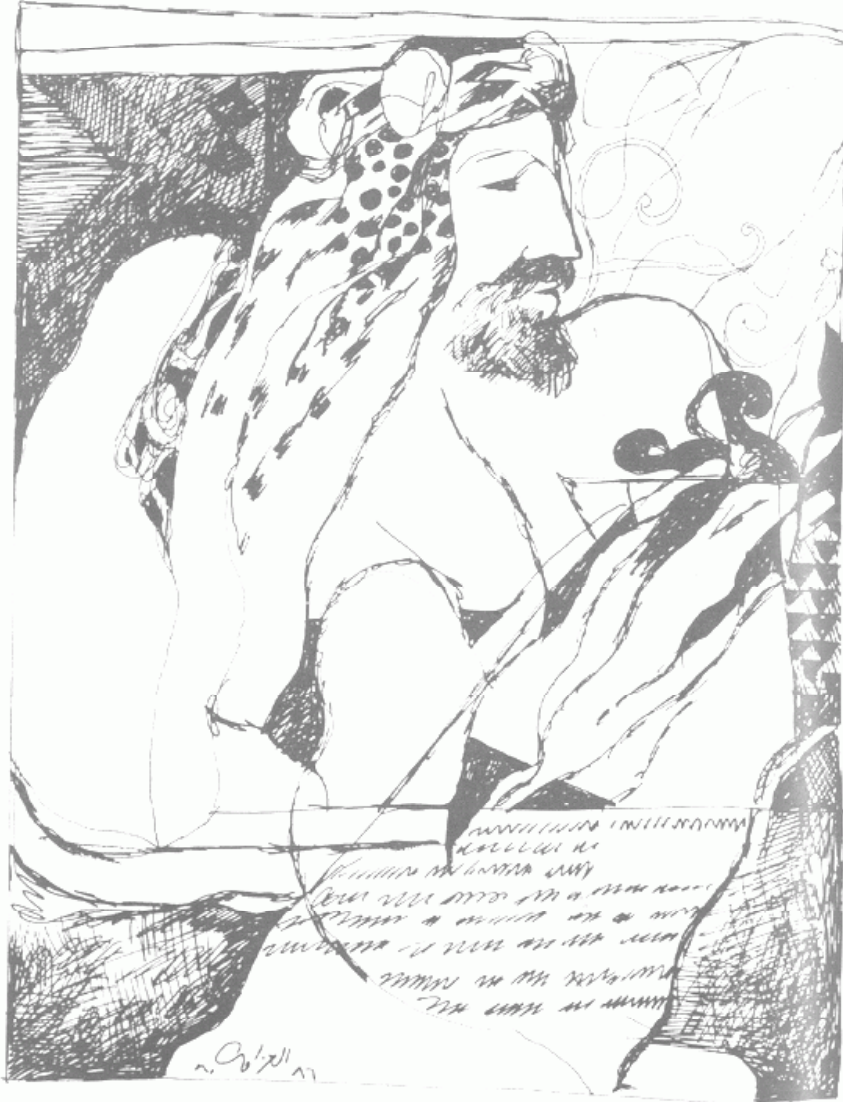
- والمناشير ؟

- ها . . ؟ هذي سالفة ثانية !

ولم يترك حماد اهداً او مكاناً ، حتى ما قاله سعيد ، واعتبره اقرب إلى المزاح والسخرية ، فكر فيه من جديد ، لكنه لم يتوصل الى نتيجة او الى بصيص نور . ولم يبق امامه الا صالح ، ومع ذلك تركه « الاحسن تمد له الحبل ، لعل وعسى ، وهو تحت يدنا بكل وقت » ومثلما زرع عيون في مقهى زيدان وقرب دائرة الجوازات ، كذلك كلف اثنين لكي يتابعا صالح كظله ، لكن دون ان يعرف ودون ان يحس ايضاً . لم يكتف بذلك، زرع متسولاً قرب بيت صالح ، ولم يتردد اولاد صالح الصغار في اعطائه رغيف خبز كاملاً بين يوم وآخر .

في مرحلة من المراحل اعتبر حماد ان كل ما حصل مجرد لعبة دبّرها احد نزلاء فندق الرابية ، ولا بد ان يكون هذا النزير الغريب منافساً او طامحاً ، وربما اراد ان يشوش على غزوان امام الاميركيين بشكل خاص ولذلك فعل ما فعل . هذا التفسير الذي توصل اليه اراحه بعض الوقت ، لكنه لم يزل الخوف من قلبه ، فهو الذي يعتبر نفسه ليس مسؤولاً فقط عن امن موران وانما يهيء نفسه منذ فترة لان يكون احد رجال قلائل مسؤولاً عن امن المنطقة كلها من الماء الى الماء ، خاصة بعد ان اغدقت السلطنة بعطاياها على الكثيرين وربطت الكثيرين باجهزتها او بمصالح تجارية ومالية كبيرة ، ولان حماد بالذات تزايدت روابط الصداقة والعلاقة التي تربطه بمسؤولي اجهزة الأمن في المنطقة .

انه يشعر بالتحدي او بالاهاة ، فاذا كانت اقرب الاشياء اليه تفوته ثم لا يعرف من وراءها فان عناصره تخدعه ، او على الأقل ليست بالكفاءة التي افترضها . فينصرف مثل ثور الى اعادة تنظيم الجهاز وتوسيعه ، ويجري تنقلات واسعة ، كما يتحدث عدة دوائر جديدة . وبالاتفاق مع المستر اندورز تصل الى موران مجموعة من الاميركيين ، ويفرق حماد معها في دراسة اوضاع واحتمالات معينة . وخلال هذه الفترة لا يريد ان يرى اهداً او ان يتصل به



كان معظمها بلون واحد ، دخل السلطان الى موران ، بعد الاستقبال الحافل الذي جرى له على اطراف العاصمة ، وقد شارك فيه الاخوة الامراء ، وكبار رجال الدولة ، ونحرت خلاله عشرات بل مئات من رؤوس الغنم والجمال ؛ الوحيد الذي لم يشارك في هذا الاحتفال هو حماد ، فقد ظل قابلاً في غرفته الواسعة في الطابق الثالث من البناء الجديد الذي انتقلت اليه رئاسة جهاز الامن والسلامة ، قبل بضعة شهور ، ظل هناك ليرقب كل شيء وليحمي الجميع ، وعندما مرّ الموكب ، اطل من وراء الزجاج ، دون ان يفتح النافذة ، وهز رأسه عدة مرات وابتسم ابتسامة صغيرة ، لم تفهم ابداً !

شمران العتيبي الذي لمح طرف الموكب عندما كان يخرج من مقهى زيدان ، وقف . نظر الى السيارات تمر بطيئة وكأنها تزحف . حاول ان يميز احداً بداخلها ليعرفه لكنه لم يستطع . قال في نفسه : « اكفان الموق من ايام نوح بيض ، أما اولاد الحرام ، هفالغبر ، فحتى اكفانهم سودا مثل وجوههم » . وحين اقترب منه رجل كان يقف عند تقاطع الطريقين ، وأشار اليه برأسه ، ودون كلمة ، ان يمشي ، فقد تحرك ببطء ، وقال كلمة لا يعرف ان سمعها الرجل او لم يسمعها ، قال :

- لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم !

بعودة السلطان بدا ان الحكيم حقق ما يريد . . او اكثر : فالمودة التي اظهرها السلطان تجاهه ، ومنذ بداية الجولة ، لفتت نظر الجميع ، واشعرت الحكيم ذاته باهمية اضافية وثقة لا حدود لها ، وهذه الثقة سهّلت له الوصول الى الاشياء الاخرى . فكتاب « السيرة » « اصبح بالجيب » كما عبر عن ذلك سمير . اذ بعد عدة جلسات ، قاد الحكيم خلالها المناقشات والحديث ، دون سمير الكثير من الافكار والملاحظات ، كانت بمثابة « الكروكي » كما قال ، او بمثابة العمود الفقري للبناء الذي سيشرع فيه فور عودته الى موران . هذا الانجاز ، بالاضافة الى الجو الذي رافق الجولة في جميع مراحلها شجعا الحكيم على ان يبحث في القضايا الاخرى : الوضع السياسي في السلطنة بشكل عام ، خاصة وان السلطان الذي بدا مهموماً في وقت سابق ، وكان شديد القلق ، فقد اشار ان عودة اخيه بمثابة انقاذ له ، لان فتر يتمتع بكفاءة كبيرة ، والشيء الذي كان يقلقه في السابق هو امتناعه وعدم رغبته في المشاركة ، أما الآن ، وقد اصبح مرناً وراغباً ، كما تحلى عن عناده ، فان التعاون سيجعل وضع السلطنة في منتهى القوة ، وأشار السلطان ، عرضاً ، الى اعتلال صحة فتر ، وبالتالي احتمال سفره لاستئناف العلاج في وقت لاحق ؛ وهذا سيفسح المجال في ترتيب ولاية العهد بشكل معين . ولم يشأ السلطان ان يتوسع في هذا النقطة بالذات ، خاصة وان ولاية العهد ظلت قضية معلقة ومؤجلة في آن واحد .

الأمر الآخر الذي كان الحكيم يريد الوصول فيه الى نتيجة حاسمة : السلاح . « لا يمكن ان تبقى السلطنة تحت رحمة الآخرين او تهديدهم ، يجب

« لانها في النتيجة تدبير حاسدين ومجانين » أما عندما سأل نائب حماد ، وقد مهّد لذلك ، بشكل غير مباشر ، فقد تلقى جواباً مختصراً للغاية :

- كنت يا طويل العمر في الولايات المتحدة ، وماسمعت عن الموضوع اي شيء !

وطوى الحكيم الموضوع « لان الرجال العظام لا تشغلهم سفاسف الامور » .

في اليوم الأخير لزيارة حوران تحدث الحكيم امام السلطان وامام آخرين في الموضوع الذي يروق له كثيراً : حوران ، كيف كانت يوم وصلها بسيارة شحن ، ولم يكن فيها سوى فندق صغيرة ، وبضعة دكاكين ؛ وكيف هي الآن . وتحدث عن مساهمته ليس في تأسيسها او اعمارها فقط ، تحدث عن « تاريخها » ايضاً . وقال انه يفكر بوضع كتاب كامل عن هذه المدينة العظيمة « بابنتها العالية الحديثة ، بشوارعها المصممة على احدث طراز ، مستشفياتها التي تشابه مستشفيات هيوستن » وقال ان مما سيساعده في انجاز هذا العمل على احسن وجه : الصور ، فهواية التصوير التي رافقت الحكيم منذ ان كان طالباً في المانيا ، وما تزال الى الآن ، والصور التي التقطها خلال الفترة السابقة ، سوف تتكلم ، وفجأة خطر له ان أنسب عنوان يمكن ان يعطيه لمؤلفه هو : مدينة تتكلم .

قال وهو ينهي حديثه :

- وسوف اسمي هذا الكتاب مدينة تتكلم ، او مدينة تتكلم عن نفسها !

بدا السلطان مسروراً وفخوراً وهو يستعيد بذهنه ايضاً زيارته لحوران قبل سنوات عديدة ، حين التقى الحكيم اول مرة ، وكيف يراها الآن ، سأل بمداعية :

- واتذكر هديتك . . يا ابو غزوان .

- استغفر الله . . استغفر الله يا طويل العمر !

وخفض الحكيم رأسه خجلاً وتواضعاً ، وقال وهو لا يزال بهذا الوضع :

ان تعتمد على مصدر واحد وموثوق ، وان ترتبط بعقود طويلة الامد : عشر سنين ، عشرين سنة . أما ان يبقى سلاحنا من مصادر عديدة ، ويتحكم بنا الموردون ، وهؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم ، لان لهم كل يوم قولاً يختلف عن اليوم السابق . ليس هذا فقط ، يجب ان تؤكد السلطنة طلبياتها السابقة ، او حتى ان تطلب تقديم مواعيد التسلم ، لان الاوضاع في المنطقة تقتضي ذلك » . والسلطان الذي لم يكن يحتاج الى هذه الاسباب او الديباجة لكي يقتنع ، كان مستعداً للاستجابة ، قال لينهي المناقشة حول هذه النقطة :

... - . . . واذا رجعتنا موران ، يا ابو غزوان ، بالخير والسلامة ، وفي اول

اجتماع يجمعنا مع وزير الدفاع ، ما عليك الا ان تذكرني ، وانشاء الله ما يصير الا اللي تقوله .

وانطلق السلطان يتحدث عن انطباعاته عن غزوان : كيف كان قبل سنوات وكيف هو الآن ، وما يتوسم فيه من مظاهر الذكاء والفتنة ، اما « اتقان اللغة الاميركية فكأنه واحد من ابنائها » وأشار ايضاً ، ان السلطنة بحاجة ماسة الى شباب من هذا النوع وبهذه الخبرة « ولا بد ان يرجع الى موران في فترة قريبة ، لانه اخير لنا ان يكون بجانبنا ، يشور علينا ويساعدنا من ان يكون بعيداً » .

والحكيم الذي لا يعرف كيف يشكر السلطان ، او كيف يعبر عن امتنانه وتقديره ، يحس بالفخر والكبرياء : لقد اجدى تعب . حتى التضحيات التي قدّمها بصمت ، ولم يكن يتوقع مقابلها ، يجني الآن ثمارها ، وربما في وقت ابكر مما توقع .

ولم ينس السلطان السؤال عن العائلة ايضاً . لم يُسم احداً بالذات ، لكنه بدا شديد الاهتمام ان يعرف وان يتأكد . الحكيم الذي اجاب باختصار وخوف ، على عادة اهل موران ، احس ، اكثر من قبل ، ان المودة التي يكنها له السلطان كبيرة غامرة وتفوق ما يكنه للآخرين .

نتيجة هذا الجو لم ير الحكيم ضرورة لان يسأل السلطان عن « مؤامرة الرابية » ، اذ لا يريد ان يشغله او ان يقلقه بهذه التفاصيل ، اذ ربما لم تصله ،

به . واذا تذكر الحكيم الفترة التي سبقت سفره ايضاً ، فقد اصبح على يقين ان « نظرية المربع » لا تفسر هذه الحالة فحسب وانما تثبتها ايضاً بشكل مؤكد . وللحظات عن له لو ان الوقت يسعفه والظروف تؤاياه لكي يتفرغ لمهمة كتابة النظرية ، لكن وجد ان اعباء كثيرة بانتظاره ، ووجد ان النظرية يمكن « ان تتخمر وتنضج اكثر من قبل فيما لو تركت وقتاً اضافياً ! »

ولم يتقضى شهر واحد على جولة السلطان حتى ارسلت عدة رسائل من قبل وزارة الدفاع تطلب تقديم موعد تسليم الاسلحة ، وتطلب ايضاً مجيء وقد لعقد طويل الأجل ، وقد حصل هذا بناء لامر السلطان ، ولعب حماد دوراً في ذلك ، وقد بدا في هذه الفترة شخصاً مختلفاً . صحيح انه لم يشارك في الاستقبال ، لكن لم تمض ايام قليلة حتى زار الحكيم أولاً ، ثم بادر الى الاتصال به عدة مرات ، وطلب منه رقم تلفون غزوان لكي يتصل به ، والحكيم الذي اعتبر ان تقصير بعض الاشخاص في اوقات معينة نتيجة الانشغال او الهموم ، او ربما نتيجة النسيان ، ليس دليلاً على الحب والكراهية ، وانما لاسباب تخرج عن طاقة الانسان ، لم يستطع ان يفسر موقف حماد باكثر من « الاعمال اليومية . . والرجل أولاً واخيراً يغرق بشبر ماء ، لانه لا يفكر بالقضايا الاستراتيجية . ولم يدرس في معهد او جامعة . لكن مع ذلك عقله جيد » ولذلك قابل موقفه الودي بمواقف مشابهة ، وفي محاولة لان يثبت له ان « الفلوس لا تعني له شيئاً » قرر ان يدعوه وان يدعو عدداً من الاصدقاء الى وليمة فاخرة في البادية ، وكاد ان يفكر بدعوة صاحب الجلالة السلطان ، لكنه ظل متردداً حتى اللحظة الأخيرة .

« المرأة . . نعم المرأة ، هي اصل الحياة والخصب والاستمرار » هكذا قال الحكيم لنفسه ، وهو يلاحظ مدى استجابة وداد وحماسها اثناء تحديد قائمة المدعوين ، وعندما ذكر ، عرضاً ، انه يفكر بدعوة السلطان اشتعلت ، وبذلت كل جهدها لكي يسقط كل الموانع التي تجعله متردداً ، لان الرجل « اذا كان حب بيتنا وحب اكلي فلا بد ان يوافق » . وظلت وراءه في الليل والنهار ، اثناء شرب القهوة في الشرفة الغربية صباحاً ، او وهي معه في الفراش ، لكي يتخلى عن جنبه وتحفظاته ويدعو السلطان . « حتى لو اعتذر

- هداياكم وافضالكم ، يا طويل العمر ، غمرتنا وغمرت الناس كلهم .
وصهل السلطان مثل حصان وهو يضحك لكلمات الحكيم ؛ فلما هدأ
سأل من جديد :
- وهالحين . . يا ابو غزوان ، وما دمنا بحران ، اريد اقدم لك هدية ،
فاطلب .

تطلع اليه الحكيم بنظرة خاطفة ، وخفض رأسه من جديد ، فلما خيم
الصمت ، واحس ان السلطان لا يزال ينتظر رده قال وهو يتبسم :
- كل ما اريده ، يا صاحب الجلالة ، سلامتكم ورضاكم !
وبعد قليل وهو يرفع للسلطان وجهاً متضرعاً :
- اكبر هدية ، يا صاحب الجلالة ، ان ترضوا عنا وان تشملونا
بنظركم . . هذا كل ما نريده !

التفت السلطان الى زيد الهريدي ، وغمز له بعينه ، ومعنى ذلك ان
يذكره ، فهز زيد رأسه دلالة الفهم والصدوع للامر ، ثم التفت الى الحكيم
وابتسم !

وقبل ان ينقضي اسبوع على عودة الحكيم كانت سيارة كاديلاك سوداء قد
وصلت الى قصر الحير ، وانضمت الى السيارات الثلاث التي كانت في
القصر ، وصلت تلك السيارة مع رسالة موقعة من قبل جلالته ، أما الكلمات
الأخيرة فكانت « . . وهذه الهدية للدكتور صبحي المحملجي وعائلته
تعبيراً عن تقديرنا وشمولكم بعطفنا » . والحكيم الذي لم يستطع ان يخفي
فرحه ، اذ نزل ، مع العائلة ، خلال اقل من ساعة مرتين ، لتفقد السيارة ،
وللتأكد من بعض الامور ، فقد كان الجزء الاكبر من فرحه نتيجة فرح وداد
الذي وصل حدوداً صبيانية ، فقد اصرت ان تجلس في موقع القيادة ، رغم انها
لا تعرف السياقة ، وغازلت الحكيم بالرغم من وجود سلمى ، وضحكت من
قلبيها ، وقالت انها لن تستخدم غير هذه السيارة في تنقلاتها ومشاورها ، حتى
لو سافرت الى الخارج . والحكيم الذي اصابته عدوى الفرح لاحظ ان وداد
منذ وصل اصبحت امرأة اخرى : اصبحت مرحة ، ناعمة ، وشديدة التعلق

نكون عملنا واجبتنا « . . . ظلت وراءه الى ان وافق . قال لنفسه بمرح وهو يتذكر
حماس وداد والحاحها « والمرأة مثل النوم معها حاول الانسان ان يقاومها ، ان
يهرب منها ، فلا بد ان يستسلم لها في النهاية » .

ذلك اليوم الربيعي ، اواخر آذار ، في بادية المليحة ، على طريق حران ،
وغير بعيد عن نبع الصفا ، نصبت ثلاث خيام ، رفع على الوسطى ،
الكبيرة ، علم موران ، وفرشت بسجاد كاشان احمر على زرقه ، مدت فوقه ،
على الاطراف ، حواشٍ موردة زهرية اللون ، نشرت عليها وسائد بفوضى
لذيذة ، وفي زاوية الخيمة ناحية اليمين مجموعة من بنادق الصيد وثلاث بنادق
حربية مزخرفة عليها شعار سلطنة موران .

الشمس وهي تداعب حبات الرمل وتغسلها من ندى الليل ورطوبته ،
تفعل ذلك بحياء اقرب الى الكسل ، لكن بتقدم النهار ، وارتفاع الشمس
تتحول الدعابة إلى عناق دافئ بين عشيقين ولداً معاً منذ الازل فتتفعل حبات
الرمل ، تتغير ، يميل لونها تدريجياً من الصفرة المقتولة الى البياض الشمعي ،
ثم تلحم بالزرقة الكلية والهواء الاغيش فيصبح اللون كله اقرب إلى لون
الملح لحظة استخراجها ، او الى لون الصمغ السائل ، فاذا هبت نسمة ريح تهتز
الصورة ويرى اهتزازها على شكل رجات مائية تبدأ من اقصى الافق وتنتهي في
بؤرة العين .

الصمت في البادية هو الملك الوحيد : قوي ، شامل ، كلي ، حتى
الاصوات التي تنفجر سرعان ما تمتصها الرمال وتحولها الى رملٍ جديد . فاذا
التحم الصمت بالشمس والرمل فعندئذ يتولد دوي مكتوم اشبه ما يكون
بصوت الاختناق او الغرق ، حتى طلقات الرصاص التي تعبر الفضاء للحظة

تسيطر ، مهما بدا الموقف معقدا . هنا ، في هذا الفضاء غير المتناهي تشعر بالضآلة والخوف : يمكن ان تهب الريح فتفسد ما رتبته ؛ يمكن للمرء ان تغطي السجاد والحواشي ، ويمكن للشمس ان تشد فتتمنع الحركة . انها الآن تواجه خصماً مجهولاً ، خفياً وماكراً ، ومفاجئاً ، لا تعرف متى يأتي ومن اين .

لم تحس حولها بالحركة تتسع وتنشط ، أما عندما اخذت طلائع الحرس بالوصول فقد انسحبت مع سلمى وخمس من النساء جئن من القصر ليساعدها ، الى خيمة « المراقبة » ، بناء لرغبة الحكيم ، والذي لم يجد حرجاً في حركتها وانتقالها امام الرجال الذين رابطوا في المكان خلال الايام الثلاثة الأخيرة « الآن . . . صار لازم تنسجى يا ام غزوان ، لان الضيوف واصليين بين لحظة والثانية » .

خلال الساعة التي قضتها في تبديل ملابسها والاهتمام بزيتها بدأ الضيوف يتوافدون . اطلت من نافذة الخيمة فرأت زوجها يقف وسط مجموعة من الرجال ووجهه نحو الشرق ، عرفت بين الرجال سمير وراتب ، ولم تعرف ثلاثة آخرين . اهتمت بسلمى ، عدلت لها ياقة فستانها اكثر من مرة وسرحت خصلة الشعر المتدلية الى الخلف على شكل ذيل حصان ، فلما انتهت نظرت من النافذة مرة اخرى ، لاحظت ان عدداً آخر من الضيوف قد وصل . عرفت منهم مطيع . وخلال دقائق بعد ذلك امتلأ المكان ، امام الخيمة الوسطى ، بالرجال . احست بالقلق وبقليل من الخوف ، تريد ان ترى السلطان لحظة وصوله . رأتة مرة واحدة ، رأتة وحده . الآن تريد ان تراه وسط هذا الجمع . تصورته قوياً الى درجة يثير الفزع ، وتصورت الرجال يتراكمون حوله . تمت لو تستطيع ان تسلّم عليه امام الجميع . لو فعلت لاكتشف الرجال انه يعرفها ، وانها تعرفه ، وسوف يتساءلون . ضحكت للفكرة واستبعدتها .

من هذه المسافة التي تزيد على المائة متر ، تلمح الحكيم بين لحظة واخرى ، وهو يتحرك بين الضيوف ، تحس بقلقه دون ان ترى ملامحه بوضوح . قال لها ان السلطان سيصل بين العاشرة والعاشرة والنصف . تنظر الى ساعتها فتجدها تعدت الحادية عشرة ببضع دقائق . تحاول ان تنظر

فانها هنا لا تقهر الصمت ، تحدشه لثانية صغيرة ، ثم تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة ، او طيور تحاول التحليق .

هكذا كانت الصحراء منذ ان وجدت ، ومنذ ان رأتها اول عين ، أما في ذلك اليوم الربيعي فقد بدت في عيني كل من رآها شيئاً مختلفاً وغير مألوف : مئات السيارات ، ومئات اكثر من الخراف ، وعدد محدود من المدعويين ، وسلطان واحد يصل بعد وصول المدعويين بساعة وسبع دقائق ، وقد تأكد الحكيم من ذلك حين نظر الى ساعته .

لأول مرة في حياتها ترى وداد الصحراء في كل الاوقات : منذ ان اشرفت الشمس والى ان غابت ، لان القلق ساورها ان يقع خطأ من نوع ما فيفسد الدعوة ، او يخل بالنظام الذي ارادته لها ، جعلها لا تنام تلك الليلة الا كما ينام عصفور في عش جديد . استيقظت في الليل عدة مرات ، ونظرت الى الساعة بجانب سريرها عدة مرات ، واكدت على الحكيم عدة مرات ايضاً ان تكون هناك ، وان يكون ، قبل ساعات ، « لان امامنا اشياء كثيرة ، ويجب ان ننجزها » . اكثر من ذلك تمت لو تقضي ليلة ، ليلة واحدة ، في الصحراء ، وان تنام تحت السماء مباشرة ، لكن الخوف ما لبث ان خنق هذه الرغبة وطواها . أما عندما سمعت اذان الفجر فقد نهضت وايقظت الحكيم ، وعندما اشرفت الشمس كانت السيارة الكاديلاك الجديدة تقترب من نبع الصفا ، ولما نزلت من السيارة ، التي وقفت قرب الخيام ، لامس هواء الصباح البارد وجهها ورقبتها فاقشعرت ، وحين ارتفعت الشمس قليلاً ودقات الهواء ، خرجت من خيمة « المراقبة » ، كما اطلق الحكيم على الخيمة الجانبية ، والتي خصصت للحريم . دخلت الخيمة الوسطى لتلقي عليها نظرة في ضوء النهار ، بعد ان رأتها في الليلة الفائتة ، عدلت بعض الحواشي ، خاصة الحشية التي سيجلس عليها السلطان ، وازافت وسادتين ، ثم عطرت المكان والخيمة كلها بعطر خفيف ناعم . وهيات مجموعة من اعواد البخور ، لكي تشعل في الوقت المناسب .

قامت بهذه الاعمال الصغيرة واخرى غيرها ، لكن القلق لم يزلها ، لانها لا تعرف كيف ستسير الامور ، في قصر الخير تستطيع ان تتحكم ، ان

ارتجلها ، وعندما تلا الابيات ، قال وهو يتسم نصف ابتسامه « وكما قال الشاعر » ولو سأله احد عن الشاعر لقال اي اسم ، لانه لم يكن مستعداً للاعتراف انه صاحبها !

طلقت الرصاص التي اطلقت تزيد على معركة الرحيبة في ايامها السبعة ، كما قال ابو عبد الله ، أما رضوان فقال انه ، وحده ، جمع مائة وسبع طلقات فارغة . والسلطان الذي رقص العرصة عصر ذلك اليوم استبدل السيف ، في لحظة انفعال ، ببندقية ، واسند البندقية الى خصره ورمى .

الاشياء التي يمكن ان تقال عن يوم المليحة كثيرة الى درجة لا يستطيع ان يحصرها او ان يلخصها احد . فالمساجلات التي جرت ، والشعر البدوي الذي قيل ، وغني قسم منه ، ثم ابيات الشعر حول اجمل ما قائلته العرب في الشجاعة والكرم والوفاء ، وفي التغزل بالنساء ايضاً ، كانت من الكثرة بحيث تغيب عن الذاكرة . أما النكت التي رويت ، وقد تولى الحكيم رواية عدد منها ، لانه استعد لذلك ، فقد ظلت تتردد لفترة من الزمن . الامراء الصغار ، وهم اثنان من اصغر ابناء السلطان ، ومنصور احد ابناء الجيل المتوسط ، كانوا زينة ذلك اليوم ، سواء بالخطبة التي تلاها ملحم ، وهو الأصغر ، او بالشعر الذي انشده متعب ، وكان اكبر من اخيه بستة شهور ، اما منصور فلقت النظر حين رقص مع ابيه وابدى براعة ظاهرة .

وداد التي خافت خلال وقت معين نسيت خوفها بعد وصول السلطان ، فبعد ان وقف في باب الخيمة وتمل المنظر كله ، سأل الحكيم ، الذي كان يقف الى جانبه ، عن الخيمة الاخرى ، ثم الثالثة ، ويبدو ان الحكيم اشار ، بطريقة ما الى وجود ام غزوان في خيمة « المراقبة » ، فهز السلطان رأسه وضحك . قدرت وداد ذلك دون تأكيد . أما بعد ذلك وحتى الغروب ، فقد اصبح اكثر وثوقاً ، خاصة حين جاء ابو عبد الله ، وبدا خائفاً ، يطلب منها ، كما ابلغه الحكيم ، ان تستعد لركوب الطائرة في العودة .

إن هذا اليوم في ذهن وداد حلم لا يمكن ان يتكرر . رأت السلطان وهو يتمشى بالقرب من خيمة المراقبة . رآه يضحك كحصان . رآه يرقص . رأت

الى ابعد من الخيمة ، لعلها ترى الطريق ، لكن السيارات ملأت الفضاء كله وحجبت الرؤية تقريباً . تخرج من الخيمة للحظة قصيرة وتتطلع باتجاه الشرق : « موكبه الكبير سيثير الغبار ويرى من بعيد » لكن لا ترى شيئاً ولا تسمع دويماً ، تدخل وترايط الى جانب النافذة . تطلب من سلمى ان تقترب وتتفاسم النافذة .

في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة ، هبطت طائرة هليكوبتر على مسافة غير بعيدة من الخيام ، فاندفع الرجال مثل اندفاع الجمال لاستقبال السلطان ، الذي فاجأ الجميع انه جاء بالطائرة . ركض الكثيرون للوصول في الوقت المناسب ، فتولدت من الركض ، اضافة الى الريح التي خلفتها الطائرتان ، سحابة عالية من الغبار وصلت الخيام بسرعة . اسفت وداد وتمنت في اعماقها لو لم يثر هذا الغبار .

ابو عبد الله الذي ظل يتردد ، بكثير من الانفعال ، بين الخيام ، ينقل بعض التعليمات ، اضافة الى الاخبار القصيرة والتعليقات ، وقد وصل هذه المرة بعد وصول السلطان ودخوله الخيمة ، ليطلب تجهيز الراكيل ، قال دون ان يسأله احد : انه لم يشهد في حياته عدداً من السيارات بهذا القدر ، وقال انه لأول مرة يشهد طائرة من هذه المسافة .

وقال رضوان ان الخراف بدأ ذبحها منذ الفجر ، واستمر الذبح الى الضحى ، وقال ان اللحم يكفي لجيش مؤلف من سبعين فصيل هجانة! ابو عبد الله رفض ذلك ، كان له رأي آخر قال ان الخراف تكفي موران كلها ليومين متوالين ، أما عدد السيارات فلم يستطع احد ان يحده على وجه من الوجوه ، قال ابو عبد الله لحسم الموقف : « بالمئات او بالآلاف » ، وهز يديه دلالة الحيرة او عدم الاهتمام . اما الحرس فكانوا يشكلون سوراً لمسافة لا يستطيع معها الذي في طرف أن يرى الآخرين في الطرف المقابل !

الحكيم فكر وحاول ان يتجاوز عاداته في الخطابة ، قضى ليلة كاملة ، وحتى اذان الفجر ، في محاولة لان ينظم قصيدة بهذه المناسبة ، لكن المحاولة انتهت الى الفشل ، فاكتفى بثلاثة ابيات نظمها وضمها الكلمة التي

نزوله الكثير من الصخب ، فقد بقيت وسلمى في الطائرة . ظلنا كذلك وقتاً غير قصير ، حتى ظنت انها نسيت ، لكن بعد ان ابتعد الصخب قليلاً ، وسار موكب السلطان ، فقد جاءت مجموعة من رجال القصر ، بسيارة حتى باب الطائرة ، مع كلمة قصيرة : « سوف يلتحق بكم الحكيم بعد قليل ! »

كانت تشعر بفرح اقرب الى اللذة ، وهذا الفرح يفرض من خلاياها كلها ، حتى وهي تضع يدها فوق يد سلمى وتضغط تحس ان هذه الحركة تدغدغها ، تولد رعشة في جسدها . لم تعرف مثل هذه المشاعر منذ وقت طويل . كانت تريد ان تكون وحيدة في غرفتها ، ان تنظر الى جسدها ، ان تنظر الى اعماق عينها ، لتكتشف تلك الغبطة التي تكبر وتزيد كل لحظة ، لماذا هي هكذا وكيف تفكر او ماذا تريد ؟ انها عاجزة عن الاجابة ، تجد نفسها مضطربة ، لكن ذلك الاضطراب اللذيذ الناعم الذي يتحول شيئاً فشيئاً الى ما يشبه الخدر ، وهي بمقدار رغبتها ان تكون وحيدة ، تريد ان ترى الحكيم لكي تسأله عن التفاصيل كلها ، ولتعرف كل شيء منذ لحظة وصول السلطان وحتى اللحظة الأخيرة تملكها الرغبة أن ترقص ، أن ترفع صوتها بصخب طفولي ، لكي تعبر عن الفرح الذي يملأ صدرها ، تنطلع في الظلمة الخفيفة الى سلمى التي تجلس الى جانبها في السيارة ، تراها ترقب الجانب الثاني ، لا تجد في نفسها الرغبة في الكلام لثلا تفسد هذه النشوة او تضع .

حاولت ان تستعيد المشاهد مرة اخرى ، لكن وجدتها متداخلة الى درجة لا تستطيع ان تتوقف عند مشهد بذاته . تبدو لها الوجوه والاشياء كتلة واحدة ، حتى ضحكة السلطان وهو يمر بالقرب من « خيمة المراقبة » ترن في اذنها مرة اخرى ، وكأنها لا تزال الى الآن تسمعها . التفت اكثر من مرة ، وتوقف حين كان يمر متظاهراً انه يستمع الى الاحاديث التي تدور . كان توقفه من اجلها ، والا لماذا رغب ان تعود بطائرته ؟ وفي الطائرة ، لما مرّ وحياها انفتحت خياشم انفه وهو يتنشق عطرها . لاحظت ذلك من حركة الانف والتي تشبه حركة الارنب . ان هذا واحد من اسرارها الخبيثة ، حتى الحكيم وهو يدفن راسه في عنقها يحس بالدوار نتيجة العطر الذي تستعمله ، تعرف ابن تضعه وكيف تمنحه .

ضحامته واحتفاء الناس به . ورأت كيف يطلق النار . أما لماذا اقترح عليها الحكيم ان تستعد للعودة بطائرة السلطان ، على ان تصعد الى الطائرة هي وسلمى قبل الآخرين ، فقد ارهبتها المفاجأة . لماذا يحصل هذا ؟ وكيف ستصرف وماذا ستقول لو سئلت او تحدث اليها احد ؟

قالت سلمى انها تفضل العودة بالسيارة ، فنظرت اليها امها بطريقة تأنيب لكي لا تكرر فكرة مثل هذه ، والتفتت تسأل ابا عبد الله متى يجب ان تتحرك وكيف ، فلم يعرف كيف يجيب . ترددت هل تأخذ معها الحقبة التي جاءت بها من موران ام تتركها . تطلعت الى كل شيء بارتباك وحيرة ، وكأنها تراه لأول مرة . تطلعت الى الخيمة الوسطى ، تمتت لو يأتي ابو غزوان لدقيقة واحدة ، لتسأله ما اذا كان سيرجع معها ومع سلمى ، ام سيتأخر ، ولتعرف تفاصيل اخرى تستطيع في ضوئها ان تتصرف . لكن الحكيم كان بعيداً ، كان غارقاً في تلك الخيمة التي بدت لها مظلمة ، غامضة ، لكنها لا تتوقف لحظة واحدة عن اثارها وخلق آلاف الصور في ذهنها .

عند الغروب ، والشمس تميل نحو الافق ، وبدأت ظلال الاشياء تستطيل ، بل وتصير مضحكة ، جاءها ابو عبد الله مهرولاً ، طلب اليها ان تذهب فوراً الى الطائرة ، لان السلطان سوف يغادر ، ولا تعرف كيف لفت نفسها بالعباءة التي جاءت بها ، وطلبت من سلمى ان تفعل ذلك ، وخلال دقيقة واحدة كانت السيارة الكاديلاك تقف الى جانب الخيمة لتقلها .

في الطائرة لم يحصل اكثر من تحية ، هز السلطان رأسه بكبرياء ، وكان الحكيم وحماه وراءه ومرّ . نظر الى الخلف مرة او مرتين ، لكن لم تلتق نظراتها بنظراته ، ولم تستطع ان تسجل ملامح اكثر من التفات متسائل ، اما لماذا ضحك ، ولماذا تطلع الى الاسفل ، فلم تستطع ان تقدر .

جاءها الحكيم مرة واحدة قبل تخليق الطائرة ، اسر باذنها ان السلطان فكر ان تهبط الطائرة في قصر الخير ، لكن نظراً لتقارب الاشجار ، وعدم وجود مكان كافٍ ، فإن الطائرة ستهبط في قصر الغدير . قال لها ذلك وهو لا يعرف كيف يخفي فرحه . أما عندما هبطت الطائرة ونزل السلطان ، ورافق

انها كانت على ذكاء اكبر واختصرت الدعوة الى اقصى حد . بضعة اشخاص وعدد محدود جداً من الزوجات . لو فعلت لتألفت اكثر ، لعرفت كيف تتكلم وكيف تتحرك وكيف تحفر في ذاكرة الجميع ذكرى لا يمكن ان تغيب او تنسى !

ورغم تقدم الليل ، ورغم سهر الليلة الفاتنة وتعب النهار كان الاثنان يرغبان ان يواصلوا استعادة الدقائق اللذيذة التي شكّلت هذا اليوم ، وان يتذكرا جميع التفاصيل . أما عندما ذهبوا الى الفراش فقد كانت وداد تحس بجسدها يتفجر ، يغادر اهابه ، وانه يريد ان يمتزج بحبات الرمل ، بالهواء ، بكل شيء . فلما مال الحكيم عليها وتنشق عطرها اصابه الدوار للحظة ، فارغمى عليها ، يحتضنها ، يشدّها اليه بقوة ، وكانت تستجيب! بلهفة واقبال ، اكثر من اية مرة ، واقوى من كل ليلة ، لكن كانت ايضاً تتصوره شخصاً آخر ، كانت تتصوره ، هذه المرة ، السلطان . أما عندما شهقت وشدّت فقد افزعته الحكيم ، وكاد ينهض ، لكنها شدته مرة اخرى وبقوة اكبر من السابق . . وناما وهما على هذه الحال !

ظلت مهتاجة حائرة تنتقل من غرفة الى غرفة طوال المدة التي غابها الحكيم . سألت سلمى عشرات المرات ، سألتها عن امور تعرف الاجابة عنها ، او لا يمكن لاحد ان يجيب . ابتسمت دون ارادة ، وقفت امام المرأة في محاولة لان تجمع الصور كلها ، تناثرت الصور واختلطت . استلقت على السرير ، اغمضت عينها ، احست النار تنبع من جسدها ، حتى اصابعها كانت تحترق ، وضعت يدها على جبينها ، نادى بصوت عالٍ ، لكن احداً لم يجب . قامت ، تمشت ، وقفت على الشرفة ، نظرت باتجاه قصر الغدير ، قالت في نفسها : تأخر ، تأخر كثيراً !

لم يتأخر الحكيم ، جاء يتدحرج مثل كتلة من النار : الضحكة تملأ وجهه ، والانفعال يسيطر عليه ، لا يعرف من اين يبدأ او ماذا يقول . يريد ان يتحدث عن كل الاشياء في نفس اللحظة . يريد ان ينقل التفاصيل الصغيرة ، ويبين الاسئلة والتذكر روى لها الكثير . كيف ضحك السلطان حتى استلقى على ظهره للنكتة الاولى التي رواها . وكيف ضحك اكثر في المرة الثانية ، بعد ان استعاده اياها . وكيف ان الصغيرين ضحكوا لضحك الكبار ، لكن بعد ذلك تساءلا عن معنى النكتة او لماذا ضحك الرجال لها بهذا القدر ! حدثها ان السلطان سألها باهتمام عن خيمة المراقبة ، وفرح وبان على وجهه الفرح انك وراء الدعوة كلها . أما لماذا اصّر على ان تعود بالطائرة فلنرى موران في الليل ومن الاعلى . وروى لها كيف انه جعل السلطان في قمة اشراقه ، وانه لم يره هكذا طوال السنوات السابقة ، ولام نفسه انه لم يفكر بدعوات مثل هذه من قبل ، واثني على موقفها لانها اصرت والحت الى ان دعا السلطان .

الخطيئة الوحيدة التي شعر الحكيم انه وقع فيها ولم يغفرها لنفسه :

- الصور . . يا وداد ، كان من الضروري ان تلتقط عشرات الصور ، وكان من الضروري ان تسجل على فيلم ، وربما استفدنا منها في « نسر موران » .

كانت وداد تسمع وتطير ، وكانت تعود في كل لحظة الى المليحة ، كانت تراها باتساعها اللامتناهي ، وترى شخصاً واحداً يملأها : السلطان . تمنّت لو

من تحفظه اي ظل ، أما طلاقته ودعاباته للحكيم ووداد . . ثم لسلمي التي دخلت متأخرة بعض الشيء ، فقد جعلت الحكيم في حالة من المرح قلما وجد نفسه في مستواها ، خاصة مع حماد . حتى ان فكرة مؤامرة الرايبة تلاشت خلال الدقائق الاولى . قال الحكيم لنفسه « من الاخطاء التي حصلت ان حماد ترك قصر الغدير في وقت مبكر بحيث لم تتوثق العلاقات بما فيه الكفاية » ولام نفسه انه قصر تجاه هذا الانسان الذي يبدو له مختلفاً عن السابق ، وقرر ان يسلك معه في المستقبل سلوكاً جديداً .

انقضت ساعة او اكثر ولم تجر الاشارة الى « الامر الهام » لا بل نسي الحكيم هذا الأمر ، أما حين عرض على حماد ان يبقى ويتعشى فقد اعتذر لضرورة ان يعود الى مكتبه ، لانه بانتظار تلفونات مهمة .

وداد شاركت في الجزء الاكبر من الحديث . وكان يروق لها ان تعود بين لحظة واخرى الى دعوة المليحة ، واية انطباعات تركت لدى الذين حضروا ، ماذا قالوا وكيف كانت مشاعرهم . أما سلمى التي ظلت صامتة فها لبثت ان انسجت دون ان يحس بها احد .

في احدى اللحظات التي غابت وداد خلالها قال حماد للحكيم وهو يبتسم :

- عندي كلمة . . بيني وبينك ، يا ابو غزوان !

والحكيم الذي تنبهت حواسه كلها عاوده الخوف والشعور بالخطر مجدداً : « الذين يعملون عمل حماد ليس لهم قلوب ، يقتلون القليل ويمشون في جنازته » ثم انه لا يظهر على وجوههم اي تعبير ، ومن جديد بدأت تتوارد الى ذهنه الاستئلة والاحتمالات ، نظر الى حماد : لا تزال نفس التعابير ونفس المرح . لما جاءت وداد قال لها الحكيم بنوع من الرجاء :

- الله يخليك ، يا ام غزوان ، اتركينا وحدنا دقيقة .

تطلعت ، وهي تبسم ، الى عيني الحكيم بتساؤل يحمل معنى الاستغراب واللوم ، ثم تطلعت الى حماد . رأت ابتسامته الودية تكبر وتتسع ، وكأنه يرجوها ايضاً ان توافق على ما قاله الحكيم . قالت بمرح ، ولتخفي احراجها :

السحر الذي خيم على قصر الحير، وكان يستعاد كل ليلة بإضافات جديدة وتحويرات لا تنفك تتزايد ، وشارك فيه الضيوف الذين ترددوا اكثر من السابق على القصر خلال هذه الفترة ، انتقل الى موران ، فتحدث الناس عن الدعوة ، ما وقع خلالها ثم ما تلاها ، تحدثوا بكثير من الاستغراب والعجب ، وتطلعوا حواليتهم ليسمعوا ما يمكن ان يقوله شميران او صالح ، هذا السحر بدل ان يتلاشى ويغيب دخل طوراً جديداً في اليوم العاشر الذي اعقب الدعوة .

فحماد الذي زار الحكيم في قصر الغدير مرة ، واتصل به مرتين ، ابلغه في اليوم العاشر انه سيزوره في المساء ذاته ، في قصره « لامر هام » ولم يضيف اي توضيح . هذا الاتصال ، وبهذه الصيغة ، اقلق الحكيم ، وجعله طوال فترة قبل الظهر يتساءل ويقدر ماذا يحتمل ان يكون الامر الهام ، ولماذا كان حماد مكتئباً متحفظاً هكذا ، لكنه لم يتوصل الى نتيجة . أما عندما عاد الى بيته فلم يشأ ان يسأل وداد ، خاصة وانه لم يعود احداً على زيارات عمل في الاماسي او في البيت ، ولانه اصبح على دراية كيف يفكر حماد وكيف يتصرف ، فقد تراءى له ان ما سيحدثه معه له صلة «بمؤامرة الرايبة» ، ربما قبضوا على العناصر التي كانت وراء المؤامرة ، وربما تكشف لها ابعاد جديدة تقتضي الحذر ، ولان وداد لا تزال في حالة « الاشراق » ، وهذا تعبير الحكيم ذاته ، فقد جعله ينسى ، او على الاقل الا يشغل نفسه ، خاصة في الامور التي تجلب الكدر .

منذ اللحظة الاولى بدا حماد انساناً جديداً : الابتسامة تملأ وجهه ، ولم يبق

حول هذه القضايا الكبيرة . وهي صغيرة فعلاً ، قبل اسابيع قليلة كان عيد ميلادها الخامس عشر . تذكر يوم جاءت . لقد كان هذا قبل فترة قصيرة ، لكنها ، مع ذلك أصبحت امرأة . شكلها ، صمتها ، وهذه الطريقة في التصرف . عندما تزوج و داد كانت بهذا العمر او اكبر قليلاً ، لماذا يستغرب اذن ؟ وهل يستطيع ان يرفض ؟

تظاهرت و داد بالغضب . وجدها في الصلاة ، قالت قبل ان يحضر نفسه بشكل كافٍ :

- بعد ما حطينا له رجلين من قصب وسوينا مثل الناس والعالم .. صار عنده اسرار ، وصار يحكي وما يحكي !

ولما ظل الحكيم صامتاً اضافت بسخرية :
- سبحان الله !

وبكثير من الجدية ، الاقرب الى العدا ، قال لها :

- طولي بالك يا و داد ، لان المسألة جد !

تطلعت اليه بتساؤل مشوب بالخوف ، فلما وجدته مهموماً صامتاً ، اضافت :

- خير انشاء الله ؟

- تعالي ، يا حبيبي ، حتى نتفاهم !

بطريقة بطيئة ، متخاذلة ، مليئة بالحزن اجابها ، خافت ، احست ان لومها يتحول الى حالة عصبية اقرب الى الغضب . فحماد الذي لا تعرف ماذا يعمل بشكل دقيق ، تحس ان عمله مليء بالمرارة والقسوة ، وتحس ، اكثر من ذلك ، انها لا تحبه . نصف الساعة التي قضاها مع الحكيم كانت حافلة ، لا بد انه حدثه عن راتب ، وربما عن سمير . لا عن راتب بشكل خاص ، اذ بعد ان سافر الحكيم بالجولة ، وطالت سفرته ، تردد راتب على قصر الحير عدة مرات ، ولا بد أن يكون هناك من نقل الى حماد ، « لكن راتب قريتنا ، راتب كان ينزل في بيتنا ؛ هذه ليست حالة جديدة » ، ثم ماذا يهمه ان يكون او لا

- انتم الرجال . . دائماً عندكم اسرار !

أما كيف ساق حماد الحديث ، كيف قال ما قاله للحكيم ، فان الحكيم نفسه لا يستطيع ان يستعيده ، لان المفاجأة ، في اللحظات الاولى ، كانت اكبر من ان يستوعبها او يقدرها . كان للحديث بعض المقدمات ، وكان فيه فيض من كلمات المحبة والتقدير التي حملها السلطان لحماد لكي ينقلها للحكيم لانه لا يستطيع ان يقولها له بشكل مباشر . واخيراً جاءت المفاجأة ، كانت مختصرة وواضحة : « طويل العمر يريد سلمى » .

ظنت و داد ، التي كانت الى لحظات تسمع صخب الرجلين ، انها يتوشوشان ، بعد ان خيم الصمت ، وحماد الذي ابلغ الرسالة لم يكن ينتظر جواباً فورياً لها ، والحكيم لا يملك ان يقرر بهذه السرعة ، ولذلك غرق الاثنان في الصمت .

بعد فترة ليست قصيرة قال حماد :

- امر بك عقب باكر ، يا ابو غزوان ، ونسولف .

نظر اليه الحكيم ، ابتلع ريقه ، هز رأسه دلالة الموافقة ، أما وهو يقوم لكي يودعه فقد قال :

- بسيطة . . الله كريم !

توقف حماد لحظات ، تنحنح اكثر من مرة في محاولة لان ينبه ، لان يرى و داد ، ان يقول لها كلمة ، فلما ظلت في غرفتها ، قال بصوت عالٍ :

- تصبحو على خير يا جماعة .

سار معه الحكيم ، كان صامتاً ، ودعه حتى الباب الخارجي . وقف الى ان غادر ، وقد تعمد ان يتأخر وهو يصعد الدرج . كان يريد فترة لكي يهيء نفسه ، كيف ينقل الى و داد الموضوع - المفاجأة ، هل يقول لها مباشرة ؟ هل يؤجل الأمر الى الغد لكي يفكر ملياً ؟ وسلمى . . هل يجب ان تعرف ؟ ماذا ستقول وكيف ستتصرف ؟ لقد اخطأ انه لم يسألها عن انطباعاتها بعد زيارة السلطان ، واخطأ ايضاً انه لم يسألها في الأيام الماضية ، انها اصغر من ان يسألها

وصمته ، قالت بلهجة من نفذ صبره :

- لازم حكى لك اشياء ثانية شوشت فكرك . . يا ابو غزوان !

هز رأسه دلالة الموافقة والتأييد ، ثم جمع نفسه وقال كلمات حماد ذاتها :

- طويل العمر ، يا وداد طلب يد سلمى !

ومثل زوينة الصحراء دارت الدنيا بوداد ، ارتفعت الى مكان شاهق ، يقرب النجوم ، ثم هوت . تملكها الوجوم ، شعرت بالحزن الشديد الذي يقرب حد الالم ، وشعرت بنشوة تنفجر من كل اجزاء جسدها . شعرت بالتخلي الكامل والالتحام الكلي معاً . انها في حالة من الاضطراب اقرب الى اللوعة او الى النشوة ، لا تعرف .

لا احد يعرف كم دام هذا الصمت . أما عندما تنهد الحكيم واقترب منها ووضع يده على كتفها فقد ارتجفت ، ثم ما لبثت ان وجدت نفسها تتعلق برقبته وتبكي . بكت بصمت ، انحدرت دموعها على طرف خده ، لم يستطع ان يفهم سبب بكائها او ماذا تعني . ولم يستطع ان يقدر هل هي فرحة ام حزينة . انه لم يرها هكذا من قبل . بدت له خلال لحظات امرأة مختلفة ، وكأنه يراها لأول مرة .

وقف ، وضع يده تحت ابطها ورفعها . كانت ثقيلة مثل حجر . كانت خفيفة مثل نسمة . كانت بعيدة وقريبة في آن واحد . كانت فرحة وحزينة معاً . قال همس :

- خيلنا ندخل ونفكر على رواق . . يا وداد .

وباستسلام مأخوذ مشيت معه . لما جلسا على المقعدين المتقابلين والمتقاربين في غرفة النوم ، سألتها همس متأمر :

- وين سلمى ؟

- نامت !

يكون ، هي التي تقرر ، واذا كان لانسان ان يحتج فزوجها وحده ، هكذا فكرت ، هكذا قالت لنفسها ، أما ان يتدخل انسان غريب ، مثل حماد ، فانها لا تستطيع ان تفهم او ان تقبل !

لما رآها الحكيم متجهمة صامتة هكذا قال بطريقة مختلفة :

- لازم نتفاهم ، يا حبيبي ونقرر !

كان يحضّر نفسه وهو يجلس في الشرفة الغربية . دخلت وخرجت عدة مرات من اجل اشياء صغيرة ، كانت تحاول ان تستعد ، ان تشحن نفسها ، وكان هو يحاول ان يفعل الشيء نفسه . لما جلسا متقابلين ، وكانا اقرب الى الصمت ، قال بصوت رخو .

- . . . في موضوع هام . . يا وداد .

تطلعت اليه دون ان تتكلم . تابع :

- والموضوع . . لا يحتمل التأجيل .

وبصعوبة اقرب الى الارتباك شرح لها ان السلطان يكن للعائلة حياً استثنائياً ، وانه طلب من حماد ان ينقل ذلك ، لان السلطان لا يستطيع ان يعبر عن حبه وتقديره مباشرة ، وهذا الحب زاد وتضاعف بعد الدعوتين . ارتاحت وداد ، ابتسمت ، شعرت انها معنية بهذا الحب ، فسرت في اوصالها رعشة خفيفة اقرب الى النشوة . كانت تود ان تسمع هذه الكلمات من حماد ، ان تعرف كيف قالها السلطان لتشرّبها . لماذا حرّمها من هذه المتعة ؟ لماذا يظل بدائياً جباناً فيخاف أن يتكلم امام النساء عن مشاعر القلب ؟ قالت ولم يزايلها الغضب بعد :

- يضرب . . اذا كان حامل هيك رسالة ليش خجلان فيها ؟ ليش ما

حكى ؟ ليش ما نطق ؟

ولما وجدت الحكيم صامتاً ، والتفت اكثر من مرة تابعت :

- والا مستحي يحكي قدامي ؟

قام الحكيم واغلق باب الشرفة . استغربت هذه الحركة واستغربت توتره

فهم ملاحظة الحكيم واستجاب لها ، قرر ان يتم الزواج في موران ، على ان يسافر بعد ذلك . وهذا القرار يعني ان يأخذ الاستعداد وتيرة اسرع ، الأمر الذي اضطر وداد ان لا تعتمد على الخيَّاطات اللواتي جئن من لبنان لاعداد فساتين العرس ، « يمكن ان يستمر عملهن مع بعض التعديلات . . أما فساتين العرس فسوف يتم اختيارها جاهزة من باريس » .

وافق السلطان على هذا الاقتراح بحماس كبير ، وكتعبير عن هذه الموافقة وضع طائرته الخاصة تحت تصرف ام غزوان والعروس ، وهذه الالتفاتة التي قدَّرها الحكيم ، ولم يحظ احد بمثلها من قبل ، حتى الامير فز ، جعلته يتحمل اعباء اضافية ، فقط من اجل ان ينتهي الاستعداد قبل انتهاء الأيام العشرة الاولى من ايار .

واذ انشغل القصر بهذا الزواج اكثر من الزيجات السابقة ، والتي اختلف عددها اختلافاً كبيراً ، فبينما يؤكد الكثيرون انها بلغت سبعاً وعشرين ، فان بعض نساء موران اللواتي لهن علاقة بالقصر يؤكدن ان الزواج الجديد سيكون الرابع والثلاثين ، لان اربعاً او خمساً من البنات اللواتي ربين وعشن في القصر بنى بهن السلطان . أما عثمان الدميري الذي عقد للسلطان على معظم زوجاته او كلهن ، فقد اكد لاثنين من معارفه ، انه وحده عقد له على اثنتين واربعين امرأة ، قال لها ذلك وطلب ان لا يذكر شيء عن الأمر « لان فيها موت . فيها « قص راس » .

واذ استمر انشغال القصر ، فان السلطان ذاته كان شديد الاحتفاء بهذا الزواج ، ويريد اتمامه بسرعة كبيرة ، كما يريد ايضاً حدثاً استثنائياً في موران ، خاصة وانه سيكون الزواج الأول الذي سيتم في قصور الخالدية ، بعد الوثام والانسجام اللذين ميَّزا وضع العائلة السلطانية ، وانتقال فز الى مكانه الجديدة في هذه القصور . .

عدلة التي استغربت الحركة الزائدة ، حاولت ان تستعيد في ذاكرتها صورة سلمى . تتذكر انها رأتها ، كانت صغيرة مثل لعبة ، بعيونها الزرقاء وجديلتها الطويلة ، أما عندما طلبت منها ان تقترب فقد اجفلت الصغيرة واختبأت وراء

لم تعش موران فترة حافلة مليئة بالحركة مثل الفترة الواقعة بين منتصف نيسان ومنتصف ايار من ذلك العام . الحركة بين قصر الغدير وقصور الخالدية ، التي اكتملت خلال هذه الفترة من ناحية ، وبين قصر الحير من ناحية ثانية لا تتوقف ولا تهدأ . الرسل الذين ينقلون الرسائل والهدايا لا يتعبون ولا يهدءون طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل . الاشياء التي نقلت الى قصر الحير لفتت نظر الكثيرين ، لان السيارات الكبيرة التي حملتها لم تتمكن من دخول باحة قصر الحير ، نظراً لان الباب الكبير لم يسمح او لم يتسع لدخولها . أما الطائرات التي غادرت موران او وصلت اليها خلال نفس الفترة فكانت اكثر من المعتاد . حتى الاشجار التي نمت وكبرت في الحديقة الخلفية لقصر الحكيم جرى التفكير بقطعها ، لكي تصبح هذه الفسحة مهبطاً لطائرات الهيلوكبتر ، لكن الحكيم ارجأ هذا الأمر في آخر لحظة ، على ان يفعل ذلك في الخريف القادم .

والصيف ، في هذه السنة ، ايضاً ، جاء قبل اوانه واكثر حرارة من المعتاد . فما كاد يتصف نيسان حتى عبق الجو بحرارة لزجة مخدرة ، تولد الرخاوة اكثر مما تشيع الدفء ، الأمر الذي دفع السلطان لان يفكر بتقديم موعد سفره اسبوعاً او عشرة ايام عن الموعد الذي حدده سابقاً ، لكن اشارة الحكيم ان جو اورويبا ، خاصة المانيا ، وبالذات بادن بادن ، ابرد من جو موران بكثير ، وان الانتقال من جو دافئ الى جو بارد ، او بالاحرى شديد البرودة ، لا بد ان يؤدي الى مضاعفات صحية غير مستحبة . والسلطان الذي

بوجودها ، فقد انفجرت فجأة كما تنفجر الزوينة . واذا كان السلطان قد انتقل الى قصور الخالدية ، وأصبحت زيارته لقصر الغدير متباعدة وقصيرة ، فقد نسي الشيخة ، او لم يعد يتذكرها مثل قبل . حتى الذين كانوا قريبين منها ورأوها تنتفض مثل قطة ، فتصرخ وتهدد ، وتدق الارض بعصاها ذقات متواصلة مع كلمات الشتيمة ، ولا توفر احداً او شيئاً ، الذين رأوها بهذا الشكل ، وبهذه الوضعية الجديدة لم يهتموا كثيراً ولم ينشغلوا بها . قال ناشد الدبلان الذي يرقب كل شيء بصمت ، قال لنفسه بصوت عالٍ :

- صحوة موت ، وما اظنها تقدر على شيء .

أما عدلة التي لم يتغير موقفها من الشيخة ، اذ ظلت اقرب النساء اليها وتسمعها ، ولأحظت قبل الأخريات ما حل بها بموت سرور ، ثم الحزن الذي أعقبه ، فغيرها ، فقد بقيت على موقفها . الآن وهي تراها هائجة هكذا ، قالت لها امام اثنتين من الاميرات الصغيرات :

- يا امي زهوة : عجة وتقضي مثل ما قضت غيرها !

والشيخة التي هزت رأسها بانكار ، اعلاناً عن التصميم ومتابعة المعركة ، وان هذا الزواج لن يتم ، كما لم يتم زواجه بهذلة ، قبل سنين طويلة ، وفهمت عدلة هذه الاشارة ، فقد تابعت تقول :

- ذاك زمان ، يا امي زهوة ، وهذا زمان غيره !

واذ لم تجد الشيخة فهماً من الذين حولها او تضامناً ، فقد انطلقت الى الآخرين ، حتى قيل انها لم تترك اميراً ، صغيراً او كبيراً الا وشتمت أمامهم الحكيم ، القاتل ، هكذا اصبحت تسميه ، طالبة ان يتدخلوا لمنع زواج السلطان بابنته .

والامراء الذين سمعوا ضحكوا وهزوا رؤوسهم ، ولم يفعلوا شيئاً .

واذ استمرت الاستعدادات واستمر معها الصخب والهياج ، لم يعد احد يسمع احداً ، وغاب صوت الشيخة في هذا الضجيج . أما السلطان الذي سمع بعض ما قالته الشيخة فقد اعتبر الأمر غضباً او خرقاً ، قال لزيد الذي

امها . تتذكر هذه الصورة ولا تتذكر غيرها ، لان وداد التي تردت على القصر مرات عديدة بعد ذلك ، لم تصطحبها سوى تلك المرة . أما متى كبرت هذه الصغيرة ، وكيف فتن السلطان بها ، فانها لا تجد سبباً او تفسيراً . تعرف ان السلطان زار الحكيم في بيته ، لكن لا تعرف اكثر من ذلك ، وسمعت عن دعوة المليحة ، وان زوجة الحكيم وابنتها كانتا هناك ، وقالت لها النسوة اللواتي ساعدن في تحضير الاراكيل ان المرأتين لم تخرجا من الخيمة ولم يرهن احد من الرجال ، حتى اثناء عودتهما مع السلطان بالطائرة لم يجر حديث ولم يحصل اي شيء ، فمتى تعلق بها السلطان ومن قال له ؟

كانت عدلة على يقين انها ستلتقي بزوجة الحكيم قبل ليلة الزفاف ، ولا بد ان توصيها ، خاصة بالنسبة لليلة الاولى ، « لان اكثر من امرأة تعورت » وهي اذ تفعل ذلك فمن قبيل الشفقة لا المحبة ، لانها لم تعد تقيم وزناً للنساء اللواتي يجئن بعدها . كانت متأكدة انها وحدها الباقية ، والتي لا يمكن ان ينساها او ان يستغني عنها ! ومع ذلك اعتبرت ان في الامر سرّاً تفهمه ، وانصرف ذهناً الى الحكيم : « ساحره ابن الحرام . من يوم ما عرفه سحره » .

ولان العرس تقرر ان يكون في موران ، ومثلما انشغل قصر الغدير وقصور الخالدية والخير ، فان كثيرين وكثيرات انشغلوا ايضاً : في شراء الهدايا ، في احضار الفساتين والمجوهرات من باريس ولندن واميركا ، وكان دافع هؤلاء ، او اغلبهم ، أن يقولوا ، بشكل ما ، للحكيم ولزوجته ، انهم ايضاً متحضرون وقادرون على شراء اي شيء ، وان الحكيم وعائلته لا يملكون اية ميزة ، وبالتالي ليس من مبرر ابدأ لهذا الاستعلاء . صحيح ان بنت الحكيم تزف الآن للسلطان ، لكن هذا لا يعني الكثير ، ولن يدوم طويلاً ، فقد سبق للسلطان ان تزوج مرات ومرات ، ومثلما يتزوج بنت الحكيم الآن ، فقد يتزوج اية فتاة اخرى غداً ، ولذلك بدأت حالة من الاستعداد وموجة من التحضير ، كل حسب امكانياته ، وكل بطريقته .

وامي زهوة التي بدت امرأة ذاهلة ، شديدة الحزن ، بعد موت سرور ، والتي اخذت تقضي اوقاتاً طويلة في جناحها ولا يكاد احد يراها او يحس

ارتبك الرجل فلم يعرف كيف يجيب او كيف ينفي عن نفسه تهمة انه من «البلابل»، وهي التسمية التي اطلقها نمر على العاملين في جهاز الامن ، والذين يتظاهرون بالمسكنة والغفلة ، ويحشرون انفسهم في كل مكان ، «لكنهم دائماً يغردون، ودائماً يعلمون عن ارواحهم، مثل ما تعلم نفسها العنز السودا بين الغنم» فلما رأى الرجل ان العيون تنظر اليه قام وهو يقول :

- الله منكم يا اهل موران لا تستريحون ولا تخلون احداً يستريح !

نمر تشوشت معلوماته واضطربت خلال هذه الفترة ، اذ بعد ان تم الانتقال الى قصور الخالدية، لم تعد مراقبته او متابعته لقصير الغدير تجدي الا قليلاً « حتى هذا الأكتع ، يقصد مطيع ، صار بالخالدية» ولذلك صدق من قال له اول الامر ان الزواج الذي سيتم سيكون بين ابن السلطان ، مزبد ، وبنت الحكيم ، واكد للذين جادلوا « ان معلوماته من داخل القصر» لكن لم تمر ثلاثة ايام حتى اعترف ان معلوماته خاطئة « وان الذي سيتزوج هو العود الكبير» .

ومع مرور كل يوم جديد تتزايد الحركة وترافقها الاخبار . كثيرون توقعوا ان تعطل الدوائر والمدارس يوم الزواج ، وهؤلاء وغيرهم كانوا متأكدين ان راتباً اضافياً سوف يمنح لموظفي الدولة . أما الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة فسوف تكون من الروعة والضخامة الى درجة ان موران لن تشهد مثلها . خاصة وان اخباراً كثيرة اخذت تنتشر بسرعة عن الملابس الجديدة التي خصصت لحرس القصور ، وقد عزز هذه الاخبار ايضاً تشكيل فرقة موسيقية جديدة تابعة للقصر مباشرة .

صالح الرشدان كان مريضاً خلال هذه الفترة ، لكن الاخبار التي تصله وتتزايد كل يوم ، تصل مضطربة مشوشة ، وهذا مما جعله يتحامل على نفسه ويأتي الى مقهى زيدان . لما رآه شمرا متعباً منهوئاً هكذا اجفل ولام نفسه انه نسيه مرة اخرى ، وفي محاولة لان يرفع من معنوياته ويشجعه ، ولان بداري خجله على تقصيره ، لجأ الى المداعبة :

- جيت . . والله جابك يا صالح . . .

نقل له بعض ما سمع ، قال له :

- اذا رجعنا من السفر بالخير والسلامة نمر بها ونرضيها !

وموران الاخرى انشغلت ايضاً ، لكن على طريقتها الخاصة ، فشمرا العتبي الذي وصلته اخبار الكليحة : الخراف التي ذبحت ، والقصيد والغناء ، ثم كيف رقص السلطان ببندقية وليس بسيف ، فقد تلفت اكثر من مرة وتساءل بسخرية :

- وينك يا ابن الرشدان . . لان هذا اليوم يومك !

وخفت صوته ، لكن الكثيرين سمعوه :

- لكن ظني ان الطبل ما يكفي والكلام ما يفيد !

أما عندما انتشرت شائعة قرب زواج السلطان بابنة الحكيم ، فقد قال شمرا في مقهى زيدان وامام كثيرين :

- من كبر لقمته غصّ . . يا جماعة الخير .

وحين تطلعت اليه بعض العيون متسائلة . اضاف وهو يقهقه :

- بنت المطوط من ياخذها ؟

وفهم الذين يسمعون أنه يعرض بالحكيم ويسخر منه . فغمز له أحد الجالسين لكي ينتبه للذي يجلس وراءه .

فرد ويقايا الضحكة على وجهه :

- يا ابو ابراهيم ما عاد بالعمر زودة ، وشفنا كل شيء !

والتفت شمرا بكلية للذي نبهه اليه ابو ابراهيم وسأله :

- وايش قولك . . يا ابن الحلال ؟

- القول قولك يا ابو نمر !

- جماعتنا في السوق كانوا يقولون : خف من الغني اذا جاع ومن الفقير اذا

شبع .

- اسمع يا ابو نمر . . اذا كان طويل العمر وجد امس من يجدي له خيله
ونسي صالح . . اليوم لو طرّش امة الثقليين ومعها القراطيس والاختام ، صالح
لا يسمع ولا يجيب !

- وكلّ الله يا صالح ، والدنيا ما تخلص بيوم .

- خلصت ولا بكيفها ، والحذب يعرف كيف ينام .

واستمرت موران تشغل وتتغير ، فالذين لم يسمعوا في الأيام الاولى
سمعوا في الأيام التي تلتها ، والذين لم يبدوا اهتماماً ، واعتبروا الأمر عادياً ،
ما لبثوا ان وجدوا انفسهم مهتمين بشكل او بأخسر ، لان الزوجات في
البيوت ابدن اهتماماً زائداً وتساءلن بصوت عالٍ ، وكذلك اولاد المدارس
وموظفو الحكومة . أما التجار في السوق فقد انتشرت شائعات بينهم وكلها
تؤكد ان الزينات يجب ان ترفع ، والوفود يجب ان تسمى لتقوم بتهنئة
صاحب الجلالة . وكذلك الحال بالنسبة للباعة الصغار والمتسبين ، اذ ظلوا في
قلق وظلوا يتساءلون ما اذا كانت موران ستجن وتنقلب ، كما حصل عندما عاد
السلطان من جولته فيتوقف البيع والشراء .

ولا تتوقف الحركة ولا تهدأ في قصر الحير او حوله ، حتى سمير الذي انجز
ثلاثة فصول من « نسر موران » ، بدا انساناً آخر عندما بلغه ان السلطان
سيتزوج سلمى ، اذ بالاضافة الى توقفه عن مواصلة العمل في كتاب
« السيرة » فإنه استعاض عنه بمجموعة مقالات نشرها في مجلة الواحة : « الانسان
والقدر » وقد استعرض في هذه المقالات مجموعة من الاساطير الفرعونية
والاغريقية ، وكلها تدور حول قوة المال ونفوذ الاقوياء او الآلهة ، وهذه القوى
تلاحق البشر ، تختبرهم ، فالاقوياء الاذكياء وحدهم الذين يتحملون
ويستطيعون ان يتجاوزوا المحن ، أما الضعفاء فيسقطون » وهذا ما حصل ،
اذ ما ان فرغ من المقال الخامس حتى اصبح انساناً آخر : عاد الى كتابة
« السيرة » ، واعتبر « ان الازمة التي لا تقتلني تقويني ، ولا بد ان احتل ،
لان الانسان حيوان اجتماعي اولاً ، وحيوان معاصر ذو ذكاء غير محدود
ثانياً » . أما عندما اقترح عليه الحكيم ان يرافق السلطان في رحلته الى ألمانيا ،
اثناء شهر العسل ، فقد كان موافقاً ، بل متحمساً .

ولما تطلعت اليه العينان اللتان تبرزان كبيرتين في وجه معروق مريض ،
اضاف :

- طويل العمر يسأل عنك . .

- خير . . ؟

وضحك بسخرية ، واضاف :

- لازم عنده سالفه .

- سالفته كبيرة هذه المرة يا صالح !

- سولف ، يا ابو نمر . .

- راح يعرس على بنت غريمك ، ويريدك تطبل وتبشر اهل موران : « يا
اهل موران الحاضر يبلغ الغائب » . . والباقي عليك !

- اقعد عوج واحك عدل . . يا ابو نمر .

- هذا هو القول ، يا صالح ، ودونك الجماعة اسألم .

ابتلع صالح ريقه بصعوبة والتفت يتطلع الى الوجوه التي تحيط به وتنتظر
اجابته :

- ها ، يا جماعة الخير ؟

- اللي يقوله ابو نمر هو الصدق .

- سبحان الله . . المقرود دائماً تلحقه القرادة ، قلنا طويل العمر زين وما
مثله ، وغريمنا هو المطوط ، هالحين الواحد ما يعرف وين يروح وين يجي ،
وشدوا روسكم يا قرعان !

وانفجر الجالسون بالضحك . أما صالح فظل منكراً لا يريد ان يصدق ،
لا يريد ان يعتبر ما قيل له صحيحاً ، فاذا لم ينتقم منه الحكيم في الماضي فلا بد
ان يفعل الآن . صحيح أنه لا يخاف الانتقام ، لكنه لا يحس في جسده
القوة الكافية للمقاومة على مواصلة الحرب الى النهاية . عندما هدا الرجال
التفت الى شمراان وقال له :

تلاحظها ولا تعرفها !

تقبل الحكيم هذه الملاحظة بغیظ ، قال برخاوة ، وكأنه ينتقم :

- الله يعطيك العافية ، يا ابو مصباح ، وتسلم ايدك !

سعيد رفض ان يصدق المصاهرة التي يتحدث عنها الكثيرون في السوق . قال ان الحكيم يروج مثل هذه الشائعات ليجعل الناس ينسون حادثة الفندق ، وفي محاولة لان يستعيد اعتباره . أما عندما التقى بحماد وتأكد من صحة هذه الاخبار فقد قال :

- ابن الحرام مثل القط . . كيف ما رميته ينزل على رجليه !

واضاف بعد قليل وهو يغمز لحماد بعينه :

- واحسن شيء ان الواحد يفكرها ، يغيب عن العين كم شهر حتى الله يفرجها !

سارت الأمور ، رغم بعض الصعوبات ، سيراً معقولاً . وداد التي سافرت الى باريس ، وقضت هناك عشرة ايام ، رجعت بحصيلة مرضية . كان هذا تقديرها ، وقد وافق الحكيم على هذا التقدير . أما سلمى التي كانت في حالة ارتباك ، ولا تعرف كيف تتصرف ، فقد احست وكأنها في حلم ، اذ رغم انها كانت تبدل عشرات الفساتين كل يوم ، وتلبس الاحذية وتحمل الحفائب ، فلم تكن مصدقة كل ما يجري حولها : ان تتزوج ، وان تتزوج السلطان بالذات . لكنها ، مع ذلك ، كانت اقرب الى الاستسلام ، وكأنها مأخوذة ، خاصة حين ترى امها تأمرها ، تطلب اليها بطريقة اقرب الى الحزم ، ان تري اباهما الفساتين التي جلبتها . كانت تطلب منها ان تلبس التابور السكلاما مع الحذاء الابيض والحقيبة البيضاء ، حتى اذا لبسته ودارت مرة او اثنتين امامها ، تطلب اليها ان تلبس الفستان التراكواز المفتوح من امام ومن خلف فتحة كبيرة ، وحين تردد سلمى ، لأنه فستان فاضح ، ولا تحتل ان يراها ابوها هكذا ، تتطلع اليها بشكل معين اقرب الى الأمر ، فتستجيب مستسلمة وكأنها قطة مروضة .

وبعد كثير من الاستعداد والتأجيل تحدد اليوم العاشر من أيار موعداً لزفاف سلمى !

حماد الذي لم يتأخر في ان ينقل الى السلطان موافقة الحكيم ، وكان يتوقعها ، دون ادنى شك ، اصبح منذ تلك الليلة انساناً آخر باهتمامه ولطفه ، حتى عبد المولى اخذ يبادر الى الاتصال بالحكيم ، واصبح اكثر نعومة واكثر ارتباكاً ايضاً . كانت اجاباته في السابق واضحة جلية ، رغم المجاملة والود . الآن تبدو بشكل مختلف . الحكيم لم يحس بذلك ، لكن وجد انه يجب هذا الانسان ، او ربما يقدره ، اذ كان شديد الاهتمام وهو يسأل الحكيم عن صحته ، وما اذا كان لا يزعمه هذا الاتصال ، حتى اذا اطمأن ابلغه ان رئيسه يريد ان يتحدث اليه .

حتى بدري المدلل الذي فترت علاقته بالحكيم الى حد كبير ، بعد سفر محمد عيد بذلك الشكل المفاجيء ، خاصة بعد ان عرف اسباب السفر ، فلم يلتق به الا مرات محدودة ، وان استمر على القيام « بالواجب » كما كان يقول في تبرير قيامه بزيارة الحكيم كل عيد ، لكن ظل يتابع اخباره « الطيبة » وينشرها . فعل ذلك حين وقع الخلاف مع سعيد ، وفعل ذلك ايضاً حين جرت حادثة فندق الرابية . أما الاخبار الاخرى فلم يكن بدري ليحفل بها . اكثر من ذلك كان يبدي تدمره حين سماعها . الآن ، في مواجهة الاخبار الجديدة لا يستطيع ان يستمر في التجاهل او عدم الاهتمام ، فبادر الى الاتصال بالحكيم ، متذرعاً باسباب واهية ، لا لكي يهنئه ، كما قال في بداية اللقاء ، وانما ليرد ، بشكل غير مباشر ، على ما قاله له الحكيم قبل سنين ، حين زوج اثنتين من بناته واحدة لمعاون مدير شرطة موران ، والثانية لقائد حرس البادية ، وبطريقة لا تخلو من مكر اشار اشارة سريعة . لكنها واضحة ، انه فرح للاخبار التي سمعها . وان السلطان سأله عن سلمى فاطرى له جماها واخلاقتها واجتهادها ، وحاول ان يفهم الحكيم ان دوره في هذا الزواج كان اساسياً . والحكيم الذي تقبل تهانئه حاول ان يصرفه عن الموضوع بسرعة . سأله عن محمد عيد « إنشاء الله وفقهه ؟ » ثم سأله عن حياته في موران وعن اهله . وبدري الذي اجاب بسرعة كان يريد ان ينقل للحكيم الرسالة الأخيرة :

- وانا ، يا ابو غزوان ، من ناحيتي عملت اللازم : ما تركت في لحيتي شعرة بيضة واحدة ، موبس هيك وصبغت له شعره صبغة . . العفاريت لا

كثيرة ، فنصبت خيامها في اماكن عديدة من موران وبدأت الاحتفالات منذ اليوم السابق للزفاف ، كما طافت الشوارع فرقتا موسيقى ، الاولى تابعة للقصور والثانية للجيش ، وقد ظن الكثيرون ان السلطان قدّم يوم الدخلة ، لكن الاكثر دراية ومعرفة صححوا هذا الخطأ ، وقالوا : ان ما ترونه لا شيء قياساً للاحتفالات التي ستجري غداً . أما مكبرات الصوت التي نصبت في اماكن عديدة ، وكذلك اقواس الزينة والمشاعل فقد حولت ليل موران الى نهار . وذكر بعض الذين كانوا في مقهى زيدان ، او في مقاهٍ اخرى ، انهم رأوا ثلاث سيارات تابعة للقصر مرت في عدة شوارع ، وربما كان السلطان في واحدة منها ، لكنهم لم يكونوا متأكدين لسرعة السيارات ، ولان الذي يجلس في المقعد الخلفي في السيارة الوسطى كان يلف شماغه على وجهه بحيث لا تظهر ملامحه .

الخيول التي وصلت الى موران ، وكذلك الابل الطيبة ، جعلت الكثيرين يتذكرون اياماً سابقة ويجزنون ، ثم ما لبثوا ان نسوا الأمر او انشغلوا عنه حين قامت عدة طائرات بالقاء هدايا من الجو ، وقد تسببت ببعض الأذى ، لان ما رافقها من ركض وصراخ ، ثم النزاع والخلاف ، بين الصبية والاطفال او من هم أكبر سناً بلغ الأوج ، وقد استعيض عن الهدايا في يوم العرس بأوراق ملونة .

قصور الخالدية بدت شعله نار ، وكان من السهل تمييزها من مسافة بعيدة ، وقد سار نحوها الكثيرون في الليلة السابقة للزفاف ، لانهم توقعوا ان يشهدوا العاباً واحتفالات كبيرة . لكن الامر اقتصر في هذه الليلة على فرقة موسيقى القصر ، وعلى القهوة تقدّم لمن يستريح في الخيمة الهائلة القريبة من الابواب الجانبية للقصر . وقد لاحظ الذين وصلوا الى هناك او اقتربوا اكثر من غيرهم حركة نشيطة واحمالاً كثيرة تنقل الى داخل القصور ، لكنهم ، مع ذلك ، لم يميزوا شيئاً .

حماد مثل عاداته في هذه المناسبات : رابط في رئاسة الجهاز ، وعن طريق التلفون كان يتابع ، يسأل ، ليتأكد . وهذه المرة ، اكثر من مرات سابقة ، لم يغادر الرئاسة سوى مرة واحدة ، حين استدعي الى القصر لمقابلة السلطان ، ولم يبق هناك سوى نصف ساعة ، كان خلالها قلقاً ، ثم عاد .

الذين توقعوا وانتظروا وتراهنوا حول العطلة والراتب الاضافي والاحتفالات تحقق توقعهم ، واعتبروا انتظارهم مليئاً بالذكاء والتقدير الصائب ، أما الذين تراهنوا فقد خسروا قليلاً وكسبوا كثيراً ، لان ما اعطي لموظفي الدولة والشرطة والحرس تجاوز راتب الشهرين ، ولان ذلك ترافق ايضاً مع زيادة الرواتب .

ولكي لا يبدو الأمر كله مرتبطاً بالزواج فقد اشير ، عرضاً ، الى مناسبتين اخريين : « معركة الرحبية ، والتي تصادف ذكراها في هذا الشهر ، وذكرى مرور ثلاثين سنة على قيام السلطنة » وهذا الاجتهاد بناء لطلب الحكيم واصراره ، « لان الحساد قاعدين لئلا ركبة ونص ، ولا بد ان يغنيهم فرح او احتفالات بهذا الحجم » لكنه في الحقيقة امتلاً تحسباً ان يحصل في هذا اليوم ما حصل في دعوة فندق الرابية « لان لكل شيء اذا ما تم نقصان » هذا ما قاله لنفسه ، وهو لا يعرف كيف يخفي انفعاله وخوفه ، أما ما قاله لحماد عن ضرورة إحكام المراقبة حول القصور ، وكان يعني قصره بالذات ، وجمع الصياع والمشردين ، فلأن صورة رجلين سيطرت عليه تماماً : مفضي الجدعان وصالح الرشدان ، ولذلك وجد ان انصب صفة يمكن ان يوصف بها امثال هؤلاء الناس هي انهم مشرودون . وحماد الذي هز رأسه وضحك اكد له ان قصر الحير محروس حراسة جيدة منذ وقت طويل ، وانه اتخذ كافة الاجراءات لتسير الاحتفالات دون ان يعكرها شيء !

ومثلها حصل اثناء اعتلاء السلطان للعرش ، فقد جاءت وفود من انحاء

كانت المرأة جادة وتعني ما تقول ، أم ان الأمر كله لا يتعدى الحسد ومحاوله
اخيرة لتخريب العرس . والحكيم الذي سمع باهتمام ما قالته زوجته طمأنها
في النهاية ، ووعد ايضاً ان يهيء لسلمى دواء مناسباً . اكثر من ذلك فكر لو
« تجرّب » السلطان في ليلة الزفاف . او على الأقل يجعله في اضعف حالاته .
لكنه اعتبر هذه المخاوف مجرد هلوسات نساء « ولا تمت الى العلم باية صلة » .

وعشرات الاشياء الاخرى حصلت في موران خلال الأيام التي سبقت
الزواج والتي تلت ، فالهدايا التي جيء بها من اماكن عديدة ، والتي احتفظ
بها ، كمفاجآت ، الى الوقت المناسب ، والوفود التي امت قصور الخالدية
للتهنئة ، والولائم التي اقيمت ، ثم مهرجانات الفروسية التي جرت لثلاثة ايام
متوالية ، اليوم الذي سبق الزفاف ثم اليومين التاليين ، والمشاعل التي حملها
تلاميذ المدارس في ليلتين متواليتين ، والمباريات الرياضية التي اشرف عليها
الامير فواز ووزعت خلالها هدايا ثمينة وكثيرة ، كل هذه غيرت موران ، لا بل
قلبتها .

شمران ، الذي صمم واقسم ان لا تدوس رجله السوق لاسبوع كامل :
« والى ان ترفع الزبايل التي ملأت موران ويصمت آخر غراب ناعق » قال
لاثنين كانا يزوران في بيته في الليلة التي سبقت ليلة الزفاف :

- الزواج سنة يا جماعة الخير ، لكن اللي تشوفونه ما هو بزواج ، هذا فسق
وقلة دين ، وظني انه ما يمر على خير وسلامة .

أما صالح الرشدان الذي ملأ الدوي رأسه ، واحس ان الدماء تغلي في
عروقه ، لما يسمعه ولما يتحدث فيه الناس حوله ، فقد روادته فكرة ان يحمل
طبله ويخرج الى الشوارع ، وان لا يترك شارعاً الا ويمر فيه ، حتى اذا وصل
امام قصر السلطان قال الذي لا يقال . لكنه ما لبث ان صرف النظر عن هذه
الفكرة « اذا كان الناس كلهم مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة شيفيدك طبلك يا
مقروء؟ » .

لقد عنت لصالح فكرة المقاطعة ، فقرر ان يبقى في بيته ، حتى زوجته
واولاده خرجوا الى طرف الشارع او وسطه ، وظل وحيداً . تذكر

الحكيم كان متحسباً خائفاً ، لا يعرف ، وهو يسمع ويرى كل هذا ، هل
يفرح ويعبر عن فرحه ؟ هل يظهر امام الناس ام يتوارى ؟ انه شديد الارتباك
والخيرة ، لا يستطيع ان يكون في قصر الخير ، الذي تحول الى خلية من
البشر ، لكثرة من فيه ، ولا يعرف لماذا هم موجودون او ماذا يعملون ، كما لا
يستطيع ان يبقى كل الوقت في الخالدية حابساً نفسه في جناحه ، لان مطيع ،
الاقرب اليه ، كان شديد الانشغال بالاعداد الخاصة التي سيصدرها بهذه
المناسبات المجتمعة معاً ، ولذلك ظل ينتقل من مكان الى آخر ، يشرف ،
يتابع ، يحاول التأكد ان كل شيء يسير سيراً حسناً ، وفي نفس الوقت يمتلئ
قلقاً ان يكون مقاله ليس في المستوى الذي يريد او يتمنى ، الاتصالان اللذان
تما بينه وبين الحكيم كان قصيرين من ناحية ومربكين من ناحية ثانية . ود
الحكيم لو انه في حالة نفسية افضل ، او لو كان حوله بعض الناس الذين يرتاح
لوجودهم معه . حتى السلطان الذي طلب ان يراه لم يدم لقاءهما اكثر من
عشرين دقيقة ، وبدا خلال هذه الدقائق مشغولاً او منتظراً ، واعتبر الحكيم
اسئلة السلطان واستفساراته أقرب الى المجاملة .

وداد التي بدت مسيطرة على اعصابها خلال الأيام السابقة ، عاودها من
جديد الارق ثم الصداع ، وخشي الحكيم ان تقع فريسة المرض ، فبذل جهداً
خارقاً لتهديتها والتخفيف عنها ، لكنها ، في اغلب الاحيان ، لا تسمع ما
يقوله لها ، بل وكثيراً ما نهضت اثناء حديثه لتتأكد من امر من الامور او تفقد
حاجة من الحاجات . وكان هذا يتزافق مع الحدة والوامر .

أما في اليوم السابق للزفاف ، وحينها عادت من القصر ، بعد ان التقت بزوجة
السلطان ، الأميرة عدلة ، والتي اتصلت بها عدة مرات ، واصرت على
ان تراها لامر هام ، وقد ارجأت وداد موعد اللقاء اكثر من مرة ، متذرة
بالانشغال الكثيرة التي عليها القيام بها الى ان رأتها اخيراً ، ودون مواربة
وبكلمات مباشرة وقليلة قالت لها الاميرة عدلة ما يجب ان تقول!

وداد وهي تروى لزوجها ، بعد ان اصطحبته الى غرفة بعيدة عن
الضيحة ، كانت موزعة المشاعر مضطربة ، كانت موزعة بين مشاعر الخوف
واللذة . واستفسرت منه باعتباره اختصاصياً ، وصاحب تجربة ايضاً ، ما اذا

يصمت قليلاً ثم يتابع : « وطبيعي على رأس الكذابين والمنافقين شيخهم ، العوج ، مطيع . لكن والله . . والله لا بد ويحي يوم وتطلع هذه المقالات كلها . ها يا جماعة الخير : من كتب هذا ؟ لماذا قلمت هذا ؟ وتشوف دموعهم ويطلبون الشفاعة اولاد الزواني وكأنهم لا يحملون كتابهم بشمالهم او كأنه ما هو معلق برقابهم مثل الرسن . يتصورون ان الناس تنسى ، تسامح ، ويتصورون ان لا احد يعرف كم لهطوا وكم سرقوا . . لكن بسيطة . . يحيي يوم ونشوف » وظل يسمع ويتابع غير حافل بالحركة حوله او بالجنون الذي غرقت فيه موران !

بدر نوع آخر ، اذا ما كاد يرى اباه حزينا مهموماً ، وهو يتابع الاسهم النارية التي تملأ السماء ، ويرى موران تغرق في شعلة الضياء ، حتى قال بجديّة اقرب الى النرفزة :

- اذا ردت مني يا بويه اخلي ظلمة موران تدوخ الحرامية . . بس قول .
وبدأ يشرح لابيه كيف انه يستطيع ، بسهولة كبيرة ، قطع التيار الكهربائي عن موران كلها ، وان ما سيعمله لا يمكن اكتشافه او اصلاحه بايام ، وشمران الذي هز رأسه دلالة الفهم ، لا الموافقة ، قال كأنه يخاطب نفسه :

- تظل ظلمة القبور اخير لهم . . وما مثلها يا وليدي .

ولم يفهم كلامه على نحو واضح . أما عندما جاء نجم ، مثل عادته كل يوم ، ووجدهما يتحدثان عن ايام قديمة ، وكانا غارقين في ظلمة لا تنيرها الا بين فترة واخرى الأسهم النارية ، وبعد ان حيا وجلس وسمع طرفاً من الحديث . قال بما يشبه السخرية :

- هذا ما هو اول عرس ولا آخر عرس ، وهذا السلطان ابن سلطان ، وباكر ابنه او اخوه يحي مكانه سلطان . . الا اذا تغيرت موران .
صرخ ابوه بحدة وكأنه شعر بالتعريض :

- موران اللي كانت ، مورانا ، ما بقي منها حجر . . يا وليدي ، تغيرت . وهذا اللي جاب البلا ، وبعد تريد اكثر . . ؟

ايامه كلها ، تذكر حياته عندما كان شاباً وقوياً ، كيف كان يخافه كل من في السوق . كانوا يخافونه لقوته ، ولانه لا يوفر احداً او شيئاً . الآن يحس انه استنفد قواه ، لم يبق له الا القليل ، وحتى هذا القليل يغادره ، يفلت منه يوماً بعد يوم . قال لنفسه وقد رأى في السماء بعض الشهب النارية : « عندما كانت المرجلة ، وعندما كان الرجال ما شفنا احداً منهم ، هالحين ، لما انهد الخيل وراحت الخيل ، شدوا على الكلاب سروج وقالوا لها اسبحي وطيري . . لكن نحسا » .

حتى شداد الذي جاء من يقول له ان موران امتلأت بالخيل ، ولا بد ان تنزل خيوله الى السباق ، فقد رد ساخراً :

- الاصيل ما تلعب مع المضربات !

وفهم كلامه على اكثر من وجه ، لكن تعريضه بالحكيم لم يكن ليخفى .
أما مفلح المطوع الذي ثقل سمعه اكثر من قبل وخفّ بصره فقد رأى الحركة الزائدة ، واحس ان هناك شيئاً غير عادي فسأل بخوف :

- ها يا جماعة من مات ؟

ولما كان مطلق ذلك المساء غائباً ، فقد حاول اكثر من واحد ان يصرخ باذنه ان السلطان سيتزوج في الغد ، لكنه ظل يسأل :

- ها . . من مات ؟

...
- من ؟

نمر شغلته الاعلانات التي نشرت في الجرائد عن « الاعداد الخاصة » : اذا كانت الجرائد في الايام العادية تكذب مرة ، فانها في المناسبات تكذب مائة مرة : مجموعة من المنافقين واللقامين ، وكل واحد منهم يريد ان ينافق أكثر من الآخر ، وهات يا كذب . وباية مناسبة ؟ مناسبة زفاف الأنسة المصونة بنت المحملجي لصاحب الجلالة المفدى خزعل بن خريبط . وكأنه اول زواج على الارض ، زواج آدم وحواء !

- اللي اريده يا بويه موران ثانية ، موران جديدة ، وما هي مثل ما تشوفها
اليوم !

- خلنا نمشي يا وليدي ، خل كم واحد يقول الله يرحم شمرايم ويمشي
بجنازته قبل ما تصير موران اللي تسولف عنها .

- تصير . . يا بويه !

- والله ، يا وليدي ، بعد ما راحت الغالية ، اللي كانت ، ما عاد بالنفس
شيء !

واستمر الثلاثة يتابعون الاسهم النارية ، ويتذكرون . . ويحلمون .

ومثلها لم تنم موران في هذه الليلة لم تنم في الليلة التي تلتها ، كانت ، ليلة
العرس جنوناً لم يتصوره احد ولم يتوقعه .

في صباح يوم السابع عشر من ايار اقلعت من مطار موران ثلاث طائرات
تابعة للقصر ، الاولى ، في الصباح الباكر ، وهي طائرة الحراسة . وبعد ثلاث
ساعات اقلعت طائرة المؤن والمرافقين والمرضى والخدم والطباخين والذين
يصنعون القهوة . وبعد خمس واربعين دقيقة ، اي في تمام الحادية عشرة ،
اقلعت طائرة السلطان خزعل ، كان على متنها جلالته وعروسه وام العروس
وثلاثة واربعون من الحرس الخاص والمرافقين الشخصيين ، واثنان من ابناء
السلطان ، اضافة الى اختين ايضاً .

الحكيم تخلف في موران لان لديه الكثير من الاعمال يجب ان ينجزها ،
لكنه وعد وداد ، بتأكيد جازم ، ان يلتحق بها في اوائل حزيران ، على ان يمر
على الاولاد في لبنان لكي يطمئن عليهم « ولكي ابشرهم ايضاً » .

سمير سافر على طائرة السلطان ، وقد حيا جلالته مرتين : مرة اثناء ما
كان السلطان ذاهباً الى دورة المياه ، والثانية عند اسفل السلم ، بعد
الوصول . حاول ان يتفق مع جلالته في المرة الثانية على مواعيد لمتابعة كتاب
السيرة . نظر اليه السلطان وصهل ، وبعد قليل رد عليه بمداعبة وضيق :
« خلنا نستريح يا وليدي ، هالحين ، وبعدها الله كريم ! » .

موران التي استراحت بعد الاحتفالات « والأيام الكبيرة » كما وصفها
مطبع في المقال الذي نشره ، حاولت ان تعود الى حالتها الطبيعية ، لكن الأمر
احتاج الى عدة ايام لكي ترفع الزينات وتنظف الشوارع والميادين وتنزل

ساعة الجيب ، ينظر اليها بعد ان يميلها بزاوية حادة ، لكي يرى عقاربها على الضوء الذي يصل اليه خافتاً من اسفل الدار ومن عمود الكهرباء في الشارع .
« ثلاث دقائق وتصير سبع » . يقرب الساعة من اذنه لكي يتأكد انها تعمل ، يغلق غطاءها ويملؤها . يضعها مجدداً تحت الوسادة . يصب لنفسه فنجاناً من القهوة ، يشربه بلذة وتمهل . الراديو لا يزال يبث الموسيقى . يتذكر انه سمع مثل هذه الموسيقى في اوقات معينة . يحرك يده دون اهتمام ، يحس ان اكثر من ثلاث دقائق مرت . يتطلع الى السماء ، يتطلع حواليه . يسحب الساعة من جديد « سبع وخمس دقائق » يقلب شفته استغراباً « اولاد الحرام ما عندهم الا طن . . طن ، استكثروا علينا برنامج البادية ! » حول مؤشر الراديو في اكثر من اتجاه ليتأكد انه لم يخطئ . كانت المحطات الاخرى اضعف ومشوشة . قال لنفسه « هذي الطن . . طن هي موران » اعاد المؤشر ، انبعثت الموسيقى مرة اخرى . هز رأسه بحقد . قال : « خلنا نشوف تاليها » .

فجأة توقفت الموسيقى . قال شمران « نايمين اولاد الحرام ونسوا برنامج البادية » قال المذيع بصوت صلب مرتجف :
- ايها الشعب الكريم انتظروا اخباراً هامة .

قال شمران لنفسه : « ويرعص ، ملعون الوالدين » ودارت عيناه في الظلمة الخفيفة « اخبار هامة ؟ » وبعد ان هز رأسه عدة مرات : « عرس وعرسوا ، وهالحين وشنبو وراهم بعد ؟ عرس ثاني ؟ »
وعاودت الموسيقى ازيزها في اذني شمران ، قال في نفسه « لعن الله والديكم يا اولاد الحرام ما عندكم غير الطن . . طن ؟ » .

وسرح في افكاره ، استعاد وقائع الأيام الماضية ، وفجأة تذكر خريط ، قال في نفسه : « كل العوج من الثور الكبير ، وذاك الغيم جاب هذا المطر » . ومرت صور موران في ذهنه مثل شريط من النار ، كيف كانت وكيف هي الآن . كان الناس يتعبون من اجل انتزاع القرش ، كانوا يركضون ، يسافرون من مكان الى آخر ، وكانوا لا يملون من المساومة . « الآن ، كل شي تغير ، الفلوس تجي على البارد المستريح ، بس الواحد يكون منافق ويبوس

مكبرات الصوت والخيام ، وبدا ان الناس ، بعد ان امتلأت اعينهم وآذانهم بما رأوا وبما سمعوا ، اصبحوا في حالة من التعب والتساؤل لا يمكن ان يتغلبوا عليها الا بالعودة الى حياتهم الطبيعية المعتادة ، وكان يفترض ان يبدأوا بعد يوم او اثنين اسبوعاً جديداً مثل كل اسابيعهم الكثيرة التي مرت .

عندما مالت شمس يوم الخميس نحو الغروب وانكسرت حدتها ، بدأ شمران يعد فراشه على السطح ، كما يفعل عادة مع بداية كل صيف . رش سطح الدار الى ان ترطب ، هياً قهوته ، تحفف من اكثر ملابسه ، ولم ينس ان يحمل معه الراديو لان برنامج « البادية » الذي يسمعه كل خميس يذكره ويشده .

كان وحيداً على السطح ، لان « العجيزة » كما يسمي ام نمر ، لديها ما تفعله في الدار . تحرك شمران اكثر مما يفعل عادة . ازاح البساط ، أعاد ترتيب الوسائد ، قلب النار ، غسل فناجين القهوة مرة اخرى . كان يفعل ذلك دون وعي ، ودون تصميم ، فقط لكي يشغل نفسه . حين انتهى من هذه الاعمال الصغيرة ارتقى على الفراش . ود لو يغني او ان يصرخ . وعن له لو يقف على رجل واحدة . ابتسم ، لانه لا يعرف لماذا تخظر في رأسه مثل هذه الافكار . قال في نفسه « يبقى الانسان حياته كلها طفلاً بشكل ما » وتذكر صالح الرشدان ، قال : « الى ان يموت يظل مثل ما هو ، ما يتغير » . وتذكر الحكيم وتذكر ما قيل في مقهى زيدان « البنت ، من اول ليلة ، تعورت » وان سفرة السلطان اليوم لها علاقة بالمعالجة اكثر من اي شيء آخر ، قال في نفسه « اذا الواحد تاجر بلحمه ويش يبغي لنفسه ولربه ؟ » .

مع اول نسيمات رخيحه استعاد نفسه . امتدت يده الى الراديو . انه لا يريد الا برنامج البادية ، « الاشياء الثانية لها اصحابها » لا يجب اخبار موران ولا يصدقها . « الواحد منهم يبخر بك ويكذب ، لا خجل ولا حياء » ولا يجب الدراويش . « ما عندهم الا قال الله وقال الرسول ، وهم لا يعرفون لا الله ولا رسوله » .

فتح الراديو . « اذا كان غير برنامج البادية اخرسه ، اموت صوت » .
موسيقى . « هذي ما يخالف » ويعدل جلسته ، يسحب من تحت الوسادة

ما كاد شميران يسمع هذه الاخبار حتى صرخ :

- ام نمر .. يا ام نمر .. ترى ان طاح شيخ القوم طفيت نارهم !

والتفت الى ابنه نجم وسأله :

- ها يا وليدي علينا او حوالينا ؟

- ما يندري يا بويه !

والتفت بدر الى الراديو ، من محطة الى اخرى ، لعله يكون اول من يسمع لينقل الى الآخرين ، وابوه الذي بدا مهتماً يتابع ويصغي ، كان مهتماً ببرنامج البادية ، لعلهم يذيعونه ، رغم التأخر ، أما نجم فقد غرق في غرفته ، يجمع كتباً ويحرق اوراقاً ، ويتنقل من مكان الى آخر في البيت ، دون ان يلتفت الى صوت بدر الذي كان مشغولاً بمد الاسلاك الكهربائية لينقل الراديو الكبير إلى السطح ، وكان يصرخ ويطلب من ابيه المساعدة .

نمر كان آخر القادمين ، جاء بعد ان أغلق مقهى زيدان ، وما كان ليفعل ذلك لولا تلك السيارات التي دارت في السوق تعلن منع التجول ، وتطلب من الناس ان يلتزموا بيوتهم فوراً ، وتهدد كل مخالف بتعرضه لاطلاق النار . كان نمر منفعلاً غاضباً كما لم يكن هكذا في حياته ، لانه لا يريد ان يسمع الاخبار مثل اي انسان آخر ، يريد ان يراها ، ان يشهدها لحظة وقوعها ، خاصة وانه انتقل الى عدة اماكن ليرى الدبابات ، كما احصاها بنفسه حول قصر الغدير وقصور الخالدية ، أما قصر السعد فلم يسمح لاحد الاقتراب منه . كان قلقاً مشوشاً ، وما زاد قلقه ان الضابط غنيم السهيل ، الذي رابط بدباباته الثلاث في ميدان السلطان خزرعل ، ابلغه وهو يتسهم « ان كل شي انتهى ، واننا سيطرنا على جميع المرافق والنقاط الحساسة » وحين اراد ان يستوضح منه ، ان يعرف اكثر ، رد عليه : « اصبر والصباح رباح » وانشغل مع جنوده ، ورفض ان يتكلم اكثر من ذلك .

كان نمر لا يعرف كيف يهدأ او ينتظر ، كما لا يستطيع ان يتترك الآخرين يهدأون . « يا جماعة خلوا ببالكم : كل انسان وافعله .. واليوم يوم الحساب » وتقر في ذهنه الصور والاطياف « لا شفاعة لاحد ، ولا لحية مشطه ، وتعالوا

الاكتاف واللحي ، وبه حيل ويشيل » لم تعد الفلوس تعني شيئاً لذيداً او هاماً ، ولم تعد تعني منزلة او امكانية ، انها مجرد تراكم لا يعرف الى ماذا سيؤدي والى اين سيقود .

وفجأة يخرج من ذكرياته :

- ايها الشعب الكريم .. انتظروا اخباراً هامة !

- اه منكم يا اولاد الحرام مثلكم مثل حفار القبور ، وهو يسري يقول : يا فتاح يا كريم ؛ ابوكم وابو اخباركم .

هكذا قال لنفسه بصوت عالٍ ثم اضاف : « وروحوا علينا احسن ما عندكم ، برنامج البادية ، لكن عسى كيدكم يرتد عليكم » .

وبدأ من جديد ، مع هدير الموسيقى الحاد ، يردد في نفسه : « اخبار هامة ، اخبار هامة » وهو يستعرض في ذهنه ما يمكن ان يعتبر اخباراً هامة ، لم يتصور شيئاً محديداً او ممكناً ، قال وهو يتسهم « الذي يجيني بخبرهم اذبح له خروف واحبه من عينه » .

كان اول الواصلين ابنه نجم :

- سمعت يا وليدي ؟ يقولون بالراديو انتظروا اخباراً هامة ..

- الدبابات يا بويه قتلنا السوق .

- دبابات ؟

- دبابات وجيش وكل بلايا الله .

- وعسى انها فرجت ، يا وليدي ؟

- ما اظنها ، يا بويه ، وقلت اصل البيت قبل ما تنحاس وتتلصص .

ووصل بدر . كان بادي الخوف ، اقرب الى الارتباك ، وقال ان الراديو الكبير الـ RCA الذي عنده ، ومن اذاعات كثيرة ، من لندن وصوت اميركا ، سمع ان احداثاً خطيرة وقعت في موران ؛ وانه كان يريد ان يواصل سماعه ، لكن الجنود طلبوا منه ان يغلق دكانه فوراً وان يغادر .

- يا ابن الحلال امسك الارض لحين ما نشوف دربنا ، ونشوف اللي لنا
والي علينا .

- كل شيء خلص يا بويه ، ومن حلق غنيم لاذني ، وما هي قيل عن
قال .

- والسلطان واولاد خريبط ؟

- صاروا اثرأ بعد عين !

نتحاسب : هذي .. ما هي صوركم ؟ وهذا الكلام ما هو كلامكم ؟ كنتم
تسبحون وتمجدون ، وكنتم تصورون الناس مثل الغنم ، وان الدنيا باقية لكم
للابد « ويضحك بتشف ، وحين يسأله ابوه عما رأى وما سمع يهتاج وتختلط
الصور مع الاحلام :

- غنيم قال لي : كل شيء خلص ، وانا بعيني شفت ، ما تركت مكان
الا وشفته ...

بصمت قليلاً، تتغير لهجته :

- وياكر الدم للركب .

- دم من يا وليدي ؟

- دم الخونة والجواسيس واللقامين والمنافقين واولاد الزواني ، وكل عدو
للشعب ..

- يكفى موران ، يا وليدي ، اللي صار فيها .

- بعد ما صار شيء يا بويه ، وياكر تشوف !

- اللي صار يا ابن الحلال يكفيننا وزود .

- غداً تطلع السجلات ، تطلع الجرايد والمجلات وتتعلق المشانق .

- فال الشيطان ولا فالك ، يا وليدي .

- لا تخف يا بويه ، لقد جاء وقت الحساب .

- خللك من هذه السوالف ، والحساب عند رب العالمين .

كان شمران حزيناً اقرب الى اليأس ، لا يريد دماء او حساباً ، لانه لا يثق
بكل ما يراه حوله ، أما هذا الذي يحدثه عن المشانق والجرائد فانه يضيف الى
حزنه حزناً ، ويجعل يأسه مرضاً لا شفاء منه . ونمر الذي يتحرك مثل بندول ،
ويتطلع حواليه فتراءى له الوجوه والمشاهد فيضحك ويهز قبضته ورأسه
ويتوعد ، وتخرج من فمه همهمات اقرب الى التهديد ، هذه الحركات كانت
تثير شمران اكثر مما تطمثه ، وتستفزه اكثر مما تريحه ، قال لنمر غاضباً :

كان عبد المولى مضطرباً ومتحفظاً أكثر من حماد، أكد للحكيم ان رئيسه غير موجود، ولا يعرف اين، او متى يعود، وحين أكد له الحكيم انه اتصل به قبل ساعة من القصر، نفى عبد المولى معرفته، وصمت. ولما سأله من جديد كيف يمكن العثور عليه او الاتصال به أكد له ان ذلك مستحيل تماماً، وصمت. أما حين صرخ الحكيم بحدة طالباً البحث عنه، فقد رد عبد المولى:

- اذا اتصل بي يا ابو غزوان سابلغه ضرورة الاتصال بك!

الحكيم حائر مضطرب: من الشرفة الداخلية، في محاولة لتأكيد اهميته او عدم اهتمامه. حيث ينتقل من مقعد إلى آخر، أو ينظر إلى الأشجار أو إلى السماء، ثم فوراً، وخلال دقائق، إلى الشرفة الأمامية، يرقب المدخل والكراج وغرفة الحراسة، ويتنصت الى الشارع، ثم عودة أخرى الى داخل البيت، ينظر إلى التلفون بحقد. يريد ان يرى لكن سكوت البيت يزيد هذه الآلة جموداً أقرب إلى الموت.

وبحار الحكيم اكثر. ماذا يفعل؟ هل يبقى جامداً هكذا؟ لو ان وداد الى جانبه لكان أكثر ذكاءً واكثر شجاعة، ولساعدته أيضاً في ان يفعل شيئاً بدل هذا الانتقال الابله بين شرفة وشرفة، بين مقعد وآخر!

قال لنفسه بنوع من الغيظ « طول عمرهم هكذا: مثل السلاحف، يختبئون وراء الصمت والفوضى لكي يخفوا عجزهم ولؤمهم » وتراءت له صورة الامير فتر « المثل الحي والقوي للسحفاة الصحراوية: ساكن، غامض ودائم الصمت لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، حتى السلطان لا يفهمه ». وفكر ان يخرج من البيت، ان يغادره الى اي مكان « اذا كان لهم مزاجهم فانا لي مزاجي ايضاً، ثم لم اعد ولداً ».

وخلال اقل من ساعة اتصل مجدداً بعبد المولى:

- ها، يا ابني، وصل معلمك؟ اتصل؟

- ابدأ يا ابو غزوان.

عصر الخميس ذاته اتصل حماد بالحكيم. كان اتصالاً مرتبكاً قصيراً، وقد اقتصر على امر محدد: « اكلمك من القصر، يا ابو غزوان، ولي العهد الامير فتر يطلب منك ان تبقى في البيت وراح نتصل بك مرة ثانية ».

والحكيم الذي كان في حالة نفسية متوترة، اقرب الى الحزن، وقد توقع وتغنى ان يكون اصداؤه قريين منه، احس لاول وهلة بالراحة وهو يسمع صوت حماد، لكنه بعد قليل احس بالقلق. كان يود لو طالت المكالمة، او لو تخللتها اشارات اخرى اكثر وضوحاً. ثم ان حماد لم يتعود ان يحدثه بهذه الطريقة، قال الحكيم في نفسه: « لا بد ان يكون الامير فتر الى جانبه، ولذلك خجل، لم يكن مرتاحاً او على سجيته لكي يتحدث ويطلب » ولاحظ ايضاً ان الصيغة لا تعجبه، ماذا يعني « ان ولي العهد يطلب؟ هل يقصد ان سموه سيقوم بزيارة للتهنئة؟ كان من السهل ان يقال هذا الشيء بصيغة افضل، بصيغة حضارية، لكنهم بدو، لا يقدرين ولا يعرفون اصول التصرف ».

بعد قليل فكر الحكيم ان يتصل بحماد، لكي يستفسر منه « لان هذه هي المرة الاولى، يا ابو راشد، التي يزورني الامير فتر، ولازم نبيض الوجه بهذه الزيارة »، لكن اين حماد الآن؟ انه يضيع، بعد لحظات من وصوله الى اي مكان، يختفي تماماً. يتذكره حين كان يصل الى قصر الغدير او قصور الخالدية، ما يكاد يغادر غرفته حتى تختفي آثاره. الآن لا يعرف من اي القصور اتصل به.

« لن اسمح لاحد ، في المستقبل ، ان يتعامل معي بهذه الطريقة ، او ان يتكلم بصيغة البرقيات . يجب ان تكون المسائل واضحة ، واضحة تماماً » .
وانتقل مرات ومرات بين الشرفة الداخلية والشرفة الخارجية ، وفي كل مرة يقترب من التلفون يتطلع اليه بحقد ، أما اذا ابتعد فكانت حواسه كلها تتركز باذنيه ، لعله يسمع رنينه .

تنكسر الشمس ، تميل نحو الغروب . تهب نسمة طرية ، يحس الحكيم انه الآن اكثر رغبة لان ينسى ، لان يبتعد عن هذا الهاجس « . . . وكنا في ايام سابقة نخط كم كلمة في الخرطوش ، طلقنا هذه العادة ، والله الحمد ؛ أما النظرية فقد نامت نومة اهل الكهف » وفكر ان يكتب شيئاً عن الأيام الماضية « كانت اياماً كبيرة » وهذا تعبيره بالذات الذي رده عدة مرات امام مطيع ، ولم يتأخر مطيع لكي يستعمله عنواناً لاحدى الافتتاحيات . واستبعد فكرة الكتابة ، وجد انه في وضع نفسي متوتر « الكتابة والانفعال عدوان ، على الانسان ان يكتب بعقل واعصاب باردة ، والا اصبح اقرب الى الشعراء » وأجل هذه الفكرة « كل شيء بوقته حلو » .

البيت فارغ وموحش . لماذا تركتهم يذهبون . ينتقل بين غرفة واخرى . يتطلع الى الاثاث والجدران ، كل شيء يذكر بالذين رحلوا . يحس انهم بعيدون ، بعيدون جداً . لماذا تأخر ؟ لماذا لم يسافر معهم ؟ هكذا سأل نفسه بنوع من المرارة . وفكر ان يكتب رسالة الى غزوان . المشاعر التي يعيشها الآن موحية وغنية ، ولذلك يمكن ان يكتب له رسالة مؤثرة !

تطلع من الشرفة الامامية ، رأى ابا عبد الله يحمل ابريق الشاي ويتجه الى طرف الحديقة . « دائماً الى نفس المحراب » فقرب اشجار النخيل تعود ابو عبد الله ان يقضي ساعات كل يوم . كان يتمدد هناك ولا يفعل شيئاً سوى سماع الراديو . « من يوم ما وصلت هذه العفاريت ، الترانسزستورات ، وهم عابدينها بدل الله . دائماً على اذانهم ، ولو قدروا كان وضعوها تحت جلودهم » . كاد ان ينادي عليه ، ان يتحدث معه ، انه بحاجة لانسان ، لكنه استبعد الفكرة « الواحد منهم عقله افرغ من قلب ام موسى » . واذا كان

- وانت اتصلت ؟ فتشت عنه ؟
- بحثت عنه في كل مكان لكن ما وجدته .
- والحل ؟
- الرأي رأيك يا حكيم !
- طيب ، حاول يا ابني وبلغني بالنتائج .
- امرك يا ابو غزوان !

« هذا الحماد كان لازم يبقى مثل القملة المفروكة . كان لازم يبقى تحت الجزمة ، بمجرد ان تركته ، مديت له الحيل ، افلت ؛ ما عاد راسه يحمله ، صار مثل الثور ، وهذه المرة على من ؟ عليّ ، لكن بسيطة ! » .

وفكر الحكيم ان ينسى ذلك كله : « انا بالاساس مرهق ولازم ابقى في البيت ، واللي يجي اهلا وسهلا » . وحاول ان يتمدد ويستريح ، لكن فجأة تذكر مطيع : « الواحد ما له الا اقرباؤه » واتصل بمطيع . في البيت غير موجود . « خرج بعد اتصال تلفوني » في المكتب « غير موجود طلب الى القصر » وحاول بكل الوسائل ان يعرف اين هو او من طلبه فلم يظفر الا بمعلومات زادته تشويشاً . قال له سكرتير مطيع « بدأ بكتابة الافتتاحية ، وحوالي السادسة اتصلوا به من القصر فذهب ، ولا نعرف اي شيء آخر يا حكيم » .

واتصل بنادية :

- انا عايز حماد يا نادية ولازم اتصل به ، وين ممكن يكون ؟
- علمي علمك ، يا عمو .
- ما قال ما حكى وين هو ؟
- ابدأ يا عمو ، مثل عادته دائماً !
- طيب يا نادية اذا اتصل خليه يتصل بي فوراً .
- حاضر ، يا عمو !

واتصل بناذية من جديد . قالت ان حماد لم يتصل ولا تعرف اين هو او متى يعود . قال لها ، وبدا مرتبكاً :

- ما قال لك شيء يا عمو ؟

- ابدا !

- وانتِ ما سمعت شي يا نادية ؟

- مثل شو يا عمو ؟

- يعني هيك .. هيك .

- ما فهمت يا عمو .

- طيب ، طيب يا نادية ، انا موجود في البيت ، فاذا اتصل او رجع خليه يتصل بي .

- حاضر يا عمو ، تصبح على خير !

ودارت الدنيا بالحكيم : « هل يحتمل ان تكون الطائرة سقطت بالسلطان ولم يسمع بذلك ؟ هل تعمدوا ان يخفوا عنه الخبر لكي ينقلوه اليه على مراحل ، والى ان يهبأ نفسياً ؟ ولكن هل يتم ذلك عن طريق الراديو وان يكون هو مثل جميع الناس؟ » وتراءى له أن وداد وسلمى والسلطان وجميع الذين كانوا على الطائرة اصبحوا رماداً وتناثرت جثثهم على مساحات كبيرة من الارض او ربما سقطوا في البحر . ضرب طرف الطاولة فاهتزت واهتز الراديو فوقها . قال لنفسه بنوع من التحدي « ماذا لو ذهبت الى القصر ؟ » واحس بالاهانة ، كيف يمكن ان ينسوه او ان يؤجلوا دعوته ؟ حماد من هناك اتصل به ، ووعد ان يتصل مرة اخرى ، لكن شيئاً ما شغله . حتى مطيع دُعي للقصر ، وهو هناك منذ ساعات فهل يعقل ان ينسوه او ان يتعمدوا عدم دعوته ؟ والامير فخر ، هل هناك علاقة بين زيارته المتوقعة بين لحظة واخرى والاخبار الهامة ؟ والسلطان .. هل تم الاتفاق معه على كل شيء ؟

وحاول ان يتصور كل انواع الاخبار المهمة الممكنة : تصور زيادة رواتب الموظفين ، وتصور زيادة القروض التي تعطى لبناء المساكن ، وسلف الزواج ،

الحكيم قد اعتمد في ثقافته على المصادر والامهات ، او كما يقول لنفسه « ذهبت اليها في مظانها » فانه يعتبر الراديو وسيلة مبتدلة للثقافة ، وتذكر القصص التي انتشرت في حران قبل سنين حول الامير خالد المشاري والراديو ، فابتسم وهو يتابع خطوات ابي عبد الله المحاذرة .

بين السابعة والثامنة بدأت تتناهى الى سمعه اصوات بعيدة . قال لنفسه « Moran .. ويوم الخميس » وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف : « وربع » .

وهو يتنصت ، وكان يقف على الشرفة الامامية ، رأى ابا عبد الله مهرولاً ، والراديو على اذنه . كانت نظراته والتفاته متسائلة . تطلع الى الحكيم بطريقة غريبة ، قال الحكيم في نفسه « مهبول واخذته سحبة عتابا » انحنى قليلاً على الشرفة وسأل مداعباً :

- ها ، يا ابو عبد الله ، موال او عتابا ؟

تطلع اليه من تحت وهز رأسه نفيماً . سأله من جديد برخاوة :

- لازم يكون شروقي ؟

- لا هذا ولا ذاك يا ابو غزوان !

- احك لنا شو سامع ؟

- يقولون اخبار هامة .

ورفع ابو عبد الله صوت الراديو الى اقصى ما يستطيع عندما انقطعت الموسيقى وتوقع ان تعاد اذاعة البلاغ الذي ما انفك يذاع بين فترة واخرى . لما سمع الحكيم انتفضت حواسه كلها واعتراه الارتباك . « اخبار هامة ؟ ماذا يمكن ان تكون ؟ وهو .. ايسمع الاخبار من الراديو ؟ ايكون آخر من يعرف ؟ » .

ومن جديد بدأ بالتلفون : حماد لم يتصل ولا يعرف اين هو ، كما ابلاغه عبد المولى . أما مطيع فلا يزال في القصر ولا يعرف متى يعود . واتصل بالامير ميزر ، لكن لا احد يرد على التلفون . أما حين اتصل بقصر الغدير فقد انتظر طويلاً قبل ان يتلقى جواباً . كان الجواب قبل ان يسأل : « اتصلوا يوم السبت » .

الكلمة الأخيرة لم تعجب الحكيم ، لكن لم يكن مستعداً للرد عليها ، خاصة في ذلك الوقت . وفكر ان يركب الكاديلاك السوداء ويسوقها بنفسه ، وان يذهب بجولة في موران ، وان يمر على رئاسة جهاز الأمن والسلامة ، سيجد حماد او احد معاونيه ، وهناك لا بد ان يعرف كل شيء ، لكن هذا الخاطر لم يغره كثيراً « سواقتي من فترة ، وفي الليل شيش بيش » .

بعد انتظار وتردد قرر ان يتصل مرة اخرى بحمداد . عبد المولى لم يكن موجوداً ، كان مكانه شخص آخر ، وحين سأله الحكيم عن اسمه وعن صفته ، رد عليه بخشونة : « صديق » ولم يصف كلمة واحدة . وحين طلب منه الحكيم ان يبلغ عبد المولى او حماد انه اتصل اکتفى بكلمة واحدة ايضاً : « زين » .

أما حين اتصل بمكتب مطيع فكان الجواب انه لا يزال في القصر ، وحين سأل عن اخبار العالم اکتفى مدير المكتب بان قال :

- الاخبار عندكم يا ابو غزوان !

وضحك .

لا يدري الحكيم متى انقطع خطه التلفوني ، فبين التاسعة والتاسعة والنصف ، وبعد تفكير عميق وتردد وانتظار قرر الاتصال بقصر السعد ، وان يتحدث مع ولي العهد مباشرة ، خاصة وان أبا عبد الله الذي تشبه عيناه عيني قط ، بدا خائفاً مرعوباً حين دخل على الحكيم وابلغه ان دبابه تقف بالقرب من القصر ، وان الجنود نهروه عندما حاول ان يستوضح منهم ، وامروه ان يدخل بيته فوراً والا فسوف تطلق عليه النار .

بعد الكثير من الحركة والانتظار والقلق ، صدر في العاشرة البلاغ التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

« ايها الشعب الكريم

« بعدما آلت اوضاع البلاد الى الحالة المؤسفة الراهنة ، والتي تمثلت

وشطّ به الخيال وتصور احتمال اعلان زواج الامير فتر ، خاصة وان اليوم هو الخميس ، وتصور ان تكون هناك مفاجأة هيئت له ، وقد تم الاتفاق عليها مع السلطان ، على ان تعلن بعد سفره ، كأن يُسمى وزيراً او ان يعهد اليه بمهام جديدة . ولا يعرف لماذا فكر ان تمنح مجموعة من الاوسمة الى عدد من الشخصيات المهمة ، و « ان الجماعة الآن في القصر يتباحثون حول الوسام الذي يجب ان يعطى للدكتور صبحي المحملجي ، تقديراً لخدماته لسلطنة موران . . وطبيعي ليس من المناسب بحث هذا الامر بحضوري » .

كل خاطر يمر كالشهاب في ذهنه ، لا يتوقف ولا يتكرر ، كما انه لا يملك اي دليل لنفيه او لتأييده . انه حائر الى أقصى حد ، حائر وموزع ، ولا يعرف كيف يتصرف . وما يزيد في حيرته ايضاً انه لا يستطيع ان يتحرك « قد يأتون كلهم دفعة واحدة ، وعلى رأسهم الامير ، وقد تجري حفلة تقليد الاوسمة هنا ، في قصر الخير ، زيادة في التقدير ، وقد يطلب مني الامير ان اقوم نيابة عنه بتقليد بعض الاوسمة » ولام نفسه انه سمح لرضوان بمغادرة موران بعد ظهر ذلك اليوم لحضور زفاف احد اقربائه قرب الرجبة . لو كان رضوان الى جانبه لكلفه ببعض المهمات ، أما سواق القصر فانه لا يرتاح اليهم . كان من السهل على رضوان ان ينبش حماد او مطيع وان يأتي بهما ايها كانوا . يعرف كيف يصلهم ، والجميع يعرفونه . « أما هذا الأهل (يعني أبو عبدالله) فلا يمكن ان يكلف بشربة ماء ، ولولا انه بهذا الشكل لما أمنت ان يبقى داخل البيت ! » .

وفي كل مرة تعاد اذاعة البلاغ حول الاخبار الهامة تزداد حيرة الحكيم وتتضاعف ، كما يزداد تردده في الاتصال باحد للاستفسار منه .

حماد لم يتصل وكذلك مطيع . ناديه لم تتصل . وفكر ان يتصل بسعيد او رضائي ، ومرّ بذهنه طيف بدري المدلل ، ويتذكر اللحظة الأخيرة عند الطائفة ، قال له ابو مصباح وهو يبتسم :

- لا يكون لك فكر ، يا أبو غزوان . انا مع الجماعة في النهار . . وفي

الليل !

الذي وضعه الى جانبه فلم يدر ابو عبد الله اكان سلاحاً للدفاع عن النفس او اداة ليقتل بها نفسه ، وعندما نَحَى الساطور ، وحاول ابعاده صرخ فيه الحكيم صرخة افزعته ، بحيث وقع منه كأس النعنع الذي صنعه للحكيم لكي يخفف من حرارته ولكي يهدئه .

عند ظهر الجمعة جاءه معاون حماد، ابغاه بكثير من الهدوء ان يستعد للسفر ، بناء لاوامر من القصر ، وان امامه ساعة واحدة لكي يكون في المطار . .

لا يستطيع الحكيم ان يتذكر جميع التفاصيل . سمع ما قاله معاون حماد بكثير من الرزانة ، لكن دون انتباه ، ولم يفهم سوى كلمة واحدة : المغادرة . قال له اشياء اخرى لكنه نسيها كلها . ربما قال له ساحل العاج او جزر القمر ، او ربما قال له كوريا أو موريا، ويتذكر أنه سمع مالطا، أيضاً، المهم يجب ان يكون في المطار خلال ساعة واحدة ، وقيل منع التجول .

وضع الحكيم في حقيبة صغيرة الاقلام كلها واختار الدفاتر السبعة، وفكر لو يأخذ القفطان الاسود ، لكنه تردد ثم صرف النظر .

ثلاثة من رجال الأمن رافقوا الحكيم الى المطار . حين مروا قرب جامع السلطان خزعل قال احدهم :

- بعد اليوم موران ماها لا حرامية ولا طبول ، واللي ما انقص رأسه هالحين انقص لسانه .

ارتحف الحكيم ، نظر الى الجهة الثانية لكي لا يرى الحشد ، ولا ماذا يجري . أما بعد ان ركب الطائرة ، وبعد ان جلب له المضيف كأس الماء الذي طلبه فقد تناوله بيد مرتجفة ولأول مرة يشعر أن الماء له طعم لذيد، ألد من أية مرة سابقة .

بالاسراف والاهمال والعجز والابتعاد عن الطريق السوي ، وبعدما استعرض اصحاب السمو ابناء المغفور له السلطان خريط هذه الاوضاع ، فقد قرروا بالاجماع تنحية السلطان خزعل وتسمية الامير فخر سلطاناً لموران .

لدقائق بدا نمراً عاجزاً عن فهم الكلمات التي سمعها ، كان مرتبكاً مذهولاً ، وقد زادت في ارتباكته تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه ابيه . وبعد ما كرّر المذيع قراءة البيان عدة مرات قال شمران :

- دائماً . . العجلة من الشيطان !

قال نمراً وكأنه يحدث نفسه :

- لا بد وان يكون هناك خطأ ما !

وقبل ان تنتصف تلك الليلة كان قد القي القبض على اولاد شمران الثلاثة، أما صالح ، الذي تعود ان ينام مع الخيل ، فلم يسألوا عنه ولم يهتموا بامرهم ، او ربما قبضوا عليه دون ان يعرف أحد . ورغم ان شمران ثار وشم ، وحاول ان يلجأ الى العنف ليمنع اعتقالهم ، فان الاولاد الثلاثة كانوا من رباطة الجأش ، وحتى تفهم الاسباب ، ما جعلهم يمنعون اي شيء اسوأ .

صحيح ان شمران لم يستطع ان ينام لحظة واحدة . وظل ينتقل بين السطح وباب الدار ، الا ان فكره مع تقدم الليل ثم اقتراب الفجر ، اصبح اكثر صفاء ، اذ زايله الانفعال وبدأ ينظر الى الامور نظرة مختلفة ، قال لنفسه : «كلها كم يوم ويردون» أما زوجته التي نامت، او تظاهرت بالنوم، فقد نهضت ، مثل عاداتها ، عند الفجر ، لتعد الحيز ، ولتبدأ يوماً جديداً .

وحين سأله ان كان الاولاد قد عادوا ام لا ، فقد رد وهو يحاول الابتسام :

- لا تخافي ، يا ام نمراً ، يرّدون ، اذا ما هو اليوم اللي عقبه !

أما تلك الليلة ، والصبح الذي تلاها ، وحتى الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة ، فلا يتذكر الحكيم كيف احتملها وظل حياً ، فقد تناوب عليه الخوف والبكاء والمرضى ، وسمع اصواتاً ورأى اشباحاً ، او هكذا خيل اليه ، بحيث كان متأكداً انه سيموت قبل ان تشرق الشمس . أما ساطور اللحم

- وكل الله ، يا وليدي ، ولا تخف .

زيدان الذي فتح مقهاه ولم يفتحه ، خلال ساعات التجول ، اذ ترك الباب موارباً ونصف مفتوح ، كان يريد ان يرى الناس ، ان يسمع اخبارهم ، وكان شديد الخوف ان يكون بعض اصدقائه ، خاصة صالح وتمر ، وربما شمران ، قد تعرض للاذى ، أما وهو يرى شمران داخلاً المقهى فقد هجم عليه وعانقه بحرارة وكأنه لم يره منذ وقت طويل ، سأله عن صالح وسأله عن تمر ، رد شمران وهو يتسم :

- اولاد شمران الثلاثة ضيوف ابن المطوع ، قال لهم انتم ضيوفنا فضافوه !

وهز رأسه عدة مرات ثم اضاف :

- كم يوم ويردون !

وبعد قليل ، لكن بحزم :

- شباب ويحملون ، ياكلون الصخر . . .

وتغيرت لهجته تماماً :

- خوفي ، يا ابو جاسر ، على صالح ، شيبة ، وما يحمل . . .

وتغيرت لهجته مرة اخرى ، بدت اقرب الى التأمير :

- واذا ابن المطوع ما ظفر به ليلة امس لازم ندبره ، ولازم يغيب عن العين

كم يوم ، لانه مثل ما قالوا جماعتنا : احفظ راسك اذا تغيرت الدول !

- الحق اللي تقوله يا ابو تمر . . .

وبعد قليل :

- وعندي مخزن ، يا ابو تمر ، مثل جب يوسف ، العفاريات تضيع فيه ،

فاذا دخله ابن الرشدان موران كلها تدوره وما تلقاه .

في هذا الجو ، واثناء دخول بعض الناس ليسألوا او ليعرفوا ، جاء من قال

ان صالح الرشدان أخذ من بيته قبل ان يؤخذاي انسان آخر. قال شمران بألم :

سمح بالتجول اربع ساعات يوم الجمعة ، من العاشرة حتى الثانية .

لبس شمران ثيابه واراد ان ينزل الى مقهى زيدان ، لكن احد رجال حماد ، وكان مرابطاً عند الباب ، ابلغه ان حده المسجد ، واسلم له ان لا يتعداه . واذا كان شمران قد نسي شتيمة في الليلة الفائتة فلم ينس ظهيرة الجمعة . لم يكتف بالشتائم ، استعمل يديه الاثنتين وساقه اليمنى في التعبير ايضاً ، وطلب من الرجل ان يبلغ حماد كل كلمة سمعها ، وان يضيف اليها ايضاً ما يشاء من الشتائم ؛ والرجل الذي بدا خائفاً او محرجاً قال كلمة اقنعت شمران وجعلته يبدأ قليلاً ، قال له في لحظة صمت ، بعد الانفعال الجامح :

- يا ابو تمر ، افهم كل اللي تقوله ، بس انا عبد مأمور !

هز شمران رأسه بلوعة وكنم غيظه . بدا له ان معركته ستكون صغيرة وتافهة ان اقتصر على الرجل الذي امامه ، يريد رأساً ليحاربه ، يريد حماد او من هو اكبر منه ؛ واذا لم يكن اليوم ففي يوم آخر . تطلع في اكثر من ناحية وكأنه بهذه النظرات يصرف غضبه ، يدفعه بعيداً . فجأة . وبلهجة ابوية ، وان لم تخل من السخرية ، سأل الرجل :

- واذا شمران راد ينزل للسوق ينزل او يبقى حرمة في البيت ؟

رد الرجل بارتباك :

- يا عمي شمران ، يا ابو تمر ، الدنيا اليوم تغيرت ، والاحسن ان الواحد

ما يعرض نفسه للتهلكة !

احس شميران من الكلمات المبعثرة ، من النظرات الخائفة ، ان الأمر يعنيه قبل ان يعني اي انسان آخر ، ودون انتظار او سؤال ، اندفع . وزيدان الذي اندفع وراءه ، تاركاً باب المقهى مفتوحاً ، تداخلت أفكاره واختلطت : « نمر بن شميران ؟ اخوته ؟ احد آخر ؟ » .

كانت الصلاة قد انتهت في جامع السلطان فنر ، هكذا سمّاه امام المسجد ، بدلاً من مسجد السلطان خزعل . وكانت حلقة الناس التي تحيط بالساحة من كل الجوانب ، تتراجع وتتسرب بعد ان شهد الكثيرون تنفيذ الحد « باللصوص » الذين قطعت ايديهم . وشميران الذي كان يتراكمس ويتطلع بالوجوه لم يكن يعرف هل يبحث عن احد ام انه مجرد حب الاستطلاع ، ومع ذلك كان يمتلئ غيظاً وحقداً .

قال كل من كان في ساحة السلطان خزعل ، ورأى شميران هائجاً مثل جمل ، ان يَمَامَ المسجد لم يكن يقل عن شميران هياجاً ، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماماً ، كما لم يفعل من قبل ، ويصفق باجنحته وتصدر منه اصوات وحدها كانت ، وصوت شميران ، تملأ الساحة . وفي لحظة معينة ، عندما انتزع شميران غترته وعقاله ، واخذ يلوح بهما ، وكأنه يهزج اويهدد ، كان اليمام فوق رأسه يشاركه ، كان يسفّ ويحلّق ، أما حين اخترق شميران الناس مثل سهم ، وأفسح له الكثيرون الطريق لاشعورياً ، ووصل الى وسط الساحة ، والتقى بصالح ، فقد صرخ صرخة ملأت الاسماع :

- ديار الظالمين تاليها الخراب . . وحنا واياهم والزمان طويل .

كان صالح يلبس عباءة شتوية تغمره كله وتزيد عليه ، ولم يكن يظهر منه سوى وجه مقدود مثل خشب النخيل ؛ كانت عيناه تملآن هذا الوجه ، أما عندما هجم عليه شميران وغمر وجهه في صدره ، في عباءته ، وتطلع اليه ، فقد التمعت العينان المشرقتان الكبيرتان الحازمتان ، وترافقت التماعة العينين بهزات عديدة من الرأس ، وقالت كل شيء ، وحين سأله شميران ، بكلمات متلعثمة ، هل حدث شيء ، هز صالح رأسه نفيماً . ولما تطلع اليه من جديد ليتأكد ، بدأ في عباءته ، قوياً معافى اكثر من اية فترة سابقة .

- راح يطلعوا فيه الاول والثالي ، يا ابو جاسر .

وزفر ثم اضاف :

- لكن الموت مع الناس رحمة !

- وكل الله ، يا ابو نمر ، لان موران ما تتغير ، والنفس تظل نفس ، وينأخذ بثاها ولو بعد أربعين سنة .

- كل شي تغير بموران يا ابن الحلال ، وحما اكثر واحد تغير .

- بس موران ما تتغير .

- نشوف !

ورغم ان شميران قد سمع الاذان فانه لم يتحرك . كانت تشغله امور اخرى ، كان يفكر ان يمر على بيت صالح ، ان يأخذ بعض الاشياء وان يترك لهم بعض المال ، وكاد ينهض حين رأى زيدان مشغولاً ، لكنه أجّل ذلك الى ان تنتهي الصلاة ، وفكر ان يكون زيدان معه لكي يشعر اولاد صالح ان لهم اعماماً كثيرين . قال لزيدان الذي كان يستفسر من احد « البلابل » عما حصل :

- ورانا يا زيدان زيارة اللي ما ماتوا !

وحين تطلع اليه زيدان مستغرباً عبارته ومتسائلاً ، تابع شميران :

- اولاد صالح بربابنا يا مبارك ، ولازم نمر بهم .

ويكثر من الحرص صرف زيدان « البلبل » ، وطلب منه ان يمر في اليوم التالي ، لان لديه الآن اشغالات هامة . . « وتعرف . . بعد ساعة يبدأ منع التجول » .

فجأة ، مثل انطلاق رصاصة بطريق الخطأ ، انفجر الاطفال والصبية امام مقهى زيدان ، وكأنهم بشكل غريزي عرفوا الصلة ، وبكلمات متداخلة متلعثمة قالوا ان شيئاً هاماً وخطيراً ، يعني المقهى وناس المقهى ، يجري قرب المسجد .

في الليل ، وزيدان يحاول ان يتغلب على الصمت الثقيل الذي ران على الرجال المحيطين بصالح ، والذين اصرروا أن يكونوا الى جانبه في ذلك اليوم ، اذ تحدث زيدان في امور كثيرة ، فقد اكد انه سيكون فخوراً وسعيداً اذا عاونه صالح في عمل المقهى ، رد صالح ، وكأنه يخاطب شمران بالذات :

- ومثل جعفر الطيار ، يا ابو عمر ، اذا راحت اليمنى الثانية متينة وتدق زين !

رد شمران بيأس :

- اذا عمّت المصيبة هانت ، يا صالح .

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه :

- اول الغضب جنون وآخره ندم ، ونعيش ونشوف وبعدها نسولف ، او اللي يجون عقبنا يسولفون !

قبل أن ينقضي الصيف اعيد تشكيل الحكومة، اصبح حماد وزيراً للداخلية ومالك الفريخ وزيراً للمال ، أما مطيع فقد اصبح مستشاراً للاعلام في القصر . وفي بداية الخريف اقيمت غرفة للصناعة، وانتخب رضائي رئيساً لها ، أما الغامدي فقد استمر في غرفة التجارة ، وجاء راتب القتال نائباً للرئيس . وغزوان جاء الى موران ثلاث مرات خلال هذه الفترة ، وبدا لكل من رآه انساناً مختلفاً عن المرة السابقة ، وقد التقى السلطان في كل المرات التي جاء فيها لكن لم يشر في الصحف الى ذلك ، كما انه ألغى عدداً من مواعيده، او الزيارات التي كان ينوي ان يقوم بها في آخر لحظة، لضيق الوقت !

وقبل ان ينقضي الخريف اطلق سراح بعض الذين اعتقلوا ، وكان بين هؤلاء بدر . أما عمر ونجم فقد بدا ان اقامتها ستطول ، وهذا ما اكده بدر لابييه ايضاً ، ولذلك وطّن شمران نفسه الا ينتظر والا يتوقع . عاد الى مقهى زيدان ، وعاد الى نفس الوضع الذي كان فيه من قبل . وصالح الذي وافق على ان يعمل في المقهى ، بعد عدة اسابيع من الالحاح والرجاء ، عاد انساناً مختلفاً : الشتيمة جزء من العمل ، ومن يعترض يمد اليه يده : دليلاً قوياً حاسماً على انه يجوز له ما لا يجوز لغيره . والذين عرفوا صالح وتعودوا عليه من قبل، لا يتساءلون ولا يترددون في تأييد ما يقول ، اما الذين جاءوا حديثاً الى مقهى زيدان ، او « البلابل » فقد كانوا ينظرون بدهشة وتساؤل عن « هذا الذي لا يخاف وما عنده لحية مشطه » . وزيدان الذي يشعر بالخرج ، ويحاول

أما حين بدأ الخريف ثم جاء بعده الشتاء فكان يجب :

- تراهم بالغور الصافي ، وهناك دفا وعفا !

وبعد قليل وبحزن قاس :

- ويرجعون !

كان يمكن لشمران ان يواصل انتظاره وترفعه ، اذ بعد ان امتنع عن زيارة ابنه ، خلافاً لما فعل الكثيرون ، بعد ظهر كل جمعة ، ومنع زوجته ، معتبراً ذلك لا يليق بأبي منهما ، وكلف بدر زيارتهما وتأمين ما يحتاجان إليه ، إلا أن تلك الجمعة ، في نهاية الشتاء ، وبعد زيارة قصيرة للسجن ، لم يسمح لبدر خلالها بادخال الملابس والأكل ، وقد رأى كيف تورم وجه نجم وازرق في عدة مواضع نتيجة الضرب والتعذيب ، ونقل بدر لأبيه ما رأى ، كتم شمران غيظه ولم يتكلم ، أما في اليوم التالي ، في المهفي ، وحين رأى شداد داخلأ ، فقد قال بغیظ اقرب الى السخرية :

- الملك لله يا ابو غانم ، ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم !

كان يريد ان يبلغ حماد رسالة عن طريق عمه ، وحين هز شداد رأسه وابتسم ، وبعد ان تبادل التحيات مع شمران والآخريين ، قال كأنه يرد على الكلام الذي سمعه :

- زيارة فاتحة يا ابو نمر ، قصيرة وتنقضي !

- تراها طالت يا ابو غانم .

- تقضي ، ولا تحف يا ابو نمر .

- الخوف مات بقلوبنا يا ابن الحلال ، لكن ما عاد بنا صبار !

وهز شمران رأسه عدة مرات ، وكأنه يفكر او يتذكر ، ثم هدر صوته :

- تذكر جماعتنا ، يا ابو غانم ، بالسوق ، شلون قالوا وشلون سولفوا .

تنحج وتابع :

ان يحمي صالح في نفس الوقت ، كان يتّوع اجاباته حين يُسأل عن هذا الذي يقال او يسمع في المهفي ، والذي تناقله الآخرون ايضاً : « صالح من ذاك اليوم صار مثل ميزان الجزر ، اختل ، بايع وغلّص وما يلزم ان الواحد يسمع كلامه » أما الذين يرفضون ان يصدقوا مثل هذا الادعاء ، وكانت لهم صلة بلجهاز ايضاً ، فكان يقول لهم محذراً «خذوا بالكم ، يا جماعة الخير ، ترى صالح واصل ، واصل لفوق فوق ، ويريد يجتبركم ويورطكم ، والاحسن لكم : لاشفنا ولا سمعنا ، وهذه نصيحة اخ لاخ ! » .

وصالح الذي لا يترك صغيرة او كبيرة ، لا يقوى على البقاء في المهفي ، ان يظل مربوطاً او محبوساً ، خاصة اذا لم يجيء شمران . كان يترك المهفي الى الدكاكين المجاورة ، وبعض الاحيان لا يتردد في ان يذهب بعيداً . وزيدان الذي يحس ان ابتعاده افضل من وجوده لا يعترف ولا يريد تبريراً للبعد او الغياب ، فقط يريد الا يتورط اكثر وألا يحصل له اكثر مما حصل . وصالح الذي يسمع ما يقوله زيدان لشمران حول سلوكه ، يعلق ساخراً :

- يا جماعة الخير . مثل ايام السوق ، اتركوا صالح يقول اللي ما تقدرتون عليه .

ويوافق شمران بهزات رأسه ، بل ويعتبر ان موقف صالح في منتهى الصواب . يلتفت الى زيدان ويعلوصوته :

- يا ابو جاسر : سألوا فرعون من هو اللي فرعنك ؟ قال : ما لقيت احداً يردني ؛ فاذا ظلمنا مثل الغنم ترى يا كلونا وما يوفرونا .

وبعد قليل وهو يزفر :

- واذا خفنا كلنا خل واحد يتنفس عن اللي في قلوبنا ، خله يحكي ، خله يقول .

وظلت موران تدور . فاذا سئل شمران عن ابنايه ، ان خرجوا من السجن ام لا كان يجيب حسب الجو ، ان كان الجو حاراً يجيب :

- بجبل سمعان ، وسلطان ذبك الديرة يقول لهم انتم ضيوفنا ويلزم تظنون ؛ وانتم تعرفون الضيف اسير المعزب .

تابع شمران وكأنه لم يسمع :
- وهذا اللي تشوفه عيونك يا ابو غانم نهاية الزمان ، وان غداً لناظره
قريب !

قال زيدان من مكان بعيد :
- وبين غمضة عين وانتباهتها
يغير الله من حال الى حال .
وبعد الكثير من الالحاح استطاع شداد ان يقنع شمران بمرافقته لكي يقوموا معاً
بزيارة الى حماد ، وهذه الزيارة كفيلة بالافراج عن نمر ونجم . وشمران الذي
بدا رافضاً ثم متردداً لم يستطع ان يقاوم طويلاً ، خاصة حين تدخل زيدان
واصدقاء آخرون ، قال شداد ليؤكد هذه الموافقة :
- نتقهوى وناخذ اولادنا ونمشي .

فوجيء شمران بالصمت الذي يخيم على الوزارة ، ظننا أول الامر
خالية ، اشته بمقبرة ، لكن وهو يرى بعض الرجال في الممرات ، يخرجون
ويدخلون ، فقد تراءى له انهم مجموعة من الخرسان او السائرين في نومهم .
تطلع اليهم وتطلع الى شداد ، أما حين وصلوا الى غرفة عبد المولى ، بعد
ان مروا عبر عدة غرف ، فقد رحب بهما الرجل كما يرحب للصمصوم بعضهم ببعض ان
التقوا ليلاً قبل بدء العمل : كان يتكلم بصوت لا يكاد يسمع ، وكان يرد
باستمرار على تلفونات لا يُعرف متى رنت او كيف ، فاذا انتهى لا يكف عن
إعادة ترتيب الأوراق . لام شمران نفسه كثيراً أنه جاء ، وشعر بالاشمئزاز وما
يشبه الرهبة ، لكن صخب شداد وطريقته في التصرف جعلته ينسى ولا يقيم
وزناً لكل ما يرى .

بدا حماد ودوداً ومتحفظاً حين دخلا عليه ، وظل وراء مكتبه وانشغل اكثر
من مرة بالرد على التلفون . حين اصبح مستعداً لسماعها قال له عمه
بمداعبة خشنة :

- يا وُل يا حماد هذي موران وهذون ناسها ؛ و اشار الى شمران وتابع :

- قالوا انه في نهاية الزمان ما تلقى الا اولاد الحرام ، والسفلة ،
والاوباش ، والنهابين ، وحفاري القبور . وما تشوف الا السفاحين
والقوادين والسماصرة ، وينبع من جوا القاع اللثام واصحاب القراطيس السودا
والخصيان والمدنشين بالناشين وحاملي الاختام واصحاب الشفاعة وكتاب
السلطين . وقبلهم تشوف المنجمين وفتاحي الفال واللي يرقصون الحيايا
ويحلبون العصافير ، وهذون وغيرهم ما لهم شغل الا يطيون ويضطبون على
الاكتفاف ويوسون اللحى . . ويقولون : عنز ولو طارت .

وهز رأسه دلالة المرارة وتابع بنبرة جديدة :

- اي نعم . . وفي نهاية الزمان يملا الارض الايتام والارامل والمجانين
والحشاشين والدررايش والهاربين من الظلم ، وتمتلىء الشوارع بالجوعانين
والمظلومين ، وتصير البلاد من اولها لتاليها سجن كبير فيصبح الداخل مفقود
والخارج مولود ، لكنها ما تدوم .

. . . رفع صالح يده المقطوعة بفخر وقربها من وجه شداد ، وقال بسخرية :
- تشوف عينك ، يا ابو غانم ، هذا من كرم الاجاويد اللي يسولفسك
عنهم ابو نمر .

تنحج شمران وخرج صوته حاداً اقرب الى النزق :

- وتعرف يا ابو غانم . . في نهاية الزمان ما يتميز بين الابيض والاسود ،
بين الحلال والحرام ، ويكثر في ذلك الزمان الانبياء الكذابين واللي يحملون
الحرق والاعلام . . ويظهر الاعور الدجال .

. . . واللي يتولون الامر ، اللي يحكمون ويرسمون ، في نهاية الزمان ، يا ابو
غانم ، يصيرون تنابل وما يعود بقلوبهم شفقة او رحمة ، ويظنون انهم معمرين
مثل نوح عليه السلام ، ويطلقون ازلامهم يقتلون وينهبون ، لكن اذا جاءت
النازلة أنكر الابن اباه والعبد مولاه ، وسلحوا على ارواحهم ويكوا فزعاً ولعنوا
الأقربين والأبعدين وقالوا ليتنا كنا نسياً منسياً !

قال شداد المطوع ليطيب خاطره :

- وكل الله يا ابو نمر ، وانشاء الله ما يصير الا الخير .

رد حماد بحدة :

- يا عم . . نجم وجماعته يريدون دمنا ، وهذا الكلام ما هو قبيح عن
قال ، انا باذني سامعه ، واذا كنا مستعدين ان نتسامح مع عمر ، ونقول عفا الله
عما مضى ، اذا سكت وتأدب ، فسالفة نجم شيء ثاني !
تطلع الى شمران وابتسامه متسائلة تملأ وجهه . ثم التفت الى عمه
وسأل :

- شنهو قولك يا عم؟

قال شمران وهو يقف :

- مشينا يا ابو غانم .

وخطا . أما شداد فقد قال وهو ينهض :

- يا ول يا حماد ترى الدنيا ما هي يوم ولا اثنين ، وخاف تندم .

قال شمران وقد اقترب من الباب :

- كل واحد له حق يصله ، وخلي عمر يونس اخوه يا حماد . . ونشوف !

واستمرت موران تسمع وتتوقع وتنتظر !

انتهت

كانون الثاني ١٩٨٥

والدم ما يصير ماي .

ابتسم حماد ولم يجب ، تابع شداد :

- قم حب راس عمك شمران وقل له سامحني .

رد شمران :

- اذا ردت تضحك على الرجال بوس لحاها !

وتغيرت لهجته وهو يضيف :

- اللي صار بينا يا ابو غانم ما يتسى .

والتفت الى حماد وتابع :

- ما دمنا جينا انا وعمك شداد نريد نذبحها على قبلة ، اذا كان الاولاد

مذنين فذنبهم على جنبهم ، شباب ويتحملون ، واذا كانوا ابرياء فكل شيء له
نهاية .

ضحك حماد بصخب في محاولة لان يتغلب على الحرج ، وبعد ان هدأ
وخيم الصمت تنحج ثم قال دون أن يرفع عينيه :

- القضية بالنسبة لتمر سهلة ، اذا اعطانا تعهد ان ييلع لسانه ، ان لا
يقول كلمة واحدة ، ويترك الحكومة وسوالفها . . . يطلع . . .

وصمت فترة لكي يختبر رد فعل شمران او ليعرف جوابه ، فلما لم يجب ،
تابع بلهجة مختلفة :

- أما سالفة نجم فسالفة ثانية .

ولم ينتظر ، سحب من درج مكتبه ملفاً كبيراً وبدأ يقلبه وهو يهز رأسه ،
وبعد ان خيم الصمت فترة غير قصيرة ، قال شداد :

- اتركنا من القراطيس وبحر بي زين يا حماد .

رفع حماد اليه وجهاً صلباً ومنتظراً ، تابع :

- اللي قالوا لك يكذبون يا حماد ، ونجم ما مثله .